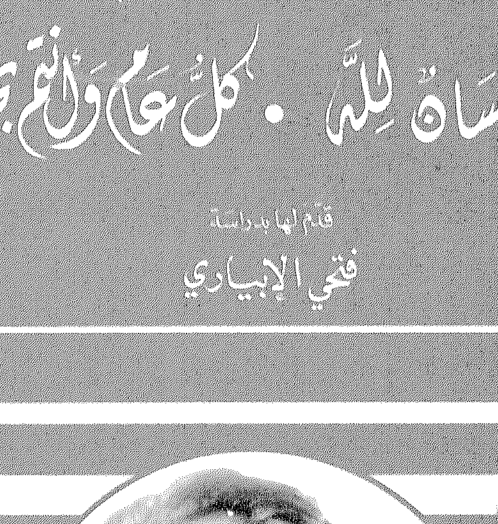
الصفوة

محمود تيمور

نداء المجهول . سلوى في مهب الريح
إحسان لله . كل عام وأنتم بخير

قدم لها بدراسة
فتحي الإبياري



الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

الصفوة

نداء المجهول . سلوى في مهب الريح

إحسان لله . كل عام وأنتم بخير

الصفوة

محمود تيمور

نداء المجهول . سلوى في مهب الريح
إحسان لله . كل عام وأنتم بخير

تدقيق وضبط
إدارة النشر العربي

قَدَّمَ لها بدراسة
فتحي الإبياري

الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١٠ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

يطلب من : **شركة أبو الهول للنشر**

٣ شارع شواربي بالقاهرة ت : ٣٩٢٠٦٠٨ ، ٣٩٢٤٦١٦

١٢٧ طريق الحرية (فؤاد سابقا) - الشلالات ، الإسكندرية ت : ٤٩٢٤٨٣٩

الطبعة الأولى ١٩٩٥

رقم الإيداع ١٩٩٣/٧٥١٩

الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧-١٦-٠١٤٧-٤

طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة



المحتويات

كَلِمَةُ النّاشِرِ

سَليل أسرة عشق أفرادها العِلم وخدمة البحث العلمي ؛ فوالِدُه ، العَلامة المحقِّق أحمد تيمور ، أفنى حياته وماله على التُّراث العربي ، فانكبَّ عليه جمعًا وتحقيقًا – وآيةُ ذلك آثارُه ، المخطوطُ منها والمنشور ، و « الخِزانة التَّيمورية » في « دار الكتب المصرية » . وعمتُه الأديبة الشاعرة عائشة التَّيمورية ، التي أسهمتْ بنصيبٍ وافر في النهضة النِّسائية الحديثة ، والتي لَمع نجمُها في عالَم الأدب العربي في عهد خلَت ساحتُه من الأديبات المُبدِعات . وشقيقه الشّاعر القاصُّ الكاتب المسرحي أبو المسرح المصري – محمد تيمور . ...

ثَرُّ الأفكار ، غزير الإنتاج متنوِّعُه ، رَحْبُ الأفق ، ذو قدرةٍ خارقة على التَّحليل النَّفّاذ للنُّفوس ، والتَّشريح الدَّقيق لأدقِّ المواقف و وُجْهات النَّظر . يسعى في كتاباته نحو النَّفس البشرية ، دون التَّقيُّد بزمان أو مكان ، أو مذهب دون مذهب .

تفرَّد بحسٍّ مُعْجَمِي وبراعةٍ لُغَوية ، أخضعهما لتوظيف اللَّفظ الملائم للموقف القائم .

ذلك هو شيخ القصَّة العربية – محمود تيمور .

نلتقيه في صَفْوة أعماله : « نداء المجهول » و « سلوى في مهب الريح » و « إحسان لله » و « كل عام وأنتم بخير » – قام مُحرِّرو إدارة النَّشر العربي بالشركة بتدقيقها ، وتحريرها ، وتعليق الهوامش ، و شرح ما غَمَضَ من ألفاظها ، وضَبْطِ مواطن اللُّبس منها بالتَّشكيل .

وتتصدَّر هذه الأعمالَ الأربعة دراسة عميقة عن أدب محمود تيمور بصفة عامَّة ، وعن هذه الأعمال المحدَّدة بصفة خاصَّة – قام بإعدادها أديب ناقد كان قريبًا منه ، ولصيقًا به – هو الأُستاذ فتحي الإبياري .

وجدي رزق غالي

مديـر النشـر العربي

الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان

مدخل لدراسة محمود تيمور
بقلم فتحي الإبياري

١- نشأته وحياته : ١٨٩٤ - ١٩٧٣

يرى بعض النقاد أنه لكي تستمتع بعمل فني لأديب من الأدباء - ينبغي أن تكون ملما بالعالم الخاص والعالم الذي عاشه ذلك الأديب ؛ لأن هذا من شأنه أن يتيح لك فرصة أكبر للاستمتاع بعمله الفني . وعالم تيمور الرحيب ، فيه من الأسرار والأشياء ، ما يفسر كثيراً من إنتاجه القصصي والروائي ؛ فما هو هذا العالم ؟ وما هي ملامح شخصيته الخاصة ، والأدبية ؟ وما هي نظرته إلى عالمنا بعد أن مارس كتابة فن الأقصوصة ، والرواية ، والمسرحية ، والدراسات الأدبية ، والاجتماعية ، والنقدية ، وأدب الرحلات ، طَوال أكثر من نصف قرن ، باستمرار ، وإصرار ، حتى آخر لحظة من حياته ، بحيث أصبح شيخ القصة العربية ؟

ولد محمود تيمور في ١٦ من يونيه ١٨٩٤ في « درب سعادة » بالقاهرة (خلف مديرية الأمن الآن) ، وهذا الحي أصيل في شعبيته ، يجمع أشتاتاً من الطوائف والفئات ؛ إذ هو حافل بالصُّنَّاع ، والتجار ، وأرباب الحرف المختلفة ، وفيه تتوهّج التقاليد ، والعادات ، والخصائص التي تتبلور فيها الشخصية المصرية في المدينة .

وقد قضى تيمور في هذا الحي عهد الطفولة وجانباً من عهد الصِّبا : اختلط بأهله ، ولاعب أولاد الحارة ، وعامل أصحاب الدكاكين المجاورة ، واستمع إلى أحاديث الأهلين ، صباح مساء . و وقعت عيناه على شخصيات ، وأحداث ، فيها العاديُّ المألوف ، وفيها الطريف العجيب ، وفيها المضحكات المبكيات .

ثم انتقلت أسرته إلى ضاحية « عين شمس » فعاش هناك حياة ريفية بكل ما للريف من أوضاع ونُظم . وبعد ذلك عادت الأسرة إلى القاهرة ، فسكنت حيَّ الحلمية ، وهو حي وطني كان يقطنه في ذلك العهد فئات من العلماء ، والموظفين ، وذوي الجاه ، وكان له طابعه في النماذج البشرية التي يموج بها .

وفي أثناء ذلك كان يقصد إلى الريف ، ليقضيَ الإجازات الصيفية ، وهناك عاش مع الفلاحين حياتهم المألوفة : يَلَذُّ له أن يختلط بهم ، ويسمر معهم ، ويزاول ما يزاولون من أعمال .

هذه الحَيَوات المختلفة ، في تلك البيئات الشعبية ، والوطنية والريفية ، كانت ينبوعاً تروّى منه محمود تيمور ما استطاع . ولا ريب في أن كثيراً من صور تلك الحيوات وأحداثها ، وشخوصها قد ترسّب في أعماق وجدانه ، وأنه كان مدداً له ، استعان به فيما كتب من قصص ، وما رسم من مناظر وأبطال .

وفي هذا يقول محمود تيمور : « .. والحق أني لو تصورت أولئك الذين رسمتُ صورهم في كتبي القصصية ، وقد مسّتْهم نفحة الحياة - لانطلقوا يتلمّسون طريقهم إلى مواطنهم : هذا يخطر إلى << درب سعادة >> ، وهذه تسأل عن أهلها في << عين شمس >> ، وذلك يطرق بيته في حي << الحلمية >> ،

وتلك تطلب العطار ليبلغ بها ساحة القرية .» (١)

هذا فيما يتعلق بالناحية الظاهرة من حياته – ناحية البيئة التي نشأ فيها ، والظروف التي أحاطت به . أما فيما يتعلق بالناحية الباطنة ، أي المزاج النفسي ، والأفق الفكري – فإن محمود تيمور يقول:

« عندما ألتفتُ خلفي مكتشفاً ماضي حياتي ، أرى أربعة عوامل أساسية قد عملت في تكويني كاتباً . الأول : والدي أحمد تيمور ، والثاني : محمد أخي ، والثالث : حوادث خاصة كان لها تأثير في تحويل مجرى حياتي ، والرابع والأخير : مطالعاتي .

« فوالدي جدير بأن يكون قد أورثني مؤهلات الكتابة ، وقد تعهدني منذ النشأة ، وحبّب إليَّ المطالعة والتأليف .

« وأخي هذّب ذلك الحب وأذكاه . وحوادثُ حياتي ثم مطالعاتي هي التي عيّنت لي تلك الوجهة التي أترسّمها الآن في حياتي الأدبية .» (٢)

وقد أثّر كتاب « ألف ليلة وليلة » في محمود تيمور تأثيراً كبيراً ؛ لأنه رأى فيه التراث الذي يساعد القصّاص على إنماء موهبة التخيُّل ؛ فالخيال هو العامل الأساسي في التأليف القصصي ، وبدونه يكون القصاص عاجزاً عن الخلق ، والابتكار ، فتخرج آثاره سطحية لا تزيد قيمتها على تدوين الحوادث الجارية .

ولَمّا تهذّب ذوقه في المطالعة ، أقبل بشغف على قراءة « المنفلوطي » ، وقد كانت نزعته الرومانسية الحلوة تملك عليه مشاعره ، وأسلوبه السلس يسوسه . يقول محمود تيمور في ذلك : « .. وكل إنسان في أوْج شبابه تطغى عليه نزعة الرومانسية والموسيقى ؛ فيصبح شاعراً ، ولو بغير قافية، وقد يكون – أيضاً – شاعراً بلا لسان .»

وكان نصيب الشعر وافراً في مطالعاته ، الشعر بنوعيه العربي والأجنبي ، وخاصة شعر المعاصرين . وكان يفضّل منه غالباً ما كان خياليا مغرقًا في الخيال . وكانت مدرسة المُهاجَر التي أنشأها اللبنانيون والسوريون في الأمريكتين قد بسطت نفوذها على الأدب المصري ؛ فشُغف بها محمود تيمور كل الشغف ، وخاصة بزعيمها « جبران خليل جبران » ، ذلك الشاعر الرمزي المغرق في الرمزية . وكان كتاب « الأجنحة المتكسرة » أول كتاب حظي منه بأوفى حب وتقدير ، فتأثرت به كتابات محمود تيمور ، وكان معظمها من الشعر المنثور ذي النزعة الرومانسية .

وعاد شقيقه محمد من أوربا ، محمّلاً بشتّى الآراء الجريئة ، وكان يتحدث بها إلى محمود الذي استقبلها بعاطفتين لا تخلوان من تفاوت : عاطفة الحذر ، وعاطفة الإعجاب . .

وكانت أمنية شقيقه التي يرغب في تحقيقها هي إنشاء أدب مصري مبتكر ، يستملي وحيه من دخيلة نفوسنا ، وصميم بيئتنا .

وهناك نقطة حوّلت حياة تيمور إلى وجهة معينة ، هي الوجهة الأدبية ؛ إذ أصيب بمرض التيفوئيد ، وكان إذ ذاك في العشرين من عمره . اشتدت وطأة المرض عليه ، فلزم الفراش ثلاثة أشهر، قضاها في ألوان

(١) محمود تيمور : فرعون الصغير . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٣٩ . ص ٥ . (٢) المرجع السابق ، ص ٦ .

شتى من التفكير ، وأخلاط من الأحلام ، واستطاع أن يهضم الكثير من الآراء التي تلقاها من أخيه ، أو التي استمدها مما قرأه في الكتب .

ولما شفي محمود تيمور من المرض أراد استئناف دراسته الزراعية العالية ، لكنه لم يستطع لضعف بنيته ، فعاش فترة من الزمن متعطلاً ، وأطلق لنفسه عنان الحرية – شيئاً ما – فخرج عن الكثير مما يقيّده من تقاليد الأسرة وعاداتها .

وعندئذ شعر بميل شديد للأدب ؛ فرسم لنفسه دراسة شبه منظمة ، وخصّص لها وقتاً معيناً من يومه ، فكأنه أراد بهذه الخطة استكمال النقص الذي لحقه من انقطاع دراسته العليا .

إن حادثة المرض كانت بداية طور جديد في حياته الأدبية ، نقله من دور التردد إلى دور اليقين ، ومن دور الإلمام والهواة في التحصيل إلى دور الجد فيه والاستيعاب .

وفي سنة ١٩٢٠ تزوج محمود تيمور ، ويقول عن ذلك الزواج : « ... لم أر زوجتي[1] قبل الزواج ، ولكني أصررت على أن أرى صورتها . ولما رأيت صورتها أعجبتني جدًا ، وصرت أتساءل عن شخصية صاحبة الصورة الجميلة ، وطريقة حديثها ، ورسمت لها في خيالي صورة رائعة ، ولكني لم أسرف في التفاؤل كثيراً . وفي يوم كتْب الكتاب ، رأيتها ، وتحدثت إليها لأول مرة ، فوجدتها أجملَ وأرقَّ من الصورة التي رسمتها في خيالي بكثير . وأخذنا نلتقى كثيراً بعد كتْب الكتاب وقبل الدُخلة . وكانت هذه الفترة هي فترة اختمار للحب الذي عشته بكل عواطفي وكياني طول عمري . وتزوجتها ، وأحسست أنها حبي الأول والأخير ، وكانت كذلك. كان حبها الأولَ والأخير ، وكانت هي زوجتي . هي الأولى والأخيرة . وبعدها ختمتُ قلبي بالشمع الأحمر ، ولم أحبَّ سواها .»

وشاء القدر أن يلفظ محمود تيمور أنفاسه بين يديها ، وهو في لوزان بسويسرا ، في ٢٥ أغسطس ١٩٧٣ ، وبعد عدة أعوام لحقت به زوجته في عالم الخلود ..

وكان محمود تيمور يستنير في مطالعاته بهداية شقيقه محمد ، فنصح له فيما نصح بمطالعة « حديث عيسى بن هشام » للمويلحي ، ورواية « زينب » للدكتور محمد حسين هيكل؛ فرأى فيهما لوناً يختلف عن اللون الرمزي الرومانسي الذي كان غارقاً فيه – لوناً واقعيا يهبط بالقارئ من سماء الخيال العليا ، حيث يعيش الناس كالملائكة فوق الضباب ، إلى الأرض التي نحيا عليها ، حيث نرى الناس بشراً مثلنا ، على فطرتهم التي خلقوا عليها .

واتّسعت مطالعاته فيما بعد في الأدب والقصص الأوربي ، واحتفظ لـ « موباسان » بالمكان الأول في نفسه ، فكان عنده زعيم الأقصوصة الأكبر . و « موباسان » في نظره كان فنا كاملاً توفرت فيه كل العناصر اللازمة لبناء قصة قوية : من حيث عرض الموضوع ، ومعالجته ، وتحليل شخصياته ، وتسلسل الحوادث وخواتمها . كل ذلك في وضوح واتّزان. يقول محمود تيمور: « ولا أذكر أني قرأت له قطعة لم تهزّني .»

ثم انتقل محمود تيمور بعد ذلك إلى القصص الروسي ، وقرأ « تشيكوف » و « تورغنيف » ومن ماثلهما،

---

(١) زوجة محمود تيمور هي السيدة زينب ابنة ذو الفقار باشا ، وأنجبت له نازلي ، وحورية ، وابنه الوحيد سعيد .

فرأى تأثير « موباسان » واضحاً في بعض إنتاجهم . وانتهت الحرب ، وأصاب الناحية السياسية، والاجتماعية ، والاقتصادية ، كثيرٌ من التغيُّرات ، حتى الأدب ؛ فقد اصطبغ باللون المحلي الصارخ ، ورأى الأدباء أنفسهم يتجهون نحو الواقع ؛ فأصبحوا عمليين بعد أن كانوا شعراء خياليين ، وشاع المسرح المحلي ، وخاصة الهزلي منه ، وانتشر الاقتباس ، وبدأ الابتكار على حين تضاءلت الترجمة .

في هذا الجو كتب محمد تيمور أقاصيصه « ما تراه العيون » ، وقد نحا فيها المذهبَ الواقعي، وصوَّر فيها مناظر مختلفة من بيئتنا المصرية وأشخاصها . صاغها أقاصيص جمعت بين فنٍّ مبتكر ، وأسلوب سهل شائق .

فأعجب بها محمود تيمور إعجاباً دفعه إلى أن يؤلف على غرارها ؛ فكتب باكورة إنتاجه في القصة « الشيخ جمعة » ، ثم أردفها بأقصوصة « يُحفظ بالبوستة » . وكان قد أهمل الشعر المنثور؛ فاندفع يكتب مترسِّماً في كتابته المذهب الواقعي ، وذلك بتأثير الجو الجديد الذي يعيش فيه ، وما كان يقرؤه من قصص على هذا المذهب ، وكان لا يحفل بالأسلوب احتفاله بتصوير الواقع .

وفي يوم ٢٤ فبراير ١٩٢١ ، مات شقيقه « محمد » وهو في ميعة شبابه ، وتألُّق أمانيه . وشعر محمود تيمور بعد موت شقيقه بانهيار أمله الكبير في إنشاء أدبٍ مصري جديد ، وكثيراً ما كان يحدثه عنه في حماس ويقين . دهمه اليأس ، ورأى نفسه أضعف من أن يخلفه فيما كان يبشر به؛ فخلد إلى السكينة ، وقد توقَّع الفشل .

ولكن عجلة الحياة راحت تسير في طريقها ، لا يعنيها من أمور العالم إلا استكمال دورتها ؛ فأخذت الجروح تندمل ، وإن كانت الذكرى باقية بقاء الروح في الجسد . يقول محمود تيمور : « .. رأيت نفسي قد نشطتْ للعمل ، واستجمعت من ضعفي قوة ، تقدمت بها في ميدان التأليف ، وقد انطلقت أنفض عني اليأس ، وأقصي شبح الفشل ، معتمداً على نفسي ، مهتدياً بهدْيِ شقيقي الراحل ، فكنت أعمل وكأني مندفع بباعثٍ من واعيتي الباطنة إلى استكمال ما كانت تصبو نفس شقيقي إليه لو أتيحت له الحياة . وكنت أحس أنني بهذا العمل أرضي روح شقيقي وأقرئها واجبَ التحية والإجلال .»

وفي عام ١٩٢٢ أصدر محمود تيمور كتاب شقيقه المرحوم محمد تيمور « وميض الروح » ، وفيه مقدمة عن سيرة شقيقه ، وتحليلٌ لبعض أعماله الأدبية .

وفي عام ١٩٢٥ ، رأى محمود تيمور أنه قد تجمَّع عنده مادة من القصص يصح إظهارها في كتاب، فطبَع « الشيخ جمعة وقصص أخرى » ، ثم توالت بعد ذلك المجموعات . وسافر في تلك الفترة إلى أوربا ، ومكث بها حيناً يزيد على العامين ، قضى معظمه في سويسرا . وهناك تفرَّغ للقراءة ، واتَّصل بالأدب الأوربي الحديث اتصالاً مباشراً. وهناك صادفته مرئيات ومناظر هزَّت نفسه ، وتغلغلت في صميم قلبه ، واتسعت خبرته بالحياة ، ورأى على ضوء مطالعاته الجديدة وفهمه لنظرات الأدب العالمي – أن اللون المحلي ليس كل شيء ، بل هو بعض الشيء ، وما الأدب الكبير إلا أن يولِّيَ الأديب وجهه شَطر النفس البشرية .

فحوَّل اتجاهه نحو هذه الوجهة ، محاولاً التقدم فيها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . واعتقد محمود تيمور أن الأديب يجب ألا يُقيِّد نفسه في التأليف بمذهب أدبي يتمذهب به ؛ فالأدب ميدان فسيح ، على الكاتب أن يمرح فيه طليقاً ، فلْيرسل روحه على سجيتها ؛ فما المذاهب الأدبية إلا من صنع النقاد لا من صنع الأدباء ،

صنعوها لينظّموا بها فنهم ، ويخضعوه لقوانين منطقية .

ويرى محمود تيمور أن حالته الصحية كانت في مقدمة الأمور التي أثّرت في مجرى حياته . يقول: « منذ الصغر ، والعلل تتردد عليّ حتى ألفتها ، وأصبحتْ غير غريبة عني . منذ سنين طويلة وأنا في رقابة الطب : في مأكلي ومشربي ، وفي نومي ويقظتي . سنّ لي هذا الجبّار قوانين لا أستطيع الخروج عليها ، فأنا أعيش من مرضي في قفص ، أنظر إلى الأصحاء من الناس يستمتعون بكامل حريتهم ، فأغبطهم ، وتنالني حسرة أليمة .

« وهكذا كنت أحس في أعماق نفسي بنقص يعجزني عن الاستمتاع بما ينعم به غيري ، هذا النقص دفعني وما زال يدفعني إلى أن أستكمل في الخيال ما عجزت عن إتيانه في الواقع . ومع ضعف صحتي ، وما نالني من مرض – أجد نفسي قد تخطيت السادسة والستين ، وما زلت حيا أرزق ، فأعجب لذلك و أقول : ‹‹ لسّه لك عمر ! ›› »

وفي عام ١٩٤٣ صُدم محمود تيمور صدمة عنيفة بوفاة ابنه سعيد ؛ فقد كان يُكنُّ له كل الحب والتقدير ؛ إذ كان مثالاً للطاعة والأدب ، والعلم ودماثة الخلق ، وكان في العشرين من عمره عندما أصيب بأزمة مفاجئة في المصران الأعور ، ولم تكن هناك وسيلة للعلاج ، فمات بين يدي والديه في لحظات . ولم يصدق والده ، ولم تصدق والدته أن يحرما من ابنهما في لحظة . يقول محمود تيمور : « وكانت تلك هي الحادثة الثانية ، التي صبغتْ حياتي بلون قاتم ، ولا تزال ذكراه في قلبي وعيني ، ولا أزال أذكره كلما رأيت شابا مستقيماً ، طيباً ، على قدر كبير من العلم والأدب ، والطاعة مثل ابني سعيد . والحمد لله على كل حال . »

وقد أثرت هذه الحادثة العنيفة في حياة تيمور فزهد الدنيا ، والقراءة ، والكتب ، وقرر التخلص من مكتبته ، وسافر هو وزوجته إلى أمريكا ، حتى يمكنه أن ينسى ما حدث ؛ لأن وجوده في البيت يذكّره كل لحظة بابنه . وهناك في أمريكا استطاع أن يستعيد توازنه ، فراح يكتب رسائل من قلبه ودمه إلى ابنه سعيد ، وكأنه ما زال حيا . وتجمّعت هذه الرسائل في كتاب « أبو الهول يطير » فكان قطعةً من قلبه ، و وجدانه .

وفي يوم ٥ إبريل ١٩٤٧ اجتمع أعضاء مجمع الخالدين بدار الجمعية الجغرافية ، للاحتفال بتتويج المجمع لإنتاج محمود تيمور القصصيّ باللغة العربية الفصحى ، و وقف محمد فريد أبو حديد، مقرر المجمع ، ليقول :

« اختار المجمع اللغويُّ في هذا العام من بين المبرزين في القصة ، الأستاذ الكبير محمود تيمور، فأهداه جائزة القصة إشارة منه إلى هذا المعنى ، ثم اعترافًا بما للأستاذ الكبير من أثر محمود في فن القصة في أدبنا الحديث . »

وفي عام ١٩٤٩ اختاره المجمع عضواً فيه ، واستقبله الدكتور طه حسين بقوله : « فإذا قيل إنك أديب مصريٌّ ، ففي ذلك غضٌّ منك . وإذا قيل إنك أديب عربيٌّ ، ففي ذلك تقصير في ذاتك . وإنك لتوفّى حقك إذا قيل إنك أديب عالميٌّ ، بأدق معاني الكلمة ، وأوسعها ، وأعمقها . ولا أكاد أصدق أن كاتباً مصريا – مهما يكن شأنه – قد وصل إلى الجماهير المثقفة ، وغير المثقفة ، كما وصلت أنت إليها ؛ فلا تكاد تكتب ، ولا يكاد الناس يسمعون بعض ما تكتب – حتى يصل إلى قلوبهم ، كما يصل الفاتح إلى المدينة التي يقهرها فيستأثر بها الاستئثار كله . »

وقد حصل محمود تيمور على عدة جوائز ، وأوسمة ، وشهادات تقدير من مصر والعالم : ففي عام ١٩٥٠ أهدته الدولة جائزة الآداب عن كتابيه : « إحسان لله » ، و« كل عام وأنتم بخير » . وفي عام ١٩٥١ فاز بجائزة أحسن كتاب شرقي تُرجم إلى اللغة الفرنسية ، وفي عام ١٩٦٢ منحته الدولة جائزتها التقديرية في الآداب ، كما منحته وسام العلوم والفنون في عام ١٩٦٣ تكريماً لأدبه وتقديراً لفنه .

كما اختاره المجمع العراقي عضواً فيه ، وكذلك المجمع اللغوي المجري ، واحتفلت روسيا بأدبه في مدرسة اللغات الشرقية بموسكو بمناسبة يوم مولده في عام ١٩٦٢ ، وكذلك جامعة بودابست بالمجر .

و ظل تيمور بالإصرار والحب يواصل رحلته الإبداعية ، حتى جاء يوم ٢٥ أغسطس ١٩٧٣ ، فلفَظ أنفاسه بين يدي زوجته زينب ، وهو في سويسرا . وفُجعت الأوساط الأدبية في القاهرة ، والعالم العربي ، بل والأوساط الثقافية في العالم – بانطفاء شمعة هذا الأديب ، شيخ القصة العربية ، بعد أن أثرى المكتبة العربية بما يقرب من تسعين كتاباً : في القصة ، والرواية ، والمسرحية ، والدراسات الأدبية ، واللغوية ، والرحلات ، والخواطر ، والصور الفنية للشخصيات الأدبية التي أثّرت في حياتنا الأدبية [1] .

« نداء المجهول »

يتهم بعض النقاد محمود تيمور بأنه لا يتقيد بمجاله القصصيّ ، وخاصة في « نداء المجهول » ؛ إذ أخطأ في تصوير البيئة المكانية والزمانية للقصة ، حين قال على لسان راوية القصة : « إنه رأى على إحدى الرسائل الواردة إلى الأستاذ كنعان طابعاً سوريا » في حين إنّ سورية في ذلك الوقت كانت ولاية عثمانية ، ولم تستقل عن السلطة ، وتصدر طوابع خاصة بها – إلا في فترة حكم فيصل القصيرة . وذكر هؤلاء النقاد في اتهامهم أن محمود تيمور تحدث عن صحارى شاسعة لا نَقَعُ لها على أثر في لبنان . وهو بالإضافة إلى ذلك يقدر مدة الرحلة بعشرة أيام ، في حين كان باستطاعة الإنسان في ذلك الوقت أن يقطع لبنان ، من الشرق إلى الغرب ، أو من الشمال إلى الجنوب ، في أقلّ من يومين .

وأظن أن هؤلاء النقاد قد أغفلوا قراءة السطر الثاني في أول القصة ، فقد كتب محمود تيمور « إن لبنان وقتئذ كانت تحت السيادة التركية » ، وكان لسورية في ذلك الوقت طابع خاص . وربما لا يعلم هؤلاء النقاد أن محمود تيمور قد سافر إلى لبنان فعلاً للاستشفاء ، ومكث في فندق يشبه تماماً الفندق الذي صوره في القصة ، وصادف بعض الشخصيات و احتكّ بها مدة إقامته في لبنان ، والتقط من أفواه اللبنانيين – الذين قاموا معه بجولة في ربوع لبنان – قصة الفجوات الكثيرة المنحوتة في الجبال ، وقالوا له : « إنها كانت مخابئ لبعض الرهبان والمتصوفين الذين هربوا من الاضطهاد ، وكانوا يعيشون في هذه الفجوات بعيداً عن أعين الملحدين .

ومن ثم فإن ادعاء بُعد محمود تيمور عن التقيد بمجاله بعيد عن الصواب ؛ فهو – فعلاً – قد عاش في لبنان ، واحتك بشخصيات « نداء المجهول » . أما دعوى أن الإنسان كان يستطيع أن يجوب ربوع لبنان في يومين فقط – فهذا لا يقلل من شأن المجال القصصي ؛ لأن الإطار الرومانسيّ للقصة قد أسقط هذا الاتهام

(١) فتحي الإبياري : عالم تيمور القصصي . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦ . ص ٦٨ ، ٦٩ .

الضعيف من تلقاء نفسه .

وقصة « نداء المجهول » ذات حبكة متماسكة ؛ إذ قامت على حوادث مترابطة ، وسارت في خط مستقيم ؛ ففي الصفحات الأولى مهّد محمود تيمور لأحداثه بالتقاء جميع شخصيات القصة في « فندق الأمان » ، و وضع أمامهم قصة « القصر المسحور » ، فكانت كالطُّعم الذي جذبهم إلى القيام بمغامرتهم الخطيرة . وعن طريق هذه المغامرة تسلسلت أحداث القصة بدون افتعال ، حتى مفاجآتها كانت طبيعية ، مثل سقوط أبطال القصة في سرداب القصر ، والتقائهم بيوسف الصافي .

وقد اعتمدت حبكة قصة « نداء المجهول » على حكايتين : الأولى تمثلها « مس إيفانس » – تلك المستشرقة الإنجليزية التي طُعنت في قلبها فارتادت لبنان ليلتئم الجرح ، وهناك سمعت بقصة يوسف الصافي وحبيبته صفاء . أما الأخرى فهي تصف حب يوسف لصفاء التي خطبت إلى غيره؛ فاتفق الحبيبان على قتل نفسيهما ، ويقتلها يوسف في ليلة الزفاف ، ويعجز عن قتل نفسه كما وعد حبيبته ، ويفر إلى الجبل ليعيش في القصر المسحور . وقد أثرت القصة الثانية تأثيراً كبيراً على القصة الأولى ؛ فقد دفعت « مس إيفانس » إلى القيام برحلتها الجنونية ، واشترك معها محمود والشيخ عاد ، والدليل مجاعص ، وربطت القصة الثانية تلك الشخصيات برباط وثيق ، وكانت سبباً مباشراً في الصراع المستمر بين محمود و « مس إيفانس » حول الحب ، وصراع مجاعص مع الخوف ، وصراعهم جميعاً مع الموت حين كان يترقبهم كل لحظة من لحظات رحلتهم ، وبذلك اعتبرت حبكة القصة حبكة مركبة؛ إذ اعتمدت على حكايتين تداخلت كل منهما في الأخرى .

أما طريقة عرض حوادث القصة ، فقد لجأ محمود تيمور إلى طريقة الترجمة الذاتية ، حيث بدأها بضمير المتكلم ، و وضع نفسه مكان البطل حين يقول و « سافرتُ إلى لبنان سنة ١٩٠٨ ؛ لأروّح عن نفسي ، وأنعم بفترة هدوء وبِعد عن صخب الحياة .» وقد استطاع محمود تيمور أن يفلت من سقطات هذه الطريقة ؛ لأنها تغري الكاتب وتجعله يُقحم نفسه في تعبير شخصيات القصة عن أنفسهم، فيجعلهم ينطقون بلسانه هو ، لا بلسانهم و وفق طبيعتهم ، وبذلك يحوّل الكاتب شخصياته إلى بوق ، يعلن فيه آراءه وأهدافه . لقد نجح تيمور وتغلّب على هذه العقبة ، وترك الحرية كاملة لكل شخصية من شخصيات نداء المجهول ؛ لتعبر عن أحاسيسها وخلجاتها ، ولم يُقحم نفسه ، ولم نحس بأنفاسه من وراء تصرفاتهم وأقوالهم .

وقد توالت الحوادث في تلك القصة ، خلال عشرة أيام ، وكان الإيقاع التيموريُّ واضح السمات ؛ فمحمود تيمور دائماً يقدم لنا عمله الفني على هيئة أمواج تتحرك بنظام خاص ؛ لتؤدي إلى تأثير معين . وهذا التغيُّر التموجيُّ في القصة هو الذي يُسمّى بالإيقاع .

وقد بدأ الإيقاع في قصة « نداء المجهول » هادئاً خافتاً : فالشخصيات بدأت تتعرف على بعضها، وأثارتهم قصة « القصر المسحور » التي دفعتهم إلى موجة أخرى ، هي موجة بدء الرحلة ومغامرتهم في الجبال ، ثم إلى وصولهم للقصر ذاته ، وهنا أسرعت الموجات ، وأصبحت هادرة أثناء سقوط شخصيات القصة داخل الشبكة ، وإطلاق الرصاص على الشبح الذي ظهر أمامهم . وهكذا كان محمود تيمور يدفع بالقارئ فوق أمواجه الهادئة والصاخبة ليصل في النهاية إلى الهدف .

أما شخصيات القصة فقد عالجها محمود تيمور بالطريقه التمثيلية ، فقد نحى نفسه جانباً ليتيح لشخصياته أن تعبر عن نفسها ، وتكشف عن مكنوناتها النفسية بأحاديثها ، وسلوكها الخاص . ولأن القصة من « قصص الترجمة الذاتية التي تبدأ بضمير المتكلم » فعلى الكاتب في هذه الحالة أن يبتعد عن شخصياته ، وألا يدسّ أنفه في كل لحظة ؛ بل يترك لشخصياته أن تكشف عن نفسها بواسطة الاعتراف وتداعي الأفكار ، والمراجعة الداخلية ، وعن طريق أحاديث الشخصيات الأخرى عنها ، وتعليقها على أعمالها ، تماماً كما كانت تفعل الجوقة في المسرح الإغريقي ، فهي تعلق على الحوادث وتوضح خطوط سيرها ، وتبرز نتائجها الخلقية .. فإلى أي حد نجح تيمور في رسم شخصيات قصة « نداء المجهول » ؟

« مس إيفانس » المستشرقة الإنجليزية : « كانت في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ، هادئة القسمات ، لا تزال نضرة الشباب تتخايل على وجهها الجميل . وكانت قليلة الكلام ، محبة للعزلة ، لا تبادلنا في فترة الأكل إلا بضع كلمات بلغة بين الفصحى والعامية . وكثيراً ما رأيتها تقضي الساعات الطوال على مقعدها ، تنطوي نظراتها على عزم ونشاط وإرادة تخالطها وداعة محببة، وهي تحدِّق بعينيها الزرقاوين الحالمتين في الوادي البعيد الممتد تحت قدميها .»

وقد جاءت « مس إيفانس » إلى لبنان ليلتئم قلبها من جرح عميق ، اعترفت به لمحمود حين قالت له : « لقد وثِقت بدنياكم هذه فأودعتها أعز ما أملك ، أودعتها قلبي ؛ ولكنها ردَّت إليَّ هذا القلب مطعوناً . إني أكره دنياكم .. أكرهها !»

وقد كشف هذا الاعتراف السلوك الخاص الذي كانت تتبعه ، وهو الابتعاد عن الناس ، وأنها أصبحت « امرأةً بلا قلب » ، فارتمت في أحضان الفلسفة الصوفية ، لتصل إلى فهم هذا الوجود، وقد كشفت عن هذا – أيضاً – في قولها « قد تعترض المرءَ في تاريخ حياته حادثةٌ واحدة ، تحوِّل خط سيره ، وتحلق به في جو جديد ، يقسره على تغيير نفسيته ، ومن ثم يتهيأ لقبول الحقائق الصوفية بلا مكابرة ولا عناد .»

وعندئذ وجدت في قصة « القصر المسحور » سلوة تدفع بها ملل الحياة كما قالت ، ولكنني أعتقد أن القصة الأسطورية الداخلة في القصة العامة – هي صدًى مجسَّم لقصتها الحقيقية ؛ فيوسف الصافي قتل صفاء ولم ينفذ الوعد ، وهو قتَل نفسه . لقد غدر بها ، كان جباناً ، وهرب إلى الجبال ، واختفى في القصر المسحور. فصفاء المقتولة هي رمز لمس إيفانس ، التي قتِلت عاطفيا ، وأصبحت امرأة بلا قلب ، أصبحت مجرد جسد يتحرك هنا وهناك ، بلا هدف . ولما عرفت « مس إيفانس » بقصة القصر المسحور – جسَّم لها عقلها الباطن يوسف الصافي على أنه حبيبها الذي طعنها في إنجلترا ، وغدر بها ؛ فاشتاقت إلى أن تلتقي يوسف الصافي موهمة نفسها أنها ستلتقي حبيبها الذي طعنها في إنجلترا ، وغدر بها ؛ ولذلك أعدت هذه الرحلة لتخترق بها أستار المجهول ، للبحث عن هذا اليوسف الصافي ، الرجل الأسطوري الذي اختلطت صورته في ذهنها بصورة حبيبها ، تماماً كما اختلطت صورة « مس إيفانس » في ذهن يوسف الصافي – عندما عاد إلى رشده – بصورة حبيبته صفاء ، وحسبها قد جاءت لتقتصَّ منه ؛ لأنه لم ينفذ الوعد.

هذا الأمل في المجهول هو الذي جعل « مس إيفانس » تتحمل مشاقَّ ومخاطر تلك الرحلة الجنونية . ولما التقت يوسف الصافي داخل القصر ظلت بجانبه فترة طويلة تُعنى به وتضمد جرحه ، وكأنها تضمد جرحها

القديم . وكانت تدافع عنه أمام محمود الذي كان يسخر من يوسف الصافي ويسميه بالمخبول المعتوه ؛ بل قالت لمحمود : « إن يوسف الصافي هو الرجل الوحيد الذي فهم سر هذا الوجود ؛ لأنه عاش خمسة وعشرين عامًا وحيدًا في هذا القصر ، يناجي شجونه ، ويتأمل الطبيعة حوله ، فإذا ناله همٌّ أو أصابه ضيق لجأ إلى صلواته متقربًا إلى ربه ، فسرعان ما يعاوده صفاؤه المنشود .»

وقد نجح محمود تيمور في رسم الخطوط الخارجية لشخصية « مس إيفانس » ، واستطاع أن يهيئ لها الظروف والملابسات ؛ لكي تكشف عن أسرار عقلها الباطن ، في حديث سلس لا تكلف فيه مع محمود .

والشخصية الثانية في القصة التي أثارت انتباهي ، والتي استحوذت على قلم محمود تيمور في صفحات كثيرة ، ولم يتمكن من الإفلات منها ، ولم يستطع أبطال القصة إلا أن يصبحوا لها عبيدًا ؛ بل تعدّى تأثيرها إلى القارئ نفسه ، فقد حلقت بخياله بعيدًا ، في عالم رومانسي حالم على أجنحة الخيال الشفافة – هذه الشخصية هي الطبيعة . جسّمها محمود تيمور ، حتى كدنا نحس بأنفاسها ، كأي كائن حي : « فالجبال الشامخة كانت تحيط بالفندق وبتلك البقعة الوادعة ، كأنها حُرّاس يخفرونها . والوادي البعيد منبسط أمام الفندق بزروعه المختلفة الألوان . وعلى سفح الجبل قطعان الماشية ترعى الحشائش الجافة التي تنبت في جرأة عجيبة بين الصخور .»

ثم يصف ظهور القمر : « وأخيرًا ظهر القمر يعبر قمم الجبال في جلال وانتصار ، يسبح في هدوء غريب، ويبتسم حوله للأكوان معتزًّا بجماله وقوته ، وإذا بالوادي ينفتح عن جوانبه ، ويكشف عن أسراره . وانتشرت همهمة غريبة تكاد تخطئها الأذن ، فهل كانت أصوات بعض الحشرات قد خرجت من جحورها مرحبة ؟ أو هي أصوات كائنات غير منظورة جاءت تشاركنا في استقبال ضيفنا الكبير ؟

« لقد شاهدت بزوغ القمر كثيرًا ، وأعجبتُ به كثيرًا ، ولكنني لم أره قط على هذه الحالة التي رأيته عليها في ذلك الوقت ، ولم أشعر نحوه بذلك الشعور الذي أحسسته آنئذ .»

وهكذا في كثير من الصفحات تطل الطبيعة بأنفاسها ، وتحيط بشخصيات القصة : أحيانًا تُرعبهم وتخيفهم ، وأحيانًا تنقلهم إلى عالم جميل حالم ، وأحيانًا تشدُّهم إلى المجهول في غموض.

أما شخصية محمود ، راوي القصة ، فهي لم تؤثر في الأحداث تأثيرًا واضحًا ، وكانت كعين « الكاميرا » ، سجّلت الأحداث والوقائع في أمانة ، ولكن شخصية « الشيخ عاد » التي رسمها محمود تيمور بإتقان – كانت عنصرًا إيجابيا في القصة ؛ فالشيخ عاد تعوّد أن يظهر أمام نزلائه بملابسه الشرقية البديعة : القفاطين الوطنية ذات الألوان الزاهية ، والْجُبَب الحريرية الفضفاضة الموشاة بالقصب ، يغدو فيها ويروح بمشيته المتزنة الهادئة ، و وجهه الصبيح مشرق دائم الابتسام ، فتخاله سلطانًا من سلاطين ألف ليلة . هذه هي السمات الواضحة الملموسة لشخصية الشيخ عاد ، وقد ساعدته في قيادة الرحلة إلى القصر المجهول ، وكان ذكيا فطنًا ، يعلم كل شيء يدور حوله ، وكان المفسِّر لأي غموض بالقصة ، كما اتضح لنا في الحوار الذي دار بينه وبين محمود في نهاية القصة .

لكن الشخصية التي أضفت المرح والسخرية والتهكم على الأحداث – كانت شخصية « مجاعص »

دليل الرحلة . لقد تعاطف القارئ مع هذه الشخصية طَوال الأحداث ؛ بل إن هذه الشخصية قد رُسمت بإتقان وبراعة وصدق ، بحيث إنها أصبحت من معالم هذه القصة الرومانسية الواقعية . وكان موت مجاعص مفاجأة للقارئ ، أثارت فيه تعاطفه ؛ بل إن هذه الشخصية قد انتزعت الحزن والألم من قلوب القراء على وفاتها ، هذا التعاطف الحقيقيُّ لم يحظ به « يوسف الصافي » ابن أحد زعماء الجبل الذي أحب « صفاء » ، ولم يستطع أن يتزوجها ، فقتلها أثناء حفل زفافها . لقد وعد حبيبته ، بأن يقتل نفسه معها ، لكنه جبن وهرب ؛ وأثار هذا الموقف إحساسات القراء ، فألقوا بسخطهم عليه ، واستطاع محمود تيمور بذلك أن يحيط يوسف الصافي بغموض : هل هو جبان ، أم أنه كان شجاعاً حين حكم على نفسه بالنفي المؤبد في عزلة طوال خمسة وعشرين عاماً ؟ وفي خلال هذه المدة وضع لنا محمود تيمور « يوسف الصافي » في موقف يثير العطف والحنان ، عندما أطلق محمود عليه الرصاص ، وأصبح في صراع مع الموت . ذلك الموقف جعل « مس إيفانس » تتعطف إليه ، وتسبغ عليه من حنانها ، مما أثار الحقد والغيرة في قلب محمود . ولكن بالرغم من هذه الأحداث التي أحاطت بيوسف الصافي – فإن شخصية « مجاعص » كانت عميقة الأثر في النفس ؛ للصدق الواقعيِّ في التعبير عن هذه الشخصية .

أما شخصية الأستاذ « كنعان » فلم تؤثر في القصة التأثير المباشر ، ولم يكن لها دور إيجابي ، فإذا حذفناها لم يختل شيء من البناء القصصي ، وأعتقد أن محمود تيمور ، كان سيهيئ لهذه الشخصية الفرصة لتأخذ دورها الإيجابي في القصة ، ولكنه أقصاها وتخلص منها فوراً بطريقه مرحة حين ذهبت « مس إيفانس » والشيخ عاد ومحمود لإيقاظ الأستاذ كنعان ، فوجدوه – من ثقب الباب – جالساً على سريره يتميز غيظاً ، وهو منهمك في إرسال غطيطه العجيب ؛ يوهمهم به أنه مستغرق في نوم عميق .

وكذلك هذه الرؤيا العجيبة التي قصتها « مس إيفانس » على محمود ، فقالت : « شاهدت رؤيا غريبة ... رأيتُني على ظهر باخرة تمخر المحيط الشماليَّ ؛ وإذا بجبل من الثلج قد ظهر لنا ، فدهمتنا موجة برد عاصف ، كادت تصرفنا عن الخطر الملم الذي يتهددنا .»

وقد ظننتُ أن هذه الرؤيا التي ذكرتها « مس إيفانس » لمحمود سيكون لها أثر فعال في القصة ، أو أنها ترمز إلى أحداث قادمة ؛ ولكن انتهت القصة ولم أر شيئاً من هذا قد تحقَّق . واعتقدت أن تيمور قد ذكر هذه الرؤيا لتعبر عن شيء مجهول في العقل غير الواعي لـ « مس إيفانس » . وعدت لقراءة القصة من جديد ، ولكنني لم ألاحظ شيئاً من هذا . وطفقت أبحث عن تأويل لهذه الرؤيا ؛ ولكنني لم أستطع لأنها كانت غامضة ، ولم تستطرد « مس إيفانس » في الرواية ، فعبارة « كادت تصرفنا عن الخطر الملم الذي يتهددنا » معناها أن الموجة لم تنقذهم ؛ ولكننا لم نفهم – أيضاً – هل اصطدمت الباخرة بجبل الثلج ؟ أيضاً لا نعرف الجواب .

فهذه الرؤيا بوضعها الحالي لم تُلقِ ضوءاً كاشفاً على أحداث القصة كما ظننت ، وأحسب أن الأستاذ محمود تيمور كان يود أن يربطها بالسياق القصصي لـ « نداء المجهول » ، ولكن هذا الهدف لم يتحقق كما كان يرجو ، أو كما أظن ذلك .

والأسلوب في هذه القصة سَلِس ، فقد استطاع محمود تيمور أن يبتعد عن المحسنات اللفظية التي لا تخدم المعنى ولا الهدف ، وكانت الموسيقى الهادئة أحياناً ، والصاخبة حيناً آخر ، تنساب من بين الألفاظ في براعة .

والحوار كان طبيعيا وسلساً ، وهو متغلغل في صميم البناء الفني للقصة . وقد بدا الحوار غامضاً يجذب انتباه القارئ سطراً وراء الآخر .

أما الصدق في القصة ، فيختلف اختلافاً بيّناً عن الصدق الذي نتوقعه في العلوم ، فقد ذكر أحد النقاد أن قصة « نداء المجهول » بعيدة عن الصدق ؛ لأنها تعتمد على حوادث غير واقعية . وأعتقد أن الناقد قد أغفل حقيقة عنصر الصدق في الفن القصصي ؛ فالصدق في الأدب عموماً هو الصدق لما يحتمل وقوعه دائماً في حياة الإنسان على وجه الأرض . أما الصدق في التاريخ والعلم فهو الصدق بالواقع ، الصدق في الفن هو الصدق بالإمكان ، والصدق بالإمكان أكثر شمولاً وأشد عمقاً ؛ لأنه يتناول الحقائق الإنسانية الخالدة في دوافع خفية ، وانبعاثات أصيلة ، وانفعالات وعواطف وميول وأهواء ومبادئ ، تلتقي جميعها في النفس الإنسانية ، وتتفاعل وتتصارع ؛ لتوجهها أخيراً وجهة خاصة ، هي ما نعرفه بالشخصية الإنسانية . الشخصية الإنسانية هي القاعدة الأصيلة الثابتة التي يقوم عليها بناء الحياة الشامخ ، وستبقى خالدة مستمرة ، ما استمرت الحياة على وجه الأرض . وقد قال أحد الباحثين : إن كل ما في القصة حق وصدق عدا الأسماء والتواريخ ، أما التاريخ فكل ما فيه كذب عدا الأسماء والتواريخ[١] .

لذلك استطاع محمود تيمور أن ينجح في التعبير بصدق عن أحداث قصة « نداء المجهول » ، ورسم شخصياتها . لقد ركز محمود تيمور أحداث قصته على عنصر « التصعيد » كما يسميه « فرويد » ؛ إذ قد يحب المرء بكل قوته ، فإذا أخفق انتقل هواه – بضرب من الاستعاضة – إلى حب جنوني ينطلق نحو عالم آخر إلهيٍّ غامض ، يؤمل منه ألا يخدع كغيره . وكان ذلك هو موضوع « نداء المجهول » فهذه الرواية ليست تصويراً لنداء المجهول في كل نفس بشرية فحسب ؛ بل هي – أيضاً وقبل كل شيء – تصوير للانسياق نحو الصوفية حين يخفق المرء في هواه فيصبح كارهاً « لمادية » الحياة في المجتمع و « زيفها » .

إن قصة « نداء المجهول » تُعتبر من القمم الشامخة في أدب محمود تيمور الإنساني الخالص : لا من حيث القيمة والجودة ؛ بل من حيث النوع ؛ لأن كل حال نفسي متصل يقتضي جو#ا كاملاً يُهيأ حوله ؛ ليتم تصويره – جوًّا لا يقوم إلا في رواية كهذه .

« سلوى في مهب الريح »

عاشت « سلوى » في مهب الريح وفي الظلام « ظلام الحياة » كما صورها محمود تيمور . عاشت مع جدها لأبيها في منزلهم العتيق بحي محرم بك بالإسكندرية ، ومع دادتها « أم يونس ». وكانت سلوى في حيرة وقلق كل يوم ؛ لأنها لا تعرف أين هي أمها ؟ إلى أن لمحت لها دادتها « أم يونس » بقصة أمها التي ضُبطت مع عشيق أو حبيب ؛ مما جعل والد « سلوى » يطلقها ، ثم مات بعد ذلك .

واستطاع محمود تيمور أن يوفّق في قصة « سلوى في مهب الريح » ؛ إذ كان خبيراً بلا شك بحياة

(١) محمد يوسف نجم : فن القصة ، ص ١٢٨ .

القصور ، وما يجري داخلها من أحداث ، ولكنه بالرغم من توفيقه في عرض حياة القصور لم يخلُ تصويره لحياة « حمدي » من بُعد عن الواقع : « فحمدي » الشاب الرقيق الحال ، يملك بيتاً صغيراً بحديقة ، ومعه جارية ورثها عن جده – هذا التصوير يكاد يكون بعيداً عن الواقع .

أما حبكة القصة ، فكانت متماسكة ، وكان تسلسل الأحداث منطقيا . وقد استخدم محمود تيمور في عرض أحداث القصة طريقة الاعتراف ؛ إذ كانت « سلوى » هي التي تروي القصة ، وفي بعض الأحيان استخدم طريقة تيار الوعي ، وذلك حين كانت « سلوى » تناجي نفسها كلما اشتدت بها الأزمات .

وقد استخدم تلك الطريقة ليكشف لنا عن نظرة « سلوى » إلى الشخصيات الأخرى ، و وفّق في هذا ؛ إذ رسم لنا معالم شخصيتها من خلال عالمها الشعوري واللاشعوري الخاص ، ومن خلال الأضواء التي ألقتها الشخصيات الأخرى عليها .

والقصة مليئة بالشخصيات الهامة التي أثرت في مجرى أحداثها ، وفي نفسية « سلوى » . وأول شخصية استرعت الانتباه ، هي شخصية « سلوى » : لقد نشأت يتيمة الأب ، فقدت بذلك الحنان والحب الأبويّ ، وكانت كالعجينة في يد خباز ، يصوّرها كما يشاء ، وأثرت في حياتها عواملُ كثيرة أحالت حياتها من راحة إلى شقاء ، ومن نعيم إلى جحيم .

فسلوى عاشت في ثلاث مراحل ، وكان لكل مرحلة أثرها الفعّال في حياتها :

ففي المرحلة الأولى ، وهي مرحلة الطفولة ، لم تكن هذه الفترة طويلة لكي تُخلق خلقاً جديداً، فقد نشأت يتيمة مات أبوها ، ولم تكن تعرف طريقاً إلى أمها ، ولم يكن هناك من يتولى شئونها بالرعاية والحنان غيرُ « دادتها أم يونس » (١) .

والمرحلة الثانية ، هي انتقالها من الإسكندرية إلى القاهرة ؛ لتعيش مع أمها التي كانت العامل المؤثر الفعال في حياتها ؛ إذ فتحت لها أبواب الرذيلة والخطيئة ؛ بل مهدت لها طريق الانحلال . وقاومت « سلوى » وصمدت في أول الأمر ، لكن الأم – التي كانت في حاجة إلى المال – قذفت بابنتها في طريق « الزهيري باشا » ، وهيأت له خلوة بابنتها – تلك الخلوة التي نقلتها إلى مرحلة جديدة من مراحل حياتها ، ولم تستطع مقاومة هذا التيار الجارف .

أما المرحلة الثالثة فهي تبدأ بموت « الزهيري باشا » ، وتُعتبر هذه المرحلة من المراحل التحوُّلية الخطيرة في حياة « سلوى » ؛ إذ ماتت حاضنتها « أم يونس » ثم ماتت أمها ، وكذلك « الباشا » ، وزوجها طريح المستشفى . و وجدت نفسها وحيدة ، تلفتتْ حولها ، فلم تجد غير « شريف » زوج صاحبتها سنية ، الذي طفق يداعبها ويحنو عليها بالعطف والحب والحنان .

وتنازعتها الإحساسات والمشاعر ، واصطدم الخير والشر ؛ بيْد أن الخير خسر هذه الجولة ، وبذلك هُرعت « سلوى » إلى أحضان « شريف » ، ترتشف من كأس الرذيلة حتى الثمالة ، إلى أن بلغت بها الدناءة أقصى

---

(١) فتحي الإبياري : سلوى في مهب الريح ؛ نقد وتحليل . الإسكندرية ، لجنة الفكر والثقافة للجامعيين ، ١٩٥٤ .

حدودها ؛ إذ أمرت « شريف » أن يطلق « سنية » ؛ ولكنه رفض . ثم تطورت الأحداث والنوائب ، فإذا بها تدفع « شريف » إلى الهاوية فينتحر بالرصاص .

و « سلوى » ليست شريرة بالطبع ؛ إذ ليس هناك أي إنسان يولد وهو شرير ؛ ولكنها الظروف والملابسات التي تعترض المرء في سبيل الحياة ، هي التي تفرض عليه أن يكون شريراً . و « سلوى » بفطرتها ، كانت خيِّرة ، يتضح ذلك حينما كانت تعود « حمدي » وهو مريض في المستشفى ؛ ولكن الظروف والملابسات التي اعترضت حياتها دفعتها في طريق الشر ، خاصة وأنها لم تكن الفتاة التي زودها أبوها بالنصائح ، وحافظ عليها ، بل كانت محرومة من حنان الأب منذ طفولتها المبكرة ، وكانت محرومة من رعاية الأم ؛ إذ وجدت أمها بدلاً من أن تحافظ عليها ، تدفعها دفعاً إلى طريق الغواية والرذيلة ، ومع ذلك عاقبها محمود تيمور في تلك النهاية التي اصطنعها .

ولم يبين لنا الأستاذ محمود تيمور شيئاً عن نشأة أم سلوى ، ولم يذكر الدوافع والأسباب التي جعلت منها رمزاً للفساد والخطيئة ، فمن سياق القصة علمنا أنها سارت في طريق الرذيلة والخطيئة شوطاً بعيداً ، وكانت تتعرف إلى هذا وذاك من الأغنياء ؛ لتحيط نفسها بهالة من الغنى والجاه . وقد أثر هذا الجو الخانق من العبث والشراب والرقص على نفسيتها ؛ فجعلها تفقد أهم عاطفة وهبها الله إياها ، وهي عاطفة الأمومة .

فحينما التقت بابنتها بعد غياب عدة سنوات ، كان لقاؤها بارداً لا تشوبه أية حرارة من حرارة اللقاء بين أم وابنتها ؛ فعندما رأت ابنتها لم تتحرك من مكانها ، ولم تحتضنها وتجذبها إلى صدرها ، ولم تقبِّلها بشغف ؛ بل وقفت ونظرت إليها ، ثم انتزعت من فمها بعض الكلمات ، وقالت « لأم يونس » : « إنها كبيرة .. كبيرة .. ما شاء الله ! »

وقد وصفت « سلوى » هذا اللقاء قائلة : « أخذتْ أمي تزيِّن نفسها ، وترجِّل شعرها .. واختلستُ النظر إليها ، فبهرتني هيئتها ، لقد كانت تتلألأ تلألؤ الأنوار في المحافل والمهرجانات ، وعجبت من نفسي ؛ إذ لم أشعر بأية عاطفة نحوها . »

وكان يلذ لهذه الأم أن تسطو على ممتلكات الغير ، حتى ولو كانت ابنتها ؛ فكانت تحرم سلوى من أدوات الزينة ، وتفتح أمامها صوان ملابسها لتريها الملابس الفاخرة ؛ بل لقد استولت على الرداء الذي أهدته « سنية » لسلوى ، وكذلك هدايا « الباشا » مثل السيارة والراديو .

وازدادت غيرة هذه الأم من ابنتها عندما فاجأتها « سلوى » في منتصف الليل مع أحد عشاقها ، الذي قال « لسلوى » عندما رآها لأول مرة : « تبارك الله ! إنها عروس . »

فأجابته الأم : « لا تغرنك قامتها ، ما برحت طفلة في الثانية عشرة . »

فقالت « سلوى » في جرأة : « بل في السادسة عشرة . »

لذلك كانت الأم تنتهز الفرص للنيل من « سلوى » أمامهم والحطِّ من قدرها .

ولقد قامت الأم بتلقين ابنتها دروساً في معاملة الرجال ومداورتهم ، ثم التلهّي بهم دون أن ينالوا منها شيئًا ؛ فكانت أستاذة بارعة تطبق دروسها عمليا في المنزل أمام تلميذتها . وقد تشبعت التلميذة بهذه الآراء حتى إنها استشارتها في بعض شئونها الخاصة ، مثلما حدث بينها وبين « الباشا » في الضيعة . وسُرت الأم لذلك ، وبدأت تستدرج « الباشا » إلى البيت ؛ لتستغل علاقته مع ابنتها فتأخذ منه المال الكثير ، والهدايا الفخمة ، وكانت بذلك تدفع بابنتها إلى هاوية الانحطاط ، ما دام هذا يعود عليها بالخير والذهب .

وبالرغم من كل ما فعلته الأم : من بيع نفسها ، ودفع ابنتها إلى السير في نفس الطريق الذي سلكته — فإنها في النهاية ماتت فقيرة .

أما الزهيري باشا فكان صاحب لذة يريد أن يحققها بشتى الوسائل ، بعد أن ماتت زوجته تاركة وحيدته « سنية » ، ولم يشأ أن يتزوج حتى يتفرغ لتربية ابنته ، واتّخذ حياة اللهو والعبث طريقاً .

ولاحت شمس « سلوى » في الأفق ؛ ولكنها كانت صغيرة عندما وقع نظره عليها أول الأمر ؛ فلم تسترع انتباهه . ولكن كثرة الزيارات التي كانت تقوم بها « سلوى » لصاحبتها « سنية » — أثارت فيه بعضاً من الانتباه . ومرت الأيام وأصبحت « سلوى » متفتحة الأنوثة ؛ عندئذ بهرت « الباشا » ، وصمم على أن ينالها .

وطفق يدبر الخطط لغزو قلب هذه الفتاة ؛ فتسلل إليها أولاً عن طريق حدبه وعطفه عليها ؛ لأنها مثل ابنته ، ثم بدأ يدبر خطة الذهاب إلى الضيعة .. وهناك استطاع أن يخلو « بسلوى » ، وأن يناجيها تحت ضوء القمر ، ثم هوى فجأة على شفتيها يعتصرهما .

وفوجئ « الباشا » بنفور « سلوى » ، لكنه لم ييأس ، واتخذ أسلوباً آخر في الهجوم ؛ إذ وجد هناك ثغرة يمكن أن ينفذ منها — هذه الثغرة كانت أم « سلوى » ، فأخمد فيها آخر جذوة الأمومة ، بإغداق المال الوفير عليها .

وكان « الباشا » خبيراً في فن الغرام والهيام ، فبالرغم من ذلك الفارق الكبير بين سنه وسن « سلوى » ، إلا أنه استطاع أن ينجح في جذب الفتاة إليه ؛ بل وأن تحبه وتتمنى أن تتزوجه ، فقد كان يتصرف بعقل وروية في كل تصرفاته مع « سلوى » حتى لا تفلت منه .

واستطاع أن يبدو كالأب الكريم العطوف ، حين قام بنفقات حفل زفاف « حمدي » بـ « سلوى » ؛ ليبعد عنه الشبهات المريبة . ولكنه عندما اطمأن إلى أن هذه الشبهات قد زالت من نفس « حمدي » ارتدى ثياب الذئب ، وافترس « سلوى » التي سلمت له نفسها عن طيب خاطر ، وعندئذ سخّر لها ماله ، واقتنص « سلوى » من « حمدي » المسكين المريض بالمستشفى ، تماماً كما رمز إليه محمود تيمور في تلك اللوحة التي رأتها « سلوى » في قصر « الباشا » ، وهي تصوّر هجوم القراصنة ، وخطف النساء ، وتقتيل الأطفال والرجال .

والشخصية التي استدرّت عطف القراء فعلاً ، هي شخصية « حمدي » ؛ فقد تشابه مع « سلوى » في أنه كان يتيماً ، وعاش غريباً وحيداً طَوال حياته ، ولم يتخذ له صديقاً غيرَ « شريف » منذ أيام الدراسة . وزادته الطبيعة تعاسة ، فوهبته نحافة وسقماً . لقد جاهد كثيراً في الحياة ، كان يقوم بإعطاء الدروس الخصوصية في الموسيقى هنا وهناك ، وبذل جهداً كبيراً في سبيل ذلك ، مما عرضه للمرض الذي أودى بحياته في نهاية القصة .

وبالرغم من معاكسة القدر له ، وابتلائه بذلك المرض ، إلا أنه ظل متمسكاً بمبادئ الشرف والأخلاق الكريمة . وقد أحاط محمود تيمور هذه الشخصية بكل صفات الشرف ، واحترام المبدأ . وكان غنيَّ النفس نبيلاً رغم فقره . وظهر نبله وكرمه عندما أراد أن يدفع تكاليف علاج أم « سلوى » – تلك التكاليف التي دفعها « الباشا » . لقد جاء إلى « سلوى » والسعادة مرتسمة على وجهه ؛ ليخبرها بأنه استطاع أن يجمع عشرة جنيهات ؛ لكي تسدد دينها « للباشا » ، وتعطيه المبلغ الذي دفعه لتكاليف علاج أمها . وتراه الأم وهو يعطي « سلوى » النقود ، فتردها إليه بوقاحة.

وقد حاول ذات مرة أن يبصّر « سلوى » خطورة الطريق الذي تسلكه مع « الباشا » ؛ فقد جاء ذات يوم إلى « سلوى » ثائراً ، وقال لها : « لا أستطيع الإغضاء فوق ما أغضيت .. دعيني أفصح .. لقد ترامت إليَّ أنباء شاع ذكرها واستفاض .. لست لها بمستيقن .. ولكني أريد منك أن تصدقيني القول .»

« لا أفهم ما تعنيه .»

فنكّس رأسه ، وهمهم في تلعثم : « الباشا .. الباشا ..»

« أوضِحْ . ‹‹ الباشا ›› ما له ؟»

فأخذ بأزرار حلته وقتاً ، ثم رفع بصره إلى « سلوى » ، وقال في نبرة تشوبها حدة : « يجب أن تؤثري أحدنا على الآخر .»

فاندفعت من « سلوى » قهقهة توضّحت فيها الزراية والترفع ، وقالت :

« لا وجه للمفاضلة بينكما .»

« إذاً أنت تؤثرينه . أنت تحبينه .»

« زِنْ كلامك ، يا ‹‹ حمدي ›› قبل أن تتفوه به .»

فانبرى يقول في حمية : « حقا لا وجه للمفاضلة بيني وبينه في نظرك ، ولكن قيمتي في نظر العقلاء أكبر من قيمته . حسبك منّي أن قلبي يفيض لك محبة وإخلاصاً و وفاء .»

وأخذ يقرع صدره بيده ويقول : « أنا أفضل من الباشا مائة مرة . إني لا أخادع النساء ، ولا أشتري قلوبهن بالمال .. إني رجل شريف .. أما ‹‹ الباشا ›› فهو رجل خداع أثيم .»

هكذا وصف « حمدي » بألفاظ قليلة عارية شخصية « الباشا » – تلك الشخصية التي انطبعت صورتها

هكذا على نفسية « حمدي » الشفافة . وظلت تساوره الشكوك ، وتنتابه الريب من ناحية << الباشا >> ؛ بيد أن هذا الشك قد تلاشى عندما ظهرت أريحية << الباشا >> في حفل زفاف « حمدي » « بسلوى » ؛ إذ قام بالواجب وأنفق من ماله جميع تكاليف حفل الزفاف ؛ بل طفق يساعد « حمدي » على ارتداء حلة العُرس بيديه ، وتأثر « حمدي » الطيب القلب لهذا التصرف كثيراً .

ولكنه كان مخدوعاً بتلك المظاهر ؛ فجميع الطرق التي يمارسها المداهنون والمنافقون مثل « الباشا » أو « شريف » لكي يصلوا إلى أهدافهم – لم يعرفها « حمدي » . وقد ظل يعيش في عالمه المثالي طول حياته ، واعتقد أن الناس كلهم ملائكة ، « فالباشا » رجل كريم وهو في الحقيقة لص دنيء مخادع ، سرق « سلوى » بماله ، وعبَّ من شرفها ما شاء له ، و « سلوى » زوجته الشريفة التي لم يخامره الشك من ناحيتها أبداً – كانت تخونه ، وتلوّث شرفه بالخطيئة .

هكذا عاش « حمدي » شريفاً طاهراً ، مكافحاً في شرف ، لم يتطاول ليتمسّح في طبقة « الباشا » ويتسرب إليها عن طريق الثغرات العفنة ؛ ولكنه كان صديقاً « لشريف » فقط . وقد أراد أن ينقذ « سلوى » من هذا التمسُّح الواضح ، وأن ينقذها من التيار العنيف الذي كانت سائرة فيه . لم يكن يريد لها أن تكون ذليلة لتلك الطبقة العالية ؛ وإنما كان يريدها أن تعيش في واقعها ، وأن تحاول جاهدة الارتفاع بمستواها عن طريق العمل ، بأن تكون زوجته وتعمل في المنزل ، لا أن ترتفع بارتمائها في أحضان « الباشا » ، ثم في أحضان « شريف » أخيراً ، كما حدث لها بعد أن وقع صريع المرض . ولو كان « حمدي » قوى البنية ، صحيح الجسم ، وظل مواظباً على كفاحه الشريف – لتغير حال القصة ، ولما أصبحت « سلوى » في مهب الريح كما رسمها محمود تيمور .

وقد استخدم محمود تيمور في رسم شخصيات قصته طريقتين : الطريقة التحليلية ، وهي رسم الشخصيات من الخارج . والطريقة التمثيلية ، وهي التي أتاح فيها لشخصياته أن تعبر عن نفسها ، وتكشف عن جوهرها بأحاديثها وتصرفاتها . وقد كانت شخصية « سلوى » من الشخصيات النامية المتطورة طوال القصة ، بخلاف شخصيات « سنية » و « حمدي » و « الأم » و « الزهيري باشا » – فتلك الشخصيات كانت ثابتة من أول كلمة إلى آخر كلمة في القصة ؛ إذ صورت كل شخصية لوناً معيناً من الغدر ، والخيانة ، والاستكانة ، والاستهتار ، وفقدان الشعور ؛ حتى تكون ذات أثر فعال في نمو شخصية « سلوى » في القصة . والحوار كان سلساً لا شائبة فيه ، وباللغة العربية الفصحى .

بقيت كلمة حول القصة ، وموقف محمود تيمور من أبطال قصته ، وبعض الثغرات التي وقع عليها بصري ؛ فالمعروف أن الحياة صور مختلفة متعددة ، فيها الجميل والقبيح ، والطيب والخبيث ، فيها الألوان لا حصر لها – ألوان ممتزجة بعضها ببعض ، وأخرى براقة تجذب إليها الأنظار ، وألوان باهتة لا جمال فيها ولا نضرة ، كما أن هناك المتناقضات الكثيرة . تلك الصور المختلفة والمتناقضات المتعددة ، تقع دائماً أمام الناس دون أن يعيروها أي التفات أو انتباه ، غير أن هناك فرداً لا يمكن أن تمر أمامه هذه الأشياء والحوادث مروراً عابراً ، ذلك هو الفنان الذي ينظر إليها نظرات دقيقة فاحصة ، ويغوص في مكنوناتها ليستخرج اللآلئ الثمينة المختفية

في كل قاع ، ثم ينسقها ويرتبها ، ويضعها في قالب جديد يسحر الألباب ، وإذا بالصورة الجديدة التي ابتكرها الفنان تؤثر فيك وتسترعي انتباهك ، بعد أن كنت غافلاً مشغولاً .

وقصة « سلوى في مهب الريح » قصة من صميم الواقع ، انتزعها محمود تيمور من الحياة ، ثم عالجها بطريقته البارعة ، فأضفى عليها لوناً خاصا – ذلك اللون الذي يؤثر في النفوس ويحرك كوامنها ، وهو المأساة.

ومحمود تيمور يصف في هذه القصة الجانب العابث في حياة المترفين من المصريين الذين يعيشون على الديون ، ويحيطون أنفسهم بالأكاذيب ، متسببين بذلك في جلب الشقاء والمصائب لذويهم ؛ مما يهدد بانهيار المجتمع .

وتتميز القصة بواقعيتها الممزوجة بالرومانسية ؛ فالأستاذ محمود تيمور حريص في أدبه على أن ينحو النحو الإنساني ، فهو لا يقنع بالواقعية وحدها ، ولا يرضى بالرومانسية كاتجاه محدد ، ويرى في المزاوجة بين الذاتية والموضوعية سبيله الأوفى . وهو يرى أن الكاتب حين تفوته هذه المزاوجة يصبح أحد شيئين : إما خيالي مغرق في الخيال ، أو واقعي سطحي لا يزيد عن النقل المحض . وطغيانُ الذاتية أو الموضوعية مروق بالقصة عن نطاق الإنسانية ؛ فالخيال المفرط يُلبس الشخصيات أثواباً غير أثوابها ، والواقعية الجافة تجعل هذه الشخصيات سطحية تافهة محجوباً ما يعتلج وراءها من منازع [1] .

وهناك شخصية « الدكتور فهيم » لم أجد لها هدفاً واضحاً في القصة ، ولو حذفنا هذه الشخصية، وكل ما أحاط بها – لما اختلّ مضمون القصة . وأعتقد أن الأستاذ محمود تيمور كان يريد أن يجعل من هذه الشخصية شيئاً فعالاً في حياة « سلوى » ، ولكن الشخصية تاهت منه وسط أحداث القصة العنيفة . وقد يُعلّل هذا بأن الأستاذ محمود تيمور قدم هذه الشخصية لكي يضفي على حياة « سلوى » لوناً من الحياة الواقعية ؛ إذ يتعرف المرء في الحياة على أناس ، ثم يختفون من حياته وكأنهم نسمة عابرة ؛ ولكن إذا أراد الأستاذ محمود تيمور ذلك فأين الفن في الخلق القصصي ؟

وملحوظة أخرى ، هي أن محمود تيمور قد قتّل معظم شخصيات القصة : مات جد « سلوى » في بداية الفصل الأول ، ثم ماتت « أم يونس » بالفالج ، ومات « الزهيري باشا » بالسكتة القلبية ، ومات « حمدي » في المستشفى ، وماتت أمها كذلك من إدمانها الشراب ، و« شريف » أطلق على نفسه الرصاص . وقتّل الشخصيات بهذه الصورة قد يُعلل بسببين : أولهما رَغبة محمود تيمور في إحاطة « سلوى » بالوحدة في معترك الحياة حتى تصبح في مهب الريح ، ويكون بذلك عنوان القصة منطبقاً تمام الانطباق على شخصية « سلوى » . والسبب الآخر ، هو ربما وجد محمود تيمور صعوبة في تحريك تلك الشخصيات الثابتة ، كما ذكرنا آنفاً ، فأودى بها إلى الهلاك .

أما خاتمة القصة ، أو القمة لأحداث القصة التي ظل تيمور يمهد لها طوال صفحاتها – فقد بدا فيها الافتعال المصطنع ؛ إذ وضعت « سلوى » مولوداً ، وفي نفس الوقت – أيضاً – وضعت « سنية » مولوداً ،

(١) فتحي الإبياري : سلوى في مهب الريح ؛ نقد وتحليل . الإسكندرية ، لجنة الفكر والثقافة للجامعيين ، ١٩٥٤ ، ص ٢٨ .

وفي مستشفى واحد ، ومات مولود « سلوى » ؛ لكي ترضع بعد ذلك وليد سنية ، حتى تكفر « سلوى » عن ذنوبها التي ارتكبتها .

هذه هي بعض الملاحظات التي لاحظتها من أول وهلة ، ولكن ما رأي النقاد الآخرين في سلوى ؟

يقول عنها الدكتور طه حسين : « .. ولم يرتحل الأستاذ تيمور بك إلى الشرق ولا إلى الغرب ، ولم يُبعد في الزمان ولا في المكان ؛ ليأتينا بقصة « سلوى في مهب الريح » الرائعة البارعة ؛ وإنما أقام بيننا في مصر ، بل أقام بيننا في القاهرة .

« والواقع أن قصة سلوى هذه من أمتع ما كتب محمود تيمور ومن أنفعه ، ومن أنفذه إلى حقائق النفس المصرية ؛ فهذه الفتاة التي تنشأ في بيئة متوسطة قريبة إلى الطبقة العليا ، والتي تختلف عليها ظروف الحياة ، وإذا هي تصور لنا طبقات المعاصرين من المصريين جميعاً – قد درسها تيمور ، فوفق في دراستها إلى أبعد حدود التوفيق .»[١]

ويقول عنها الأستاذ عباس خضر : « .. وتيمور يجيد أكثر في قصصه التي تتصل بحياته وطبقته الاجتماعية العالية ؛ لأنه يصور فيها من الداخل ، أما القصص التي تناول فيها شخصيات في الطبقات الأخرى فتصويره فيها من الخارج ، وما فيها من إبداع إنما هو قوة تمثيل واندماج ، وكثيراً ما تراه في غير ما أبدع فيه ، يتسلى ويتفرج بعرض شخصيات لا يشاركها الإحساس ، يأتيك في هذا العرض بالمتعة المشوقة ، ولكن النبض الإنسانيّ يكاد فيه يقف . وأذكر ما قاله أحد الأصدقاء : إن بعض شخصيات تيمور الفقيرة تلبس السموكن الممزق .»

وقصة « سلوى في مهب الريح » من النوع الأول ذي التصوير الداخلي ؛ فسلوى وإن لم تكن من الطبقه الأرستقراطية في أصلها وبيئتها ، إلا أنها عاشت واضطربت في جو الأرستقراطيين ، وارتبطت حياتها بحياتهم ، وباقي الشخصيات إما أرستقراطيون ، وإما لاصقون بهم .

وقد خانت المؤلف ذاكرتُه عندما جعل « سلوى » تحدثنا عن حديقه القصر في الضيعة بأنها قد أثقلت أشجارَها ثمارُ المانجو والبرقوق ، وتدلّت من عرائشها عناقيد العنب ؛ إذ نسي أنها كانت قُبيل ذلك بيوم أو يومين في قصر « الباشا » بالقاهرة وحدثتنا قائلة : « وتابعنا سيرنا في الحديقة فمررنا بشجرة برتقال محمّلة بالثمر .» وأنا لا أعرف وقتاً من العام في بلادنا يجتمع فيه أثمار البرتقال مع أثمار العنب والبرقوق والمانجو .

أما « سلوى » عند الدكتور علي الراعي[٢] « فهي ليست في مهب الريح وإنما في مهب الانتهازية ؛ فهي منذ طفولتها الغضة تتطلع إلى حياة أفضل وأرغد من حياتها الساذجة الفقيرة ، ومنذ تلك السنوات الباكرة – أيضاً – وهي تسير على الدرب الذي تحسبه مؤدياً إلى الفخامة والثروة والجمال – درب الانتهازية – تبدؤه بصداقة تنبتُ سريعاً بينها وبين « سنية » الفتاة الثرية ، وتنتهي فإذا هي مُرضِع عند تلك الفتاة الثرية نفسها

(١) مقالة الدكتور طه حسين في « الكاتب المصري » عام ١٩٤٨ ، ص ٦٥٩ . (٢) علي الراعي : مقال في مجلة « المجلة » ، العدد ٥٩ ، ديسمبر ١٩٦١ ، ص ٣٢ ؛ وللمقال بقية في العدد ٦١ من المجلة ، فبراير ١٩٦٢ ، ص ٣٢ .

تأكل بثدييها ، وإن اختبأ وضعها الذليل هذا خلف << صداقة >> مزعومة بين المرأتين .»

وظل الناقد يدلل على رأيه هذا بتلخيص الرواية من زاوية تخدمه ، فقال : « إن << سلوى >> تعرّت عندما مات « الزهيري باشا » ، و وقفت وجهاً لوجه أمام المنطق الصارم الذي طالما دارته عنها أكذوبتها الفخمة. إنها لم تكن محبوبة الباشا ؛ بل خليلته ، وعلاقتها به لم تُكسبها المكانة التي كانت تتطلع إليها ؛ بل أفقدتها المكانة المتواضعة التي كانت لها . لقد اقتلعها غرامها بالباشا من قلوب أفراد طبقتها ومَنْ تعلّق بهم ؛ فلفظتها « أم يونس » ، وكرهتها « الدادة شيرين » ، وتناولتها الألسن الحداد بالنقد والتقريع ، ولولا أن « حمدي » على كل هذا القدر من السذاجة والعجز – لانفضّ عنها هو الآخر ، غير باكٍ ولا نادم .

« وما كان أجدر << تيمور >> أن ينهي حوادث روايته و << سلوى >> تدق باب العمل عند << الست إنصاف >> فينفتح لها قليلاً ، لتدلف منه ! ما كان أجدره بأن يفعل هذا ، ما دام هو يريد لنا أن نعطف على بطلته ، ونرثي لها ، ونغفر لها خطيئتها الكبرى ! لو أن << سلوى >> وعت حقيقة الخطيئة الكبرى التي تورطت فيها ، فلم تكررها من جديد في ختام الرواية .

« إن خطيئة << سلوى >> هي أنها أعرضت عن العمل ، وآثرت العبودية للمترفين ، وليست جريرتها أنها خرجت على قوانين الأخلاق ومواضعات الناس ، فما هذا الخروج إلا نتيجة منطقية للجريرة الكبري – الجريرة الاجتماعية . إن سلوى قد أخطأت في حق المجتمع قبل أن تخطئ في حق الأخلاق ، فتوبتها من الخطأ الأخلاقي ، ثم عودتها إلى الجريرة الاجتماعية – أمر لا يجديها في كثير أو قليل .»

وفي مكان آخر قال الناقد « .. إن واقعية تيمور الراسخة القدم في الحياة والمجتمع ، تتطلع إلى شيء أكبر منها وأوسع نطاقاً ، فتربط نفسها بالرمز ، وتفيد من هذا الربط عمقاً وأصالة . فمما لا شك فيه أن صورة اللصوص البحريين تصوّر تصويراً صادقاً ومعبراً العلاقة الحقيقية التي تربط الزهيري باشا بالمجتمع الذي يعيش فيـه ، وبالفتاة التي هفا إليها قلبه .»

وقد استخدم تيمور « صورة اللصوص البحريين » وسيلة مادية لتصوير الصراع : صراع نفس « سلوى » بين الموقف الذي تجد من الواجب اتخاذه من « الباشا » وطبقته ، والموقف الذي تجد نفسها منساقة إليه بحكم وضعها الاجتماعي وتركيبها النفسي والفكري ، وتجسيد هذا الصراع والرمز إليه . فكأنه وهو يسوق « سلوى » إلى الوقوف مليا أمام الصورة ، ويدفعها إلى الانشغال بها انشغالاً يردُّها دائماً إلى تلك الصورة – كان يجري عملية مقارنة بين طريقين انفتحا أمام « سلوى » ، وأخذ كل منهما يدعوها إلى أن تسلكه : طريق النظر إلى « الباشا » كعدو يُسترحم ، وطريق النظر إليه كصديق يمكن أن يُخطب وده . وقد اختارت « سلوى » الطريق الثاني ، فكانت مأساتها ؛ ولكن من الواضح أنها لم تنس قطُّ الطريق الأول ، وهذا ما يفسر إعجابها الشديد بالصورة ، وعودتها إلى النظر إليها .

وإلى جوار الرمزية والواقعية والطبيعية ، يستخدم تيمور في روايته الميلودراما – أيضاً – طريقة للتعبير والتصوير ، مثلما حدث عندما انتحر « شريف » ، وموت « حمدي » بالسل في أحد عنابر الدرجة الثالثة ،

وموقف اللقاء الأخير بين « سلوى » و« سنية » .

ومع هذا ، فمن الواجب تسجيل التوفيق الذي حققه تيمور في تصوير الصراع في نفس « سلوى » بين وضعها وتطلّعها ، وهو توفيق إن لم يكن مطّرداً ومتناسقاً ؛ لأنه يُصاب أحياناً بالتعثر حين تتظاهر « سلوى » بأنها لا تعرف حقيقة نفسها ولا كُنْه ما تريد – فهو على الأقل يبرز لنا شخصية « سلوى » إبرازاً طيباً ، ويُضفي عليها صفة الحيوية ، ويشدنا إليها ؛ فلا نفتر عن الاهتمام بها في لحظات سموها ، ولحظات سقوطها ، وحين تُظهر الذكاء ، أو حين تبدي جانب الحيرة والبله .

وقد نالت قصة « سلوى في مهب الريح » اهتماماً كبيراً من النقاد والدارسين ، وقررتها الجامعات على طلبتها لدراسة الفن القصصي ، وعرضتها السينما على شاشتها ، وما زالت حتى الآن تستحوذ على مئات القلوب من القراء .

بين « كل عام وأنتم بخير » و « إحسان لله »

تلفّت محمود تيمور حوله في بداية الطريق ، فوجد أن الاتجاه الأدبي وخاصة الشعري ، يغلب عليه الطابع المصري ، وظهرت في ذلك الحين دعوة إلى الجامعة المصرية ، وقد صحبها اتجاه قوي خصب نحو استخراج صور البطولة من تاريخ مصر العريق ، وبعث الشعور بالعزة ، وذلك بإحياء المجد الفرعوني ، والمجد العربيّ ، اللذّين يمثلان العنصريّن الأصليّيْن في الدم المصري والحياة المصرية.

ورأى أن ما يزخر به هذا التراث من أساطير يمكن استغلاله فنيا ؛ وإن كانت هذه الأساطير لا تمثل حقيقة سامية ، أو لا تمثل كُلا مترابطاً ؛ لأنها عصيّة الدخول في نظام تفكيرنا العام ، وترفض أن تمتزج بعناصرنا الأخرى ، ولكنها جزء من تراثنا الذي نعتز به ، ومع عدم صحتها فإنه يُعتقد فيها الصحة ، مع أنها لا يمكن أن تُفسَّر تفسيراً عقليا ، إلا أن الإحساس العام يوحي بأنها تنطوي على شيء .

ففي أسطورة « زهرة المرقص »[1] تطور محمود تيمور بالأسطورة تطوراً جديداً ، وانتهج سبيلاً خاصا في تحويل الخرافات المفككة إلى لوحات متماسكة ، مستعيناً في ذلك بأصباغ فاتنة من الخيال ، وبناء فنيّ متماسك .

والأسطورة التي وقعت في يد محمود تيمور ، كانت عبارة عن قصة فتاة طالعت الحياة : تمارس الرقص ، وتعرض فتنتها سلعة في أسواق المواخير ، لم تكن تتحلى بزينة بالغة ، أو تتحسّن بملبس زاهٍ. سحرُها وسرُّها كمينان في ذلك الروح الوهّاج ، وذاع صيتها في الآفاق ، ولم يبق في الأرجاء – قاصيها ودانيها – من لم يعرف « زهرة المرقص » .

وفجأة ، وقع ما لم يكن في الحسبان ! اختفت « زهرة المرقص » ، اندهش الناس ، ترددت الأسئلة على ألسنتهم : أين ولدت ؟ هل ماتت ؟ لم يعرف أحد الجواب ، وظل اختفاؤها لغزاً لا يُتَبيَّن له وجه.

---

(١) من مجموعة « إحسان لله » ، ص ٢٨٥ من هذه الطبعة .

والتقط تيمور هذه الخرافة الساذجة ، وأحالها إلى قطعة فلسفية فنية ، في قالب أقصوصة تثير شوق القارئ، وبرع في إبراز عنصر التشويق في هذه الأقصوصة .

وعرفنا أن الناس قد أمسكوا بشيخ كان يتحدث عنها ، فحملوه إلى الأمير حاكم الجنوب ، ليفضي بمكان « زهرة المرقص » ؛ ولكن الرجل لم يستطع أن يحدد مكانها ؛ فعيّن الأمير قائداً حربيا حارساً على هذا الشيخ ؛ ليستخلص منه سر « زهرة المرقص » . وبعد مرور عدة أيام ، استطاع القائد الحربي ذو الندبة أن يعرف أن هذا الشيخ جوّابَ الآفاق قد رأى « زهرة المرقص » ذات ليلة في ضوء القمر .

وتشابكت خيوط الأقصوصة وتعقدت ، وبدأ محمود تيمور يمهّد الطريق للكشف عن مغزى الأسطورة ، وإيضاح هدفها وغايتها . وعرفنا أن القائد قد صحب معه الشيخ جوّاب الآفاق ، ومعهما قافلة كبيرة للعثور على مكان « زهرة المرقص » . وتقدمت القافلة في الصحراء ، وتساقط أفرادها كل يوم صرعى على الرمال الساخنة ، وأصبحت القافلة في ذمة الظنون ، إلى أن عثر على القائد نفسه ، وكانت الحمى قد صرعته . وحاول الأمير أن يستخلص منه جاهداً سرَّ « زهرة المرقص » ؛ ولكن القائد كان في هذه اللحظة قد خلَص بروحه من دنيا الأباطيل والأوهام ، وأصبح في ذمة « أوزوريس » حيث الحقيقة الخالدة !

ويضع محمود تيمور القلم ؛ لتبدأ أفكارنا ومشاعرنا في إحاطة شخصية « زهرة المرقص » بهالة شفافة غامضة ، تحقق لكل منا رغبة من رغباته المكبوتة في العقل اللاواعي ، التي لم نستطع أن نحققها في عالم الحقيقة الواعي . إن محمود تيمور قد رسم الخطوط العريضة لتلك الشخصية بإتقان ، وترك لنا اللمسات الأخيرة ، يضعها كل فرد وفق ما تمليه عليه رغباته ، وأمانيه ، التي لم تتحقق في عالم الواقع . لذلك كانت شخصية « زهرة المرقص » التي جذبها محمود تيمور من عالم الأساطير ، شخصية نموذجية تراود ذهن كل قارئ كلما صادفته شخصية مماثلة في عالم الواقع .

ولكن .. هل كان هدف محمود تيمور هو رسم شخصية واقعية تجذب القلوب برقصاتها فحسب، أم ماذا كان هدفه ؟

إن الأديب الفنان الذي يخلق شخصياته لا يمكن أن يعرف ما ترمي إليه أعماله من أهداف اجتماعية أو إنسانية ؛ ولكنه يصهر نفسه في العمل الأدبي الذي يقوم به ، ويتقمّص روح شخصياته ، وينسى وجوده ، لكي يكون سلوك هذه الشخصيات سلوكاً طبيعيا لا أثر فيه للصنعة والافتعال – وهما آفة من آفات فشل عملية الخلق الأدبي للشخصية ؛ لذلك نجد كبار القصاصين في العالم يندهشون عندما يقرءون ما يكتبه النقاد عن أعمالهم ، وتأويل كل سلوك للشخصيات تأويلاً يندهش له الفنان ؛ لأنه لم يضع نصب عينيه هذا التأويل وهو يقوم بعملية الخلق .

فشخصية « زهرة المرقص » يمكن تأويلها إلى أنها رمز للحياة ، فالحياة واقعية : تمتع الناظر إليها، وتُخدِّره بمفاتنها المختلفة ، وفجأة تختفي تلك الملذات والمفاتن ، ويحاول الإنسان – عندئذ – معرفة الحقيقة : معرفة سر هذه الحياة ، ويظل يبحث هنا وهناك عن هذا السر ، ومن أجله يخوض صحراء الغموض ، واللامنتهى ؛

ولكن عبثاً يحاول . وفي النهاية ، بعد أن يقترب من السر مبهور الأنفاس ، يجر قدميه لاهثاً من الإعياء الشديد، وقبل أن يلفظ أنفاسه ، يكتشف أعتاب السر فقط، ويعرف أنه كان يعيش في دنيا الأباطيل والأوهام ، وتنقشع الغمامة ، وتنكشف الحقيقة الخالدة لديه فقط . وعندما نحاول أن نعرف هذه الحقيقة – نجده قد فارق الحياة ؛ طاوياً معه السرَّ الخفي ، والحقيقة الخالدة .

ولا يقف تحويل الحدوته الخرافية إلى عمل فني دقيق لدى محمود تيمور عند هذا الحد ؛ بل نراه يرسم بقلمه صورة مبدعة تبين نظرته إلى الحب ، وخاصة عند المرأة ، تلك النظرة التي يغلب عليها العنصر النفسي . وكانت تلك اللوحة الفنية التي أبدعها تيمور بعنوان « في ظلمة الليل » [١] ، ومن خلال هذه الأسطورة تعرف أن « راموسي » شاب يقضي وقته على شاطئ النهر ، حتى إذا تعب استراح بجوار الماء ، وأخرج نايه وظل يناجيه . وكانت حياته هادئة ، ناعمة كنعومة النسيم الذي يداعب صفحة النهر ؛ ولكن الهدوء انقلب إلى عاصفة فجأة ، بعد أن رأى «أشمس» أميرة الأميرات ، وأقربهن صلة بفرعون الأعلى ؛ لذلك كان يحلم بوقوع معجزة تحوله من صعلوك بائس، إلى أمير يفوق جميع الأمراء .. برضاء فرعون .

واشتد به الضيق يوماً ، فجرى صوب النهر ، وهمَّ بإلقاء نفسه إلى التماسيح . وفي تلك الساعة الفاصلة سمع هاتفاً يقوله له : « اذهب إلى حابي الحكيم .. فعنده تتم المعجزة .»

واستطاع محمود تيمور من خلال تلك الأسطورة أن يكشف عن نفسية المرأة ، التي غالباً ما تكون على هذه الصورة التي ظهرت جلية في الأسطورة : إن المرأة تحب في خيالها روح رجل ، ثم تبحث عن جسم يتفق مع تلك الروح . فحين اعتزم « راموسي » عازف الناي الصعلوك أن يحصل على « أشمس » أميرة الأميرات التي أحبها من كل قلبه ، والتي عرفنا أخيراً أنها كانت هي أيضا تحبه من بعيد – وجد نفسه عاجزاً ؛ إذ كيف يتطاول عن الحد الذي يعيش فيه . عندئذ باع روحه للساحر – باع روح الفنان الفقير ، واشترى بها روح البطل المغامر ، الذي هزم أعداء البلاد . وعندما تقدم إلى معشوقته التي راودت خياله كثيراً – اكتشف الحقيقة المرة ؛ لقد رفضته الأميرة ، رفضت هذا الحب الذي يعرضه عليها ؛ ذلك لأنها عشقت روحاً – روح الفنان البسيط ، وصوت مزماره الرخيم ؛ ولكنه عاد لها جسماً ذا عضلات بلا روح . لقد قتل روح الفنان في نفسه .

وتكشف الأسطورة – أيضاً – عن شيء هام ، وخاصية أزلية تميِّز طابعنا الشرقي ، ذلك الطابع الموروث منذ أبعد عصور التاريخ ، وتلك الروح المتأصلة في أعماق النفس – إنه القضاء والقدر .

عن سلطانه يجري ما يجري في الكون من تصاريف وأحداث ، وتحت رايته تتطامن الأعناق فيما تصيب من حظ مقسوم ، على طريق مرسوم ، إلى مصير محتوم ، لا خيرة لها في الأمر ، ولا تعقيب لها على ما يكون . لكل امرئ قَدَر مكتوب على الجبين ، لا بد أن تراه العين . ومَنْ ذا الذي يفر من قدره المسطور ، ومصيره المقدور ؟

---

(١) من مجموعة « كل عام وأنتم بخير » ، ص ٣٨٦ من هذه الطبعة .

وقد أوضحت لنا أسطورة « في ظلمة الليل » تلك الخاصية الأزلية التي تميز طابعنا الشرقي . لقد حاول « راموسي » أن يخرج عن الخط الذي رسمه له القدر : لقد مُنِح روح فنان ، تأسر القلوب بالرغم من تبطُّله وفقره ، وأحبته « أشمس » أميرة الأميرات ، من صدى نايه الرخيم ، وحاولت أن تفرَّ من بيئتها ، تستبدل الكوخ الساذج الهادئ بالقصر المنيف الصاخب . أرادت أن تهرب لتلحق بمن أسر قلبها ، وكادت تنفذ رغبتها ؛ ولكن الشاب قد اختفى فجأة .

لقد اختفى « راموسي » ؛ لأنه أراد أن يتحدى القدر ، وذهب إلى الساحر ليحوِّل نفسيته القانعة الرحيمة ، إلى نفسية طامعة قاسية عنيفة ؛ ليصبح شيئاً حتى يتقدم إلى « أشمس » حبيبته . وعندما تحققت رغبته ، وأصبح بطلاً ؛ بل قرر فرعون أن يتبناه ويجعله وليا للعهد . أقول عندما تحققت رغبته، وقابل « أشمس » لأول مرة – اكتشف الحقيقة المُرَّة ، وظهر له واقعه الأليم .

لقد اكتشف « راموسي » أن القدر أقوى منه ، وأن ذلك العصيان الذي قام به لم يفده شيئاً ، ولقَّنه القدر درساً قاسياً : أنَّ لكل منا طريقاً مرسوماً خطه القدر ، لا بد من السير فيه ، وإذا حاول إنسان أن يشذَّ عن هذا الطريق – اكتشف في النهاية أنه كان يثبت أن الأرض كرويَّة ، ولم يتحرك من نقطة البداية كما توهَّم في أول الأمر ، وعندئذ فقط يسلِّم أمره للمقادير ؛ لتقوده في الطريق المرسوم ، ولكن بعد فوات الأوان .

إن أسطورة « في ظلمة الليل » تؤكد لنا براعة محمود تيمور في تحويل الحدوتة الساذجة إلى عمل فني خالد ، تتوافر فيه كل خصائص الكائن الفني : من خَلْق فني ، وحبكة ، وعنصر تشويق، مع بناء متماسك ، وعرض تحليلي للشخصيات .

وقد أعجبتْه الفكرة المستوحاة من عالم الخيال ، التي عشنا معها « في ظلمة الليل » ؛ فحوَّلها إلى مسرحية في ثلاثة فصول بعنوان « سهاد .. أو اللحن التائه » ، ولم يغيِّر من جوهر الأسطورة إلا ما يتفق مع فن المسرحيـة ، من حيث وحدة المكان ، والتركيز الزمني .

وانتقل تيمور إلى الواقعية بعد انغماسه في الجو الرومانسي طويلاً . ولكن أية واقعية تلك التي ملكت عليه فنه ؟ إنها ليست الواقعية المذهبية التي يحدد النقاد أبعادها بالقياس ، كما أنها ليست واقعية ابتدعها لنفسه ، كما يشق بعض الرواد طرقاً لم تكن مسلوكة من قبل . إن واقعية تيمور كانت تتطور ، وتتلون ، وتتشكل ، طوعاً لما يطرأ عليه في مراحل عمره ، من تطوُّر وتلوُّن ، وتشكُّل في العقل ، والثقافة ، والنفسية ، ومدى الاستجابة للتجارب الحيوية ، والتأثر بملابسات المجتمع الذي يحيا فيه [١].

وقد تمثل ذلك في أقاصيص « حزن أب » من مجموعة « فرعون الصغير » ، و « فضلي بك » من مجموعة « مكتوب على الجبين » ، وفي أقصوصة « جنازة حارة » من مجموعة « شباب وغانيات » ، وفي أقصوصة « الديك » من مجموعة « أبو الشوارب » .

لكن نظرة تيمور للواقعية تتغير ملامحها في أقصوصة « إحسان لله » ، حيث نرى « أبو المعاطي » – ذلك

---

(١) فتحي الإبياري : عالم تيمور القصصي ، ص ١٦٢ .

الشاب الريفي الذي أرسله أبوه إلى القاهرة لمقابلة كاتب المحامي ؛ كي يدفع له بعض الأوراق التي تخص قضية أرضهم المتنازع عليها بينه وبين أقاربه ، كلّفه أبوه بذلك ، وضنّ عليه بركوبة يمتطيها ؛ ليصل بها إلى العاصمة ، فسار على قدميه ، وبلغ به التعب أقصاه ، حتى وصل إلى القاهرة ، ولكن كيف يستدلّ إلى مقر كاتب المحامي في حي « السيدة زينب » ؟ و وصل ضريح السيدة ، فتشبّث به ، وتعلق بأستاره ينفض نفسه في مناجاة وضراعة .

ورأى « أبو المعاطي » أن يستريح من طول المسافة التي قطعها سيراً على الأقدام ، فجلس بجوار جدار ، وأحس بشخص يقترب منه ، ويلقي بشيء في حجره ، فنظر إلى هذا الشيء ، فإذا به قطعة من النقود ، فهمّ أن يعيدها إليه ، ويخبره بأنه ليس بشحاذ ، ولم يكد يفعل حتى كان الرجل قد غاب في زحمة السابلة . وامتدت جلسة « أبو المعاطي » وعمر جيبه بقطع النقود .

وطابت الجلسة لـ « أبو المعاطي » . وإذا بقطع النقود تتزايد وتملأ جيبه ، ولكنه فوجئ بشيخ مترهل الأكتاف ، ذي لحية شمطاء ، يضع على رأسه عمامة خضراء ، ويرتدي جبة تكاثرت فيها الرقاع المختلفة الألوان ، يقول له :

« ما أتى بك إلى هنا ؟»

فأجابه : « أتيتُ أستريح بجوار بيت الله ، وضريح السيدة الطاهرة .»

« هذا مكاني ؛ فكيف ساغ لك أن تقتحمه ؟»

« الساحة فسيحة لمن يريد الجلوس .»

« قلتُ لك هذا مكاني ، وقد اتخذته لي مثابة منذ خمسة أعوام ، إذ ورثته عن عمي ، فكيف ساغ لك أن تنتهز فرصة تغيبي لتحتله دوني ؟»

وفي هذه اللحظة برز من المسجد رجل ، فرمى بقطعة من النقود في حجر « أبو المعاطي » ومضى لسبيله ، فما كان من الشيخ إلا أن انقضّ على القطعة انقضاض الصقر ، ولم يشعر « أبو المعاطي » إلا وهو يثب على الشيخ ، ويشتبك معه في صراع مميت ، وانتصر « أبو المعاطي » وأصبح هو الزعيم ، و وضع على رأسه العمامة الخضراء ، وارتدى الجبة المتكاثرة الرقاع ، المختلفة الألوان ، وعلى صدره السُّبحة ذات الحبات المائة الغلاظ ، وقد التف حوله الأتباع يحيونه تحية التودد والإكبار .

وطاف برأس الشيخ « أبو المعاطي » طيف والده ، وهو يسائله عما فعل ، وعما ادخر من النقود ، فشعر بالهراوة تتحرك بين أنامله ، فدقّ بها الأرض بضع دقائق وقد كشر عن أنيابه ، وانبعثت في حلقه قهقهة شيطانية ساخرة !

كانت واقعية تيمور في أقصوصة « إحسان لله » واقعية إنسانية ، ترمي إلى سبر أغوار النفس البشرية

الساذجة ، البعيدة عن التكلف . إن نفس « أبو المعاطي » الصافية تحولت بأسرع ما يمكن – بفضل بعض الأحداث البسيطة – إلى نفس مسيطرة عنيفة ، تشوبها القسوة أحياناً . أما الشيء الذي بدّلها فهو قطعة النقود التي كانت سبباً في عراك عنيف مع الشيخ الأصلي ، الذي ظل يتربع على عرش الرئاسة طوال خمس سنوات، إلى أن جاء « أبو المعاطي » ولعبت قطعة النقود دورها في نفس الرجلين : الشيخ الزعيم يدافع عن زعامته ، وعن ممتلكاته من هذا الصعلوك الدخيل ، و « أبو المعاطي » صاحب النفس الصافية في بدء الأقصوصة ، نراه وقد انقلب وحشاً ضارياً ، بعد أن تذوّقت نفسه حلاوة قطعة النقود – يدافع هو أيضاً عن هذه الحلاوة .

هذا الصراع الدائم ، الذي صوره تيمور في هاتين الشخصيتين – هو هو نفسُ الصراع الدائر بين الناس في معترك الحياة ؛ ولكن تيمور صوّره بطريقة واقعية بعيدة عن التصنُّع ، وبرع في تصوير شخصية « أبو المعاطي » حتى إنك لا تستطيع أن تذهب إلى أي ضريح ، وقد تناثر حوله بعض السائلين – إلا وتذكرت على الفور شخصية « أبو المعاطي » .

فتحي الإبياري

ملاحق خاصة بدراسة محمود تيمور وأدبه

١- تواريخ هامة في حياة محمود تيمور (١٨٩٤-١٩٧٣)

١٨٩٤ * ولد محمود بن أحمد تيمور باشا (المتوفى ١٩٣٠) ابن إسماعيل باشا تيمور ابن السيد محمد تيمور كاشف . « والسيد محمد تيمور كاشف من أسرة كردية كانت تسكن (بقره جولان) وهي بلدة بكردستان من ولاية الموصل .» ولد محمود تيمور في السادس عشر من شهر يونيه . و والده هو العالم اللغوي أحمد تيمور ، عضو مجلس الشيوخ ، المعروف بشغفه الكبير بجمع الكتب ، ومن المثقفين في آداب اللغتين العربية والتركية ، ومكتبته معروفة بالخزانة التيمورية .

١٩١٤ * أصيب بمرض التيفوئيد ، وقد حوّل هذا المرض حياته إلى الوجهة الأدبية .

١٩٢٠ * تزوج محمود تيمور زينب ابنة ذو الفقار باشا . وأنجبت له نازلي ، وحورية ، وابنه الوحيد سعيد .

١٩٢١ * في الرابع والعشرين من شهر فبراير ، مات شقيقه « محمد » وهو في ميعة الشباب . وشعر محمود تيمور بانهيار أمله الكبير في إنشاء أدب مصري جديد ، وكان محمود تيمور متأثراً جدًّا بأخيه محمد .

١٩٢٢ * أصدر محمود تيمور كتاب شقيقه المرحوم محمد تيمور « وميض الروح » ، وكتب مقدمة عن سيرة شقيقه ، وتحليلاً لبعض أعماله الأدبية .

١٩٢٥ * طبع محمود تيمور كتاب « الشيخ جمعة وقصص أخرى » ثم توالت المجموعات .

١٩٤٣ * صدم محمود تيمور صدمة عنيفة بوفاة ابنه سعيد ، الذي كان في العشرين من عمره ، عندما أصيب بأزمة مفاجئة في الزائدة الدودية ، فمات بين يدي والديه في لحظات .

١٩٤٧ * في الخامس من شهر إبريل ، أقيم حفل تكريم لإهدائه جائزة مجمع اللغة العربية ، بالقاهرة تتويجاً لإنتاجه القصصي باللغة العربية الفصحى .

١٩٤٩ * اختاره مجمع اللغة العربية عضواً فيه ، واستقبله الدكتور طه حسين .

١٩٥٠ * فاز بجائزة الدولة للآداب عن كتابيه : « إحسان لله » و « كل عام و أنتم بخير » . كما اختاره المجمع العراقي عضواً فيه ، وكذلك المجمع اللغوي المجري .

١٩٥١ * في الثامن والعشرين من إبريل أقيم احتفال في الجامعة لتسليمه جائزة « الملك فؤاد الأول » في الأدب ، وفي نفس العام قررت هيئة التحكيم في جمعية (فرنسا – مصر) بباريس منحه جائزة واصف غالي لعام ١٩٥١ ، على كتابه الذي ترجم إلى الفرنسية « عزرائيل القرية وقصص أخرى » وهي مجموعة من القصص نشرت بالفرنسية في باريس .

١٩٦٢ * منحته الدولة وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى تكريماً لأدبه ، وتقديراً لفنه .

١٩٦٣ * كرمته الدولة ، ومنحته جائزتها التقديرية في الآداب .

١٩٧٣ * في الخامس والعشرين من أغسطس ، لفظ محمود تيمور أنفاسه وهو في سويسرا.

٢- آثاره

أولا – مجموعات القصص القصيرة :

١- موكب الحياة ؛ ثمان وثلاثون قصة ممتازة من الآداب العالمية . القاهرة ، المقتطف ، ١٩٢٤ .

٢- الشيخ جمعة ، وقصص أخرى. القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٢٥ .
أعيد طبع نخبة منها في كتابه « الوثبة الأولى » .

٣- عم متولي ، وقصص أخرى. القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٢٥ .

٤- الشيخ سيد العبيط. القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٢٦ .

٥- ما تراه العيون. ط ٢ القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٢٧ .

٦- الحاج شلبي. القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٢٨ .

٧- أبو علي عامل أرتيست ، وقصص أخرى. القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٣٤ .
طبعت بالفصحى باسم « أبو علي الفنان » سنة ١٩٥٤ في سلسلة اقرأ ، العدد ١٣٦ .

٨- الأطلال. القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٣٤ .

٩- فرعون الصغير ، وقصص أخرى. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٣٦ .

١٠- الشيخ عفا الله ، وقصص أخرى. القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٣٦ .

١١- زامر الحي. القاهرة ، ١٩٣٧.

١٢- قلب غانية. القاهرة ، دار النشر الحديث ، ١٩٣٧. (كتب للجميع)

١٣- الوثبة الأولى. القاهرة ، دار النشر الحديث ، ١٩٣٧ .

١٤- مكتوب على الجبين ، وقصص أخرى. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤١.

١٥- حورية البحر. القاهرة ، مطبعة الاتحاد ، ١٩٤١.

١٦- قال الراوي. القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٤٢.

١٧- الجنتلمان. القاهرة ، ١٩٤٢ . (الـ ٢٠ قصة - ٢٠٥ ، ٢٠٦)

١٨- بنت الشيطان ، وقصص أخرى. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤٤.

١٩- شفاه غليظة ، وقصص أخرى. القاهرة ، مطبعة الاستقامة ، ١٩٤٦.

٢٠- خلف اللثام. القاهرة ، الكاتب المصري ، ١٩٤٨.
أعيد طبعها باسم « دنيا جديدة » سنة ١٩٥٧ ، عدا ثلاث قصص منها .

٢١- إحسان لله ، وقصص أخرى. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤٩.

٢٢- كل عام وأنتم بخير. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٠.

٢٣- شباب وغانيات. القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥١.
سبق طبعها باسم « الأطلال » سنة ١٩٣٤.

٢٤- أبو الشوارب ، وقصص أخرى. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٣.

٢٥- أبو علي الفنان ، وقصص أخرى. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٤ .
(اقر - ١٣٦)

٢٦- ثائرون. القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٥٥.

٢٧- دنيا جديدة. القاهرة ، ١٩٥٧.

٢٨- نبوت الخفير. القاهرة ، مطبعة الآداب ، ١٩٥٨.

٢٩- تمر حنا عجب. القاهرة ، مطبعة الآداب ، ١٩٥٨.

٣٠- أنا القاتل. القاهرة ، نهضة مصر ، ١٩٦١.

٣١- انتصار الحياة. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٣.

٣٢- البارونة أم أحمد. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٧. (اقرأ - ٢٨٩)

٣٣- أبو عوف ، وقصص أخرى. القاهرة ، نهضة مصر ، ١٩٦٩.

٣٤- زوج في المزاد. الإسكندرية ، أخبار اليوم ، ١٩٧١. (كتاب اليوم - ٢٨)

٣٥- بنت اليوم. القاهرة ، أخبار اليوم ، ١٩٧١.

ثانيا - الروايات :

١- رجب أفندي. القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٢٨.

٢- نداء المجهول. بيروت ، دار المكشوف ، ١٩٣٩.

٣- كليوباترا في خان الخليلي. القاهرة ، مطبعة الاستقامة ، ١٩٤٦.

٤- سلوى في مهب الريح. القاهرة ، مطبعة الاستقامة ، ١٩٤٧.

٥- ثائرون. القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٥٥.

٦- شمروخ. القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٥٨.
طبعت باسم « الذهب الأسود » سنة ١٩٦٥ لوزارة التربية .

٧- إلى اللقاء أيها الحب. القاهرة ، الشركة العربية ، ١٩٥٩.

٨- المصابيح الزرق. دار النشر الحديث ، ١٩٦٠. (روايات الهلال - ٢٣٦)

٩- معبود من طين. مطبعة الآداب ، ١٩٦٩.

ثالثا - المسرحيات :

١- ثلاث مسرحيات (الصعلوك ، أبو شوشة ، الموكب). القاهرة ، مطبعة عطايا ، ١٩٣٦.

٢- عروس النيل. القاهرة ، مطبعة عطايا ، ١٩٤١.
طبعت عام ١٩٥١ بعنوان « فداء ».

٣- عوالي ؛ مسرحية بالعربية الفصحى في ثلاثة فصول. القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٤٢.

٤- سهاد أو اللحن التائه. القاهرة ، دار عيسى البابي الحلبي ، ١٩٤٢.

٥- المخبأ رقم ١٣. القاهرة ، مطبعة عطايا ، ١٩٤٢.

٦- المنقذة و حفلة شاي. القاهرة ، دار الكتب الأهلية ، ١٩٤٢.

٧- قنابل. القاهرة ، لجنة النشر للجامعيين ، ١٩٤٣.

٨- حواء الخالدة. القاهرة ، مطبعة الآداب ، ١٩٤٥.

٩- اليوم خمر. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤٩.

١٠- ابن جلا. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥١.

١١- المزيفون. القاهرة ، مطبعة الآداب ، ١٩٥٣.

١٢- كذب في كذب. القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٥٣.

١٣- أشطر من إبليس. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٣. (اقرأ - ١٢٢)

١٤- صقر قريش. القاهرة ، ١٩٥٦.

١٥- طارق الأندلس. القاهرة ، مطبعة الآداب ، ١٩٧٣.

١٦- خمسة وخميسة. القاهرة ، الدار القومية د. ت.

رابعًا - أدب الرحلات :

١- أبو الهول يطير. القاهرة ، مطبعة الاستقامة ، ١٩٤٧.

٢- شمس وليل. القاهرة ، مطبعة الآداب ، ١٩٥٧.

٣- جزيرة الجيب. القاهرة ، مطبعة الآداب ، ١٩٦٣.

٤- خطوات على الشلال. القاهرة ، مطبعة الكيلاني الصغير ، ١٩٥٠.

٥- الأيام المائة. دار نهضة مصر ، ١٩٦٨.

خامسًا - أدب الطفل :

١- قنفذة وأمورة وما جرى لهما في الجنينة المسحورة. القاهرة ، دار نهضة مصر.

سادسًا - صور وخواطر :

١- عطر و دخان. القاهرة ، لجنة النشر للجامعيين ، ١٩٤٤.

٢- شفاء الروح. دار الكاتب العربي ، ١٩٥١.

٣- النبي الإنسان. القاهرة ، مكتبة الآداب ، ١٩٥٩.

سابعًا – دراسات لغوية وأدبية :

١– نشوء القصة وتطورها ؛ محاضرات. القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٣٦ .

٢– فن القصص. ط٢ القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٤٨ .

٣– ملامح وغضون. القاهرة ، مكتبة الآداب ، ١٩٥٠ .
صدر عام ١٩٦٩ عن دار المعارف بعنوان « الشخصيات العشرون » .

٤– مشكلات اللغة العربية. القاهرة ، ١٩٥٦ .

٥– الأدب الهادف. القاهرة ، مكتبة الآداب ، ١٩٥٩ .

٦– معجم الحضارة. القاهرة ، مكتبة الآداب ، ١٩٦١ .

٧– مناجيات للكتب والكتاب. القاهرة ، دار الجيل للطباعة ، ١٩٦٢ .

٨– ظلال مضيئة. القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٣ .

٩– طلائع المسرح العربي. القاهرة ، مكتبة الآداب ، ١٩٦٣ .

١٠– أدب وأدباء. القاهرة ، دار الكاتب العربي ، ١٩٦٨ .

١١– بين المطرقة والسندان. القاهرة ، دار الكاتب العربي ، ١٩٦٩ .

١٢– اتجاهات الأدب العربي في السنين المائة الأخيرة. القاهرة ، مكتبة الآداب ، ١٩٧٠ .

١٣– القصة في الأدب العربي وبحوث أخرى. القاهرة ، مكتبة الآداب ، ١٩٧١ .

٣– دراسات متعلقة بأدب محمود تيمور

١– أنور الجندي: قصة محمود تيمور. القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥١ .

٢– حمدي حسين: الشخصية الروائية عند تيمور. القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٨٨ .

٣– حمدي حسين: محمود تيمور ناقدا. دولة الإمارات العربية ، ١٩٨٩ .

٤– صلاح الدين أبو سالم: محمود تيمور الأديب الإنسان. القاهرة ، مطبعة الاستقامة ، ١٩٦١ .

٥– فتحي الإبياري: سلوى في مهب الريح ؛ نقد و تحليل. الإسكندرية ، لجنة الفكر والثقافة للجامعيين ، ١٩٥٤ .

٦- فتحي الإبياري: محمود تيمور و فن الأقصوصة العربية . القاهرة ، لجنة الفكر والثقافة للجامعيين ، ١٩٦١.

٧- فتحي الإبياري: عالم تيمور القصصي. القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦.

٨- محمد خلف الله: محمود تيمور موجها أدبيا. بحث ألقاه في مؤتمر المجمع اللغوي في ٥ من مارس ١٩٧٤.

٩- محمود بن الشريف: أدب محمود تيمور للحقيقة والتاريخ. القاهرة ، الكيلاني الصغير، ١٩٥٤.

١٠- نزيه الحكيم: محمود تيمور رائد القصة العربية. القاهرة ، مطبعة النيل ، ١٩٤٤.

وقد نشر عن محمود تيمور دراسات كثيرة ضمن الكتب النقدية ، ومقالات ، وأبحاث مختلفة في المجلات والصحف من أهمها :

* الأقصوصة التيمورية في مرحلتين ؛ دراسة مقارنة لقصتي محمود تيمور : « الشيخ سيد العبيط » و « ضريح الأربعين » . ماتتيا هوبيلد عام ١٩٧٧ . ضمن السلسلة الإسرائيلية « دراسات نصوص أدبية - ١ » . جامعة تل أبيب .

* محمود تيمور .. لماذا كان رائداً للقصة العربية ؟ للدكتورة ڤيلانت . وكانت رسالة دكتوراه بالألمانية ، وصدرت في كتاب .

نداء المجهول

— ١ —

سافرتُ إلى « لُبنان » ، سنة ١٩٠٨ ، لأروِّحَ عن نفسي ، وأنعم بفترة هدوء وبُعدٍ عن صَخَب الحياة ، و « لبنان » وقتئذٍ تحت السيادة التركيَّة . وقصَدت إلى « بعنتاب » (١) وهي قرية صغيرة لا تحوي سوى ثلاثة منازلَ ، وفندقٍ متواضعٍ لا يسعُ أكثرَ من ثمانيةِ أشخاصٍ. وكانت المِنْطَقَةُ في مَعْزِلٍ ناءٍ ، فأقربُ بلْدة إليها تبعُد منها مَسيرَ ساعتين على البِغال .

استقرَّ بي المقام في « فندق الأمان » لصاحبه « الشيخ عاد أبو المجد » . و وجدت المكانَ وَفْقَ هوايَ : هدوءٌ شاملٌ ، وهواء جافٌّ بارد يبعث في الجسم النَّشاط ، ومعيشةٌ ساذَجَة قريبة إلى الفِطرة . فالفندق أشبه بمنزل ريفيٍّ ، غَرس أمامه « الشيخ عاد » بعضًا من أشجار الصَّنَوْبَر والتُّفاح والعنب ، وأصنافًا من الأزاهر ، بطريقة غير منسَّقة ، ولكنَّها مقبولة .

وكانتِ الجبال الشامخةُ تحيط بتلكَ البُقعة الوادِعة ، كأنَّها حُرَّاسٌ يَخفِرونها . والوادي البعيد منبسِط أمام الفُندق بزُروعه المختلفة الألوان . وعلى سفح الجبلِ قُطعانُ الماشية ترعى الحشائشَ الجافَّة التي تنبت في جُرأة عجيبةٍ بينَ الصُّخور .

وكنَّا نُبيح لأنفسنا الظهورَ في الفُندق ، وعلى المائدة نفسِها ، بالملابس الَّتي تروقُنا ، فيرتدي كلُّ واحد منَّا ملابِسه الوطنية المريحة . وقد شجَّعَنا على ذلكَ « الشَّيخ عاد » نفسُه ، إذ تعوَّد أن يظهر أمامنا بملابسه الشرقية البديعة : القَفاطين الوطنيَّة ذات الألوان الزاهية ، والجُبَب الحريريَّة الفضفاضة المَوْشيَّة بالقَصَب ، يغدو فيها ويروح بمشيته المتَّزِنة الهادئة . و وجهُه الصَّبيح مشرقٌ دائمُ الابتسام فتَخاله سلطانًا من سلاطين ألفِ ليلة.

والرجل حُلو الحديث ، غاية في السَّماحة وكرم الضِّيافة . وقد تَعْجَب لتلك القيمة الزَّهيدة التي يرضى بها أجرًا للمبيتِ والطَّعام ، مع أنه يقدِّم لك من المآكل ما يساوي أضعافها . ولكنَّك إذا علمت أنه يملِك قُطعانًا من الغنم ، وأرضًا شاسعة للزِّراعة ، وبساتين مزدحمةً بالكُروم ومختلفِ الفاكهة ؛ زال عجبك ، وأيقنتَ أن كرم الرَّجُل سجيَّة فيه متأصِّلة ، ساعده عليها غِناه ، وما إدارة الفُنْدق في الحقِّ إلا هوًى نفسيٌّ لا يخلو من شذوذ.

واعتدنا ، نحن سكانَ الفندق ، أن نجتمعَ وهو معنا على مائدة واحدة ، والمائدة مستديرة تضم على سطحها العريض ما لذَّ وطاب من ألوان المُشهِّيات ، الَّتي اشتهَرتْ بها الموائد اللُّبنانية . فإذا جاء الخَدَمُ بصِنْفٍ منَ الطَّعام ، وضعوه وَسَطَ المائدة ، وتولَّى الشيخُ توزيعَه علينا . وكثيرًا ما استغنينا عن الملاعق ، فاستبدلنا بها أصابعنا ، نترك لها حريَّة العمل ، كما كان يفعل آباؤنا وأجدادنا منذ القِدم . وكأن سذاجة الحياة الَّتي تحيط بنا ، أوحت إلينا ذلك ، فجعلَتْنا نُزْري بتلك القيود البغيضة الَّتي فرضتها علينا مدنيَّتنا الحاضِرة . وفي أثناء الطَّعام ، يسامِرُنا « الشيخ عاد » بحديثه الطَّليِّ ، ويقُصُّ علينا قِصَصَه الطريفة في لهجة عَذْبة مُشْبَعَةٍ بحنان الأبوَّة . أمَّا نحن فكنَّا نُصغي محملِقين في وجهه ، يَغْمُرنا سحرٌ عجيب ، فكأننا انقلبنا أطفالاً صغارًا يُنْصِتون إلى ما يُرْوى لهم من بدائع الأساطير .

ومن غريبِ ما علمته من شأن « الشيخ عاد » أنه على عِلْم بوسائلِ التَّطْبيب ، يمارِسُها على طريقته الخاصَّة ، باستخدامِ الأعشاب وبعض العقاقير الحديثة. وقد شَهِدْتُ بعضَ المرضى الفقراء من أهل النَّواحي القريبة ، يَقْدَمون إليه ، يستشفونَ على يديه ، فما يرد أحدًا منهم ، بل يزوِّدهم فوق فحصه عن علَّتهم بالدواء من صيدليَّته المنزلية .

(١) الأسماء الواردة في هذه الرواية مصنوعة .

وكنّا في ذلك الوقت ستّةَ أشخاص ، غير « الشيخ عاد » وخدم الفندق . ومن الطّريف أن تضمّ أسرتنا هذه سيدةً إنجليزيّة ، قيل إنها مستشرقة ، وقيل إنها متخصّصة في العلوم الطبيعيّة ، جاءت « لُبنانَ » تدرُسُ طبيعةَ أرضه ، ونباته وحيوانه ... هي في نحوِ الخامسةَ والثلاثين من عمرِها ، هادئةُ القَسِمات ، ما تزال نَضْرَةُ الشباب تتخايل على وجهها الجميل .

وألفيتُ مرةً ، في الحديقة ، « حبيب » الخادمَ ، طروبًا في وِقْفَتِه ، يَرُشُّ الزرع ويغنّي . فقلت له وأنا أداعب سُبْحَتي وأبتسِم : « ما رأيكَ في صاحبتك الإنجليزية ؟ »

فحدق فيَّ لحظةً ، ثم اندفع يقهقِه . وأخيرًا قال لي : « ما لك وما لها ؟ اتركْها وشأنَها ، وإلا فالعاقبة وخيمة ! »

ثم التفت حوله في حَذَر ، ودنا منّي ، وهمس في أذني : « ألست تَرْهَبُ الجواسيس ؟ »

فدَهشت ، وتركت « حبيب » وقد اشتدَّ اهتمامي بهذه السيدة . وكان قد مضى عليَّ بضعةُ أيام في الفُندق ، تعرَّفتُ في أثنائها بجميع النُّزَلاء ، إلا أنّي لم أهتمَّ بغير هذه الإنجليزية ، وبرجل سوريٍّ مترهِّل الجسْم ، له رقبة مجعَّدة ناحلة كرقبة النَّسْر الهَرِم ، اسمه « كنعان » ، يَدَّعي أنه أستاذ للتّاريخ في دار الفنون بـ « إستانبول » ، أراه دائمًا في الحديقة ، حيث يفترِش العُشْبَ الأخضر ، ويتوسَّد حُزْمَةً منَ الهشيم ، ويمضي يدخِّن « النارجيلة » في اطمئنان . وكثيرًا ما تغاضيتُ عن مبالغاته وأكاذيبه ، يُنمِّق سردَها تنميقًا يُكْسِبها مَظْهرَ الحقيقة .

أما السيدة الإنجليزية « مس إيفانس » فقليلةُ الكلام ، مُحِبَّة للعزْلة ، لا تبادلنا في فترةِ الأكل إلا بضعَ كلمات بلُغة بين الفُصحى والعاميَّة ، تنطقها في شيء منَ الصُّعوبة ، ولكنَّها تُنصِتُ لحديثنا أيَّ إنصات ، ولا سيَّما إذا تحدَّث « الشيخ عاد » ؛ فأيقنتُ أنَّها تفهَم العربية جيِّدًا ، بيد أنَّها لا تُحسِن التلفُّظَ بها في يُسْر .

ولاحظت أنها تخرجُ منَ الفندق كثيرًا ، وتتغيَّب طويلاً ، وربَّما قضتِ النَّهار كلَّه في الخارج ، لا تعود إلا بعد مَغْرِب الشَّمس . فسألتُ « الشيخ عاد » :

« أين تكون هذه السيدة حين تغيب ؟ »

فقال لي وهو يبتسِم ابتسامَته الهادئة : « ربما كانت تَدْرُس طبيعة الجبال ! »

وكانت إذا آثَرَتِ المُكْثَ في الفندق ، جلستْ على مَقعد مُريح في طرَف الحديقة البعيد ، وفي يدها كتاب تُطالع فيه .

وكثيرًا ما رأيتُها تقضي السّاعاتِ الطُّوالَ على مَقعدها ، تنطوي نظراتُها على عزْم ونشاط وإرادة ، تخالِطها وَداعة مُحبَّبة . والكتابُ مُلقًى بجوارِها لا تنظُر فيه ، وهي تحدِّق بعينيها الزرقاويْن الحالِمتَيْن في الوادي البعيدِ الممتدِّ تحت قدمَيْها ، أو في الجبالِ الشّامخةِ المحيطةِ بها ، وقد أشرَق وجهُها بنورٍ عجيب ، وراحةٍ نفسيَّة شاملة .

* * *

ومرّةً كنتُ أتنزَّهُ في الحديقة ، تحتَ ظلال الصَّنَوبَر ، فرأيت مس إيفانس قاصدة إلى رُكنها البعيد، متأبِّطةً بضع صُحف ، و ورقَةً كبيرة مُبَطَّنَةً بالنسيج ، ملفوفةً على شكل الأسطوانة ، فما شَكَكْتُ أنَّها « خريطة » من « الخرائط » . وجعلتْ تجذِب إليها مَقعدها الطَّويل ، فرأيت نفسي قد اندفعت نحوها . ولما دنوتُ منها سلَّمت عليها منحنيًا ، وقلت لها بالإنجليزية :

« أأستطيع أن أساعِدك ، يا سيدتي ، في نقل هذا الكرسيِّ ؟ »

فابتسمتْ في لطف ، وقالت : « أشكر لك جدًّا ، يا سيدي . لا موجِبَ مطلقًا لأن تُتعِب نفسك ! »

ولكنّي أخذتُ المقعدَ منها ، وحملته وأنا أبتسِم ، وسِرت وإيّاها . ثم قلت : « أ تُعْجِبُكِ هذه البُقعة ؟ »

« إنّها من أجملِ المناطق الّتي رأيتُها في أسفاري . »

« والفندق ، أ تَجِدينَ فيه راحتَك ؟ »

« كل ما هو فطريٌّ ساذَج أجد فيه راحتي المنشودة . وأنتَ ، أ مسرورٌ من إقامتك هنا ؟ »

« كلَّ السرور ! »

« وهل تمكُث طويلاً ؟ »

« بضعة أسابيع . وأنتِ ؟ »

« قد أمكُث حتّى يغلِقَ الفندقُ أبوابه . إنَّ لي مهمة أريد قضاءها ، ولا أدري كم تتطلّب منَ الوقت ! »

وسقطتْ من يدها عَفْوًا حُزمة الصُّحُف ، فانحنيتُ عليها ، وجمعتُها لها ، فإذا بها منَ الصُّحُفِ العربيّة . فنظرت إليها مستطلعًا ، فابتسمتْ وقالت :

« لي شَغَف بلُغَتِكم ، وقد استطعتُ بعد دراسةِ بضعةِ أشهر أن أقرأها . »

« وكيف تجدينَها ؟ »

« صعبة ، ولكنّها موسيقيّة ساحِرة . »

وابتسمتْ ، فابتسمتُ أنا أيضًا .

وكنّا قد وصلنا إلى ركنها المختار ، فأنزلتُ الكرسيَّ ، وأعددتُه لها . وأحسست رغبةً تدفعني لأن أطيل الحديث معها ، ولكنّي خشيت أن أعكّرَ عليها صفوَ وَحْدتها ، فانحنيتُ أمامها أحيّيها . وفيما أنا عائد أدراجي ، وجدتها تبسُط الورقة المبطّنة بالنسيج أمامها ، فاستَرَقْتُ النظرَ إليها ، فإذا بها خريطة لبعض الجبال ، عليها بعض العلامات بألوان مختلفة ، ورأيت مس إيڤانس قد انحنت عليها تَتَفَحَّصُها وتدرس خِطَطَها بانتباه .

وانقضى يومان لم أرَ فيهما مس إيڤانس إلا لِمامًا ، ولم تسنَحْ لي الفرصةُ أن أبادِلَها الحديث . وفي اليوم الثّالث لَقيتُها في الحديقة ، وهي تجرُّ مَقعدها الطويل ، ذاهبةً به إلى ركنها المنعزل المشرِف على الوادي ؛ فأسرعتُ إليها ، ونُبتُ عنها في حمل المَقعد ، فنظرتْ إليَّ شاكرة ، فقلت لها :

« لِمْ تشاركينا في الطَّعام طَوالَ يومين . أرجو ألا يكونَ بك بأسٌ . »

« أشكر لك . لقد كنتُ في نزهة جبليّة . »

« وحدَكِ ؟ »

« أجلْ ، وحدي ، ولكنّني قد أعتمِد في بعض الأحيان على إرشاد دليل . إنّني مُغْرَمة بمثل هذه النُّزهة الفردية . »

وسِرنا وقتًا صامتيْن ، وأنا شديدُ الرَّغبة في متابَعة حديثها معي ؛ لعلّي أكشف شيئًا من غوامِض أسرارها .

ولما وصلنا إلى مكانها المختار ، بسطتُ لها مَقعدها ، فقالت لي وهي تتهيّأ للجلوس :

« أ لا تظنُّ أن في العزلة واجتنابِ المجتمع مَنْجاةً منْ شرور كثيرة ؟ »

فسُرِرْتُ من سؤالها ؛ إذْ تبيَّنتُ فيه الرغبة في مجاذبتي أطرافَ الحديث ، فقلت : « نعم . لا بأس بالعزلة المُؤقّتة ، يفزَعُ إليها المرءُ بين حين وحين . »

« والعزلةُ الدائمة ؟ »

« إنها تَبَتُّلٌ (١) ، يا سيدتي ، والتبتُّلُ لا يُطاق ! »

وجلستْ على المَقعد متمدِّدة ، فظهرت معالمُ جسمها الفاتن ، وحدقَتْ في السَّماء بعينيها الصافيتي الزُّرقة ، اللّتين تكشفان عن عراقة مَنْبِت ، وسلامة قلب ، وقالت : « إنَّ التبتُّلَ يَرُوضُ نفوسنا ، فتنقشعُ عنها غشاوتها ، ومِنْ ثَمَّ نستطيع أن نرى الوجودَ علَى

---

(١) انقطاعٌ عن الدنيا .

حقيقته .»

فأسندتُ ظهري إلى ساقِ صَنَوْبَرة عتيقة ، وعقدتُ ساعِدَيَّ بِصَدْرِي ، وقلت : « وماذا يَهُمُّني من معرفة هذا الوجود ؟ حسبي أنّي أعيش فيه !»

فرنَتْ إليَّ ، وقالت في شيءٍ منَ الاهتياج :

« إذا فهِمنا الوجودَ على حقيقته ، اتّصلنا بالسعادة الدائمة !»

« إنَّ السَّعادة ، يا سيدتي ، حولنا ، غيرُ بعيدةِ المَنال منّا ، فلِمَ هذا الطريقُ الوَعْر ؟»

« إن السَّعادة التي تطلبها أنتَ وغيرك من طُلّاب الدُّنيا ، هي سعادةٌ رخيصة تافهة .»

« صدِّقيني ، يا سيدتي ، ليس في الكون إلا سعادةٌ واحدة .»

فقاطعتْني ، غيرَ مَعْنيَّة بإجابتي ، وقالت : « لقد كنتُ مثلَكم ، أسعى للاستمتاع بتلك الزَّخارفِ البرّاقة ، حتّى تكشَّفَ لي المجتَمَعُ عن حقيقته ، وبان لي زَيْفُه وبُهتانُه . لقد وَثِقْتُ بدنياكم هذه ، فأَوْدَعتُها أعزَّ ما أملِك ، أودعتُها قلبي ، ولكنّها رَدَّتْ إليَّ هذا القلب مطعونًا . إني أكرَه دنياكم ! أكرهها !»

وأخفتْ رأسَها بين يديها ، ثم إذا هي تبكي ؛ فوقفتُ أمامها حائرًا جزِعًا ، وقد تَوَزَّعَني الألم . وسَرْعانَ ما أخذت تهدَأُ من رَوْعِها ، فكفكَفَتْ عَبرتَها ، وهي تقول :

« إنّي آسفة ! آسفة جدًّا على ما بَدَرَ منّي !»

فقلت متلعثمًا : « لا موجِبَ للأسف مطلقًا ... إنّما ... أأكونُ قد أسأتُ إليكِ على غير قصد ؟»

« كلا ... كلا .»

وابتسمتْ ، فَبَهَرَتْني ابتسامتُها : لقد تجمَّعَتْ فيها رَوْعةُ الأحزان في أنبَل معانيها ، فوقفتُ فترةً صامتًا أحدِّق فيها ، ثم أقبلتُ عليها في تمهُّل ، وانحنيتُ على يدها فقبَّلْتُها قبلةً رفيقة ، بَثَثْتُها ما يُكِنُّه لها قلبي من إجلال .

وتركتُ المكانَ على الأثَر .

* * *

قضيتُ اليومَ بأكمله ، أفكِّر في ما وقع لي مع مس إيفانس ، وأنا شديد التألُّم لحالتها ؛ إذْ وَضَح لي أنها تَنُوءُ بحزنٍ دفين ، وتتعثَّر بخيبة في آمالها ، ولَمّا تزلْ في اكتمال الشباب .

وانصرم اليوم التالي ، فلم أجسُر على التحدُّث إليها ، واقتصرتُ على تحيَّتها بيدي ، أو الإيماء إليها برأسي ، فكانت تردُّ التحية بابتسامة حُلوة .

وفي اليوم الثالث ، أطلت إقامتي في الحديقة عامدًا ، فلمّا رأيتُها مقبلةً ، ذهبتُ إليها وحيَّيتُها ، ثم قلت : « إنَّ الجوَّ اليومَ حارٌّ .»

« أليس هذا عجيبًا مع أننا على ارتفاع ألفَيْ مترٍ ؟»

وصمتتْ لحظة ، ثم قالت : « لقد بحثتُ عنكَ أمسِ .»

« تقصدِينَني ؟»

فابتسمتْ ، وقالت : « نعم ، أنت .»

واتجهتْ نحو مَقعدها الطويل ، فأسرعتُ إليه وحملته . وسِرت وإيّاها في الطَّريق الضَّيِّق المُلتوي ، المُظلَّل بشجر الجَوْز ، المُفْضي إلى رُكنها المعهود ، وأنا مُرْهِفٌ سمعي ، أنتظر حديثها بصبر ذاهب . ولكنّها لم تتكلَّم ، فظَلِلْتُ صامتًا . ولَمّا وصلنا ، وجعلتُ أُهيِّئُ لها المقعد ، تقدمت نحوي ، وأخذتْ بيدي ، وقالت في لهجة مؤثِّرة : « فلنكن صديقَيْن !»

فقلت متحمِّسًا : « سيدتي ...»

واحتبس القولُ في فمي ، فلم أزدْ حرفًا . ولبثنا

صامتيْن وقتًا ، وقد تمددت مس إيفانس على المقعد ، وانصرفتْ تنظُر إلى السَّماء ، وجلستُ أنا على كُومَةٍ من الهشيمِ بجوارها . وبعد حينٍ سمعتُها تتكلَّم ، وهي ما تزال إلى السماء ناظرةً :

« ولكن لا تنسَ ، يا صاحبي ، أمرًا واحدًا .»

فقلتُ بلهفة : « وما هو ؟»

« أنني امرأةٌ بلا قلب !»

فمضيت أرنُو إليها حائرًا ، ثم تناولتُ يَدَها في سكون ، وجعلت ألاطفها . وقلت ، وأنا أبتسم ابتسامةً عليها مَسْحَةُ الخيبة ، ولكنها مفعَمَةٌ بالإخلاص : « ثِقي أنني سأحترمُ لكِ هذا الشعور . اِعتمدي على صداقتي .»

« شكرًا .»

وأسبلتْ جفنيها ، كأنها تَستَدني النُّعاس . ومكثتُ أُنعِم النَّظرَ في وجهها الوسيم ، الصافي البشرة ، وأنا أناجي نفسي : « ماذا تُخفي هذه الصفحةُ الهادِئةُ تحتَها من تيَّاراتٍ عاصِفة جارفة ؟»

ثم نكَّسْتُ رأسي ، وجعلت أنْبُشُ الأرضَ بعودٍ يابس .

و وقع نظري على كتاب مس إيفانس مُلْقًى بجانب مَقعدها ، ولم أكنْ قد انتبهت لوجوده ، فتناولته ، فإذا به يبحث في الفلسفة الصُّوفيَّة . وطَفِقْتُ أُقلِّبُ صفحاتِه ، ثم استهواني بحثٌ من أبحاثه ، فانطلقت أقرؤه . وما كدت أنتهي منه ، حتَّى ابتدرتْني مس إيفانس تقول : « إنه كتاب لا يوافق أميالك !»

« ولكنَّ موضوعَه طريف شائق .»

« أ تراه كذلك حقا ؟»

« إنه يَضْطَرُّ القارئَ إلى التفكير في مسائل قَلَّما تسنَح لفكره .»

ثم صمتُّ فترةً ، وأنا أعبَثُ بالعود في يدي . وتابعتُ قولي : « إننا في الواقعِ لا يمكننا أن نصِلَ إلى فهمِ هذا الوجود بالأقيسة المادِّية وحدَها ، فيجب أن نتجرَّدَ ممَّا هو عالق بنا من ...»

فراحت مس إيفانس تضحك ؛ فقلت على الأثَر :

« أ تظنِّينَني غيرَ مخلص في قولي ؟»

« أرجو أن تكونَ مخلصًا .»

فابتسمتُ ، وقلت : « إنَّ الصُّوفيَّة لتستهويني حقا ، ولا سيَّما إذا أخذتُها عن أساتذةٍ مثلك !»

« هذا غيرُ كاف ، يا سيدي . إن الصُّوفيَّة تتطلَّب فِداءً جسيمًا . وكبيرٌ على النَّفْس أن ترضى بهذا الفِداء الجسيم من تِلقاءِ ذاتها .»

« ولكن ... »

فتابعتْ قولَها : « قد تعترضُ المرءَ في تاريخ حياته حادثةٌ ، حادثةٌ واحدة ، تحوِّلُ خُطَّةَ سيره ، وتُحلِّق به في جَوٍّ جديد يَقْسِره على تغيير نفسيَّته ؛ ومن ثَمَّ يتهيَّأ لقَبول الحقائق الصُّوفيَّة بلا مكابَرةٍ ولا عِناد .»

وطرق أسماعَنا حفيفٌ فيما وراءنا منَ الأغصان ؛ فالتفتنا معًا ، فإذا حبيب الخادم يتقدَّم من مس إيفانس ويقول لها : « لقد حضر الدَّليل ، فهل تأذَنينَ بمقابلته؟»

« فَلْيَأْتِ .»

وغاب حبيب هُنَيْهةً ، ثم عاد ومعه رجل منبسطُ القامة ، عريضُ الجوانب ، مكتَنِز العَضَلات ، له شارب غليظ ، كأنه مصنوع من الآبِنُوس ، ورقبةٌ كأنها الجِذْع العتيق ، ينظر إلينا نظراتٍ حادَّة ، كأنه يزدرينا .

واقترب الرجلُ من مس إيفانس وحيَّاها ، فأحسنَتْ لقاءه ، ثم التفتَتْ نحوي ، وقالت وهي تتلطَّف في بَسْمَتِها :

« أقدِّم لك دليلي الَّذي أعتمد عليه في ارتياد هذه المِنْطَقَة .»

ودنا الرجلُ مني ، وصافَحَني في شيء منَ التّحفُّظ ، وقال بصوت خَشِن ، وهو يَفتِل شاربه ، أو بالأحرى يداعبُه مزهوًّا :

« محسوبك «« مجاعص »» ، ابن الجبل . أعرف هذه الجهة ومخابئَها وطُرقاتِها كما أعرف أصابعَ يدي. يمكنني – صيفًا وشتاء – أن أسْريَ في اللّيل كما أسير في النّهار ، لا تَعُوقُني ظُلمة ، ولا رياح ، ولا لصوص ، ولا ضَوارٍ ، ولا ...»

وخَشيتُ أن تمتدَّ ثرثرتُه ، فَسعَلْتُ مقاطعًا إيّاه ، وقلت : « تَشرَّفنا ، يا سيد مجاعص .»

والتفتُّ إلى مس إيڤانس فوجدتُها تضحك في صوت مكتوم ، وقالت لي :

« إنّه كثير الفَخْر بنفسه ، ومظهرُه يدلُّ على القَسوة ، ولكنّه في الحق طيّبُ القلبِ . وعلى كل حالٍ فهو رجل قد يُفيدني في رحلتي..»

« أيُّ رحلة ؟»

« رحلة سأقوم بها في هذه المِنطَقَة ؛ لكَشْف أثَرٍ ثمين .»

« أثر ثمين ! وهل تتغيَّبينَ طويلاً ؟»

« لا أدري . ربما تغيبتُ أيامًا معدودة ، وربما ...»

ثم صمتَت وهي تبتسم ابتسامةً غامضةً فيها شيء من الاستسلام للأقدار ، فقلت لها : « ومَن تصحَبين؟»

« هذا المجاعص !»

« وحدَه ؟»

« نعم !»

فحملقتُ فيها مدهوشًا ، فأتمّتْ هي كلامَها قائلة :

« إن المخاطر تستهويني . وكلّما عظُمتْ أحسستُ رغبتي قد اشتدَّت في التغلُّب عليها .»

وانبعث مجاعص يحدِّث مس إيڤانس في شأن البغال التي يريد انتقاءَها للرّحلة ، وأفاض في الحديث . فإذا به يلقي محاضرة في منافع البَغل ، وما حَبته الطبيعةُ من قوةِ بِنية ، واستعدادٍ لتحمُّل المشاقّ ، ومهارةٍ في اختراق شعاب الجبال وتسلُّق صخورها . ثم انعطف بعد فراغه من ذلك إلى تقسيم البِغال وَفْق ألوانها : فهناك البغل الأغرّ ، والأصْهَبُ ، والأدهم ؛ فالأول عنيد حَرون ، والثاني طائشٌ ، ولكنه لا يخلو من جُبن، والثالث ...

وما إن وصل في حديثه إلى هذا الثالث ، حتّى رأيت مس إيڤانس قد قامت وقالت له :

« إنّي واثقةٌ بخبرتك ، فانتَقِ لي ما يصلُح لرحْلتنا منها ، وأخبرْني بالثّمن . ولا تنسَ الغِرارات والخيامَ. أ تريد قائمة مفصَّلةً بما أطلب ؟»

« ليست لي بها حاجة . إن القائمة في رأسي . لم يُنجِبْ لُبنانُ رجلاً أوسعَ منّي خبرة ، ولا أقوى منّي ذاكرة ؛ فاطمئنّي مِن هذه الناحية . أ لمْ أحدِّثْك بما وقع لي مع السائح الأمريكي «« مستر استانلي »» ؟»

فبادرت مس إيڤانس بالإجابة ، قالت : « نعم ، لقد سبق أن حَدَّثْتني في هذا . والآنَ ، إلى اللّقاء .»

« إلى اللّقاء ، يا سيدتي . لا تخشَيْ شيئًا ما دُمْتِ في حِمايَ . إعتمدي على الله ثم عليَّ .»

.وانحنى أمام مس إيڤانس ، ثم ما لبِث أن دار على عَقِبَيْه في الدَّرْب المُلتوي .

وقلت لمس إيڤانس وأنا ما زلتُ جالسًا على كُومَةِ الهشيم : « لا أدري ما الّذي يَحملُكِ على اصطحابِ مثل هذا الجلاد ؟ ألا تَخْشَيْنَه ؟»

« لا أخشى أحدًا من سكان هذا الجبل . إنّني قد خَبَرْتُ طَبائعهم ، فإذا هم من أسلَم الناس طَوِيَّةً . هؤلاء ، يا صديقي ، يعيشون على الفِطْرة ، وقد حبَتْهم حياةُ الجبلِ أنبلَ الخِصال وأشرفَها .»

« وهذه الرحلة ، وذلك الأثر الثمين ؟»

« إنها سَلوة أدفع بها مَلَلَ الحياة .»

وجاء في ذلك الوقت حبيب يحمِل البريد ، فأعطى مس إيڤانس رسالة ، ثم ناولني لَفيفةً تحمِل طابَعَ بريدِ مصر ، وهو يقول مبتسماً :

« أظنُّك الآن ، يا سيدي ، مُرتاحَ الخاطر لوصول هذه الرِّزْمَة ؟ لقد سألتني عنها كثيراً .»

« لقد تأخَّر وصولُها .»

« لا تنسَ ، يا سيدي ، أن تحتَفِظَ لي بالصحف المصرية بعد مطالعتها .»

« بكل سرور .»

وكانت مس إيڤانس قد فَضَّتْ رسالتها ، فأخذتْ تتلوها . و وجدتُ وجهها قد أشرق ، وعينيها تلمعان. وما إن أتمَّت قراءتَها حتى قالت : « إنهم حاضرون . هذا بديع !»

ونظرت إليَّ ، وقالت : « المعذرةَ ؛ إذ أتركُكَ الآن . إلى اللِّقاء .»

« إلى اللِّقاء ، يا سيدتي .»

والتفتُّ نحو حبيب ، وقلت : « من هم الذين سيحضرون ؟»

فمطَّ الرجل شفتيه ، وقال :

« علمي علمك ، يا سيدي !»

ورأيت طَرَفَ الرسالةِ الممزَّقَ على خَطْوَةٍ منّي ، فأخذتُه ، وألقيتُ عليه نظرة ، فإذا هو يحمل خاتَم البريدِ السوريِّ . أما العنوانُ فسقيم الخط ، مكتوب بالإفرنجية .

وسمعتِ حبيب يقول وهو متظاهِرٌ بانهماكه في قَشْرعودٍ يابس :

« ما زلتُ ، يا سيدي ، أنصَح لك بالابتعاد عن هذه السيدة . إن ...»

فقاطعتُه قائلاً : « أشكر لكَ ، يا حبيب ، أشكر لك . والآن أرغب في أن تذهب إلى المطبخ ، تُوصي لي بصَحْنٍ من الأرُزِّ المسلوق في العَشاء .»

« أرُزّ مسلوق ؟»

« بي شيء من عُسْر الهضم .»

« إذاً عليك بحبَّة البَرَكة .»

« لا بأسَ ، جَهِّزْها مع الأرُزّ . اِذهب فأنفِذْ ما أمرتُكَ به .»

وذهب حبيب وبقيتُ بمفردي أتطلَّع إلى الأُفُق البعيد ، وأنا أقلِّب الفِكَرَ في هذه المُعَمَّياتِ : رِحْلَة مس إيڤانس العجيبة ، وهذا الأثر الثمين المجهول ، والزُّوَّار أصحابُ الرسالة ، وأخيراً هذا الجاعص الّذي يحمل وجهَ قاتل !

ولا أدري كم مضى عليَّ منَ الوقت وأنا على هذه الحال . ورأيتُ الشمس تنحدِر الهُوَيْنَى في الأفق ، وقد أخذ يبتلعُها خِضَمُّ الضَّباب القاني ، المترامي بأطراف الودْيان ، الزاحفُ علينا مع طلائع اللَّيل . ومرَّتْ عليَّ نَسْمَةٌ باردة اختلجَ على أثَرِها جسدي ، فقُمْتُ متباطئاً وأنا أجمع حولي ملابسي .

* * *

وفي الصَّباح ، عندما أحضر حبيب الفَطُور ، وقعتْ عينُه على رِزْمَةِ البريد الّتي وصلت إليَّ أمس من مصر ، وهي على حالها لم تُفَضّ ، فحدَّقَ فيَّ متعجِّباً، فقلت : « ليس عندي وقتٌ لفضِّها ، يا حبيب .»

فهزَّ رأسَه موافقاً ، وعيناه تنطقان بضدِّ ما أبْدى . ولمحتُ في جيبه مجلَّة « الاستقبال » المصريَّة المعروفة ، فقلت : « أ جديدٌ هذا العدد أم قديم ؟»

فتثاءب وتمطَّى طويلاً ، وقال وهو يأكل أطرافَ الكلمات من فَرْطِ كَسَلِه : « آخر عدد ، يا سيدي .»

« ومن أين حَصَلْتَ عليه ؟»

فتضاحك ، وأسند جسمه المجهودَ إلى الحائط ، وقال : « أخذته خُلْسَةً من الأستاذ كنعان .»

« خُلْسَة ؟»

« لا حَرَجَ عليَّ في ذلك ، يا سيدي . إن صحف الأستاذ تَظَلُّ في لفائفها أبد الدَّهر ، وعندما يضيق بها ذَرْعُه يَرُصُّها تحت السرير ، لتكونَ طُعْمَةَ الفيران . ألستُ أحقَّ من الفيران بها ؟»

« طبعًا ، يا حبيب . لقد أحسنتَ صنعًا .»

« ولكنَّني مع ذلك أحِبُّ الأستاذ كنعان ، وأعترف بأنه رجل عظيم .»

« إنه عالم كبير .»

« وهو كريم الأخلاق جدًّا . أ تُصَدِّقُ أنه قضى ليلة أمسِ في صحبتي ، نحتَسي العَرَقي ، ونسمُر حتَّى السَّحَر ؟»

وفَغَرَ فاهُ بغتَةً عن تَثاؤُبَةٍ كريهة بصوت مُفَزِّع . وسمعنا صوتَ الشيخ عاد يناديه ، فحاول استعادةَ نشاطه ، وهرولَ خارجًا منَ الحجرة ، وهو يتعثَّر في خُطاهُ .

وخرجتُ إلى الشُّرْفَة ، وأرسلتُ الطَّرْفَ حولي ، أتأمَّلُ جَمالَ الطبيعة في ذلك الصَّباح البديع . وكان بعضُ الرُّعاة منَ البَدو يضربونَ خيامَهم في سَفْح الجبل البعيد . فأخذت مِنْظاري ، وبقيتُ أراقبهم في اهتمام، وأنا أغبِطهم علي حياتِهم الساذَجَة السهلة الصَّادقة ، وتمنَّيت لو استطعتُ أن أحيا مثلَهم وقتًا منَ الزَّمن .

وتركتُ الشُّرْفة ، وخرجت إلى الحديقة بخُطًى هيِّنة ، وقد اعتزمتُ أن أقضيَ شَطْرًا من يومي في الخَلاء ، أرتاد المِنْطَقَةَ منفردًا ، كي أستمتعَ بلذَّةِ الوَحْدَةِ بين أحضان الطَّبيعة .

وبينا كنتُ أخترق الحديقة ، قابلتُ الأستاذ كنعان ، يحمِل وِسادةً تحت إبْطِه ، وهو يجرُّ نفسه في مشقَّة .

فتصافحنا ، وقال لي : « إلى أين ؟»

« بي رغبة في ارتياد هذه المِنْطقة الَّتي تحيط بنا . أ ليس منَ العار أن أعيشَ فيها ، دون أن أعرِفَ عنها شيئًا ؟ أ تصدِّق أنَّني لم أفارقِ الفُندقَ وحديقتَه منذ قَدِمْتُ ؟»

فنظر إليَّ بعيونه المنتفخة المُطْبَقَةِ الأجفان ، وانفرجَتْ أشداقُه المترهِّلَةُ بقوله ، وهو يحاول نَصْبَ قامَتِه :

« لقد أحسنتَ صُنعًا ، يا ولدي ، في تدارُكِ هذا النقص . إنك لو علمتَ ماذا تحوي هذه المِنْطَقَةُ من كنوز طبيعية نادرة ؛ لاستحوذَتْ عليك الدَّهشة والتعجُّب .»

« أ قُمْتَ فيها بأبحاث علمية ، يا أستاذ ؟»

« إنك لو سألتَ حَصْباءَ هذا الوادي ، واستجوبْتَ صخورَ ذلك الجبل ؛ لَروتْ لك ما عانيتُ من مشقَّة في بحثي واستقصائي . أنت تجهل بلا ريب أنِّي أعِدُّ محاضرة في طبقات أرض هذه المِنْطَقة ، وأطوارها في التاريخ .»

« بحث ممتع بلا ريب .»

« ولكنَّه متعب ، يا ولدي . أ تصدِّقُ أنِّي قضيتُ ليلة أمس لم يَغْتَمِضْ لي جَفْن ، وأنا منكبٌّ على أوراقي وكتبي ، والقلمُ لم يبرَحْ يدي لحظة ؟»

« كان الله في العون .»

« والآن أنا في حاجة إلى التمدُّد قليلاً في الحديقة . أ ليس لأبداننا علينا حقٌّ ؟»

« دون شك ، يا أستاذ . ولماذا تركتَ حجرتَك ؟»

« إنها بجوار المطبخ ، فالدَّقُّ لا ينقطع في ليل ولا نهار .»

وظهر بيننا الشيخ عاد بغتةً ، وسمعناه يقول ،

وحبّاتُ السُّبْحَةِ تتنقّلُ بين أصابعه :

« ستنعَم ، يا أستاذُ ، من الغد بنوم هَنِيٍّ . لقد أمرتُ بنقل المطبخ إلى مكانٍ بعيد . »

فقلتُ : « حقا ، إنَّ الأستاذَ لا ينال حظَّه من هادئ النَّوم ، مع أنه في حاجة إلى الرّاحة . إنه دائم التَّجْوال في المِنْطَقَةِ المحيطة بنا باحثًا منقّبًا ، يدرس طبيعةَ الأحجار . »

فقال الأستاذ كنعان موجّهًا كلامَه إليَّ :

« أحسَبُكَ سوف تحذُو حَذْوِي . »

فالتفتَ إليَّ الشيخ عاد وقال :

« ماذا ؟ ألكَ أنت أيضًا شَغَفٌ بهذا العلم ؟ »

فقصَّ الأستاذ كنعان على الشيخ عاد رغبتي في ارتياد هذه المِنْطَقة ، فقال الشيخ :

« كلكُمْ هذا الرجل ، غيرَ أن مس إيفانس تَفُوقُكم في هذا الشَّغَف ، ولها غرام جنونيٌّ بالكَشف عن الآثار المجهولة . »

فنظرتُ إليه متسائلاً ، فروى لي كيف أنها كلَّفتْه مساعدتَها في الكَشف عن أثَرٍ قديم ، يقال إنه قائم خلفَ هذه الجبال .

* * *

وتركتُ « الأستاذ كنعان » يَهْنَأ بنومه اللّذيذ ، وخرجت منَ الفندق ، و وقفتُ قليلاً أرسُمُ خُطَّةَ السَّير . وتلفَّتُّ أحاوِل تحديدَ الأمكنة ، ونورُ الشَّمس يسطع بشدة في ذلك الفضاء الفسيح ، فدفعتُ بقدمي ، وسرتُ أضرب في فَلَواتِ هذه البُقعة الجَرْداء ، على غير هُدى .

و وجدتُني أسائل نفسي : « تُرى هل أقابلُها ؟ » وسرتُ ، ثم سرتُ ، والسؤال لا يفتأ يتردَّد في خاطري : « أ تكون قد نَصَبَتْ خَيْمتَها اليومَ بالقرب من مَضْرِب هؤلاء الرُّعاة في ذلك المكان القَصِيِّ ؟ »

وبعد لأيٍ وصلتُ إلى هنالك ، وجُبْتُ الناحية ، فما تركت موضعًا لم أزرْه ، وما وقع بصري إلا على هؤلاء الرعاةِ المتقشّفين ، بوجوههم الطويلة المشدودة البَشرة ، حولهم أغنامُهم الهزيلة ، وكلابهم الضامِرة. وقد تجمَّع القوم إليَّ ، يرحّبون بي ، ويبالغون في إكرامي .

واتجهت مرَّةً صَوْبَ الشَّمال ، ومرةً نحو الشرق ، وثالثة إلى الجنوب ، وهلمَّ جرًّا ، حتّى أحسستُ قدَميَّ لا تستطيعان حملي ؛ فأخذتُ سَمْتي أخيرًا إلى الفندق ، وقصَدت من فوري إلى الحديقة ، وذهبت حيث الأستاذ كنعان ، فوجدته يَغِطُّ في النَّوم . فاخترتُ مكانًا غيرَ بعيد منه ، وارفَ الظلِّ ، غزيرَ العشب ، فتمدَّدْتُ عليه ، ورُحْتُ في سُبات .

* * *

ولَمّا حان وقتُ الغَداء ، جاء حبيب فأيقظَنا ، ولم تشارِكْنا مس إيفانس في الطَّعام . وبعد أن انتهينا من الأَكل ، ترامَيتُ على مَقعد مُريح ، وانطلقتُ أدخّن وأتناول القَهوة . وخرج الجميعُ فلمْ يبقَ في الحجرة إلا أنا و حبيب ، وكان ينظِّفُ المائدة . ولضِيق المكانِ في الفُندق ، كنّا نتَّخِذ حجرةَ الطَّعام بَهْوًا للمُسامَرة والتَّدْخين . وكان جيبُ حبيب منتفخًا بالصُّحُف والمجلات . وسمِعته يُفيضُ في حديث لا مُنْتَهى له ، لم أعِرْهُ اهتمامي ؛ إذْ كنتُ مشغولاً بالتفكير في بعضِ شأني .

ولَمّا انتهتْ مهمّتُهُ ، ورأى منّي إعْراضًا ، تركني في الحجرة وخَرج ، فمكثْتُ وحدي أنعَم بتدخين لَفائفي . وفيما كنتُ على هذه الحال ، شهدتُ مس إيفانس تدخُلُ الحجرة ، فوقفتُ على التوِّ أحيِّيها ، فقالت : « أخشى أن أكونَ قد قطعتُ عليك سبيلَ

تفكيرك .»

« لم أكنْ أفكّر في شيء بعيدٍ عنك .»

« كيف ؟»

« أصرِّح لكِ أنّني كنت أفكر في رحلتِك .»

« أ إلى هذا الحدّ تَهُمُّكَ هذه الرحلة ؟»

« أعترف لكِ بأنّي كثيرًا ما فكَّرتُ فيها .»

« وكيف تَراها ؟»

« أراها مخاطَرةً تستوجِبُ الحَذَر .»

فضحكتْ طويلاً ، وقالت : « إنك تبالغ .»

ثم جلستْ ، وأشعل كلٌّ منا لِفافة ، وغَمَرَنا الصمتُ هُنَيهَة . وأخيرًا تكلّمتْ مس إيڤانس وهي تنفثُ دُخانَ لِفافتها في تَأنٍّ ، وقالت :

« لعلك تعجَبُ إذا أخبرتك بأنّني صرفت أكثرَ من عام ، وأنا أشتغل بجمع المعلومات عن هذا الأثر الثّمين الّذي حدثْتُكَ في شأنه ، حتّى استطعت أن أحقّقَ موضعَه .»

« وكيف انتهى إليكِ خبرُ هذا الأثر الثمين ؟»

« حضرتُ في الصّيف الماضي إلى لُبنان ، أَنْشُدُ العُزْلَةَ في هذه البُقعة السّاكنة ، فسمِعْتُ من بعضهم قصةً عن قصرٍ مسحور تسكنُه الأشباح ، ينطوي عليه بطنُ الجَبَل الّذي يحيطُ بنا ؛ فشُغِفْتُ بهذه القصّة ، واعتزمتُ ارتيادَ هذه البُقعة ، لاكتشافِ موضعِ القَصر ، وإماطة اللّثام عن سرّهِ الخفيّ .

فقلت ، وأنا متحيِّر : « أ يكونُ هذا الأثرُ الثمين وقصرُكِ المسحورُ شيئًا واحدًا ؟»

« هو ذلك .»

فصمتُّ حينًا ، وأنا أحدِّقُ في وجه مس إيڤانس لأتثبَّتَ من صِدْق قولها . وقد خطَرَ ببالي – أوّلَ وَهْلةٍ – أنها تهزأ بي ، فرأيتُ وجهها ينطِقُ بصدقٍ وإخلاص ، فقلت لها : « أ تعتقِدين إمكانَ رؤيةِ الأشباح ؟»

« لم أرَ في حياتي حتى الآن واحدًا منها .»

ومكثَتْ تحدِّقُ في دُخان لِفافتها ، وتقول :

« إنما قد ...»

فقلتُ لها : « أ واثقةٌ أنتِ من وجودِ هذا القصر؟ أخشى أن تكونَ القصة أسطورةً من الأساطير !»

« كلا ، لقد تأكّد لي وجودُه ، وهو قائم في بُقعة موحِشةَ نَأَتْ عنِ العُمران .»

« وهل حدَّثَكِ في شأنه شخصٌ رآه بعينه ؟»

وما كدت أُتِمُّ جُملتي ، حتّى قَدِمَ علينا حبيب ، وقال لمس إيڤانس : « الثلاثة الزُّوّار الّذين تنتظرينهم قد حَضَروا ، يا سيدتي .»

فالتفتَتْ نحوي مس إيڤانس وهي متهلِّلةُ الوَجه ، وقالت : « إن هؤلاء الزوّارَ يستطيعون الإجابة عن سؤالك . يا لَهُ من اتّفاقٍ غريب !»

وقالت لحبيب : « أدْخِلْهم حالاً .»

وانثنَتْ إليّ تقول : « لقد حضروا في الموعدِ الّذي حدَّدوه لي في الرِّسالة . ألا ترى أنهم جديرون بالإعجاب ؟»

وبعد قليل دخل الحجرة ثلاثةُ رجالٍ من العرب ، لا يختلفون في زِيِّهم وسَحْنَتِهم عن رُعاة الغنم . وأرسلتُ عيني فيهم ، فلم أستطع أن أتبيَّنَ فَرقًا يُميِّزُ بعضَهم من بعض ، فكأنهم تَوائمُ . وأقبلوا علينا ، فحيَّوْنا أحسنَ تحية ، و وَزَّعت مس إيڤانس عليهمُ اللّفائف ، وأمرتْ لهم بالقهوة ، وبدأت تحدِّثُهم بعربيتِها المُهَشَّمَة ، في لهجةٍ لطيفة .

وألقيتُ سؤالي عليهم ، فوجدتُ واحدًا منهم قد نهض قائمًا ، وتقدّم من مس إيڤانس و وجهُه يَفيضُ حَماسًا ، وهو يقول : « لقد كنتُ واحدًا من عَشَرةِ رجالٍ ، قاموا لكَشْفِ هذا القصرِ .»

فقلتُ له : « وهل وصلتم إليه ؟»

« كِدْنا ، ولكنّنا لم نفعلْ !»

« لماذا ؟»

« لقد منعتنا شياطينُ القَصْر !»

فتضاحكتْ مُقهقِهًا ، فدنا الرَّجلُ منّي ، حتّى لم يَعُدْ بيني وبينه إلا خطوةٌ واحدة ، وقال ، وقد اشتدّت لمعةُ عينيه :

« أقسم ، لو رأيتَها وهي على ذِرْوة الجبل تُلقي علينا الحجارة الغليظة ، لَما بَدَرَتْ منك هذه الضِّحْكَة !»

فقلت مُحاجيًا : « وهل رأيتَها أنتَ بعينَيْ رأسك، وهي تقذفُ عليكُمُ الحِجارةَ ؟»

فانتفض الرجلُ انتفاضة المحموم ، ودقَّ صدرَه بيدَيْه ، وقال : « أوَ تظنّني كاذبًا ؟»

وكان حبيب قد أتى بالقهوة ، فعاد الرَّجل إلى مجلسه . والتفتتْ إليَّ مس إيڤانس ، وقالت في طُمَأْنينَةٍ موفورة : « إنهم لا يكذبون .»

ثم سألتُه في تفاصيل ذلك الحادث ، فطَفِقَ يقول:

« كان ذلك منذ خمسةٍ وعشرين عامًا ، وأنا في أنْضَرِ عمري ، أرسلَنا المُتصرِّفُ مع بعض رجال الدَّرَكِ لنبحثَ عن هذا القصر ، وكان قدِ اتَّصلَ بعلمه أنَّه يَحْوي كنوزًا ، فانطلقنا في شعابِ هذا الجبل الأغْبر ، كأننا الذِّئابُ الجياعُ تبحث عن فريسة . وقضينا عشرةَ أيام ، حتّى كدنا نَهْلِكُ . وما إن شارفَتْ مهمّتنا تمامَها ، وأوْشَكْنا أن نصلَ إلى القصر ، حتى أحسسنا الجبلَ يَتزَلْزَلُ ويتفكَّكُ حولَنا ، وسمعنا دَويا قاصِفًا ، وانطلقَت الحجارةُ هاويةً علينا ، كأنها طَلَقاتُ الرَّصاص . وصَرَخَ أحدُنا : « الشياطينُ تَرْجُمُنا ! الهربَ ! الهربَ !»

فرفعتُ رأسي ، فإذا أشباح سودٌ هائلة يندلع من عيونها اللَّهَب ، تتضاحك في بشاعة ، وترمينا بكُتَل الحجارة الضخمة . فكلَّما أراد الهربَ من هذه الكُتَل واحدٌ منا ، رمى بنفسه في الهاوية ، فلا يصل إلى قاعها إلا محطَّمًا . لقد قُضِيَ على زملائي كلِّهم في لَحَظات معدودة ، ولم ينجُ أحدٌ غيري . نجوتُ وأنا في حالةٍ يَفْضُلُني فيها المَيْتُ !»

فقلت له : « وهل رأيتَ بنفسكَ القصرَ ؟»

« أصْدُقُكَ القولَ ، إني لم أرَ شيئًا في شكلِ قصر ، ولكنّني أبصرتُ جزءًا من جبل به فَجَواتٌ كالّتي تكون عادةً في الجبال . وقد أشار إليها رئيسُ الدَّرَك وهو يقول : « هذا هو القصر المسحور .»

وهنا سألتُه مس إيڤانس هل يرضى أن يرافِقَها في رحلتِها ؟ فاعتذر بكِبَر سنِّه ، وكَثرةِ مَن يعولهم من أفراد أسرته ، ولكنَّه وعدها أن يقدِّمَ لها كلَّ ما عنده من معلومات ذاتِ شأن .

وروى لنا ثاني الزُّوَّار حكاية شابٍّ استهوتْه قِصَّةُ القصر المسحور ، فخرج منفردًا يطلُبُ كَشْفَه ، ولكنه لم يَعُدْ ، ولم يَسمع عنه أحد خبرًا . فنظرتُ إلى مس إيڤانس وقلتُ :

« على الرغم من كل ذلك تستهدِفينَ (١) للخطر، وتُصِرِّينَ على الذَّهاب لاكتشافه !»

فابتسمت ابتسامةً عريضة ، وقالت :

« قلتُ لكَ إنني أهوى المخاطر . أضِفْ إلى ذلك أن اعتقادي وثيق في القضاء والقَدَر .»

ومع معارضتي لها ، ودهشتي لإصرارها ، كنت في صميم نفسي معجبًا بشجاعتها النّادرة ، موافقًا على رِحْلَتِها الخطيرة . وقلت لها :

« إذا صحَّ وجودُ هذا القصر ، فسيكون من أكبر العجائب !»

(١) تتعرَّضين .

« وهذا ما يَحفِزني لاكتشافه .»

« هل وصلتِ إلى معرفة تاريخه ؟ في أيِّ العصور بُنِيَ ؟ ومَن شيَّده ؟»

« لديَّ معلوماتٌ مُهَوَّشَة (١) في هذه النقطة ، ولكن الشيخ وعدني أن يأتيَ لي بالخبرِ اليقين .»

* * *

وفي الغَدِ شاركتْنا مس إيڤانس في طعام الغَداء .

وكان حديثُنا على المائدة حديثًا مألوفًا ، لم يَتَعَدَّ اعتدالَ الجوّ ، وطِيبَ الفاكهة ، وجودةَ المياه . ولَمّا انتهينا منَ الأكل ، دعاني الشيخ عاد لتناول القهوة في حجرته الخاصّة ، ودعا معي مس إيڤانس و الأستاذ كنعان . وجلسنا على الوسائد الأرضيّة المريحة ذاتِ المساندِ الليِّنة . وكانت حجرةً بديعة ، كلُّ ما فيها ينطق بذوق شرقيٍّ أصيل .

وأوصى الشيخ عاد بأن تجهزَّ القهوة والنراجيل ، وهو يقول لنا : « لديَّ طُبّاقٌ عجميٌّ فاخِر ، لا مثيلَ له في الشام كلِّها !»

وأخرج سُبْحته ذاتَ الحباتِ الحمرِ الكبيرةِ اللامعة، وأخذ يداعبُها بين أنامله هُنَيْهَةً ، ثم قال في صوت رفيق ، ولهجة رزينة :

« حقا ، يا مس إيڤانس ، إن حكاية قصرك المسحور أعجوبةُ الأعاجيب . كنت معتقداً قبل تكليفك إيّايَ استقصاءَ خبره ، أن قصته خُرافةٌ منَ الخرافات الشائعة ، فلم أعرْها اهتماماً مُطلقًا ، ولكنّي الآن بعد أن بحثتُ الأمر جليا أجِدُني أمامَ أثر طريف له تاريخ عجيب !»

فأشرق وجه مس إيڤانس والتفتت إليَّ مبتسِمة . وتكلَّم الأستاذ كنعان فقال :

« لقد درستُ آثارَ سوريَّةَ جميعَها ، ومن بينها هذا القصر ، وإني لأدْهَش كيف خَفِيَ أمرُه عليكم إلى هذا الحدِّ !»

فابتسم الشيخ ابتسامة لطيفة ، فيها إشفاق ومداعبة، وقال : « إذًا حدِّثنا أنْتَ . إنّنا لفي شوقٍ عظيم لسماعِ ما عندك .»

وفي هذا الوقت جاء حبيب بالقهوة ، ثم خرج . وعاد بعد وقت قصيريحمل النَّراجيل الأربعَ ، و وضع أمام كلٍّ منا واحدةً منها ، ثم مضى .

وعمَّ الصمتُ المكانَ فترةً منَ الزّمن ، ثم بدأتِ الحُجرة تتجاوب بقرقرة هادئة ، كأنَّها ضحِكات مكتومة من كائنات غيرِ منظورة . وأخذت تنعقد أمامنا وفوقَ رءوسنا سحُبٌ رقيقة ، فتمتدُّ وتغلُظُ تارةً، ويندمج بعضُها في بعض تارةً أخرى ، فتبدو لنا كأنَّها أشباح عجيبة تزدحِم علينا ، لتُصْغِيَ إلى ما نتحدَّث به في أمر هذا القصر المسحور .

ونَحّى الأستاذ كنعان فمه عن مَبْسِمِ النارَجيلة ، وقال : « كان يجدُر بكم أن تسألوني في هذا الأثر العظيم . إنه من بقايا الرّومان ، وعِمارته بيزنْطِيَّة بحتة ، والَّذي شيَّده الإمبراطور يونان ...»

فقلتُ له : « ولكنَّنا ، يا أستاذ ، أمام قصر حديث، بناه أحدُ شيوخ الجبل !»

فزوَى الأستاذ كنعان ما بين حاجبَيْه ، وتحرَّكت شفتاه حركة إنكار ومعارضة ، وانهمك في نارَجيلته يستمع إلى قرقرتها .

و وصل الشيخُ عاد ما انقطعَ من حديثه ، قال :

« لقد بَنى هذا القصرَ رجُلٌ يسمّى «الشيخ بشير الصافي» . كان شيخًا من شيوخ الجبل المشهورين ، موطِنُه في الجنوب ، فليس هو من أبناء هذه الجهة . لذلك ظلَّ تاريخُه لنا – نحن سكانَ الشّمال – مَحُوطًا بالأسرار . وكان الرجلُ عظيمَ السُّلطان على بني

---

(١) مُختلِطة .

قومه، تؤازره عشائرُ شتّى ، وله مع الدّولة العثمانية مواقفُ مشهورة . وكان الوُلاة يرهَبون جانبَه ، ويجاملونه ما استطاعوا ، ويُضمِرُونَ له الشرّ للإيقاع به عند إمكان الفرصة . ولكن فِطنة الرجل وسَعَةَ حيلته ، جعلته يخشى أن يَقْلبَ له الدّهرُ يومًا ظَهْرَ المِجَنّ (١) ، فاختار مكانًا في ناحيتنا الموحشة المنعزلة ، في ركن يُخفيه بطنُ الجبل ، يصعُبُ الاهتداء إليه ، فشيّد فيه قصرًا مُحَصّنًا ، اتّخذَه ملجأً يعتصِمُ به هو ومَن معه ، إذا اضطرّهم الأمر إلى الاستخفاء .»

فسألتْه مس إيڤانس : « وهل التجأ فِعلاً إلى هذا القصر ؟»

« لا أدري على وجه التّحقيق .»

وقلتُ : « الغريب في هذه المسألة أن يشيّدَ شيخ مشهور من مشايخ هذا الجبل ، ذلك القصرَ الغريب ، ثم يَظَلّ أمرُه خفيا لا يكاد يعلم به أحد !»

فقال الشيخ عاد : « إن الأسرار تُحيطُ بذلك القصر دائمًا منذ بَدْئه . وهذا ما أراده صاحبه له . ففي الوقت الّذي كان فيه يُبنَى – أو بالأحرى يُنحت ؛ إذ إنه منقور في صميم الجبل – لم يكن أحدٌ من أبناء هذه الجهة يعلَم سرّ بنائه . وهكذا ظلّت حقيقته لغزًا منَ الألغاز ، وأصبح عند بعض الناس خُرافةً ليس له وجود ، وعند بعضٍ آخرين مكانًا تَعْمُرُهُ الشياطين .»

فقال الأستاذ كنعان في اهتمام : « وهل الشياطينُ فيه حقا ؟»

فابتسم الشيخ عاد وهو ينظر إلى مس إيڤانس وقال : « هذا ما ستحقّقُه لنا مس إيڤانس .»

وجَمْجَمَ (٢) الأستاذ كنعان وهو يرسل الدُّخانَ في عَبَث : « لم أسمعْ في حياتي بـ « بشير الصافي » هذا مُشيّد القصر ، ولم أقرأ شيئًا يتعلّقُ بحوادثه مع الدولة .»

فقال الشيخ عاد وهو يحرّكُ حبّاتِ سُبْحَتِه مبتسمًا : « ليس هذا ذنبَ الرجل ، يا أستاذ .»

ثم استدرك على جملته ، فقال : « لا تنسَ أن شخصية الشيخ بشير تكاد تكون من شخصيّات الأساطير .»

وسألتْ مس إيڤانس الشيخَ ، قائلةً : « ومن يمتلكُ القصرَ اليومَ ؟»

« لا أحدَ .»

« أ ليس للرّجل ذُرّيّة ؟»

« كان له حفيد ، انتهت حياتُه بفاجعة أليمة .»

« كيف ؟»

وحدّقْنا جميعًا بأبصارنا في الشيخ عاد ، ورأيت الأستاذ كنعان يَنْصِت إليه في شغف ، على تظاهره بقلّة الاكتراث . واعتدل الشيخ في جِلْسَتِه متربّعًا ، وجَذَبَ نفَسًا طويلاً من النّارَجيلة ، فانبعث لمائها هدير عالٍ ، كأنما هي أيضًا تطالبه أن يَرويَ لنا حكاية هذه الفاجعة.

قال الشيخ :

« قصّة هذا الشاب الّذي لَقِيَ حَتْفه ، وهو في العشرين من عمره ، يرجع عهدها إلى ما قبل ثلاثين عامًا أو أبعد . كان اسمه « يوسف الصافي » ، وَرِث عن جَدّه الشّهامة والزعامة ، كما وَرِثَ عنه ثروةً جليلةَ القدر . ويؤكّد الناسُ أنه لو هادَنَته المقادير حينًا لبزَغَ نجْمُه ، ولأصبح أميرًا على هذا الجبل . ولكن ... ولكنه الحبُّ الّذي كان مبعثَ نكبته . لقد هام الشابُّ بفتاة من أسرة عريقة – هام بها هُيامًا جنونيا ، وبادلَتْه الفتاةُ الغرام ، فأحبّتْه حبَّ عبادة . وتناقل الناسُ أخبارَ حبّهما العُذريّ الرائع كما يتناقلونَ الأقاصيصَ ، وأصبح العاشقان بطلَيْن من أبطال الهوى، كقيسِ بنِ المُلوّحِ وليلاه ، وجميلٍ وبُثَيْنَتِه . ورفضَ الأبُ

(١) المقصود : يعاديه بعد أن كان يودّه .
(٢) لم يبيّن كلامَه .

أن يزوّج ابنته يوسفَ الصافي . وتتابعت الأيّام ، وأعلنَت خِطبَةُ الفتاةِ لشابٍّ آخر . وحلّتْ أخيرًا ليلةُ الزّفاف ، وبينما كانت العروسُ في مِنَصّتِها محفوفةً بأفراد أسرتها وصُوَيحباتِها تنتظِرُ عَرُوسَها ؛ إذ ظهر يوسفُ أمامها ، لا يدري أحد من أين جاء : يزعم ناس أن الأرض انشقّتْ عنه ، ويزعم آخرون أن الجدارَ انصدَعَ فظهر منه . ولبِث الناسُ فترةً في ذهولهم ، مصعوقين من هذه المفاجأة . وما هي إلا أن أخرج يوسف من صدره غدّارةً كبيرة ، وصوّبها إلى الفتاة ، فأردْاها قتيلاً ، واستخفى من حيث أتى ، لا يعرِف أحدٌ كيف خرج ، وأيَّ طريق سلك !»

وصمت الشيخ عاد لحظةً ، أمر في أثنائها حبيب بأن يغيّر لنا جَمْرَ النّراجيلِ . واستأنف الشيخ قائلاً :

« وبعد انقضاء أشهرٍ على هذه الحادثة ، روى النّاسُ أنهم وجدوا جثّةَ يوسفَ مطروحةً بجوار جدول من الجداول ، وتحقّقوا أنه قتَل نفسَه برَصاصةٍ في القلب . وبموته انقرضت أسرة الصافي ، وانطوى مجدُها العظيم .»

وسمعتُ مس إيفانس تقول : « والقصر ؟»

« إن الحكومة لمْ تُعْنَ بأمره ، وقد تكون اهتمّت بموضوعه وقتًا ما ، ثم أهملَتْه لخَطَرِ موقعه .»

« وهل سكن يوسف القصرَ قبل وقوع الجريمة ؟»

« يُشاع أنه سكنه فترةً منَ الزّمن ، وكان يُعِدُّهُ لقضاء شهر العسل فيه .»

فغمغمتُ : « يا لَغرابةِ أطواره ! أ يُعِدُّ قلعةً في وسط الجبال القاحلة ، لتكون مقرًّا لعروسه ؟»

فقال الشيخ عاد : « الجنون فنون ، يا سيدي .»

وقالت مس إيفانس : « ربّما ضمَّ هذا القصرُ آثارًا و وثائقَ ، تكشِفُ السّتْرَ عن بعض الخفايا في قصة العاشقَين .»

فأجابها الشيخ : « هذا محتمَل ، يا سيدتي .»

ولفّنا جميعًا صمتٌ مديد ، فليس من صوت في الحجرة سوى قرقرة الماء في جَوف النّراجيل ، وزفيرِ أنفاسنا نُرْسلها من أفواهنا ممزوجةً بالدُّخان المُعَطّرِ الشّذيِّ .

وكانت الشّمْس قد آذنتْ بالمغيب ، فانعكس لونُ الشّفق - الّذي يغمر الأفُقَ البعيد - على نوافذِ الحجرة ؛ فتضرّجَتْ أركانها بلونٍ أرْجُوانيٍّ فيه روْعَةٌ وسحر .

وخرج الشيخ عاد من صمته ، يقول لمس إيفانس :

« متى تبدئين رِحْلَتَكِ ؟»

« عقبَ انتهاء مجاعص من إعداد الدوابِّ والمؤُونَة .»

« أ يضايقُكِ أن يكونَ في صحبَتِكِ شخصٌ مخلِصٌ ، ربّما أدّى إليكِ بعضَ الخِدْمات ؟»

فنظرتْ إليه مبتسِمةً ، وفَطِنَتْ إلى ما يَرْمي إليه ، وقالت : « إني أرحّبُ بكَ من أعماق قلبي .»

وتنحنحتُ طويلاً ، ثم قلت : « لقدِ استهوَتْني قصّةُ هذا القصر ، ويلوح لي أن ...»

فقاطعتني مس إيفانس ، وقالت وهي ما تزال تبتسِم : « ويسرُّني أيضًا أن تَنْضمَّ إلينا .»

ونظرنا نحن الثلاثة إلى الأستاذ كنعان فألفيناه منهمِكًا يدخّن النارَجيلة ، أو بالأحرى متظاهرًا بالانهماك ، فقال الشيخ عاد :

« أكبرُ ظَنّي أن الأستاذ يرحّب بصُحبتنا . ستجدُ ، يا أستاذ ، في هذا القصر مادةً تاريخيّةً طَلِيَّةً تَزيدُ بها أبحاثَكَ الشائقة .»

ورفع الأستاذ وجهَه المتجَهّمَ نحونا ، وابتسم ابتسامةً مغتصَبة ، وقال في شيء منَ الاضطراب :

« هذه رِحلَة تتّفق وأميالي كلَّ اتفاق .»

و وكلتُ مس إيفانس أمرَ قيادة البَعْثة ، وإعداد مُعدَّاتها ، إلى الشيخ عاد . وقد قرَّرْنا ألا يكونَ لنا تابعٌ سوى مجاعص وألا نأخُذَ منَ الدَّوابِّ غيرَ بغلتين ، واحدة لِحَمل الخيمة والمُؤْونَة ، والأخرى نتناوَبُ ركوبَها .

— ٢ —

استيقظتُ في اليوم المحدود مبكِّرًا ، في الخامسة ، وكان يغمُرُني انشراحٌ عظيم . وخرجت إلى الشُّرْفة أستنشق نسيمَ الصَّباح البارِدَ في شَغَف ، وأدورُ بعيني فيما حَولي أستمتعُ بجمال الطَّبيعة الخلاب ، ثم عدتُ أتناول فَطُوري من الفاكهة واللَّبن الرائب .

وعندما حلَّتِ السَّادِسة ، كنتُ في وسَط الحديقة منتظرًا الرِّفاق ، وبجواري حُزمةٌ تحوي الضَّروريَّ من ملابسي . ولم يَطُلِ انتظاري ، فقد ظهر الشيخ عاد ومس إيفانس . وكان الشيخ عاد يرتدي ثيابًا عربيةً جميلة : كوفيَّةً زاهية اللَّون حولها عِقال مُقصَّب ، وسروالاً من الجوخ الأسود مطرَّزًا بوَشْيٍ متناسق ، وعَبَاءَة من الحرير ناصعةَ البياض . أمَّا مس إيفانس فقد ارتدت صِدارَ صوفٍ (بول أوفر) وسروالاً ممَّا يُلْبَسُ لركوب الخيل ، وقبَّعةً من (الفلين) عريضةً بيضاء ، وحذاء عسكريا يَصِل حتّى الرُّكبة . فكانت بديعةً في ذلك اللَّبوس الرياضيِّ ، وازدادت في عيني وسامةً وحسنًا .

أمَّا أنا فكانت ملابسي في جملتها عاديّة ، ما عدا القبعةَ العريضة .

وتصافحنا ، ونحن مشرقو الوجه ، كأنَّنا في يوم عيد . وقلت للشَّيخ عاد : « هل أعِدَّ كلُّ شيء ؟ »

« كلُّ شيء مُعَدّ . »

« والأستاذ كنعان ؟ »

« لمْ يظهر بعدُ . »

وقالت مس إيفانس : « نذهب إليه . »

وقصدنا إلى حجرة الأستاذ كنعان ، فراعنا صوتٌ غريب يتجاوب في أرجائها ، فأنصتنا ، فإذا به غطيطٌ مزعج ، يعلو ويَهْبِط في نغمات شاذَّة ، وفي حشرجة سقيمة . فتقدَّم الشيخ عاد ودقَّ الباب ، فلم يجبْه إلا الغطيط ، وتابع دقَّهُ ، والنائم على حاله يملأُ الجوَّ بصوته الكريه ، وأنفاسه الجافة . وأخيرًا تقدَّمتُ و مس إيفانس نعاونُ الشيخَ في دقِّه البابَ ، ولكن لا حياةَ لمن تنادي !

وقامت بي رغبة صادقةٌ في استطلاع سرِّ هذا الغطيط غيرِ الطبيعيِّ ؛ فاستأذنتُ صديقتي وصديقي ، وجعلتُ أنظر من ثُقْبِ المِفتاح ، فإذا بي أرى الأستاذ كنعان جالسًا على سريره يتميَّزُ غيظًا ، وهو منهمِك في إرسال غطيطه العجيب ، يوهمنا به أنه مستغرِق في نوم عميق . فرفعتُ رأسي ، وأشرت لمس إيفانس أن تنظُر ، ففعلَتْ ، ثم أشارت هي إلى الشيخ عاد أن ينظر ، ففعل . وتبادلنا النظراتِ المصحوبةَ بالابتسامات ، وتركنا المكان ، نمشي على أطراف الأصابع .

كان ينتظِرنا — عند مَدْخَل الفُندق — مجاعص بالبغلتَيْن . وقد لاحظتُ أنه اعتنى بفَتل شاربه ، وإكساب وجهه مظاهرَ العظمة الكاذبة . وبعد أن تفقَّد الشيخ عاد لوازمَ الرِّحْلة ، أصدر أمره بالمسير ، فسرنا : مجاعص والبغلتان في المقدمة ، ثُم الشيخ عاد فمس إيفانس وأنا معها في المؤخِّرة . وقد أعِدَّت إحدى البغلتَين للرُّكوب ، فمن أحَسَّ منَّا تعبًا فهي له ، وأما الأخرى فتحمِل مُؤْونَتنا وما يلزَم لنا .

وسرت بخُطُواتٍ متَّزنة ، أضربُ بعَصايَ الأرضَ ضرباتٍ تنسجِم مع خَفْقِ قَدَمَيَّ .

وكان الطريق صاعدًا متعرِّجًا ، أرضُه صُلْبَةٌ مملوءة بالحجارة ، فكأنَّ هذا الضربَ من السَّير ضرورةٌ طبيعية تقتضيها هذه الأحوال .

وسار رفاقي أيضًا مثلَ سيري ، فكانت تنبعثُ

لوقع العصي المتزن ، المُتساوِق [1] مع صوت خُطانا على الأرض الصخريَّة ، نغمةٌ جديدة في أذني ، أشعرَتني بخطر المهمَّة الَّتي اعتزمْنا الاضطِلاعَ بها . فكأننا فرقةٌ من الجند ، توجَّهْنا لكشف مَخبَإ لبعض قُطّاع الطريق ، نُباغتُهم فيه .

وظَلِلْتُ منكَّسَ الرأس ، مغموراً بسَيْل منَ الأفكار المتضارِبة ، فإذا رفعتُ عينيَّ ، طالعَتْني هذه الأشكال الثلاثة : مس إيڤانس بقَوامها المبسوطِ الفاتن ، وقبعتها العريضة ، والشيخ عاد بجسمه الممتلئ ، وكوفيته الحريرية الطويلةِ الهَدَّاب [2] ، وذلك المجاعص الَّذي يشبه الجلادين في مِشْيته وهيئته . وكان ظِلُّهم المتعلِّقُ بهم يتبعُهم وهو يتخايل متكسِّراً على الصُّخور المختلفة في أشكال غريبة .

ولم أسمع مس إيڤانس تتكلَّم ، فهل كانت تفكِّرُ في مصيرها كما كنتُ أفكر ؟ وبدأنا نشعرُ بوطأة الحرِّ ، فخلعنا بعضَ الملابس ، وألقيناها على الأكتاف . والتفتَ الشيخ عاد إلى مس إيڤانس يقول لها :

« أ تشعُرينَ بتعب ؟ »

فأجابته في لهجة تأكيد وأَنَفَة : « كلا ... كلا ... »

وكان وجهُها قد بدأ يحتقِن ، وتعترضه خيوطٌ رقيقة من العَرَق .

ونظرت إلى البغلة الَّتي أعِدَّت لمن يتعَب ، وجعلت أفكِّر فيمَن يكون أولَ راكب . فأزمعتُ في خَبيئةِ نفسي ألا أكونَ ذلك الشخص ، مهما يكن من إعيائي .

وتابعنا سيرَنا في صمت شامل . ولكنَّ النسيم الخفيفَ الَّذي كان يتمسَّح بوجوهنا ، جعلَ يحمِل إلينا أصواتًا من بعيد ، تَبينَّا فيها أهازيجَ بعض الرُّعاة . وكان غِناءً ساذَجًا لطيفًا أدخل عليَّ بعضَ الطُّمأنينة ، وغيَّر شيئًا من نفسيَّتي الحرِجة .

ولم يمضِ على ذلك وقتٌ طويل ، حتّى سمِعنا صوتَ الشيخ عاد يعلو في الجوِّ بأغْنيَّة تعبِّر عن تلك الحياة الفِطْرِيَّة ، الَّتي يحياها الإنسانُ البُدائِيُّ في هذه النواحي المنعزلة . وشَجاني غناؤه ، فأنصتُّ إليه كلَّ الإنصات ، وشَمِلتْني سكينَةٌ نادرة . وأدرتُ بصري فيما حولي ، فإذا بالجبال الشاهقة المُخيفة الَّتي كانت توحي إليَّ منذُ لحظة بالخطَر ، تبتسِمُ لي في جمال وجلال . واختفت من مُخيِّلَتي فرقةُ الجُند الَّذين يريدون مباغتةَ اللُّصوص في المخابئ ، وحلَّتْ مكانَها طائفةٌ من الحُجَّاج الصّالحين ، يسيرون نحو المَعبَدِ العظيم ، حيث يبتغونَ رحمة الله ورِضوانه .

وسرنا كذلك وقتًا ، وغِناءُ الشيخ عاد يصحَبُنا ، فيجدِّدُ من نشاطنا ، ويُوسِعُ فُسْحَةَ الأمل أمامنا . وراحت خطواتُنا وهي تُصعِّدُ في بُطْءٍ وانتظام ، تتَّحِد بالغِناء ، وتؤلِّف وَحْدَةً فنيةً هيَ أقرب إلى الرَّقص الإيقاعيِّ الساذَج .

وعُدنا نرتدي ملابسنا الَّتي خلعناها ، إذ كان الجوُّ قد بدأ يَبْرُد ، والهواءُ يشتدُّ في هُبوبه . وأخيراً استوقَفَنا الشيخُ قائلاً :

« فلننظرْ حولَنا ، يا رِفاق ! »

فطُفْنا بأنظارنا ، فإذا نحنُ على القِمَّة ، وإذا بالفُندق تحتنا نقطةٌ ضائعة بين الصُّخور . وراعَنا ما قطعناه من طريق شاقٍّ عسير . وقال الشيخُ عاد :

« هل لكم في أن تأكلوا ؟ »

فقلت : « أشعر بجوع قاتل . »

و وجدنا المكانَ يصلُح للرّاحة ، فيه كثيرٌ من المغاور ، فاخترنا مغارَةً صغيرةً أجادت الطبيعةُ نحتَها ، وكان الهواءُ يَهُبُّ بشدَّة ، فيكاد يُطيرُ أغطيةَ رءوسنا ، وينتزع منّا ملابسنا ، فهرولنا إلى المغارة ، فاجتمعنا فيها .

---

(١) المتتابع المتراحم .
(٢) الخيوط التى تبقى في طرفي الثوب دون أن يكْمُل نَسْجُها .

وجاءنا مجاعص بالطّعام و وضعه أمامنا ، فالتففنا حولَه ، وأخذنا نأكُل في شهيّة نادِرة . وقالت مس إيڤانس : « أخشى أن نأتي على الزّاد في وجبتين أو ثلاثٍ، إذا استمرت شهيّتنا على هذه الحال ! »

فابتسمتُ ، وقلت : « أمامنا الأعشاب والجذور . لن نموتَ جوعًا على أيّ حال . »

وقال الشيخ عاد : « إن مؤونتنا تكفي عشرَةَ أيام ، فهل تظنّين أن الرّحلة تستوعِب أكثرَ من ذلك ؟ »

فأجابت : « لا أظن ، ولكن هذا يتوقّف على مبلغ نجاحنا . »

فقال مجاعص وهو يحاول إخضاع لقمة كبيرة حَشا بها فَمه : « وإذا لم نعثُر على القصر في مدى عَشَرَةِ أيام ؟ »

فأجابت مس إيڤانس في يقين وحزم : « لن أعودَ قبل أن أجدَ هذا القصر . »

فتوقّفَ الرجلُ عن المَضْغ ، ونظر إليها مدهوشاً ، فقلتُ له وأنا أضحك : « لا بأس ، يا سيد مجاعص ، إن طعم الأعشاب والجذورِ لذيذ ، فيجب أن تُجرّبَه ولو مرةً في حياتك . »

وانحنى مجاعص على شاربه يفْتِله .

وبعد أن انتهينا من الأكل ، أخرج الشيخ عاد الخريطة من جيبه ، ونشرها أمامه ، ثم أخذ يدرُس معنا الطريقَ ، ويحدّدُ لنا الموقعَ الّذي نحن فيه ، والبقعة الّتي نقصِد إليها .

وبعد أن شربْنا القهوة ، قمنا نستأنفُ السّير . وما إن تحرّكْنا حتّى شَملَنا الصّمت ، واحتوتْنا تلك الموجَةُ الرّوحيّة الّتي يَسبَحُ بها الصوفيُّ في تأمُّلاته . حقا لقد كان لهذا القصرِ سلطانٌ روحيٌّ عجيب على نفوسنا ، سلطانٌ خفيٌّ يجذِبُنا إليه ، على الرّغم مما يُحيطُ به من مَشاقّ وأخطار .

وبدأنا نَنْحَدِر إلى أسفلَ ، إذ كان علينا أن نَهْبِط إلى الوادي المُنبَسِطِ خَلْفَ الجبل ، ثم نبدأ صعودًا جديدًا إلى قِمّةٍ أخرى . وهدأ الهواء ، فلم نكَدْ نشعُر به . وكانتِ الظّلالُ الباردةُ تكسو سفْحَ الجبل ، وتحجُب عنّا قاعَه . ورأينا أنّ الهبوطَ أصعبُ منَ الصّعود ؛ إذْ يكاد المُنحَدَرُ يكون أُفقيا ، إلى أنه كثيرُ التعاريج والمَزالِق ، مملوءٌ بالحصا ، فكنّا نسير في بطء شديد ، وحذَر بالغ .

وألفيتُ البغلتين تُثقّلانِ حوافرَهما على الصخور في جُهد كبير . وأخذتْ كتائبُ الظّلام تهجُم علينا في إصرار ، تريد أن تضرِبَ حولنا نطاقًا منيعًا لا نستطيع الفِكاكَ منه ، فاضطُرَّ الشيخ أن يُصْدِر أمرَه بالوقوف ، فوقفنا ، وسمعتُه يُهَمْهِم :

« لا نُدْرِكُ قاعَ الوادى إلا بعدَ ساعة ، وقد أصبح السير شديدَ العُسْر ، فلننتظر قليلاً . »

فقلت : « وعَلامَ الانتظار ؟ »

فلم يُجِبْني ، بل كان منهمكًا ينظُر في السّماء مدقّقًا . وبعد لحظة قال : « أبْشِروا ؛ فقد جاءنا الفَرَج . »

وما كاد يتمُّ قوله ، حتّى بَدأَتِ الحُلْكَةُ تنْقَشِعُ ، وانبعث ضوء أحمرُ في جوانب السماء . وجلسنا على الصخور ونحن نُراقب هذا الضوء الجميلَ يَعْبَثُ باللّيل ويداعبه ، مُسترِقًا خُطاهُ في خِفّة . ولَبِثنا كذلك ، وعيوننا متطلّعَةٌ إلى السّماء ، لا نتفوّه بكلمة ، مأخوذينَ بروعة الطبيعة ، منتظرين بُزوغَ ذلك الساحرِ العظيم .

وكنّا لا نسمع في ذلك الصّمت الرازح [١] ، إلا صوتَ الهواء المُحتبِس في الوادي ، فكأنه أنينُ شاكٍ أو أسير . حتّى البَغلتان ، لقد اشتركتا معنا في الإصغاء والسكون ، فلم تَصدُر منهما حركةٌ أو شَحيجٌ [٢] ، بل وقفتا جامدتين كأنّهما تحت تأثير قوة مِغْنَطيسيّة .

وأخيرًا ظهر القمرُ يَعْبُرُ قِمَمَ الجبال في جَلال

(١) المُطبِق . (٢) صوت البغل أو الحمار .

وانتصار ، يسبح في هدوء غريب ، ويبتسم حولَهُ للأكوان ، معتزًّا بجماله وقوته . وإذا بالوادي يَتَفَتَّحُ عن جوانبه ، ويتكشَّف عن أسراره . وانتشرت هَمْهَمة غريبة تكاد تخطفها الأذن ؛ فهل كانت أصواتَ بعض الحشرات قد خرجت من جُحُورها مُرَحِّبة ، أم هي أصوات كائناتٍ غيرِ منظورة ، جاءت تشارِكنا في استقبالِ ضَيْفنا الكبير ؟

لقد شاهدتُ بزوغَ القمر كثيراً ، وأعجبتُ به كثيراً ، ولكنّني لم أرَه قطُّ على هذه الحالة الّتي رأيتُه عليها في ذلك الوقت ، ولم أشعر نحوَه بذلك الشعورِ الّذي أحسستُه آنئذٍ ، فخَفَضْتُ رأسي وأنا أرتعش .

ونبَّهني صوتُ الشيخ عاد ، وهو يقول : « هيَّا . فلْنتابعِ المسير . »

ونهَضنا ، فاستأنفْنا سيرنا في بطء وحَذَر ، كما كنّا من قبل ، وما زِلنا كذلك حتّى بلَغْنا بَطْنَ الوادي . واختار لنا الشيخ عاد مكانًا يصلُح للمبيت ، وأمر مجاعص أن يَنْصِبَ لنا الخَيْمَةَ ، وأن يُريحَ البَغْلَة مما تحملُ من ثِقْلِ الأمتعةِ والزّاد .

وتطوَّعْنا جميعًا لمساعدَة مجاعص ، فأنزلْنا الأحمالَ عن الدّابَّة ، وبدأنا نَدُقُّ الأوتادَ للخَيمة ، ونهيِّئُ مخادِعَنا . ورأيت مجاعص قد ترك للبغلتين الحبلَ على الغارِب ، فانطلَقتا تَعْدُوان ، وهما تقفزان وتَشْحَجانِ ، أشدَّ ما تكونان مَرَحًا ونشاطًا .

والتفتُّ إلى مجاعص وقلتُ له : « ألا تخشى على البغلتين أن تَهرُبا أو تَضِلا الطريقَ ؟ »

فضحك ضِحكَةً عريضة ، وقال :

« أنتَ لا تعرف طبائعَ هذا الحيوان . إنه مَضْرِبُ المَثَلِ في الوفاء وقوةِ الغريزة . ولو ضَلَلْنا نحن طريقَنا ، لَما وجدنا خيراً منه دليلاً يرتادُ لنا السبيلَ إلى الإياب . على أنكم ما دمتم معي ، لا خوفَ عليكم من شيء . أنا ابنُ الجبل ، لقد ربِّيتُ في أحضانه ، وكَبِرتُ بين وِدْيانه وقِمَمِه ، أعرفُ صخوره حَجَرًا حجراً ، وعيونه نَبْعًا نبعًا . »

ونَدِمت على تمهيديَ السبيلَ لثرثرة مجاعص ، وانهمكتُ في عملي أضرِب وَتِدَ الخيمةِ بحجر كبير ، وأنا أدعو مس إيفانس في صوت عالٍ أن تَحْذُوَ حَذْوِي .

وأتمَمْنا تهيئةَ المكان في وقت قليل ، وجلسنا أمام الخيمة ، نتأمَّلُ النارَ الّتي أشعلناها للتّدفئة وإنضاجِ الطّعام . وبدأ الشيخ عاد يحدِّثنا حديثَه الطريف .

والتفتُّ نحوَ صديقيَّ ، وقلتُ لهما :

« لن أنامَ الليلةَ في الخيمة . إن القمرَ يُغْريني بأن أفترِشَ الأرض تحت ضيائه . يكفيني أن آخُذَ معي غِطاءً واحداً أتَدَثَّرُ به . »

فأقرّاني على رأيي ، فقمت لآخُذَ الغطاءَ منَ الخيمة ، فلمّا صِرتُ في داخلها ، سمعت مس إيفانس والشيخ عاد يطلُبانِ منّي أن آتيَ لهما بغطائهما أيضًا ؛ فحملتُ لهما ما أرادا .

ومضيتُ أَلُفُّ نفسي بغطائي ، وتمدَّدتُ على الأرض و وجهي نحوَ القمر ، أريد أن أشبعَ ناظريَّ بنورِه اللألاء . وجعلت أصغي إلى حديث الشيخ عاد، وما عتَّمتُ (١) أن غَشِيني النُّعاس .

وفتحتُ عيني ، فطالعتني أشعَّةُ الشمسِ ، وهي تطبَع على جبين الكون قُبلة الصَّباح ، فالتفتُّ حولي ، فوقع بصري على مس إيفانس وهي متمدِّدةٌ على باب الخيمة ، فقصَدْت إليها ، وجلستُ بالقُرْبِ من رأسها أتأمَّلُها .

وأحسستُ بَغتةً رَجفةً تسري في جسدي ، فهل كانت من نَسْمَةٍ باردة هبَّتْ على وجهي ، أم كان مَرْجِعُها شيئًا آخَرَ لا أعرفه ؟

---

(١) ما لَبِثتُ .

وتحركتْ مس إيفانس ، وبدأتْ أهدابُها تختلج ، ثم فتحتْ عينيها في تَلَيُّنٍ وتمهُّل ، فما إن رأتني حتى قالتْ في شيء من الانزعاج : « ماذا ؟ »

« جئتُ لأوقظَكِ . »

فابتسمتْ ، وهي تقول : « أشكرك . »

وقامتْ مُتباطئةً ، وهي تجمع غطاءها ، وتُسَوِّي ملابسَها ، ثم قالت : « شاهدتُ رؤيا غريبة ! رأيتني على ظهر باخرة تمخُر (١) المحيطَ الشماليَّ ، وإذا بجبلٍ من الثَّلج قد ظهر لنا ، فدَهَمتْنا موجةُ بَرْدٍ عاصف ، كادت تَصرِفُنا عن الخطر المُلِمِّ الَّذي يتهدَّدُنا . »

وابتسمت ابتسامة بهيجة .

واستيقظ الشيخ عاد على حديثنا ، فقام نَشيطًا على وجهه بشاشة . وسَرْعانَ ما أقبل مجاعص وهو يتثاءب ، ويضرِب الهواء بذراعَيْه .

وقمنا نسير .

ولَمّا رأى الشيخ عاد إصرارَنا على التَّرَجُّل ، وعلى تركِ البغلةِ لا يركبُها أحد ، أمر مجاعص أن يَقْسِمَ الأحمالَ بين البغلتين .

وسرنا نُصَعِّدُ في سَفْح الجبل ، وكان الطريق طويلاً على وعورتِه ، ولكنَّنا قطعناه منشرحةً صدورُنا نَتَغَنَّى . ولم نشأْ أن نجلسَ لنستريحَ ونَطْعَم ، بل تناولنا غداءَنا ونحن سائرون . فقد امتلكَتْنا حماسةٌ غريبة كحماسة الجندِ الأشدَّاء في حَوْمَةِ الوَغى . فلم نعرفْ للتَّعَب معنًى ، ولم يَشغَل فكرَنا إلا شاغلٌ واحد ، هو الوصول إلى القِمَّة في أقرب وقت مستطاع .

وقد اضطُرِرْنا أن نأكلَ مرتين قبل أن نصلَ إلى غايتنا . ومما يستدعي العجبَ أنَّنا لم نسألْ مرةً : في أيِّ وقت نحن ؟ ولم يُخرِجْ أحدٌ منا ساعةً للنَّظر فيها . وكانت خُطُواتُنا وئيدةً ولكنها متزنة . وكثيرًا ما دُرنا حولَ أماكنَ نبحث فيها عن خيرِ طريق نسلُكُه .

وأخيرًا وصلنا ، وإذا بالشمس تميل للغروب ، و وقفْنا على القِمَّة ، فألفيناها قمةً عظيمة يَكِلُّ الطَّرْفُ عن إدراك منتهاها . ولبثنا مَلِيا ، نريد أن نتبيَّنَ في أيِّ جهةٍ نحن منها ، وأن نُمْتِعَ النظرَ بِخلابَةِ الطَّبيعة من حولنا . ولكنَّ الهواء كان شديدًا قاسيًا يَهُبُّ علينا في إلحاح ، فكأنه يريد أن يحمِلَنا على ساعديه الجبّارَيْنِ ، ويُلقي بنا على الصُّخور في مساربِ الهاوية ، عقابًا لنا على اقتحامِ مملكته النائية .

ورأينا في عُرْض القمة بعضَ الفَجَوات ، فقصَدنا إلى إحداها ، وحطَطْنا رِحالَنا فيها . وبدأ مجاعص يُجَهِّزُ لنا القَهوة ، ويملأُ لنا الغَلايين بالطُّباق . وجلستُ مُتربِّعًا ، وأنا مستندٌ بظهري إلى صخرة خَشِنة . وبدأت أشرَبُ القهوة وأدخِّن الغَليون ، مُغْتَمِضَ العينين، مستمتعًا براحة لم أذُقْ في حياتي أطيبَ منها .

لقد كان علينا أن نَسيرَ على هذه القمَّة المستطيلة ، بصخورها الناتئة ومزالِقها المُهْلِكة ، نَتَطلَّع إلى الوادي الآخر – ذلك المكانِ المجهولِ المُفْعَم بالأسرار – نكشِفُ فيه موضع القصر ، فهو قائم هناك في مَخْبَئِه السحريِّ ، يَسْخَر من الإنسان والزمن معًا .

وأمضينا ليلتَنا في الفَجْوة ، بعد أن غطَّيناها بالخيمة ، والتَحَفْنا الأغطيةَ الغليظة ، وأشعلنا النارَ طُولَ اللَّيل . وعند الصباح واصَلْنا مسيرَنا ، بعد أن أخرج كلٌّ منّا مِنظارَه المُكبِّر . وكنا كلَّما سِرنا بضعَ خُطوات توقَّفْنا لحظة ، وأخذنا نتطلَّع إلى الوادي مُدَقِّقينَ فاحصين . وظَلِلْنا نمشي في حَذَر أيِّ حذر ؛ لكثرةِ ما يعترضُنا من عَقَبات الطَّريق في كلِّ خُطوة ، وما نراه من المهاوي الَّتي تَحُفُّ بنا من كلِّ جانب . ولم يكن الهواءُ يُعفينا من عَبَثِه بنا ، ودفعِه لنا ، وجَذْبِه إيَّانا هنا وهنالِك . وقد تمرُّ علينا سحابةٌ منَ السُّحُب ، فتَلُفُّنا في بُخارِها الرَّطْبِ ، تسدُّ علينا مذاهبَ الطَّريق ، وإذا بكلِّ شيء يَستخفي ، فنقِفُ نتبادَلُ النِّكاتِ الفَكِهةَ ،

(١) مَخَرَتِ الباخرة : جرَت تشقُّ الماءَ .

حتّى تنقشعَ السحابةُ الرّاحلة . وكان يُخيَّل إليَّ في مسيري أن حذائي قد تمزّق إربًا إربًا ، وأن قدميَّ قد بدأتا تلْمسانِ الصَّخْرَ وتَدْمَيان .

أمضينا يومًا كلَّه جَهْدٌ وإعياء ، ولكنّنا لم نعثر فيه على شيء . وإذا بالقمّة تستطيلُ أمامنا أكثرَ من ذي قبل ، وإذا بنا أمامَ مجهودٍ جبّار ، علينا أن نُتمّه في صبر وجَلَد .

وفي اليوم التالي ازداد تَوَعُّرُ الطريق ، و وقفنا حَيارَى أمام مَعْبَرٍ ليس من سبيلٍ لمواصَلَةِ السَّير على غيره ، فقالت مس إيفانس :

« أذكر أن الرّاعيَ الّذي اشترك في بَعْثَةِ الكشف الأولى ، قد حَدّثني في شأن هذا المَمَرّ .»

فأجابها الشيخ عاد : « أ متأكدةٌ أن حديثه يعني هذا الممرَّ نفسه ؟ إن كثيرًا من المَمَرّاتِ الخطِرةِ يملأ هذه المِنْطَقَة .»

فَهَمْهَمَتْ مس إيفانس : « لا أدري على وجْه التَّحقيق .»

وجعل الشيخ عاد ينظر إلى المَمَرّ بعينه الفاحِصة ، ثم يُنَقّلُ بصره في البغلتين . وأطال التفكير ، ثم قال :

« لا حيلة لنا ، يا رفاقي ، في اصطحاب الدابّتين .»

فتقدّم مجاعص ، واندفع يقول : « إنَّ هلاكَهما محقّق !»

فقال الشيخ عاد : « وماذا تَرْتَئي أن نفعل ؟»

« أرى أن تتركوهما في عُهْدَتي ، فأتكَفَّلَ لكم بإعادتهما سالمَتَيْن إلى مقرّهما .»

فنظرت إلى الشيخ عاد ومس إيفانس ونظرا إليَّ ، وابتسم الشيخ عاد لمجاعص ، وهو يقول :

« كلا . لا نحب أن نموت وحدَنا . تشجَّعْ ، وتعالَ معنا .»

فاهتز شارب مجاعص ، وتغضّنَ وجهُه ، وقال :

« ماذا ؟ أ يَخْطِرُ ببالكم أنّني أتردد ؟ لولا أنّني مشفِقٌ على هاتين البغلتين ...»

فقال الشيخ عاد : « أتركِ البغلتين وشأنَهما . إنهما لا تعدَمانِ مَرْعًى ، وهما في غير حاجة إلى دليل .»

فقال مجاعص وهو يَزْفِرُ : « هذا ما أقوله وأكرّره ، ولكنني ظننتكم على رأيٍ غيرِ رأيي .»

* * *

واخترنا من أحمال البغلتين ما هو ضروريٌّ لنا ، فوزّعناه علينا نحن الرِّجال ، وبدأنا نجتازُ المَمرَّ ، يستعين بعضُنا ببعض ، بعد أن شَدَدْنا أوساطَنا بالحبال . ونجحنا في عبوره ، واتضحت لنا صعوبةُ مهمتنا في أقسى مظاهرها . ولكن كلَّما عَظُمت الصِّعاب وكَثُرت ، قَوِيَتْ عزائمُنا ، وتجدَّدَ نشاطُنا ، واشتدَّت رغبتُنا في اكتشاف ذلك الأثر العجيب .

وأمضْينا يومين معًا نجوبُ القِمَّة ، وقد تغيّرتْ بنا الحالُ من سير على الصُّخور وحافاتِ المَهاوي ، إلى جُهْدٍ شاقٍّ في تَسنُّمِ (١) الجبال واقتحام معابِرِها المَخُوفَة . والقصر ؟ أين هو ؟ لم نَرَ منه أثرًا بعدُ . أ تكونُ القصّةُ خُرافة ، وتكونُ الخيبةُ نصيبَنا ؟

وبعد يومين آخرَيْن ، تملّك قلبي اليأسُ ، فنظرت إلى مس إيفانس نظرةً تحمِل ما أكِنُّ من معنًى ، دون أن أتكلَّم ؛ فأدركتْ ما يجولُ بخاطري ، و وقفتْ أمامي وِقْفَة كِبْرِياءَ وتجلُّد ، وقالت وحَدَقَتاها تلمَعانِ في وَهَجِ الشَّمس :

« القصرُ موجود ، وسنهتدي إليه حَتْمًا .»

ومرَّ بعد ذلك يومان أيضًا ، وأوشكَ الزّادُ أن يَنْفَدَ، على الرَّغم من تقتيرنا فيما نأكل منه . واعترى مجاعص وجومٌ غريب ، وغَشِيَتْه كآبةٌ صَمَّاء ، ولم

(١) اعتلاء .

يَعُدُ يُسمِعُنا مبالغاته المستفيضة في وصف شجاعته ، والإدلال بخبرته ، وتراخي شارباه ، وانحنتْ قامتُه . وكان إذا صادفتْه في الطَّريق عَقَبةٌ كَؤُود ، طَمَح ببصره إلى السَّماء ، وصرخَ من أعماقِ قلبِه :

« الله يخرب القصر ، ويحرق اللّي بناه ! »

* * *

وبعدَ أن جاهدنا جِهادًا مضنيًا في ارتقاء إحدى القِمَمِ العالية ، جلستُ مع القوم بجوار غارٍ صغير أستريح ، وجعلتُ أفكّر في هذه المغامرة الغريبة الّتي أصِرُّ على إتمامها ، راضيًا بأن أهْلِكَ في هذه البقعة المرهوبة ، وكيف يقابلُ الأهلُ والأصدقاء في مصر خبرَ فقْداني ، فإذا عرفوا أين مِتُّ فلا أدري بماذا يؤوِّلونَ ذلك الجنونَ الّذي استحوذَ عليَّ في البحث عن قصر مسحور في أحضان الجبال !

وحدث أن تناولتُ مِنْظاري ، فوضعتُه على عينَيَّ مداعبًا ، وانطلقتُ أضحك من نفسي ومن حالتي ، فإذا بمس إيفانس تقترب مني ، وتسألني : « أ وجدتَ شيئًا ؟ »

فقلتُ لها هازلاً : « طبعًا ، وجدتُ قصرَك المُنيفَ ! »

و وقع بصري في تلك اللَّحظة على مكان في سَفْح الجبل ، لا يختلف عن غيره إلا في بعض فَجَوات على سطحه . وشعرتُ برَجْفَةٍ تتمشّى في جسدي ، وكانت مس إيفانس بلا منظار ؛ إذ كان قد تحطَّم على الصخورِ صباحَ اليوم ، فدفعت إليها منظاري ، وقلت لها : « أنظري ، أنظري . »

فأخذَتْه ، وجعلت تستشرفُ المكانَ ، ثم سمعتُها تصرخ منادية الشيخَ عاد ، وأشارت إلى الموقع ، فأخرجَ منظاره ، وبدأ يفحصه بمجامعِ عينه ، ثم سمعتُه يُغمغِم: « أ مُمْكِنٌ هذا ؟ أ ممكن ؟ »

ثم التفتَ بعضُنا إلى بعضٍ صامتينَ ، والحيرةُ تلمعُ بها عيونُنا . وأخيرًا قالت مس إيفانس :

« إنَّ منظرَه ينطبق على ما لدينا من معلومات . هَلُمُّوا ! إن المسافة بيننا وبينه لا تَقِلُّ عن نصفِ يوم . »

وتورَّدَ وجهُها ، وأمسكتْ بيدي ، وهزَّتْها في حماس .

والتفتَ إلينا مجاعص ، وهو فاغرٌ فاه ، وقال :

« أين (المدعوق) القصر ؟ أين ؟ إني لا أرى شيئًا . »

فناولتُه المنظار ، وأشرتُ إلى الفَجَوات ، قائلاً له :

« هنالكَ . أنظر . »

وجعل يُجيلُ بصره وقتًا في الجهة الّتي عيَّنتُها له، ثم أعاد إليَّ المنظار في يأس ، وهو يُدَمْدِمُ :

« الجنون فنون ، يا سيدي . »

وعدنا نسير ، فإذا بنا نَقْفِزُ قفزًا ، ويَحُثُّ بعضُنا بعضًا على السُّرعة ، إلا مجاعص ، فلقد كان يجري خلفَنا كما يَتْبَعُ الكلبُ صاحبَه ، عليه أن يُطيعَ ، وليس له أن يَفْهَمَ إلى أين يساق .

وبعد أن قطعنا شوطًا فسيحًا ، وقفنا نستوضح المكانَ في تَشَوُّفٍ ، وقلت للشيخ عاد : « ما رأيُكَ ؟ أ تظُنُّ ... » .

فأجابني ، وهو يبتسم ابتسامته الهادئة : « أظن أن الطبيعةَ ليست هي وحدَها الّتي نَحَتَتْ هذه الفَجَوات . »

وسرنا ، فبلغنا أكثرَ من نصف المسافة ، وكنت أضعُ منظاري على عينيَّ بين فترةٍ وأخرى ، فتبدو هذه الفجواتُ وقد اتَّخذت أشكالَ عيونٍ مُخيفة . وخُيِّلَ إليَّ أنّي أسمعها تسائل نفسَها في غضب : ما سر وجودِنا في هذا المكان ؟

ولاحظتُ في أثناء السَّير أن قدَميَّ كانتا تَسوخانِ

في الأرض شيئاً ما ؛ فَوَقَفْتُ الرَّكْبَ ، وقلتُ لمس إيڤانس و الشيخ عاد :

« إن طبيعة الأرض قد تغيرت ؛ فقد أصبحتْ أشدَّ ليناً مما مضى . ما رأيُكما ؟ »

وما كدت أتمُّ جملتي ، حتّى سمعنا صُراخا حاداً قد تعالى في الجوِّ فجأة ، مصحوباً بدَوِيٍّ مكتوم ؛ فالتفتنا خلفنا مذعورين ، فإذا بقِطْعَةٍ من الجبل تنهار مثيرةً معها غباراً أزرقَ كالحاً . وانتشر الغبار حولنا فجأة ، فسدَّ دونَنا المَسالِك ، فوقفنا حيثُ كنّا ، وقد تماسكنا بشدَّة ، منتظرينَ بين فَينة وأخرى قضاءَ الله فينا . وشَعَرتُ باختناق ، واندفعنا نَسْعُلُ ، فكأننا نَلْفِظُ أخْرَيات أنفاسِنا .

وانقطع دَوِيُّ الانهيار ، ولكنَّ صُراخَ الاستغاثة كان يتعالى في الحين بعد الحين ، تتجاوب بصداه الحزين اليائس أكنافُ الجبل . وسمعت الشيخ عاد يَهْمِس : « المسكين ! »

وبدأ الغبار ينقشع ، فكأننا خرجنا منَ الجحيم . وهبَّتْ علينا ريحٌ قوية منَ الشَّمال ، فأخذت تطارِد فُلولَ ذلك الغبار . ورأينا الوادي يعود إلى هيئته الأصيلة تحت أشعة القمر الواهنة .

وانثنى « الشيخ عاد » يَحُدُّ نظرَه فيما تحت أقدامنا من المهاوي . وسمعنا صوتاً حبيساً ، يقول :

« اِلْحقوني ! في عرضكم أنقذوني ! الجبل كلُّه رازِحٌ فوق صدري ! لا تتركوني ! »

وأخذنا نتشاور : أ نترك المسكين يقضي تحت الركام ، أمْ نَخِفُّ إليه محاولينَ إنقاذه ، وفي ذلك تعريضُنا لأشدِّ الأخطار ؟

ولم يمضِ وقت طويل ، حتى رأيت الشيخ عاد قد خلع كوفيته وصِدارَه ، وأخذ يتمنطق بالحبل ، وهو يقول : « سأنزل وحدي ، وعليكُما إدْلاءُ الحبل ومراقبتي . »

ونظرنا إليه في وَجَل ، وقد مضى لم يَنْبِس بحرف ، وبدأ يهبِط .

وانهمكتُ ومس إيڤانس في عملنا نراقب الرَّجل، ممسكينَ بالحبل ، متيقِّظينَ للمفاجآت . وكان الشيخ عاد يَنْقُلُ خُطاهُ في مهارة وحِذْق ، فعَجبنا له يُحْسِنُ ذلكَ على الرَّغم من بدانته ، فكأنه (بهلوان) حاذِق ممَّن يَعْرِضون ألاعيبَهم على المسارح .

وعمَّ الواديَ الصَّمتُ العميق ، فلم نكن نسمعُ إلا خَفْقَ خُطواتِ الشَّيخ ، وهي تَفْسَحُ لها طريقاً بين مدارج الصُّخور . وخُيِّلَ إليَّ أنّي سمِعت صوتاً غريباً يشبه الهمهَمة ، فالتفتُّ إلى مس إيڤانس أسائلها بنظري ، فقالتْ خافتة الصوت :

« أ يكون صفيرَ الرياح على القِمَّة ، أم ... ؟ »

وتشبثتْ بي ، فأردتُ أن أرفعَ إلى القِمَّة بصري ، ولكنَّني لم أجْسُر . و وصل الشيخ عاد إلى مكان مجاعص وطَفِق يرفع الحجارة وكانت مهمةً غيرَ شاقَّة ، فبدا على الفور رأس مجاعص ، ثم ظهر جسمُهُ الفَحل . وما إن رأى الشيخَ أمامه ، حتّى هَوَى على يديه يقبِّلُهما ويُنَدِّيهما بدموعه ، وهو يردِّد :

« في عرضك ، يا معلم ، لا تتركْني . ولنَعُدْ من حيث أتينا . »

فقاطعه الشيخ في همس : « صَمْتاً ! لا تُعْلِ صوتَك . »

فألقى مجاعص بوجهه في صَدْر الشيخ ، كما يحتمي الطِّفل في صدر أبيه . وتركه الشيخ عاد حتى عاوده بعضُ الهدوء ، فقال له :

« إن أمامك مُرْتَقًى صَعْباً عليك أن تَعْلُوَهُ ، ولكن خبِّرني : أ جريحٌ أنتَ ؟ »

« جسمي كلُّه يشْخَبُ (١) دماً ، وقد تحطَّمت عِظام

(١) ينزف .

رأسي .»

فتفحّصه الشيخُ على عَجَل ، ثم قال : « من حُسن حظّكَ أنّك انزلقتَ على أرض ليّنةٍ ، أمّا هذه الجروح فليست بذات بال .»

ثم أخرج من صدره زجاجةً صغيرة ، وأمر مجاعص أن يشربَ ما فيها ، فأذعن للأمر ، وأفرغها دُفعةً واحدة في جوفه ، وقال الشيخ عاد : « والآن ، هيّا .»

« إلى أين ؟»

« إلى فوق ، حيثُ ينتظرُنا صاحبانا .»

وأخذا يصعَدانِ في المرتقى العَسِر : الشيخُ من أمام ، ومجاعص من خلفِه يتبَعه كظلّه ، وهو قابِض على طرَف الحبل . وانتظرنا طويلاً ، حتّى وصلا . فما إن دنا مجاعص منّا ، حتى رأيناه قد تساقط على الأرض فاقد الحركة ، فأسرعنا نُسْعفه . أمّا الشيخ عاد فوقفَ ينهَجُ ، وهو يمسَحُ عن وجهه العرق .

وبعد هُنَيهَة رأيت الشيخ يتلَفّتُ حولَه ، فوقع اختيارُه على شبْه جُحْر ، فأصدر أمرَه أن نذهبَ إليه . وكان الظلامُ قد غَشيَنا شيئًا ، فدخَلْنا الجُحْرَ كأنّنا قطيع منَ الحيوان يأوي إلى حظيرته ، واختار كلٌّ منا مكانَه . وجلستْ مس إيڤانس على مَقْرَبَةٍ منّي ، وهَيْنَمَ (١) الشيخ عاد : « سنقضي ليلتنا هنا .»

وتألّبَتْ علينا الظُّلْمة ، ولفّنا صمت مرهوب . وازدادت الحُلْكَة ، حتّى لم يعد يرى أحدُنا مَن حولَه. وطال صمتُنا ، وخُيِّلَ إليَّ أني وحيدٌ في هذه المغارة المنقطِعة ، وتطاير من رأسي كلُّ ما عَقَلْته وفهمتُه من البراهين ، الّتي تنفي وجودَ السِّحر والخرافات . وحاصرتْني الهواجسُ من كلِّ صَوْب ، وامتلأ رأسي بمناظرَ صِبيانيّةٍ مُزْعِجَة ، فجعلت أفكِّرُ في أجناس المخلوقات الغريبة الّتي تسكُن هذه الشِّعاب ، وما أعدّتْه لنا من ألوان الفتك والإيذاء .

وتحركتُ في مَقعدي ، وسَعَلْتُ ، فجاوبني سُعالُ الصِّحاب . وأحسستُ يدَ مس إيڤانس تتلَمّسُ يدي ، فأخذتُها في راحتيَّ ، وأطبقتُ عليها أناملي . ثم رأينا المأوَى وقد بدأت تنيرُه أشعّةُ القمر ، فتنهّدْتُ طويلاً ، وطُفْتُ بعينيَّ ، فألفيت مس إيڤانس منكمشةً بجواري، تدور برأسها الدقيق حولها ، وعيناها لامعتانِ كما تلمَع الماسَةُ المصقولة . والشيخ عاد ينظر أمامه نظرًا تائهًا ، مسترسِلاً في أحلامه . أما مجاعص فقد كوّمَ نفسه ، وراح في سُبات عميق .

وطال صمتُنا ، ورأيت فَصّي الماس ، وقد بدأ يَدِبُّ إليهما الفتور ، ومال الرأسُ الدّقيقُ على كَتِفي فتوسَّدَه . وغلّفَتِ القمرَ في هذه اللّحظةِ سحابةٌ كثيفةٌ أعادتِ الظُّلمة إلى المأوى .

ورفعتُ يُدَ مس إيڤانس إلى فمي في تباطؤ وتراخ، ثم أغمضتُ عينيَّ ، وجعلت أستقبِلُ أحلامي المؤنِسَةَ في ذلك الوكْر الموحِش ، الّذي ترْبضُ الشياطينُ حوله، ويكْشِرُ فيه الموتُ عن أنيابه .

وأيقظَنا الشيخ عاد قُبَيْلَ الفجر ، وهو يقول :

« هيّا ، ياصِحابي ، نريدُ دخولَ القصر قبل عود الظّلام . ولا ندري ماذا ينتظرُنا من مفاجآتِ الطّريق.»

— ٣ —

وتناولْنا طعامَنا المتواضِعَ على عَجَل ، وأخذنـا نسير. وكنا نمشي ببطء حَذِرينَ ، نخشى انخسافَ الأرض تحتنا ، ولكنّنا قد نُضْطَرُّ – طَوْعًا لمشْوَرة الشّيخ عاد – أن نجتازَ بعضَ الأمكنة وثبًا وعَدْوًا . وقد نختار طريقًا يلوحُ لنا أنه بالغٌ بنا الغاية ، فنقطَع فيه شوطًا فسيحًا ، ثم يتّضح لنا أنه طريق عَسِر ، فنرجع على أعقابنا ، ونتوخّى طريقًا سواه .

وكذلك لم تهدأ لنا حركة ، حتّى أوفت السّاعَة

(١) تكلّم بصوت خفيّ .

على الثانية بعد الظهر ، فجلسنا لنتناولَ بعضَ اللَّحم القديد ، وننعمَ بقسط منَ الرَّاحة ، ثم قمنا بعد قليل نتابع السَّير .

وكنَّا كلَّما اقتربنا منَ القصر ، اتَّسعت فَجواتُه ، وازدادت ظَلامًا . وأشرت إلى فجوة أكثرَ اتساعًا من غيرها ، وقلت : « ألا يكون هذا موضعَ الباب ؟ »

فأجابني الشيخ عاد : « يلوح لي ذلك . »

واتجهنا في سيرنا نحو تلك الفجوة ، وكان علينا أن نصعدَ إليها في طريق خُيِّلَ إليَّ أن أحدًا من قبلِنا لم يسلُكْه . والحقُّ أنَّه لم يكن طريقًا بالمعنى المألوف ، فلقد كنَّا نسير في مكانٍ وَعْرٍ ذي سطح منحدِرٍ مختلفِ النُّتوء ، حجره أملسُ ، ينزلق عليه الحذاء انزلاقَه على رغَوات الصابون ، فكلَّما خطَونا خُطوةً مَهَّدنا المكان لمواقع أقدامنا . وكان عملاً شاقًا مضنيًا ، بيد أنَّنا جاهدنا فيه جِهادَ المستميت . وكنَّا صامتينَ لا يُسمَعُ لنا إلا خفقُ الأقدام وهي تضرب في الصَّخر العنيد ، وإلا زفراتُ مجاعص وأنينه ، فنال التَّعبُ منِّي كلَّ منال ، حتَّى قام في يقيني أنَّني سأهْوي حتمًا ، وأنَّ مثوايَ لا بدَّ بطنُ الوادي .

وفي النِّهاية وصلنا ، فإذا نحنُ أمام فُوَّهَة كفُوَّهةِ المغاوِر ، لا تستطيع العينُ اقتحامَ ظُلمتها .

واستندنا إلى الجنادل ، مَبْهوري الأنفاس . ورأيتُ الشيخ عاد يتهيأُ لدُخول الفُوَّهة ، فصرَخْتُ : « سنأتي معك . تمهَّلْ . »

فالتفت إليَّ ، وقال : « كلاَّ . انتظروا ، فلن أغيبَ طويلاً . »

واختفى شبَحُه في الظَّلام . وأسرعتْ دقاتُ قلبي . وعاد الشيخ يقول : « إنَّ المكانَ مسدود ، لا منفَذَ له . »

« إذًا ... »

« هيًا إلى الفُوَّهَةِ الثَّانية . »

واستأنفنا سيرَنا كما كنَّا على الصُّخور الناتئةِ المُلْس (١) . واستبدَّ بي ضيق شديدٌ ، وهبَّت في نفسي ثورةٌ صامتة ، أتَساءَلُ : « ما لي ولهذهِ المغامرة الحمقاء ؟ »

و وقفنا لنستَريح ، فأسندنا ظهورَنا إلى الحجارة المسنونة الأطْراف . وأطبقتُ جفنيَّ ، وشعَرت بأنَّ المتاعبَ تَطْحَن جسمي طحنًا . ألا يمكنني أن أختلسَ بضعَ لحظات أستمتع فيها بنومٍ خاطف ؟ أراهن الكونَ كلَّه على أنَّني أستطيعُ أن أنامَ واقفًا ، مُسْندًا رأسي إلى رماح الصُّخور ، وتحت قدمي هذه الهوةُ السحيقة . ومَن يمنعني مِن ذلك ؟ فَلأَفْعَلْ . وسَرْعَان ما سمعتُ صوتَ الشيخ عاد يقول : « هَلُمُّوا . »

ففتحتُ عينيَّ حانقًا ، واستسلمتُ للمقادير ، و واصلنا السير . وبعد لأيٍ بلغنا الفُوَّهة ، فدخلنا فيها وتقدَّمَنا الشيخُ ، فرأيته قد أخرج شمعةً من جيبه فأشعلها ، ومشى محاذِرًا وقد حَنى هامَته ، وانكمش متلصِّصًا ، كأنَّه مُقْدِم على جريمة . فمشينا على أثره منكمشينَ كذلك . وأخرجتُ مسدسي ، وقد أرهفتُ أذني لأضعفِ حركة . واتَّضح لي أننا نسير في دِهْلِيز رَطْب ، منقورٍ في قلب الجبل . ولم يَفُهْ أحدُنا بكلمة . وبدأ الدهليز يلتوي بعد أن كان مستقيمًا ، وطال سيرُنا والطريقُ ما يزال في التوائه وإظلامه ، ثم رأيناه يتَّسع شيئًا ويستنير . وأخيرًا ظهر أمامنا منفَذ يغمُره وَضَحُ النَّهار ، وغمغمتُ قائلاً :

« لقد وصلنا إلى داخل القصر . فلنستعدَّ . »

وسِرنا حتَّى انتهينا إلى المنفذ ، فإذا بنا نُطِلُّ على الوادي الَّذي تركناه خلفنا ، وإذا الفُوَّهة الَّتي ظنَنَّاها غاية المرحلة ، هيَ بعينها الفُوَّهةُ الَّتي دخلنا منها !

والتفتَ بعضُنا إلى بعض متسائلين ، ورأينا مجاعص يجلس على الأرض ، وقد انفجر في ضِحْكَةٍ

(١) جَمْعُ ملساء ؛ وهي الناعمة الملمس .

طويلة ، ثم قال : « حقا لقد وصلنا ! »

فأجابه الشيخ عاد في حزم وعزم : « سنصل أيها الغبيُّ ! وسترى . »

وجلسنا على رأس المَدْخَل فترة ، ثم قُمنا نستكشف الفُوَّهَة الثّالثَة ، فوجدناها بلا مَنفَذ ، ولكنّها كانت فسيحةً ، كأنها قاعةٌ لا يُعْوِزُها إلا الأثاث ، فقال الشيخ عاد وقد تجلّى اليأسُ في نظرته :

« هنا سنُمْضي اللّيلة . »

وتجهّمَ وجه مس إيڤانس ولم تَنْطِقْ بكلمة ، وأخذنا نُعِدُّ المخادِعَ . وبعد قليل أطفأ الشيخ عاد الشمعة.

وبينما أنا قد غلبني النّوم ، إذْ شَعَرْتُ بيدٍ تَهزُّني بلُطْف ، وإذْ بي أمام الشيخ عاد ، فبادرتُه بقولي :

« ماذا هناك ؟ أ خَطَرٌ أحْدَقَ بنا ؟ »

« كلا . ولكن يلوح لي أنّي عرَفتُ الباب . »

« الباب ؟ »

« تعالَ معي ! »

ونفضْتُ بقايا النّوم عن عَيْنيَّ ، وقمتُ معه ، فقادني إلى الرُّكن الأيمن منَ الحُجرة ، وأشار إلى صخرة منَ الحائط ، وقال : « اِدفعْها بيدِكَ قليلاً . »

فدفعتُها ، فإذا هي تلين بعضَ اللّين تحتَ يدي ، فابتسم الشيخ عاد ، وقال :

« لقد قضيتُ الوقتَ منذ أخَذَكُمُ النّومُ ، وأنا أفحص عن جدار المغارة ، حتّى عَثَرْتُ على هذه الصّخرة ، فتولاني الشّكُّ في أمرها لبُروزها عن مستوى الجدار ، فأخذتُ أحْفِر حولها ، حتّى تبيّن لي أنّها مستقلّة ، وليستْ جزءًا منَ الحائط ! »

« والآنَ ، ماذا ترى ؟ »

« نُتِمُّ العَملَ معًا ، حتّى يتبيّنَ لنا صِدقُ ظَنّنا . »

وناولني قَدُومًا وإزميلاً ، وأخذ مثلَهما ، وجعلنا نعمَل ، فتعمَّقنا في الحَفْر حول الصّخرة ، مجتهدَيْن في إخراجها من مكانها . وأيقظْنا مجاعص ليساعدنا في عملِنا ، ولكنّه لم يفعلْ شيئًا يستحقُّ الذِّكْر ، بل لقد كان تثاؤُبُه وتمطِّيه المستمرُّ يُعطِّلُنا ، حتّى خَشينا أن تصلَ إلينا عَدْواهُ !

ولَمّا حَمِيَ وطيسُ الدَّقِّ ، استيقظتْ مس إيڤانس فأقبلتْ إلينا ، وفهِمتْ كلَّ شيء دون أن تسألَنا ، فلَمع وجهُها بالبِشْر والارتياح .

وبعد جُهْد جَهيد استطعنا انتزاعَ الصّخرة ، فظهرت كُوَّةٌ خلفَها سرداب ، فنظر الشيخُ عاد منها ، ونورُ الشّمعة الشحيحُ يضيء له بعضَ المكان ، ثم قال :

« إنه الطّريقُ المُوصِّلُ إلى القَصر ، ليس في ذلك أيُّ ريب . هيّا ، يا صِحابي . »

وهَمْهَم مجاعص يقول : « ولماذا لا ننتظرُ إلى الصّباح ؟ »

« وهل تظنُّ أن أشعةَ الشّمس ستنفُذُ إلى هذا السّرداب ، فتنيرَ لكَ الطريق ؟ »

« ولكن ... »

« ولكنْ خيرُ البِرِّ عاجلُه . هيّا . »

وانحنى الشيخ عاد فدخل ، وتَبِعَتْه مس إيڤانس ، ثمّ دخلتُ وراءهما وأنا أجرُّ مجاعص من يده . وكان أولَ ما طالَعَنا من هذا السّرداب رَدْهَةٌ صغيرة لم يستطعْ نور الشّمعة أن يُرِيَنا جوانِبَها . وتقدّم الشيخ عاد ونحن خلفَه يُمسك بعضُنا بعضًا ، لا نتحرّكُ إلا معًا .

وسرنا على هذه الحالِ خُطُواتٍ ، وبَغْتَةً شَعَرْنا باختلال توازُننا ، فتساقطنا ، بعضُنا على بعض ، وإذا الطريق يغدو زَلِقًا شديدَ التّحَدُّر . وأحسَسْنا أنفسنَا نهبِط بسرعة شديدة ، في ظَلام دامِس ، إلى بحيث لا نعلم . ولم يَفُهْ أحدُنا بلَفْظٍ ، وعاجَلَتْنا الخفافيشُ المذعورةُ تَطيرُ من حولنا ، وتضربُ بأجنحتها وجوهَنا ،

فتعالى صياحُنا . وما لَبثنا أن وجَدْنا أنفسَنا قد ترامَيْنا في شَبَكَةٍ أو نحوها ، مرتفعةٍ عن الأرض في بقعةٍ مكشوفة .

تمَّ ذلك كلُّه في لَحظات ، كأنَّها ومَضاتُ البَرْق ، فلم نَعِ من أمرنا شيئاً . ولا ندري كيف عَجَزنا عن تَوَقّي هذه السَّقْطَةِ ، وتَلافي الانزلاقِ في ذلك المنحدَر .

وكان نورُ السَّحَر يتقدَّم الفجْر ، ويُؤْذِنُ الوجودَ بانحسار اللَّيل ، فتبيَّنَ لنا أنَّنا في شبه حديقة . وكان كلَّما انْجَلى الصَّباحُ تراءتْ لنا أغصانُ الشَّجر ، وحمل إلينا النسيمُ البليلُ عِطرَ الرياحين .

وتفحَّصَ الشيخ عاد حبال الشبكة ، وقال :

« فلنقطعْها بالسكين . »

وبحثنا عن سِكِّين معنا ، فلم نوفَّقْ إلى شيء يصلُح لهذا العمل ، فقال مجاعص وهو يجتهد في فَسْحِ محلٍّ له بيننا : « إنني أستطيع أن أقرِضَها بأسناني . »

فقالت مس إيفانس : « إذا تمَّ ذلك أمكننا أن نقفزَ منها إلى الأرض ، في غير مَشَقَّة . »

وانطلق مجاعص يَقْرِض الحبال ، وما كاد يبدأ عملَه ، حتّى سمعتُ مس إيفانس تَهْمِس :

« أُنظُرا إلى هذه الخميلة . أُنظرا . أ لا تَرَيانِ فيها شيئاً ؟ »

فجعلت أنظر ، أنا و الشيخ عاد ، وهَيْنَمْتُ :

« أرى عينيْنِ برَّاقَتَيْن ! »

وسمِعْنا حفيفاً بين الأغصان ، فقلتُ :

« قد يكونُ حيواناً وحشيا ، أخشى أن يَهْجُمَ علينا ، ونحن في مَحْبِسِنا هذا ، فلا نستطيعُ منه الفكاكَ ! »

و وجدتُني أخرج الغدَّارةَ وأُطْلِق عليه من فوري رَصاصة ، ولكنْ مَرَقَ في الوقتِ عينِه نصلٌ لامعٌ من ناحية الشيء الَّذي توهمتُه وحشاً ، فكاد النَّصْلُ يَمَسُّ كَتِفَ مس إيفانس ، ثمَّ ارتطم في الصَّخرِ خَلْفَنا ، وعاد فاستقر في حِجْرِ الشيخ عاد . وتداولناه في عَجَلَةٍ ننظُره ، فإذا به خِنْجَرٌ ماضٍ ذو حدَّين ، له مَقْبِضٌ من أغصان الشَّجر ، فتبادلنا النَّظراتِ مَصْعوقينَ . وتوارتِ العَينان ، وهَدأتِ الحركَةُ بين أغصانِ الخميلة ، فقلت : « ما هذه المُعَمَّياتُ (١) ؟ »

فأجابني الشيخ : « أخشى أن تكون قد أصبت آدميا ! »

وغَمَرنا صمتٌ مرهوب .

وأمسك الشيخ عاد بالخنجَر يقطع به حبال الشَّبكة ؛ فَفَسَحَ لنا فيها طريقَ خَلاص .

— ٤ —

ولم تمضِ فترةٌ وجيزة ، حتّى كنّا نحن الأربعةُ على الأرض نسير بِخُطًا حَذِرَة نحوَ الخَميلة المقصودة . وكانت طلائعُ الشَّمس قد بدأت تبسُط علينا أشعَّتَها ، فبدا لنا المكانُ ، وكأنه من أدغال الوحوش ، فدخلنا ونحن نَشُقُّ لنا طريقًا بين الأشجار الملتفَّة ، والأغصان المُهدَّلة ، ندوس الأعوادَ اليابسة ، والأوراق الذابلة ، فيُسْمَعُ لها صوتٌ مُفزِّع في هذا المكان الصّامت .

وأخيراً وجدنا أنفسَنا أمامَ جِسْم مطروح ، فتقدَّمنا نَتَبيَّنُهُ ، فإذا به يقومُ برأسه ، ويرسلُ لنا من مقلتَيْه وميضاً ناريا ، وسمِعناه يردِّد :

« لا تَمسُّوني ! لا تقرَبُوني ! إنّي أَمقُتُكم ! »

و وقعت عينُه في هذه اللَّحظة على مس إيفانس ، فألفينا حَدَقَتَيْهِ قد اتَّسعتا اتِّساعًا عجيبًا ، ونظرَهُ قد تركَّزَ فيها ، ثم اختلَجَ جسمُه بأسْره ، وعلتْ وجهَه ابتسامةٌ ، وقال :

« عجيب ! عجيب ! أ ممكن هذا ؟ »

(١) الألغاز .

ثم هَوى برأسه على الأعْشاب ، وهو يحدّق في مس إيفانس ، ويُجَمْجِم :

« صفاء ! صفاء ! »

وانكبَّ الشيخ عاد عليه ، يتعرَّف جُرْحَه ، ثم اتَّجه إلينا ، وقال : « أعطوني خِرَقًا وماء . »

فناولناه ما معنا من خِرَق ، و وجدتُ وعاءً فَخَّاريا بالقُرب من الرَّجل الجريح ، فناولت مجاعص إيّاه ، وقلتُ له : « دونَكَ الحديقةَ ، فابحثْ لنا عن ماءٍ فيها. »

فغمغَم يقول : « أ يوجد في هذا المكانِ المهجورِ ماء ؟ »

« اذهبْ ، يا غبيُّ ! أ تظنُّ أن هذا الآدميَّ يستطيع أن يعيشَ ، هو وما حوله من نباتٍ ، دُونَ ماء ؟ »

فتلكَّأ قليلاً ، ثم أخذ الوعاءَ ومضى .

وتقدَّمتْ مس إيفانس من الجريح ، وقالت تخاطبُ الشيخَ عاد في رِفق : « ماذا ترى في جُرْحِه ؟ »

« يلوحُ لي أنَّ حالته لا تخلو من خَطَر ، إن الرَّصاصةَ مرَّتْ بجانب الثَّدْي الأيمن . »

فركعتْ مس إيفانس بجوار الغريبِ ساهمةً تفكِّر، ثم تساءلتْ : « لماذا يدعُوني صفاء ؟ »

فقلتُ لها على الفور : « الرَّجل إمَّا مخبول ، وإمَّا محموم ! »

وعاد مجاعص بالوعاء متهلِّلَ الوجه ، يقول :

« عَثَرْتُ على نَبعٍ ماؤُه زُلال . سبحانَ مُبْدِعِ الأكوان ! »

وشرَع الشيخ عاد يُضَمِّدُ الجُرْحَ ، ونحن ملتفّون حوله .

أمَّا الغريب فهو رجلٌ عَبْلُ (١) الجسم ، مبسوطُ القامة ، ذو ملامحَ متناسقة ، تَهَدَّلَ شعرُه على مَنْكِبَيْه ، واختلط في لِحيَتِه الكَثَّة البياضُ بالسَّواد . وهو مرتدٍ ثوبًا ساذَجًا قصيرًا مجدولاً من أَلياف الشجر ، يَتَمنْطَقُ بحزام ، ورأسه عارٍ ، وقدماه حافيتان .

وظلَّت مس إيفانس تحملُ الإناءَ للشيخ عاد ، تساعده في عمله . ورأيتها تُطيل في الوعاءِ النَّظَر . ولَمَّا استنفد الشيخُ ما فيه من ماء ، أدنَتْه مس إيفانس من عينيها تُقَلِّبه ، وتستوضِحُه بدقَّة ، ثم ناولَتْني إيَّاهُ ، وهي تقول : « اقرَأْ ما هو مكتوبٌ عليه . »

فقرأتُ كلمة « صفاءَ » منقوشةً في حافَّتِه منَ الدَّاخل في وضوح ، فغمغمتُ : « لا أدري ما الَّذي يَعْنيه بهذا . »

وقمتُ إلى النَّبع ، فوجدتِه غيرَ بعيد من مكاننا ، موضِعُه بينَ الصُّخور ، يَفيضُ ماؤُه عليها ، ثم يعود فيجتمعُ في شبه حَوْض ، ومن ثَمَّ ينحدِر في قَناةٍ تجوسُ خِلال الخميلة . وهنالِك على الصَّخر الأمْلس الذي ينبثِقُ الماءُ من قلبه ، ويتسايلُ على صفحته ، قرأتُ بخطٍّ منمَّقٍ كلمة : « صفاء » .

فقلت هامِسًا : « وهنا أيضًا ! »

وفيما أنا عائدٌ ضَلِلْتُ طريقي ، فرأيتُني بالقُربِ منَ الشَّبَكة الَّتي كانت تحتَوينا . والْتقى بصري بقطعةٍ ملساءَ في جانب الجبل ، منقوشٍ عليها بخطٍّ كبيرٍ ذلك الاسمُ السالف ، وقد رُسِمَ تحته قلبٌ بجانبه زهرة ؛ فنالتني حَيْرةٌ لا تخلو من ضيق . وعدْتُ إلى الشَّيخ عاد بالإناء ، وقد اندلقَ نصفُ مائه على الأرض .

ولَمَّا فرغ الشيخ عاد من تضْميدِ جِراحِ الغريب ، اخترنا له مَرْقَدًا طيِّبًا في الخَميلة ، ثم مَدَدْناه عليه ؛ و وسَّدْناهُ حُزْمَةً من الهشيم . وأردنا أن ننصرِفَ عنه ، فقالت مس إيفانس : « أ نتركُه وحيدًا ؟ »

فقال الشيخ عاد : « أ لم يكنْ وحيدًا قبلَ أن نَحضُرَ ؟ »

« ولكنَّه جريح . »

(١) ضَخم .

« لا خوفَ عليه . إنه لن يستيقظَ قبلَ ساعة أو أكثر . »

وأخذنا سَمْتَنا (١) إلى النَّبع ، فغَسلْنا وجوهَنا ، ورُحنا ننْهَلُ منه حتّى ارتوَيْنا . وقرأتُ مس إيڤانس كلمة « صفاء » المنقوشة في صَخرةِ النَّبع ، ولكنَّها لم تَفتحْ لي حديثًا في شأنها . وجلسنا حولَ الماء متباعِدينَ في شبهِ حَلْقة ، وقد أسند بعضُنا ظَهْرَه إلى الصخور ، وبعضٌ آخرُ إلى ساق الشجر . وامتلكَتْنا غاشيةٌ من صَمْت ، وغلب النُّعاسُ الشيخَ عاد فأطْبَقَ جَفنَيْه . أمّا مجاعص فكان يَغُطُّ في نومه منذ جَلَس . ورأيتُ رأسي يترنَّح ، وما هي إلا أن رُحتُ في عالَمِ الأحلام .

* * *

وفتحتُ عَيْنَيَّ ، فألفيتُ الشيخَ عاد ومجاعص على حالهما . أمّا مس إيڤانس فلم تكن موجودة ، فقمتُ مدفوعًا بعامِلٍ خفيٍّ ، وقصَدتُ على الفور خَميلَةَ الجريح ، وكنتُ أسيرُ متلصِّصًا . فما إن اقتربتُ منَ المكان حتى سمعتُ صوتًا ، فوقفتُ مختبئًا أنصِت ، وطُفْتُ ببصري بين الأغصان ، فرأيت مس إيڤانس راكعةً بجوار الجريح ، وهو آخذٌ بيدها يحملِقُ فيها ، ويقول :

« شكرًا لكِ على زيارتِكِ لي بعد هذه الغيبة الطويلة . »

فقالت : « أ أنتَ الآنَ أحسنُ حالاً ؟ »

« إنني لا . أشعرُ بمكروه ما دُمْتِ معي . »

« ما دمتُ معكَ ؟ »

« إنَّ الرَّصاصةَ الَّتي قَذَفْتِني بها كانت جزاءً عَدْلاً . »

« ولكنني لم ... »

فقاطعها قائلاً : « لقد جئتِ لتَقْتَصّي منّي ؛ فالحمدُ لله ! »

ورفع يدَها إلى فمه ، وقبَّلَها قبلةً طويلةً حَرَّى ، وكانت شفتاه ترتعشان ، وعيناه نَديَّتَيْن بالدُّموع . ثم رأيتُه قد غاب ثانيًا عن الوَعْي ، فخرجتُ من مخبئي ، ودنوتُ من مس إيڤانس ، فقالت :

« إنه يحدِّثُني حديثًا يبعثُ على الدَّهشة ! يزعُم أنّي جئتُ لأقتصَّ منه ! »

« أ ما قلتُ لكِ إنّه مخبولٌ أو محموم ؟ »

ولَحِقَ بنا الشيخ عاد ، فقلتُ له :

« لقد استيقظ الجريح ، ولفَظَ بضعَ كلماتٍ محمومة ، ثم فَقَدَ وَعْيَه كما كان من قبل . »

فجسَّ الشيخ عاد نَبْضَه ، ثم قال :

« لا خوفَ عليه ، أتْرُكوهُ ليرتاحَ . هيّا بنا لنرتادَ الحديقة ، ونستوضحَ شيئًا منَ القَصْر . »

* * *

وخرجنا منَ الخميلة ، فجُبْنا أنحاء الحديقة ، فألفيناها فسيحةَ الأرجاء ، تَعْمُرُها أشجارُ الفاكِهة مُحَمَّلةً بالطَّيِّبِ الجَنِيِّ منْ مختلف الثّمار ؛ فأكلنا ما لذَّ لنا وطاب حتّى بَلَغْنا الشِّبَع . ثم مَرَرنا بأقسام منَ الحديقة مزروعةٍ أصنافًا شتّى منَ الخُضَر والبُقول .

وانْتَهَيْنا بعد ذلك في بعض المَدارِج ، فَعَثَرْنا على كُوخ ، فدَخَلْناه ، فإذا هو مَسْكَنٌ غايةٌ في السَّذاجة ، به مَرْقَدٌ مُسَوّى منَ الغُصون ، وغِطاءٌ مجدولٌ من لِحاءِ الشَّجَر ، وأسْفاطٌ يحوي بعضُها أليافًا أو ما يشبه الألياف ، وفي بعضِها الآخَرِ قليلٌ منَ البقول والثّمار الجافّة . هذا إلى عددٍ ضئيلٍ منَ الأواني الفَخّاريَّةِ ، مبعثَرٍ في شتّى الجوانب ، بعضُه فوقَ بعض .

(١) طريقنا .

وسمعتُ الشيخ عاد يقول :

« لماذا اختارَ هذا الكوخَ لنومه ؟ أ ليس في القَصر حُجُرات ؟»

وخرجنا نَمُرُّ بجوار الشُّبكة . و وقفتْ مس إيفانس أمام الصفحة المصقولة العريضة المكتوب فيها اسمُ « صفاء » ، تحدِّقُ طويلاً في هذا الاسْم وفيما تحته من رَسْمِ القَلْب والزهرة ، ثم تابعتْ سيرَها معنا، وكانتْ أقَلَّنا كلامًا ، وأكثرَنا تفكيرًا ، ولكنَّها كانت أشدَّنا اهتمامًا بما يَستَبينُ لنا من معالمِ المكان .

وجُزْنا بفَجْوَتَيْن تُشْبِهان المغاور ، فوَلَجْناهُما ، فلم نجد بهما شيئًا يَستَرْعي الاهتمام . ومَرَرْنا بالثالثة ، فإذا هي ذاتُ سَقْفٍ عالٍ ، وفي ركن من أركانها مِدْفَأةٌ منقورةٌ في الصَّخر ، بها بقيَّةٌ مِن رماد ، وعلى مَقْرَبَةٍ منها كُتَلٌ منَ الخَشب المُعَدِّ للحريق ، فقال الشيخ عاد :

« أراهِنُ على أن هذه المغارة مشتًى له ، فهو يَقْضي فيها لياليَ الزمهرير !»

فأجابتْ مس إيفانس : « يا لَهُ من شَخْصٍ غَريبِ الأطوار !»

وقلتُ : « أخشَى أن نكونَ قد كَشَفْنا مَأوى رجُلٍ من قُطّاع الطريق ، فرَّ هاربًا من يَدِ العدالة !»

فأجابَتْني مس إيفانس وهي تنظر إليَّ في عتاب :

« لا تحكُمْ عليه ، يا صديقي ، قبل أن تعرِفَ حقيقتَه .»

وبدأ الظلامُ يَتَفَشّى المكانَ ، فقد آذنَتِ الشَّمسُ بالمَغيب ، واستتَرَتْ خلفَ القِمَمِ العالية . وجعلنا نفكِّرُ: أين نَبيتُ ؟ فقال الشيخ عاد :

« تستطيع مس إيفانس أن تنامَ في الكوخ ، فهو أليَقُ مكانٍ بها ، أمّا أنتَ ومجاعص فتبيتانِ هنا .»

فقلتُ : « وأنتَ ؟»

« إنَّني أفضِّلُ العَراء ، وسأختارُ مكاني بين الخمائل.»

وقالت مس إيفانس : « ومُضيفُنا ؟ أ نسيتَ أنه جريح ؟ سأتركُ له الكوخ ، وسأبحثُ لي عن مكانٍ آخرَ .»

فقال الشيخ عاد : « كلا ، يا سيدتي ، لن يَضيرَه أن يمكُثَ حيثُ هوَ ؛ إنّه ابنُ الغابة ، وحَليفُ الجبل ، وقد يُؤذي الانتقالُ جِراحَه الَّتي لم تَنْدَمِلْ بعدُ .»

وانتصحْنا بنصيحةِ الشيخ عاد فانطلقْنا نُهَيِّئُ أمكِنَتَنا للنَّوم . وبعد أن بذلتُ جُهْدَ الإمكانِ في معاونةِ مس إيفانس على إعداد فِراشِها ، وتوفيرِ أسبابِ الرّاحةِ لها ، ذهبتُ بمجاعص إلى الخمائل لجمعِ الهشيم والأعشاب. ولَمّا انتهيتُ من تهيئةِ المَرْقَد ، نظرت إلى مجاعص وقلتُ : « ما رأيُكَ في هذا السرير الفاخر ؟»

فأجابَ ، وهو يَتمَطّى ويتثاءبُ في تَصايُح :

« أحلِفُ لك بعُمْري إن كلَّ إنسانٍ يَحْسُدُنا عليه، حتّى السلطان .»

واستلقى عليه ، وراح يتقلّب ، وهو ما زال يتثاءَبُ ويَتمطّى ، ثم هدأتْ حركتُه ، فناديته ، فلم يُجِبْني . وبعد قليلٍ علا شَخيرُه ، فتركتُه ، وخرجتُ أمامَ السّاحة ، فوجدتُ مس إيفانس والشيخ عاد يَنْقُلانِ إلى الجريح بعضَ الهشيم ، فذهبتُ معهما ، واستطعنا أن نُعِدَّ له في مكانه مَرْقَدًا ليِّنًا ، مَدَدْناهُ عليه في رِفْقٍ واحتراس ، وغطَّيناه بفَرْوٍ قديم صادفناه في كوخه ، ولم نلبثْ أن تركناهُ نائمًا .

* * *

وفي الغَداةِ استيقظتُ نشيطًا ، فقد قطعتُ ليلتي مسترسِلاً في نومٍ شديد ، وقصدتُ من فوري حديقةَ الفاكِهة ، وملأتُ سَلَّتي بأطيب الثّمار ، وذهبتُ إلى الكوخ ، حيثُ ترقد مس إيفانس ، وعلَّقتُ السَّلَّةَ بالباب ، وأخذتُ سَمْتي إلى النَّبع ، وما كِدْتُ أقتربُ

منه حتّى رأيتُ ستراً منسوجاً من الألياف يتدلّى من شجرة ، يتراءى خلفه إنسان شبهُ عارٍ يغتسل ، وعلى قِيدِ خُطُواتٍ من السّترِ قميص الإنكليزية الحسناء ! فوقفتُ لحظةً أبتسمُ في جَذَل ، وأنا أتردَّدُ بين إقدامٍ وإحجام ، ثم عدتُ أدراجي إلى الكوخ ، وشَغَلْت نفسي وقتاً بإعدادِ الفاكهةِ لها .

وبعد قليلٍ أقبلتْ و وجهُها ما بَرِحَ يقطُرُ منه الماء ، وشعرُها الساجي مهدَّلٌ على أكتافِها . فما إن لَمَحَتْني حتّى صاحتْ في شيءٍ منَ التَّعَجُّب : « أ أنتَ هنا ؟ »

فقلتُ وقد استحيَيْتُ من لهجتِها : « أ ساءَكِ قُدومي ؟ »

« كلا ، كلا ، غيرَ أن الوقتَ مبكّر ، ولم أكن أظنُّ أنه قد استيقظَ أحدٌ بعد . »

« كيف أمضيتِ ليلتَكِ ؟ »

« أرِقةً قَلِقةً ، تهفو بيَ الهواجِس ! »

« لَشَدَّ ما يسوءُني أن أعرفَ ذلك ! »

و وقفتُ قليلاً صامتاً ، أراقبها وهي تُجَفِّفُ وَجْهَها ، ثم أدنيتُ منها بعضَ الفاكهة ، وقلتُ :

« لقد جئتُ لكِ بالفَطور . »

« شكراً ، يا صديقي . سأختارُ له عُنقوداً من العنب . إنه لم يَطْعَمْ غيرَ الماء منذُ أمس . »

« الجريح ؟ »

« لقد ذهبتُ إليه حينَ صحوتُ ، فإذا به ما زال نائماً ، فتركتُه لم أُزعِجْه . »

« أنتِ طيبةُ القلبِ ، يا مس إيفانس . »

قلتُ ذلك في لهجةٍ تُفْصِحُ عن شيءٍ من الاستنكارِ والتعجُّب ، فنظرتْ إليَّ نظرة فاحِصة ، قابلْتُها بابتسامةٍ سانحة ، وخرجْتُ .

التقينا بعد ذلك جميعاً على بابِ المغارة ، كنتُ جالساً أفكّر ، وعن كَثَبٍ مِنّي مس إيفانس ، تُعنَى في وَهَجِ الشمس بتَصْفيف شعْرِها وتجفيفه ، ومجاعص منهمِكٌ في قَضْمِ كوزٍ منَ الذُّرَة نجحَ في شَيِّهِ ، أما الشيخ عاد فكان في داخل المغارة ، ولا أدري : ماذا كان يعملُ هناك ؟

وخرج بعد فترةٍ ، متهلِّلَ الوجه ، يقول : « أ لم ترَ البابَ المؤدِّيَ إلى السِّرْداب ؟ »

« لم أرَ شيئاً . »

« إنه على قِيدِ خُطْوَتَيْن من فراشك . تعالَ انظُر . »

ونهَضتُ معه ، فوجدت باباً من الحجَر ، لا يبعُد كثيراً من مكانِ فراشي ، فقلت :

« عجيب ! كأنما صُنِعَ ليلاً في أثناء نومي ! »

فضحك الشيخ عاد ، وقال : « لقد كشفتُ خلفَه سِرْداباً . »

« وإلى أينَ يُفْضي هذا السردابُ ؟ »

« أكبرُ ظنّي أنه مُفْضٍ إلى داخلِ القصر . »

وجاءت مس إيفانس ، وكانت قدِ انتهتْ من تصفيفِ شَعْرِها ، فَعقَصَتْه بمهارة خلفَ رأسِها ، وتساءلتْ : « ما الخبر ؟ »

فقصَّ عليها الشيخُ كشْفَه الجديد ، فقالت له :

« وماذا تَرى ؟ »

« ندخلُ في السِّرْدابِ على الفَوْرِ لإتمامِ الكَشْف. »

ودخَلْنا ، فإذا بنا في مَمَرٍّ رَطْب ، بدأ ضَيِّقاً ، ثم انبَسَط ، حتّى أصبح ممرّاً فسيحاً ، تَغشاه ظُلمةٌ غيرُ حالكة .

ولم نَسِرْ فيه طويلاً ، حتى رأينا أمامنا دَرَجاً حَلَزونيا كأنه دَرَجُ مِئْذنة ، فجعلنا نَصْعَدُ فيه . وكان

الشيخ عاد يتوقّفُ بين فَيْنَةٍ وأخرى ليتفحّصَ الجدارَ أو الدّرَج .

وأخيرا هَيْنَمَ قائلاً : « إنه منحوتٌ في صميم الجبل . »

فقلتُ : « ولكن يلوحُ لي أنه بلا مُنْتَهى ! »

« إذًا سنرقى به إلى السّمواتِ العُلا ! »

وما فتئنا نَصْعَد ، إلى أن بلغنا غاية الدَّرَج ، وقد أخذ منّا الجَهْدُ كلَّ مأخذ . وألفينا أنفسنا أمامَ ثُغْرَةٍ في حَجْمِ الأبواب المألوفة ، ينفذُ منها نورُ النّهار . ورأيت مس إيڤانس تتهالَكُ على الجدار ، مُمتقَعَة الوجه ، فأقبلتُ عليها ، وأسندتُها إلى صدري ، وأخذتُ أروِّحُ وجهَها بمنديلي ، وانتظرنا حتى أفاقَتْ من غَشْيَتِها . ولَمّا وَجَدَتْ رأسَها على صدري ، بدا عليها الدَّهش ، وقالت وهي تستعيد وقْفَتَها :

« إني آسفة ! آسفة جدًّا ! هيّا ، فلنتابعْ سيرنا . »

وَ وَلَجْنا الثُّغْرة فإذا نحن في رَدْهَةٍ فسيحة يغمرُها النّور ، وينطلِقُ فيها الهواء ، يأتيانِ إليها من نافِذَتَيْن مستطيلتَيْن ، ورأينا صُفَفًا منَ الحجر ، في كلِّ جانب من جوانب الرَّدْهَة صُفَّةٌ ممتدّة ، وفي وَسْطها خِوانٌ كبيرة من الحَجَرِ أيضًا .

فالتفتُّ إلى رفيقيَّ ، وقلت : « كأننا في قاعةِ مَحْكَمَةٍ من محاكمِ القرونِ الخالية ! »

فأجاب الشيخ عاد : « قد يكون صاحبُ القصر أعَدَّها لتصلُحَ لذلك . ألم يكنْ أميرًا على عشائره ؟ »

وانتحتْ مس إيڤانس جانبًا ، تؤدّي بعضَ الحركات الرياضية الخاصة بالتّنفُّس ، ثم اتجهتْ نحوَ الصُّفَّة ، حيثُ تقوم خلفَها النافذتان ، فأسرعتُ أنظِّفُها ، وأنفي عنها طبقاتِ الغبار الّتي كانت تكسوها ، فشكرتْ لي ، وجلستْ ، ثم ألقتْ بظهرِها إلى الحائط ، فقلتُ هامسًا : « أ ما زلتِ مُتْعَبة ؟ »

فأجابتني ، وقد أسبلتْ جفنَيْها : « أشعرُ بتعب ، ولكنّه ليس بالكثير . »

وكان الشيخ عاد يجوبُ الحجرةَ ويتفحّصُها ، فلم ألق بالاً إليه ، ولم أغادرْ مكاني أمام مس إيڤانس . وقفتُ أطيلُ النظرَ في وجهها الهادئ ، وقد غَشيَتْه غَفْوَةٌ خفيفة ، فإذا به قد عراه هُزالٌ وشُحوبٌ لم ألاحظْه من قبلُ ، ولكنَّ ذلك لم يَنَلْ من وسامتِه ، بل لعلَّه قد زادَه إغراءً وفِتْنَة . فإن هذه الصُّفْرَةَ القليلةَ الّتي انتشرَتْ على صفحتِه ، فاختلطتْ بحُمْرَتِه الأصيلة ، أكسبته لونًا شرقيا رائعًا ، زانَتْه رُوحانيةٌ ساحرة ، تنطِق بها كلُّ قَسِمَةٍ من قَسِماته — روحانيةٌ أضاءتْ خلفَ أجفانِها المُسْبَلَة ، وشاعتْ تحتَ بَشَرَةِ وجهِها النَّضِر ، فأحالتْ تلك الطَّلْعَةَ من وجهٍ إنسانيٍّ مركَّبٍ من لحم ودم وعظم ، إلى طيفٍ مُؤَلَّف من عناصرَ نُورانيةٍ لا تنتَسِب إلى المادّةِ بشيء .

وأحسستُ يدًا تُلاطِفُ كَتِفي ، وسمعتُ الشيخ عاد يقول : « ماذا تَفْعل ؟ أ تَحلُم بالنعيمِ الموعود ؟ »

فنظرتُ إليه طويلاً ، وأنا صامت ، ثم أجَبْتُ في خُفوتٍ : « بل أحْلُم بالنعيم المفقود ! »

فابتسمَ ابتسامةً خفيفة ، وضَغط يَدَيَّ ، ثم اقتادني إلى النافذة ، وهو يقول : « أُنظُر ! »

وانطلقتُ أتطلَّع منَ النافذة ، فإذا بحديقةِ القصر مبسوطةً تحتَ أعيننا ، على مرتَفَع شاهق . وعلى الرَّغم من ذلك ، استطعنا أن نلمَحَ شيئًا يتدحْرَجُ في ساحةِ الحديقةِ أمامَ الأشجار . وظلِلْتُ أُدقِّقُ النظر ، فتبينتُ شخص مجاعص في هذا الشيء ، يتمرَّغُ على الأرض، كما تتمرَّغُ الدابَّةُ الطَّروب ، فقلت :

« إني أمنحُ نصفَ عمري ، إن كان لي عُمُرٌ يستحقُّ الذِّكْر ، لمن يُنيلُني سعادة هذا الرَّجل ! »

وشَهِدنا مس إيڤانس تشارِكُنا في النَّظر ، وهي تَبْتَسِم ، وقد بدا عليها أنها استفادتْ أيّما استفادةٍ من

تلك الغَفْوَةِ الّتي أغفتْها ، وقالت :

« إننا على ارتفاع عظيم ! »

فقلتُ : « كأنّنا في ذِرْوَةِ هَرَمِ «« خوفو »» ! »

« كلّما طال مُكثُنا في هذا المكانِ العجيب ، تكَشّفَتْ لنا معالمُ جديدةٌ تُورِثُ الدّهشة . »

ونظرتْ إليّ ، ثم قالت : « أ فآسِفٌ أنتَ لهذه المخاطرة ؟ »

فابتسمتُ ، وقلت : « إذا كنتِ أنتِ تأسَفين . »

« إنّي شديدةُ الغِبْطَةِ بما يحيط بي من عجائبَ . والآن هيّا نستأنفُ عملَنا في كشفِ القصر . »

فتقدّمَ الشيخُ عاد ، وقال :

« لقد ألقيتُ نظرةً على بَقيّةِ القاعات ، فلم أرَ فيها جديدًا ، ولكن لا بأسَ بأنْ تُسرِّحوا نظرَكُم فيها . »

ومضى أمامنا ، وسرنا خَلْفَه ، فاختَرقْنا بعضَ قاعاتٍ وَمَمرّاتٍ لا تختلفُ عمّا شاهدناه . وكانتْ كلُّها تَرِبَةً ، يَدُلُّ مظهرُها على أنها لم تطأها قدمٌ منذ أعوامٍ مديدة . ورأينا لبعض الحُجَرِ مَدافِئَ ، ولبعض نوافذها مغاليقَ من خَشَبٍ غليظ أو من حَجَر . ولاحظتُ على مس إيفانس أنّها قد لاذَتْ بالصّمْت ، فكانت تتلَفّتُ حولَها تَلَفُّتَ الحالِم .

و وصلنا أخيرًا إلى بابٍ في نهاية المَمرّ ، فقال لنا الشيخُ عاد : « أكبرُ ظنّي أنه بابُ الخُروج . »

وسمعنا مس إيفانس تنطِقُ في سُهومٍ بقولها :

« لا أدري لماذا يَدْعونني صفاء ؟ »

فحدّقْنا فيها صامتَيْن .

ثم راح الشيخ عاد يعالجُ فَتْحَ الباب ، وكان من خَشَبٍ غليظ ، فلقِيَ بعضَ الصّعوبة ، فأقبلتُ عليه أساعِدُه ، فتمكّنّا من زحزحته ، وفَسْحِ مكانٍ لنا نَجوزُ منه ، فقد كان الخشبُ متماسكًا ، مشدودًا إلى الحجَر ، حتّى لَيكادُ يكونُ معه بنيانًا واحدًا . ومررنا منه ، فَأَسلَمَنا إلى مَمَرٍّ ضيّقٍ أظلَمَ وَالْتَوى ، وكلّما توغّلْنا فيه أطبقَتْ علينا دَياجيهِ [1] واشتدّت .

وقال الشيخ عاد في صوتٍ خَفيض : « قبّحَني الله ! لمْ أحْضِرْ معي شَمَعًا ولا ثِقابًا ! »

وبحثتُ أنا ومس إيفانس عن ثِقابٍ معنا ، فلم نجِدْ من شيء ، فقلتُ :

« نعود من حيثُ أتَيْنا ، فالطريقُ خلفَنا معروف . »

فقالت مس إيفانس : « بلْ نتقدّم ، فربّما أزحْنا النّقابَ عن جديد ! »

« كيف يتجلّى لنا في الدُّجى شيء ؟ »

« أ وَ تَظُنُّ أنَّ المكانَ سيظَلُّ على إظلامه طويلاً ؟ »

وأمسك بعضُنا ببعض ، وتقدّمنا في خُطًا وئيدة ، وكان الشيخُ رائدَنا ، يتلَمّسُ الطريقَ ، ويُلقي علينا الأوامر .

وسرنا ، وسرنا ، واختلّ توازُنُنا دُفْعةً واحدة ، فوقعنا يتشبّثُ كلٌّ منّا بصاحبه ، وهَوَيْنا مُتدهْورينَ في مُنْحَدَرٍ زَلِق . وقبل أن نُفيقَ من دَهْشَتنا وجدنا أنفسَنا في الشّبَكَة الصائدة في الحديقة ، ومن ثَمَّ انطرَحْنا على الأرض . وسمعنا قَهقهةً عاليةً وضجيجًا ، فإذا مجاعص أمامَنا مُغْرِبٌ في الضّحك ، وهو يقول :

« ما أحلاكُم ، وأنتم مُعلّقون في الشّبكة ! ألا تُعيدونَ الكَرّة ؟ »

وقُمنا ونحن نَنْفُضُ التّرابَ عن ثِيابنا ، وصرَخ الشّيخ عاد في وجه مجاعص فأخْرَسه . وما كِدنا نسير بضع خُطُواتٍ ، حتّى التَفَتَ بعضُنا إلى بعض ، وغلبَ علينا جميعًا ضَحِكٌ متواصِل .

ثم تفرّقْنا : مكَثَ مجاعص في السّاحة بجوار الشّبَكَة ، أمّا أنا والشيخ ، فقصَدنا إلى النّبع نَسْتَرْوِحُ

(١) الظّلمات .

بيعض الحديث ، وكانت وجهةُ مس إيفانس الكوخَ .

وبعد قليلٍ تململتُ في جِلْستي ، وتأهّبتُ للقيام ، فانفرجَتْ شفتا الشيخ عاد عن ابتسامةٍ هادئة ، وقال :

« حقا لقد أبطأنا عليه . »

« من تَعْني ؟ »

فقام ، وتأبط ساعدي ، وقال : « هيَّا بنا . »

« إلى أين ؟ »

« إلى الجريح . أتحسَبُني أعْني غَيْرَه ؟ »

* * *

وصلنا إلى هنالك ، فصادفْنا مس إيفانس ، مُنحَنِيَةً على الجريح تُساعدُه في تناوُلِ شرابٍ من وعاءٍ فَخّاريٍّ ، فلمّا رأتْنا قالت : « لقد أعدَدْتُ له عصيرَ فاكهة . إنه في حاجةٍ إلى التغذية الخفيفة . »

فأجابها الشيخ عاد : « حَسَنًا صَنَعْتِ . »

وكان الجريحُ يُقَلِّبُ فينا بَصَرَه الحائرَ الحَذِر ، وهو مُغَضَّنُ الجبينِ ، فقالت له مس إيفانس :

« إنّهما صديقاي ، وإنّي مدينةٌ لهما بفضلِ الاهتداءِ إلى هذا القصر . »

فانبسطتْ أساريرُ وجهه شيئًا ، ولم يتلفَّظْ بحرف ، ورفع رأسَه يحيِّينا ، فأقبلَ عليه الشيخ عاد هاشا باشا ، وهو يقول : « كيف أنتَ الآن ؟ »

فقال في هَمْس : « بخير . »

« إنّنا آسفونَ لما وَقَعَ لك ! كان خطأ غيرَ مقصود . »

فأجاب في لَهْجَةِ يقين ، وهو يَزُمُّ شفتيْه عَقِبَ كلِّ كلمة : « ليس ما وقع بخطإ ، إنما هو العدْلُ الإلهيُّ ، أتقبلُه راضيًا قريرَ العين . »

ثمَّ عاد يَنْهَلُ منَ الإناء ، تُقَرِّبُه إلى شفتيْه مس إيفانس . وبعد أنِ ارتَوى مَسَحَ براحَتِه فَمه ، وأسند ظهرَه إلى كومَةٍ منَ العُشْب ، ثم أرخى جَفْنَيْه .

وبعد لحظةٍ تكلَّم بصوتٍ خافت ، وهو ممسكٌ بيدِ مس إيفانس ، قائلاً : « إنّي أراكِ الآن في ثيابِ العُرْس ، والعَذارى يُحِطْنَ بك . أراكِ متلألئةً تفيضينَ حياةً ونورًا ، ثم أرى الغَدّارَةَ صُوِّبَتْ نَحْوَكِ ، والرَّصاصةَ مخترِقَةٌ قلبَكِ ! ثم ... »

واحتَبَسَ صوتُه ، فلم نَعُدْ نَسْمَعُه ، وإن كانت شفتاه ظلَّتا تتَموَّجانِ .

ورأينا خَيْطَيْنِ منَ الدُّموع يتهاديانِ على خَدَّيْه .

وما هي إلا فترةٌ قليلة حتّى سكَنَتْ حركةُ شَفَتَيْه ، وكانت مس إيفانس تُلاطِفُ يَدَه ، ثم نظرت إلينا تقول : « مسكين ! »

وكان مَنْظَرُه حقا يَسْتَدِرُّ الرِّثاء .

ولم ألبَثْ أن وَجَدْتُني أندفع قائلاً : « لا ريبَ أنه فَقَدَ عقلَه ! »

ففتح عينيه ، وصوَّبَ نَظَرَه إليَّ مُحَدِّقًا ، وقال :

« كلا ، يا سيدي ، لستُ مجنونًا ! إن المجنونَ لا يستطيعُ أن يمكُثَ غيرَ مُجبَرٍ خمسةً وعشرينَ عامًا في هذا المكان . »

فقالت مس إيفانس ، وقد اتَّسَعَتْ حَدَقَةُ عينيها :

« أنتَ في هذا المكانِ منذُ رُبْعِ قرن ؟ »

« لم أبرَحْه دقيقةً واحدةً طَوالَ هذه الحِقْبَة . »

فابتسمتْ ابتسامةَ إشفاق ، وهَجَسَتْ :

« أليس هذا هو الجنونَ بعينه ؟ »

ولم أكد أتِمُّ جملتي ، حتى رأيتُ الجريح يَشْرَئِبُّ[1] ، وقد احتقنَتْ عيناهُ ، فكأنهما جَمْرَتانِ تتلَهّبانِ .

(١) يَمُدُّ عُنُقَهُ لِيَنظُرَ .

وأمسكَ بالإناء الفارغ ، وهو يصيح :

« أُسكُتْ ، وإلا شَجَجْتُ رأسَكَ بهذا ! »

فَهدأتْ مس إيفانس من رَوْعِهِ ، ومال عليَّ الشيخ عاد ينصحُ لي بالتزام الصَّمْت . فانتحيتُ رُكنا غيرَ بعيد ، ولَبِثْتُ أراقبُهُم ، وأُصغي لما يتبادلونَه من حديث .

وقالت مس إيفانس للجريح : « أَصْدُقْني القولَ ، مَن أنتَ ؟ »

فقال لها وقد لَطُفَ صوتُه ، وخفَّتْ حِدَّته ، وتحيّر الدَّمْعُ في عينَيْه : « صفاء ! أ نَسيتِ مَنْ أنا ؟ »

« قُلْ بربِّك ، مَن أنتَ ؟ مَن أنتَ ؟ »

« يا لَكِ ! أ نسيتِ يوسُفَ الصافي ؟ »

« حفيد الشيخ بشير الصافي مشيِّدِ القصر ؟ »

« إذًا ، بدأتِ تَتذكَّرينني . »

« ولكنَّ يوسف الصافي انتحر . »

و وضَحَ الإعياء بغتةً على وجه الجريح ، فانحنى الشيخ عاد على قلبهِ يَتسَمَّع ، ثم قال : « يجب أن يرتاحَ . »

ورأينا يوسف قد تراخى جفناهُ ، وانسابَ بِهِ الكَرى ، فهمَس الشَّيخ عاد في أُذُنِ مس إيفانس ، ثم تركا الرجل ، وجاءا إليَّ . وذهبنا إلى النَّبع ، ونحن سُكوتٌ ، وجلسنا شِبْهَ دائرة ، نحدِّقُ في كلمة «« صفاءَ »» المنقوشةِ في الصَّخر الأملَس ، تتدفَّقُ عليها مياهُ اليَنْبوع ، فتدعَهُا تَختَلجُ حُروفُها ، كأنَّ لها قلبًا حيا يَنبِض .

وبعد حينٍ قال الشيخ عاد : « إن السرَّ يوشكُ أن ينجَلِيَ . »

فقلتُ : « كَيف ؟ »

« إذا كان الرَّجُلُ صادِقًا في زَعْمه ، فإن قصَّة انتحاره الَّتي نقلها إلينا الرُّواة ، إشاعةٌ مُختَلَقَة . »

فقلتُ : « أ وَ تَظُنُّ أنه صادِقٌ فيما زَعَم ؟ »

« أميل إلى تصديقه . »

وَبَرقَتْ عينا مس إيفانس ، وقالت : « أمّا أنا فأعتقِد أنَّه غيرُ كاذِب . »

فطأطأتُ رأسي ، وعَبِثْتُ في الأرض بعودٍ يابِس ، وقلت : « قد يكونُ صادقًا ! »

وطالت جَلْسَتُنا . فقال الشيخ عاد : « إنّي لا أرى مجاعص ! »

فقلت : « لقد صِحتَ فيه صيحةً أوقعتْ في قلبه الرُّعب . »

« لقد أساء الأدب . »

« ولكن لا تنسَ أن موقفنا كان مُثيرًا للضَّحِك . »

« ما كنتُ أتوقَّعُ لنا هذا الحادثَ مطلقًا . »

« غريبٌ أن ينتهِيَ مَطافُنا في القَصر ، قريبًا من فُوَّهَةِ الدُّخول ! »

« ليتنا كنّا على عِلْمٍ بذلك في أوَّلِ الأمْر . »

ونهض الشيخ عاد يبحث عن مجاعص ، وبقيتُ ومس إيفانس وحدَنا في المكان . وبدأنا نسمَعُ صوتَ الشيخ عاد يُنادي مجاعِص ، فتُرَدِّدُ جوانبُ البُقعة صداهُ في رنينٍ سِحريٍّ ، وكنت جالسًا القُرْفُصاءَ صامتًا وعيناي تُحدِّقانِ أمامي تحديقًا شاردًا ، وقد شعرْتُ بموجةٍ منَ الأسى تَطْغى على نفسي ؛ إذ استَعدْتُ في خاطري ما جرى بيني وبين الجريح من جَدَلٍ لم يخلُ من حِدَّةٍ وعُنف .

وبعد فترة طويلة منَ الصَّمْت ، شعَرت بيدِ مس إيفانس تُلاطِفُ يَدي ، وتقول : « أ مُستاءٌ أنتَ ؟ »

ولم ألتفتْ إليها ، وظَلِلْتُ على حالي أحَدِّقُ أمامي ، وقلت : « مستاءٌ مِمَّن ؟ »

« منه ! »

« كلا . اطْمَئِنّي من هذه النّاحية . وهل أعيرُ اهتمامي شَخْصاً مخبولاً ؟»

« لماذا يصطبغُ حديثُك في شأنه دائمًا بهذه اللّهْجة القاسية ؟»

« وأنتِ ، لماذا تُظَلِّلينَه دائمًا بهذا العطفِ الغريب ؟»

« ألا يستحقُّ منا هذا العَطف ، بعد أن كِدنا نقتُلهُ ؟»

« لو لم نبادِرْه بهذه الضَّربة ، لقضى علينا جميعًا. إنه من قُطّاع الطَّريق ، وقد انتحلَ شخصيةً من شخصيّاتِ الأساطير ، يُخفي تحتَها شخصيّتَه الزّائفة . إنـه يُمثّلُ دورَه في إتقان ، وقد قَدَرَ على أن يستهويَكِ، فيُخْضِعَكِ لسلطانه السِّحْريّ !»

« ما هذا ؟ ألا تخجَلُ من قولك ؟»

« إنّي لا أخجل من قولِ الحقّ ، وإسداءِ النُّصْح .»

« بل إنكَ لتَغارُ منه .»

فجابهتُها ، وحدَّقتُ فيها بشدَّة ، كأنّما يتطايَرُ من عَيْنَيَّ الشّرر ، وقلت : « أنا أغار منه ؟ أنا ؟»

ولم أزِدْ على هذا ، ولم تُجب مس إيفانس بحرفٍ . وبَقينا على هذه الحال بِلا كلام ، يحدِّقُ كلٌّ منّا في صاحِبِه .

وأخيرًا ألفَيْتُ مس إيفانس تُسْبِل جفنَيْها ، وتقول لي في لهجة محزونة : « إنّي آسفة ! أرجو أن تنسى ما وجَّهتُه إليكَ من قول .»

فَخَفَضْتُ رأسي ، وأنا أجَمْجِمُ : « وأنا أيضًا شديدُ الأسف على ما بَدَرَ مني . أرجو أن تُسامِحيني.»

وأقبل الشيخ عاد فرآنا على هذه الحال ، فأدرك كلَّ شيء ، ولكنّه تظاهر بأنه لم يلاحظْ شيئًا .

ثم قال : « إنَّ المخبولَ مجاعص غيرُ موجود !»

فقلت : « كيف ؟»

« بحثتُ عنه في كلِّ مكان ، فلم أعثُر عليه .»

« قد يكون مختبِئًا في موضعٍ خفيٍّ ، هَرَبًا منّا .»

فقال الشيخ عاد : « ربَّما كان الأمرُ كذلك !»

* * *

وقضينا النهارَ بأكمله نبحثُ عن مجاعص فلم نجِدْ له أثرًا ، فاشتدَّ قلقُنا عليه . وكانت مس إيفانس والشيخ عاد يَعُودانِ الجريحَ في الحين بعدَ الحين ، أمّا أنا فقد فَضّلْتُ ألا أزورَه وألا أبدأ حديثًا في شأنه . ولكنّني علمتُ منَ الشّيخ أنّه ما زال يَهْذي باسم صفاءَ ، ويَرْوي نُتَفًا مُتَقطِّعة مختلِفة ، تَصِفُ مَصرَعَها في حفلة عُرْسِها .

ولَمّا هجمتْ حَنادِسُ (١) اللّيل ، وسار كلٌّ منا إلى مخْدَعِه ، اعتراني هَمٌّ ثقيل ، جثَمَ على صدري ، هَمٌّ قد اختلَطَ بخوفٍ وجُبْن . ودخلتُ المغارة في خُطًا متردِّدَة ، ثم أقبلتُ أبحثُ مدقِّقًا : أهناك بابٌ آخر ، أو مكان مُستتِر خلفَ الجدران ؟ وأحكمتُ إغلاقَ البابِ المُفضي إلى سِردابِ القَصْر ، وأردتُ أن أرُدَّ بابَ المغارةِ أيضًا ، ولكنّني لم أفعلْ ؛ إذْ وجدتُ في تَرْكِه مفتوحًا بعضَ الطُّمأنينة ، فقد أحتاجُ إلى المعونة ، فأنادي بعضَ الرِّفاق ، فيَسْمَعُ صوتي ، ويَخِفُّ لنجدتي . ولكن مِمَّنْ أخاف ؟ ولماذا أطْلُبُ العونَ ؟ ذلك ما لم أكن أملِكُ الجوابَ عنه !

وأشعلت المِدْفأة لأستنيرَ بضوئها ، وأستدفئَ بحرارتها . واستلقيتُ على الهشيم ، وقد دَعَمْتُ رأسي بيديَّ ، وانطلقتُ أحدِّقُ في سقف المغارة الكثيرِ النُّتوء ، ونارُ المِدْفأة تتلاعب عليه في أشكالٍ بَشِعَة . ورُحت أفكِّر في هذه العلاقة العجيبة الّتي نشأت بين مس إيفانس والجريح ، وجَعلتُ أجَمِّع أمام عينيَّ ما وقع لي معها اليومَ من مُشاحنة ، وأستَحضِر اتّهامَها إيّاي بالغَيْرةِ منَ الجريح .

---

(١) جَمْعُ حِنْدِس ؛ وهو الظُّلمة .

وتكالَبَتْ عليَّ الهُموم ، وأحسستُ كأن يدًا تأخُذُ بمُخنَّقي .

لماذا قَبِلْتُ أن آتيَ معها لكشف هذا القصر المشئوم ؟ لقد بتُّ أكرَهُهُ كما أكرهُ صاحبَه ! لمَ لا أتركه وأعودُ من حيث أتيتُ ؟ و مس إيفانس ... أ فأدَعُها بين ذراعَيْ ذلك الجريح المخبول ؟

وخُيِّلَ إليَّ أنّي أسمَعُ صوتًا يَعْوي في مكانٍ سحيق ، وأرهفتُ أذنَيَّ أصغي في انتباه . أ هناك ذئابٌ تُحيط بنا ؟ لست أدرى !

ونهضت أُغْلِقُ بابَ المغارة ، وعدت إلى الهَشيم فارتميت عليه . وتعالى العُواءُ ثانيةً . أ عُواءَ ذئب هو ، أم صوتُ آدميٍّ ؟ لم يتبيَّنْ لي حتّى الآنَ شيء . إنه ليس صادراً من بعيد ، كما توهَّمْت باديءَ بَدْء ، فهل هو صوتُ حبيسٍ خلفَ الجُدران المحيطةِ بي ؟

وتذكَّرْتُ غَيْبَةَ مجاعص ، فاختلجَ جسمي اختلاجة مفاجئة . لمَ لا أذهب فأدعو الشيخ عاد ؟ وجلست على فراشي أحَدِّقُ في باب المغارة . واستمهلتُ نفسي وقتًا ، وأرهفتُ أذنيَّ كلَّ الإرهاف، ومكثتُ على هذه الحال مدةً ليست بالقَصيرة أتَسَمَّع . قد يكون هذا العُواءُ صَدًى لصوتِ نفسي العليلة المضطربة . إن أعصابي ثائرة ، وإني في حاجة إلى شجاعة نفسيَّةٍ كبيرة لِضَبْطِها . فألقيت بجسمي على الفراش ، وأرخيْتُ أجفاني ، وأرغمتُ نفسي على النَّوم ، كما أرغمتُها كذلك على التَّفكير في شؤونٍ أخرى ، بعيدةٍ كلَّ البُعْدِ عما كنت أجيل خاطري فيه .

وكِدت أنْجَحُ في مسعايَ ، وشَعَرْتُ بطلائع النُّعاسِ الأولى تغزو رأسي . وانتبهتُ مذعوراً ، وأنا أتلفَّتَ حولي ، وكلّي أذنٌ صاغية : أ يكونُ ما سمِعْته اللَّحظة حُلُمًا أم حقيقةً واقعة ؟

ورأيتُني أقفِزُ من فراشي ، وأتركُ المغارة عَدْوًا ، آخذًا سَمْتي إلى مَبيتِ الشيخ عاد ، وما إن واتيْته، حتّى جعلتُ أهُزُّه ، وأقول : « اِستيقِظ ! اِستيقظ ! »

فرفع الشيخ جفنَيْه مرعوبًا ، وقال : « ماذا ؟ »

« سمعتُ صوتَ استغاثة . »

« استغاثة مجاعص ؟ »

« لا أدري على وجه التَّحقيق . يخيَّل إليَّ أنّه حبيسٌ في مكانٍ مجهول . »

« حبيس ؟ ومَن حبسه ؟ »

« من يَدْري ؟ قد يكون في قَبْضَةِ شَيطان عنيد . »

فنظر إليَّ مَليا ، وهو يتفحَّصُني ، وقال :

« أ مستيقِظٌ أنتَ ؟ »

« تمامَ اليقظة ... يجب أن نغادِرَ هذا الموطِنَ الممقوت ، يجب أن نُبارِحَه منَ الغَدِ . وإن استطعنا اللَّيلةَ أن ننتقلَ ، كان أوفقَ وأمثلَ . »

« هَدِّئْ من رَوْعِكَ ! أراكَ مضطربًا ! »

وناولَني قليلاً منَ الماء ، فشربته ، وقلتُ على الأثَر:

« وهي ! يجب أن نُنجِيَها منه . إنَّها تحت تأثير مِغْنَطيسيٍّ شديد ! »

« ولكنكَ تحدِّثني في أمر مجاعص ، وتذكُرُ لي أصواتَ استغاثة ! »

« لا أدري ! لا أدري ! »

« قُم بنا إلى المغارة ، وسأتبيَّن الأمر بنفسي ، فإذا كان ما سمِعتَه أصواتًا حَقَّة ، بدأنا نبحث عن مجاعص فوراً . »

وقمتُ معه إلى المغارة ، وجَلَسنا على الهشيم نُنصِتُ في انتباه ، وأمامنا نارُ المِدْفأة ، وقد أخذَتْ جَذْوَتُها يُسْرِعُ إليها الخُمودُ ، فنُحِسُّ الظُلْمةَ والبرودة تَشيعانِ حولَنا رُوَيدًا .

وما هي إلا أن عاد الصوتُ ثانية . سمعتُه واضحًا هذه المرَّة ، فما كاد يبلُغُ أذنَ الشيخ عاد حتّى استوى

في وِقْفَتِه ، وقال : « إنه مجاعص ! هو بعينه ! »
ثم خطَفَ من المَوْقدِ جِذْعًا طَرَفُهُ مُلتهِب ، وقال :
« اتْبَعْني . »
ورأيته يتّجه نحوَ البابِ المُفضي إلى السِّرْداب ، الّذي دخلنا منه إلى القصرِ هذا الصَّباح ، فسِرتُ خَلْفَه . وأوغَلْنا في السِّرداب ، وكان منظَرُه على ضوءِ ذلك المِشْعَلِ الخافتِ مرهوبًا مُفَزِّعًا ، وسرنا والشيخ يَتَسمّعُ يَمْنَةً ويَسْرةً . وترادَفَ الصَّوتُ ، ولكن في ضَعْفٍ وتراخٍ ، فتبيَّنتُ لي فيه استغاثةٌ مكروبةٌ لاهِفة . وقال الشيخ عاد : « لقد أحسنتَ صُنْعًا إذ أيقظتني . إن المسكينَ في مَأْزِقٍ حَرِج ! »
ورأيتُه يَصْعَدُ الدَّرَجَ في بُطْءٍ شديد ، وهو ما زال يَتَنَصَّت ، ثم إذا به قد وقف دَفْعةً واحدة ، وأخذ يتراجَعُ إلى الوراء ، وصاح وعيناه تحدِّقان حيثُ موطئُ قدميْه : « أُنظر ! »
فتقدَّمْتُ خُطْوَةً ، ونظرتُ باحتراس ، فوجدتُ أمامي فَجْوَةً دامِسَةً كأنها فُوَّهَةُ بئر ، فقلتُ وأنا أرتعد :
« لم تكن موجودةً في الصَّباح ! »
« من حُسْنِ حظِّنا . »
« وكيف وُجِدَتْ ؟ »
« هذا ما لا أعرِفُه على وجهِ اليقين . غير أنه لا بدَّ أن الدَّرَجَتينِ اللّتينِ كانتا تُغَطِّيانها ، لم تكونا من صميم الدَّرَجِ المحفور ، بل كانَتا منفصِلتَيْن عنه . أمّا كيف سَقَطَتا بمجاعص فذلك سرٌّ من أسرار هذا القصر ! »
« أهو هُنالِك ؟ »
ولم أُكمِلْ جملتي ، حتى تَناهى إلينا صوتُ المِسكين ، وكأنه آتٍ من مكانٍ قَصِيٍّ ؛ فصاح الشيخ عاد يُطَمْئِنُه ، ثم التفتَ إليَّ ، وقال : « عليَّ بالحبل . »
« الحبل ؟ »
« لأتدلّى به إلى حيْثُ هَوى . »
« لا أذكر أين وضعناه . »
« ولا أنا أيضًا . قد نكون نَسيناهُ في خارج القصر. ولكن يوجدُ في كوخِ يوسف الصافي – أعني حجرة مس إيفانس – شيء يشبِهُ الحَبْلَ ، يَصلُحُ لهذه الغاية . »
« أو تستطيعُ الحصولَ عليه في هذه الساعة ؟ »
« يجب أن نحاولَ المستحيل ؛ لإنقاذ روحٍ إنسانية تستغيثُ . هيّا . »
« ماذا ؟ »
« اِذهبْ إلى الكوخ ، وجِئْني بما طلبت . »
فنظرت إلى الشيخ عاد متحيِّرًا ، فوجدته يَرْنو إليَّ بنظرة ثابتة ؛ فأطعتُه ، وخرجت أتحسَّسُ طريقي في الظَّلام المُدْلَهِمّ .
وأخيرًا وصلتُ إلى الكوخ ، فوقفت أمامَ الباب متردِّدًا ، ثم طرقتُه بعضَ طَرَقاتٍ ، فأجابت مس إيفانس وقد بان الرُّعْبُ في صوتها : « مَن ؟ من يَدُقُّ البابَ هكذا ؟ »
« أنا . أنا ، يا مس إيفانس . »
« أنتَ ؟ ماذا جاء بكَ في هذه الساعة ؟ »
« افتَحي ! أمرٌ خطير ! »
وشَعَرْتُ بها تستوي على فراشها ، ثم انقضَتْ هنيهةٌ لم تتحرَّكْ في أثنائها ولم تتكلّم ، فهل خامَرَها شكٌّ في طَوِيَّتي ؟ وهل ظنَّت أنّي أحتالُ عليها لغرضٍ في نفسي ؟ فصِحتُ ثائرًا : « اِفتحي ! افتحي ! إنه يُحْتَضَر ! »
وأحسَسْتُ بها تَثِبُ عن السَّرير ، وفي طرفَةِ عينٍ وجدتُها بالباب أمامي ، وقالت في جَزَع :
« أحقا أنه يُحتضَر ؟ »
وفهِمتُ على الفورِ من لهجتها مَنْ تَعْني . وأدركتُ هي مِن تراخِيَّ في الإجابة أنها تَعَجَّلَت في إزاحة النِّقاب عن عواطفها . وقلتُ في تَمَهُّلٍ :
« إنَّ الشيخ عاد أرسلني لأُحْضِرَ له حَبْلاً . »

وأوضحتُ لها بإيجاز قصةَ الدَّرجتَيْن اللَّتين هَوَتا بمجاعص في مَسْقَط يُشبه البئر . وكانت تُصغي إليَّ في انتباه ، ونورُ الهِلالِ الغاربِ يُلقي بضوئه المتخاذِلِ عليها ، فيزيدُ في فِتنتها ، وهي تَخطِرُ في ملابِسها الساذَجَة ، وخصائلُ شَعرِها الطَّليق تَترَسَّلُ على كتفيها. و وقفتُ قليلاً لا أتكلم ، أناجي بعينَيَّ ذلك السِّحْرَ الخلاب .

وسمعتُها تقول : « تَقدَّمْ ، وادخُل ، ولنَبْحَثْ عن الحبل . »

ودخلنا ، فلم نجد حبلَنا القديم ، وثَبَت لنا أنَّنا تركناه في خارج القَصْر في المغارة الأخيرة . فجمَعْنا ما في الكُوخ من أَلياف تصلُح لأنْ يُصنَعَ منها حبلٌ ، وذهبنا بها إلى مكان الشيخ عاد ، فهمَسَ قائلاً :

« أخشى أن يكونَ قد فاتَ الوقتُ ! »

فقلتُ فَزِعًا : « كيف ؟ »

« لقد صرَخْتُ أناديه مرّاتٍ كثيرة ، فلم يُجِبْني ، ولم أَحْظَ منه بردٍّ . »

فغمغمَتْ مس إيڤانس : « المسكين ! »

وقلتُ : « قد يكون مُغْمًى عليه ! »

فأجابني الشيخ عاد في حَسْرة : « قد يكون ذلك ! »

وأقبلنا نحن الثلاثةَ على أشتاتِ الألياف نَفْتِلُها ونجعلُها حَبْلاً متينًا . وكنّا نعملُ بهمَّةٍ ونحن صامتون ، والكونُ حولنا ساكنٌ في رَهبة كئيبة ، كأن العالم كلَّه يشاركنا في جَزَعنا على ذلك الرَّفيق المنكوب .

وطال بنا الوقت ، فلم نَيْئَس ، وأتممنا عملَنا . وشدَّ الشيخ عاد الحبلَ إلى ظهره ، وجعل يَتَدَلَّى في الفُوَّهَة ، وبَقيتُ ومس إيڤانس قابِضَيْن على الحبل ، نُرْخيه شيئًا فشيئًا ، مُتَرَيِّثين حَذِرين من كلِّ طارئ . كان الجِذْعُ الملتهبُ في يَدِ الشَّيخ ، يستنيرُ به . وأخيرًا شَعَرْنا به يصِلُ إلى القاع ، وسمعناه يقول : « كفى . »

ومضى وقتٌ وأنا ومس إيڤانس نُحَدِّقُ في تلك الفَجْوَة الدَّاجِيَة ، تَهُبُّ علينا منها ريحٌ رَطْبَةٌ كريهة ، ورأينا الشُّعْلَة في قاع البئر كأنَّها بَصيصُ ثِقاب . وكنّا نَتبعُها بأعيننا في حركاتها الضئيلة ، وهي تَروح وتَجيء ، ثم استقرَّتْ في مكانٍ واحد .

وشعرتُ بيدَيَّ ترتجفان ، وهما قابضتان على الحافة. ولم تكن مس إيڤانس بأقلَّ منّي اهتياجًا . ولَمّا طال صمتُ الشيخ عاد همستْ مس إيڤانس في أذني قائلةً:

« أُنناديه ؟ »

« الأفضل أن نترُكَه حتّى يستكمِلَ فَحْصَه . »

ومضى الوقت ، وتحرَّكَت الشعلةُ في اتجاهاتٍ متعدِّدَة ، ثم سمعنا صوتَ الشيخ عاد يقول :

« اجْذِبوني . »

فأخذنا نجتذِبُ الحبلَ ، ورأينا الشُّعْلَة تتصاعَدُ في تباطؤ ، وأحسستُ يديَّ تتخاذَلانِ ، فخفَتُ العاقبة ، وضاعفتُ من عزيمتي ، حتّى ظهر الشيخ عاد ، وتعلَّق بالفُوَّهَة متحفِّزًا للخُروج ، فوَهَنَتْ قوَّتي كلَّ الوَهَن ، وجلَسْتُ مُسْنِدًا ظهري إلى الحائط ، أستمع إلى دقّاتِ قلبي السِّراع .

وخرج الشيخ عاد وأخذ ينفُضُ التُّرابَ عن ثيابه ، وكان وجهه متجهِّمًا ، وعيناه محتقِنَتَيْن ، ولم تطاوِعْه شفتاه على أن يَنْبِسَ بحرفٍ ما ، ففَطِنّا إلى كلِّ شيء .

و وجدت مس إيڤانس قد أخفتْ وجهَها بين يديْها ، وانفجرتْ باكية ، فاحتبَستُ أنفاسي ، وشعرتُ بالنّار تتأجَّجُ في رأسي ، فصحتُ كالمجنون : « فلنترك هذا القصرَ المشئوم ! يجب أن نترُكَه على الفَور ! »

واندفعتُ أمزِّقُ صِداري ، فأقبل عليَّ الشيخ عاد ، وأمسك بيديَّ ، وقال : « أ هكذا تكونُ مواقِفُ الرِّجال ؟ »

وانتقلنا إلى المغارة ، أعني حجرتي ، وجلسنا على مَقْرَبَةٍ منَ المِدْفَأة ، وقد أفاض كلٌّ منا في صَمْتِه المضطَرِب .

ثم نمنا حيثُ جلَسْنا ، ولم يُغَيِّرْ أحدٌ منّا الوَضْعَ

الّذي كان عليه .

وقضينا اليومَ التالي في عمل فاجع ، ينفُث في النّفْس سمومَ الغمّ والأسى ؛ فأخرجنا جثة مجاعص ، وقمت أنا والشيخ عاد بِغَسْلها وتكفينها على حَسَب الشّريعة ، ثم صلّينا عليها ، وبعدئذ دَفنّاها في دَغَل من أدغال الحديقة . أمّا مس إيڤانس فقد لزِمَتْ حجرتَها ، حتى انتهينا من عملنا ، فجاءت إلى قَبْره ، ونثرتْ عليه طاقةً من الزّهْر .

لا أدري كيف احتملتْ أعصابي هذه المشاهدَ المرهوبة ، فلن أنسى ما حَييتُ مَنْظَرَ الجثّة ، وأنا أجذبُها إلى الفوّهة ، فتصعَد على مَهَل ، وتُطِلُّ عليَّ برأسها المهشّم ، والدّمُ التّربُ المتجمّدُ يلوّثُ ملامحَها المتقلّصة . ولا أنسى ما عانيتُ من المَشقّات في سبيل إخراجها ، لقد كنت أحتضِنُها وأنا أشدُّها شدًّا ، فأجد رأسَها يترنّح ، ثم يستريح على كَتِفي .

هذه صورة لا تزال محفورةً في أعماق مُخَيِّلتي ، تتراءى لي بدقائقها حينًا بعد حين .

قضينا يومًا أقْتَمَ (١) ، يغشاهُ سكونٌ ثقيل ، لم نتبادلْ فيه الكلماتِ إلا لِمامًا . كلٌّ منا مُنْطَوٍ على نفسه يفكّرُ في هذا الحادثِ ، وكأنّه يفكّرُ في الوَقْتِ نفسِه في مصيره هو أيضًا .

ولَمّا جَنَّ اللّيل ، أعْدَدْتُ فراشي بجوار فراش الشيخ عاد ، فلم أعدْ أحتمِلِ النّومَ في الغارِ وحدي . ومن حُسْنِ حظّي أني رُحْتُ في نوم طويلِ المدى ، عوّضتُ به كثيرًا من متاعبي وآلامي .

وفي الصّباح قلتُ للشيخ عاد ، وكنتُ جالِسًا وإيّاه بجوار النّبع : « أيّةُ بئرٍ هاتِهِ الّتي تَرَدّى فيها المسكينُ مجاعص ، يرحمهُ الله ؟ »

« لم يكن مَصْرَعُه في بئر ، إنما هو مكانٌ فسيح لم أعرفْ أين يبدأ ولا أينَ ينتهي ، عَثَرْتُ فيه على بقايا عِظام . »

« عظام ؟ »

« أجل ، عظامٌ بشريّةٌ نَخِرَة ! »

« أ هُوَ مَثْوى قتلةٍ أشرار ؟ »

« كلما طالت إقامتُنا في هذا القَصر ، ازدادت أسرارُه تعقيدًا وتَعميةً ! »

ومرّت أمامنا مس إيڤانس تحمِلُ عصيرَ الفاكهة للجريح ، فحيّتنا بابتسامةٍ خفيفة ، فأجبْناها برفعِ اليدِ إلى الرّأس .

ثم أستأثَرَ بنا صمتٌ طويل .

و وقعت عينيَّ على اسم صفاءَ المحفورِ على صخرةِ النّبع ، وهو يرتَعِشُ تحتَ الماء ، فقلتُ لجليسي : « أ ما زال يَدعوها صفاء ؟ »

فرفع الشيخُ عاد رأسه ، وقال : « كلا . »

« ولِمَ ؟ »

« إن وطأةَ الحُمّى قد خَفّتْ عن ذي قبلُ . »

« إذًا ، لقد كان يَهْذي . »

« يلوح لي أن كلَّ ما قاله لم يكنْ هَذَيانًا ، فالحمّى لم تُطْلِقْ لسانَه بأكاذيبَ ولا بأوهامٍ ، وإن كانت قد خَلَطَت في رأسِه المَشاهد ، وَمزَجَتْ بين الخيال والحقيقة ، فتراءت له مس إيڤانس كأنّها صفاءُ ذاتُها تُبعَثُ ثانيًا . »

« ماذا تَعْني بذلك ؟ »

« لقد بدأ الآنَ يعتقِد أن مس إيڤانس وصفاء شخصان متغايران . »

« أ يكونُ بين كِليهما تَشابُهٌ ؟ »

« أرجّح أن مس إيڤانس صورةٌ ناطقة لصفاءَ تلك التي أحبَّها فيما مضى . »

وعاودَنا الصّمتُ .

ورأينا مس إيڤانس راجعةً تتّجِه صَوْبَنا ، وجاءت فجلستْ إلينا ، وقالت : « لقد روى ليَ السّاعةَ شيئًا من قصّةِ غرامه . »

---

(١) ما كان لونُه أغبرَ ضاربًا إلى سوادٍ أو حُمرة .

« أ هُناكَ اختلافٌ بين ما رواه ، وبين ما نعرفه من هذه القِصةِ ؟»

« اختلافٌ قليل في التّفاصيل . أمّا القصةُ في جوهرها فهي كما عرفناها من قبلُ .»

فالتفت إليّ الشيخ عاد ، وقال : « إذًا فهو يوسف الصافي بعينه ، وإلا فكيف اتفقتْ روايتُه والروايةُ الّتي يتناقلُها الناسُ عنه ؟»

فقلت وأنا أداعبُ الرّمل : « وكيف تُفَسِّرُ إذًا قصّةَ انتحاره ؟»

فقالت مس إيفانس : « إنّ وُجودَه يَنفيها . وقد سَخِرَ منها حين قَصَصتُها عليه .»

« وماذا قال إذًا ؟»

فأخذتْ مس إيفانس تُصْلِحُ خصائلَ شعرها السّبْطِ المُتموجِ ، ثم قالت : « لقد روى لي كيف أن أبا حبيبته رفَض أن يُزَوِّجَه إيّاها ، وآثر أن يزوِّجها غَيْرَه . فاعتزم أن يقضِيَ على نفسه وعلى حبيبته في وقتٍ واحد ، وكاشفَها بالأمر ، فرضِيَتْ مغتبِطة . واختار ليلةَ زفافها إلى غريمِه موعِدًا لإنفاذِ عَزْمه . وجاء الحفلة مُتنكِّرًا ، ودخلَ عليها في مِنَصّتِها ، فوجدها واقفةً بين صوَيحباتها ، فأطلق عليها رَصاصة من غدّارَته ، فسقطتْ على الأرض مِن ساعتها ...»

وسكتت مس إيفانس وعيونُنا متعلِّقةٌ بها . ولَمّا طال صمتُها ، قلتُ : « وانتحاره ؟»

« لقد قال لي ، وقد أسبَلَ جفنَيْه النّديّين بالدُّموع: «« ولَمّا أردتُ أن أرفعَ الغدّارَةَ إلى رأسي لأُطلِقَها ، لم تطاوعني يدي ، وفي لَمْحِ البَصر تواريتُ ، كيفَ ؟ لا أدري ! »» ثم انخرطَ في البُكاء ، فأشفقتُ عليه من الكلام ، ورجوتُ منه أن يَهدأ .»

وانصرمَتْ أيامٌ أخَرُ ، وكنت ما أزالُ آخِذًا بخطّتي السلبيّةِ نحو الجريح ، فلم أذهبْ لزيارته ، وتحاشيْتُ التّحدُّثَ في أمره مع مس إيفانس إلا إذا اقتضَتْ ذلك الضرورةُ القُصوى .

واعتراني انقباضٌ ملازم ، فلا أذكرُ أنّ شفتيّ قد تحرّكَتا بابتسامة ، ولا انبسطَتْ أساريري مرّةً واحدةً في إشراق . فكنتُ أقضي اليومَ ساهمًا مُطرِقًا ، أقطعُ السّاحة جيئةً وَذَهابًا . فإذا مَلِلْتُ السّيْر في هذه السّاحة ، دخلت في الحديقة أجوسُ خلالَ خمائلها وأدغالها . وكثيرًا ما لبِثْتُ وقتًا أمام قبر مجاعص أفكّرُ فيه ، وأستعيدُ بالذّكرى ما مرّ بنا من الحوادث معه .

وكانت مس إيفانس تَمُرُّ بي ، وأنا في السّاحةِ أقطعُها بخُطُواتي الثّابتة المملولة ، فتنظُرُ إليّ بعَينَيْها الصافيتَيْن ، ثم تَبعثُ إليّ بابتسامتها الخفيفة — ابتسامةٍ يكسوها الشَّجَنُ ويخالِطُها التَّحَسُّر ، فأتقبّلُها كما يتقبَّلُ الفقيرُ المُعْدِمُ الصدقة بعد صَبْرٍ وحِرمان .

وقدِمَتْ عليّ مرةً وأنا في السّاحة أحدِّق في كلمة صفاء المحفورةِ في الحجر بخطٍّ كبير ، فربَّتَتْ كَتِفي ، وقالتْ وهي تنظر إلى يَدَيْها : « لن تطولَ إقامتُنا في هذا المَوْطِنِ !»

فحدَّقتُ فيها ، وقلتُ مهتاجًا : « أ حقا ؟ ومتى اعتزمتِ الرَّحيل ؟»

« بعد بضعة أيام ، رَيْثما يستردُّ الجريحُ قواه .»

وسكتَتْ ، وسكتُّ أنا أيضًا . وما فتِئَتْ هي تنظر إلى يديها ، تتأمَّلُهما تأمُّلاً طويلاً ، ثم قالت ، وقد تغيَّرَ صوتُها : « أشعر بأنّي مسئولة عن كلِّ ما حلَّ بكم من مصائبَ وآلام !»

« كيف ؟ لقد جئنا بمَحْضِ اختيارنا !»

« لو لم أحضُرْ إلى الفُنْدق ، لَمَا كان من هذا شيء .»

« كلُّ شيء رَهْنُ الأحوالِ والأقدار . ثِقي بذلك كلَّ الثقة .»

« لقد سبَّبتُ لكم متاعبَ كنتم في غِنًى عنها .»

« الحقُّ ، يا مس إيفانس ، أنه لولا مصرعُ مجاعص لَمَا أسِفتُ على شيءٍ مما نالني من جَهْد ، ولكنّ أمثالَ هذه المغامرة لا تَمرُّ بسلام ، فهي تُخَلِّفُ

وراءها ذكرى فاجعة .»

« لم أكنْ أرضى أنْ تكونَ المصيبةُ في سوايَ ، خلال هذه المغامرة الجنونيَّة .»

فقلتُ في تَلَهُّف : « أ متأسِّفَةٌ أنتِ على حضورك ؟»

فنظرتْ إلى كلمة صفاءَ أمامها على الحائط ، وصمتَتْ فترةً ، ثم أجابتْ : « كن على يقين أنه لنْ يَطولَ أمدُ إقامَتكَ هنا .»

وسارتْ بِخُطًا خِفافٍ ، وغابَ في مَعاطِفِ الحديقة شبحها .

وتلاحقَتِ الأيَّام .

وبينما كنتُ مرَّةً في السَّاحة ، أذْرَعُها بخُطُواتي التي يتوضَّح فيها المَلَلُ والسَّأمة ، إذْ رأيتُ يوسف الصافي يخرج من الحديقةِ ، متوكِّئًا على ذراع الشيخ عاد ، تسير بجانبه مس إيفانس . وكان يوسف يخطو متمهِّلاً أشدَّ التَّمَهُّل ، وقد هُزِلَ جِسْمُهُ ، وشَحُبَ وَجْهُهُ ، فزال شيء كثير من معالم خشونته .

وألفيتُه يتقدَّمُ نحوي ، تَلْتَمِعُ على فمه ابتسامةٌ وديعة ، فوجدتُ نفسي أتقدَّمُ نحوَه . ولَمَّا الْتقينا مدَدْتُ له يدي ، فأطبقَ عليها يَدَيْه ، وضَغَطَها في كثير من التَّلَطُّف ، وقد انبسطَت ابتسامتُه ، وبَرَقَتْ عيناه بنَظْرَةِ مَوَدَّةٍ و وفاء ، وقال مداعبًا في صوتٍ لَيِّنِ النَّبرات : « أهلاً وسَهْلاً بقاتلي .»

فهمستُ قائلاً : « لم يكنْ يقعُ ببالنا أن يوسف الصافي يسكُنُ قَصْرَه . كنا نظُنُّ ...»

« كنتم تظنُّون أنَّ هناك وحشًا أو قاطعَ طريقٍ يريد اغتيالَكم . لم أحْسِنْ ضيافَتكم . أعْذِروني !»

وسِرنا حتَّى النَّبع ، فرغِبَ يوسف أن يستريحَ ، فجلسنا حولَ الماء .

يا للهِ ! بَوْنٌ شاسع بين يوسف الصافي الذي أراه الساعةَ أمامي ، ذلكَ الَّذي يَفيضُ رِقَّةً و وداعَة ، وبين ذلك الرجلِ الَّذي تَلَقَّاني من أيامٍ كَنَمِرٍ وحشيٍّ يتحفَّزُ لافتراسي .

و وقعت عيناي على مس إيفانس وقد ظَلَّتْ تنظُر إلى أناملها ، و وجهُها مكسُوٌّ بامتقاع خفيف . فطأطأتُ رأسي ، وقد شاعَتْ على وجهي ابتسامةٌ هادئة كابتسامةِ المهزومِ ، وقد بدأ يستسلم لهزيمته ، ويستلذُّ آلامَها .

وطرقَ سمعي صوتُ الشيخ عاد يقول ليوسف :

« أ لم يَحِنِ الوقتُ لنعلَمَ منك القصَّةَ بأكملها ؟»

فقال يوسف وهو يداعِبُ لحيته بأناملِه مبتسمًا :

« إذا أذِنتُمْ لي رويتُها لكُمُ الساعة .»

فقال الشيخ عاد : « كلُّنا آذانٌ صاغية .»

فقال يوسف :

« أنتم تعلمونَ كيف دخلتُ على صفاء في حَفْلِ عُرْسِها ، وكيف أصبتُها بغدَّارَتي ، فصرَعْتُها .»

وتمهَّل يوسفُ قليلاً ، وهو ينظر فيما أمامه نظراتِ تائهٍ شريد ، ثم أرخى جَفْنَيه قليلاً ، وتابع قوله :

« ولَمَّا أردت رَفْعَ الغَدَّارةِ إلى صدري ، لم تطاوعْني يدايَ . لماذا ؟ لا أدري ! وفي خَطْفَةِ البَرق اختفيتُ ، وجعلتُ أعدو ، وأنا لا أعرف لي وِجْهة ، أعدو وأعدو بلا تَوَقُّف ، فهل كان يتأثَّرني أحد ؟ وهل صاح بي أحد ؟ لا عِلْمَ لي بشيء . لم أكنْ أرى قُبالَتي إلا طيفَها مُلْقًى على الأرض ، والدَّمُ يتَفَجَّر من صدرها ، وعيناها مفتوحتان تنظُرانِ إليَّ في دهشة وعجب ، تسألانني : لِمَ لَمْ أتِمَّ الشَّطْرَ الآخَرَ ممَّا اتَّفقنا عليه ؟

« وكان الكون حولي في صَمْتٍ مُرَوِّع ، فليس في مِسْمَعي إلا أنينُها المتقطِّعُ الضعيف . يا للهِ ! ساعاتٌ وساعات قضيتُها وأنا أعدو كالوحش النُّفورِ المُثْخَنِ بالجِراح ، يطلب له مخبأً يَقيهِ عَيْنَ الصائد !

« واستلقيتُ على الأرض بغتةً ، فاقدَ الوعي . ولَمَّا فتحت عيني وجدتُ نفسي في بُقْعَةٍ قاحِلة ، أشْبهَ

بالصَّحراء ، يُخَيِّمُ فيها السُّكون ، وتُطبِقُ عليها غياهب السَّواد . جلستُ أفكِّر طويلاً ، ثم انفجرتُ أبكي وأشهق ، ثم أصرخُ من صميم قلبي ، أطلبُ من النّاس أن يَقبِضوا عليَّ ، يسومونَني سوءَ العذاب .

« ولَمَّا انتهتْ تلك الأزمة ، قمتُ أجُرُّ رجليَّ واليأس يعشّشُ في نفسي ، وتأنيبُ الضَّمير يمزّقُ قلبي شرَّ مُمزَّق . سرتُ على غير هُدًى ، وقد أزمعْتُ أن أقدِّمَ نفسي لرجالِ الشرْطة ، وأخلِّصَ ضميري من آلامِه الشّداد .

« وما زلتُ أسير ، والعُمرانُ مُستَخفٍ عنّي ، لا أرى له من أثر ، والصحراءُ تنبسط أمامي لا أعرفُ لها نهاية . ولاح ضوءُ الفَجْر في عَرْض الأفُق ، فتريثْتُ طويلاً أجيل فيه النَّظَر ، وصَحَتِ الشَّمْسُ تسطَع بنورِها القويِّ ، فسرَّحتُ بصري فيما حولي ، فلم أجد إلا رِمالاً مبسوطة ، وحجارةً مُبعثَرة ، وتلالاً قائمةً هنا وهنالك . وبدأت أتعرَّفُ أين يقع مكاني من الوادي ، فَعَلِمتُهُ على وجهِ التَّقريب .

« وتصوَّرَ لي في تلك اللَّحظة أنّي أسمع صوتَها ، فقفَزْتُ أطلُب الخلاص ، وظَلِلْتُ أجري ، ولا أجْسُر على الالْتفات خَلفي ، حتى عَيِيتُ ، وانقطعتْ أنفاسي ، فارتميتُ على الأرض ألْهَثُ خائرَ القُوى .

« وترامَتِ الأيّام ، وأنا أهيمُ في شعاب هذه البقاع المهجورة ، مسلوبَ الفكر ، مُوزَّعَ الإرادة ، لا أدري ماذا أفعل ؟ فتارةً أجِدُني مدفوعًا بعاملٍ قويٍّ ، لا قِبَلَ لي بدَفْعه ، لأقضِيَ على حياتي بأيَّةِ وسيلة ، وطوراً يمتلِكُني جُبْنٌ غريبٌ ، فأشعرُ بالخوفِ من كلِّ شيء : من أشخاصٍ أتوَهَّمهُم مُقبلينَ يريدون القبضَ عليَّ ، من التِّلال الَّتي كانت تحيطُ بي كأنها سجونٌ مُطْبِقَةٌ ضيِّقة ، من الصُّخورِ الَّتي كنت أتخيَّلُها آلات قَتْلٍ وإهلاكٍ مختلفةَ الأشكالِ تتجهَّمُ لي . كنتُ أخافُ من كلِّ شيء ، حتّى من نفسي ، فكان يرتسِمُ في خاطري أن شخصاً يتقمَّصُ جُثْماني ، وسينسَلِخُ عنّي ، في يَدِه غَدّارَتي المفقودَة ، يصوبُها إلى قلبي .

« وعندما يُخَيِّمُ اللَّيل ، تتراءى لي صفاءُ خطيبَتي ، وهي تنظُرُ إليَّ في دهشة وحيرة ، بعينيها الشاخصتين، تسائلني : لماذا لم أتمِّ الشَّطْرَ الآخرَ مما اتَّفقنا عليه ؟ فأقضي ليلتي مُسَهَّدًا ، لا يستقرُّ بي قرار ، أفتِّشُ عن مخبإٍ ينجيني من نظراتها . ومن أين ذلك لي ، وعيونُها دائمًا أمامي ، تُلاحِظُني من حَيْثما أتلفَّت ؟

« واستأنفتُ سَيري ثانيًا ، وتخيَّرْتُ لوجهتي ناحية الشَّمال ، ناحيةَ الشَّمال دائمًا !

« وكنت أقتاتُ بالأعشابِ والجُذور ، وأرتوي من المناقع الَّتي كانَ يَتَجمَّع فيها ماءُ المطر . وإذا لمحتُ قرية من بعيد ، ابتعدتُ عنها ، حتّى تختفيَ عن عَيْنيَّ .

« وكَرَّت الأيام ...

« وصادفتْني في الطَّريق بِرْكَةُ ماء شهدتُ فيها وَجْهي ، فكدتُ أصْعَقُ من هَوْلِ ما وَضَحَ لي : وجهُ رجُلٍ هَرِمٍ تتعرَّجُ فيه التجاعيد ، له لحيةٌ كثَّة ، ورأسٌ قد غَزَرَ شعرُه واستطالَ ، وَخَطَه (١) المَشيب . لقد استحال وجهُ يوسف الصافي سَحْنَةً من سِحَنِ الدَّراويش ، ممّن نقرأ عنهم في كتبِ الأوَّلين . ومكثتُ وقتًا أحَدِّق في وجهي المُتخايلِ على صفحةِ الماء ، ثم انطلقتُ أضحكُ طويلا .

« وبدأتُ أتردَّدُ على بعضِ القُرى ، أطلُب الكَفافَ من الرِّزق ، فلا يكادُ الناسُ يتجمَّعون حولي ، حتّى تبلُغَ بي ثورةُ النَّفس إلى الشَّتْمِ والسِّباب ، وأفِرَّ ضاربًا في فِجاجِ الأرض . وقد أسألُ شخصًا أن يُنيلَني قليلاً من الطَّعام ، فإذا ما أتى به نظرتُ إليه نظرةً شَزْراء ، ولويتُ عنه وجهي ، وتركتُه يقلِّبُ فيَّ نظرًا حائرًا ، وهو يغمغِم في تَحَسُّر : «« مجنون ! مجنون ! »»

« وعلى الرَّغْم من هذه المعاملة الشاذَّة الَّتي لقيتُ الناسَ بها ، كانوا يغْمُرونني بإشفاقهم وإحسانهم ؛ إذ حَسِبوني وليا من أولياء الله الصالحين ، أو مجنونًا تاعسًا يَجِبُ له الرِّثاء .

« وكنت أتخيَّرُ الأمكنةَ المنعزِلة ، لأقضيَ وقتًا

(١) خالط سواد شعره .

أتأمَّلُ وأفكِّر . ولم يعُدْ للرُّعْبِ مكانٌ من قلبي ، وأخذتُ أنظر إلى جريمةِ القَتْلِ الَّتي ارتكبتُها نظرةً هادئة . وأصبحتْ تتراءى لي صفاءُ وهي مُسْبَلَةُ الأجفان ، يحملُ وجهُها طابَعَ اللُّطْفِ والوَداعة .

« وتمكَّن منّي إيثارُ الوَحْدةِ ، والاستغراق في التأمُّل: أ لسنا كلُّنا مُسيَّرين في هذه الدُّنيا ؟ كلُّ شيء يسير وَفْقَ الأقدار ، فهي الَّتي تحكم إرادتَنا ... ما نحن إلا يدُها الَّتي تَضْرِب ، أو على الأصح صدرُها الَّذي يَتَلقّى الضَّرَبات .

« وكنت دائمًا أسير نحو الشَّمال . ولَمّا اقتربتُ من بلدة «« بعنتاب »» تذكَّرتُ أن لنا قصرًا مجهولاً في تلك الجهة ، فامتلأتْ نفسي غِبْطَة ، وما زلتُ أُفتِّشُ عنه جاهدًا ، حتّى تعرَّفتُ عليه بعد لأيٍ ، واتَّخذتُ على الفورِ طريقي إليه .

« وهأنذا كما تَرَوْنَني فيه ! »

فقالت مس إيڤانس ، وعينُها رانيةٌ إلى يوسف: « وهل بقيتَ فيه حتّى اليوم لم تبرحْه ؟ »

« لم أبرحْهُ قطُّ ، ولن أبرحَه ما حَيِيتُ ! لقد أقسمتُ على ذلك ، وسأَبَرُّ بقسمي . »

« وكيف كانت حياتُك في هذا المكانِ المُنْعزِل ؟ »

« عشْتُ هذه الأعوامَ الخمسةَ والعشرينَ قريرَ العين بوَحْدَتي ، خاليًا بنفسي ، أناجي شُجوني ، وأتأمَّلُ الطبيعةَ حولي . فإذا نالني هَمٌّ أو أصابني ضيق ، لجأت إلى صَلَواتي متقرِّبًا إلى ربّي ؛ فَسَرْعانَ ما يُعاوِدُني صَفائِيَ المنشودُ . »

فقلتُ : « هذا حسن . ولكنّه على أيّةِ حالٍ نَفْيٌ مؤبَّد ! »

فأجاب : « أ تَعُدُّ هذا نفيًا ؟ ألا إنّي أعُدُّهُ الخلاصَ من حياةٍ زائفة ! »

فقالت مس إيڤانس في نَشْوَة : « أنت الرَّجلُ الوحيدُ الَّذي فَهِمَ سِرَّ هذا الوجود . »

وسكتْنا جميعًا ، وأظَلَّنا سُكونٌ شامل .

عشنا مع يوسف الصافي أيامًا أُخَرَ عيشةً راضيةً هانئةً خالصة منَ المفاجآت .

كانت صحَّةُ يوسف تتحسَّنُ يومًا بعد يوم ، وأصبح هادئَ الطَّبع ، دَمِثَ الخُلُق . وقد تبدَّلتْ علاقتي به ، فتوشَّجتْ بيني وبينه أُلْفَةٌ وثيقةُ العُرا ، وطابت لي عشرتُه ، وساغَ لي حديثُه . واستطعتُ في هذه الأيّامِ القليلة أن أنعَمَ بتلك الحياةِ الفِطْرِيَّةِ الساذَجة الَّتي يَحْياها .

أمّا عَلاقة يوسف بمس إيڤانس فكانت علاقة احترامٍ و وُدٍّ ، مشْبَعةً بعاطفةٍ دفينةٍ ، تَنِمُّ عنها في بعضِ الأحيانِ ومَضاتُ عينيه أو خَلَجاتُ وجهه . ولم يَعُدْ يُسمّيها صفاء كما كان يفعلُ وهو محموم ، بل كان يتحاشى دائمًا أن يَسبِقَ لسانُهُ بذكرِ هذا الاسْم أمامنا .

فأمّا مس إيڤانس فقد لَحِقَها تغيُّرٌ جديد ، فلزِمَتِ الصَّمتَ ، إلا فيما تقضي به الضَّرورةُ الحافِزة . وكانت تسمع في شَغَف شديد لما يَصِفُ به يوسف الصافي مَنهَجَ حياتِه في هذا المكان ، وكيف قضى الأعوامَ الطِّوالَ حبيسًا بين هذه الجدران الشاهقة ، أو بالأحرى طليقًا بين أحضان الطبيعة . فإذا ما انتهى من حديثه ، انتبذتْ ركنًا بعيدًا ، وجلسَت تَحْلُمُ ، وقد وَضَحَ على وجهها إشراقٌ عجيب !

وبينما كنتُ ذاتَ يوم جالسًا إلى الشيخ عاد عند النَّبع ، نتبادل بعضَ الكلمات التافهة ، وعقولُنا شاردةٌ في ميادينَ شتّى ، إذ أقبلت علينا مس إيڤانس فرفَعنا رأسَينا إليها ، فإذا بها تقولُ في اهتياج ، ونظراتُها تنطِقُ بعزمٍ وَطيد :

« أصبحتُ لا أطيقُ المُكْثَ هنا أكثرَ مما مكثْتُ ! »

فقلت على الفور : « ماذا ؟ هل أَزْمَعْتِ السَّفَر ؟ »

فقالت في لهجتها السابقة :

« إن مهمَّتَنا قد انتهت . أ لم نَكْشفِ القصرَ ، ونعرفْ سِرَّه الخفيَّ ، فلأيِّ غَرض نَبْقى بعدُ ؟ إنَّ هذه الأسوارَ العالية تُرْهِقُ أعصابي بمنظَرِها الموحِش .

أشعر بضيقٍ شديد !»

وظهر يوسف الصافي يتوكأ على عصاه ، ودنا منّا وعلى فمه ابتسامةٌ رقيقة ، وقال : « ماذا ؟ أراكم تتجادلون ، فَفيمَ هذا ؟»

فقلتُ على الأثر : « لقد اعتزمتْ مس إيفانس الرحيل .»

فواجهها يوسف بنظرة استفسار ودَهَش ، وقال : « لا شكَّ أنكِ تمزَحين ، يا سيدتي !»

فخَفَضَت من بصرِها ، وقالتْ في صوتٍ خافت : « أكنتَ تظنُّ ، يا صديقي ، أنّنا سنقيمُ هنا إلى الأبد ؟»

فقال يوسف : « كلا . أنا عَليم بحاجتكم إلى حياة الحَضَر ، ولكن لم يمضِ عليكم منَ الأيام هنا إلا النَّزْرُ اليسير . لا ريبَ أن هذا المكان العابسَ قد بدأ يُضايِقُكُم !»

فهمَّت مس إيفانس أن تتكلَّم ، ولكنها عادت فأطبقتْ شفتَيها ، وأسبلت جَفْنَيْها .

وأطرق الشيخ عاد ، وراح يخطُّ بعصاهُ على الأرض بعضَ الرسومِ الساذَجة ، وقال ليوسف : « لقد بدأنا ، يا صديقي ، نستشعِرُ ثِقَلَ ضيافَتِنا عليك .»

فصاح يوسف ، وعيناه تلمعان : « أيجوزُ لكَ أن تَتَفَوَّهَ بذلك أمامي ، يا شيخ عاد ؟»

فقال الشيخُ مبتسمًا : « لو كان الأمرُ مقصورًا علينا ، نحن الشرقيِّينَ ، لَما وجدنا بأسًا في إطالة أمدِ الضِّيافة . ولكن هذه السيدة ، إنها لا تستطيع بعقليَّتها الغربيَّة أن تَفْهَمَ أسلوبَ الضِّيافة كما نفهمه نحن .»

فالتفتَ يوسف إلى مس إيفانس ، وقال لها في حرارة : « وإذا طلبتُ منك ، في رجاء واستعطافٍ ، أن تُطيلي أمدَ البقاءِ معي ، فهل ترفُضين ؟»

فصمتَت مس إيفانس وقتًا ، ثم هَيْنَمَتْ وعينُها تسبَحُ فيما أمامها : « وَدِدْتُ لو استطعتُ ! ولكن ...»

ثم عادتْ إلى صمتها القَلِق .

وشاركناها جميعًا في الصَّمت ، فلم تَنْفَرِجْ شفاهُنا عن حرف . وكان الشيخ عاد لا يزال يخطُّ على الأرض رسومَهُ الساذَجة ، وبعد حينٍ رفع رأسه ، وقال ليوسف : « ما قولك ، يا سيد يوسف ، في أنّني جائع ؟»

ثم نظر إلى مس إيفانس ، وقال : « وأنتِ ، يا سيدتي ، ألا توافِقينَني على هذا القول ؟»

فابتسمت ابتسامةً خفيفة ، وقالتْ : « إذا حَضَرَ شيءٌ من الطَّعام ، فلن أتأخَّرَ عن مشاركتكم فيه !»

فاستبانت على وجهِ يوسف إشراقةٌ عابِرة ، وقال لها : « إذًا هيَّا . لقد أعددتُ لكم اليومَ طعامًا ، صُنِعَ على نحوٍ جديد .»

* * *

وأخيراً آن يومُ الرَّحيل .

فنهضنا من فراشنا مبكِّرين ، وحَزَمْنا الأمتعة ، وتزوَّدنا بما يكفينا منَ المَؤُونة ، ثم قُمنا إلى قبرِ مجاعص فقرأنا الفاتحة ، ونَثَرْنا الزَّهر .

ورافَقَنا يوسف الصافي ، فاخترقْنا سراديبَ القصر ودُروبَه ، والصمتُ الرَّازِح يُحيط بنا ، حتّى وصلنا إلى بابِ الخروج ، حيثُ الثُّغْرَةُ الَّتي دَخَلنا منها .

وهنا رَغِبْنا إلى يوسف في أن يرجِعَ ، فتمَّتْ مَراسِمُ الوَداع في عباراتٍ رقيقة . وعجِبتُ كيف جاء توديعُ مس إيفانس لساكنِ القصر فاترًا على غيرِ ما كنتُ أنتظر !

وافترقنا .

وسِرنا في الطَّريق الَّذي جئنا منه ، وكنّا نلتفتُ خلفَنا بين فترة وأخرى ، فنلمحُ يوسف الصافي واقفًا أمام مدخَل القصر ، يراقِبُنا ويُلَوِّحُ لنا بيده ، فخُيِّل إلينا ونحن نراه في موقِفِه هذا ، وهو بملابسه وهيئته

الفطريَّة ، وَسْطَ ذلك المكان السحريّ – أنَّه رجل من أهلِ الكهفِ ، خرج يَسْتَجْلي العالمَ بعد نَومٍ معاتٍ من الأعوام .

— ٥ —

وسرنا ... وسرنا .

والصمت دائمًا يلازمنا ، ثم بدأتُ و الشيخَ عاد نتبادل بعضَ الكلمات ، فإذا بحديثنا تافه سخيف . أما مس إيفانس فاستأثرَ بها الوجوم المكفَهِرُّ ، لا تبدؤنا بحديث ، ولا تشتركُ معنا في نقاشٍ . وأقلقتني حالتُها ، وأسررتُ رأيي لرفيقي ، فلم يُعِرْ كلامي أي اهتمام .

و واصلنا سَيْرَنا بضعَ ساعات ، ثم اخترنا مكانًا نستجمُّ فيه . ورأيت مس إيفانس تخرج من صمتها ، فقالت وعيونُها تلتمع بشعاع حائر مضطرب :

« ما أتفهَ الحياةَ يقضيها الإنسانُ في عزلة نائية ! لا أدري كيف تحتمل أعصابُ المرء مثلَ هذا السِّجن القاسي ؟»

فحدَّقتُ في وجهها متعجبًا ، ولم أنطِقْ .

أمَّا الشيخ فراح يداعِبُ سُبحَتَهُ ، ويتفحَّص حبّاتِها ، ثم قال : « إن الأمورَ نسبيةٌ في هذا الوجود ؛ فما يعتبرهُ أحدُنا تافهًا يعتبره الآخَرُ مَجْدًا منَ الأمجاد ، وآيةً في كتابِ البطولة .»

فقالت : « والحقيقة ! أينَ هيَ إذًا ؟»

فقال : « صدِّقيني ، يا سيدتي ، إن الحقيقة ضائعةٌ في هذا الوجود .»

فقلتُ على الأثر : « اِسمحْ لي ، يا صديقي ، أن أصارحَكَ بأن هذه الأقوالَ من مغالَطات الفلسفة . الحقيقة هي أن يحيا الإنسانُ في هذه الدُّنيا وَفْقَ قوانينها الطبيعية . فهل العزلة ، والنِّفارُ منَ الناس ، وإيثارُ سجنٍ ناءٍ عن المجتمع ، يصحُّ أن نَعُدَّها من الأمور الطبيعية ؟»

فأسرعت مس إيفانس تقولُ في حماسة :

« إني أسمّي مثلَ هذه العزلةِ مرضًا اجتماعيا . لكلِّ امرئٍ في الحياة رسالةٌ يجبُ أن يؤدِّيها لِبني جنسِه ، فإذا نَكَصَ على عَقِبَيْه ، عُدَّ ذلك فِراراً من المَيدان .»

فقلتُ في حماسة لا تقِلُّ عن حماستها :

« هذا الكلامُ هو عينُ العقل .»

فابتسم الشيخ عاد ابتسامَته الهادئة ، وأخذَ سُبْحَتَه ، وطفِقَ يَشمُّها ، ثم قال :

« ليس لي اعتراضٌ على هذا القول في مُجْمَلِه . ولكن لا تنسَوْا أن لكلِّ امرئٍ حقا في أن يفسِّرَ قوانينَ الطبيعة على حَسَبِ مَنْطقِه ومُلابَسات حياته .»

ولَبِثنا يومَيْن كامِلَيْن في مَعاطفِ الطريق . ولاحظتُ أنَّ مس إيفانس ما تستيقظُ من نومها في مَطْلَع الصُّبح ، حتّى تخرُجَ من الخيمة – أو ما اصطلحنا على تسميته خَيْمَةً – وتَقْضِيَ وقتًا غيرَ قصير تُطيلُ النظر إلى الجهةِ الَّتي يقومُ فيها قصرُنا المسحور ، فأراقبها خُلْسةً وأنا متعجِّبٌ من أمرها ، بيدَ أنّي لم أراجِعْها في هذا الأمر بتصريح أو تلميح .

وقمتُ مرةً مع الشيخ عاد نبحثُ عن وَقودٍ لإنضاج غَدائنا ، وما كان أشدَّ دهشتَنا عندما رأينا أربعةَ بِغالٍ تَسْرَحُ في الجبل ، تقتاتُ بأعشابه اليابسة ؛ فاقتربنا منها ولم نجد صعوبةً في طَلَبها واقتيادها . وصرختُ مشيراً إلى بغلتَيْن منها :

« إنَّهما البغلتان اللَّتان تركناهما أثناء قدومنا ، ما في ذلك رَيْب !»

فأخذ الشيخ عاد يُرَبِّت ظهرَيْهما ويَتَفَحَّصُهُما ، ثم قال : « يجوز !»

« المشابهة بينهما وبين بغلتَيْنا واضحة ، لا تحتاج إلى دليل . أنظرْ إليهما ، أليستا محجَّلَتَيْن (١) ؟»

« صحيح ، هما محجَّلَتان ، ولكنْ ليس هذا دليلاً

(١) المُحَجَّلُ من الخيل ما كان في قوائمه بياض .

قاطعًا . لو كان المرحوم مجاعص بيننا ، لأنقذَنا من هذه الحَيْرَةِ بالخبر اليقين .»

واخترنا البغلتَيْن ، لحاجتنا إليهما في الرُكوب ؛ إذْ كان نشاطُنا في السَّير مترجِّلين قد أدركه الوَهْنُ والفُتور.

وأشعلْنا النّار ، وبدأنا – أنا والشيخ – نُهَيِّئُ طعامَنا . وبَقينا صامتيْنِ لحظة ، ثم قلت للشيخ عاد :

« أ تظُنُّ أن شخصيّن قد يتشابهان مشابهةً تامّةً ، حتّى ليختلِط على العين الفاحِصة أمرُهما ، فلا تستطيعَ التفريقَ بينهما ؟»

« مؤكّد .»

« إذا اختلطَ على العين ذلك ، فهل يختلطُ على القلب أيضًا ؟»

« أفْصِحْ عمّا تُريد .»

« لِنَفْرِضْ أنّكَ أحببتَ فتاة ، ثم فَرَّقَتْ بينكما شجون الحياة ، وبعد انصرام عَشَرَة أعوام مثلاً لَقِيَتْكَ فتاةٌ أخرى تُشابه الأولى مشابهةً تامّة ، فهل تشعرُ لها بمثلِ الحبِّ الّذي كنتَ تشعرُ به للأولى ؟»

فأطرق الشيخُ قليلاً ، ثم قال :

« من العسير أن نضع لذلك قانونًا عاما لا يتخلّف . فلكل امرئٍ مِزاجٌ خاصٌ ، وشعورٌ مستقل ، يختلِفُ قليلاً أو كثيراً عن مِزاج غيره وشعوره .»

« أوكّد لك أن الناسَ كلَّهم مزاجٌ واحد وشعور واحد . إنَّ طبيعَتنا البشرية تسيرُ وَفْقَ قانونٍ واحد .»

« وما هو هذا القانون ؟»

« هو أن القلبَ لا يخطِئ خَطَأَ العين ؛ فعواطفك لا تنجذِب إلى فتاةٍ لمجرَّد أنها تشابه من أحببتَها في سالِفِ حياتِك .»

ورأينا مس إيڤانس آتيةً إلينا ، فانهمكنا في إعداد الطَّعام ، وقد غيَّرْنا مَجْرى الحديث .

* * *

وفي اليوم الثّالث صحوتُ من نُعاسي ، واجتمعتُ بالشيخ عاد لنتناول الفَطور ، فلم أجد مس إيڤانس ، فسألْتُه عنها فلم يُجبْني ، بل اقتصرَ على ابتسامةٍ هادئة مديدة ، فيها معنى الاستسلام والاستخفافِ بكلِّ شيء . فلم أفهم ما يَعْنيه ، فسألْتُه:

« أ تناولَتْ فَطورَها منفردةً ؟»

فناولَني بضعَ تيناتٍ جافّة ، وقال :

« أ لم تكنْ تَتَوَقَّعُ لها هذا الأمْرَ ؟»

« أيَّ أمرٍ تَعْني ؟»

« لقد ذهبتْ .»

« ذهبتْ ! إلى أين ؟»

فجذَبني من يدي ، وخطَوْنا بضعَ خُطُوات ، ثم وقف وهو ينظرُ في اتّجاه النّاحيَة القائم فيها القصر ، وأشار إليها وهو يقول : « هناكَ . أ لمْ تَفْهَمْ ؟»

و وقفتُ جَزِعًا ، وقد فَطَنْتُ إلى ما يَعْنيه .

ثمَ رَجَعنا إلى مكانِنا ، وتابعنا أكلَنا صامتَيْن .

سلوى في مهب الريح

— ١ —

لا أذكر من تاريخ حياتي ، قبل العاشرة من عمري، إلا أطيافًا شاحبة .

في تلك الفترة كان يكفُلني جدّي لأبي ، فأقمتُ معه في منزلنا العتيق بحيٍّ محرم بك في الإسكندرية : منزل لا فخامةَ فيه ، تحيط به حديقة شعثاء ، يطل على حارة منزوية لا تُطرق .

وكان جدي ، منذ تُوفي أبي ، قد أخلد إلى العزلة، وآثر الوَحدة ، وتوضحت على مُحيّاه سمات التجهم للدنيا ، والتبرم بالحياة . ولم يكن يزوره إلا رجلٌ علت به السن ، وقوّضت بناءَه الأيام ، يُدعى الطوخي أفندي ، فيُمضي كلاهما بعضَ الوقت في حجرة الضِّيافة القائمة في ركن من الحديقة ، فأراهما حينًا يتناقلان الحديث ، وحينًا يلعبان بالنَّرْد ناشطيْن لا يعتريهما مَلال . وكنت وأنا في حجرتي يَصِكُّ سمعي صوتُهما مدويًّا كهزيم الرعود ، فتنتظمني رجفة ، ويخيل إليّ أنهما مشتبكان في تضارب وسِباب !

ولم يكن في الدار من الخدم غيرُ أم يونس و الحاج مسرور . الأولى : ضامرة عجفاء ، توهِم مَن يراها أنها تنوء بالأمراض ، ولكنها في الحقيقة صلبةُ العود ، قوية الأعصاب . أما الحاج مسرور ، فكان سودانيا أميل إلى البدانة ، طلق الوجه ، هادئ الصوت . وكان كلاهما يحسن معاملتي ، ويتعهدني بعطف وحدب (١) ، فشعرت نحوَهما بحبٍّ وشغف .

وشدَّ ما كان يسوءُني أن أرى جَدّي لا يعاملهما بالحسنى ؛ فهو يَنحي دائمًا عليهما باللائمة ، ولا يفتأ يؤاخذهما ويسفّه آراءهما في كل شيء .

ومرة دخلت عليه في حجرته ، وكان منصرفًا إلى مطالعة صحفه ، وتدخين لفائفه ، فَدَنَوْت منه واجتذبتُ أطرافَ جلبابه في تلطُّف ، فعَلا برأسه ينظر إليّ ، فلما شاهدته قد زوَى ما بين حاجبيه ، وبدا عليه العُبوس ، ولَّيتُ منه فراراً ، ولكنه ناداني مُلحا ، فعدت خاشعةً مطأطئةَ الرأسِ ، فأجلسني على ركبتيه ، ومسح على ناصيتي ملاطفًا ، ثم نظر إليّ مبتسمًا ، وقال : « ماذا تبغين ، يا سلوى ؟»

فلبثتُ صامتة ، وأنا أثني طرف ثوبي وأبسطه ، فضمني إلى صدره ، وقال : « قَسَمًا إنك لتبغينَ أن تشتري «« شكولاته »» !»

فرفعتُ إليه رأسي ، وقلت مؤكدة : « كلا ، يا جدّي !»

« إذن ، ماذا تريدين ؟»

« أ تعدُني ألا تغضب من مطلبي ؟»

فضحك قائلاً : « الأمر خطير إذن !»

فقلت في جِدّ : « هو كذلك ، يا جَدّي .»

فأطال النظر إليّ ، وهو يبتسم ، ثم قال : « أفصحي .»

فالتصقت به ، وأخذت بيمناه أنهال عليها تقبيلاً ، ثم قلت : « لماذا تسيء معاملةَ أم يونس و الحاج مسرور ، يا جَدّي ؟»

فأخذ برأسي ، ورفعه إليه ، وأنعم النظر فيّ ، قائلاً:

« عجيب أمرُك ، يا سلوى ! وهل يعنيك شأن الحاج مسرور وأم يونس إلى هذا الحد ؟»

« يعنيني جدًّا .»

فصمتَ لحظة ، ونظره لا يَندّ (٢) عن وجهي ، ثم قال :

« إذن أعِدك بألا أسيءَ معاملتَهما بعدَ الآن .»

(١) حَدِب عليه : حنَّ وعطف .

(٢) لا يند : لا يبتعد .

فعرتني هزَّة اغتباط ، وجعلت أوسع جدّي تقبيلاً ، ثم خرجت أعدو لأزفَّ البشرى لصديقيَّ الكبيرين .

ولم يبرّ جدّي بوعده إيايَ ، ولكنه كان حين يراني مقبلة ، وقد احتدَّ على أحدهما ، سَرعان ما يلطِّف من حدته ، ويبرح المكان مُغمغمًا ، ثم لا يعتّم (١) أن يصيح مناديًا إيايَ ، فينهالَ عليَّ توبيخًا بلا مُسوِّغ .

واستدعاني مرة ليقول لي :

« لقد فكرت في تعليمك ، يا سلوى ، وسأتولى هذا الأمر بنفسي .»

ثم أخرج من صِوان ملابسه كتيبًا أحمرَ الجلد ، وفتحه أمامي قائلاً : « ابدئي القراءة . ألف ، باء ، تاء.»

ورأيت الحروف أمامي عجيبةَ الأشكال ، وخيِّل إليَّ أني بصدد ألغاز لن أستطيع الاهتداءَ إلى حلها ، فوجمت لا أنبِس . وكرر جدّي قوله : « قلت لك ابدئي القراءة . ألف ، باء ، تاء .»

وكان صوتُه قد بدأ يتعالى ، وتبينت فيه مَسحة الغضب ؛ فارتجفت ، وانعقد لساني ، فسمعت جدي يصرخ مُهتاجًا :

« ماذا أصابك ؟ أ صمّاءُ خرساءُ أنت ؟»

فانخرطتُ في البكاء ، ورمى جدي بالكُتيِّب ، وهو يصيح بقوله :

« يجب أن تتعلمي . سأهتم بأمرك رضيتِ أم كرهتِ !»

وخرج يدفع الباب وراءه في شدة وعنف . وبعد لحظة عاد إلى الحجرة متثاقل الخُطى ، وأخذ يحوم حولي متظاهرًا بأنه يبحث عن شيء ، وأخيرًا اقترب مني ونحّاني عن المقعد في رفق ، ثم جلس عليه ، وأجلسني على ركبتيه ، وقال لي:

« إنني أقصد خيرَك ، يا سلوى . أريد أن تصبحي في غدك المنتظر فتاةً صقلتها التربية وزانها التعليمُ ، فأراك مَفخرة النساء .»

ثم أخرج منديله ومسح به وجهي ، ورفع رأسه إليَّ يقول :

« أنتِ تكرهينني ، يا سلوى . أنت تكرهينني ؟»

ولا أدري لماذا لبثتُ في صمت ، خافضةَ الرأسِ ، فسمعته يقول :

« أجل ، أنت تكرهينني ، لست أنتِ وحدَك ، إنكم جميعًا في هذا البيت تكرهونني. أنا رجل بغيض، وسيِّئُ الأخلاق !»

ثم أزالني عن حِجره ، ونهض خارجًا وهو يردد :

« أنتم تكرهونني ، أنا هنا رجل بغيض .»

وما كاد يبلغ الباب ، حتى أحسست حافزًا يدفعني إليه ، فهُرِعتُ أتشبَّث بجلبابه ، وانطلقتُ أبكي وأنشج (٢) .

وظل جدّي طَوال يومه رهينَ حجرته . ولَمّا خرج منها حينَ جَنَّ الليل ، تبينتُ أن الاحمرار بادٍ في عينيه.

تولى جدّي أمر تربيتي وتعليمي ، فجعلني أحسن القراءة والكتابة ، وحفّظني ما تيسر من القرآن ، ولكني لا أكتم أن أسلوبه في التعليم أسلوبٌ لا يخلو من شذوذ .

ولقد كنت لا أكاد أنتهي من درس معه ، حتى أنطلِق إلى الحديقةِ أطلب الهواءَ والنور ، كأنّي سجين أُطلِق سراحُه بعد طول عذاب .

— ٢ —

كنت أقضي أيامي في عزلة كما يفعل جدّي ، أنفر من الغرباء ، وأقنع بصداقة الحاج مسرور و أم يونس فأقسِّم وقتي بينَهما ، مستَمْتِعَةً بما يقصّانِه عليَّ

(١) لا يعتّم : لا يلبث .

(٢) أنشج : أردد البكاء في صدري من غير انتحاب .

من لطائفِ السمر .

أمّا الحاج مسرور فرجلٌ مليء نشاطًا ، على الرغم من شيخوخته ، وهو دَمِثُ النفس ، وديعُ الخلق ، يؤدي مطالب المنزل جمعاء ، ولا يخلي الحديقةَ من عنايته . ولقد كنت أراه يقف أمام جدّي في مسكنة وتخاضُع ، يحتمل صابرًا ما يَلقى من شراسة وإهانة وإعنات ، فإذا ذهبتُ إليه بعد ذلك أسأله : « أ مستاءٌ أنت ، يا حاج مسرور ؟» رفع إليَّ بصرَه ، وابتسم في وداعة ، وأجابني : « أنا أستاء من سيدي وابن سيدي ؟»

أمّا أم يونس ، فكانت مُرضعًا للمرحوم أبي ، وقد نِيط بها اليوم خدمةُ المنزل وطَهو الطعام . وكثيرًا ما ذهبتُ إليها في المطهَى ، وجلست معها أساعدها في إعداد الخُضر . وكانت دائبة الحديث عن أبي ، تقصّ عليَّ شئون حياته وطرائف أنبائه منذ كان طفلاً رضيعًا حتى وافاه الأجلُ المحتوم في ريعان الشباب . وكانت تُشيد بما امتاز به من صفات الرجولة والبطولة ، فأخبرتني بأنه كان من مشهوري رجال الشرطة ، طوّف في أنحاء الريف والصعيد الأعلى ، وله في مكافحة اللصوص مواقعُ مذكورة تشبه ما خلّدته الأساطير من أحداث ، وكان إذا حلَّ بلدًا خرج إليه الناس محتفين بمقدَمِه ، واستقبلته النساء بالأغاريد من كل صوب .

ولقد كنت أصغي لهذا الحديث مشبوبة (١) الشغف ، وأستعيدها إياه لا أملُّ التكرار .

وعلمت منها ذات يوم أن أبي كان يحب أمي حبَّ عبادة ، ولكنه يشتبك معها في مشاحنات لا يخبو لها أُوار (٢) .

وسألتُ أم يونس مرة :

« ولماذا كانت تجري تلك المشاحناتُ بين أبي وأمي ؟»

فمالت عليَّ ، وهي تبتسم هامسةً: «كان يغار عليها !»

« أ فكانت تحبه ؟»

« لم يكن حبها إياه بكبير .»

« لماذا ؟»

فدارت أم يونس بعينيها تتبينُ ما حولها ، ثم أمسكتْ بيدي وشدّت عليها ، وقالت في صوت منخفض : « لقد كان يعنّف بها ، وكانت تخشاه !»

ثم قالت أم يونس فاغرة فاها في صوت راعب :

« لقد كاد يقتلها في ليلة ليلاء !»

فالتصقتُ بها قائلة : « كيف ؟»

« لقد باغتها مع ...»

ثم صمتت فجأة ، وتظاهرت بالبحث عن سَلة الخُضر . وبعد لحظة قالت في لهجة مألوفة : « هل حضر اليوم بائع الخضر ؟»

فطأطأتُ رأسي ولم أجب ، فقد جاء بائع الخضر وأسلم إليها راتب اليوم ، وإنها لتعلم ذلك تمام العلم .

وأظلّنا الصمتُ مَديدًا من الوقت ، وكلانا مشغول بما بين يديه من قرع يَقْشِره .

ورأيتني وقتئذٍ أفكر في حجرة الزوّار ، وفي صورة المرحوم أبي المعلقة في أحد حوائطها . كانت هذه الحجرة مهجورةً ، عليها طابع الأسرار ، قلَّما تَدْخلها أم يونس لتنظفَها ، وما كنت أرى جدّي يطأ عتبتَها ، أمّا أنا فلم أكن أجسرُ على دخولها ، وكنت كلما جزت ببابها اعترتني قُشَعْريرة خوف .

فتسللتُ من المطهَى ، دون أن تشعر بي أم يونس ، ومضيت إلى البهو ، تحدوني رغبة لا قِبَل لي بمغالبتها ، وقد شَعرت بشجاعة غريبة ، فدنَوت من حجرة الزوّار، وأدرت مَقبِض الباب ، وسَرعان ما دخلت . نور ضئيل

---

(١) مشبوبة : شديدة .

(٢) لا يخبو لها أوار : تظل على تضرُّمها واتقادها .

يدلف إلى المكان ، وغاشية من السكون تخيم عليه . واستطعت أن أرى على الحائط صورة ملوَّنة مكبرةً بالحجم الطبيعيِّ ، لشخص مرتدٍ لَبوسَ (١) الضباط .

مثلتُ قُبالة الصورة خرساء ، أطيل التأمل فيها ، ولم أدْر : أ قليل مضى عليَّ من الوقت أم كثير ، وأنا على هذه الحال ؟ وخُيِّل إليَّ أن شَفَتَيْ أبي تختلجان ، وأنه بدأ يخطو من إطار الصورة المجلَّل بالسواد ، فخرجتُ إلى البهو أعدو صارخة فزعة ، فرأيت جدِّي في طريقي ، فارتميتُ في أحضانه ، وقدِمتْ أم يونس مهرولة فسمعتُ جدِّي يقول لها مُغضبًا :

« أ لم أرغب إليك (٢) في أن تغلقي باب هذه الحجرة بالمِفتاح ؟»

مضى على هذا الحادث يومان ، وكنت في حجرتي مع أم يونس نخيط معًا جلبابًا لي ، وكانت هي تثرثر ، راويةً لي نُتَفًا من توافه الأخبار ، فلم أنصِت لِما ترويه . وبغتة قلت لها مقاطعة :

« أخبريني عن أمي ، أين هي الآن ، يا أم يونس؟»

فالتفتت حولها مذعورة مضطربة ، وقالت :

« صمتًا ، لا شأن لي بهذا .»

فانحنيت عليها ، وهمست في أذنها :

« جدِّي مع الطوخي أفندي في حجرة الضيافة . إنه عنا بعيد .»

وأمسكتُ بيديها ، وجعلت أقبلهما ، وأنا أقول :

« أقسمت عليك إلا أخبرتني عنها ! لن أبوح لأحد أبدًا .»

فجذبتني المرأة إلى صدرها واحتضنتني ، ثم أخذت تمسح عينيها . وقالت راعشة الصوت : « أ لا تَعِدِّينني أمُّك ، يا سلوى ؟»

« ولكنني أريد أن أعرف أين هي ؟ ولماذا لا تأتي لزيارتنا ؟»

فالتفتَت ناحية الباب ، ثم قالت في خفوت :

« إنها في القاهرة ، في القاهرة .»

« في القاهرة ؟»

« أجل ، في القاهرة .»

« ولماذا لا تأتي لتراني ؟»

فعبست أم يونس في وجهي ، ولم تُجب ، وناولتني الجِلباب لأستأنف عملي فيه . وبينما كانت منهمكة تريني كيف أخيط ، قالت لي مؤكدة :

« إياك أن تخبري جدَّك بما سمعته مني !»

فأجبتها ، وأنا منحنية على الجلباب أخيط :

« لن أقول شيئًا ، يا أم يونس ، أبدًا .»

— ٣ —

صحبت أم يونس يومًا إلى « كازينو سان استفانو » لنشهد احتفال « جمعية العروة الوثقى » . وتعرفت هناك بفتاة تماثلني سنا ، تُدعى سنية ، من أسرة مثرية ذات جاه عريض ، فما أسرع أن نبتت بيننا الأُلفة ، وما هو إلا وقت قريب حتى أصبحت لي صديقة مخلصة أبادلها الصداقةَ والإخلاص .

وكانت سنية تفِد إلى الإسكندرية مع أسرتها ، وكان لها قصر فخم في الرمل يشرف على البحر ، تحفُّ به حديقة فيّاحة بديعة التنسيق ، يتعهدها بستانيانِ وقفا عليها جهدَهما ودأبهما ، وتناوبا حراستها حتى لا يقتحمها أحد فيَمَسها بسوءْ .

وكان لصديقتي طائفة فاخرة من اللُّعَب ، لا أحلم بامتلاك واحدة منها ، ولكن هذه اللعب كانت في حوزة مدموازيل شانتل مربِّية سنية ، وهي لا تأذن لنا منها إلا بما تريد ، لا ما نريده نحن . فإذا أذنت لنا

(١) لبوس : زيّ ، والجمع لُبُس .
(٢) أرغب إليك : أطلب منك .

بشيء منها وقفت تراقبنا مخافةَ أن نُعمل فيها يد الإتلاف . وكانت إذا انكسرت إحدى اللعب ثارت بنا ، وانطلقت تعنفنا ما وسعها التعنيف .

ومدموازيل شانتل عانس ، ذرّفت على الخمسين (١) ، سمهرية (٢) القامة ، لها وجه محتقن تعيث فيه التجاعيد . وعلى الرغم من بَشَرتها السمراء تدّعي أنها من نبيلات الفرنسيات ، وأنها خليقة بأن يلقبها الناس مدموازيل دي شانتل . أحضرها الزهيري باشا والد سنية لتكون مربية لابنته ، وأحال إليها إدارة المنزل بعد وفاة زوجه . وكنت حين أذهب لأحييها أمدُّ إليها يدي ، فتقرّب مني أناملها ، وتفتح فمها عن ابتسامة أشبه ما تكون بتكشير الكلاب عن الأنياب .

وكانت دائمًا تتناول معنا الغداء ، تاركةً للدّادة شيرين أن تقوم بالخدمة . وفي ذات يوم كنا نحن الثلاثة على المائدة نأكل ، وبغتة أظهرت المدموازيل امتعاضها ، ورمت بالشوكة ، وقالت بالفرنسية ، موجهة الخطاب إلى سنية : « من طبخ هذا الصنّف ؟»

فأجابتها سنية خائفة : « الدادة شيرين ، يا مدموازيل .»

فالتفتتْ إلى الدادة وأشارت إلى الصفّحة (٣) في رطانة منكرة : « زفت ، زفت ، زفت !»

فبرطمَت الدادة قائلة في صوت مكتوم :

« زفت على دماغك ودماغ أبيك !»

فاحمرَّ وجه المدموازيل ، وسألتْ سنية :

« ماذا تقول هذه الكلبة القذرة ؟ ماذا تقول ؟»

فارتبكت سنية وامتُقعَ وجهها ، وقالت متلعثمة :

« لا شيء ، يا مدموازيل ، لا شيء .»

ثم أخذت يدها ، وجعلت تقبلها . ولكن المدموازيل شدّت يدها من يد سنية ورمت بالفوطة ، وقامت وهي تقول : « سترى كيف أعاملها بعد الآن. سأدوسها بحذائي ، سأسحقها تحت قدمي .»

ثم ألقت في فمها جُرعة من الماء في عجلة ، وصاحت :

« الحياة في هذا المنزل أصبحت لا تُطاق ، لا أستطيع أن أمكث أكثر مما مكثتُ . أ سامعة ؟ يجب أن تبلغي أباك ما أقول .»

واعتقدت أن المدموازيل مبارحةٌ المنزل عما قليل ، ولكني وجدتُها مقيمة فيه لا تفارقه يومًا . وقد شهدت مثل هذا الموقف الصاخب غيرَ مرة ، حتى أَلِفتُ هذه الحال ، فلم أعد أعيرها جانب اهتمام .

وكانت سنية تحبني أصْدَقَ الحب ، وتوليني من دلائل الإخلاص ما يبعث العجب . وكثيرًا ما اندفعتْ تقبلني في غير مناسبة ، ولا تفتأ تدلّلني وتدعوني بأعذب الأسماء ، فكنت أبادلها العطف دون إفراط . ولا أنكر أن مبالغة سنية في حبها وتدليلها إيايَ كان يبعث في نفسي شيئًا من الضيق .

أمّا والدها الزهيري باشا فكان رجلاً مبسوط القامة ، عَبْلَ الجسم (٤) ، له عينانِ حادّتان كعيني الصقر، يظلّلهما حاجبانِ غزيران ، وله شارب أُحْكِم فتلُه ، وصوت أجشُّ عريض تبعث نبراته رهبة في القلوب ؛ فكنت أتحاشى لقاءه ، بيد أن رغبة خفية كانت تدعوني دائمًا إلى مراقبته دون أن يشعر بوجودي . وكانت سنية على علم بهذه الرغبة في نفسي ، فكانت تقودني إلى مخبأ أمين أجلس فيه معها ، وأراقب الباشا وهو في عباءة من الحرير الأبيض تَزيده بهاء ومَهابة ، جالسٌ على مَقعده الفسيح يطالع الصحف ، ويحتسي القهوة ، وينفث دخان اللفائف على نحو يثير الإعجاب .

(١) ذرّفت على الخمسين : زادت عليها .
(٢) السَّمْهَريَّة : الصُّلبة العود . (٣) هكذا في الأصل ، ولعلها تحريفٌ لكلمة « الصَّحْفَة » ، وهي إناء الطعام .

(٤) عَبْل الجسم : ضخم الجسم .

ومرة كنت أعدو في البهو الكبير خلف سنية لألحق بها ، فآخذَ بتلابيبها ، وإذا بشخص يصدمني لا أدري من أين نجمَ[1] . وما هي إلا أن تبينتُ أنه الباشا نفسه فأصابني من الرعب ما أشلَّ أوصالي وأخرس لساني ، ورأيته يحدق فيَّ ببصره النفّاذ ؛ ثم مدَّ لي يده في حركة رائعة ، فانحنيتُ عليها وقبلتها في خشوع . وسرَت في جسمي هِزة كهربية حين لمستُ تلك اليد الضخمة التي يكسوها الشعر ، وتفوح منها رائحة التبغ . وبعد أن لاطفني ومسح على رأسي مبتسمًا تابع سيره .

وهُرعتُ إلى سنية أقول : « لقد رأيته الساعةَ ، وقبّلت يده ، و ...» ثم أمسكتُ بغتة عن الكلام ، فقالتْ لي : « أيَّ شخص رأيته ؟»

فقلت : « لا أحد .» ومضيت صامتةً ، تتنازعني شتى المشاعر .

— ٤ —

وكثيراً ما كنت أصادف عند سنية غلامَين يكبراننا بأعوام قلائل ، الأول يُدعى شريف وهو من ذوي قرباها ، غير أنه لا يساميها جاهًا ومالاً : فتًى مهندم عليه طابع النُبل ، ذَلِق اللسان جريء ، يدخل على الزهيري باشا وهو في مجلسه مع أصدقائه ، فيصافح الجمع واحداً بعد واحد ، وهو مرفوع الرأس يبتسم ، ويأخذ مَقعده بينهم ليشاركهم الحديث ، كأنْ ليس بينه وبينهم مِن فارق. وكان الزهيري باشا يطيل معه الكلام ، ويكثر من محاورته في مختلف الشئون ، فكان شريف يجيبه في لباقة وسرعة خاطر يَدهش لهما الباشا و زُوّاره .

وقد أخبرتني سنية في سرٍّ أنها مخطوبة له من الآن؛ وكان إذا ظهر أمامنا التصقتْ بي سنية وانطلقت تلقي في أذني بكلمات لا أفهم معناها ، وأخذت تضحك في اهتياج فترِنُّ ضحكتها باردة مفتعَلة تثير الغيظ . ثم تنفرد به وقتًا طويلاً تلعب معه غير حاسبة لوجودنا أيَّ حساب . وإذا انتهت زيارته وخرج ، ألفيتها تمسح عينيها وتدسُّ وجهَها في أحضاني .

أمّا الفتى الآخر ، فيدعى حمدي وكنّا نكنّيه أبا فصادة لأنه كان بائن الطول ، ظاهر النحافة ، إذا جرى خلفنا أثناء اللعِب وجدناه يقفز قفزات بعيدة. لِوجهِه قسمات متناسبة هادئة ، ولعينه بريق عجيب . يؤثر الصمت ، حتى ليَشْعر الإنسانُ وهو معه أنه في حضرة فيلسوف حنَّكته السنون . وهو مغرم بالصَّفير بفمه . ومن غريب أمرِه أنه تعلم العزف على البِيان [2] وحده دون معلم . وكثيرًا ما انسلَّ إلى حجرة الاستقبال ، وأقفل عليه بابها ، وأخذ يعزف على البيان الكبير الموجود فيها. وقد باغتته مرة مدموازيل شانتل فأقفلت البيان بشدة ، ثم أغلقت الحجرة بالمفتاح . وكانت لحمدي ساعات إشراق ومسرة ، فيخرج عن صمته ، ويندفع يصفر لنا ألحان الأغاني الشعبية في شعوذة . وإذا مرت به المدموازيل وهو على هذه الحال ، التفت إليها، وانحنى أمامها ، وصرخ بالفرنسية : « احتراماتي للكونتيس دي شانتل .»

ثم يجري هاربًا ، وهو يقفز قفزاته الواسعة ، ونحن في أثره نضحك ونضج ، وصوت المدموازيل يرنُّ في آذاننا : « سفلة ! دون !»

وحمدي فتًى من أسرة فقيرة ، أدركه اليُتم ، فعاش في كنف أحد أقربائه بالقاهرة . وكان والد شريف كثير العناية به ؛ إذ كانت له صلات وثيقة بوالده ، فألحقه بالمدرسة التي يتعلم فيها ابنه ، ومن ثم ارتبط الرفيقان منذ النشأة برباط الصداقة المتينة . وكان شريف إذا قدِمَ مع أسرته إلى الثغر يصطافون ، قدِم في جملتهم حمدي ، يُمضي معهم عطلة الصيف .

(١) من أين نجم : من أين ظهر .

(٢) مُعرَّب كلمة « البيانو » .

وتجرأت مرة ، فدعوت سنية وصديقيها شريف وحمدي لِيَبْقَوا اليوم كله عندي ، فلم يعارض في ذلك جدّي ، وترك لنا المنزل منذ الصباح المبكر . ونزلتُ إلى الحديقة أنتظر الضيوف ، وكنت قلِقة لا يستقر بي مُقام ، أسأل الحاج مسرور بين لحظة وأخرى عن الوقت ، ثم أدخل المنزل في عجلة ، لأرى ماذا أعدّته أم يونس من ألوان الطعام . وكان يُخيَّل إليَّ أنها فقدتْ في ذلك اليوم نشاطها ، وأنها بطيئة في عملها ، على نحو لم أعهده فيها قطُّ ، فكنت أصيح بها وأنا أحثُّها على الحركة والسير !

وأخيراً سمِعت بوق السيارة ، فعجلت إلى الباب ، وبعد قليل ظهرت السيارة تتخطر كالعروس ، ثم وقفتْ أمام البيت ، ورأيت رأس حمدي يُطل . فما إن وقع بصري عليه حتى انفجرتُ ضاحكة . ونزل حمدي وهو ينظر إليَّ متسائلاً ، ثم ما عتَّم أن اندفع هو أيضاً يضحك . ونظر إلينا شريف وسنية وهما مدهوشان ، ولكنهما لم يلبثا أن استغرقا في موجة من الضحك . وانتقلت العدوى إلى الأسطى جميل سائق السيارة ، والدادة شيرين التي اصطحبتها سنية ، فانطلقنا جميعاً نضحك ، ولا ندري لهذا الضَّحك من مأتى (١) .

وأخيراً سكنت العاصفة ، ودخلنا المنزل ونحن نمسح عيوننا ، وكان شريف يتقدمنا في السير ، كأنه يعرف المنزل حقَّ المعرفة ، على حين أن زيارتَه هذه كانت الأولى .

وطَوَّفت بأصدقائي في المنزل ، وأريتهم حجرتي ، وأخرجت لهم ملابسي ولُعَبي وكتبي ، ولم أترك كبيرة ولا صغيرة مما تحتويه خزانتي إلا عرضتها عليهم. والتفت ضيوفي حولي ينظرون إلى هذه الأشياء ويتفحَّصونها ، على الرغم من أنها كانت عادية لا تستثير أيَّ اهتمام .

(١) لا ندري لهذا الضحك من مأتى : لا نعرف له سبباً .

ورأيت سنية تقلب في يدها خاتمًا من الصفيح كنت كسبته في البخت ، فأخذته منها ، و وضعتُه في إصبَعها ، ثم قبَّلتها . وفهمتْ قصدي ، فابتسمت وقبَّلتني .

و وجدتُ شريف وحمدي يراقبانا ، فقصَدت من فوري إلى مكتبي ، ثم قدَّمت لشريف قلمًا رصاصاً أحمر مزودًا بغطاء وماحية (٢) . وأهديت إلى حمدي صفارة صغيرة من الخشب ، فتناول كلاهما هَديَّته مبتهجًا فرحان . واندفع حمدي على الفور يصفِّر ببعض ألحانه اللِّطاف .

ثم نزلْت بضيوفي إلى الحديقة ، واخترنا خَميلة (٣) تجتمع فيها طائفة من الأشجار الهَرِمة ، فاعتزمنا أن نلعب تحتها ونتناول الغَداء .

ونظر حمدي إلى الخميلة حينًا ، ثم قال رزينَ اللهجة متَّئد المنطق :

« أ لم تلاحظوا شيئًا في هذه الأشجار؟»

« أيّ شيء ؟»

« أمرًا غريبًا ، مدهشًا !»

« ؟ ... ؟ ... !»

« دقِّقوا النَّظر ، ثم أخبروني .»

ورمَيْنا بأبصارنا في الخميلة نتفحَّص ، ولكننا لم نكتَنه ما يريد حمدي ولم نفطِن إلى شيء في الشجر . فقال :

« أيّها الأغبياء ! هناك شبَه عجيب بين هذه الأشجار وبين أناس نعرفهم . دققوا النظر ثانيًا .»

فصاح شريف وهو يشير إلى شجرة في الخميلة : « هذه مدموازيل شانتل . انظروا ، أ لا ترون عنقَها الطّويل توَشّيه التجاعيد ؟»

(٢) الماحية : المِمْحاة ، وهي قطعة من المطاط أو نحوه تُستعمل لمحو الخط .

(٣) الخَميلة : مكان به أشجار كثيفة .

فصحنا في صوت واحد : « حقا ، مدموازيل شانتل ! »

وانطلقنا نضحك . وسمعنا حمدي يقول :

« صه ! اسمعوا ماذا تقول . »

ثم قال مُحاكيًا صوتَ المدموازيل الخشن :

« أيُّها الأوغاد ، كلُّكم سَفِلَة ، دون ، سَفِلَة ، دون . »

فانبرينا نُغرب [١] في الضَّحك . ورحنا نُطلق على كلّ شجرة اسمِ تابع من أتباعنا ، متلمِّسين ما يكون بينهما من مشابِه . واشتبكنا في حديث طويل بين الضَّحك والصِّياح .

وكانت سنية ملازمةً لشريف كظِلّه ، دائمةَ التطلع إليه . فإذا قال قولاً أسرعت توافق عليه ، وإذا طلب شيئًا هبَّت مُهَرْوِلة توافيه به ، وكثيرًا ما تنحني عليه وتهمس في أذنه ، ثم ترسل عالي الضحك .

و وجدت شريف قد بدأ يتبرم بها ، وأخيرًا ثار عليها ينهاها أن تتمادى في هذه السخائف ، فاضطربت واصفرَّ وجهها ، ثمّ جرت إلى المنزل مختفية فيه ، فَقَفَوتُ أثرها ، فوجدتها مختبئَة في إحدى الزوايا المظلِمة ، وقد استبدَّ بها البكاء ، فلاطفتها ، وطيَّبتُ خاطِرها .

وبعد قليل ألفيت حمدي و شريف يُقبِلان علينا .

وما هي إلا أن تم الصلح بين سنية وشريف دون كبير عناء .

وعدنا إلى الحديقة نلهو ونلعب .

— ٥ —

ساءت صحّة جدّي ، وثقُل عليه المرض ؛ فلزم حجرته . وكان الطوخي أفندي يُبادِره بالزّيارة كلّ يوم ، ويقضي وقتًا طويلاً معه ، يقرأ له الصحف ، ويناقِله الأحاديث . وكثيرًا ما تناول الغداء في البيت ، وأمضى فترة القَيلولة في الحديقة نائمًا في ظلال الشجر.

وكنت أتردد على حجرة جدي ، وأشعر بِغبْطة حين يكلِّفني عملاً أقضيه له . وذهبت إليه في صباح أحد الأيام ، ولَمّا تقدمتُ منه لأُقبِّل يده على مألوف عادتي معه ، راعني امتقاع وجهه ، فلما أمسكت يده وجدتها شديدة البرودة سريعة الارتجاف ، فتعلقت به وجعلت أحتضنه ، فلاطف رأسي في تعطُّف وحنوّ .

وفي غداة غد أردت الدخول إلى حجرته ، فمنعتني أم يونس ، وأسرَّت إليَّ قولها: « إنه نائم . »

وكان لصوتها نغمة غريبة ، وسمِعت جدّي يغط غطيطًا مضطربًا فارتعْت ، وأمسكت يدَ أم يونس أشُدُّ عليها .

وبعد حين أقبل الطوخي أفندي ، ومعه الدكتور حسني ، وكان هذا الدكتور صديقًا لجدّي ، لا يزوره إلا إذا شكا عِلّة أو إذا أقبل عيد .

دخل الدكتور حسني مع الطوخي أفندي مترهِّلاً في مشيته ، يجرُّ نفْسه جرًّا ، ويحرك أعضاءه في صعوبةَ كأن شيئًا يؤلمه .

ولَمّا انتهت الزيارة وخرج ، وجدتُه يميل على الطوخي أفندي ويُسرُّ إليه كلمات ، على حين كانت أسنانه طبقة تَصبِرُ ، وشفتاه منفرجتين في شكل مخيف .

وأمضيت اليوم كلَّه وأنا قلِقة ، أحيا في جو غامض . ولازمتُ أم يونس بابَ حجرة جدي ، فجلستُ بجوارها صامتة . وكنت أرفع بصري إليها ، فأجدها تتحدث إلى نفسها مغمغمة ، وتشير بيديها إشارات الحسرة والألم ، فيزداد قلقي واضطرابي .

وقضيت هَزِيعًا من الليل على تلك الحال ، ولم أذهب إلى فرأش النوم إلا بعد أن رضِيتُ أم يونس أن

(١) نُغرِب : نُمعن .

تصاحبني في الفراش .

واستيقظتُ في رونق الصبح ، فرأيت الدادة شيرين خادمة سنية بجانب سريري ، فعجبت لوجودها ، وبادرتُها بقولي: « أنتِ هنا ، يا دادة ؟»

فانحنت عليّ ، واحتضنتني طويلاً ، وقبّلتني ، ثم قالت لي :

« ستقضين اليوم عندنا . هيّا .»

« لماذا ؟»

« هيّا ، يا سلوى ، لا تضيّعي الوقت .»

ورأيتها تبتسم .

ولكن أيّة ابتسامة هذه التي طالَعتني بها ؟ كانت مُرَوِّعة حقا !

وسألتها : « و أم يونس ، أين هي ؟»

« مَشغولة ، يا بنتي ، مشغولة . هيّا البسي ، فالسيارة تنتظرنا بالباب .»

وارتديت ثيابي مسرعة ، وأردت رؤية جدّي قبل الخروج ، ولكنّني وجدت أم يونس بالباب تمسح دموعها ، فعجِبت ، وسألتها : « فيمَ تبكين ؟»

فأخبرَتني بأنَّ الوزة الكبيرة التي كانت تربيها قد ماتت في الليل ، فشعرَت بكآبة تتسرب إلى نفسي ، وهَمَمْت بفتح باب الحجرة لأرى جدّي ، ولكن سَرعان ما حالت دون ذلك الدادة شيرين وهي تتمتم :

« جدُّك ، يا سلوى ، نائم ، فلا توقظيه .»

وفي هذه اللحظة أقبل الطوخي أفندي و الدكتور حسني ، الأول يمسح عينيه ، والآخر ساهِمُ النظرات ، وفي إثرهما رجل مُعمَّم يلبس القَباء (١) دون أن يتمنطق بالحزام ، وقد شمَّر كُمَّيه ، وأخذ يتفحص أركان البهو .

وهنا أطلقت أم يونس صيحات عالية يقطعها النحيب .

وأخذتني بين ذراعيها ، وغمرتني بقبلاتها ، وهي تصيح :

« جدك راح ، يا سلوى ، راح وانتهى !»

فوجِمتُ إذ ذاك ، وعرفت أن الذي مات هو جدي المسكين ، لا الوزة الكبيرة .

فاندفعت في بكاء ونشيج ، ولكن سَرعان ما أحسستُ يد الدادة شيرين تلاطفني ، ثم أخذتني بين ذراعيها ، وحملتني إلى السيارة حملاً .

— ٦ —

لبثتُ في بيت سنية خمسة أيام ، كنت فيها موضع الرعاية والعطف من الجميع ، حتّى من مدموازيل شانتل ؛ فقد نزلتْ لي عن بعض كبريائها، وراحت تلاطفني وتكلمني رقيقةَ اللُّهجة .

وكنت أنام الليل مع سنية في سرير واحد ، وأقضي الوقت معها نلعب . وجاء الزهيري باشا مرة الحجرة ، وأجلسني على ركبتيه ، وقال لي وهو يربت كتفي :

« أ مسرورة أنت عندنا ، يا سلوى ؟»

فطأطأت رأسي مبتسمة .

وقال الباشا :

« لماذا لا تجيبين ؟ يظهر أنك غير مسرورة !»

فأسرعتْ سنية تقول : « إنها مسرورة ، يا أبتِ . وقد أسرَّت إليَّ أنها تريد المُكث عندنا طويلاً .»

فنظرتُ إلى سنية نظرة عتاب ، وسمعت الباشا يقول هامساً : « حبّذا ، ولكن ...»

ثم مسح على رأسي ، وترك المكان .

والتفتُ إلى سنية أقول لها : « لماذا أخبرتِ أباك بأنني أريد المُكث عِندكم طويلاً ؟ أ قلتُ لكِ ذلك من

(١) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص ويشد عليه بالحزام .

قبل ؟»

« أ ساءَك قولي ؟»

« كلا ، ولكنني أريد العود إلى منزلي .»

« لم أكن أحسَب أن كلامي يسوءُك إلى هذا الحدّ .»

« ثِقي أني لستُ مستاءة منكِ .»

« إذن ، ممَّن ؟»

« لست مُستاءة من أحد على الإطلاق .»

وأطرَقت وقتًا ، وأنا أشعر بضيق يغزو قلبي ، فبالرغم ممّا كان يشملني في ذلك القصر من رفاهية وراحة ، كنت أحِس أحيانًا فراغًا كبيرًا حولي ، فيُخيَّل إليَّ أنّي أعيش وحيدة في مكان واسع ، يغْشاه الصمْتُ المخيف .

وكانت ذكرى جدّي تلازمني ، وصوت أم يونس وهي تقول لي :

« جَدُّك راح ، يا سلوى ، راح وانتهى .» يقرع سمعي من حين إلى حين قرعًا شديدًا ، فأرتجف ، ويَسري في أوْصالي فزع شديد .

وأمسكْتُ يدَ سنية بَغْتةً ، وقلت لها في لَهفة:

« لماذا لا تأتي أم يونس ؟ أين هي ؟»

فنظرتْ إليَّ خائفة ، وقالت : « لا أدري !»

« أخبريهم أنني أطلبها ، أرغب في رؤيتها . أرجوك .»

ثم شعَرتُ بالدموع تنبثق من عينيَّ دُفعة واحدة ، فأخفيت وجهي في يدي ، واسترسلت أنتحب .

وتواصلت الأيام على هذه الحال . وبينما كنت ألعب يومًا مع سنية في البهو الكبير ، سمِعت الباشا يتكلم مُحتدًّا ، فأرهفت سمعي وَجِلةً ، فإذا به يقول : « لا أريد أن تطأ هذه المرأة باب منزلي مرة أخرى ، سأرسل إليها الكاتب ليتفق معها في شأن ابنتها .»

وتبادلنا أنا وسنية النظرات ، ثم هرَبنا إلى ركْن من الأركان ، فاختبأنا فيه . وبعد قليل رأينا الدادة شيرين تخرج من الحجرة التي كان فيها الزهيري باشا ، وهي تتمتم ، وتشير بيدها إشارات التأفُّف .

— ٧ —

صبَّحَتني الدادة شيرين بقولها هامسة : « ستذهبين اليوم للقاء أمك .»

فحملقتُ فيها دَهشة ، وقلت متلَعْثمة: « أمي؟ أمي ؟»

« إنها تنتَظِرك هناك في المنزل .»

فأمسكتُ بيد الدادة وجعلت أشُدُّ عليها فأحاطتني بذراعيها ، وقالت : « إن أم يونس ستكون هناك .»

وأعدَّت لي السيارة ، فركبتُها ؛ ولم يصحبني أحد هذه المرة ، والتَفَتُّ حولي ، فَخُيل إليَّ أنَّها أكثر اتساعًا عن ذي قبل . وكان المشاة ينظرون إليَّ وأنا جالسة في مقعدي جِلسة الراحة والترَّف ، فيغمُرني سرور كبير .

وكان قلبي يدقُّ حين أسمع بوق السيّارة يصرخ في الناس بصوته الذي يشبه عُواء الكلاب ؛ فيتفرَّقون مذعورين .

وخطر لي أن أسأل :

« هل تملِك أمّي سيّارة كهذه ذاتَ بوق له مثلُ هذا الصوت ؟»

وكان يستبد بمُخيِّلَتي خاطر واحد ، وهو أمي :

ما صورتها ؟ كيف تستقبلني ؟ ماذا تريد منّي ؟ أيّةُ حياة تنتَظِرني ؟

و وصلتُ إلى المنزل ، ونزلَت أعدو . وما إن اجتزت الحديقة ، ودخلت الرَّدهة ، حتّى شعَرت بِرَهْبة تملِكُني . وأطَلْتُ النظر في حجرة جدّي المُقفلة ، ولكنّي لم أستطع الدُّنوَّ منها ، وأسرعت الخُطا حين

مرَرْت بها ، وقصَدت إلى حجرتي . وما كدت أخطو خطوة فيها حتّى رأيتُني أمام أم يونس . وكانت تقف بجوارها سيّدة ، فمكَثت في مكاني لحظة وأنا أنَقِّل عينيَّ بينها وبين أم يونس وقد اشتدَّ وجيب قلبي (١) .

ورأيت أم يونس عابسة ساهمة ، على حينِ أنَّ السيدة الأخرى كانت مُشْرِقة باسمة . وهُرِعتُ إلى أم يونس فتلقّتني في أحضانها ، ثم لاطَفتني ، وأخذت بيدي وخطت بي نحو السيّدة ، وهي تقول لي : « هيا قبِّلي أمَّك ! »

وسمعت السيدة التي دعتها أم يونس أمّي ، تقول في صوت مُنغَّم : « تعالَي ، يا سلوى ، تعالَي . »

فتقدَّمتُ منها ، وقد فغمتني (٢) رائحة الطّيب الذي كان ينبَعث منها ذكيا شديد الذّكاء . ولاحظت أنها تلبَس السَّواد ، وسَرعان ما نكّستُ رأسي أمامَها ، فانحنت عليَّ ، وقبَّلتني قبلتينِ صغيرتين ، وقالت لأم يونس :

« إنها كبيرة ، كبيرة . ما شاء الله ! »

وضحكتْ ، فأفزعني ضَحِكها بالرّغم ممّا فيه من طراوة ، ثم وجدتُها تُخرج من مَحفظتها حُق الذّرور (البودرة) وعلبة الصِّبغ ، وأخذت تُزيّن نفسها ، وترجِّل شعرها . واختلست النَّظَر إليها فبهرتني هَيْئتها ؛ لقد كانت تتلألأ تلألؤَ الأنوار في المحافل والمِهرجانات !

وعجِبت من نفسي إذ لم أشعر بأيّة عاطفة نحوها ، بل على العكس بدأت أحِسُّ وأنا معها بضيق . وخرجتْ أم يونس وهي تدعو لنا بمختلف الأدعية ، وتناولت أمي من المائدة عُلبة أخرجت منها عروسًا فاخرة أعطتني إيّاها ، وهي تقول : « أ تعجبك هذه العروس ؟»

فابتسمتُ ، ولم أجِب .

(١) وَجيب قلبي : اضطرابه . (٢) فغمتني : ملأتني .

وتابعتْ أمّي قولها ، وهي تضحك : « أرى أنها لا تعجبك ! »

فقلت في صوت خافِت : « بل تعجبني جدًّا . »

فقالت لي : « يجب ألا تكوني خجولاً معي ، يا سلوى . أنا أمُّك . إنّي أحبُّك ، ويجب أن تحبّيني . »

— ٨ —

تتابعت خمسة أعوام واستقبلتُ عامي السادسَ عشَر .

عِشْت هذه الحِقبة مع أمّي في منزلنا بالسيِّدة ؛ ذلك المنزلَ المعتِم الّذي يملأ النفس انقباضًا و وَحشة . وكثيراً ما ساءلت نفسي : « كيف قضيتُ هذه السنين ؟ أ محزونة قضيتها أم فرِحَة ؟ » فأقف حَيْرى لا أحسِن الجواب . ولكنّني كنت على يقين بأنّي أحيا حياة تختلف أبْينَ اختلاف عن تلك الحياة الّتي كنت أعيشها في كنف جدّي .

خمسة أعوام تعاقبت على مِنوالٍ راتِب : اليوم إثر اليوم لا تغيير فيه ولا تبديل ، فكأنني قضيتُ تلك الحِقبة يومًا واحدًا طويلاً لا يعترض سَيْرَه إلا ليالٍ متشابهات .

ما الّذي وقع لي في هذه الأعوام الخمسة ؟

أ ليس ثَمَّة من أحداث تستحقُّ التدوين ؟

لا رَيْب أنّ هناك ما هو جدير بالذِّكر ، على الرّغم من هذا التشابه الممْلول .

وأوّل ما يجب عليَّ أن أشير إليه ، هو الشُّذوذ الغريب في حياة أمّي ، ذلك الشذوذ الّذي أصبح بحكم العادة أمرًا مألوفًا لَديَّ الآن .

فقد تحققتُ اليوم أن فكرتي الّتي تمثّلتها في شأن الأم من قبل ، كانت فكرة عاثِرة ، لا تمتُّ إلى الواقع بسبب .

كانت سنية تروى لي بين حين وحين ما تتذكّره من شئون أمها : كيف كانت تُعنى بطعامها وملبسها ومنامها ، وكيف كانت تطهو لها بنفسها بعض الألوان الّتي تميل إليها . وفي موعد النوم تهيئ لها الفراش ، وتمكث بجوارها تُسامرها حتّى يغلِب عليها سُلطان الكَرى . وهذه القبلات الّتي لا نهايةَ لها تغمرُها بها طَوال اليوم ، قبلات وأحضان كانت تثير في نفس سنية أحيانًا أشدَّ الضيق ، فتصرخ محتجةً ساخطة !

تلك الصورة الّتي تخيّلتها في شأن الأم قد طارت من مخيّلتي على أثَر انقضاء الأيام الأولى الّتي عاشرت فيها أمّي .

فلقد كنت إذا استيقظت وسألت عنها أم يونس ، وضعتِ المرأة إصبَعها فوق فمِها ، وقالت في صوت مخفوض :

« صَه ، لا تُعلي من صوتِك ، إنّها نائمة . »

فأصمُت ، تاركةً مكاني ، وأنا أخطو على أطراف الأصابع .

وكانت أمّي تلزم حجرتَها نائمة حتّى الظُّهر ، وقد تَخرج فلا أراها ، ثم تعود ، وقد أوَيتُ إلى مِخدَعي . وصار منَ المألوف أن تنقضي بضعة أيّام دون أن أراها ولا تراني ، مع أنها تعيش معي في بيت واحد .

أمّا إذا وقع بصرها عليَّ يومًا ، وهي خارجة من حجرة نومِها تقصد إلى الحمام ، فإنها تبتسم لي ابتسامة عابرة ، ثم تقول :

« سلوى ! أهلاً ، يا سلوى . »

ثم تختطِف من وجهي قبلة سريعة ، ولا تلبث أن تُتابع سيرها لا تَلوي (١) على شيء .

وكانت أحيانًا تقضي اليوم معنا في المنزل ، لا تبرَحه ، فتستدعيني أنا وأم يونس لنُجالِسها ونستمع إلى أحاديثها . وكان الموضوع الّذي تَطرُقه دائمًا واحدًا لا يتغيَّر جوهَرُه ، وإن اختلف مظهره . كانت تحدّثنا عن ثروتها البائدة ، قائلة : إنها كانت ثروة ضخمة أضاع والدها أكثرها في المضاربات وصفقات التجارة ، ولكنّها ما زالت تملك بِضعة منازل وفدادين تجلُب لها بعض الرِّيع ، وإن هذا الريع لَيكلّفها متاعبَ ومشاقَّ تُرهقها ، فتثبُت لها وتصبِر عليها . فهي إذا تغيّبت عنِ المنزل فإلى المحامي لدرس القضايا معه ، أو إلى وكلائها تدير معهم الأعمال ، وتنظم الأمور ، وترشدهم إلى ما يجب اتخاذه من إجراء . وكثيرًا ما التفتَت إليَّ وهي جالسة في استرخاء ، تسوّي ثوبها الورديَّ المزركش ، وصدرها يكاد يكون عاريًا ، وقالت : « اعلمي ، يا سلوى ، أنه لو كانت أمك من هؤلاء النساء الجاهلات الخاملات ، اللائي يقضين أعمارَهن بين أربعة جدران بالمنزل ، ولا يعرفْن من شئون الحياة شيئًا ، لقضيتِ حياتَك في بؤس وتعاسة ، ولكنِ احمدي الله على أنّي امرأة أجاهد في الحياة جهاد الرِّجال ؛ سعيًا في طلب الرزق ، ورغبة في أن أوفِّر لك أسباب العيش الرَّغيد . »

كانت أمّي مشغوفة بإعادة هذا الحديث على مِسمعي ، حتّى أصبحت لا ألقي بالاً إليه . ويومًا قلت لها :

« ألا تسمحين لي ، يا أمّاه ، أن أصحبَك مرّة في الخروج ؟ »

فحدّقت فيَّ مدهوشة ، وقالت : « تذهبين إلى المحامي وإلى وكلاء الأعمال ؟ وهل تفهمين شيئًا في هذه الشئون ؟ »

« أريد أن أرى منازلنا التي نمتلكها . »

فوجدتُها تحدِّق فيَّ بغَضب ، ثم اندفَعت تقول :

« مَن لقّنك هذا ؟ لعلّها أم يونس ! »

فنظرتُ إليها مَبهوتة ، وقلت : « وما شأن أم يونس

(١) لا تلوي : لا تقف ولا تنتظر .

بهذا ؟»

فأخذتْ أمّي تَهزّ قدميها هزًّا عصبيا ، ثم قالت لي، وقد ثاب إليها الهدوء :

« سآخذك يومًا لترَيْ هذه المنازل .»

ولكن ترادفت الأيام والأشهر والسنون ، ولم أرَ ظِلا لمنزل من هاته المنازل . وإذا ما سألتُ أم يونس عنها وعن الفدادين التي نملكها ، نظرتْ إليّ المرأة في إشفاق ، وغمغمت :

« أسعدك الله ، يا بنتي ، وهيّأ لك الخير .»

ظللتُ هذه الأعوام الخمسة قليلةَ الاختلاط ، لا أعرف كثيرًا من الناس . ليس من أحد يزورني ، ولست أترك المنزل إلا ذاهبة إلى الجيزة حيث تسكن سنية فأقضي معها اليوم كلّه ، نلعب بالورق أو نتنزّه في الحديقة أو نستمع إلى المِذياع ، وكان من النّادر أن نبرح المنزل للذّهاب إلى إحدى دور السينما أو غيرها من أماكن اللّهو .

ولاحظتُ أن سنية لم تكن تدعوني إلا حين يكون والدها قد سافر إلى الريف ، وإذا اتّفق وجود الباشا وقت حضوري لَقِيني بوَجه متَجهّم ، وحيّاني تحية فاترة. أمّا مدموازيل شانتل فكانت تثير سَخَطي بمعاملتها المُشبعة بالاحتقار . وكنت أرى أمامي وجوهًا حَذِرة عابسة ، وأسمع حولي همسًا أتبيّن فيه دائمًا اسم أمّي ، فلا يروق سنية ما تسمع ، وتبالغ في عطفها عليّ ، وإظهار حبّها لي .

أمّا الدادة شيرين ، فهي الشخص الوحيد الّذي كان يحسن معاملتي ويحنو عليّ حُنوًّا ليس فوقه من مزيد .

ولم أجرؤ على أن أدعوَ سنية إلى منزلي ؛ إذ وضح لي أنهم لن يأذنوا لها بالحضور عندي ، وكان هذا يملأ نفسي بالغيظ الشديد .

ولم أعُدْ ألقى شريف أو حمدي ؛ فقد سافر الأول إلى فرنسا ليُتمّ دراسته في أحَد معاهدها ، أمّا حمدي فقد انقطع عن زيارة سنية بعد سفَر رفيقه ، وانقطعت بذلك أخباره عنّي .

وكنت كلّما ذهبت إلى سنية انفردتْ بي ، وأرتني الرسائل التي كان يبعث بها شريف إليها ، وكثيرًا ما قرأتْ لي منها بعضَ الفِقَر ، فأصغي إليها وأنا أتذوّق في شَغَف ذلك الحديثَ العذْب . وكنت أحيانًا أرغبُ إليها في أن تُعيد تِلاوة ما أسمع ، ثم أمسِك بيدها ، وأدقّق النظر فيها قائلة :

« إنه يحبُّك ، يا سنية !»

فتَضْغط يدي ، وقد تضرّج وجهها (١) .

ويحتويني الصمت لحظة ، وقد تاه نظري ، شاردة الفِكر ، يغمرني شعور حزين ، فأرى سنية تُقْبل عليّ قائلة : « ما بك ؟»

فأثوب إلى وعيي ، أقول : « لا شيء . هنيئًا لك الخاطب العزيز .»

أمّا حياتي المنزلية في صحبة أم يونس فكانت تافهة يسودها هدوء وخمول . فعلى الرغم ممّا كنت أقوم به من العمل لمساعدة أم يونس في طهو الطعام وغسل الملابس وما شابه ذلك من حاجات البيت ، كنت أُحس في قرارة نفسي بتراخٍ وملَل تشوبهما كآبة ؛ فأقصد إلى حجرتي ، وأتمدّد على سريري ، وأقضي وقتًا طويلاً وأنا حالمَة ، تحدّق عينايَ في أرجاء السقف .

وثمةَ شأنٌ آخر خليق بالتدوين – تمّ لي أثناء هذه الخمسة الأعوام – ذلك هو إرسالي إلى المدرسة بعد عامين قضيتهما متعطلة في المنزل . فقد كنت مرة مع أم يونس في الرّدهة ، فدخلتْ علينا أمي وبادرتني بقولها :

« لقد حدّثوني عن مدرسة إفرنجية للبنات تقع في حيّنا هذا ، يديرها رجل أجنبي وزوجه ، يجري فيها التعليم على برنامج عصريّ : لغة فرنسية ورقص وغنًا.

---

(١) تضرّج وجهُها : احمرّ .

وقد رأيت أن الوقت قد حان لإلحاقك بها . إنّني أرغَب في نفْعك . وقد تخيَّرت لك هذه المدرسة ؛ لأني وجدتها تجاري روح العصر الحديث في التعليم: رقص وغناء ولغة فرنسية .»

فرأيت أم يونس قد تصدَّت للكلام في شيء من الحِدَّة ، وقالت : « رقص وغناء ؟ ما لَنا وللرَّقص والغناء ؟ هل ينفعها ذلك عند الزواج ؟»

فقالت أمي في توكيد : « بالطبع ؛ لتراقِص من سيخطِبُها حينًا ، ثم تراقصه يوم يصبح زوجًا لها فيما بعد . أَلا تعلمين أن الرقص أصبح من مقتضيات المحافل والمجتمعات العائلية ؟»

فتمْتَمَت أم يونس وهي تحاول كَظْم غيظها :

« حفِّظيها القرآن أولاً . ما لنا و لمدارس الخواجات ؟»

فوجدْت نفسي قد انبَرَيْت في حِدَّة أجيب أم يونس :

« لقد علَّمني جَدّي القرآن ، وكفى .»

فقهقهتْ أمّي طويلاً ، والتقت عيناي بعيني أم يونس ، فوجدتها تنظر إليَّ في دهشة ، وقد اكتسى وجهُها بسحابة قاتمة ، دون أن تنبِس .

وسمعت أمّي توجِّه قولها إليَّ :

« إنَّ أم يونس من أهل الزمان العتيق ؛ فاعذريها. أذكر أنها أخبرتني مرة بأن زوجها لم يرَها إلا ليلة الزفاف !»

فقالت أم يونس :

« إن زوجي ، يا سيدتي ، لم تقع عيناه حتى على طرف ثوبي قبل الزواج ، ولكنَّه أحبني وأحببته ، وعشت معه في هناءة موفورة .»

فازددتُ سخطًا على هذه المرأة الجاهلة التي لا تحسن الدِّفاع عن قضيَّتي ، ولكنَّني كلَّما اختلستُ النظر إليها ورأيت وجهها الشاحب يحمل طابَع الألم والتحسُّر ، شعَرت بخَجل يغمر نفسي .

والتفتت أمّي إليَّ ، وقالت وهي تبتسم : « إن أم يونس تريد أن تجعلك على غرارها ، لا يرى خاطبك طرف ثوبك . أمّا أنا فأريد أن أجعل منك نَموذجًا للزَّوجة العصريَّة . إنني أرعى دائمًا مصلحتك .»

وقامتْ إلى حجرتها وهي تخطر في غِلالتها الحريرية ، فقمت على أثرها قاصدة حجرتي ، وقلبي تتنازعه شتّى المشاعر .

لم تكن « مدرسة العائلة السعيدة للبنات » ، كما كانوا يسمونها ، بأكثر اتساعًا ولا أوفر نورًا من البيت الذي أسكنه . وكانت تحوي بضعَ عَشْرَةَ تلميذة يتعلَّمن في فصلين : الفصل الأوّل للكبيرات ، والآخر للصغيرات . وقد ألحقوني به ، مع أني كنت في السن الّتي تُخَوِّلني دخول الفصل الأوّل ، ولكن معلوماتي كانت في مستوى التلميذات الصغيرات ، بل أدنى منهن . وكنت إذا وقفت بينهن في الصف شعَرت بخجل من طول قامتي . وكثيراً ما عيَّرني التلميذات بنقص معلوماتي على كبر سنّي .

أمّا مدرسو المدرسة ومستخدموها فقد كانوا ثلاثة فقط : مسيو فوكيه وزوجه مدام فوكيه ، وهما صاحبا المدرسة ، وعليهما عبء القيام بمهام التدريس والإدارة ، والثالث أم فضل الّتي كنا نعدُّها فراشة المدرسة وبوابتها، مع أنها خادمة مسيو فوكيه وزوجه، تؤدي لهما الخدمة المنزلية . وإذا علمتَ أن الرجل وزوجه يسكنان غرفة في السطح ، عرفتَ أن هذه المدرسة في الواقع لم تكن إلا مسكنًا لصاحبيها .

لم تخطئ والدتي ، إذ أخبرتني بأنها سترسلني إلى المدرسة لأتعلَّم الرقص والغناء واللغة الفرنسية ؛ فلم يكن ثمَّةَ موادُّ للتدريس غيرها ، ولكنها كانت تدرس على الفطرة لا على نهج مرسوم ونظام معلوم . وإنّي

أذكر أن درس الرقص والغناء تعطل بضعة أسابيع ؛ لخلل أصاب البيان المهشم الكسيح ذا الصوت الأبح(١). وكان مسيو فوكيه هو الذي يعزف دائمًا عليه ويغنّي ، أمّا مدام فوكيه فكانت تعلمنا الرقص . وكان هذا الوضع يدهشني ؛ إذ كنت أعلم أن الرجال هم الذين يجب عليهم أن يراقصوا النساء. والراجح أن مسيو فوكيه لم يكن يعزُب (٢) عنه أن هذا الوضع مقلوب ؛ فقد حاول أن يقوم بدور الراقص في بعض المناسبات ، ولكن صوبتْ إليه زوجه سهامًا من نار ، فارتد إلى بيانه مهزومًا . ولم يكن يستطيع مسيو فوكيه أن يقاوم زوجه في هذه المسألة أو في غيرها ؛ إذ كان منهوك القوى ، عاليَ السنّ ، فضلاً عن ضمور جسمه وضآلة شخصه . وكان إذا انتحى ركنًا — في فترة الراحة — وجلس ليحظى بغفوة سانحة ؛ شاهدت شفتيه ترتجفان بلا سبب .

على أنني كنت أهفو (٣) إلى غنائه ؛ فقد احتفظت حنجرته البالية ببعض أوتارها ، فإذا غنّى شعرت بشيء من الحنين يستيقظ بين جوانحي ، فأنظر إليه فأجده مندفعًا في أغنيته وقد أغمض عينيه يحلم في نشوة ، وترك جسمه يتمايل مع النغم ، وخصلة شعره تتساقط على جبهته ، فتسبغ على وجهه ظِلالا شاحبة .

وقد علمتُ أن مسيو فوكيه كان فنانًا ملحوظ المكانة ، بين رجال المسارح الغنائية في الزمان السالف.

أمّا زوجه فكانت تصغره بنحو عشرين سنة ، مكتنزة الجسم ، مبسوطة القامة ، لها وجه محتقن ، وعينان جاحظتان . وكنت أشعر وهي تراقصني أنها ستعتصرني بجِرمها (٤) الهائل .

أمّا أم فضل فكانت امرأة نحيفة ، ولكنها نشيطة ، تكاد تكون صمّاء ، لا تنبس بكلمة إلا عند الضرورة القصوى . تقوم بعملها صامتة جاهِدة . وفي أوقات الفراغ تنتحي ركنًا بعيدًا تحوك فيه الملابس ، وترتق الجوارب .

كنت أقضي وقتي في المدرسة في شبه وَحْدة ، فقد لاحظتُ أن جُلَّ التلميذات يتجنّبن مصاحبتي ، ويهزأْنَ بي . فإذا مررت بجماعاتهن سمعتهن يتهامسن، ويشرن إليّ من طرْف خفيّ . ولكنّي وجدت في مليحة السودانية صديقة أركَن إلى صداقتها ؛ فقد ألّف بين قلبيْنا الاضطهاد والعنف ، إذ لم تكن مليحة بأحسنَ منّي حظا عند الرفيقات. وقد نشأت صداقتنا من حادثة يجمُل بي أن أرويَها : رأيت مرة حميدة الأرستقراطية النزعة ، واقفة قبالة مليحة تَحدِجُها بنظرة كبرياء وتقول لها : « لم يكن ينقصنا إلا هذه الجارية تأتي لتشاركنا في الدرس .»

فاتّقدت عينا مليحة ، وفي مثل خطفة البرق وجدتُها قد هجمت على حميدة ، وأنشبت فيها أظفارهـا ، ولكن صديقات حميدة هُرِعن إليها يساعدنها ، وأمسكن بمليحة واندفعن يكِلْنَ لها اللّكمات ؛ فوجدت نفسي قد هجمت عليهن ، ودافعتُ عن مليحة حتى خلصتها من بين أيديهن . وما إن ظهرتْ مدام فوكيه في هذه اللحظة حتى تفرقت التلميذات هاربات ، ولم يبق إلا أنا ومليحة فقد سرنا إليها نشكو الزميلات ، فأجابتنا بصفعتين شديدتين ، وانهالت تنعَتنا بأرذلِ النعوت .

كانت هذه الحادثة بدءَ صداقتي بمليحة السودانية ، فتآلفنا وكوّنّا اتحادًا صغيرًا يقاوم الاتحاد الأكبر مِنَ التلميذات الأخريات ، فازدَدْن اضطهادًا لنا وحربًا علينا. وكانت مدام فوكيه لا تفتأ تنصرُ علينا أعداءنا . وقد فهمتُ فيما بعدُ مَبْعَث هذه المُناصرة ؛ فإنَّ نفقات الدراسة الخاصة بي وبمليحة لم تكن تؤدّى بانتظام ، وقد تمر الأسابيع تِلْوَ الأسابيع ومدام فوكيه تلاحقنا بطلب النفقات ، مزمجرة مهدِّدة ، فأخبر بذلك أمّي ، فتَعِد ولا تفي .

(١) الأبحّ : الغليظ الصوت الخشنة . (٢) يعزُب : يغيب .
(٣) أهفو : أشتاق . (٤) جِرمها : جسدها .

وحدث مرة أن كنا جميعًا في الصف واقفات ، وأمامنا مدام فوكيه تستعد لإلقاء خطبة موجزة تَعَوَّدنا أن نسمعها منها بين حين وحين ، فأشارت إليَّ أن أخرج من الصف ، وأحسست من حركة يدها ورنَّة صوتها أن هناك شرًّا ينتظرني . وقد صدق حدْسي ، فإن مدام فوكيه رَمقتني بنظرة نكراءَ من نظراتها الذَّميمة ، وقالت عالية الصوت :

« مدموازيل سلوى ، أنت مطرودة منَ المدرسة ؛ لأنَّك لم تؤدِّي النفقات . نحن لا نضيِّف التلميذات لوجه الله ! غادري المدرسة من ساعتك .»

فأحسست بِخزْيٍ شديد ، ولم أستطع رفع بصري لأحد ، وسِرْت في خُطًا آليَّة نحو الباب ، وكأنَّ غمامة قد غَشيَت بصري . وما إن تخطَّيتُ عتبة الباب حتَّى شعَرت بيد تلاطف ظهري ، فرفعت عيني فرأيت مسيو فوكيه يرنو إليَّ في حُنُوٍّ صامت ، فحاولت أن أبتسم له فخذلتني شفتاي .

ولَمَّا عدت إلى المنزل ، وأخبرت أم يونس بالأمر ، صمتت هُنَيهة وهي تحكُّ رأسها ، ثم قالت لي في غير اهتمام : « لن تخسري شيئًا بانقطاعك عن المدرسة ، وهل استفدت منها شيئًا حتى الآن ؟»

فلم أجبها بحَرْف .

وفي غَدٍ ، دخلت على أمّي في حجرتها ، وكانت أمام خِوان الزّينة تتعطَّر ، فبادرتها بقولي : « لا أستطيع العودة إلى المدرسة ، يا أمّاه .»

فلم تلتفت إليَّ ، بل كانت جادة في التَّزيُّن والتطرية ، وقالت : « لماذا ؟»

« لأنَّني لم أؤدِّ النفقات .»

« ولكنَّنا سنؤديها . ألم تخبري الناظرة بذلك ؟»

« لم تعد تصدِّقني . لقد طردتني أمس أمام التلميذات جميعًا شرَّ طرد !»

ولم أكد أنطق بالجملة الأخيرة ، حتّى ملكَني الشَّهيق والاستعبار (1) .

فالتفتت إليَّ أمّي قائلة :

« طردتك أمام التلميذات جميعًا ؟ يا للوقاحة ! مَن تظنُّنا ؟ أ تحسَب أننا لا نستطيع أن نؤدّي لها مطلوبَها التافه ؟»

ثم عادت إلى الأدهان والمساحيق .

وبعد سكتة قصيرة قالت :

« سأذهب إليها بما تطلب غدًا . سأقذفه في وجهها ، وسألقي عليها درسًا عاليًا في الأدب ، وسأعلِّمها كيفَ تعامل بنات الأسَر الكبيرة .»

ومرت ثلاثة أسابيع ، وأنا قابعة في البيت .

وفي الأسبوع الرابع اصطحبتني أم يونس إلى المدرسة ، وهناك لقِيتْ مدام فوكيه وسلَّمتها قسْط النَّفقات . وقضيتُ هذا اليوم ساهمةً صامِتة أشعُر بِهَمٍّ يضغط قلبي ضغطًا . ولم أبادل واحدة من التلميذات كَلِمَة ، حتّى لقد أوجزتُ القول مع مليحة ، لا يُزايل وجهيَ العبوسُ !

وقد تعدَّدت هذه الحادثة أثناء الأعوام الثلاثة الَّتي قضيتها في المدرسة ، وتكرَّر انقطاعي عن الدراسة . وأصبحتِ الأيام الَّتي أقضيها في البيت تعادل أيامَ الذَّهاب إلى المدرسة أو تفوقها .

و وَقَع لمليحة ما وقع لي ، ولكن تَكْراره لم يَكثر كما هو الشأن معي ؛ فإن مليحة ، حين طردتها الناظرة في المرة الثالثة ، فارقت المدرسة إلى غير رجعة .

على هذا النحو قضيت السنين الخمس .

— ٩ —

انقطعتُ عن المدرسة وعدت إلى حياة المنزل ، أعين أم يونس في أعمالها . وكان من محاسِن

(1) الاستعبار : البكاء .

مُصاحَبتي لها أن تعلّمت كيف أفصّل وأحوك ثيابي الخاصّة . وكنت في الواقع في أمَسّ الحاجة إلى ذلك ؛ لاستحالة تكليف الخيّاطة الأجيرة أن تحوك ملابسي . واهتممت مرّة بتفصيل ثوب في زيّ مبتكر ، قضيت فيه أيامًا وليالِيَ ، حتّى غدا طُرْفة بديعة . وكنت قد اقتصدت ثمنَه منَ النقود الضئيلة الّتي كانت تمنحني أمّي إيّاها أحيانًا .

وفي غَداةِ يوم انتظرت أمّي في الرَّدْهة حتّى تصحو لأرِيَها إيّاه . وخُيِّل لي في هذا اليوم أنّها أطالت نومها إطالة غيرَ مألوفة ، فضجِرت وسئمت الانتظار ، وعدت إلى حجرتي .

وجاءتني بعد فترة أم يونس تخبرني أن أمي قد استيقظت ، وأنها تتناول الآن فطورها . فأخذتُ الثوب، ودخلت عليها في حجرتها ، فوجدتها على المتكأ ، وأمامها صينية الطعام ، وتقدّمت منها ، ولَثَمْت يدها ، فدنت من خدّي تقبله ، وعادت تأكل .

فقلت لها : « أماه ، أريد أن أريَك شيئًا .»

فأجابتني في سهوم دون أن تلتفت إليّ : « شيئًا ؟»

« شيئًا بديعًا عمِلْته بنفسي .»

« وما هو ؟»

« ثوب جديد .»

فالتفتتْ إليّ ، وقالت : « أين هو ؟»

فأريتُها إيّاه ، وقلبي بالغُ الخُفوق ، فمدّت يدها إليه ، ولمسته لمسة خفيفة ، ثم لَوَتْ رأسها إلى صينية الأكل ، وقالت : « أنتِ الّتي عملته ؟»

فأجبتها : « أقسم لك ، يا أمّاه ، إنّي أنا الّتي فصلته وخِطته وطرّزته ! هل أعجبك ؟»

فقالت في لهجة هادئة : « حسن !»

« هل أعجبك حقا ، يا أمّاه ؟»

« قلت لك حسن .»

وصدمتني لهجتُها ، فاعتزمتُ العودة فورًا إلى حجرتي ، ولكنّي رأيت أمّي قد تركتِ المتكأ ، وقامت إلى صِوان ملابسها ففتحته ، وانتقت ثوبًا جميلاً بسطته أمامي ، وقالت :

« انظري ، يا سلوى ، هاكِ نموذجًا للثوب البديع .»

وسَرعان ما وجدتها قد خلعت قميص النَّوم ، وارتدت هذا الثوب ، وجعلتْ تستدير أمام المرآة ، وهي تشير إلى مواضع الفتنة فيه مزهوةً تختال ، وقد كان في الحق ثوبًا بديعًا . وبَغْتَة ارتفع صوتُ أمي ينادي أم يونس ، وكانت تشتغل بطَهْو الطَّعام ، فجاءت مسرِعَة وهي تمسح يدها في مِيدَعة [1] المطهى ، و وجهها محتقن من حرّ الموقِد ، والعرق على جبينها يسبح ، فالتفتت إليها أمي تقول لها : « أريد أن تذهبي فورًا إلى الخيّاطة لتأتيَ لي بالثوب الجديد . إنها وعدتني به اليوم .»

فنظرت المرأة مبهوتة ، وقالت : « والطعام ؟ إنه على النار !»

« قلت لك اذهبي من فَورِك وأحضري الثوب من عند الخياطة . سأتولى أنا أمرَ الطّعام .»

وحاولت أم يونس أن تجادل في الأمر ، ولكن صَيْحاتِ والدتي دفعت بها خارجَ الحُجْرة ، فانصرفت تُغمغم في اهتياج كظيم ، ونسيَتْ أحد خُفَّيها الباليَيْن المُمزّقين اللّذين ينافسان في بشاعتهما خُفَّيَّ .

وحجزتني والدتي في حجرتها وقتًا طويلاً ، تريني أثوابها الفاخرة ، وترتدي منها واحدًا بعد آخر أمامي ، وقد أغفلتْ أن تُتِمَّ فطورَها .

وبينما كنّا في الحجرة نعرض الأثواب ؛ تسلّلت إلينا منَ المطهى رائحةُ الطّعام يحترق ، فانتبهتْ أمي للأمر ، وصرخت قائلة :

(١) المِيدَعة : ثوب غير ذي كُمّيْنِ يُلبس فوق الثّياب وِقاية له من وَسَخِ العمل .

« أَوَ أهملت القِدْر ، يا سلوى ؟ ما أشدَّ نسيانك ! »

فهرولتُ إلى المطهى ساخطة ، فوجدت مُعظم الطعام قد أفسده الاحتراق .

وفي غدي ، بينما كنت مرتدية ثوبيَ الجديد أطالعُه في المرآة ، دخلتْ عليَّ أمّي . وإذ رأتني على هذه الحال ؛ رَمقتني بنظرة غريبة ؛ وتمتمت قائلة : « دائمًا أمام المرآة ؟ دائمًا ! »

ورأت على المِنضدة ورقة مَشابك الشعر ، فتناولتها وخرجتْ ؛ فهُرعت إلى أم يونس والدَّمع يتحيَّر في عينيَّ ، وقلت لها : « لقد أخذتِ اليوم ورَقة المشابك ؛ ومنذ أيّام أخذتْ لفافة الخيط وعلبة الإبر ؛ ولم تُعِد إليَّ المِقَصَّ الَّذي استعارته منّي من قبل ، وادَّعت أنّه ضاع . إنها لا تُطاق ! »

فقالت لي أم يونس : « هَدِّئي ، يا بنية ، من روعك ؛ إنها أمك ! »

« أمي ؟ أمي ؟ »

« خفِّضي من صوتك ، يا سلوى ! »

« ولماذا أخفِض من صوتي ؟ أ تظنّين أنها هنا ؟ »

« هل خرجت ؟ »

« اذهبي وانظري . »

ورأيت أم يونس تهرولِ خارجة ، ثم عادت تجُرُّ نفسَها وهي تبرطم . فقلت لها : « ماذا ؟ »

« لقد خرجت دون أن تترك لي نفقة المنزل . »

وبعد صَمْت قصير واصلَت قولَها كعادَتها : « يا حبيبتي ، لقد اقترضْتُ أمسِ ريالاً من جارتنا الست حسنة ، وأوَّل أمس اقترضتُ ريالاً آخَر من الحاجة شفيقة . »

فقاطعتها قائلة : « واليوم الذى قبله اشتريت أنتِ لوازم الطعام من نقودِك الخاصة . أ لم أقل لك إنَّها لا تُطاق ؟ »

فمسحت أم يونس بِميدعة المطهَى وجهها المحتقن ، وغمغمتْ : « لا بأس ، يا بنتي ، يغير الله من حال إلى حال . »

وجاءت الدادة شيرين ذات يوم من قِبَل سنية تدعوني إلى زيارتها ، فذهبتُ إليها في ثوبي الجديد ، فأعجبت به سنية وهنأتني بحياكته ، وقضيتُ اليوم عندها على مألوف العادة . وما إن حان موعد أوْبتي حتى سارت بي سنية إلى صِوانِ ملابسها ، وكان يزخر بِفاخر الثياب ، وأخرجت من بينها ثوبًا من الحرير الأخضر غاية في الطَّرافة والإبداع .

وقالت لي في بساطة : « كيف ترين هذا الثوب ؟ »

« أحسنُ من ثوبي ألفَ مرَّة ! »

« لستُ عن هذا أسألك ، لم أخرجه لك لتشاهديه. هل أعجبكَ حقا ؟ »

« جدًّا . »

فهمستْ في أذني : « إنَّه لك . أرجو أن تقبليه مني هَدية أختٍ . »

فاحمرَّ وجهي ، وقلت مؤكدة :

« كلا ، كلا ، لست في حاجة إليه ! »

فاكتأبَت سنية وقالت :

« أ تَردّين هدية أقدِّمها إليك ؟ أقسِم إني لم أرتَدِه بَعدُ . »

وألحَّت عليَّ في قبوله ؛ والدمع يترقرق في مآقيها ، فلم أرَ بُدًّا من أخذه .

ولَمّا عدت إلى منزلي ، أخرَجت الثوب من عُلبته في احتراس ، وبسطتُه بين يَديَّ ، وأنا به شديدة الإعجاب ، ثم ارتَديْته ، وجعلت أروح وأجيء أمام المرآة طويلاً منَ الوقت ، ولكنّي وجدتُني أتوقَّف ويستغرقني تفكير مضطَرب ، ويغمر الهمُّ نفسي ،

وَسرعان ما شعَرت بكُرْهٍ شديد للثّوب ؛ فخلعته وقذفت به في عُرض الحجرة .

ودخلت أمّي في تلك اللّحظة ، وألقت نظرة فاحصة ، عليّ مرّة وعلى الثوب أخرى ، ثم انحنت تلتقطه وجعلت تقلّبه بين يَدَيْها .

ثم سألتني في لهجة هادئة: « لِمَن هذا الثوب ؟»

« لقد أهدَته سنية إليّ .»

« وهل في عزمِك أن تلبَسيه ؟»

« وماذا عليّ في ذلك ؟»

« وهذه الفُتْحة الّتي تكشف شَطْر الصّدر !»

« أ في هذا عَيْب ؟ إنه كان لسنية من قبل ، ولم يعارض أبوها في شرائه لها .»

فصاحت أمّي : « أبوها ! وهل يفهم أبوها شيئاً من أمْر الثّياب ؟ ومع ذلك فإنّي أؤكّد لك أنه لو رأى ابنته مرتَديَةً هذا الثوب لَمزّقه على جسدها .»

« أ حقا ؟»

« أؤكد لك ذلك .»

وهنا بدت من أمي ثورةٌ عصبيّة ، لا أدري كيف أثارتْها ، وما الباعِث عليها . وأخذت تلقي عليّ درساً في الحشمة ومُراعاة الآداب العامّة .

فما إن انْتهت من درسها ، حتى قلت لها في بساطة وهدوء :

« إنك تحاولين منعي من ارتداء هذا الثوب ، لأنه مفتوح الصدر ، في شكل مُجانِب للحشمة ، على حين أنّ الثوب الذي فصّلْتُه بيدَيّ يُظهِر منَ صدري أكثر ممّا يُظهر ثوبُ سنية ، وقد شاهدتِ ثوبي ذلك ورضيتِ عنه .»

فرمَقتني أمي بنظرة شَزْراءَ ، وقالت : « يا لَضَيْعَة نصائحي معَك ! لم أرَ في حياتي ابنة في مِثل صلابة رأسك وعنادِك .»

ثم رأيتُها ترمُق الثوب ، وسَرعان ما خرجت منَ الحجرة تحمِله في يدها . و وقفتُ مشدوهة أراقِبها ، وهممتُ أن أجْريَ خلفَها أسترجعه منها ، ولكنْ عاقني عن ذلك عائقٌ لا أدري له كُنْهًا .

وبعد أيام وجدتُ أمي قد ارتدت الثوب ، بعد أن أجْرَت فيه بعضَ إصلاح ، وكان لائقًا بها ، كأنّما فُصِّل خاصّةً لها ، فتبادلنا بِضْع نظرات ولكنّنا لم نتحدّث في شأن الثوب أيّ حديث .

— ١٠ —

كانت حجرة سنية حالية بفاخِر الأثاث والرِّياش ، يُزيِّنها سَرير غاية في الإبداع . وكنت في زيارتي إيّاها أقف أمام هذا السرير أتأمله ولا أمَلُّ التأمُّل ، ويَلَذُّ لي كثيرًا أن أتمدَّد عليه ، فأحِسُّ بأنني انتقلت إلى عالم سحريٍّ تَشيع فيه أحلام ذهبية جميلة .

واستلقيتُ مرّةً على السرير بجوار سنية ، أصغي لما تقصّه عليّ من أنباء شريف ، فشعَرنا بالباب ينفَتح بَغْتَة ، ورأينا شبحًا طويلاً ضامرًا يدخُل ، ولكنّه ما كاد يلمَحُنا في السرير راقِدتَين حتّى ارتَدَّ يَهمُّ بالخُروج ؛ فسمعتُ سنية تَصيح مناديةً : « حمدي ، حمدي : تعالَ .»

ورأيت طيف حمدي يعود مُتعثّرًا في مِشيته . وسمعته يجمجم :

« المعذرة ... المعذرة ! لم أكن أعلم . الدّادة شيرين هي التي قالت لي ...»

وقفزنا من السرير ، وأقبلنا عليه ، نبالغ في التّرحيب به ، وكنت لم أره منذ زمن طويل . ولَمّا انتهت عاصِفة التّحيّة ، وقفتُ أتأمّلُه وأنا صامتة ، فألفَيتُه قد ازداد نحافة ، وبَرزتْ عِظام وجهه بروزًا يكاد يَشُقُّ الجِلد . ولَمّا أمسكتُ بيده أهزُّها ، خُيِّل إليَّ أنها هَشّة كالعُود اليابِس ، تكاد تنقَصِف في يدي .

وكان هِندامه يدُلُّ على رقّة حاله واستبانة فقره .

فقلت له في تأثُّر : « كيف حالُك ، يا حمدي ؟»

فأجابني وقد ابتسم ابتسامة سانِحة: « الحمد لله .»

« ماذا تفعل الآن ؟»

« إنّني أعطي دروسًا في الموسيقى والرّسم لبعض الطّلبة .»

« ولكنّك لم تَستكمِل دروسك في المدرسة .»

« منعتني أسباب كثيرة ، أهمُّها المرض .»

وظهر عليه الارتباك ، ففَطِنْت إلى الحقيقة . وأردت أن أصرِف الحديث إلى منحًى آخر ، فقلت : « وأين تسكن ؟»

فأسرعتْ سنية تجيب : « يسكن آخرَ الدنيا ، في الهرم .»

فقال حمدي : « في قرية عند آخر خط التّرام ، حول الهرم .»

وصاحت سنية : « إنه يعيش فردًا في منزل صغير هنالك .»

فقلت : « يا لله ! تعيش فردًا في آخر الدنيا ؟ ألا تخشى أن يصيبك أذًى ؟»

« لا أخشى شيئًا .»

« ألا تشعر بالملل من وحدتِك ؟»

« إن أعمالي كثيرة لا تسمح للملل أن يتطرّق إلى نفسي .»

فقلت وأنا أحدّق فيه متفحّصة : « أ سَعيد أنت بحياتك هذه ؟»

فقال ، وهو يعبث بزرِّ سُترته ، ناظرًا إلى جهة أخرى :

« إني راضٍ عن حياتي على كلِّ حال .»

وهنا علا صوت الدادة شيرين تنادي سنية ، فخرجتْ مُهَرْوِلة . وهمَّ حمدي بأن يلحَق بها ، فقلت له : « ماذا تريد منها ؟»

« لديَّ كتاب جاءني من شريف ، وقد رغِب إليَّ في أنْ أُطْلِعها عليه .»

« إنها راجعة إلينا . أ متعجِّل أنت ؟»

« كلا ، كلا . ولكن يجوز أن يكون في وجودي ما ...» ثم تعثرت الكلمات على شفَتَيه ، وصمَت .

فقلت : « ماذا ؟ أتمِمْ ، تكلّم .»

فرفع إليَّ عينيه ، وقال : « قد يكون لدى سنية بعض أعمال ، واجبات . لا أريد أن أعَطِّلها عمّا هي منصرِفة إليه .»

« خلِّ عنك ؛ إن سنية لا تشغل نفسها بشيء إذا كان عندها ضيوف .»

وغَشِينا الصّمت وقتًا ، وكنت أنظر إلى حمدي نظرات تفحُّص ، فإذا بوجهه يحمِل طابعَ الأسى والقلق ، ثم ألفَيْته ينظر إليَّ خُلسة ، وتلاقت عيوننا غيرَ مرة دون كلام ، ورأيت ابتسامة مضطربة تسنح على فمه ، ثم حوَّل بصره عني ، وقال مُهمهِمًا : « وأنتِ ؟ كيف أحوالك ، يا سلوى ؟»

« لا بأس .»

« وكيف أمضيتِ حياتك بعد انتقالك إلى القاهرة ؟»

« كَسائِر النّاس ، لا شيء في حياتي يستحقُّ الذِّكر .»

و وجدتُني أقصد إلى النافذة ، متَّئِدةَ الخَطْو .

وتبِعني حمدي فوقفنا نتطلّع إلى الحديقة .

وسمعته يقول : « يبدو لي أن حديقة منزل الإسكندرية أحسن من هذه الحديقة وأجمل .»

فقلت وأنا على حالي أتطلّع :

«كلُّ شيء في الإسكندرية كان أحسنَ وأجمل.»

ثم نظرت إليه قائلة: «ألا توافقني على ذلك ؟»

فقال خافِضَ الصَّوت : «إنَّك على صواب .»

«حياتنا في الإسكندرية كانت أسعد وأطيب .»

«أغير راضيَة أنتِ عن حياتك الآن ؟»

«راضِية أو غير راضية ، هذا لا يُغيِّر الوضع الَّذي أنا فيه .»

«أتُلاقين في حياتك بعضَ المضايقات ؟»

«بل قُلْ كلَّ المضايقات .»

«ماذا ؟»

«لقد تركتُ هَناءتي كلَّها هناك ، في الإسكندرية ، في ذلك المنزل الصغير الَّذي كنت أعيش فيه مع جدّي و الحاج مسرور .»

«لا تَرْكَني إلى الماضي كثيراً ، يا سلوى ؛ إنَّه لن يعود . تطلَّعي إلى المستقبل .»

«أيُّ مستقبل ، يا حمدي ؟»

«كل فتاة في مثل سنِّك تتطلع إلى المستقبل ، المستقبل الزّاهر المشرِق .»

«إنّي أعيش في الظَّلام ، وأحسب أني سأقضي حياتي كلها رهينةَ هذا الظلام .»

فدنا منّي ، وأخذ بيدي يلاطفني ، وهو يقول : «يسوءُني أن أسمع منك هذا الكلام . كنت أحسَب أنَّ حياتك مع والدتك قليلة المتاعب .»

«قليلة المتاعب ! أرجو منك أن تترك الحديث عن والدتي ، إنها في وادٍ وأنا في واد آخر ! إني أعُدُّ نفسي في هذه الدنيا بلا أهل .»

فصمتَ قليلاً ، وهو يرنو إليَّ ، ثم جمجم : «ولكن لك أصدقاء . ثقي أن من الأصدقاء من هم أفضل من الأهل ، تستطيعين أن تُعوِّلي عليهم وأن تركَني إليهم ، فيكونوا لك عونًا أيَّ عون .»

«وأين هم هؤلاء الأصدقاء ؟»

فابتسم قائلاً : «يا عجبًا ! أتُنكرين وُجودَنا ؟»

«معاذَ الله ! ولكن ...»

«ألا تثقين بإخلاص شخص مثلي ؟»

«كل الثقة ، ولكن ما الَّذي تستطيع أن تفعلَه من أجلي ، يا حمدي ؟»

فقال في شيء من الحماسة : «إن المرء إذا أخلص النيَّة وامتلأ قلبُه بالإيمان ؛ استطاع أن يفعل كثيراً .»

فحدَّقْت فيه أتفحَّصه ، وأتأمَّل ما يعانيه من متاعبَ نفسيَّة وماديَّة بادية على مظهره ، ناطقة بها عيناه الذابلتانِ ، ورُحت أسائل نفسي :

«ماذا يستطيع أن يقدِّمه لي هذا الصديق المنكود الحظ ؟»

وهَمَمْت قائلة ، وأنا أشدُّ على يده :

«أشكر لك شعورَك الطيِّب نحوي ، يا حمدي .»

وكان يرقُبني في اهتمام ، فما إن سمع قولي ، وما شاع فيه من نغمة يأس ، حتّى خَفَضَ مِن بصره ، وأخذ يعبَث بزرِّ سترته .

وصَمتنا لَحظة ، ثم عاد يقول: «على كل حال ، لن تطول إقامتك مع والدتك .»

«ماذا تعني ؟»

«سيحِلُّ الوقت الَّذي تتركين فيه منزل والدتك إلى منزل ... إلى منزل زوجك !»

فقلت ساهمة النظرات :

«لا يحلُّ هذا الوقت قريبًا ، بل يجوز ألا يحلَّ أبدَ الدَّهر .»

«لماذا ؟»

«لا أدري . هذا شعوري الخاصُّ .»

« إنه شعور باطل بلا شك . إن فتاة في مثل بهائك ونضارتك يُسارع إليها الخاطبون أفواجًا .»

« أشكر لك حُسْنَ ظنِّك ، ولكنَّك تُبالغ كثيرًا فيما تقول .»

« ثِقي أنْ ليس في قولي ذرَّة من المبالغة .»

وأخذ يتوسَّمني لحظة ، ثم قال في صوت خافت لا يخلو من رِعشة :

« شدَّ ما يكون الزوج سعيداً بك .»

« أ تظنُّ ذلك ؟»

« بل أؤكِّده .»

وصمت قليلاً ، ثم قال : « والَّذي أرجوه هو أن تسعَدي به أنت أيضًا .»

« هل لكَ أن تخبرني ما هو نوع الزوج الَّذي يستطيع أن يُسعِدني ؟»

« هذا مَوكول إليك ، إلى شعورك ، إلى رَغائبك .»

ثم أخذ يُصعِّد فيَّ بصَره وقتًا ، وما لبِث أن رَنا إلى الأفُق ، وقال مُهينمًا :

« يبدو لي أن الزَّوج السَّريَّ الميسور هو أصلح الأزواج لك على وجه خاص .»

فتضاحكتُ وأنا أقول : « إذن فلتبحث لي عنه .»

وأقبلتْ في هذه اللحظة سنية وهي تتصايح وتضجُّ مَرَحًا. وما هي إلا أن قالت : « ماذا كنتما تقولان ؟»

فقلت على الأثَر ، وأنا أتضاحك :

« لقد اعتزم حمدي أن يخطب لي زوجًا من أهل الثراء والغنى .»

فازداد مرح سنية وتصايحُها ، وقالت :

« إن حمدي في هذه المهمة من الطِّراز الأول .»

و وجدته يتكلَّف الابتسام تكلُّفًا .

ثم تقدَّم من سنية وقد شاع الجِدُّ على قسمات وجهه ، وقال : « المعذِرة ، يا سنية ! إن زيارتي طالت ، وقد جئت في أمر يخصُّكِ .»

« يخصُّني ؟»

فأخرج من جيبه كتابًا ، وقدَّمه إليها قائلاً :

« هذا كتاب جاءني من شريف ، به شيء يهمُّك .»

فأشرق وجهُ سنية ، وأخذت منه الكتاب ، وجعلت تقرؤه في اهتمام ، فانسللتُ قاصدة إلى النافذة أطِلُّ على الحديقة .

ولم تفطِن سنية إلى انسلالي إلا بعد أن أتمَّتْ قراءة الكتاب ، فصاحت بي :

« لماذا تركتِنا ؟ هل أخفيت عنك سِرًّا من قبل ؟»

وفي هذه اللحظة دخلت مدموازيل شانتل الحجرة، فأسرعتْ سنية تخفي الكتاب في صدرها ، وتقدَّمت المدموازيل وهي تسير في كِبرياء وشموخ أنف ، ممسِكةً بيدها اليمنى مَقبِض مِنظارها العاجيِّ وقد أحكَمتْ وضعه على عينيها ، ثم مدَّت يدها دون كلام إلى صدر سنية ، وأخرجت منه الكتاب .

وتجلَّى لي في هذا الوقت ما يبين على وجه مدموازيل شانتل من بشاعة ، فإنَّ رَقَبَتها الدقيقة ذات الجلد المقفَّع المُجعَّد كانت أشبهَ شيءٍ برقبة الصَّقر الهَرِم، وإن عينيها الجاحِظَتين اللَّتين ترمُقنا بهما كانتا تمثِّلان لي عينَيْ بومة شَوْهاء .

والتفتت مدموازيل شانتل إلى حمدي وهي تداعب الكتاب في يدها ، وقالت له رامية إيَّاه بنظراتها المتوقِّدة : « متى جئتَ ؟»

« منذ نصف ساعة .»

« لم أسمع بقدومك .»

« إن الدادة شيرين ...»

فقاطعته قائلة :

« ليس للدادة شيرين أن تُصدر أوامر في هذا

المنزل .»

فلم يجبْها حمدي ، ودنا منّا يحيّينا في أدب بالغ ، وانصرف دون أن يعيرَها أيَّ التفات .

فرأيتها تدمدِم قائلة :

« وقح ! ناقص التربية !»

ثم مشتْ إلى سنية في خطوات صارِمة ، وقالت لها وهي تتشدّق بكلماتها :« أحرِّم عليك لقاء هذا الولد . أ سمعتِ ؟»

وكانت سنية واقفة كالتِّمثال لا تُبدي حَراكًا.

ورأيت وجهها قد احتقن ، وعينيها قد اغْرَوْرَقَتا بالدُّموع ، وشفتيها تضطربان بلا إفصاح .

وخرجتْ مدموازيل شانتل في تعاظُم وخُيَلاء ، وهي ممسكة بيدها مَقبض منظارِها العاجيِّ .

وما كَادت تختفي ، حتّى ارتمتْ سنية على السَّرير يملِكُها البُكاء .

— ١١ —

جلستُ في حجرتي قُبالَة النافذة أرَجِّل شعري بعد خروجي من الحمّام ، وكانت الشمس الوهّاجة تبعث بأشعّتها ، فأشعر بحرارتها ونورها ينفذان في أوصالي . وما هي إلا أن دخلت عليَّ أم يونس ولبثتْ هُنَيْهة تحدِّق فيَّ وهي تبتسم ، فقلت لها : « لماذا تنظرين إليَّ، يا أم يونس ؟»

فأجابت وعيناها تزدادان إشراقًا :

« يحرُسك الله ! لقد أصبحت حسناءَ مِلءِ العين فتنة وبهاء .»

فنهرتُها ، فانصرفت عنّي ، فمضيت إلى المرآة ، أنظر فيها إلى نفسي وأنا محبورة فخور . حقا لقد استطال قوامي ، وامتلأتْ أوصالي ، وعلى وجهي رونقٌ ورُواء ، فكأنّي في الثامنةَ عشرةَ من عمري .

وطافت برأسي كلمة حمدي :

« إن فتاة في مثل شبابك وبهائك ليسارع إليها الخاطبون أفواجًا .»

وإذا بجسمي تشيع فيه رَخاوة وفتور ، فأحسست رغبة في العزلة والاعتكاف . وسَرعان ما لزِمتُ حجرتي ، وتمدَّدتُ على السرير . تبا له من سرير يُقِضُّ المَضْجع! إني لأُطلِق لأفكاري عِنانها. إنها وقائع وأحلام متلاحقة مشتبكة ، شاهدت فيها أطياف سنية وشريف و حمدي . و وجَّهْتُ تفكيري لحظات إلى حمدي ، وبدت لي صورته وهو في شحوبه ومظهره البائس ، ونظراتِه الّتي تجلّى فيها عطفُه عليَّ. وتذكَّرت قوله : « إن الزوج الموسِر السَّرِيَّ هو أصلح الأزواج لك !»

وانطلقت في أحلامي وقضيت يومي أجمع ، لم أبرح حجرتي إلا لتناول الغداء والعشاء .

ولاحظتْ أم يونس عليَّ سهومي وتفكيري وعزوفي عنِ الطعام إلا أقلَّه ، فدنت منّي بعد العشاء تقول : « أ مريضة أنت ، يا حبيبتي ؟»

فأجبتها : « ليس بي مرض .»

« إذن أنت تتدلّلين .»

فنهضت أتركها تجمع الصِّحاف ، وأوَيت إلى حجرتي ، وفتحت صِوان ملابسي ، وأخذت أقلِّب ما فيه ، ثم دفعت باب الصوان بشدَّة ، فكاد لِقدمه ينخَلع ويتحطم. وذهبت إلى النافذة أُروِّح عن نفسي ، واستندت إلى حافّتها ، وكانت الحجرة لا ينيرها إلا بصيص من نور المِصباح المنبعث من الرَّدهة ؛ فراقني أن أظَلَّ في الظَّلام ، وأن أتسلّى بالنظر إلى ما يجري في الحارة . ولكن أيّة تسلية رَغِبت فيها ؟ كانت الحارة حالكة السَّواد موحشةً صامِتة ، كأنّها قبر يُخفي بين حناياه جُثثًا هامدة . ولقد حسِبتُ نفسي في هذه اللَّحظة ميِّتة مُدْرَجة في كَفَنِها بين مَوتى .

وشعَرت بأم يونس تدخل الحجرة ، ورأيتها تقترب منّي وتقول :

« ماذا تفعلين هنا منفرِدة في الظّلام ؟»

« أستَريح .»

فانبعثت من فمها ضحكة خاطفة ، وقالت :

« تستريحين ؟ أيُّ عمل كنت تقومين به فأورَثَك التّعب والإجهاد ؟»

وكانت في لهجتها مَسحة التّهكّم والتأنيب ، فرفعت رأسي إليها ، وقلت :

« ماذا تعنين ؟»

« لم تشغَلي يَدَك اليوم بأيِّ عملٍ معي .»

فأجبتها في شيء من الحِدّة :

« ماذا تَعدّينني ، يا أم يونس ؟ أ خادمة أنا في هذا المنزل ؟»

فأدهش المرأة أن تسمع منّي ما سمِعتْ ، وأرادت أن تتكلّم ، ولكنّها لم تنطِق بحرف . ورأيتها تحرِّك أصابعَها حركات آليّة ، ثم انحنت على الأرض ، تلتقِط الخيوط وقُصاصات الورق ، ثم خرجتْ في صمت .

وازداد على أثر خروجها انقباضي ، وثارت في نفسي ثورة عمياء على سنية و حمدي . وأحسَسْت كأن ناراً مَشْبوبة تسري في ضلوعي . وظَلِلْت أغْلي كالمِرجَل ، وقد اتّسع نِطاق ثورتي ، فاستشعرت كُرهًا شديداً للدُّنيا بأسرها ، ولنفسي أيضًا. وعدت إلى فراشي ، فارتميتُ عليه ، وانطلقت أنشِج وأسحُّ من عينيَّ الدّمع السخين .

وأسلمني البكاء إلى طُمأنينة وراحة ، كأنما قد ألقيت عن صدري بعض ما يَجثِم عليه من هُموم ثِقال. وقُمْت إلى النّافذة ثانيًا ، فاستندت إلى حافَتها، وجعلت أسرِّح النظَر في الحارة ، أستدرُّ من ظلامها الدامس وسكونها الموحش وَحْيَ أفكاري ، فما أسرع أن تَمَثّل لعينيَّ مرّة أخرى منظرُ تلك المَقبرة الّتي تختزن بين شعابها رُفات الأموات .

وظلِلْت على هذه الحال وقتًا . وأخيرًا تناهى إلى مِسمعي حوافر خيل تقرع أرض الحارة ، كأنها تقول لسكانها :

« إن العالم ما زالت فيه بقية من حياة .»

فسدّدتُ عينيَّ صوبَ الصّوت ، فإذا بأشعة هزيلة تتطاير من مِصباحين عن يمين وشمال . وظهرت بعد قليل مَرْكبة أجرة يجرُّها جَوادان ، وكأنها بهيكلها الأسود قِطعة قُدَّت من الحَلَك . وفرحتُ بمَقْدَم هذه المركَبة ، إنها حدث جديد في الحارة هذه الليلة .

ورأيتها تقترب من منزلنا ، ثم تقف ببابه ، وانبعث منها صوت امرأة ، ثم تلاه صوت رجل ، وكانا يتكلّمان في حِدّة لهجة ، وما هي إلا أن قفزتِ المرأة من المركبة ، فعرفتها على الفور . إن نور المصباحين على ضعفه قادر أن يَجْلُوَ لعيني المشاهد والشُّخوص . وأمسكتُ بحافَة النافذة وقلبي دائب الخُفوق ، وانثنيت برأسي قليلاً إلى الوراء أخفي نفسي .

كانت هذه القادمة في زيٍّ يُجانِبُ الاحتشامَ ، شعر أشعَث وملابس شبْه ممزَّقة تكشف جوانب منَ الجسد . ورأيتها تُسرع في الدُّخول مُهْتاجة الخَطْو ، وقفز الرجل من المركبة يتبعها ، ولكنّها كانت قد سبقته بالدخول ، ودفعت الباب وراءها تغلقه في وجهه . وسمعت الرجل مدمْدِمًا يدُقُّ الباب ، ثم عاد أدراجَه إلى المركبة يغمغِم بعبارات التّهديد والوَعيد .

وهُرعتُ إلى باب حجرتي أنصِت خلفه ، فإذا بأمّي تصعد الدرج مضطربة الأنفاس ثائرة الأعصاب، وهي تنفث ألوانًا من السباب في لهجة نكراء . وأويت إلى مرقدي تثور بي الوساوس ، ونمت ليلتي تساورني أخلاط أحلام .

فلمّا استيقظت في طلعة الصبح ، وَثَبَ إلى خاطري هذا السؤال :

« من الرجل الّذي رأيته في جوف الليل يُشيّع أمي يتهدّد ويتوعّد ؟»

وشعَرت بعِبْء فادح تنوء به نفسي . وذهبت إلى حجرة الخزن (الكيلار) أتناول فيها فطوري ، فلقيت هناك أم يونس تعمل ، فأغضّت عنّي ، فقابلتُ إغضاءها بمثله ، وشرَعت آكل دون أن نتبادل الكلام. ولاحظت أنّها كانت بين الحين والحين تنظُر إليّ من طَرْف خفيّ .

وتظاهَرتُ بالبحث عن السكّر ، ثم صحت أخاطب نفسي :

« يا لله ! أين وُضع السكر ؟ إنني لا أجده ! »

فأحضرت لي أم يونس العُلبة ، و وضعتها أمامي في صمت ، فأصبت منها حاجتي ، واستأنفت الطعام .

ولَمّا طال صمتُنا طفِقت أغنّي ، فسمعتُ أم يونس تقول وقد أشاحت عني بوجهها كأنها تخاطب نفسها:

« لا تُعلي صوتك ؛ إن أمَّك اليوم مريضة.»

فقلت دون أن أحرك ساكنًا : « مريضة ؟ وهل تناولتْ فطورها ؟»

« نعم ، تناولته في شهية ، ولكنّها أخبرتني بأنها مريضة ، ورغبتْ إليّ في أن ألتزم الهدوء .»

ولَمّا انتهيت من فطوري تركت الصّحاف على غير عادتي دون أن أغسِلها ، ورأيت أم يونس تتقدّم وئيدة الخطوات من المائدة ، فتجمع الصحاف وهي تتنهّد ، ثم تمضي بها إلى الحوض .

وتركتُ حجرة الخزْن وأنا مزهوّة ، وقد تجلّى لي أني قادرة أن أعيش وَفق هوايَ ، لا يتحكّم في مشيئتي أحد .

ومررت بحجرة أمّي ، فوجدتُ بابها مفتوحًا فولَجت فيه ، وذهبت إلى أمّي ، فألقيت عليها تحيّة الإصباح ، وكانت متمدِّدَة على المتّكأ الفسيح تدخّن، ثم قلت لها :

« لقد أخبرتْني أم يونس بأنك مريضة . كيف حالك ؟»

« إني متعبة ، وبرأسي صداع .»

وتبيّنتُ في وجهها عُبوسًا ، وفي عينيها احمرارًا ، وعلى خديّها آثار الدّمع المذروف ، ولم تكن قد اتخذتْ زينتها بعدُ . يا لله ! شدَّ ما هي دميمة زَرِيّة! أ هي حقا تبلغُ هذا المبلغ منَ الدّمامة ؟ إن التّجاعيد لتفتكُ بقَسمات وجهها في غير مَرْحَمة ، وإن عينيها لتبدوان خابيَتَين لا يرفُّ لهما بريق ، وإن شعرها ليشبه في نصوله وذبوله شعر العجائز اللّواتي طَحنتهنّ السّنون !

واقتحَم مخيّلتي في هذه اللّحظة شَبَحُ الرّجل الّذي كان يرافقها في مركبة الخيل ، فخفضت بصري ، وأحسستُ قلبي يدق .

وبعد هُنَيْهة شاع فيها الصّمت قالت أمّي وهي تنفُث دُخان لفافَتها : « ما لَكِ ، يا سلوى ؟ أ مُتْعَبة أنتِ أيضًا ؟»

فوجَدتْني أرفع إليها بصري وأقول : « أصابني اللّيلة أرَق شديد .»

« أرَق ؟ لماذا ؟»

« لا أدري . إن ضيقًا شديدًا لازمني آناءَ الليل .»

« لأنّك تُرهِقين نفسَك بالتّفكير في أمور لا يسوغ لك التفكير فيها .»

« أمور لا يسوغ لي التفكير فيها ؟»

« إني خبيرة بقلوب أمثالك من الفتيات . أنصح لك ألا ترهقي نفسك بهذه الأفكار !»

« أيّة أفكار ؟ أنتِ واهمة ، يا أمّاه . قد يكون مَبْعث هذا الضّيق ما أرهق به نفسي من القيام بأعمال المنزل والانكباب على الخياطة .»

« دائمًا تَشْكين من متاعبَ لا وجودَ لها . إن غيرك ليحسدُكِ على حياتك النّاعمة الهادئة .»

« حياتي النّاعمة الهادئة ؟»

« أنت بعيدة الأطماع ؛ وهذا هو مَثار متاعبك. يجب أن تكوني قَنوعًا راضية بما قسم الله لك .»

« لا اعتراض لي على ما قسم الله .»

« أمّا أنا فقد بذلتُ كل ما في وُسعي لإسعادك . أ تظنّين أن ما أنفقه عليك في المدرسة قليل ؟»

فلم أجِبْ ، ولو سَمَحْتُ لنفسي أن أخوض في حديث المدرسة لَجبهتُ أمي بما تكره من قول . ورأيتها تشعل لِفافة أخرى وتسند رأسها إلى وِسادة المتّكأ ، وتحدّق في سقف الحجرة وهي تنفُث الدُّخان ، ثم قالت :

« إن ضميري مطمئن لما أفعله من أجلك ، ولكنّك لا تقرّين بالجميل .»

فلم أعلّق على قولها بشيء ، وصمتت هي أيضًا ، ولكنّها دأبت تدخّن محدّقة في السقف . وكنت أنعِم إليها النّظَرَ متأمّلة ما في بشرتها الدّكناء من غُضون وأخاديد . وعادت مشاهد الليل تستبدّ بتفكيري ، وشعرت بالقلق يغمر ما بين ضلوعي . وخيّل إليّ أن الدُّخان المنبعث من لِفافة أمّي أصبح متكاثفًا كالغَمام المركوم ، يطبّق أرجاء الحجرة جميعًا .

وأردت الخروج لاستنشاق الهواء النقيّ ، ولكنْ وجدتُني بغتة قد هَبَطت على المتكأ ، وأمسكت يَدَ أمّي أقول لها :

« لقد كنت أنا الليلةَ يَقْظَى لم أنَمْ ، وقد رأيتُ ما جرى !»

فرأيت اللُّفافَة تهتز بين أناملها حتى تكاد تسقُط . وسَرعان ما التفتت إليّ تقول ، وقد ازدادت عيناها احتقانًا : « الليلة ؟ وماذا رأيت ؟»

فتشبّثتُ بيدها ، وقلت : « مَن يكون هذا الرجل، يا أمي ؟»

« أيُّ رجل ؟»

« ذلك الّذي كان يلاحقُك متهدّدًا متوعّدًا !»

فاجتذبت أمي يدَها منّي ، وقالت في اهتياج : « أ كنتِ تتجسّسين عليّ ؟»

«كنت ساهدة ، فقمت إلى النافذة أروّح عن نفسي !»

وعادت أمي إلى لِفافتها تدخّن ، وقالت في لهجة راجَعها شيء من الهدوء : « اطمئنّي . إنك لم تكشفي سرًّا عظيمًا . الرّجل الّذي شاهدته يلاحقني ما هو إلا وكيل من وكلاء أعمالي ، طَردتُه لإهماله وتفريطه ، هذا هو كلُّ شيء . والآن أنصحُ لك ألا تهتمّي إلا بشئونك ، بشئونك الخاصّة ، واجتهدي أن تنامي مبكرة ، كما تنام كل الفتيات اللاتي في سنّك . أ سمِعتِ ؟»

وقمت تاركة حجرتَها وأنا صامتة ، وسِرت متمهّلة ، والهواجس تَنتهِبُني ، ورُحت أفكّر : هل من عادة الوكلاء أن يلاحقوا أصحابَ أعمالهم في صميم اللّيل على هذا النحو المرذول ؟ فقصدت إلى أم يونس في المطهى ، وكانت مشغولة بقَطْع اللّحم وقَشْر الخُضَر ، فلمّا رأتني نظرت إليّ صامتة ، ثم قالت في تحفظ وقد عادت إلى عملها : « أ في حاجة أنت إلى شيء ؟»

فجلست على مَقعد هناك وقلت : « لا حاجة بي إلى شيء .»

واستغْرقتُ في صمتي ، والحَيْرة والقلق يستوليان

عليَّ . وبعد قليل رأيت أم يونس قد اقتربت منّي وقالت في تَرفُّق :

« أنت على غير عادتِك . ما بكِ ؟»

« لا شيء .»

« لا تحاولي عَبثًا أن تخفي عنّي همَّك .»

فتنهَّدْتُ وقلت : « إنه سِرٌّ لا أستطيع أن أبوح به لأحَد .»

« حتّى لي ، أنا مربيتُك المخلصة ؟»

« مَن يدري ؟»

فضربتْ صدرَها ، وقالت : « هل عهدتني نمّامة أعبَث بالأسرار ؟»

فجذبتُها من ذراعها بلُطف ، وأجلَستُها بجواري ، وانحنَيْتُ عليها هامسة : « مشهد عجيب رأيته الليلة اتفاقًا .»

« أيُّ مشهد ؟»

فانطلقت أروي لها حادثة المَركبة مفصَّلة أدقَّ تفصيل ، فظهر الامْتِعاض على وجهها ، وقالت وهي تنهض :

« أنصح لك ، يا بنتي ، أن تنسَي ما رأيْتِه .»

فقلت لها : « مَن يكون هذا الرجل ؟»

« تسألينني أنا ؟ وهل أدري مَن هو ؟»

« لقد سألتُ أمّي عنه ، وأخبرتُها بكل ما رأيت ، فقالت لي إنَّه وكيل مِن وُكلاء أعمالها ، طرَدَتْه لإهماله وتفريطه .»

فنظرتْ إليَّ أم يونس طويلاً نظرات تنمُّ عن دهشتها ، لأني جاهرت أمي بهذا كلّه ، ثم خَفَضَت من بصرها ، وتمتمتْ :

« لا ريبَ في أنه كذلك كما تقول . ليس هذا بغريب !»

فصِحْتُ : « ماذا ؟ وهل تظنّينَني غَبيَّة أصدِّق هذه الأقاويل ؟»

« يجب أن تصدِّقي ما تقوله لك أمك .»

فقمت ثائرة أغمغم :

« حتى أنتِ لا تبغين أن تريحيني ؟»

— ١٢ —

وبعد أيّام مضت على هذا الحادث الَّذي أسلَفْتُ ذِكره ، قضت أمّي يومَها كلَّه في حجرتها لا تُبارِحُها. فلمّا أقبل اللَّيل اقتصرتْ في عشائها على كوب مِن لبن .

أمّا أنا فبعد أن تعشَّيت مَع أم يونس قصدنا معًا إلى حجرتي ، ومَضَيْنا نسْمُر تَزْجيةً للوقت . وخيَّم على أم يونس كسل وفُتور ، فانصرفت عنّي إلى مِخدَعها ، وقمتُ أنا إلى سريري أتمدَّد عليه ، واستدنيت النوم فتأبّى عليَّ ، ففتحتُ عينيَّ ، وجعلتُ أحَدِّق في السَّقف تهيم بي الأحلام .

ولست أدري أيُّ وقت مضى عليَّ وأنا على هذه الحال ؛ ولكن أثارني عن أحلامي طرْق بباب المنزل ، وما هي إلا أن شعَرت بأمي تترك حجرتَها ، وتنزل إلى الباب تفتحه ، ثم تغلقه . وتناهى إلى أذُني صوت أمي مُختلطًا بصوت آخر . وتراءت لي في هذه اللَّحظة حادثة المركبة ، ومنظر الرَّجل الَّذي أراد اقتحام المنزل ؛ فتركتُ السرير عَجْلى ، و وقفتُ خلف باب حجرتي أرهِف السَّمع تنتَظمني رِجفْة ، فتبيَّن لي أنَّ أمي دخلت مع الزّائر في حجرة الاستقبال ، في الطبقة الأولى منَ المنزل ، وخفَت صوتهما فترة ، ثم تركتْ أمي الحجرة ، وعادت إليها بعد حين . وظَلِلْت خلف باب حجرتي ماثلة يكاد الفضول يقضي عليَّ ، ثم فتحت الباب في مُحاذرة ، وخرجت بخُطوات خِفاف إلى الرَّدهة ، وانتظرت هناك وأنا أتسمَّع ، ثم وجدتُني أهبط الدَّرَج إلى رَدهة الطَّبقة الأولى ، وأسرعتُ أختبأ

نفسي في ركن بجوار حجرة الاستقبال .

يا لله ! ما أشد خفقان قلبي !

ولبثتُ أنصت في شغف إلى الصوتَين ، كان يصلان إليّ تارة في وُضوح وتارة في خفاء . وشعرتُ بالدّم يصبغُ وجهي ، وهممتُ أن أعود أدراجي ، ولكنّ قدميّ تسمّرتا ، فلم أتحرك . واشتد إنصاتي أكثر من ذي قبل ، وبغتةً فُتح الباب ، وظهرت أمي فرأتني ورأيتها ، كانت في غلالة (١) منزلية رقيقة من الحرير الورديّ ، فوقفتْ هُنَيهةً مصعوقة لا تفوه بكلمة ، وبدا في عينيها الاحمرار .

ثم قالت لي : « أنت هنا ؟ »

ثم دنَت منّي ، ودفعتني دَفعة شديدة ، وقالت في صوت مكبوت : « اصعدي إلى غرفتك ، يا فاجرة ! »

فاحتقن وجهي وأحسست بشَفتيّ ترتجفان ، وفي هذا الوقت خرج الرّجل من الحجرة ينادى أمي . وما إن وقع بصرُه عليّ حتّى أمسك عن السّير ، ثم نظر إلى أمي مستوضِحًا ، فتكلّفت الابتسام ، وقالت له وهي تنتزع الكلمات من فمها في جهد : « هذه ابنتي سلوى . »

وتقدّم الرجل منّي ، وكان مبسوط القامة ، جميل الشارة(٢) ، وحدّق فيّ بعينيه النفاذتين ، وقال لي : « بونسوار مدموازيل . »

ثم التفت إلى أمي يقول « تبارك الله ! إنها عروس ! »

فأجابته : « لا تَغُرَّنَّك قامتُها ! ما بَرِحت طفلة في الثّانية عشْرة . »

فإذا بي أقول في جُرأة : « بل في السّادسةَ عشرةَ . »

فضحِك الرَّجل ، وتضاحكت أمي في نغمة نكراء ، ثم التفتت إليّ ورمتني بنظرة حامية ، وقالت :

« اصعدي إلى حجرتك . »

ففعلتُ . ودخلت في حجرتي أشعر كأن رأسي يحترق . ماذا فعلتُ ؟ ماذا قلت ؟ ماذا سمعت؟ أ أخطأت في تصرُّفاتي أم أصَبْت ؟ وهذا الرَّجل الغريب ، ما زالت كلمتُه ترنُّ في أذنيَّ :

« تبارك الله ! إنها عروس ! »

كل ذلك كان يعجُّ في رأسي ، فلا أدري أ بي رغبةٌ في الضّحك أم في البكاء ؟ وجعلت أروح وأغدو في الحجرة لا أقَرُّ ولا أسكن .

وبَغْتةً خرجت منَ الحجرة وذَهبتُ إلى أم يونس ، وكانت مُمدَّدة على فراشها ، مستغرقة في منامِها ، يملأ المكانَ غَطيطُها . فأخذتُ أهزُّها وأنا أقول :

« استيقظي ، يا أم يونس ، استيقظي . »

وبعد جَهْد جهيد سمعتُها تدمدم : « أيُّ شيء تريدين ؟ »

« قلت لك استيقظي . »

« لأيِّ شيء ؟ »

« أمر مهمٌّ ، مهم جدًّا . »

« ماذا ؟ »

« رجل في منزلنا . »

ففتحتِ المرأة عينيها ، ومسحتْ لُعابها ، وهي تتمتم : « رجل ؟ رجل ؟ أين ؟ »

وتقلّص وجهها واصفرَّ ، فاستأنفتُ أقول لها :

« رجل في حجرة الزُّوَّار ، مع أمي ! »

فأخذتْ تتفحّصُني لحظة ، ثم قالت :

« ألم أقل لك لا تَشغلي نفسك بهذه الأمور ؟ ربّما كنتِ واهمة . »

« لقد رأيته بعينيّ وكلّمتُه . »

« كلّمْتِه ؟ كيف ؟ »

---

(١) الغلالة : ثوب رقيق يشف ما تحته .

(٢) الشارة : الهيئة الحسنة .

ثم قالت : « ليس بغريب أن يوجد ذلك الرَّجل مع أمِّك في مثل هذا الوقت .»

واعتدلتْ جالسة في فراشها ، فرويتُ لها ما وقع ، وهي شديدة الإصغاء إليَّ . وما إن انتهيت حتّى قالت عابِسة :

« لقد نصحت لك ألا تهتمي بمثل هذه الأمور.»

« أ يؤسِفُك أنّي أيقظتُك لأفضي إليك بما كان ؟»

« كلا ، يا سلوى . ولكن يجب أن تعتقدي أنّك أسأتِ التّصرُّف .»

« أسأتُ التّصرف أو أحسنت ، لا يهم .»

وراحت تعصر جبهتها وقتًا ، ثم قالت :

« ربما كانت في حاجة إليه لبعض المطالب ، أو لشئون القضايا والوَقْف و ...»

فقاطعتُها بقولي : « وهل يجري الحديث في هذه المسائل واللَّيل يسري ؟»

« يا بنتي ، للضَّرورة أحكام .»

« وهذه الغِلالة الحريرية التي تبدو فيها ، هل هي من أحكام الضرورة أيضًا ، يا أم يونس ؟»

فوجَمَتِ المرأة وهي تتفحَّصني لحظات ، فتابعتُ قولي :

« لماذا تنتقِص من سنّي أمام هذا الضيف ؟»

« عجبًا لأسئلتك ، يا سلوى ! حقا إنَّ بنات اليوم لا تَمَلُّ الكلام .»

ثم تكلَّفَتْ الابتسام ، وأخذتْ يدي ، وهي تقول:

« تعالَي ، تعالَي ، أنتِ في حاجة إلى أن تستريحي.»

وسارت بي إلى حجرتي ، وطلبت إليَّ في رِفق أن أدخُلَ فراشي ، فطاوعتُ ، وجلستْ أم يونس على طرَف السرير بالقرب من رأسي ، وطفقَت تَرقيني . ولَمّا انتهت من رُقْيتها جلستْ بالقرب من قَدَمي ، وجعلت تُدلِّكُها في تلَطُّف ، فشعرَت براحة ، وبدأت أعصابي تستكين . ثم انطلقت أم يونس تروي لي في صوت عذب أقاصيصَ عتيقة طالما سمِعتُها منها وأنا طفلة ، فأصغيت إليها في لذَّة وسرور ، وطغت عليَّ أحلام الطُّفولة ، فجعلت أتصفَّح الماضيَ ، وكأنّي أعيش فيه عودًا على بَدء (١) . هذا منزلنا القديم في حيِّ محرم بك بحديقته المُهْمَلة ، وها هو ذا جدّي يلعب بالنَّردِ مع الطّوخي أفندي ، وهناك بجوار الباب يقبَع الحاج مسرور غارقًا في تأمُّلاته الّتي لا تنتهي ، وأنا أقفز يَمنة ويَسرة في الحديقة ، كأنّي فراشة أتنقَّل من زهرة إلى زهرة بين الأَيْك والغصون .

وحسِبتْ أم يونس أني نِمتُ ، فتركتِ الحجرة ماشية على أطراف الأصابع . وبعد حين سمعت حركة بباب المنزل ، فقفَزت من سريري وجريت إلى النافذة ، وتطلَّعت إلى الحارة ، فإذا بأمّي تشيِّع الرَّجل عند الباب . ولبِثت أتابع شبَحَه في سيره حتّى ابتلعته الظُّلمة ، وما زلت أحدِّق بعين حالمة حَيْرى . وفيما أنا غارقة في أوهامي ، سمِعت وَقْعَ خُطوات ، فالتفتُّ خلفي ، فإذا بأمي تدخل الحجرة ، وما إن وقع بصرها عليَّ حتّى صاحت :

« وَيْحَك ! بلغتِ السّاعةُ الثّانية بعدَ منتصَف اللَّيل، ولَمْ تنامي !»

فتمتمت : « الساعة الثّانية بعد منتصف الليل ؟»

« لو لم أحضر لأنبِّهك ، لقضيت سائر الليل ساهرة يَقظى .»

« لا أجِد للنَّوم سبيلاً إلى عيني .»

فوقفت أمي ترنو إليَّ لحظة ، ثم قالت في صوت هادئ شيئًا :

« اعترفي بأنّك أخطأت في تصرُّفك اللَّيلة .»

فقلت في غير اهتمام : « يَجوز !»

(١) عَودًا على بدء : من جديد .

« لماذا أجدُك معي دائمًا تجحدين الجميل ؟»

« أنا جاحدة للجميل ؟»

« لماذا لم تصيحي بملء فمك منادية الجيران ، قائلة لهم : تعالَوا انظروا أمّي تجالِس وحدها رجلاً في جوف اللّيل ؟»

« ما كان لي أن أفعل ذلك !»

« كنت أظُنُّ أنَّ طفلة مثلك لاقت من حُنوّي وعطفي ما لقِيَتْهُ ، لا يُداخلها الظّنُّ السّيئ .»

فنحّيت عنها بصري ، وعقدت يديَّ على صدري ، دون أن أنبس بحرفٍ .

فتابعتْ أمّي قولها :

« لستُ مضطرةً لأن أجلُوَ الأمرِ أمامك ، لأدافع عن نفسي . ومَن أنت الّتي تريدين محاسبتي على ما أفعل ؟»

فنظرت إليها وأجبت في بساطة وهدوء : « وهل اتّهمتُك بشيء ؟»

« تتّهمينني ؟ وهل تجرُئين ؟»

وأخذت تجفف عرقَها ، ثم ارتمتْ على المَقعد تروّح وجهها .

وصمتَتْ قليلاً ، ثم استأنفتِ الكلام ، كأنها تحدّث نفسها :

« رجل يزورني ليلاً ، ما في ذلك عَيب . إنّه المحامي الّذي يتولّى الدفاع عن قضاياي ، ويساعدني في إدارة أعمالي . فأنا لست امرأة خاملة متعطّلة . إن النقود لا تهبط عليَّ من تِلقاء نفسها ، بل عليَّ أن أسعى في سبيل الحصول عليها ، ولكنَّ الناس لا يريدون أن يفهموا من ذلك شيئًا . ليس مَن يده في الماء كمن في النار .»

فأجبتها في تُؤَدة واحتمال : « لا أحد يُنكر أن لك أعمالاً تستوجِب لقاءك للمحامين ، ولكنْ لهؤلاء المحامين مكاتبُ يستقبلون فيها العملاء .»

فحملقت أمي في وجهي ، وصاحت : « إذن مَن يكون هذا الرَّجل ؟ تكلّمي ، صرِّحي بخَبيئة نفسِك !»

وصرخَت منادية أم يونس فهرولت المرأة إلينا على عجل ، وهي تَذود النَّوم عن عينيها ، فاندفعت أمي تقول لها ، وهي تشير إليَّ :

« أ رأيت ابنةً أشدَّ عقوقًا من هذه ؟ كل ما أسديته إليها ذهب سُدًى .»

فأقبَلَت أم يونس عليَّ ، وقالت معاتبة :

« ماذا فعلتِ ، يا سلوى ؟ إنّها أمُّك ، وأنت مَدينة لها بكلِّ شيء .»

« أ لا يحقُّ لي أن أعلَم مَن هو هذا الرَّجل الَّذي طرَق بيتنا الليلة ، ولبِثَ فيه حتّى الثانية بعد منتصف الليل ؟»

فصرخت أمّي ، وهي توجِّه الكلام إلى أم يونس :

« لقد أخبرتُها بأنه المحامي ، محامي قضاياي .»

فقالت أم يونس وهي تقطع تثاؤبةً حادَّة :

« إنه المحامي بلا ريب . ماذا يخطِر ببالك أن يكون ؟»

فقالت أمي صارخة : « فليخطر ببالها أيُّ شيء ! ليس عليَّ أن أقدم حساب أعمالي لأحد .»

فتناولت أم يونس يدي ، محاولة أن تذهب بي إلى أمي ، قائلة :

« تعالَي ، قبّلي يدَ أمِّك ، واطلبي الصَّفح منها عَمّا بدَر منك .»

فسَلَلت يدي من يدها ، وأنا أقول :

« إني مستعدة أن أقوم بكل ما يرضيها ، على شرط أن أرافقها غداً إلى مكتب هذا المحامي ، حتّى أتبين حقيقة الأمر .»

فتقدمت أمي مني مهتاجة تقول : « أُخرجي ، يا وقحة ! يا فاجرة ! »

فقلت لها غير هيّابة : « لماذا تشتمينني ؟ »

« أنت لا تستحقّين الشتم وحده ، بل الصَّفع والضرب . »

فازددتُ منها دنوًّا ، وأنا رافِعة الرأس ، وعيناي تقدحان شررًا ، وقلت في صيحة : « إذن جرّبي . »

وتواقفنا لحظة وجهًا لوجه ، صامتتين ، ترمق كلُّ واحِدة منّا غريمتها بنظرة ملتهبة ، على حين كانت أم يونس تحاول الدخول بيننا ، وهي تستعطفنا وترغب إلينا في أن نُهدِّئ من روعِنا ، حتّى ينتهي الأمر بنا إلى سلام .

و وجدتُ أمّي تتراجع بِضع خطوات ، ثم خرجت وهي تدمدم قائلة :

« سترَيْن ، سترَين ! »

فرددت الباب خلفها في شدة وعنف .

ومكثتُ وقتًا أحدّق ولا أتحرك .

ثم وجدتُني أرمي بنفسي في مِخدعي ، يخنقُني انسكابُ الدّمع .

— ١٣ —

وصحوت من رُقادي في مطلع الشّمس ، على الرّغم من أني نِمْت بعد طُول سَهَر . وكان برأسي دُوار ، وبجسمي هُمود ، وكنت أحِسُّ في دَخيلة نفسي بمشاعر متضارِبة لا تهدأ . وتناولتُ فَطوري مع أم يونس وأنا صامتة ، فقالت لي أخيرًا :

« لقد فكرتُ فيما وقع بينك وبين أمِّك اللّيلة ، فتجلّى لي أنّك مخطِئة . »

فرفعتُ رأسي إليها وقلت في هدوء : « أنا المخطِئة ؟ »

« أنت الابنة ، ويجب على الابنة أن تكون مطيعة لأمّها ، مهما يكن من أمر . »

« حسبُك ، حسبك ! »

« إنه قول أبتغي به مصلحتك . »

« مصلحتي ؟ أ لم تسمعيها تقول إنني أستحقُّ الصَّفع والضرب ؟ »

« إنه مجرّد كلام لا يجمُل بك أن تلقي له بالاً . »

« وماذا تريدين منّي أن أفعل الآن ؟ »

« أن تذهبي معي إليها ، وتطلبي منها الصَّفح . »

« تريدينني أن أقرَّ بأني مخطِئة ، فتزداد هي عُتوًّا وجبروتًا ؟ »

« لن يكون من هذا شيء . أؤكد لك أن طلبك الصفح سيستلُّ (١) غضبها كلَّه . »

فصمتُّ ، وجعلتْ أم يونس تحاول إقناعي بضرورة الذّهاب إلى أمي لطلب الصَّفح منها ، حتى أذعنتُ لها بعد لأيٍ . وانتظرنا حتّى استيقظتْ منَ النوم وفرغت من تناول فطورها واحتساء قهوتها ، فقمت مع أم يونس إليها ، وكانت في حجرتها تدخّن كعادتها .

فقالت أم يونس وهي تتقدم منها تتصنّع الابتسام:

« لقد جاءتك سلوى تؤدّي لك تحية الصباح . »

فلم تُجِب والدتي ، بل رأيتها تنفث دُخان لِفافتها وهي تتنهّد . فأخذتُ يدها وقبّلتها صامتة ، فانحنت عليَّ ، وقبّلتني في خدي ، ثم قالت :

« إن قلب الأمّ سريع العفْو ، سريع الرِّضا . »

وجلست على مَقعد غير بعيد من مكانها ، وسمعت أم يونس تتكلم موجّهة قولها إليَّ :

« أ رأيتِ كيف أن قلبَها رقيق ؟ لا دَخَلَ الشيطان بينكما أبدًا ، ولا عكّر عليكما الصَّفْو ! »

---

(١) سيَستلّ : سينتزِعُ ويُخرِجُ برِفق .

ثم عادت أدراجَها وهي تقول :

« أستأذن في الانصراف . لم أقشّر بعض الخضَر .»

وفيما نحن وحدَنا ، قالت لي أمي : « أ تناولت فطورك ؟»

« تناولته منذُ قليل .»

« وماذا أكلتِ ؟»

« جبنًا وحلوى طحينيةً .»

فابتسمت وقالت : « أما زلتِ تحبّين الحلوى الطحينية مثل الأطفال ؟»

« ما زلت أحبُّها !»

« كنت مثلك ، ولكن عافتْها الآن نفسي .»

« لأنّها طعام الأطفال ؟»

فتضاحكت قائلة : « الأمر كما تقولين .»

وأشعلتْ لِفافة ، وأخذت تنظر إليها ، وهي تديرُها بين أصابعها ، منسرحة الخاطر ، على حينَ قالت لي : « أ ما زلت تظنّينني كاذبة فيما أخبرتُك به في شأن المحامي الّذي قدِم في الليل ؟»

« لا نعاوِد هذا الموضوع ، يا أمي .»

« بل يجب أن نعاوِدَه ليكون قلبانا صافِيَيْنِ .»

فأجبتها وأنا أنظر في كفّي : « إني مصدِّقة كل ما قلته لي .»

« إذن أعِدكِ بأن نذهب معًا إلى هذا المحامي في مكتبه في أقرب فرصة .»

« ذلك لا يهمُّ .»

وعادت أم يونس تطلب من أمي نقودًا لتشتري بعض ما يلزم للطعام ، فرأيت الفرصة سانحة لأغادر الحجرة .

لم تبرح أمي المنزل هذا اليوم ، وتناولت معي طعام الغداء في بهو الطّبقة الأولى . وكانت مسترسِلة في ثرثَرَة على غير عادتها ، فانطلقتْ تُعيد على مسامعي أنباء قضاياها ، وأنّها تثق بصديقها المحامي ، فقد دلّل لها على إخلاصه في مواقفَ شتّى ، وهي مَدينة له بالشيء الكثير ، فلولا جهده لكانت خَسارتها فادحة .

وكنت أصغي لها ولا أتكلم إلا بالموافقة . وما إن انتهينا منَ الطعام حتّى دق جرس الباب ، فنظرت والدتي إلى أم يونس وقالت : « من يجيئنا في هذه الساعة ؟»

فأجابتها أم يونس وهي منكبّة على الصّحاف تجمَعُها :

« لا بد أن يكون الكنّاس أو صبيُّ الخضريِّ .»

وخرجتْ لتفتح الباب ، وبعد قليل وجدناها تعود مهرولة وتنحني على والدتي تقول : « شخص يريد أن يراك .»

ولم تكد تنتهي من جملتها حتّى رأيت رجل اللّيلة الماضية يدخل مبتسِمًا يتقدم من أمي مصافحًا ، وهو يقول :

« المعذِرةَ عن إقلاق راحتك في هذا الوقت . لقد ...»

ولم يتمَّ جملَته ، بل التفت إليَّ مبتسمًا ، ومدَّ يدَه قائلاً :

« أهلاً ، سلوى هانم ، بونجور .»

فأجبتُه : « بونجور !»

« أ ما زلتِ تُصرِّين على أنَّ عمرك ستةَ عشرَ عامًا؟»

ثم اندفع يضحَك مِلءَ فمه . وقالت أمي في لهجة لا تخلو من جفاء ، موجهةً الكلامَ إليَّ :

« الأستاذ رجائي بك ، المحامي الّذي كنتُ أحدِّثكِ في شأنه منذ لحظة .»

فالتفتَ إلى والدتي يقول : « رأيتُ قبلَ سفري إلى

الإسكندرية أن أمرَّ بك لأرى هل أنت في حاجة إليَّ؟»

فقالت أمّي: «وكيف لا أكون في حاجة إليك؟ إنّنا لم ننتهِ في الليلة الماضية من بحث القضية!»

«القضية؟»

فلاحقتْه أمّي بقولها، وهي تنظر إليه نظرات لها معناها:

«قضية المتأخّر من الإيجار.»

«آه! ولكنّنا كِدنا نُتِمُّها. هناك تفاصيل صغيرة ليست بذات بال.»

ثم مال عليَّ وقال: «المدموازيل لا تريد شيئاً من الإسكندرية؟»

فقلتُ: «أشكُر لك. لا أريد شيئاً.»

«إن الإسكندرية تختلف كثيراً عن القاهرة، ومخازِنها مشهورة بسِلعها المبتكَرة الّتي لا تجدينها إلا فيها. أحسبُك لم ترَي الإسكندرية.»

«لقد قضيت بها أكثَر من عشَرة أعوام.»

«أكثر من عَشَرة أعوام؟»

فوجَّه حديثه إلى أمي قائلاً: «إنّها إسكندرانية!»

واندفع يُقهقه عاليَ الصوت، فقالت له أمي: «متى تُسافر؟»

«غداً في الصَّباح المبكِّر.»

ودخلتْ أم يونس بالقهوة، وتناول الرَّجل قَدَحه، وشرَع يحتسيه على مَهَل، وقالت أمي:

«إذن، نؤجِّل البحث في موضوع المتأخر من الإيجار حتّى تعود.»

«ولِمَ ذلك؟ يُمكن أن نلتقي هذا المساء إذا أردتِ.»

«لا مُوجِبَ للعجلة.»

وقدَّم الرجل علبة لَفائفه لوالدتي، فأخذتْ منها واحدة، فأسرع يُشعلها في رشاقة، ثمَّ تناول لِفافة له.

والتفت إليَّ يقول في ابتسامة واضحة: «سلوى هانم لا تدخِّن بالطبع!»

وأشعل لِفافته، ثم قال لأمي:

«إني أفضِّل أن نلتقيَ؛ لأنّي لا أعرف مُدَّة إقامتي في الإسكندرية، هل تطول أو تقصر؟ وأخشى أن أتأخَّر هناك فتتعطل القضية.»

ونفث دخانه دُفعة واحدة، وقال: «قبل أن أنسى أريد أن أسألك: أ لم تشاهدي فِلْم ‹‹ مغامرات فتى الجبال ›› ؟»

«كلا!»

والتفتَ إليَّ يقول:

«فِلْم مدهش جدًّا، يا سلوى هانم. لقد سمعتُ ثناءً عليه مستطابًا.»

و وَجَّه حديثَه لأمي قائلاً: «اليوم هو آخر أيام عرض الفِلْم، فما رأيُك في أن نذهب لمشاهدته؟ لقد حجزت مقصورة منذ الصباح.»

«لا مانع.»

«يمكننا أن ندرُس موضوع القضية في فترة الاستراحة. إن سلوى هانم ستسرُّ بهذا الفِلْم كلَّ السرور.»

«ولكن سلوى ...»

«ماذا؟ إنه من نوع الأفلام الّتي تروق مَن في سنِّها: مغامرات، حرب، مباغتات، حب. سأمرُّ بكما في الساعة السادسة والدقيقة الخامسةَ عشرةَ. اتّفقنا. إنها فرصة لطيفة لأريكما سيارتي الجديدة.»

«هل فرغتَ من أمرها؟»

«سأتسلَّمها اليوم، أقصد بعد وقت قليل. لن يركبها قبلكما أحد. إنه لحظٌّ سعيد بلا شك!»

ونهض ، والابتسامة تتخايل على وجهه ، وقال :

« في الساعة السادسة والدقيقة الخامسةَ عشرةَ .»

وانحنى على يد أمي فقبَّلها محيِّيًا ، ثمّ لاطف يدي وهو يقول :

« سيعجبُك الفِلْم جداًّ ، يا سلوى هانم . إني واثق بذلك . أمّا إذا لم يعجبك فأنا مستعد للتعويض .»

وجعل يُقهقِهُ ، ثم مضى .

وما هي إلا أن قلتُ لأمّي في ابتهاج : «سأرتدي ثوبي الأخضر .» فرمقتني بنظرة جافية ، وقالت: « أيّ ثوب ؟»

« ثوبي الجديد الّذي أريتك إيّاه ، والّذي فصّلته بنفسي .»

« الثوب القصير الّذي يُظهر ساقيك ؟»

« إنه ليس من القِصَر كما تتوهّمين .»

« بل إنه فاضح !»

« سأحضِره إليك لِتريْه .»

« لا يمكن أن أدَعَك تخرُجين معي إلى «« السّينما »» بهذا الثّوب .»

« أؤكّد لك ، يا أمي ، أن ...»

« لا تستطيعين أن تؤكّدي شيئاً .»

« ليس عندي ثوب آخر يليق بهذه المناسبة .»

« أيّة مناسبة ؟ وهل تظنين أنك ذاهبة إلى المَرقص (١) ؟ ارتدي الثوب الكحليّ .»

فلم أتمالكْ أن صرخت قائلة :

« الكحليّ ؟ إنه مُهلهل تتكاثر فيه الفُتوق . لقد تعبتْ أصابعي في رَتْقه ورَفْوِه ، وقد عوّلت على أن أعطيَه أمّ يونس .»

« حقا ! يصح لك أن تنبذي أثوابك وهي في حالة جيّدة ؛ لأننا من أصحاب الملايين !»

« لنختَصر الحديث ، يا أمّي . إني لا أرغب في الذّهاب إلى السينما .»

وتركتها على الفور ، وهُرعتُ إلى حجرتي ودموعي تتسايل على وجهي ، وذهبتُ إلى النافذة واستندتُ إلى حافّتها وأنا أقْرِضُ أطراف منديلي . إنّ أمّي لتعلم عددَ المرّات التي ذهبتُ فيها إلى السينما في حياتي ، وهي لا تتجاوز عددَ أصابع اليدِ الواحدة ، ومع ذلك فإنها تضع العراقيل لتحرمني أن أذهب اليوم لمشاهدة ذلك الفِلْم .

وطرق سمعي خفْقُ خُطوات أم يونس ثمّ أحسستُ يدَها تلاطِف كتِفي ، فالتفتُّ إليها وأنا أقول بحدّة :

« لن أذهب إلى السينما . لا يمكن أن يُرغمني أحد على الذّهاب .»

ثم انطلقتُ أحكي لها ما حدث ، فقالت لي وهي تتظاهر بتنظيف ثوبي : « أ وَ تريدين أن تضيّعي على نفسك فرصة التفرُّج ؟ لو كنت مكانكِ لذهبتُ .»

« لأكون أضحُوكةً بين الناس في ثوبي الكحليّ ؟ مُحال !»

فأخذتني من يدي ، وذهبتْ بي إلى صِوان الملابس ، وقالت وهي تفتحه : « فلننظر على مَهَل .»

فانطلقتْ منّي ضحكة ساخِرة ، وقلت : « تنظرين أيَّ شيء ؟ الثلاثة الأثواب الّتي لا أملِك سواها ؟ انظري أيّها يليق ؟ أ هذا وقد نُصِل لونُه ، أم ذاك وهو لا يصلح إلا أن يكون مِمْسَحة للأرض ؟ أغلقي الصّوان ، أغلقيه .»

« إن أمّك تريدك على أن ترتدي الثوبَ الكحليّ .»

« لن أرتديَه .»

وأخرجتْه أم يونس من الصّوان وبسطتْه على

---

(١) المَرقص : مكان الرّقص .

السّرير وهي تقلّبه ، ثم سمعتها تتكلم كأنها تحدّث نفسها :

« لو خِطنا هذا القَطْع ، ورتّقنا هذا الفتْق ، لَما كان فيه ما يعيبه .»

فقلت لها وأنا أهمُّ بانتزاعه منها : « قلت لكِ لن أذهب إلى السينما ، فأريحي نفسك من العناء .»

فأمسكتْ به ، وقالت : « أنت حرّة في أن تذهبي إلى السينما أو لا تذهبي . أمّا الثوب فما دام لا يروقك فدعيه لي أتصرّف فيه كما أشاء .»

« فليكن . خُذيه . إني لست في حاجة إليه . لقد كان في نيّتي أن أعطيك إياه .»

وجلستُ على مَقعد بجوار النافذة ، ورحت أهزُّ رجلي ، وجعلت أختلس إليها النّظَر ، فرأيتها تناولت سَفَط (١) الخياطة من تحت السرير ، وقعدت متربّعة على الأرض ، وأقبلتْ على الثّوب تبسُط جوانبَه .

وبعد حين سمعتها تحدّث نفسها : « لو وضعنا في هذا الثوب أزرارًا حُمرًا ، يا بنيّتي ، ثم جئنا له بحزام على لون الأزرار .»

فأرسلت ضِحكة عالية ، وقلت متمّمَة كلامَها: « لأصبح فتنة الثياب !»

فرفعتْ أم يونس رأسها وقالت :

« ما رأيك في ذَوْق جارتنا الست فتحية ، الّتي تسكن آخر الحارة ؟»

« يقولون إنها نموذج الرشاقة والذوق السليم ، ولكن ما شأنها بالثوب ؟»

« لقد شاهدتها منذ أيام تلبس ثوبًا كحليَّ اللَّوْن كأنّه هذا الثوب عينُه . ولكنّها حلّته بحزام قِرمِزيّ وأزرار عنّابية . وكانت في يدها حقيبة حمراء قانيَة ، وفي قدميها حذاء كأنه قطعة من الحقيبة ، وفي الشقّ الأيسر من صدرِها وردة حمراء ، فأُعْجِب بها كلُّ مَن رآها . وكانت بهذا الزيّ نَهبًا لأنظار الرّجال .»

– ١٤ –

وفي السّاعة السّادسة والدقيقة الخامسةَ عشْرةَ سمعتُ صوتَ أمّي تناديني ، فلبّيت على عَجَل ، فما إن تلاقتْ أنظارُنا ، حتّى قالت :

« ما هذا الثوب ؟ إنّني لم أرَه عندك من قَبْل !»

« إنه الثّوب الكحليُّ الّذي طلبت منّي أن أرتديه.»

« إن الأزرق مع العنّابي منَ الألوان الّتي أصبحت مبتذَلة الآن . وهذه الوردة الغريبة ، إنّها بلديّة الذّوق.»

ونظرتْ إلى قدَميَّ ، فصاحت : « ليس هذا حذاءك !»

ورفعت بصرها إليَّ ثانيًا تقول : « قرّبي مكانك منّي ، تعالَيْ . مِن أين لكِ هذه الحقيبة وهذا الحزام ؟ إن جارتنا الست فتحية لَها ما يماثِلهما . لعلّك قد ...»

ودخلت في هذه اللّحظة أم يونس تعلِن قدومَ الأستاذ رجائي ، وأسرعنا نستقبله وأمي تُغمغم ، فألفيناه في البهو لَمّاحَ الطّلعة ، جديد الملبَس ، يتّخذ رباطَ رقَبة أحمرَ زاهيًا ، يستثير بلونه انتباه الرائي . وتقدم خفيف الخُطا من أمّي فلثَم يدها ، ثم وقف قبالتي يتفحّصُني وهو يقول :

« ماذا أُرى ؟ أأنا أمام سلوى هانم ؟»

فتضاحكت أمّي وقالت : « أتراها قد تغيّرت في ساعتين ؟»

« إن سلوى الصّبية قد اختفت عن الأنظار .»

فقالت أمّي في نظرة غامضة : « عجيب !»

ودنا منّي الأستاذ رجائي وألفيته يُمسِك بيدي ، ثمّ انحنى عليها فقبّلها ؛ فنظرتُ من فَوري إلى أمي

---

(١) السَّفط : وعاء كالقفّة .

ونبضاتُ قلبي تتواثَب ، ورأيتها تُحدُّ فيَّ بصرَها الملتهب ، ثُمَّ سمعتها تقول للضَّيف : « هل تسلَّمت السيارة ؟»

« أجل ، إنها طَوْع أمرك .»

وخرجت أمي ، فتبعتُها أنا والأستاذ رجائي ، وإذا بنا أمام سيارة لطيفة ، تبدو على ضوء النهار الغارب كأنها جوهرة نفيسة تأتلق . وأخذ الأستاذ رجائي يدور بنا حولها ، ويرشدنا إلى دقائقها ، ويشرح لنا مزاياها ، مُسهِبًا في الحديث ، متأنِّقًا في التعبير .

وأخيرًا دخلناها ، فاحتلَّ الأستاذُ مجلِس القيادة ، واتخذت أمي مجلسها في الخلف وأنا بجوارها ، ورأيت السيَّارة تمضي بنا والأستاذ لا ينفكُّ يحدِّثنا عن شئونها : ما هي طاقتُها في السُّرعة ؟ ماذا تختزِن منَ الوقود ؟ ما هي مزاياها الَّتي تنفرد بها ؟ وقد استغرق هذا الحديث طريق السيارة بين المنزل ودار السينما .

ولَمَّا قصدنا إلى مقصورتنا في السينما شهدنا على الستارة البيضاء أفلامًا أخبارية وأخرى فكهية . وكان حديث الأستاذ رجائي لا ينقطع وضحكاتُه لا تفترُ ، ولكن شغلي بمتابعة ما يعرض من الصور لم يدع لي بالاً ألقيه إلى حديثه وبواعث ضحكاته .

وفي فترة الاستراحة ، وقد أُطْلِقَ النّور ، أخذتُ أُسرِّح بصري حولي وأنا مبتهِجَة مغتبِطة ، وشعَرت بالأستاذ رجائي يترك المقصورة ، وسمِعته يحيِّي بعض الناس قائلاً :

« أهلاً ، دكتور فهيم . مصادفة مُدْهشة !»

فالتفتُّ خلفي ، فإذا بشابٍّ وسيم يدنو من الأستاذ رجائي ويصافحه ، و وقفا لحظات يتطارحان الحديث، ثم رأيت الأستاذ يدخل المقصورة وفي صُحبته الدُّكتور الشابُّ ، واقترب من والدتي يقول لها : « الدكتور داود بك فهيم ، الَّذي حدثتك في شأنه أخيرًا حين كنتِ متوعِّكة .»

ثم التفتَ إلى الدكتور فهيم يقول : « درية هانم شوقي .»

واتَّجه نحوي مشيرًا إليَّ قائلاً : « الآنسة سلوى هانم شوقي .»

وأقبل الدُّكتور على أمي وعليَّ يصافِحنا . وهو ربْعة معتدِل القامة ، نفّاذ النظرات ، استرعى انتباهي منه على الفور ما يتحلّى به من أدبٍ واحتشام . وسمِعت أمّي تقول له :

« اجلس ، يا دكتور . إنه لتسرُّني معرفَتُك .»

« أشكرُ لك . لست أقلَّ منك سرورًا بهذا التّعارف ، يا هانم .»

وقال الأستاذ رجائي :

« إن الدكتور فهيم ليس طبيبًا فقط ، وإنما هو عالم أيضًا .»

فقالت أمي : « عالم ؟»

« بحّاثة كبير ، ويريد التخصُّص في أمراض المناطق الحارَّة .»

فقالت أمي : « أهنِّئك ، يا دكتور .»

« إن الأستاذ رجائي يبالغ ، يا هانم ، فيما يصفُني به .»

فقال الأستاذ رجائي : « لا مبالغة فيما قلت .»

« لا أنكِر أني مهتمٌّ بأمراض المناطِق الحارة ، ولكنّي أعترِف بأنّي لم أصِلْ حتّى الآن إلى شيء يستحقّ الذّكر .»

« ومحاضرتك البليغة في بيت الحكمة ؟»

فقالت أمي وهي تتظاهر بالاهتمام :

« هل ألقى الدكتور محاضرة في بيت الحكمة؟»

فأجاب الدكتور فهيم :

« تحدَّثت عن «التيفوئيد» باعتباره منَ

الأمراض الفاشية في مصر .»

فقال الأستاذ رجائي : « لقد عارضك الدكتور شوكت في نظريتك ، ولكنَّك انتصرت عليه .»

والتفت الأستاذ رجائي إلى أمي يقول : « لقد كان انتصاره حاسمًا .»

وبدأت الأنوار تُطفأ ، فاستأذن الدكتور في الخروج ، فقال الأستاذ رجائي : « إلى أين ؟»

« إن مَقعدي يَنتَظِرني ، يا أستاذ .»

فقال له : « فلينتظر ، يا سيدي . كن معنا إلى نهاية الرِّواية .»

والتفت إلى والدتي التفاتةَ التساؤل ، فقالت : « يشرِّف ويؤانس .»

فقال الدكتور : « ولكن ، يا هانم ...»

وأجلَسه الأستاذ رجائي وهو يقول : « اجلس . اجلس .»

وقد دار هذا الحديث ، فلم أشترِك فيه بكلمة ، ولكن نظرات الدكتور فهيم التقت بنظراتي غيرَ مرَّة .

وساد القاعة ظلامٌ ، وبدأت السِّتارةُ تعرض فِلْمَ « مغامرات فتى الجبال » . وكان الفِلْم ملوَّنًا ، فسحرتني مناظِره وخلبتني حوادِثه . وشعرت بالأستاذ رجائي يُدني مَقعده من مقعدي ، على حينِ كان الدكتور فهيم بجوار والدتي يتحدَّثان بين فترة وأخرى . فكنت أسمعه يتكلم عنِ « البكتريا » و « الطفيليات » و « اللقاح » و « الأمصال » وما إليها.

وظهرت إحدى ممثلات الفِلْم تضَع على صدرها وردةً حمراء ، وسمِعْت الأستاذ رجائي يهمِس بقوله : « ما أشبه وردتَها بوردتك ! ولكنَّ وردَتك أجملُ منظرًا ، وإن عطرها لزكيٌّ !»

فقلت له : « إن وردتي من نسيج ، لا عِطر لها .»

« من نسيج أوِ مِن غير نسيج : إن لها لعطرًا رائعًا ! حسبُها أنها على صدرك .»

وسمِعت والدتي في هذه اللَّحظة تقول لي في لهجة يتوضَّح فيها الجفاء :

« إنَّك تحجبين الستارة عن الدكتور . تنحَّيْ قليلاً .»

فقال الدكتور على الأثر : « إني أرى جيِّدًا ، دعيها مكانها .»

فتراجعتُ شيئًا عن مكاني . وأحسست الأستاذ رجائي يتأخَّر بمَقعده خُطوة ، وبعد قليل سمعته يشترك مع الدكتور فيما يتحدَّث به إلى أمي عن البكتريا والطفيليات .

وانتهى عرض الرواية وأطلِقت الأنوار ، فقُمنا نتأهَّب للخروج ، فقال الأستاذ رجائي :

« كان فِلْمًا عظيمًا . لقد أحسنتُ الاختيار ، أ ليس كذلك ؟»

فقالت والدتي : « حقا إن اختيارك كان موفَّقًا ، وأهنِّئك .»

وانصرفنا . ولَمّا بلغنا مكان السيارة ، قال الأستاذ رجائي لوالدتي :

« لديَّ اقتراح .»

« ما هو ؟»

« إن اللَّيلة رائعة ، لا يَجْمُل أن تقضوها بين جدران المنزل .»

« إلى أيِّ مكان تريد أن نذهب ؟»

« إلى مطعم « إمبريال » نتعشَّى ونستمتع بالموسيقى والرَّقص .»

ومال عليَّ قائلاً : « سلوى هانم تُحسن الرَّقص ، أ ليس كذلك ؟»

فقالت أمّي على الأثر : « ليس لسلوى في المطاعم والمَراقص مكان !»

فضحك الأستاذ رجائي قائلاً :

« نُحكّم الدكتور فهيم في هذه المسألة .»

فأجاب الدكتور : « إن من التّطفُّل أن أتدخّل في مثل هذه الأمور الخاصّة . والآن أظنُّ أن موعد استئذاني قدْ دنا .»

« ماذا تقصِد ؟ أ تأبى أن تكون في صُحبة الهانم هذه الليلة ؟»

« الموضوع ، يا أستاذ ...»

« الموضوع أني أدعوكم جميعًا إلى العَشاء اللّيلة في مطعم ‹‹ إمبريال ›› . هلمّوا . لا أريد جِدالاً ولا مناقشة .»

وانحنى على والدتي يقول لها مبتسمًا :

« لم نَنْتَهِ بعدُ من مسألة المتأخّر من الإيجار .»

وتركنا السيارة في خفارة (١) غلام من حُرّاس السيارات ، ونَحَوْنا نحوَ المطعم مترجِّلين ؛ إذ كان مكانُه على قِيدِ خطوات (٢) .

وأعِدّت لنا مائدة في الصفّ الأول قُبالة حلقة الرّقص ومنصّة الموسيقى . وكانت الأنوار ألاقة تخطِف البصر ، والضُّحْكة متتابِعة تملأ السمع ؛ فكنتُ مأخوذة أبَعْثر النّظر ذاتَ اليمين وذات الشّمال .

وكانت المائدة مستديرة ، فالتففنا حولها ، واتخذت والدتي مَجلسها بين الأستاذ رجائي والدكتور فهيم . واختارت لي مَقعدي ، وأشارت إليّ أن أجلِس عليه ، فإذا بها تتعمّد به ألا أرى من حلقة الرّقص إلا بعض جوانبها بلَفْتِ النظر وإمالة العُنُق .

وأخذ الأستاذ رجائي يقرأ ورقة الأطعِمة بصوت مسموع ، وقَدِم خادمُ المطعَم ، فكتب الألوان الّتي انتخبناها في مذكّرته .

ومال الأستاذ رجائي على والدتي يشاوِرها في أمر ، فقالت :

« لا بأس ، أريده ‹‹ بالصّودا ›› .»

وفطنتُ إلى أنه يكلّمها في شأني ، وسمعتها تقول:

« أحضرْ لها شراب اللّيمون ، شراب اللّيمون .»

ولم يَطلْ بنا الانتظار ، فقد أقبل الخادم بصِحاف الطعام وأقداح الشراب ، وبدأنا نَطْعَم . و وجدتُ الأستاذ رجائي يقرّب منّي شرابَ اللّيمون ، على حينَ أخذ يُفرغ زجاجات الصّودا في الكئوس الأخرى الّتي كان فيها قليل مِنْ شراب ذَهبيّ .

وانطلقت الموسيقى تعزف ، وانتظمتْ حلقة الرّقص ، وأخذتُ بين الفَيْنة والفَيْنة أنظر إليها ، وأتلفّتُ حولي كأني في مدينة مسحورة ، وسمِعت الأستاذ رجائي يقول :

« أرجو أن تكون سلوى هانم مسرورة .»

« مسرورة جدًّا . أشكر لك .»

وتناولتْ أمي ثلاثَ كئوس ، واحْتسى الأستاذ رجائي مثلَها . أمّا الدكتور فاقتصر على واحدة ، وأبى كلَّ الإباء أن يَزيد عليها . وكان نَزْرَ (٣) الكلام ، رزين المجلس ، ولم يبادلني إلا كلماتٍ مألوفة في احتشام ، وكان يقدّم لي ما يراني في حاجة إليه من أشياء الطعام .

ورأيتُ والدتي تحتسي الكأس الرّابعة ، وانطلقتْ تضحك في إغراق ، وتترنّم بصوت جَهير ، وتضرِب بقدمها الأرضَ متمايلةً ، تُساير الموسيقى في الإيقاع . ولقد أكثر الأستاذ رجائي من الشراب ، فلمْ أعلمْ كم كأسًا تعاطى . و وجدت والدتي تنحني عليه هامسة في أذنه في تدلُّل ومعابثة . وبعد هُنيهة نهضا معًا إلى

---

(١) خِفارة : حِراسة . (٢) على قيد خطوات : على بُعد خطوات .

(٣) نَزْر : قليل .

حَلْقة الرَّقص ، ثم ارتدَّت والدتي خطوة إلى مائدتنا تقول للدكتور :

« إن سلوى لا تحسنُ الرَّقص . تعلمته في المدرسة منذ سنين ، ولكنها الآن نَسيَته . »

فأجابها الدكتور مبتسمًا :

« وأنا أيضًا لا أحْسِن الرَّقص ، يا هانم . »

وتأبّطَت أمي ذِراع الأستاذ رجائي ، وانتظما في حلقة الرَّقص ، وانطلقا يرقصان . وسَرعان ما تواريا بين الراقصين ، ولكن ما لبثا أن ظهرا ثانية . وكانا يتمايلان في نشوة ، وقد تقارب وجهاهُما حتّى كادا يتلاصقان . وبدرت من والدتي بعضُ حركات غير لائقة تتبعها ضحكات مبتذَلة ، فوجدتُني ألتفت إلى الدكتور فهيم ، وأحسستُ على الفور وجهي يلتَهِب ، فخفَضْتُ من بصري . وبعد هُنَيهة سمعت الدكتور يقول :

« أظنُّها المرة الأولى التي تحضُرين فيها إلى هذا المطعم . »

فرفعتُ عيني إليه ، فإذا هو يبتسم في وداعة ، فقلت :

« إنها المرة الأولى الَّتي أتناول فيها الطعامَ في مطعم عامّ . »

« وكيف تجدين المكان ؟ »

« لطيفًا . »

« وهذه الزّحمة، وهذا الدُّخان ، وهذا الضجيج ؟ »

« أحبُّ فيه أنوارَه وما فيه مِن مناظرَ مسلّية . »

فتناول كوبَ الماء يجرّع منه قليلاً ، ثم قال : « حقا ، إنها مناظر مسلّية . »

وأمسك بالسكّين يتلاعبُ بها وقتًا ، ثم قال وهو يتفحّصها :

« أ تعْرفين الأستاذ رجائي من زمن طويل ؟ »

« منذ أيام ! »

« فقط ؟ »

« فقط ! مع أنه يتولّى قضايانا مِن عهد بعيد . »

« ألكم قضايا كثيرة ؟ »

« أظنُّ ! »

ورأيت والدتي قادمةً مع الأستاذ رجائي فصمتُّ .

وصاح الأستاذ بخادم المطعم :

« أين الفاكهة ، يا رَذْل ! الفاكهة حالاً. أ سامعٌ أنت ؟ »

ثم ابتسم لي وقال :

« ماذا تودُّ المدموازيل أن تأكل : كُمَّثْرى ؟ تفاحًا؟ برتقالاً ؟ »

فقالت أمي على الفور :

« أحضِرْ لي كمثرى ، أمّا سلوى فهي تحبُّ اليوسفيَّ . »

وبعد قليل قدِم الخادم بالفاكهة ، فما إن رآها الدكتور حتّى قال له : « أ مغسولة هي أم بدون غسل ؟ »

« مغسولة ، يا سيدي ! »

« أ غسلتموها بالصّابون ؟ »

فابتسم الخادِم وقال : « بالماء فقط . »

وصاح الأستاذ رجائي وهو يتناول كُمَّثراةً :

« ماذا ؟ هل تريد أن يغسلوا الفاكهة بالصابون ؟ إنها ليست مناديل أو جوارب ! »

وأخذ يقطِّع الكمثراة ويلتهِم قِطَعَها. فقال الدكتور:

« أ نسيتَ أن التيفوئيد منتشر الآن ؟ »

« أيُّ تيفوئيد ؟ دَعْكَ من هذا الكلام . »

وأخذ الدكتور فهيم صَحْفة (١) الفاكهة ، وطلب إلى الخادم في تأكيد أن يغسلَها بالصابون جيداً ، ثم التفت إلينا يقول :

« إن واجبي يحتّم عليّ أن أفعل ما فعلت . »

فصاحت والدتي : « ستؤخرنا عن الرَّقصة ، يا دكتور . »

وأتمَّ الأستاذ رجائي قولها :

« إنه حقا يؤخّرنا عن الرَّقصة بهذه الفلسفة الطبِّيَّة. أظن أنَّ الدكتور يرغب في أن يحاضِرَنا اللَّيلة في أضرار البكتريا ؟ لسنا في عيادة أو معمل أبحاث ، نحن في مطعم ومَرقص . »

ثُمَّ اندفع يضحك بصوت جَهْوَرِيٍّ لفت إليه الأنظار.

وخفَّت والدتي إلى حَلَقة الرَّقص بعدَ أن أفرغت في فمِها كأساً من الشراب ، فاقتفى أثرها الأستاذ رجائي ، و وجدتُه قد تعثَّر في مشيته ، وكاد يسقط ، فانطلقت مني ضحكة كتمتها بمنديلي ، ورأيت الدكتور يبتسم .

وجاء الخادم بالفاكهة المغسولة ، فاختار الدكتور أطيب ما فيها ، وقدَّمه إليَّ ، فشكرت له ، وشرعت أقشِّر وآكل .

وساد بيننا الصمت ، وتلاقت عيوننا مرتين ، فتبادلنا الابتسام .

وكنت أحسُّ بشعورٍ من الغِبْطة ينبعث من أعماق قلبي ، فيشيع بين حناياي .

وسمعتُ الدكتور يقول : « لا تنسَيْ أن تغسلي الفاكهة دائماً قبل أكلها . »

فابتَسمتُ وقلت : « سأفعل . »

« أ تؤمنين بما أقول ؟ »

« دون شكٍّ . »

« ولكن صاحبنا الأستاذ رجائي لا يقيم وزناً لنصائحي . »

« إنَّه على غير حق ، ويدهشني أن يتفوَّه بأقواله تلك وهو محام كبير ! »

« مَن قال لك إنه محام كبير ؟ »

« لا أحد . أنا الَّتي أقول ذلك ! »

فضحِك ضحكة لطيفة ، جاذبتُه إيَّاها في ابتهاج .

ورأينا الأستاذ رجائي مقبلاً وحدَه ، وكان يمسَح وجهه بمنديله . ولَمحنا نضحك فوقف قُبالَتنا صامتًا يتطلَّع ، ثم قال للدكتور فهيم :

« أ لا تأخذ كأس درية هانم وتذهب بها إليها ؟ »

« أنا ؟ لماذا ؟ »

« لأنها تريد أن تشرب . »

« ولكنَّها كلَّفتْك أنتَ إحضار الكأس . أ ليس كذلك ؟ »

« لستَ أنتَ لطيفًا ، يا دكتور فهيم ، سأشكوك إليها حتمًا . »

ثمَّ دنا منِّي وهو لا يتمالك ، وقال مبتسمًا :

« ليس الدكتور فهيم لطيفًا معي . أ لا ترَيْنَه كذلك ؟ »

« لا أدري ! »

« إنني أحتج على بقائه دائمًا بجوارك ، لم يترك لي فرصة أستمتع فيها بحديثك العذب . »

وسمِعْت الدكتور يقول :

« دريَّة هانم تطلب الكأس ، وأراك تتباطأ . »

فلم يُعِرْه الأستاذ رجائي التفاتًا ، وقال موجِّهًا حديثَه إليَّ :

« أقسِم بالله إنَّه ليس في هذا البَهو الطويل العريض،

(١) الصَّحْفة : إناء من آنية الطعام .

الزاخر بالحسان الفاتنات ، مَن هي أشدُّ سحرًا وأوفر حسنًا ورشاقة منك ، يا سلوى هانم ! أقسم بالله إنَّك مِلكة الجمال في هذا المكان ، بل ملكة ...»

و وَقف الدكتور فهيم ، وأمسك بذراع الأستاذ رجائي وقال له جادًّا : « دع سلوى وشأنَها ، واذهب بالكأس كما أمَرَتْك درية هانم .»

فرماه الأستاذ رجائي بنظرة حادَّة ، وقال :

« لم أحْضِرك معنا لتجالسَ سلوى وتؤانِسها . لقد جاوزتَ الحدَّ !»

ولم يَفُضَّ النزاع إلا عودة أمي . ولكنها لم تُنكر من أمرنا شيئًا ، فقد استطاع الدكتور بلباقتِه وسُرعة خاطره أن يُحيل الحديث فكاهةً ودُعابة .

ولم نمكُث بعد ذلك إلا قليلاً من الوقت ، ونهضنا معتزمينَ مغادرةَ المطعم ، فلما جاء الخادم ليأخذَ ثمن العَشاء ، أخرج الأستاذ رجائي مَحفظة نقوده ، وشرع يقلِّب فيها طويلاً ، ولمحتُ الخادم يبتسم . ولكن سَرعان ما وجدت الدكتور فهيم يؤدّي له حسابَ الطعام في صمت وهدوء .

وَحثَثنا الخُطا إلى الباب ، على حينِ كان الأستاذ رجائي يؤاخذُ الدكتور فهيم ، ويكرِّر عِتابه عليه في تقدُّمه لدفع الحساب .

ولَمّا بلغنا سيارة الأستاذ رجائي دخلت أمي فدخلنا في إثرها ، ثمَّ رأيت الدكتور فهيم قد أسرع يجلس في مكان القيادة ، فرمقه الأستاذ رجائي بنظرة نكراء ، وقال : « ماذا تَعني ؟»

فابتسم الدكتور وقال :

« ألا تريد أن أجرِّبَ سيارتك الجديدة ؟»

ثمّ التفت إليَّ وقال : « تعالَي ، يا آنسة ، واجلسي بجانبي . الأستاذ رجائي يفضِّل أن يأخذ مَجلسه في الخلف .»

فحملق فيه الأستاذ قائلاً : « ما معنى هذا ؟ ألا تترك لي مكان القيادة ؟»

فقال الدكتور فهيم في جدٍّ : « لا ، لن أتركه لك ؛ أريد أن ترجِعوا في أمان وسلام . إني أعُدُّ نفسي مسئولاً عنكم .»

ومدَّ ذراعه ودفع بالأستاذ رجائي داخل السيارة ، وأشار إليَّ أن أنتقل لأجلس بجوار مَقعد القيادة ، ففعلتُ على الأثر. والتفت إلى أمي يقول : « أين المنزل ، يا هانم ؟»

فذكرت له أمي عنوانَ المنزل ، و وجدتها بعد لحظة قد اندفعت تقرِّع الأستاذ رجائي وتكيل له ضروبَ التُّهم . وانقضى الوقتُ وهما مسترسِلان في جِدال ومهاترة وتَصايُح .

أمّا الدكتور فهيم فكان يبادِلني النظرات مبتسمًا ، ويلاطِف يدي في صمت .

وعند وُصولنا ترك مكانه ، وساعدني على النزول ، وقبَّل يدي قبلة رقيقة .

— ١٥ —

وفي صبيحة غدٍ استيقظتُ مبكرة ، وأخذتُ أعرِض ما وقع لي من أحداث اللَّيل .

وكانت مَشاهد الرقص تتراءى لعينيَّ . وفكرتُ فيما قالته أمي من أني لا أحسن الرَّقص ، وسألت نفسي : ماذا كان يجري لو كنتُ أحسِنه ، وطلب الدكتور فهيم أن يراقصني ؟ وتمثلت لي على الفور صورتا مسيو فوكيه وزوجِه ، صاحبَيْ « مدرسة العائلة السعيدة » ، المدرسة الَّتي تعلمت فيها مبادئَ الفرنسية والغناء والرقص . وجعلت أحدِّث نفسي :

« مَن هو المسئول عن جهلي للرَّقص ؟»

وبعد حينٍ سمِعت أم يونس تقول :

« صباح الخير . لعلَّ النُّزْهة كانت طيِّبة .»

« طيِّبةً جدًّا ، يا أم يونس .»

وقفزت من السرير ، ثمَّ احتضنْتُها وأنا أقول :

« سينما ، مطعم ، رقص ، موسيقى ، مُتعة حُلوة . كان معنا الدكتور فهيم .»

« الدكتور فهيم !»

« الدكتور فهيم صديق الأستاذ رجائي المحامي . شاب مؤدَّب ، وهو ماهر جدًّا في فنه ؛ إنه حتَّم علينا ألا نأكُلَ الفاكهة إلا إذا كانت مغسولة بالصابون .»

« بالصابون ؟»

« خَوفًا من البكتريا . إن التيفوئيد الآن منتشر في مصر ، والدكتور فهيم يكافِحهُ بشدَّة . إنه عالِم أيضًا، وهو يخطب أمام العظماء خُطَبًا جليلة. ولكنَّ الَّذي أضحكني غايَةَ الضَّحِك هو الأستاذ رجائي .»

« ماذا جرى له ؟»

« لقد زلَّت قدمُه ، وسقط في حَلقْة الرَّقص وسط الناس .»

« يا للنَّائبة !»

« كان منظرُه مضحكًا ، مضحكًا جدًّا !»

واندفعتُ أضحك ، وأم يونس تشاركني في ضحكي ؛ ثم تابعت قولي : « هل استيقظتْ أمي ؟»

« ما برِحتْ نائمة .»

فملت عليها وهمست في أذنها :

« لقد اشتَبَكتْ مع الأستاذ رجائي في مُشاحنَة صاخِبَة .»

« أمام الناس ؟»

« بل في السيارة ، هذا سرٌّ بيني وبينك .»

« سرُّك محفوظ في بئر ؛ لا تخشَيْ شيئًا .»

واستيقظتْ أمي قُبَيْل الظُّهر ، وبعد أن فرغت من فَطورها استدعتني ، فذهبت إليها . وكانت على مألوف عادَتها ممدَّدة على مَقعدها الفسيح ، واللُّفافة في يدها ، فقبَّلْتُها ، وجلست على كرسيٍّ بالقرب منها ، فبادرتني بقولها :

« هل أعَدْتِ الأشياء الَّتي استعرتِها منَ الست فتحية ؟»

« ستأخذُها أم يونس إليها بعد الغَداء .»

« كان مِنَ الواجب أن تُرسِلوها في الصَّباح . لا أدري بأيِّ وجهٍ أقابِل هذه المرأة . ماذا تقول عنَّا ؟ شحّاذون ؟»

« هوِّني عليك ، يا أمي ؛ الأمر لا يستدعي كلَّ هذا. إن الجيران يتبادلون الأشياء ، ويستعير بعضهم من بعض .»

« هذا يكون بين جيرانِ الأحياء البلديَّة ، أمّا في الطبقة الراقية فلا . لا بدَّ أن الدكتور فهيم أطْرى فيك الوردة والحزام ، ولكن مع الأسف لم تحظيْ منه بأكثر من كلام .»

« لم تجرِ على لسانِ الدكتور فهيم كلمة في هذا الشأن .»

فابتسمتِ ابتسامة صفراء وقالت : « إذن أطْرَى أشياء أخرى . لا بدَّ أنّه قال لك إنك بارعة الحُسن ، وإنَّ حديثك كالشَّهد . ولكن اسمعي ، لا تُصَدِّقي هذه الأقوال ؛ إن الرجال أمهرُ خلقِ الله في صِناعة الكذِب!»

« ولكنَّ الدكتور فهيم لم يقل شيئًا من ذلك أيضًا!»

« أظنُّك تريدين أن تُوهِميني أن الدكتور فهيم كان يُلقي عليك خطبة في طبِّ المناطق الحارَّة ! ولذلك كنتما مبتهجَين أشدَّ الابتهاج !»

« كان يتحدَّث الأحاديث المألوفة .»

« ولماذا تريدين إذًا إخفاء هذه الأحاديث المألوفة عنِّي ؟»

« أيُّ حديث أخفيه ؟»

« احتفظي بأسرارِك ؛ إنّي في غنًى عنها . ولكن أقولُ لك الحق : إن هذا الدكتور شديد الكبرياء والتقعُّر . يظن أنه لا أحدَ مثله في عِلمه وكماله .»

« إنه شخص مؤدَّب رزين .»

« صدقتِ ، مؤدب رزين كقالَب الثَّلج !»

فنهضتُ وأنا أقول : « أظنك لستِ في حاجة إليَّ الآن .»

« معذِرة إذا كنتُ قد أثَرْتُ غضبَك . ولكن أ نسيت أنّي صاحبَة الفضل فيما نعمتِ به من تفرُّج ؟ أنتِ دائمًا منكِرَة للجميل .»

فعَقَدْتُ يديَّ على صدري ، وقلت : « بل إنّي معترِفة لك بكل شيء .»

« يجب أن تعلمي أنّني أردتُ باصطحابك معي هذه اللّيلة أن أعوِّدَك الظهور في مثل هذه المحافل الراقية ؛ لكي تتعرَّفي الأدَب اللائق بها .»

« أشكر لك ، يا أمي .»

« إني أعدُّكِ لتكوني فتاة عصرية من فَتَيات الطَّبقة العاليَة ، ولكنَّك لا تريدين أن تفهَميني .»

ولم تتناول أمي الغداء في المنزل بحجَّة أن لديها أعمالاً مُهِمَّة تريد الخروج من أجلها .

وفي نحو السّاعة الرابعة بعد الظهر ، بينما كنت في الرَّدهة العليا ، مشغولةً بإصلاح بعض ملابسي ، إذ دقَّ جرَسُ الباب ، وكانت أم يونس هي الّتي تذهب دائمًا لتفتَحه . ولكنّي وجدتني أسارِع إلى النزول ، فما إن فتحتُ الباب حتّى وقفتِ مأخوذة .

كان القادم الدكتور داود فهيم !

وبادرني بقوله وهو يبتسم في تأدُّب : « لَمْ تتوقَّعي أن أحضُر ؟»

ولم أملِك أن أخفيَ حَيرتي وارتباكي ، فقلت :

« حقا ... مطلقًا ... ولكن تفضَّل .»

وظهرت أم يونس بِوَجْهِها المهزول ، وجسمها الأعجف ، وعينها المتفحصة ، وهي تسير في تُؤَدَة ، فقلت لها :

« الدكتور داود فهيم الذي كان معنا أمس .»

فقالت أم يونس وهي تحدِّق في الدكتور :

« حضرتك تريد لقاء الستِّ الكبيرة ؟»

فقال لها في هدوء ولُطف : « حسبي لقاءُ سلوى هانم .»

« قصدي أن أقول إن السِّتَّ الكبيرة خرَجَت .»

« لا بأس ! لقد جئت في زيارة قصيرة لا تستغرِق أكثر من بضع دقائق .»

فتقدَّمتُ إلى حجرة الزُّوَّار وقلتُ له :

« تفضَّل ، يا دكتور ، تفضَّل .»

وفتحتُ باب الحجرة ، فقال : « يمكنني إنجاز الموضوع الَّذي جئت من أجله وأنا واقف هنا ، إذا أردتِ .»

فقالت أم يونس موجِّهَةً كلامَها إليَّ : « الدكتور متعجِّل .»

فقلت لها في صلابة : « اذهبي فأحضري القهوة.»

فنظرت إليَّ في صمت ثمَّ انصرفَت عنّا وهي تجرُّ قدميها متثاقلة .

فلمّا احتوتني أنا والدكتور فهيم حجرة الزُّوَّار ، أخرجَ من جيبه منديلاً صغيرًا ، وقال :

« هو منديلُك ، أ ليس كذلك ؟ لقد رأيت عليه حرف «« س »» مطرَّزًا فتناولتُ المِنديل ، وسَرعانَ ما عرفته .»

فقلت :

« حقا ، إنه منديلي . أينَ وجدتَه ؟»

« وقع بصري عليه في السيّارة اتفاقًا ، فهمَمْت أن أعود به إليك قبل إيابي إلى منزلي ، ولكنّ الوقت لم يكن ملائمًا .»

ورأيته يحدّق أمامه ، وهو يقول : « إني مُغتَبِطٌ بعثوري على هذا المِنديل ؛ فقد أتاح لي فرصةَ زيارتكِ !»

فتشاغلتُ بالمِنديل أبسُطه وأطويه ، ولم أتكلّم .

وامتدّ الصمتُ بيننا هنيهة ، ثم سمعته يقول :

« كيف أمضيتِ بَقيَّةَ اللّيل ؟ أكان نومُكِ طيّبًا ؟»

« نَعم ، وقد استيقظتُ مبكِّرة .»

« تستيقظين مبكرة ، مع أنّ السهرة امتدت بنا إلى ساعة متأخرة ؟»

« إني مَهما أسهَرْ لا أتأخّر في يقظتي .»

« جميل جدًّا ، وهل تسْهَرين في ليالٍ كثيرة ؟»

« أسهر أحيانًا ، ولكن لا كَسَهْرة الليلة !»

« أظنُّك تسهرين في منازل صُوَيْحباتِك وجيرانك.»

« كلا ، بل هنا في المنزلِ ، أفصِّل ثيابي وأخيطها.»

« حسَن ! إذًا أنت الّتي فصلتِ هذا الثوب الّذي تلبَسينه الآن ، وأنت الّتي خِطْتِه .»

« الأمر كما تقول ، ولكنّه ليس بثوب ممتاز . إنه جلباب منزليٌّ ساذَج ، وهو فوق ذلك قديم .»

« إن في سذاجته سرُّ جماله !»

« الحقُّ أنَّ ظهوري به أمامَكَ يُخجِلني . كان عليَّ أن ...»

« إن كان لومٌ فهو عليَّ ؛ لأنّي فاجأتُكِ بزيارتي على غير موعد !»

ودخلت أم يونس حامِلة صينية القهوة ، فتناول الدكتور فنجانَةً وشرِب منها جرعة . و وجدت المرأة واقِفة لا تبرَح ، فقلت لها :

« امضي الآن ، يا أم يونس ، وسأعود حين يفرغ الدكتور من شرب قهوته .»

فرمَقَتْني أم يونس بنظرة إنكار ، والتفتت إلى الدكتور ترمُقه بمِثل هذه النظرة ، ثم خرجت صامِتة.

فابتسم الدكتور فهيم وهو يقول : « إنّها امرأة سليمة الطّويّة .»

« ولكنّها تضايقني جدّ المضايقة .»

« كيف ؟»

« إنها تتدخّل دائمًا فيما لا يعنيها ، وتضع نفسها في منزلة فوق منزلتها الحقّة .»

« يظهر أنها تخدِم في المنزل من زمن بعيد .»

« إنّي أراها منذ نشأتي .»

« هي حاضِنتُك إذًا .»

« إنها تُشبه أن تكون كذلك ، ولقد كان المرحوم جَدّي يعوِّل علَيها في كل شيء .»

« المرحوم جدُّك ؟»

« كنت أقيم معه في الإسكندرية ، فلمّا تُوُفِّيَ انتقلتُ إلى القاهرة مقرِّ والدتي .»

« هل أقمت في الإسكندرية مدّة طويلة ؟»

« حتّى العاشرة من عُمري .»

« و والِدُك ؟»

« لَم أرَهُ .»

و وجدتُني مندفِعة أُقصُّ عليه تاريخ حياتي ، وكيف قضيتُ النّشأة الأولى في كَنَف جدّي ، وكيف أعيش اليوم مع والدتي . ورأيتني أفضي إليه ببعض أسراري في غير كُلْفة ، وفي تحمُّس وحميّة .

وأذكر أن عينيَّ كثيرًا ما اغرورقت بالدُّموع وأنا أروي له حكايتي ، فكان في الفَيْنة بعد الفينة يَمدّ يده

إليّ ، ويتناول يدي يلاطِفُها في حُنُوٍّ بالغ ، ويقول وهو يرنو إليّ في إشفاق :

« لا تيأسي ، تشجّعي . إن الدُّنيا ستبتَسم لك لا مَحالة . »

و وجدتُ أم يونس تقتحم علينا الحجرة ، فصحتُ وأنا ثائرة غَضبى : « ماذا تريدين ؟ »

فأجابَتني بوجه متجهِّم : « جئتُ آخذُ فنجانة القهوة . »

« خُذيها . »

وجعلتِ المرأة تتوانى في أخذ الفِنجانة ، على حين كان الدكتور ينظر إليها مبتسمًا ، ثم ألفيته ينهض قائلاً : « يظهر أنّي قد أطلت زيارتي . »

« كلا . »

وهَمْهَمَت أم يونس في مجاملَة متكلّفة : « لقد شرّفت وآنستَ . »

ثُمَّ انصرفتْ في تلكُّؤ شديد ، و وقف الدكتور فهيم قُبالَتي يتوسّمني في تودُّد ظاهر ، وقال :

« أشكر لكِ حسْنَ لقائك إيّايَ ، وأؤمِّل أن تُتاحَ لي رؤيتك . ولكن لا أدري متى تسنَح الفرصة ، ولا سيَّما أنّي مقبِل على سفر . »

« سفر ؟ »

« سأرحل إلى ‹‹ إنجلترا ›› للتخصُّص في طبِّ المناطق الحارَّة . »

« متى ؟ »

« بعد أسبوع ، بعد شهر ، بعد سنة ، إنّي منتظِر صدور الأمر منَ الوزارة ! »

فغَشيَنا الصمت معًا ، ثم رأيته يمدُّ يدَه لمصافَحتي ، فمددت إليه يدي ، فقال وهو ممسك بها : « ثِقي أنّي لن أنسى هذا اللِّقاء ، لن أنسى ما شعرت به من مسرة وائتِناس ! »

فخفضت من بصري ، و وجدته يرفع يدي إلى فمه ، ويلثِمها لَثْمة طويلة حارَّة ؛ فاختلج قلبي ، وسمِعْته يقول : « أ تسمحين لي بمراسلتِك إذا رحلت؟ »

فرفعت عينيَّ إليه أقول : « كما تشاء . »

« سأوافيكِ مِن أخباري بما تَجدين فيه بعض التَّسْلية ، وأنتظر منك – لقاءَ ذلك – أن توافيني ببعض أخبارِك . »

« وهل تطول غيبتُك ؟ »

« لا أعلم على وجه التحقيق ، قد تكون الغَيبة بِضْعة أشهر . »

ودنا منّي أكثر من ذي قبل ، وقال لي :

« ثقي بأن لك صديقًا مخلصًا ، تملأ نفسَه الرغبةُ في إسعادك . »

وتذكَّرْت في هذه اللَّحظة جملة حمدي الّتي ألقاها على مِسمعي في جَلستنا الأخيرة ، إذ قال : « أ لا تثقين بإخلاص شخص مثلي ؟ »

ولكن سَرعان ما تزايل شبحُ الضّامر الأعجف من مُخيِّلتي ، و وجدتُني أدنو من الدُّكتور فهيم وأنا أهمهم :

« أشكُر لك ، يا دكتور ، أشكر لك من أعماق قلبي . »

ودقَّ جرَس الباب في هذه اللَّحظة ، فتركْنا حجرةَ الزوّار إلى الرَّدْهة ، فإذا بأم يونس تفتح الباب للطّارق . ودخلتْ أمي ، فما إن لمحتنا حتّى صاحت وعلى فمِها ابتِسامة مغتصَبَة : « الدكتور فهيم ! بونجور . »

« بونجور ، يا هانم ، لقد وجدت مِنديل سلوى هانم في السَّيارة أثناء عودتنا في اللَّيل ؛ فجئت الآن به . يؤسفني أنّي لم أسعد بوجودِك حين حضرت . »

« أشكر لك ، أشكر لك . »

« والآن ، أ تسمحين لي بالخروج ؟ »

« ولِمَ العجلة ؟»

« عليَّ أن أمضيَ لبعضِ العيادات الضرورية .»

ثُمَّ صافحها وانصرف . وسألت والدتي أمَّ يونس:

« ماذا أمضى مِنَ الوقتِ هنا حضرةُ الدكتور ؟»

فأخذت تَدْعَكُ يَديها ، وتقول : « بِضْعَ دقائق ، لا أكثرَ .»

« بل قولي نِصْفَ ساعة ، أو قولي ساعة كاملة !»

« ساعة ؟ لا ، واللهِ العظيم !»

والتفتت إليَّ والدتي وقالت : « وهل بقيتما وحدَكما ؟»

« نعم .»

فنظرت والدتي إلى أم يونس وصاحت بها قائلة :

« يقع ذلك وأنت في المنزل ؟»

فقلت على الفَور : « وماذا في ذلك ؟»

فرفعتْ أمّي صوتَها مُهتاجة تقول : « لا شيء ، لا شيء ، الدكتور المتعجل الَّذي لديه عيادات ضرورية ، يأتي لإحضار مِنديل لك ، فيمكُث معكِ ساعة في حجرة واحدة ، وأنتما مختَليان !»

فلم أُعِرْ كلامها أيَّ اهتمام ، وتركتُها تتصايح ، وسِرت متمهِّلة الخطو أقصِد إلى حجرتي .

— ١٦ —

مرَّ أسبوع لم يصل إليَّ فيه أيُّ نبأ يتعلّق بالدكتور فهيم ؛ فنالتني حَيرَة مُمِضَّة (١) ، وهاجمني قلَقٌ وضيق. ولم أعدْ أكترِثُ لشئون المنزل ، أقضي يومي مَلولةً أروحُ وأجيء ، أو أجلِس إلى النافذة شارِدة النظر . وإذا اشتدَّ بي الضّيق والملال قَصَدْت إلى خِوانِ الزِّينة ، وجعلتُ أُصفِّفُ شعري وأتعطّر .

ودخلت أمّي حجرتي ، فرأتني أتزيَّن ، فقالت :

« اسمعي ، يا سلوى ، إنَّها آخر مرة أحذِّرك فيها أن تأخذي شيئًا من أدوات زينتي . أ سامِعَة أنت ؟ هذه هي المرَّة الأخيرة . سأغلِق بابَ حجرتي بالمِفتاح ، فلا أدَعكِ تدخُلينها .»

فلم أُجِبْ ، وتابعتُ زينتي . أمّا بابُ حجرتها فقد عهِدتُّه منذ وطِئتْ قدمي هذا المنزل بلا مِفتاح ، ولا أدري ما الَّذي يمنعها من طَلَب النَّجّار لإعداد مِفتاح له ، ما دامت كثيرة الشَّكوى منّي ومن أم يونس لاقتحامِنا حجرتَها في مَغيبها . وما لبِثَتْ أمي أن اعتدلت في وِقْفَتها ، و وضعت يدها في خاصِرَتها ، وقالت وهي ناظِرَة إليَّ :

« حقا ، ليس هناك من يُضارِعك جمالاً .»

فظَلِلْتُ صامِتَة ، وأنا متشاغِلة بزينتي . وسمِعتُها تقول :

« نسيت أن أخبِرَك بشيء ، شيء قد يهمُّك .»

فنظرتُ إليها في غير مُبالاة ، متوقِّعةً أن تدلي إليَّ بهذا الخبرِ الَّذي زَعَمَتْهُ مُهما عندي ، وتوهَّمتُه غريبًا عليَّ ، فقالت :

« الدكتور داود فهيم سافر .»

« الدكتور داود فهيم ؟»

« الحمدُ لله ؛ لقد انفكَّتْ عُقْدَةُ لسانك . إنَّه سافر إلى ‹‹ أوربا ›› دُون أن يفكِّر في توديعنا ، أقصد توديعك !»

« توديعي أنا ؟»

« نَعَمْ ، أنتِ !»

« ولِمَ يأتي لتوديعي ؟»

« أ لَسْتُما صديقين ؟»

« أرجو منك ، يا أمي ، أن تفضّي هذا المُزاح . ولكِن مَن أخبرك بسفره ؟»

---

(١) ممضة : مؤلمة .

« الأستاذ رجائي . وقد ودَّعه على ظَهْر الباخِرة .»

« ومتى سافر ؟»

« لقد أصبحتِ ثرثارة . سافر منذ أيام .»

و وقفت ساهمة ، وسمعت أمي تقول :

« أنصح لك ألا تضيِّعي وقتك دائمًا أمام المرآة !»

وخرجتْ وهي تضحك ساخِرة .

فَقذَفْت بالمشط الَّذي كان في يدي ، ثم قصدت إلى النّافِذَة واستندتُ إلى حافتها ، ورحتُ في تفكير مُضطَرِب .

وفي غدٍ جاءتني الدادة شيرين من قِبَل سنية تدعوني لزيارتها ، فأمضيت اليوم على مألوف عادتي معها . ولاحظتْ عليَّ سنية صَمتي وسُهومي ، فذكرت لها أنّي أشعر بتَعب . وقد هَممتُ غيرَ مرة بأن أرويَ لها حديث السينما وسهرة المَرْقص وزيارة الدكتور فهيم ، ولكنّي لأمرٍ ما لم أنبِس بحرف .

وفي اليوم التالي كنتُ في حجرتي بعد الفراغ من تناوُل الغداء ، فسمِعْت جرس الباب يدقُّ ، فهُرِعت لأفتَحَه ، وكان الطّارق الأستاذ رجائي المحامي . فما إن رآني حتّى تهلَّل وجهه ، وقال :

« أهلاً وسهلاً ، سلوى هانم . كيف أنت ؟»

« بخير والحمد لله .»

« إني مسرور جدًّا برؤيَتك .»

ودخل الرَّدْهَة وهو يقول :

« كلَّ يوم تزدادين بَهاءً . ما شاء الله !»

وجلس على أحد المقاعد ، و وضع ساقًا على ساق ، وتابع حديثَه : « أظنُّ أن والدتك ليست هنا .»

« خرجَت قبل الظُّهر .»

فقال وهو يتلاعب بسلسلة ساعته :

« إنَّ الوقت ليس وقتَ زيارة حقا ، ولكنّي كنت أجوز بهذه الناحية اتِّفاقًا ، فرأيت من واجبي أن أعرِّج على البيت زائرًا .»

وكنت أسائل نفسي ، وأنا أختلس إليه النظر :

« كيف راقني هذا الرجل حين وقعتْ عيني عليه أوَّل مرة ؟»

وشعَرت بأنّني تسرَّعت في الذّهاب لفَتْح الباب ، وكان جديرًا بي أنْ أدع ذلك لأمِّ يونس ، ولكنّني تذكَّرت أنها خرجت بعد الغداء لإنجاز بعض الشئون . ومرَّ بخاطري حديثُ والدتي عَنْ سفر الدُّكتور فهيم ، فنظرت إلى الأستاذ رجائي منتظِرةً أن يفْضيَ إليَّ بشيء ، وسمعته يقول : « لقد أخبرتك قبلاً أنَّ مَتاجر الإسكندرية تفوق في بضائعها متاجر القاهرة .»

وصمتَ لحظة ، ثم دنا منّي ، وهمس في أذني قائلاً : « إنَّ صديقَك لم ينسَكِ !»

فاعترتني هِزَّة ، وتمتمت : « صديقي ؟»

ورفعتُ إليه بصري ، متطلِّعة متشوِّقة ، أتوقَّع أن يحدِّثني في شأن الدكتور فهيم ، فوجدتُه يُخرِجُ من جيبه عُلبة صغيرة ، ثم يقدمها إليَّ وهو يقول : « لقد قلتُ لنفسي : لا يليق بي أن أعود إلى القاهرة دون أن أجلُب معي هديَّة بسيطة لصغيرتي سلوى .»

وخبَتِ اللمعة الَّتي أضاءت عيني ؛ وساءلتُ نفسي : « لماذا اختارت أم يونس هذا الوقتَ تخرجُ فيه ، فأكونَ وحدي مع هذا الرجل ؟»

ورأيتُ الأستاذ رجائي يفتح العلبة ، ويُخرِج منها خاتمًا ، وقد أمسك بيدي ، فوجدتُني أجذبها إليَّ ، فأمسَكَ بها ثانيًا ، وهو يحاوِل وضع الخاتم في إصبعي ، فقلت له : « كلا ، كلا ، أشكر لك !»

« ماذا ؟»

« أشكر لك ، أشكر لك .»

« لعل الخاتم لم يعجِبْك .»

« إنه جميل جدًّا ، ولكن ... »

« ولكن ماذا ؟ »

« أمّي ، قد لا يروقها قَبولي إيّاه . »

« ولِمَ ؟ إنَّه هدية من صديق يقدّرُكُما ويضمرُ لكما كلَّ إعزاز واحترام . »

ثُمَّ انحنى عليَّ ، وقال مبتسمًا :

« ومع ذلك ليس من الحَتْمِ أن تعرف والدتُك شيئًا . »

واستطاع أن يضع الخاتَم في إصبعي ، على تمنُّع منّي ، ثُمَّ حدَّق في يدي وهو يقول : « إن الخاتم قد عَظُمَتْ قيمته ، إنه قد ازداد تألُّقًا في هذه اليدِ الكريمة ! »

وأراد أن يرفَع يدي إلى فمه ، فسمع حركة بالباب ، فتوقَّف .

وفي هذه اللَّحظة دخلت أم يونس حامِلة وعاء ، وكانت تحمِل مُلاءتها المتساقطة عن مَنكِبَيْها ، وتُحدِّث نفسها قائلة :

« العِياذُ بالله ! ليس هناك أثرٌ للرَّحمة في قلوب الناس . لقد أصبح التُّجار لصوصًا ملعونينَ ! »

و وقع نظرُها عليَّ ، فقالت :

« أ أنتِ هنا ؟ أ تُصَدِّقين أنّهم لا يريدون بيعَ رطلِ السَّمن بأقلَّ من خمسةٍ وعشرين قرشًا ، مع أنّني اشترَيته منذ أيام بـ ... »

ولمَحتِ الأستاذ رجائي في مقعده ، فأمسكت عن الكلام ، وأخذت تدقِّق النظر فيه ، وتقول : « ومَن هذا ؟ »

فقال الرجل : « أنا رجائي بك . »

فقالت له في مُجابهة: « السِّتُّ الكبيرة خرجت. »

« أعلَم ذلك ، بلِّغيها سلامي . »

وخطا يخرُج ، وهو يحيِّيني تحية رقيقة ، فوجدتُني أصحبُه حتّى الباب ، فالتفت إليَّ قائلاً : « لا تشقّي على نفسك . »

ثم رأيته يهمس في أذني :

« أ ليست بك رغبةٌ في الذَّهاب إلى السّينما مرة أخرى ؟ »

فأجبت ساهِمة : « السينما ؟ »

« هناك أفلام عظيمة في هذا الأسبوع . »

« أشكرك لك ، ولكن أخبرني . »

« ماذا ؟ »

وتوقَّفتُ عنِ الكلام هُنَيْهَةً ، وأنا أدْعَكُ مِنديلي في يدي ، ثم قلتُ في تَلَعْثم : « الدكتور فهيم ، هل سافر ؟ »

فحدَّق فيَّ الأستاذ رجائي لحظة ، وهو صامت ، ثمَّ قال :

« نعم سافر ، لقد وَدَّعتُه على ظهر الباخرة . »

ثمَّ انحنى عليَّ ، وقال خافضَ الصوت :

« سأختار لك فِلْمًا رائعًا في هذا الأسبوع . كوني على يقين مِن أنّي حريص على إبهاجِك وإسعادك على الدَّوام ! »

وفي لَمْح البصر وجدتُني أنزِع الخاتم من إصبعي ، وأعيدُه إلى علبته ، وما هيَ إلا أن ناولتُهُ إيّاها ؛ فنظر إليَّ مبهوتًا ، فتراجعتُ مسرِعة أُقفِل وراءَه الباب .

وما إن خَطَوْتُ في الرَّدْهة خُطوتينِ حتّى واجهتْني أم يونس ، وسمِعتُها تقول :

« أ تريدينَ أن تُسْمِعَني أمُّك شتائمَها هذه المرة أيضًا ؟ »

فصِحْتُ بها : « أُتركيني وشأني ! لا تزعجيني بكلام فارِغ ! »

وصعِدتُ إلى حجرتي ، وأنا أشعُر بالنّار تتأجّج في رأسي .

— ١٧ —

وتصرّمت الأيّام ، وسألت عن الساّعة الّتي يأتي فيها ساعي البريد إلى الحارة ، وأخذت أرقب مَقدَمَه من نافذة حجرتي . وكلّما لمحتُه آتيًا تتدلّى على جنبه مَحفظته المنتفخة المفتوحَة ، تكاد تتساقط منها حُزَم الرّسائل ، أراني قد تطلّعت إليه ، وأشعر بقلبي يزداد خُفوقه ، فيمرُّ بمنزلنا لا يَلوي عليه ، وهو يَمسح وجهَه المكدود ، فينالني أسفٌ مُمِضٌّ .

وأحسُّ بنفسي أحقِد على ذلك السّاعي الدّميم ، ثم أغلِق النّافذة في عُنف ، وأطرح نفسي على السّرير ساهمةً أفكِّر .

وبينما أنا على هذه الحال ذات يوم ، تذكَّرتُ جُملة أمّي :

« إن الرجال أمْهر خلقِ الله في صناعة الكذِب! »

فانفرجتْ شفتايَ في حسرة ، وأسبَلْتُ جَفني ، واليأس يتسلّل إلى قلبي .

أمّا الأستاذ رجائي فلم أعد أرى له ظِلا . على أنّي دخلت مرة على أمّي لأحيّيها تحيّة الصّباح ، فلفت نظري على الفور خاتَم في إصبعها ، وكان هو الخاتم الّذي أراد الأستاذ رجائي إهداءَه إليّ ، فأبيت قبولَه . ورُحت أدقّق النظر في الخاتم ، فقالت أمي :

« إنه خاتم لطيف ، اشتريتُه منذ أيّام قليلة من محلّ ‹‹ زهّار ›› . »

فحدّقت فيها وأنا أقول : « حقا . إنه خاتم لطيف . مبارك . »

وفي ذلك اليوم جاءتني الدّادة شيرين تدعوني أن أزور سنيّة ، فذهبت إليها ، وتلقّتني صديقتي بالباب ، وبالغتْ في الترحيب بي ، كشأنها معي ، وطفِقَتْ تغمرني بقُبلاتها الّتي لا ينضب لها مَعين (١) .

ولَمّا دخلنا البَهْو ، رأيت فيه حمدي ، فقالت سنية وهي تضحك :

« لقد تفضّل اليوم بزيارتي . »

وسمِعتُه يُغمْغم : « العَفْو ، العفو ! »

وتقدّم منّي يصافحني وهو صامت خافِض البَصَر ، فإذا هو قد تقوّس ظهرُه ، وازداد سَقمًا ونَحافة ؛ فقلت له في إشفاق : « لقد طالت غيبتُك ! »

« إن مشاغلَ الحياة كثيرة ، و ... »

فقاطعتُه بقولي :

« خَلِّ عنك ؛ إن مشاغل الحياة لا تعوقك عن زيارة الأصدقاء ! »

فحنا ر أسه ، وأخذ يدعك يديه ، وقال : « أؤكّد لك ... أؤكّد لك ... »

ولم يَزِد . فمضت بنا سنية إلى حجرة الزوّار ، وخرجت تطلُب لنا شراب اللّيمون . وشاع الصَّمت بيني وبين حمدي وقتًا ، وكانت تبدو عليه علائم الحيرة والقلَق ، على الرّغم ممّا كان يتظاهر به من الهدوء .

وطالما شعَرت بأنّه يرغب في فضّ هذا الصمت الموصول ، فيخونه الإفصاح . وأخيرًا قلت له: « إنّي عاتبة عليك أشدَّ عتاب ! »

فرفع إليَّ بصرَه الزّائغ ، وقال : « تعتبين عليَّ ؟ لماذا ؟ »

« أ تذكُر قولَك في آخر لقاء لنا ؟ »

« أذكر كلَّ شيء ! »

« ولكنك لم تفعل شيئًا . »

---

(١) لا ينضب لها معين : لا تنقطع .

فطأطأ رأسه ، وقال في سُهوم :

« وماذا يستطيع شابٌ مُحطَّم مثلي أن يقدِّمَه لك؟»

« لقد قلت لي إنَّ المرء إذا أخلص النيَّة وامتلأ قلبُه بالإيمان ، استطاع أن يفعل كثيراً .»

فانطلق يدعَك يديه بشدة ، وهو يقول :

« يظهر أنَّ إخلاص النيَّة والإيمان يُعْوِزُهما شيء آخر .»

« وما هو هذا الشيء الآخر ؟»

فتلفَّت حوالَيْه زائغَ البصر ، وقال في حسرة :

« أنا فتًى محطَّم ، منكودُ الحظِّ ، لا فائدة تُرْجى من مثلي !»

« وأنا ، هل أنا محطمة منكودة الحظِّ مثلك ؟»

فتطلَّع إليَّ بعينه الحائرة ، وقال : « هذا شيء مؤلِمٌ ، مؤلم جدَّ الإيلام . أخبريني ما الَّذي يجِبُ عليَّ أن أفعَله من أجلِك ؟»

فقلت خافِضَةَ البصر ساهِمة : « لا شيء ، لا شيء .»

فدنا منّي ، وقد بدا عليه شيء من التحمُّس ، وقال:

« يجِبُ أن أراك ، يجِب أن تُفضي إليَّ بمتاعِبك كلِّها . يجمُل أنْ أتحدَّث إليك طويلاً فيما يجِبُ عليك أن تعمليه ؛ قد أستطيع أن أقول لك شيئًا تجدين فيه نفعًا .»

« إني أثِق بك ، يا حمدي . أنت صديق مخلِص .»

« أ تسمَحين أن أزورك ؟»

« ولِمَ لا ؟ هذا شيء يسرُّني .»

« يسرُّك حقا ؟»

« و كيف لا يسرُّني ؟»

فنظر إليَّ في يَقَظَة ، وعيناه متألِّقتانِ ، ولم يلبث أن قال :

« متى أستطيع أن أزورك ؟»

« في أيِّ وقت تشاء .»

« أ لا تضربين لي موعدًا ؟»

« تعالَ غدًا .»

« غدًا ؟ أ جادَّة أنت ؟»

« كلَّ الجدِّ .»

« في أية ساعة ؟»

« في السادسة .»

« سأحضر .»

« لا تنسَ أن تحضِر معك صَفَّارتك .»

« صَفَّارتي ؟ أ ما زلتِ تذكرينَها ؟»

« وهل ننسى صَفَّارة حمدي ؟»

« صَفَّارة الطُّفولة .»

« سنمضي وقتًا طيبًا .»

« بلا شكٍّ .»

و وجدت وجهَه قد تورَّد بِشراً وأنسًا ، ومال عليَّ يقول : « سَأسْمِعُكِ مقطوعات جديدة مِن تأليفي .»

« جميل جدًّا .»

ودَخَلَتْ علينا سنية في هذه اللَّحظة بشراب الليمون ؛ فصمتْنا ، ولم نخبرها بشيء . ولَمّا صافحَنا حمدي مستأذنًا ، ضغطتُ يدَه ضَغْطَةً خاصَّة ، فأجابني بابتسامة .

وفي غدي أعددت العُدَّة لاستقبال حمدي ؛ فنظَّفت حجرتي ورتَّبتُها ، وارتديت ثوبًا غير ثوب البيت ، وبَدَوت متعطِّرة حَسَنة الهِندام ، ورغِبْتُ إلى أم يونسَ في أن تُطيِّب القُلَلَ بالبَخور ، وتُعِدَّ شراب اللَّيمون .

وحلَّت السَّاعة السَّادِسة ، فمكثتُ أنتظِر في الرَّدهة بِجوار الباب . وانقضى ربع ساعة ، فتململت

في جِلستي ، وخرجتُ أتطلّع إلى الطّريق ، ولكنّه كان مقفرًا صامتًا كما هو شأنه ، فدخلْتُ الرّدهة ثانيًا ، وطفقْت أغدو وأروح . ونظرت إلى ساعتي ، فإذا بالوَقت منتصف السّابعة ؛ فصِحت بأم يونس : « كم الساّعة الآن ؟»

فأجابتني مِن أعماق المَطهى : « ستّة ونصف ، يا بنتي .»

« ساعتك مختلّة ، مختلّة !»

وعُدْت إلى الباب أنتَظِر بجواره . ماذا أبطأ بحمدي ؟

و وضعتُ ساعتي على أذني ، فوجدت دقّاتها منتظِمة كدقّات القلب السليم . أين حمدي ؟

ربّما كان قد أخّره التّرام ، أو ربما عاقه عن الحضور عائق هيّن ! وسمعتُ حركة في الطريق ، فهُرعت إلى الباب ، وفتحته ، فوقع بصري على غلام حقير يعدو خلف قِطة ويقذِفها بحجر . ودخلت وأنا شديدة السُّخط على هؤلاء الأطفال الهمَل المشرّدين ، الّذين يقلقون راحة السُّكان ، ولا يرحمون الحيوان الألوف الضعيف .

وحلّت السّابعة ولم يحضُر حمدي ، فهَرولت إلى أم يونس ، وقلت لها محتدّة : « لقد توسّل إليّ أن أضرِب له الموعد ، فما باله لا يحضر ؟ أية وقاحة هذه ؟»

فهزّت كتفَها ، فاستأنفتُ أقول وما زلت مُغْضبة اللّهجة :

« إنه فاقِد الذوقِ ! لا أدري لماذا رضيت أن يزورني ؟»

ودقّ الجرس في هذه اللّحظة ، وتواصلتْ دقاته ، فخفق قلبي ، وقلت لأم يونس : « إنّه هو ، عَجّلي بإعداد القهوة ، وأحضري بعدَها شراب اللّيمون . وليكن كلُّ شيء نظيفًا .»

جريتُ إلى الباب أفتحُه ، فواجهني صبيٌّ في نحو العاشِرة من عمرِه ، حافي القدمين ، على رأسه طربوش واسِع يكاد يستر أذنَيْه . وما إن وقع بصرُه عليّ ، حتّى قال : « سيِّدي حمدي مريض اليوم ، ولا يستطيع الحضور ، وهو يعتذر إليك ويبلغك أزكى السّلام .»

وقد نطق بهذه الجملة الطويلة على التتابع في لهجة ثابتة ، كأنه في المدرسة يُلقي من محفوظاته بين يدي معلّمه . فألقيت عليه نظرة متفحِّصة ، فبدا عليه القلق ، ورأيته يهمُّ بالرُّجوع ، فمددتُ يدي إلى أذنِه ، وشددته منها حتّى أدخلته الرَّدْهة ، وأقفلت الباب ، ولم أعبأ بما أظهره من تمنُّع واستِنْكار ، ثم عرَكْت أذنه ، وأنا أقول: « سيِّدُك حمدي ليس بمريض ، أعرف أنه ليس بمريض. قل الحقّ ، ولا تكذب عليّ .»

فانطلق يقول : « والله العظيم إنه مريض ! والله العظيم إنه مريض !»

فقلت له في إشارة تهديد :

« سأقتلع أذنك في يدي إذا أصرَرْت على كذبك!»

وعركتُ أذنَه عَرْكة عنيفة ، فتلوّى الغلام متألّمًا ، وصاحَ مستغيثًا ، فقلت له : « صدِّقني ، إنّه ليس مريضًا ، أليس كذلك ؟»

« حقا ، إنه ليس بمريض والله العظيم !»

فتركت أذنَه ، فتراجع ينخرِط في بكاء وشهيق ، فَدَنَوْت منه ألاطِفُ ظهرَه ، وأقول : « يجب أن تكون صادِقًا . اِنتظِر حتّى أحضِر لك كوبًا من شراب اللّيمون .»

فحملق فيَّ الصّبي وأخذ يمسَح أنفه وعينيه ، فذهبت على الفور ، وطلبت إلى أم يونس أن تناولني كوبًا من شراب اللّيمون ، فقالت : « هل حضر ؟»

« كلا ، لم يحضُر بعد ، ولكنّي أطلُب هذا

الكوب لغلام فقير رأيتُه في الطَّريق يستجدي ، فأدركتني الشَّفقة عليه .»

وذهبت بالكوب إلى الصَّبيِّ ، فأفرغه في فمِه دُفعة واحِدَة ، وأشرق فمُه بابتسامة واضحة ، فانحنيت عليه، وهمستُ في أذنه : « إذا سألك سيِّدُك حمدي فاحذَرْ أن تخبرَه بما وَقع . أ فاهِمٌ أنت ؟»

« فاهم ، واللهِ العظيم .»

وفتحتُ الباب ، فانطلق يعدو كما تعدو قِطَّة نَفُور. وقصدت إلى حجرتي ، فاستندت إلى حافة النّافذة ، ورُحت أفكِّر في شأن حمدي . حقا لم يَعْدُ الحقيقة حين قال لي :

« إنه فتًى محطَّم ، لا فائدة تُرْجى منْه .»

حقا ، إنَّه لشخصيةٌ تافهة ، مضطربة ، ضعيفة ، لا تستحقُّ منِّي إلا الإهمال ؛ فعليَّ أن أنساه ، وأن أنسى ما بدر منه .

وسَرعان ما طاف بمخيِّلتي وَجْه الدكتور داود فهيم الَّذي يَفيض حيويَّة ورجولة ، وخُيِّل إليَّ أنّي أسمع صوتَه وهو يقول لي :

« أ تسمحين لي بمراسلتِك إذا رحلتُ ؟ سأوافيكِ من أخباري بما تجدين فيه بعض التَّسْلية .»

وراعني الصَّمت الَّذي يخيِّم حولي ، فأخذت أتطلَّع إلى الحارة . شدَّ ما هي عابِسة ! منازِل قديمة باليَة على وَشْك الانهيار ، أكثرُها خِلْوٌ مِنَ السُّكان ، تَصْفِر فيه الرِّياح . وهذا السُّكون الموحش الجاثِم فوق الصُّدور ، شدَّ ما هو ثقيل خانِق ! حتّى الباعة الجوَّالون يَضِنّون بأصواتهم على تلك الحارة المُقفِرة .

وتمثَّل لي في هذا الوقت قَصْر سنية وحديقته الفيحاء . يا لله ! ما أشدَّ الصمت في هذه الحارة ! أ لا أسمع صوتًا واحداً يَرِنُّ فيها ؟ إني لأُرحِّبُ حتّى بنُباح الكِلاب .

وتراءى لي خيال حمدي في هذه اللَّحظة ، كأنه مومياء فِرْعَوْنيَّة متدثِّرة بلفائفها ، تترك تابوتَها مَحْنيَّة الظهر ، وتنظر إليَّ بعينيها المفرَغتَيْن .

وسمِعت وقعَ خُطوات ، فالتفتُّ فإذا بأم يونس تدخل الحجرة حامِلة سلطانية مُلِئت بشراب اللَّيمون ، فصِحت بها :

« ماذا تريدين ، يا أم يونس ؟»

« لقد أحضرت لكِ شراب اللَّيمون لكي تذوقيه. إنه كالشَّهد .» فجذبتُ السُّلطانيَّة من يَدِها ، وقذفتُ بها في الحارة ، فسُمع لها دويٌّ قويٌّ وهي تتكسَّر !

ونظرتُ إلى الشَّراب المنسكِبِ على الأرض ، فَخيِّل لي في غَسَقِ الغُروبِ أنَّه دماء تَنْشَخِبُ مِن جروح ، فغطَّيتُ وجهي بيديَّ ، وارتميتُ على كتف أم يونس وقد غلبتني نوبة نَشيجٍ وانتحابٍ ، كما يَفعل الأَطفال .

— ١٨ —

تفقَّدتُ أمي في اليوم التالي ، فلم أجِد لها في البيت ظِلا .

فقُلتُ لأمِّ يونس : « إنَّها لم تُرِنا وَجْهَها منذُ يومين . أين هي ؟»

« العلمُ عند الله ، يا بنتي ؛ فقد تكون مدعوَّة عند إحْدى صواحبها .» وبعد هُنَيْهة استأنفتْ تقول: « أ لا ترغبين في الخروج ؟»

« الخروج ؟ وأين تريدينني أن أذهب ؟»

« تذهبين معي لِزيارة ضريح ‹‹الست أم هاشم››، ثم نقصِد إلى الحاجَّة ‹‹ أم البشاير ›› .»

« الحاجة أم البشاير ؟»

« سيِّدة صالِحة مبروكَة ، وأنا أعرِفها من عهد بعيد .»

وهبطَتْ عليَّ فِكرة جريئة على حين فجأة .

فصمتُّ هُنَيْهَة ، ثم قلت : « أ معتزِمَة أنت الخروج حقا ؟»

« قُبَيْلَ العصر ، بعد الفراغ مِن أعمال المنزل . وأنت ؟ ألا تصاحبينني ؟»

« كان ذلك بوُدّي ، ولكنّني أشعر بتعَب ، وأوثِرُ الرّاحة .»

« ما هذا الكَسَل ؟ إن زيارة «« أهل البيت »» مفيدة لك .»

« لا أستطيع ، يا أم يونس . اذهبي وحدك .»

وقضيت في حجرتي وقتًا ، وقد استبدَّتْ بي تلك الفكرةُ الجريئة . يجب أن أنفِّذَها ، يجب أن أردَّ الإهانة الّتي لحِقتني من ذلك الشّخص . يجب أن أفهِمَه أنّني لست ألعوبة في يده ، وأن شخصيّتي أقوى من شخصيّته ، وأعزُّ مكانةً .»

وما كادت أم يونس تغادِرُ المنزل حتّى قصدتُ إلى حجرة أمّي ، وجعلتُ أفتِّش في صِوان ملابِسها ، وأعرض ما فيه ثوبًا ثوبًا ، وسَرعان ما استقرَّ اختياري على ثوب ورديّ وحِذاء أحمر ومُلاءة بلديَّة وبُرْقع . ورُحْت أرتدي حُلّتي الجديدة ، ثم تزيَّنْت وتعطَّرت مُسْرِفةً في ذلك كلَّ الإسراف ، غيرَ مشفقة على ما حواه صِوان أمي من حِقاق (١) وقوارير .

و وقفتُ أمام المرآة أتأمَّل نفسي ، ثم ابتسمت ، وتركت المنزل وقلبي موصول الخُفوق .

كانتْ هذه هي المرَّةَ الأولى الّتي أخرج فيها وحدي ، فجمعتُ شجاعتي ، وركبتُ السّيّارة الحافلة إلى « ميدان فريدة » . وما كِدْت أمشي إلى محطة التّرام ، حتّى رأيت رجلاً يقترب منّي ، وهو يقول :

« تبارك الخلاق !»

وأقبل آخَرُ بعد ذلك ، وقال في جُرأة عجيبة :

« أ أحْضِر مَركبة ، يا هانم ؟»

ولَمّا دنا تَرام الجيزة وهممتُ أن أركب فيه ، سمعتُ همسًا : « ولماذا أنتِ متعجِّلة ؟»

اتخذتُ مَقعدي في مقصورة السيِّدات وأنا أبتَسِم عابِثة . وكان ركوب ترام الجيزة أمرًا يكاد يكون مألوفًا لديَّ ، فقد طال ركوبي إيّاه إلى منزل سنية مع الدادة شيرين .

ولم يكن بالمقصورة غيري ، ولكن ما إن وقف الترام في المحطة الأولى في شارع فؤاد ؛ حتّى صَعِدَتْ سيِّدة بدينة مترهِّلة الجسم ، وجلستْ على المَقعد أمامي ، فملأته كلَّه . وضايقني وجودُها ؛ إذ كنت أوثر أن أخلُوَ إلى نفسي . ورأيتها تُحدِّق فيَّ بين فَترة وأخرى ، وتمضغ اللُّبان في خلاعة ، فحولْت وجهي عنها ، ونظرت منَ النّافذة .

وبعد قليل سمعتها تقول : « أ ليس هذا ترام الجيزة .»

فالتفتُّ إليها ، وقلت على عَجل : « نعم ، هو ترام الجيزة .»

ثم أشحْتُ بوجهي عنها ، أنظر منَ النافذة ، وكنت أسمع تنفُّسَها وصَرير فمِها وهي تمضغ اللُّبان.

وانقضتْ فَترة دون أن تتوانى عن المَضْغ لحظة ، وكِدْت أقول لها :

« دعي اللُّبان حينًا ؛ فإن مضغَكِ إيّاه يثير أعصابي .»

وسمِعتها تقول : « وحضرتك ذاهِبة إلى الجيزة ؟»

فالتفتُّ إليها ، وقلت : « نعم .»

« حضرتك نازلة في محطة الجيزة ؟»

فجعلت أحدُّ من بصري هُنَيْهَة ، ثم غمغمت :

« قد أنزل فيها ، وقد أنزل قبلها .»

---

(١) حِقاق : جمع حُقّ ، وهو الوعاء الصغير .

وغضضت الطَّرْف عنها ، وانثنيتُ أنظر من النَّافذة ، ولا أعير وجودَ المرأة التفاتًا . وكان حَنَقي عليها يمنعني أن أخلُوَ إلى تفكيري ، ولكن على الرَّغم من ذلك كنت أسائل نفسي أحيانًا : « هل أخطأتُ بخروجي ؟ هل أصبت ؟ لماذا أكون قد أخطأت ؟ فيمَ الخطأ ؟ أ مسلوبة الحرية أنا حتّى أعُدَّ خروجي للنُّزْهة إلى الأهرام جريمة ؟ يجب أن تكون لي إرادة ، يجب أن أنفِّذ ما أرغب في تنفيذه لا أنقادُ لسُلطان أحدٍ .»

وكنت أسمع دائمًا مضغَ اللُّبان وفرقعته ، فيخيَّل إليَّ أن هذه السَّيدة تقصِد بعمَلها هذا أن تضايقني وتثير غضبي .

وأخيرًا رأيتُها تترك الترام في المحطة القريبة من طريق « إنبابة » (١) فحمدت الله على انصرافِها . وأرحت نفسي على المَقعد ، وانطلق الترام يخترق طريق العجوزة ، وكان الهواء لطيفًا منعشًا . ثم اقتربنا من الجيزة فعاودني شيء منَ الخوف ؛ إذ خشيت أن يصادِفني أحدٌ من معارِف سنية أو أتباعِها ، فيضايقني بأسئلته ، ولكنّي تشجَّعتُ ونزلتُ مِن ترام الجيزة أستأنف الرُّكوبَ في ترام الأهرام . وما إن اندفع في الطريق ينتَهِبُه حتّى بدا لي سخف الأوْهام الَّتي هاجَمتْني .

ماذا يَهُمُّني من أمر النّاس ؟ لا شأن لأحدٍ بي ، ولا سلطانَ لإنسانٍ عليَّ .

وهذا الفتى الضّامر الأعجف سأكيل له الصّاع صاعَين . هذه « المومياء » الكريهة المنظر سأفهِمُها حقيقة أمرِها ، وسأضعها في الموضع الَّذي تستحقُّه .

وكانت المروج الفسيحة والمغاني الأنيقة على جانبي الطَّريق ، يعبرها ناظري في عَجَلة ، والهواء يهبُّ على وجهي قويا فأستَقبِله في شغف شديد .

وأخيرًا بلغنا ساحة الأهرام فتركت التَّرام ، وسِرت بخطوات متردِّدة ، وأنا أتطلَّع دائمًا حولي . وملكتني الحَيرة ، وخطر ببالي أن أعود أدراجي ، و وقفت لا أدري ما أفعل ؟ ومرَّ بي غلام من بائعي شراب « الغازوزة » ينادي مشيدًا بشرابه ، وأقبل يعرِض عليَّ بضاعته ، وانبرى يغريني ما وسِعه الإغراء ، فطلبت منه زجاجة ، فما أسرع أن نزع سدادَتها في خفَّة ولَباقة ، وناولني الزُّجاجة ، فوقفت أشرب .

و وجدتُني أندفع مسائلةً ذلك البائع : « أ مِن أهل هذه الناحية أنت ؟»

« نعم .»

« أ تعرف سكّانها ؟»

« كلُّهم عملائي ، أوافيهم بكلِّ ما يطلُبونَ . إنّي لست بائع غازوزة فقط ، يا هانم .»

فقلتُ في شيء منَ التَّلَعْثم : « أ تعرِف منزلَ حمدي أفندي ؟»

ففكَّرَ لحظة ، ثم قال : « حمدي أفندي الطويل النحيف ؟»

« نعم .»

« معلِّم الموسيقى ؟»

« هو عينه .»

« ليس منزله ببَعيد . أُنظري ، هُناك على مَقْرُبة مِن هذه القرية . اتَّخذي أولاً الطريقَ المعبَّد ، ثمَّ انحدري منه ، واسلُكي الطريقَ الأعفَر (٢) .»

فشكرتُ له ، ثم جرعتُ بضع جرعات على عجلٍ مِنْ زجاجة الغازوزة . وما هي إلا أن مضيتُ حيثُ دلَّني البائع ، ولم أضلَّ الطريقَ . و وجدتُ المنزل في البُقعة الَّتي أشار إليها ، فإذا بِه منزل حقيرٌ تتقدَّمُه حديقَةٌ صغيرة لا يحوطُها سِياج . و وقفت محجمة متهيِّبة ؛ وخالط أذُنيَّ في هذه اللَّحظة صفيرُ ناي منبَعِث من

(١) المقصود بها « إمبابة » .

(٢) الأعفر : ما علاه العَفَر ، أي التُّراب .

المنزل ، فوقفتُ بُرْهَة أنظر ماذا أفعل . واسترسل النايُ في لَحنه ، وكانت نغمتُه تنطوي على أسًى دفين ، نَغمة ساذَجة رَخيِّة تصل إلى أعماق القلوب .

وعاودَني التردُّد ، وطاف برأسي شبَح حمدي ينظر إليَّ بعينيه الذابلتينِ الحائرتينِ ، وهو يهمهِم :

« أنا فتًى محطَّم منكود الحظ ، لا فائدةَ تُرْجى من مثلي .»

و وجدتُني أخترق الحديقة على مَهْل ، وصفير الناي يجتذبني إلى الباب. و وقفت تُجاهه أتسمَّع ، ثمّ أخذت أقرع الباب ، وقلبي خافق رفّاف ، وفتح بابُ المنزل ، فإذا بي أمام حمدي وجهًا لوجه ، فأخذ يحدِّق فيَّ دَهِشاً ، ثم قال : « من تطلبين ، يا سيِّدتي ؟»

فقلت له على الفَوْر وأنا جاهدة في أن أغيِّرَ نبراتِ صوتي :

« أطلُب الأستاذ حمدي معلِّم الموسيقى .»

« أنا حمدي ، أيّةَ خدمة تبغينَ ؟»

فاندفعتُ أقول : « أريد أن تعلِّمني أغنية .»

فحدَّق فيَّ مبهوتًا ، وغمغم : « أغنية ؟ أغنية ؟»

« الأغنية الَّتي كنت تعزفها اللَّحظة على الناي .»

ثمّ ما عتمتُ أن خلعتُ برقُعي وأنا أتضاحَك ، فنظر إليَّ حمدي في اضطراب ، وقد تضرَّج وجهُه ، وسمعته يلوك هذه الكلمات في فمِه :

« مَن ؟ مَن ؟ سلوى !»

« لقد جازَتْ عليكَ اللُّعبة ، وهذا ما رَغِبْت فيه .»

واسترسلتُ في ضَحِكي ، فرأيت وجهَهُ قد تجَهَّمَ . فنظرت إليه وقلت : « أ على هذا النَّحو تستقبل ضيفَكَ ؟»

فأقبل عليَّ وهو يَدْعَكُ يديه ، ويقول: « تفضَّلي ، تفضَّلي !»

وبعد أن سكَتَ لحظة ، قال : « لِماذا أخفيتِ نفسَكِ عنّي .»

« لأنّي أردت أن تكون مفاجأة ، فأخطأت في تقديري .»

« كلا ، لم تُخطِئي في تقديرك قطُّ ، ولكنْ ...»

واقترب منّي وهو ينظر إليَّ في اهتِياج ، ثم أمسك بيدي قَلِقًا حيرانَ ، وشَفَتاه تختلِجان بلا كلام .

وسمعْته يقول خافِتَ الصَّوْت : « هذه المُلاءة ... هذه المُلاءة !»

ثم تزايلتِ الكَلماتُ على فمِه ، فقلت له مبتسمة :

« أ أعجبَتْكَ هذه المُلاءة ؟»

فضغط يدي ، وانفرج فمُه الهزيل عن ابْتِسامة مِلؤها الرَّجاء والتعطُّف ، ثم قال في صوت ضعيف : « لا رَيْبَ أنَّك متعبَة ؛ المنزل بعيدٌ عنْ محَطَّة الترام. تعالَي اجلسي ، تعالَي .»

وأسرَع يبحَث عَنْ مَقْعَدٍ يصلُح لأن أجلِسَ عليه .

وكان البَهْوُ مُهوَّشَ الأثاث : بيانٌ قديم مُهَدَّم ، وبَعض مقاعد متربة ، تتجمَّع عليها كوماتٌ منَ الصُّحف والدَّفاتر والأوراق ، التي تحوي خُطوط الأدوار الموسيقيَّة .

ورأيته يَقلِبُ مَقعدًا ليُخليه ممّا عليه ، ثُمَّ انهال عليه بمنديله ينظِّفه ، وقدَّمه إليَّ ، فجلستُ عليه . واندفع بعدَ ذلك محاولاً أن ينظِّم ما يشتَمل عليه البهو : يرفع كومات ويضع كومات ، يَقْلِبُ مقعدًا ويُقيمُ آخر . ولكنَّه معَ ذلك كلِّه وَجَد البهوَ قد ازداد اضطرابًا . وألفى التُّراب يعقِد في جوِّه سُحبًا قاتمة ، فوقف حائرًا يتَصبَّب منه العرقُ جُزافًا ، وقد اكتسى شعرُه الأشعثُ وملابِسُه المهمَلة بطبقة كَدْراء (١) .

فقلت له وأنا أسْعُل : « دعْ عنكَ هذا . أ تُراني

(١) كدراء : تميل إلى السَّواد .

غريبة تتكلّف لي ؟ اجلِس ، لا تُجهِد نفسَك . أ نضيّعُ الوقت في مثل هذا ؟ لقد خرجتُ متنزِّهة إلى الأهرام ، وتذكرتُ أنّك تسكُن غيرَ بعيد منها ، فعرّجْت عليكَ أزورُك ، لأسألَ عن صحّتك .»

فغضّ من بصره ، وهو يقول :

« أشكر لك ، يا سلوى ، أشكر لك .»

« سأتركك بعد دقائق .»

فرفع رأسه ، وقال : « لماذا لا تمكُثين وقتًا أطول؟»

« لا تنسَ ، يا حمدي ، أن الطريق طويل ، ويجب أن أعود إلى المنزل قبل غيوب الشّمس .»

« إن غيوب الشمس غيرُ قريب . أخبريني أيّهُما تؤثرين : شراب البرتقال أم عصير اللّيمون ؟»

« قلت لك لا تُتعِب نفسك .»

« أقدّم لك أولاً قهوة .»

« أ رأيتَني أشرب القهوة ، يا حمدي ، من قبلُ ؟»

« لا تردّي مَطلَبي ، دعيني أقدّم لك شيئًا : برتقالاً مثلاً ، برتقالاً جَنيا (١) من حديقتي .»

« أ في حديقتك شجرُ برتقال ؟»

« أ لم ترَيْه ؟»

« لم ألاحِظ وجودَه في الحديقة . إذنْ نذهب إليه.»

وقمت فخلعت المُلاءة ، وهو يختلِسُ النّظر إلى ثيابي : « أ هي ثيابك ؟»

« أ في ذلك شكٌّ ؟»

« إنها بديعة ، بديعة جدًّا !»

فطفِقت أضحَك وأنا أقول : « لقد سمعت إطراء كثيرًا من غيرك !»

« ممّن ؟»

« من رجل عابثني بجوار محطة الترام ، وآخرين في الطريق .»

« عفوًا ، أنا لم أقصِد ...»

وانكفأ على يديه يدعكُهما بشدّة ، فقلت له :

« إطراؤك يحمِل معنًى آخر ، معنًى نبيلا بالطّبع.»

« أشكر لك .»

وخرجنا إلى الحديقة ، وزلّتْ قدمي أثناء السّير ، فانخلع حذائي ، فأسرع حمدي يلتقِطُه ، ثمّ ساعدني على احتذائه ، وهو يتأمّلُه طويلاً ، ثم قال : « أ عابثَكِ أحدٌ غير هذا الرجل ؟»

« كثيرون : تبارك الخلاق ! أ أحضر مَرْكبة ، يا هانم ؟ لماذا أنت متعجِّلة ؟ إلى كثيرٍ من أمثال هذا الكلام !»

وانطلقتُ أضحك وأنا أقول :

« الرجال كلُّهم ملعونون ، يا حمدي ، والمعذِرة ، لا تؤاخذني !»

« لن تعودي وحدكِ ، يا سلوى . سأرافقك إلى المنزل .»

« خلِّ عنك .»

« هيهات !»

وصحبني إلى شجرة البرتقال ، وكان فيها قليل من ثمرات يانِعَة ، فقال لي حمدي وهو يشير إلى الشجرة:

« إنّي أفخر باحتيازي إيّاها ، لقد انتهى موسِمُ البرتقال ، ولكنّ شجرتي ما فَتِئَت محتفِظةً ببعض الثّمار، هذه مَيزتُها .»

فاجتنيت برتقالة ، وبدأت أقشّرها ، ثم أمسكتُ عن العَمل فجأةً ، وقلت : « لقد نسيتُ أن أغسِل البرتقالة بالماء والصابون .»

« ماذا ؟»

« يجبُ غسلُ الفاكِهة قبل أكلِها بالماء والصابون.»

---
(١) ما جُنِيَ لساعته .

« من أين لك هذه الآراء ؟»

« ألا تعلم ، يا حمدي ، أنَّ مرض التيفوئيد منتَشر الآن في مصر ، وأن العدوى به من الطَّعام الملوَّث ؟»

« ولكن هذه البرتقالة ليست ملوَّثة . أؤكد ذلك لكِ .»

« كيف تؤكِّد لي ذلك ؟ أتستطيعُ أن ترى البكتريا بالعين المجرَّدة ؟»

« البكتريا ؟»

« أجل البكتريا ، الطفيليات ، الميكروبات ، الجراثيم !»

« حقا لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ، ولكن كيف انتهت إليك هذه المعلومات ؟»

« أوَ حَسِبتَني جاهلة ؟»

« عفوكِ ، عفوكِ !»

وما هي إلا أن أنحيْتُ (١) على البرتقالة قَضْمًا ، حتّى فَرَغْت منها . فما أسرَع أن اجتنى حمدي لي برتقالة أخرى ، فبدأت أقشِّرها ، وأنا أقول : « لم أكن أقدِّر أن برتقال حديقتك يبلغ هذا المبلغ من الحلاوة .»

« أأعجبَكِ حقا ؟»

« كلَّ الإعجاب .»

« سأجتني لكِ طائفة منه .»

« لا ، لا .»

« لماذا ؟»

« لأنّي لا أريد .»

وتبادلْنا الابتسام ، ودُرْتُ حولي بعينيَّ أنظر في زروع الحديقة ومسالِكها ، فراقتني سذاجتُها وخُلوُّها منَ التَّنسيق . وصافح وجهي في هذه اللَّحظة نسيمٌ عليل ، يحمِل في تضاعيفه طِيِّب الأريج ، فغمغمت :

« إنّي أغبطكَ على مُقامِكَ في هذه البُقعة، يا حمدي .»

« أتروقُكِ هذه الحياة ؟»

« ولِمَ لا ؟ بيتٌ لطيف ، وحديقة مثمِرة ، وهواءٌ طيِّب. ولكن أخبرني: ألا تشعر بالسآمة من وَحدَتك؟»

فابتسم وهو يداعب عودًا يابسًا ، وقال : « السآمة أمرٌ لا بدَّ منه ، ولكنّي أكافِحُها بالعمل .»

« أتعمل طويلاً منَ الوَقت ؟»

« أعملُ ما أمكنتني صحتي من العمل .»

وناولتُه فصا منَ البُرتقال ، فراح يتأمَّله بُرْهة ، ثم شَرَعَ يأكُلُه على رِسْله (٢) ، ورفع بصره إليَّ قائلاً :

« اِحزِري (٣) مَن يزرع هذه الحديقة ويُعنى بنباتها؟»

« الخادم الَّذي عندك .»

« إنه لا يعرِف كيف يَسْقي عودًا منَ الورد .»

« لديك إذنْ بستانيٌّ .»

« أنا نفسي البستاني !»

« أنت البستاني ! عهِدْناكَ موسيقيا تقضي وَقْتك أمام البيان أو في صُحْبة الناي .»

« وهل تَجِدين اختلافًا بينَ البُستانيِّ والموسيقيِّ ؟»

« أليس بينهما اختلاف ؟»

« إن لكلِّ نبات من هذه النباتات الَّتي تَرَيْنها حولَنا ألحانًا خاصَّة به ، فالورد يترنَّم بألحان غير الَّتي يترنَّم بها الفُلُّ ، ولِلفلِّ أنشودَة تختَلِف عن أنشودَة شجرَة البُرتقال !»

فحدَّقت فيه طويلاً ، ثم قلت بسّامة الثَّغر :

« ما زلتَ فيلسوفًا كما عهِدناكَ .»

وأشار إلى شجرة توت هرمة وهو يقول :

(١) أنحيتُ : أقبَلْتُ .

(٢) على رِسْله : بلا عَجَلَة .

(٣) إحزري : خمِّني .

« إحزري ما اسم هذه الشجرة ؟»

« أوَ لها اسم ؟»

« الحاج مسرور .»

« أحقا سمّيتَها الحاج مسرور ؟ ما أطيبَ قلبك!»

« بل قولي ما أطيب قلبَ الحاج مسرور ؛ لقد كان يحبُّنا أصفى حبٍّ .»

« إن الماضي يعمرُ جانبًا كبيرًا من قلبِك !»

« إذا فصلْتِ بيني وبين الماضي ، يا سلوى ، لم يُصبحْ لي وجود .»

« ولكن ألا تذكرُ قولك لي : يجب ألا يركَن المرءُ إلى الماضي ، بل عليه أن يتطلّع دائمًا إلى المستقبل .»

« نعم ، أذكر ، وقد يكون هذا سرَّ شِقْوَتي[1] !»

وسِرنا بخطوات وَئيدة إلى شجرة الحاج مسرور ، وكنت قد فَرَغت من أكل البرتقالة ، وأردت أن أمسَحَ يديَّ ، فلم أجِد مِنديلاً معي ، فأخرج حمدي مِنديله من جيبه ، وقال وهو يبتسم في استحياء :

« أتسمحين لي أن أمسَح يديك بمِنديلي ؟»

فمددت إليه يديَّ ، فأخذهما بين يديه ، وجعل يمسحهما في عِناية وتلطُّف ، ويطيل النظر إليهما. فقلت :

« لقد أصبح منديلُكَ غير صالح للاستعمال !»

« وكيف خطر لك أنّي سأستعمِله ؟»

« سترميه إذَنْ ؟»

« بل سأحتفِظ به كما هو تَذْكاراً لهذه الزيارة .»

وتبادلنا النظرات ، ونحن صامتانِ ، ثم مضينا نجوس خلال الحديقة[2] جنبًا إلى جَنب ، ونعاوِد السَّير في مسالِكها دون نظام . ولبِثْنا في جيئة وذُهوب ، نحيدُ هنا ونُعَرِّج هناك ، يخيِّم علينا الصَّمت ، وحمدي يبعث في عرض الأفق شوارِدَ النظرات .

وأخيرًا دَنونا منَ الباب ، فوقفت قائلة : « لقد حان موعِد أوبَتي .»

« أوبَتك ؟»

وعلا بِهامَتِه إليَّ ، كأنه صحا من سُبات عميق ، ثم أردف قائلاً : « لا يمكِن أن يكون ذلك !»

« أخشى أن يُدركني اللَّيل .»

فأمسك عنِ الكلام بُرهة ، وهو قلِق حيران .

ثم قال : « أؤمِّل إذن أن أحظى بزورات أخَرَ .»

ولم يكد يُتِمُّ جملته حتّى رأيت وجهَه قد اكفهرَّ، وساد حركاتِهِ الارتباك ، وظلَّ وقتًا كأنما يؤامر[3] نفسه .

وأخيرًا أخذ بيدي في تذلُّل ومَسكنة ، وقال في صوت مُختَنِق :

« أرجو ألا تكوني حاقِدةً عليَّ لما بدرَ منّي أمس.»

فلاطفت يدَه بلا كلام ، فتابع قولَه : « كنت في حالة نفسيَّة ...»

فقاطعته قائلة : « لا تلْقِ إلى ذلك بالاً .»

فشدَّ على يدى شدًّا عصبيا ، وقال مُجمجِمًا : « ما أنبَلَ قلبَك ، يا سلوى !»

« إلى المُلتقى .»

« سأرافقكِ حتّى البيت .»

« كلا ، كلا ، أخشى أن يرانا أحدٌ في الطريق ، ولا سِيَّما معارِف سنية .»

« ولكن كيف تعودين وحدَك ؟»

فابتسمتُ قائلة : « كما جئت وحدي ؟»

« وهؤلاء الأوغاد الَّذين يُضايقونَكِ في الطَّريق ؟»

---

(١) شقوتي : شقائي ، أي شدتي ومحنتي .

(٢) نجوس خلال الحديقة : نسير بين طرقاتها .

(٣) يُشاوِر .

« إن نظرةً واحدة منّي كفيلة بأن تعيدَهم إلى صوابِهم ، وتقفَهم عندَ حدِّ الأدب . »

وتذكّرتُ أنّي نسيتُ المُلاءة ، فصَرخت : « ولكن ، المُلاءة ؟ »

« سأحضِرها لكِ فوراً . »

وجرى إلى الدّار ، فغاب فيها لحظة ، ثم عاد يحمِل المُلاءة ، وأعانني على ارتدائها ، ثم وقف يتأمّلني صامِتًا.

وبعدَ لحظات قال : « إذنْ أصاحِبك إلى محطة الترام . »

« لا بأس . »

وانطلقنا نسير ، وكان الطريق في أوّله أعفرَ غيرَ ممهّد ، فأسرع حمدي يمدُّ إليَّ ذراعه ، فاستندتُ إليها شاكرة ، وسِرنا وأنسامُ الأصيل تهبُّ علينا مِزاجًا من جَفاف الصّحراء ورطوبة المساء .

وانبرى حمدي يحدّثني كيف يحيا ، وماذا يعمل . وروى لي حوادث فَكِهة ممّا يجري بينه وبين تلاميذه . كان يتحدّث طَلْق المُحيّا ، ذَلِق اللّسان ، في أُلفَة لم أعهدْها فيه من قبلُ . و وصلنا إلى المحطة ، وكان التّرام في الانتظار ، فمددتُ يدي إلى حمدي أصافِحُه ، فتناولَها بين يَدَيْه ، واستبقاها وقتًا وهو يرنو إليَّ بعينٍ حَيْرى .

ونفخَ عامِلُ الترام في صَفّارته ، فهزَّ حمدي يدي ، ثم أطلقها وهو يبتسِمُ ابتسامة كاسفة دون أن ينبِس بحرف . وصعدتُ في العربة ، وتحرّك التّرام وأنا ألوّح لحمدي بيدي . أمّا هو فكان يحدّق فيَّ ، والابتسامة الكاسِفة على فمِه تَطبَع مُحيّاه بطابَع الحزن والتحسّر .

وشهِدتُ معي في العربة بعضَ الرُّكاب منَ الأجانب ، مَضَوا يتحدّثون في اهتمام ، ويشيرون في الفَيْنَة بَعدَ الفينة إلى الأهرام وإلى معالم الطريق .

وانسرحتُ أنا أفكّر في حمدي وما هوَ عليه من شذوذ ، وما يعانيه من متاعِبِ الحياة . مسكينٌ هذا الشّابُّ ! شدَّ ما هوَ طيِّب النّفْس ، نقيُّ السّريرة ! إنَّه في حاجة إلى مَنْ يرعاه بقلب شفيق .

وكان التّرام ينتهِب الطريق ، والمغاني (١) تمر سِراعًا في غَسَقِ الغروب كأنّها الأشباح . و وجدتُني أسائلُ نفسي : « هلِ المغاني في لندن على غِرار هذه المغاني ؟ وهل تجري الحياةُ هنالِك كما تجري هنا الحياةُ ؟ وكيف يعيش الدُّكتور داود فهيم في بلاد الإنجليز ؟ »

وبلغ الترام ميدان فريدة ، فتركتُه قاصِدةً على التوِّ إلى منزلي في السّيارة الحافِلة . وما كِدْتُ أتخطّى عَتَبةَ الباب ، حتى رأيتُ أمَّ يونس أمامي ، فرَمَقتْني بنظرة متجهّمة ، وهي تتفحّصُني طويلاً ، وسمِعتها تقول في لهجةِ دمدمة وتأنيب :

« تلبسين ثيابَ أُمِّك ، وتخرُجين وحدَك ؟ عرفتُ الآن لِماذا لمْ ترغبي في الخروج معي لزيارة ضريح الستِّ أم هاشم . »

فوضعتُ يديَّ في خاصرتي ، وقلت : « أنا حرَّة أفعل ما أريد . »

فقالت ، وقد اضطرمت عيناها ، وكأنّهما داميَتان من فرط الاحمرار :

« أين كنتِ ؟ »

« كنتُ حيث كنت ! »

وأدبرتُ عنها ، فإذا هي تجتذِب المُلاءة قائلة :

« إني أسألك أين كنت ؟ »

فدفعتُها عنّي وأنا أقول : « أ لا تكُفّين عن هَذَيانِك ؟ »

وكادت المرأة تسقط ، لولا أنها لاذت بمقعد قريب فاستندتْ إليه ، وشعرتُ بأنّي أسأت تصرُّفي معها ، وإن كانتْ هي قد تجاوزت الحدَّ .

---

(١) المغاني : جمع مغنى ، وهو المنزل الذي غَنِيَ بأهله .

فأمسكتُ عن السير ، وقلت لها في لهجة لا تخلو من رِفق :

« إنَّك تُخرجينني عن حِلمي بتدخُّلك فيما لا يعنيك .»

فأجابتني مبهورة الأنفاس :

« تدخُّلي فيما لا يعنيني ؟ أ هذا هو جزاء جهدي في خِدمتك ورعاية شأنك ؟ لو عرفتِ كيف قضيتُ الوقتَ وأنا ذاهبة العقل أترقَّب أوبَتَك في حَيرة وتململ ؛ لما تفوَّهتِ بمثل هذا الكلام !»

« أنت تُتعبين نفسَك فيما لا جَدْوى منه .»

« أ لا تخبرينني أين كنتِ ؟»

« وإذا لم أخبرْك ؟»

« أتضرَّع إليك أن تقولي أين ذهبت !»

ورأيتها تنظر إليَّ بعينين شَرِقَتين بالدَّمع ، فقلت :

« كان بي ضَجَرٌ ، فخرجتُ إلى الطَّريق ، وركِبْت التَّرام إلى الهرم .»

« وحدَك ؟»

« أجلْ ، وحدي . أ في ذلك ضَيْرٌ ؟ لستُ طفلة . إنَّني في سنٍّ تُخوِّلني أن أفعل ما أريد .»

فدمدمتْ في حسرة :

« كلا ، يا سلوى ، بل أنتِ في سنٍّ توجِبُ عليك الحَذَرَ الشَّديد !»

وأخذت بيدي ، فمضت بي إلى حجرتي في صمت .

— ١٩ —

تعاقبت أيامٌ لم يحدثْ فيها شيء غيرُ مألوف .

أمّا أمي فقد جهِلت زيارتي لحمدي ، وكنت واثقة أنَّ أم يونس لن تبوحَ لها بشيء ممّا كان . وقدِمَتِ الدادة شيرين تدعوني من قِبَل سنية إلى زيارتها على مألوف العادة ، فاستجبت لها .

وما إنِ استقبلتني صديقتي في بَيْتِها ، حتّى ساقتني إلى حجرتها ، وهي تهمِس في أذني : « سأريك شيئاً .»

وقامت إلى الباب تغلقُه ، ثم ذهبت بي إلى خِزانة كتبها ، وفتحتْ دُرجًا أخرجت منه لَفيفةً منَ الرَّسائل. وبعدَ أن فكَّت وَثاقها استلَّت منها رِسالة وهي تقول :

« إنها آخر رسالة وردتني من شريف . أ لا أقرؤها عليك ؟»

« يسرُّني ذلك كلَّ السرور .»

وجلسنا على الأرض بجوار الخِزانة ، واللَّفيفة في حِجر سنية ، وجعلت صديقتي تقرأ الرِّسالة ، ولم يكن بها شيء ذو غرابة : بُدِئَتْ بتحيَّة مألوفة ، وخُتِمت بقبلة رسميَّة ، ولكنَّ الَّذي راقني فيها بعضُ أوصاف للحياة في فرنسا ، فقلت لها :

« أ لا يَقُصُّ عليك شريف أنباء أشخاص هنالك ؟»

« قَلَّما يفعل .»

« أ لم يتعرَّفْ إلى أشخاص جُدُدٍ مَرّوا بفرنسا مِن أعضاء البَعَثات الحكومية ؟»

« لم يخبرْني في هذا الشأن بكثير أو قليل .»

ثم نظرت إليَّ ، وقالت و وجهُها يلتَمع بشاشةً وبشْراً : « ما رأيك في الرِّسالة ؟ لطيفةٌ غاية اللُّطف، أ ليست كذلك ؟ »

« ولا سِيَّما هذه القبلة الختاميَّة .»

فابتسمت ابتسامة ساطِعة ، ثم احتضنتني ، وهي تقول :

« ثقي أن حبّي إيّاه لا يقلُّ عن حبِّه إيّاي .»

فلاطفتُها ، وأنا أقول :

« أهنئك ، يا سنية . ومتى يعود إلى مصر ؟»

« لا عِلْمَ لي ، ولكنّي سمعت من مدموازيل شانتل أنه لا يغيب طويلاً .»

فجمّشت خدّها (١) ، وقلت: « وموعِد الزّواج ؟»

فولّت عنّي وهي تقول : « دعينا من ذلِك !»

وأعادت الرّسالة إلى اللّفيفة ، ثم أودعتْها مكانَها من خِزانة الكُتب . وما هي إلا أن وجدتّني أميل على سنية أقول لها هامِسَة :

« لديَّ سرٌّ أريد أن أفضيَ به إليك .»

فاحتضنتني ، وأرهفت لي السّمع ، فقلت :

« لقد دعاني حمدي إلى زيارتِه .»

« متى ؟»

« منذ أيام .»

« وهَلْ لبيّتِ دعوتَه ؟»

« لقد ألحَّ عليَّ ، فلم أملك لدعوته رفضًا .»

« وهل صَحِبَتْك أمُّك في هذه الزيارة ؟»

« أمّي ؟ إنها تجهَل الأمر كلَّه !»

« ومن صَحِبَك إذن ؟ أم يونس ؟»

« كلا .»

« أ ذهبت وَحدَكِ ؟»

« ولمَ لا أفعل ؟»

وأقبلت عليَّ سنية تنظر إليَّ محدِّقةً في عَجَب وإكبار ، فتابعتُ قولي : « هذا زمنُ الحرِّية !»

ورأيتُ عينَيْ صديقتي تلتمِعان ، وضغطتْ يدي ، وهي تقول : « وماذا فعلتِ هناك ؟»

« تنزّهنا حول الأهرام ، ثم دعاني إلى تناوُلِ الشّاي في أحَد النوادي .»

« أ تناولت معه الشّايَ في النادي ؟»

فملتُ عليها وهَمَسْت : « ودَخّنتُ لِفافة تَبغٍ !»

فسمِعْتُ شَهْقتَها وهي تقول : « لفافة ؟ يا لك من جريئة !»

« اسمعي ، اسمعي ، إنّني لم أتِمّ لك ما جرى .»

« قولي .»

« وعندما أرْخَى الظّلام سدولَه ، وكاد النادي يخلو من رُوّادِه ، رأيتُ حمدي يُدْني وجهَه من وجهي ، ثم اغتصب قبلة منّي !»

فغطّتْ سنية وجهَها بيديها ، وهمهمت : « أ وَ قبَّلك ؟»

ولم تلبَث أن انفجرت ضاحِكة ، وأقبلت تُغْدِق عليَّ القُبلات .

ولَمّا حان موعِد انصرافي ، نزلتُ إلى البهو مع سنية فلمحت أباها الزهيري باشا جالسًا في ركن ، يطالِع الصُّحف ويدخّن ، فوقفت أقول لسنية : « لَمْ تخبريني بأنّه موجود !»

« وهل كنت أعلم أنّه عاد منَ الضَّيعة ؟»

وشعَر الباشا بمكانِنا منه ، فالتفت نحوَنا ، فلم أر بدًّا من أن أقبِل عليه أحيِّيه . وأذكر أنّني لم ألتقِ به منذ أكثر من عام . فسِرت إليه متهيِّبة ، على حين أنّه أخذ يتفحّصني بعينيه الحادّتين ذواتي الأهداب الغِزار ، ثم ابتسمَ ، وقال وهو يمُدُّ يده إليَّ : « ها أنتِ ذي ، يا سلوى . كيف حالك ؟»

فقبّلت يده وأنا أقول : « بخير ، يا عمّي .»

« أ منصرفة أنت ؟»

« عائدة إلى منزلي .»

« مَع مَن ؟»

« مع الدّادة شيرين .»

---

(١) جمّشتُ خدَّها : لاطفتُه بقَرْص .

ورأيتُه يُطيل النَّظر إلى وجهي ، وسمعت سنية تقول :

« إن الدادة شيرين تركب معها التَّرام وترافِقها حتّى المنزل .»

فقال الباشا لابنته :

« وكيف تَدَعينَها تركب التَّرام ؟ أليس عندنا سيارة ؟»

فغمغمتْ سنية :

« المعذِرة ! لم أكن أعلَمُ أنَّ السيارة غير مشغولة!»

وخرجتُ مع سنية وركبتُ السَّيارة إلى المنزل في صحبة الدادة .

حَقا لم أكن أتوقع أن يشملَني الزهيري باشا بهذا العطف ، ولقد راعتني منه نظرتُه اللامِعَة الَّتي تماثِل نظرة الأبطال في أساطير الأوَّلين .

وفي ضَحْوَة غَدٍ التقيت بأمّي غِبَّ الفَطور (١) ، فجلست معها ساعة نتجاذب أطراف الأحاديث . وسألتني كيف قضيتُ يومي في منزل سنية ، فرويت لها نُتَفًا من أخباري ، ثم قلت لها في ختام الحديث :

« وقد رأيت الباشا !»

« الباشا ؟»

« وحيَّيته ، فردَّ تحيَّتي أحسنَ ردٍّ ، وتلطَّف بي أكرم تلطُّف .»

« هذا عجيب !»

« عجيب ؟ لماذا ؟ إنَّه دائمًا يعاملني معاملة كريمة.»

« معاملة كريمة ! إنَّه يَعُدُّنا من بعض أتباعه .»

« أتباعه !»

« أجلْ ، ولكن لكلِّ امرئٍ كرامتُه ، ولكل امرئٍ مكانتُه في نفسه . لن يستطيع ذلك الباشا أن يشترينا بماله .»

(١) غِبَّ الفطور : بعده .

ونهضت هي إلى حُجرتها ، فقمت على الأثَر إلى حجرتي ، وقد ملأ رأسي التفكير فيما تحدَّثتْ به أمي إليَّ .

وما إن استقرَّ بي المُقام ، حتّى رأيت أم يونس تدخل الحجرة في تباطؤ ، وهي تقلب رسالةً في يدها، فقلت : « ما هذه ؟»

فأجابتني ، وعيناها تحدِّقان في الرسالة :

« لقد أعطانيها ساعي البريد ، وأخبرني أنها تخصُّك .»

فما إن طرقت سمعي هذه الكلمات ، حتى اختطفت الرسالة من يدها ، فقالت مُهتاجة : « ماذا ؟ لا بدَّ أن هذه الرسالة لأحدٍ غيرك . لقد قلتُ لساعي البريد إن سلوى لم يسبق أن تلقَّت رسائل من أحد .»

ولمحتُ طابعَ البريد الإنجليزيَّ ، فرفرف قلبي ، وأخذت أدفع أم يونس إلى الباب ، وأنا أقول: « إنها لي ، لا ريبَ في أنها لي .»

فوقفت المرأة تقول :« إذن أخبريني ممَّن جاءتك ؟»

فحدجتُها بنظرة حادَّة ، ثم غمغمتُ : « إنَّها من سنية .»

« سنية ؟ لقد كنتِ عندها أمس ! فُضّي الغِلاف وانظري .»

« قلت لك إنَّها من سنية وكَفى . انصرفي عنّي الآن ، وسأخبِرُك بعدُ بما فيها .»

وخرجتِ المرأة تتسخَّط ، وأقفلت الباب خلفها ، وجعلتُ أُطيل النظر إلى الرِّسالة ، وكأن بين جنبيَّ طائرًا يهفو ، ثم فضضتُ الرِّسالة وطفِقتُ أقرأ :

« حضرة الآنسة المهذبة ، سلوى شوقي :

« أستميحك العذرَ من تقصيري في مُوافاتك برسائلي وَفْقَ وعدي إيَّاك . كثيرًا ما هَمَمْتُ أن أكتُبَ إليك ، وطالما شرعت أسْطُرُ جملاً وكلماتٍ ، ولكنّي ما

أعتّم أن أحجم بعد إقدام ، وأنهال على الورق أمزّقه شرّ ممزّق . كيف أبيح لنفسي مراسلة فتاة لم أرها إلا مرّتين ؟ أيّة الموضوعات هي الّتي يجب ألا أتعدّاها في الكتابة والتسطير ؟ على أني قررتُ أخيرًا أن أبعث إليك بهذه الرسالة مهما يكن من أمر .

« لا أريد أن أتحدث إليك في شأني ، فأوافيك ببعض أنبائي كما أسلفت لك وعدي ، ولكنّي أريد أن أخصك بهذه الأسطر. إيذني لي أن أكون صريحًا: إن المرّتين اللّتين لقيتك فيهما كشفتا لي جانبًا من حياتك ، واستطعتُ أن ألمح ما يحيط بك من خير ومن شرّ ، وتوضّحتْ لي بعضُ همُومك وآلامك . ولقد وجدتُني مهتما بهذا كلّه أشدّ اهتمام ، راجيًا أن أكون بجانبك في متاعب الحياة ، عونًا لك على أن تجتازي مراحلَها الأولى بسلام . والآن ، وبيننا شقّةٌ بعيدة ، كأنّي بكِ تقولين :

« ماذا تستطيع أن تقدّمَ لي ؟ حقًا ليس في طوقي أن أقدّم لك شيئًا كبيرَ النّفع ، ولكنّي على أيّة حال أرجو أن تَعُدّيني نصيرًا صادقَ الرّغبة في خِدمتك ، ولن يخيبَ ظنُّك فيّ إذا عولّتِ عليّ .

« وأبعث إليك في الختام بتحيّات عَطِرة ، وإلى الملتقى في الرسالة الآتية .

المخلص : داود فهيم

« استدْراك : لم أكتب لك عنواني ؛ لأنّي لم يستقرَّ بي المُقام بعدُ في المسكن المنشود .»

وجعلتُ أتلو الرّسالة ، أبدئُ فيها وأعيد . وكلّما أتممتُها انسرحتُ مفكّرة أكتنهُ (١) مدلولها ، وأفسّر لنفسي ما يخفى عليّ من معانيها . إنه يشير إلى ما يحوطني من خير ومن شر ، وإلى همومي وآمالي ، وإلى رجائه أن يكون عونًا لي . كلُّ هذا حسَن ، ولكنْ ... ولكنّه لم يوضّحْ لي شيئًا معيّنًا : ما هو نوع العَوْن الّذي يبذله من أجلي ؟ وكيف أعوّل عليه وهو لم يخبرْني متى يعود ؟ وتحيّته الأخيرة ؟ ما كان أقلّها من تحيّة !

ورأيت البابَ يَنفتح في بطء ، ثم أطلّ رأسُ أم يونس ، فقلت لها :

« أُدخلي .»

فدخلتْ ، وهي لا تَحيدُ ببصرها عنِ الرّسالة ، فجذبتُها من ذِراعها ، وذهبت بها إلى النافذة ، ثم قلت لها : « ليست الرسالة من سنية .»

« كنتُ أعلم ذلك .»

فأمسكت عنِ الكلام لحظة ، ثم قلت :

« أ تذكرين شخصاً يُدعى الدكتور داود فهيم ؟»

فراحت المرأة تفكّر ، ثم قالت :

« الدكتور داود فهيم ! الدكتور داود فهيم ! أظنه الشاب الّذي حضر لزيارتك منذ شهر ، وقدّمت له القهوة في حجرة الزوّار .»

« إنه هو عينُه .»

« أ هو صاحِب الرسالة ؟»

« بعث بها إليّ من لندن .»

« وما لندن هذه ؟»

« من بلاد الإنجليز !»

« أ و سافر إلى بلاد الإنجليز ؟»

« بعثته الحكومة في أمر مهمّ .»

« وماذا قال لكِ في الرسالة ؟»

« يقول إنّه ... إنه يهتمّ بحياتي ومستقبلي ، ويكرّر هذا القول .»

« وماذا أيضًا !»

« وإنه يفكّر دائمًا فيّ ، وقد مزّق عشراتِ الأوراق قبلَ أن يخطّ رسالته إليّ .»

---

(١) أدركُ حقيقتَها .

« يظهر أنه يُضمِر لك عاطفة طيِّبة .»

« لم يصرِّح لي بشيء .»

« وبماذا ستُجيبينه ؟»

« لا أكتب له الآنَ شيئًا ؛ لم يرسل إليَّ عُنوانه بعدُ.»

« أنصَح لك ألا تتبسَّطي معه في الكلام ؛ نحن لا نعرف مِن شأنه إلا القليل ، ولم نفطَن إلى سَريرته .»

« إنه يطلب إليَّ أن أعوِّل عليه لأنه صادق الرغبة في خدمتي .»

« حسنًا ، حسنًا . عِديني بأنّكِ إذا كتبتِ له شيئًا فإنك قبل إرساله إليه تُطلعيني عليه .»

« أعدُك بذلك !»

وقبَّلتُها وقبَّلتني . واتَّفَقْتُ معها على أن يكونَ الأمر بيننا سرًّا جِدَّ مكتوم .

ولقد أسلمتني هذه الرسالةُ إلى تفكير حائر استغرقَ وقتي أجمعَ ، فكنت دائمًا أعيد قراءتها ، وأحمِّل جُملَها ما تحتمِل من وجوه المعاني وضروبِ التأويل . ولَمَّا جنَّ الليل ، قَصَدت إلى نافذة حجرتي ، فجلستُ بجوارها ، وأرسلتُ طرْفي في الفضاء الحالِك ، والرسالة في يدي لا تفارقني ، وقضيت هزيعًا منَ اللَّيل وأنا غارِقة في أحلامي . وكانت تتراءى لي في هذه الأحلام صورةُ الدكتور فهيم في أشكال متعدِّدة ، ولكنَّ وجهَه لم يكن يتغيَّر ، ذلِك الوجه الهادئُ القسمات ، الَّذي يحمِل طابَع الرُّجولة الحقَّة . كانت عيناه تَرنُوان إليَّ في عَطْف وعذوبة ، وفمُه يهمِس في صوت خافت :

« أ ما زلت تَشُكِّين في إخلاصي ؟ أ ما زلتِ تتجاهلين عاطِفتي نحوَك ؟»

فكنت أهُبُّ من نومي ، فأُدني الرِّسالة من عينيَّ ، وعلى ضوء المصباح الشحيح الَّذي ينير حجرتي ، كنت أقرأ : « كثيرًا ما هَمَمْت أن أكتبَ إليكِ ، وطالما شرَعْت أسطر جملاً وكلمات ، ولكنّي ما أعتِّم أن أحجم بعد إقدام ، وأنهالَ على الورق أمزِّقه شرَّ ممزَّق .»

فأُنحِّي الرِّسالة عن مرمى عينيَّ ، ثم أراني قد ابتسمتُ ، وما هي إلا أن أهيمَ في أودية الأحلام ، وشبح الدكتور فهيم يتوضَّح في مخيِّلتي يملأ آفاقها .

— ٢٠ —

استيقظت منَ النَّوم في غدي متكاسِلة ، وقد متَع النهار (١) .

وما كدْتُ أفتَح عينيَّ حتّى رأيتُ أم يونس تدخُل الحجرة ، وبيدِها رسالة تقلِّبها بين يَديها ، فقفزْتُ من فِراشي ، وأخذتِ الرِّسالة منها ، فقالت : « أ في كلِّ يوم رسالة من بلاد الإنجليز ؟ ما هذا ؟»

وتبيَّنتُ الرِّسالةَ على عَجَل ، فألفيتُها تحمِل طابَع البريد المصريِّ ، فقلت لأم يونس وأنا أدفعها نحو الباب بلُطف :

« سأخبِرك بكلِّ ما فيها . دعيني الآن حتّى أقرأها بسلام .»

وأقفَلت باب الحجرة ، وجعلت أقلِّب الرسالة وقتًا في يديَّ ، وأنا أستطلِع الخطَّ . لِمن يا تُرى ؟

وأخيرًا فضضتُ الغِلاف ، فإذا الرسالة من حمدي ، وقرأت :

« عزيزتي سلوى :

« أجزل الشُّكر لك على زيارتك اللَّطيفة . حقا كنتِ كريمةً معي ، طيبةَ القلب نحوي . لقد أشعرَتني بسعادة أجدُ نفسي عاجزًا عن وصفها ، وإن أطلتُ القوْل . هذا دين لك عندي ، فهل أستطيع يومًا أن أوفِّيك إياه ؟ على شفتي كلام كثير أريد أن أفضي به

---

(١) متَع النهار : بَلَغ غاية ارتفاعه قبل الظهر .

إليك ، وإن بعضه لَيزْحَمُ بعضًا ، فبأيِّ شيء أبدأ ؟ أريد أن أتحدَّث إليك مشافَهة ، فمتى نلتقي ؟ سأزورك يوم الأربعاء في السّاعة العاشرة صباحًا .

« أرجو أن يروقَك هذا الموعِد ، وأن تكوني راضية عنّي . وأبلِّغُك أزكى تحيّة .

صديقك الوفيُّ : حمدي »

« ملاحظة : إني محتَفِظ بالمنديل الّذي مسحتِ به يدَك في صندوق صغير من خشَب الصَّنْدل ، وسأظلُّ محتفظًا به ، تَذكارًا لا يعدِله عندي تَذكارٌ آخر في هذا الوجود .»

و وضعتُ الرسالة على خِوان الزّينة ، و وقفت أفكِّر ، مسكينٌ هذا الفتى ! ما أطيبَ قلبَهُ ! شَدَّ ما تُحزِنني حالُه في فقرِه الشّريف !

ودخلت عليَّ في هذه اللّحظة أم يونس مستطلِعة، فقلت لها :

« إن الرسالة من حمدي ، إنّه يرغب في زيارتي.»

« يرغب في زيارتك ؟ يفعل كما فعل في المرة السابقة ؟»

« إنّه يعتذِر اعتذارًا بالغًا ، لقد كان مريضًا لا يستطيع خروجًا . وسيحضُر يومَ الأربِعاء ، غدًا .»

« غدًا ؟ إنَّ هذه الزّيارة غير مقبولة على أيّة حال .»

« لِماذا ؟ إنّه صديق الطفولة . أمّا أخلاقه ...»

« أعرِف أنّه ولدٌ طيب ، ولكن يجب إخبارُ أمِّك مَهما يكن من أمر .»

« اتركي هذا لي .»

وكان الصَّباح ، ورأيت أم يونس في البهو ، فما كادت تلمحُني حتّى هُرِعتْ إليَّ ، وقالت وقد نسِيتْ أن تحييني تحية الإصباح :

« هل أخبرتِ أمَّك بأن حمدي يزورك اليوم ؟»

« إنّها لم تستيقظْ من نومها بعدُ . قد يأتي حمدي وتنتهي زيارتُه ، وأمّي ما تزال تغطُّ في نومها .»

« وإذا استيقظتْ وهو موجود ؟»

« لا تلقي لِهذا الأمر بالاً .»

وانتظرتُ حمدي في البَهْو بالقرب منَ الباب . وحلّت العاشرة ، ومرَّ بعدها ربعُ ساعة ، ولكنَّ حمدي لم يحضُر . وقمتُ أروح وأغدو في البهو ، وأنا أقرِض أظافري . ومر عقرب الساعة بمنتَصف الحاديةَ عشرةَ ، ورأيت أمَّ يونس آتيةً تستطلع الخبرَ ، فصِحت بها :

« اذهبي عنّي الآن ، لا أريد أن أرى أحدًا .»

واقتربت الساعة من الحاديةَ عشرةَ ، فانطلقت أدمدِم :

« ولدٌ قليلُ الأدب ! مجرَّدٌ منَ الذَّوق !»

وقصدت إلى حجرتي ، فوجدت أم يونس جالسة تَحتسي قَهْوَتها ، فنظرت إليها متعجِّبة ، فقالت :

« هل يسوءك أن أشرب القهوة في حجرتك ؟»

« افعلي ما تريدين .»

وجلست على المَقعد بجوار النافذة ، وأسندتُ رأسي إلى قَبْضَة يدي . وخيَّم الصمتُ وقتًا ، ثم سمعت أم يونس تقول كأنها تحدِّث نفسها ، وهي تصبُّ القهوة في القدح :

« لو كنت مكانَك لَما اهتممت بالأمر أيَّ اهتمام.»

فصِحت : « أ مهتمّةٌ أنا بالأمر ؟ مَن قال لك ذلك ؟» وأرسلت ضحكةً مشوَّهة . وتركتُ مَقعدي ، وأخذت أتغنّى ، ثم فتحت صِوان مَلابسي ، وجعلتُ أقلب ما يحتويه . وسمِعْت أم يونس تتكلّم في لهجتها السابقة ، وقدح القهوة في يدها :

« لماذا لا تأتي الدادة شيرين فتأخذَك اليوم إلى سنية ؟ »

وكنت على وَشْك أن أثور عليها ، ولكنّني لم أفعل . وجعلتُ أراجعُ قولها فيما بيني وبين نفسي .

حقا ، لماذا لا تأتي الدادة شيرين فتأخذني إلى سنية ؟ إنّي في حاجة مُلِحّة إلى أن أروّح عن نفسي .»

وعدتُ إلى النافذة ، فأسندتُ رأسي إلى يدي ، وأرسلتُ بصري في الحارة ، ومضيتُ أفكّر في اضطراب : إن سنية لا ترسِل إليّ الدادة شيرين إلا إذا رغبتْ هي في رؤيتي ، أمّا أنا فمحرّم عليّ أن أزورها مِن تلقاءِ نفسي ؛ أ ليستْ والدتي على حقّ إذ قالت إنهم يَعُدُّوننا من الأتباع ؟ نحن دائمًا رَهْنُ الطّلب .

وقمت إلى صِوان ملابسي ؛ وبدأت أهيئُ نفسي للخروج ، فقالت أم يونس : « ماذا أنت فاعِلة ؟»

« سأذهب إلى سنية .»

« إلى سنية ؟»

« في مسألة مهمّة ، كنت قد نسيتها .»

« ولكنّ الدادة شيرين لم تحضُر .»

« وما لي ولِلدادة شيرين ؟ هذا أمر يخصُّني لا يخصُّها .»

واتجهت نحو الباب ، فقالت لي أم يونس : « إذن أذهب معك .»

« تذهبين معي ؟ ومن يجهّز طعام اليوم ؟»

وخرجتُ من باب الحجرة ، ورُحْتُ أثِب على الدَّرَج مسرِعة ، فسمعتُ أم يونس تقول :

« وإذا سألتْني عنك أمك ، فماذا أنا قائلة لها ؟»

فتلبَّثت في مَهبِطي قليلاً ، ثم رفعتُ رأسي إليها ، وقلت :

« أخبريها بأنّ الدادة شيرين جاءت فصحبتْني إلى منزل سنية .»

بلغتُ بيتَ الصّديقة دون أن يقع أمرٌ غير مألوف ، وكان لركوب الترام واختلاف المناظر أمام عيني أثرٌ طيّبٌ ، فقد هدّأ شيئًا مِن ثائرة نفسي . دخلتُ على سنيّة في حجرتِها ، فألفيتُها تتلقّى درسًا في اللّغة الفرنسية مع مدموازيل شانتل . ورفعتِ المربّية رأسها ، ورمَقتْني بنظرة نكراءَ من خلف مِنظارها ، وما أسرع أن قالت :

« إن سنية مشغولة الآن ، فأرجو أن تنتظريها حتّى تفرُغَ من الدرس .»

ونظرتْ إليّ سنيّة نظرة استِرْضاءٍ لا تخلو من دَهشة ، ثم عادت إلى كتابِها تقرأ فيه ، والمدموازيل تستمع إليها . فخرجت وأنا أغمغِمْ :

« المعذِرَة ! لم أكن أعلم .»

وذهبت إلى الرَّدْهة ، وأخذتُ أتفرّج بالصور المعلقة على الحائط ، فلمّا وقفت أتطلّع إليها بدتْ لي كأنّها جديدة لم تعلّق إلا اليوم . وعجِبْت من نفسي كيف زرتُ البيتَ غيرَ مرّة ولم ألتفِت إلى هذه الصُّوَرِ ، كأنّي أجهَل وجودَها على الحائط . ولَبِثت أنظرُ إلى صورةٍ تمثّل هجومَ عُصبة من لصوص البَحر على فُرْضة (١) آمنة مُطْمئنّة ، وكانت جُموع اللّصوص تدوس الأطفال في طريقها ، وتحمل السّبايا من النّساء وكأنّهنّ متاعٌ . ولاحظت شبَهًا غَريبًا بين صورة كبير اللّصوص البحريّينَ وبين الزهيري باشا . أ ليستْ عيناهما متماثلتينِ في الوَهَجِ وغزارةِ الأهداب ؟ وهذا الشارِب الغزير ، أ يستطيع أحدٌ أن يجد فرقًا بينه وبين شارِب الباشا والد سنية ؟ وكان كبير اللّصوص البحريّين يُصدر أوامره إلى أتباعه ، وقبالته امرأة بارِعة الجمال تكاد تكون عارية ، وهي راكِعة تتضرّع إليه . فأطلتُ وَقْفَتي أمام هذه الصورة وأنا مأخوذة بِرَوْعتها ودقّة رَسمها . وخيِّل إليّ أن شَفَتَيْ كبير اللّصوص تتحركان ، وتَوهَّمتُ أني أسمعه يصيحُ بأحد أتباعه ، فَسَرتِ الرَّجفة في أوصالي. واستدرت حولي أتبيَّن مكاني ، فإذا بي أرى الزهيري باشا خارجًا من إحدى الحُجَر ، وهو يخاطِب شفيق أفندي كاتب الدّائرة في

(١) فُرْضة البحر : محط السفن منه ، وهي الميناء .

حِدَّة وعُنف . وانكمشت في موقفي ، فمرَّ بي ولم يرَني ، وخرج مع الكاتب إلى الحديقة ، ومكثتُ حيثُ أنا وقلبي ما زال دائبَ الخُفوق.

ثم عدت إلى تَجْوالي في الرَّدهة أنقِّل العينَ بينَ الصُّور ، ولكنّي كنت أعود دائمًا إلى صورة لصوص البحر فأقف أمامها أتأملها .

وكان السُّكون يخيِّم على المنزل ، لا تُسمع فيه إلا أصداءٌ ضعيفة تنبعث من أماكن الخدم البعيدة . ولم أرَ أثرًا للدادة شيرين . كيف لا تسرع إليَّ تحيِّيني ؟ وأحسستُ انقباضًا ، ورفعتُ بصري إلى ساعة الحائط ، فتبيَّن لي أنّي قضيتُ في الرَّدهة وحدي قُرابةَ ساعة . لماذا لا أعود إلى منزلي ؟ واتجهت مسرعةً إلى الباب ؛ فإذا بي أرى الزهيري باشا داخلاً ، مُقَطَّب الوجه ، يحمل في يده إضبارة (١) أوراق ، فأحنيت له الطريق ، فما إن رآني حتى انبسطتْ أساريرُ وجهه ، وحيَّاني في رِقَّة ، ثم قال وهو يلاطِف خَدّي : « لم أعلمْ أنكِ هنا . متى أتيتِ ؟ »

« منذُ ... منذ بُرْهة . »

« وهل رأيتِ سنية ؟ »

« رأيتها مع مدموازيل شانتل تتلقّى درسَها . »

« ولماذا لم تبقَيْ معها ؟ »

« لَم أرِدْ أن أقطعَ عليها درسَها . لقد أتيت لشأن تافه . »

« وأين أنت ذاهبة الآن ؟ »

« عائدة إلى المنزل . »

ورأيت الزهيري باشا يصيح بصوت عالٍ مناديًا سنية ، فقلت له : « لماذا تستدعيها ؟ »

« انتظري قليلاً ! »

وانبعثَ ينادي ابنته في صوت أشدَّ وأعنف من ذي قبل .

وشاهدت سنية تُهرَع نازلةً الدَّرَجَ ملبِّيَة النِّداء ، فما إن رآها الباشا حتّى قال لها في لهجة جافية : « أ مِنَ اللائق أن تُهملي صديقَتك ؟ »

فقلت : « أؤكِّد لك ، يا عمّي ، أنها لم تهملْني قط ! »

وتكلَّمت سنية خافضة الرأس تقول :

« إن مدموازيل شانتل حَتَمتْ عليَّ أن أؤدِّيَ التَّمرين تحت إشرافها . »

وقال الباشا جافِيَ اللَّهجة كما كان : « أيُّ تمرين ؟ اِصعدى إلى المدموازيل فأخبريها أن الدرس انتهى ، وعودي من فورِك إلى سلوى . »

فقلت في تَلَعْثُم : « ولكنّي ... ولكنّي منصرِفة الآن . »

وصَعِدَت سنية ، ونظر إليَّ الباشا يقول :

« لقد حان موعِدُ الغَداء . أ لا تتناولين معنا الطَّعام ؟ »

فأطرقت حائِرَة ، فأتمَّ كلامه قائلاً : « سنأكل معًا. »

فرفعتُ بصري إليه ، وقد داخلَني التَّعَجُّب ؛ لم يسبق أن تناول الزهيري باشا معنا الطعام . وسمِعته يقول مبتسمًا :

« قد لا يروقُكِ مجلسي ، ولكنّي لست كريهًا على نحو ما تتصوَّرين ! »

ففتحت فمي أريد الكلام ، ولكنّي لم ألفِظ حرفًا . ومضى الباشا يضحك ضحكته المتَّزِنة ، وقال وقد رأى سنية عائدة تجري :

« اِذهبا إلى الحديقة حتّى ندعُوَكما . »

وخرجنا إلى الحديقة ، وانطلقنا نسير في مَمْشاها الكبير .

وقالت سنية : « لقد ثارت بي الدَّهشة حين رأيتُكِ ! »

(١) إضبارة : مِلَف .

« لم تتوقّعي أن أحضُر ؟»

فقالت في لهجة ساذَجة وهي تبتسِم :

« إنَّ الدادة شيرين لم تذهب إليكِ كالعادة .»

فقلت لها : « لقد حضرت لأسألَكِ عن شيء .»

« تسألينني عن شيء !»

« أرغَب في رؤية أغطية وسائدك . إن التطريز يعجبني جدًّا ، وأريد أن أنقُل رسمَه .»

« لتطرِّزي أغطيةَ وَسائدك على مِثاله ؟»

« نعم !»

« إذن تعالَي معي لأريَك إيّاها .»

« أمامنا فُسْحة منَ الوقت .»

وتابعنا سيرَنا في الحديقة ، فمررنا بشجرة برتقال محمَّلة بالثَّمر ، فوقفت أمامها أتأمَّلُها صامِتة ، ثم تركناها ومشينا .

وقلت لسنية : « لم يزرْك حمدي بعد ؟»

« كلا !»

« ألم تلاحظي عليه أنّه تغير كثيراً عن ذي قبل؟»

« حقا تَغيَّر .»

« إنه دائمًا عَبوسٌ صموت !»

« لقد اصطلح عليه الفقر والمرض معًا !»

« ولكنه لا يبذُل جَهدًا في علاج مَرضه أو الخلاص من فقره . إنَّه يترك نفسَه نُهبى للأقدار تذهب به كلَّ مَذْهَب . إنَّه فتًى خامِل النَّفس ، راقِد الهِمَّة .»

واستدرنا ، ثم سرنا متَّجِهَيْن إلى المنزل . ومرَّت بنا فترةُ صمت . وقلت لسنيَّة وأنا أُحدِّق أمامي : « اِسمعي ، يا سنية .»

« ماذا ؟»

« لا تبعثي إليَّ منذ اليوم الدادة شيرين لتدعوني .»

فتوقَّفت سنية ترنو إليَّ ، وهي تقول :

« لا أبعث بها إليك ! لماذا ؟»

« سأحضر من تِلقاء نفسي !»

« لا أفهم ماذا تقصدين ؟»

« كيف لا تفهمين ؟ قلت لكِ إنّي سأزورك كلّما واتتني الفرصة وتيسَّر لي الحضور .»

« لعلَّ شيئًا قد ساءك !»

« ما أعجبَ أمرك ! لماذا تظنِّين أنَّ بي استياءً ؟»

« ذلك ما أحْسَبُه .»

وأخذت سنية يدي تلاطِفها ، وقالت وقد تابعنا سيرنا : « ولكن أخشى إذا لم نبعث إليك بالدادة شيرين أن تُطيلي عنّا غيبَتك .»

« اِطمئني ، فستكون زياراتي متقارِبة .»

« والآن ، أتريدين أن أريَك أغطيَة الوسائد ؟»

« أمامنا فُسحة منَ الوقت .»

وما كدنا نقترب منَ الباب ، حتّى رأينا الدادة شيرين تُقبِل علينا وهي تقول : « سيِّدي الباشا ينتظركما في حجرة الأكل .»

فبادرت سنية بقولها : « وهل سيأكلُ معنا ؟»

فقالت الدادة : « هو ومدموازيل شانتل .»

فالتفتت إليَّ سنية وقالت : « ولكن ... أظنُّ الأفضل ...»

فقلتُ لها هامِسة على الأثر : « هل الأفضل أن نظلَّ دائمًا أطفالاً ؟»

وجذبتُها مِن يدها ، فمضينا ندخل الدّار .

كانت حجرةُ الأكل من أفخَم حُجَر المنزل : أثاثُها على أحدَث طِراز ، مغطّاة جُدْرانُها بوَرق مُزَخْرف تَشيع فيه الخُضرة الدَّكناء ، وقد أحيط الشَّطر الأسفل من جدران الحجرة بِوَزرَة (١) من الخشب المُذهَّب . ولا

---

(١) الوَزْرَة : كساء صغير ، والجمع وَزَرات .

أذكر أنّي دخلتها إلا مرّةً واحدة ، ولكنّي لم أتناول فيها الطّعام قطُّ . دخلت وأنا أتلفّت حولي ، وكان الضّوْء فيها غير ساطع ، فلم يقعْ بصري في الحجرة على أحدٍ . وألقيتُ نَظرة على الخِوان فوجدت صحفةً مملوءة بتماثيلَ لأفانينَ منَ الفاكِهة كبيرة الحجوم .

فقلت لسنية : « نأكل كل هذه الفاكهة ؟»

وأرسلت ضحكة عالية ، فسمعت صوت الباشا يقول :

« سنقدّم لك من الفاكهة الجَنيّة ما هو أطيب منها .»

فالتفتُّ صوبَ الصَّوْت ، فألفيت الباشا ينظر إليّ باسمَ الثّغْر . وتلاقت نظراتُنا ، وطالعني على الفور وجهُ كبير اللّصوص البحريّين ، فخفضت من بصري ، وقلت متلعثِمة :

« عفواً ، لم أكن أظنُّ أنك هنا ، يا عمّي .»

« اِجلسي ! اجلسي ! لا حَرجَ عليك .»

وكان مجلِسُنا على هذا الترتيب : الباشا في الصدر ، وأنا عن يمينه ، وسنية عن شماله ، ومدموازيل شانتل قُبالَته ، ولم أكن قد أحسستُ قُدومَها ، ولكنّي رأيتها فجأة تحتلُّ مَقعدها . وبدأ الطّعام ، وكانت مدموازيل شانتل أشبه بالدُّمْية الّتي تتحرك باللّولب ، تتجلّى الصلابة في كلّ حركاتها ، تحمِل وجه مشنوق ، لا تلفِظ الكلمة إلا بشقّ النفس ، فلم أعرْ وجودَها أيّ اهتمام . وأقبلت أصغي إلى الباشا وقد مضى يحدّثنا حديثًا لطيفًا ، يصِف به عهدَ حداثته حينَ كان يماثلنا في السّنّ ، ويشرح لنا مكايده في معاملته للنّاس . وعرّجَ في حديثه على الرّيف ، فروى لنا بعض نوادِره مع الفلاحين ، وجعل يصوّر لنا الحياة في القُرى أجملَ تصوير . والحقُّ أنّني قضيتُ وقتي في هذه الجَلسة هانِئة مُمتّعة ، وما كنت أحسَب أن الباشا على هذا النحْو من الإيناس وعذوبة الحديث . و وجدتُني أترُك نفسي على سجيّتها ، ولاحظتُ أنّني أسرفت في الضّحِك . وحانت منّي التفاتةٌ إلى مدموازيل شانتل فرأيت علائم الاشمئزاز مُرتَسِمة على وجهها بوضوح ، فحوّلتُ بصري إلى الباشا فوجدته يبتسم إليّ في لُطف بالغ ، وكأنه يشجّعني على الاسترسال في الضّحِك ، غير مبالية بتلك المدموازيل العَبوس .

وقد أكثَرتُ منَ الطّعام في شَهيّة . وكان الباشا هو الذي يضَع الطّعام بِيده في صحفتي . وقبل انتهاء الأكل استأذنت مدموازيل شانتل في الانصراف ، فرأيت سنية تُتبِعُها النظرَ في حيرة .

وسمعتها تغمغم : « إنها لم تأكل الفاكهة !»

فقال الباشا بِلا مبالاة : « سنُرسلها إليها في حجرتها، فهي تفضّل ذلك .»

وجعل يستأنف حديثَه . وبعد أن أكلْنا الفاكِهة أحضروا القهوة للباشا ، فأخذ يحتسيها على مَهَل ، وقد انطلق يدخّن . ورأيته يستغرق في التفكير بُرهة ، ثم التفت إلى سنية قائلاً :

« ألاحظ أنك مُتعَبة هذه الأيام . يبدو على وجهك ذبول وهُزال . أنت مُحتاجة إلى الرّاحة . لقد فكرتُ في إرسالك إلى الضّيعة .»

فقالت سنية كأنّها تكذّبُ أذنيها : « إلى الضيعة؟»

« تقضين هناك نَحْوَ أسبوع . أحسَب أنّكِ لا يطيب لكِ المقام هناك إلا إذا صَحِبتْك سلوى .»

والتفت إليّ على الفور يقول : « ما رأيك ؟ أسبوع في الضيعة مع سنية ، تركَبان الحَمير ، وتتنزّهانِ في الحقول ، وتصطادان السّمك . ولا تنسيْ أنّ هناك حديقةً فيّاحة ، تجريان فيها ما طاب لكما الجري .»

وصَفّقت سنية مُهتاجة تقول : « الضيعة . سلوى . الحقول ...»

وقامتْ إلى أبيها تعانقُه ، وقال الباشا : « ولكن ما

رأي سلوى ؟»

فقلت وقلبي يشتدُّ وَجيبُهُ : « لا بدَّ أولاً أن أستأذِنَ والدتي .»

فقال الباشا : « قولي لها إن سنية تدعوك لقضاءِ أسبوع في الريف .»

وكان ينفُخ دُخان لفافته على نحو رائع . وقال متابعًا حديثه : « أ ذهبتِ إلى الريف ؟»

« كلا !»

« إنك كسنية لم تطأ قدَمُها الضَّيْعة !»

ورفعت سنية عينيها إلى أبيها ، وقد أظلَّ وجهها عبوسٌ وهي تغمْغِم : « و مدموازيل شانتل ؟»

فقال الباشا مبتسمًا :

« أيُّ الأمرينِ تختارين ؟ أن تسافر معكما أم تبقى هنا ؟»

فنكّسَت سنية رأسَها ، وقالت : « لا أدري ، لا أدري .»

فقال الباشا : « تبقى هنا .»

فقالت سنية : « وماذا تفعل وحدَها هنا ؟»

فقلتُ على الفور : « إمنحوها إجازة .»

فقَهْقَه الباشا وقال : « فكرة عظيمة ! إنَّ لها أهلاً في الإسكندرية يمكن أن تقضي عندهم أسبوعًا .»

والتفت إلى ابنته يقول : « ولكن يجب أن يرافقكما أحد !»

فقلت : « الدادة شيرين .»

فضرب الباشا المائدة بيده وقال : « فكرة أعظم منَ الفكرة السابقة .»

وفي هذه اللَّحظة دخلت الدادة شيرين تحمِل لفيفة في يدها . فما إن أبصرها الباشا حتّى صاح : « لقد وقع اختيار سلوى عليكِ لتَصحبيها هي وسنية إلى الضَّيعة .»

فأشرق وجهُها المستدير المقبَّب ، واختلج جسمها البدين المتَرَهِّل ، وقالت في صوتها الهادئ ولهجتها المحبَّبة : « بارك الله فيها وهيَّأ لها الخير !»

و وضعت أمامه اللَّفيفة قائلة : « لقد أحضر جميل السائق ما أمرتَه به .»

« حسنًا .»

وخرجت الدادة شيرين ، فتناول الباشا اللَّفيفة ، فإذا هي علبه فخمة منَ الحلوى ، وسمِعته يقول لي : « إنها هديَّة من سنية إليك .»

« أنا ؟»

« نعم أنتِ ، هدية صغيرة من صديقتك .»

وناولني العُلبة فأخذتها وأنا مضطَرِبة ، ثم رأيت الباشا ينهض قائلاً : « لقد اتَّفقنا على كل شيء ، ونحن منتظرون استئذانَك لأُمِّك في شأن السفر .»

ودنا مني يلاطِفُ خدّي مبتسِمًا ، ثم غادر حجرة الطعام .

وفتحتُ العُلبة فإذا هي تزخَر بالفاخر منَ الحَلوى، فأعطيت سنية منها وأخذتُ لنفسي شيئًا ، ومَضَينا نأكُل في مَرَح . وبغتةً رأيت سنية تحوطني بذراعيها ، وتضمني بشدَّة إليها وهي تغمرني بقُبلاتها .

— ٢١ —

ما إن فرَغت أمي من تناول فطورها حتّى دخلتُ عليها في حجرتها وهي تترنَّم ، وفي يدها بعضُ الأوراق المالية تقلِّبها ، فحيَّيتُها تحية الصَّباح ، فردَّت التحيَّة دون أن ترفع عينيها عنِ الأوراق ، ثم قالت :

« هذا رَيْع بعض أملاكنا .»

« حسنًا ، لقد كنتُ أمسِ عند سنية .»

« أخبرتْني بذلك أم يونس . وكيف هي ؟»

« ليست على ما يُرام .»

فرفعت أمي نظرها إليَّ وقالت : « أ مريضة ؟»

« إنها مُتعبة ، ومحتاجة إلى تغيير الهواء .»

فعادت إلى أوراقها المالية تُعنى بها وترتِّبها ، وقالت :

« أبناء السَّراة دائمًا يشكون توعُّكَ الصِّحة . وإلى أين يريد أن يرسِلَها أبوها لتغيير الهواء ، إلى الإسكندرية ؟»

« بل إلى الضَّيعة .»

و وجدتها تدسُّ الأوراق في صدرها وتقول : « إلى الضيعة ؟ فِكرة حسنة ! لقد سمِعْتُ أنَّ لهم هناك قصراً وحديقة واسعة .»

« هكذا قال الباشا .»

« وهل لقيته ؟»

« نعم ! وقد تناول الطعام معنا أنا وسنية و المدموازيل .»

ونفثت أمي دُخان لِفافتها دفعة واحدة ، وقالت :

« تناول الطعام معكنَّ !»

وانطلقت منها ضحكة عابِثة تترنَّم . وبَغْتةً انقطعت عن الغِناء ، وقالت : « ولكن لماذا قال لك إنَّ له قصراً وحديقة في الضيعة ؟»

فنظرتُ إليها في تضرُّع صامت وأنا أبتسِم ، ثم أمسكت يدَها ولاطفْتها ، فقالت : « آه ، فهمت !»

فقلت على الفور ، وأنا أشدُّ على يدها :

« إن سنية تدعوني إلى الذَّهاب معها لقضاء أسبوع .»

« وهل هي الَّتي دعتك ؟»

« دعتني بِلسان والِدها ؛ ليس لها — كما تعلَمين — أن تقرر شيئاً دون مُوافَقة الباشا .»

« مفهوم ، مفهوم . ليس لها أن تقرِّر شيئاً . ولكنِّي أسأل هل الفكرة فكرتها ؟»

« الحق أنَّ الفكرة كانت عارِضة أثناء الحديث ، ولو كان الباشا قد ترك لسنية الوقت لأبْدَتها من تِلقاء نفسها .»

« حقا ! حقا !»

« إنها تحبُّني أصدَق حبٍّ .»

« شيء واضح !»

وفتحتْ علبةَ لفائفها ، وجعلت تنظر فيها ، ثم أخرجتْ واحدة فأشعلتها في بطء ، وقالت واللِّفافة في فمها :

« وهل يذهب الباشا إلى الضيعة أيضًا ؟»

« كلا .»

« وكيف علمتِ بذلك ؟»

« لم يتحدَّث إلينا في شأن سفره ، بل كان جُلُّ حديثه يتعلَّق بسفر سنية والدادة شيرين .»

« و المدموازيل ؟»

« سيمنحونها إجازة .»

« وبماذا أجبتِ حين دعاك الباشا ؟»

« أجبتُه بأنِّي سأعرض الأمر عليك .»

« وماذا قال في ذلك ؟»

قال : « يجبُ استئذان أمِّك .»

وأخذت تدخِّن بُرهة وهي صامِتة ، ثم قالت وهي تنظر إلى الدُّخان المتطاير : « كثير أن تغيبي هناك أسبوعًا ؛ ماذا تفعلين في هذا الأسبوع ؟ ولو كنتُ مكانك لما استطعتُ المُكْثَ أكثر من يوم واحد . من يُطيق سُكنى الرِّيف ؟»

« حَسبي بِضْعةُ أيام .»

« وتتركينني هنا وحدي ؟»

« لا أغيب أكثرَ من يومين إذا أردتِ .»

« أنا لا أريد أن أحرِمَك هذه النزهة ، بشرط ألا تزيد على يومين . يجب ألا تكوني ضَيفة ثقيلة على الناس مهما يظهروا لك الرِّضا .»

« لن أغيب أكثر من يومين .»

وقبّلتها وقبّلتني ، ثم قلت لها وأنا مهتاجة :

« وقد أهدت إليَّ سنية عُلبة من الحلوى .»

« علبة منَ الحلوى ؟ أين هي ؟»

وهُرعتُ إلى حجرتي ، وعدْت أحمِل العلبة ، فأخذتها أمي ، وجعلت تقلّبها وهي تقول : « لا بأس بها !»

وفتحتْها ، وجعلت تنظُر فيها طويلاً ، بيدَ أنّها لم تصِف بكلمة واحدة فخامة الحلوى ، وأخذت منها قِطعة ، وهي تقول :

« سنية هي الّتي أهدتْها إليك ؟»

« نعم ، ولكنَّ الباشا هوَ الّذي أوصى بإحضارها .»

وجعلتْ تلوكُ قِطعة الحلوى في فمِها قائلة :

« مفهوم ! مفهوم !»

ثمَّ انطلقت منها ضِحكة غريبة ، فقلت : « لماذا تضحكين ؟»

« لا شيء ، لا شيء ، تذكّرتُ حادثًا تافهًا أضحكَني. أخبريني كيف كان حديثُ الباشا معكنَّ على المائدة ؟»

« كان مُسلّيًا ، روى لنا أقاصيصَ ونوادرَ من عهْد حداثته .»

وتناولت أمي قطعة أخرى منَ الحلوى ، وقالت :

« يظهر أن له أوقات صَفاء !»

ورأيت في هذه اللّحظة أم يونس تدخل الحجرة ، وهي تنهَج ، فقالت لها أمي : « ما الخبر ؟»

فنظرت المرأة إليَّ ، ثم التفتتْ إلى أمي ، وبعد صمت مُمِضٍّ قالت في تباطؤ : « قَدِمَ حمدي أفندي ، وهو في البَهو .»

فقلت في دهشة لا تخلو من غيظ : « حمدي ؟»

وقالت أمي : « مَن حمدي هذا ؟»

فقلت : « إنّه صديق الطفولة ، عرفتُه قديمًا عند سنية .»

« آه ، يخيَّل إليَّ أنّي سَمعتُك مرّة تتحدّثين في شأنه .»

وقالت أم يونس : « ماذا يجب أن أقولَه له ؟»

فقلت في اندفاع :

« قولي إنّي مريضة ، أو قولي أيَّ كلام آخر ؛ لا أريد أن ألقاه .»

فنظرتْ إليَّ أمّي تتفحّصُني ، ثم قالت : « ولماذا لا تريدين أن تلقيه ؟»

« لأنّي ... لأنّي غير متأهّبة للقائه .»

فابتسمتْ أمي وقالت : « ولكنْ ليس هذا منَ الذّوْق في شيء .»

فالتفتتْ إلى أمّ يونس وقالت : « أدخِليه حجرة الزوّار .»

ونظرت إليَّ تقول :

« سأنزِل إليه ، وسألقاه نائبةً عنك ، ولكن يجب أن أغيِّر ثوبي .»

و وجدتها قد تركت مقعدها ، وقد أخذت معها علبة الحلوى ، وفتحتْ خِزانتها ، و وضعت العلبة فيها ، وطفِقت تعرض أثوابها .

وخرجت أنا إلى الرّدْهة ، ومن ثمَّ نزلت إلى الطبقة الأولى ، ودخلتُ حجرة الزوّار . وما إن وقع بصري على حمدي حتّى اختلج جسمي اختلاجة فزَع .

لقد شهدتُه شاحب الوجه ، غائر العينين ، يتصبّب العرق غزيراً من جبينه ، ورأيته يمسح يده بالمنديل ، ثم مدّها إليّ وهو يقول :

« أقسم لك إنّي كنت أمسِ في حالة يُرثى لها من وَعْكة المرض ! »

و اشتدّ شحوب وجهه ، ورأيته يُغمِض عينيه ، ويُمسك بجبهته. وشعرتِ حين صافحتُه بأنه محموم ، فقلت : « اجلِس . استرِح . ما بكَ ؟ »

فجلس وعيناه ما زالتا مغمَضتَين ، ثم غمغم : « أنا اليوم أحسنُ حالاً . »

وضغط يدي ، وفتح عينيه قليلاً ، وهو يقول :

« أرجو ألا تكوني مستاءة . »

« كان يجبُ أن تظل في فراشك . »

« بل وجب عليّ أن أحضر لأكاشِفكِ بعُذْري . »

« ولِمَ لمْ تبعث إليّ برسالة ؟ »

« خشيتُ ألا تصدّقيني . »

ودخلت أم يونس بالقهوة ، فتناول كوبَ الماء وكرَعه دُفعة واحدة ، ثم انطلق يمسح العرق السابح على وجهه . وبعد حين مضى يحتسي القهوة ، وقال وقد افترّ ثغرُه عن ابتسامة كاسِفة :

« أشكر لك ... الحمد لله ... أشعر بتحسُّن كبير . »

ودخلت أمي في هذه اللّحظة ، وكانت مُزيَّنة معطَّرة ، ترتدي ثوبًا يكشِف جانبًا من صدرها ، فقلت لها :

« حضرته الأستاذ حمدي الموسيقيُّ الفنان . »

والتفتُّ إليه وقلت : « والدتي ! »

وانحنى حمدي على يدِ والدتي وقبّلها في أدب ، وهو يقول :

« تشرّفنا ، يا هانم . »

« تشرّفْنا ، يا بك . منَ الغريب أنّك صديق ابنتي منذ الصِّغر ، ولم أرك حتّى الآن . لم تزرْنا قبلَ هذه المرة . »

« حقا لم أزرْ هذا المنزل قبل الآن ، ولكنّي كنت أتردّد على منزل الإسكندرية . »

« أوه ، هذا عهد قديم جدًّا ! »

وصمتَتْ والدتي بُرهة ، ثم قالت : « هل حضرتك موظَّف في الحكومة ؟ »

« كلا ، بل إني أعطي دروسًا خصوصيَّة في الموسيقى والرسم . »

« حضرتك رسّام أيضًا ؟ شيء جميل . أ عَرَضْتَ صُوَرًا في المعارِض ؟ ذكَّرتني ، إنَّ معرِض رابطة الفنّانين الّذي أقاموه الشهرَ الماضي في « الكونتننتال » كان عظيمًا جدًّا . »

« لم أتمكّنْ من مشاهدته مع الأسف ، ولم أعرِض فيه شيئًا . »

« إذن عرضتَ في غيره . »

فطأطأ هامَته ، وقال : « ليس لديَّ صُوَرٌ أعرِضها؛ أنا معلم صغير . »

فوجدتُني أقول : « إن حمدي متواضعٌ ، يا أمي ، ولعل هذا هو السبَّب في غَمطِ حقِّه دائمًا . إن كثيرًا منَ القِطَع الغنائيَّة الّتي يسمَعها الناس في الرّاديو هي من تلحينه ، ولكنّه لا يذكر اسمه . »

فقالت أمي لحمدي :

« إذن حضرتك تتكسّب من تلحينك لمقطوعات الغناء ؟ »

فقال حمدي وهو يعبَث بأصابعه :

« أكسب ما هو ضروريٌّ لمعاشي . »

« أ تُقيمُ معَ أسرتك ؟ »

« بل أقيم وحدي .»

فابتسمت والدتي ابتسامة لا يَخفى معناها ، وقالت :« إن الفنانينَ يهوَوْنَ حياةَ الانفراد .»

فرفع بصرَه إليها وقال : « إنّي أحيا هذه الحياة ؛ لأنّي بِلا أهل .»

« بلا أهل ! كيف ؟»

« يجوز أن يكون لي أهل لا أتذكّرهم ، ولكنّي لا أعرفُهم ولا يعرفونني .»

« شيء غريب !»

« إني أسكُن وحيداً في قرية بجوار الأهرام .»

وخشيت أن يُفضي أمام والدتي بشيء من أمر زيارتي على غير قصْد ؛ فغمزتُ له غَمزة فَهِمَها ، فابتسم قائلاً : « إنه ليسرُّني أن تشرفَني الهانم وسلوى . إنَّ منزلي بسيط جدًّا ، ولكنه يستطيع أن يرحّب بزيارتكما .»

فقالت والدتي على عَجَل : « إن شاء الله ... إن شاء الله .»

ونهض حمدي مستأذنًا في الخروج ، فمدَّت له أمي يدَها وهي تقول في لهجة رسمية :

« في الوقت سعَة . لِماذا أنت متعجِّل ؟»

« إنّي أشكر لكِ حسنَ ضيافتك ، يا هانم .»

وقبَّلَ يدها في تبجيل ، ثم صافحني وضغط يدي ، ومضى إلى الباب . والتفتت والدتي إليّ تقول :

« لم يكن ينقُصنا إلا هذا الموسيقيّ ، تعقدين بينك وبينه صداقة !»

« إنّه شاب طيِّب مخلِص .»

« حسبُكِ ! الطِّيبة والإخلاص وحدَهما لا ينفعان في هذه الدنيا .»

وسرنا بضْعَ خُطوات صامتتيْنِ ، ثم قلت لوالدتي :

« سأرسل أم يونس إلى سنية لتخبرَها بقبولكِ دعوتها إيّاي ، ولتسألَها عن موعد السفر .»

فأجابت وهي تجدُّ في سَيرها :

« فليكن ، فليكنْ . أرسليها .»

— ٢٢ —

ما أسفر صبحُ (١) يوم السفر حتّى شرعتُ أعِدُّ أشيائي ، فلمّا أعددتها لم يبقَ إلا أن أضعها في حقيبة ، فسألتُ أم يونس أن تأتيَ لي بها ، فوجمتِ المرأة وقالت : « ليس عندنا حقائب !»

« ليس عندنا حقائب ؟»

وعجبتُ كيف أنّي لم أهتمَّ بهذا الأمر قبل الآن ؟ وكيف لم يخطر ببالي أن أدبِّره أمس ؟ و وقفتُ أكاد أتميَّز من الغَيظ ، وقد وضعتُ يدي في خَصْري ، وصحتُ بأم يونس أطلب إليها أن تحضر لي حقيبةً في الحال .

وتناهتْ صَيحَتي إلى أمي فجاءت تسأل ما الخبر ، فأنبأتْها أم يونس بالأمر ، فابتسمتْ طويلاً ، وهي تداعب سلسلة في يدها ، ثم قالت لأم يونس :« اذهبي فأتيني بحقيبتي في حجرة الفرش .»

فبادرت بقولي :

« أيّة حقيبة ، يا أمّاه ؟ تلك الّتي احتكرتْها القِطَط لِصغارها !»

« احتكرتها القطط لصغارها ؟ ما هذا الكلام؟»

« إنها ممزَّقة ، وليس بها مِفتاح !»

« يمكن ربْطُها بالحبل .»

« لا أحتمل نظرات السخرية الّتي يرْشُقُني الناس بها .»

---

(١) ما أسفر الصبح : ما أشرق وأضاء .

« إذنْ ، عليك بشراء حقيبة جديدة . أ مَعَك ثمنها ؟»

فلم أجِب ، و واصلت أمّي قولها : « إذن لماذا التعالي والتكبُّر ؟»

« سأضع أشيائي في صُرَّة .»

« كما يحلو لك .»

وخرجتْ وهي تداعب السلسلة . ولاحظتُ أن أم يونس ليست في الحجرة ، فخرجتُ أناديها فلم أسمع لها ردًّا ، فازداد حَنَقي عليها ، وعدتُ إلى حجرتي ، واستلقيتُ على المَقعد ، وقد زَهِدت في السفَر . وبعد قليل دَخلت أم يونس ، وأنفاسُها تتتابع ، وهي حاملة حقيبة لطيفة ، فقفزتُ منَ السَّرير وقلت : « من أين جئت بها ؟»

« ضعي أشياءك ، ولا تضيِّعي الوقتَ في كلام .»

« أراهِن على أنّها من الست فتحية .»

« قلتُ لك ضَعي أشياءك وكفى .»

وانهمكنا نضع الأشياء في الحقيبة ، ثم أقفلْتها بالمِفتاح ، ثم وضعته بعناية في مَحفَظتي . وجعلتُ أرتدي ملابسي في عَجلة ، إذ تبيَّن لي أن الوقتَ قد أزِفَ ، ولم يخطئ تقديري ، فسَرعان ما سمِعتُ نفيرَ السيارة يدعوني إلى النزول .

خرجتُ منَ الحجرة وأم يونس خلفي تجرُّ الحقيبة ، فوجدتُ أمي في الرَّدهة ، فسارعتُ إليها وقبلتُها قبلة الوداع ، فاستجابتْ لي بقبلة عابرة . وما إن وقع بصرها على الحقيبة حتّى صاحت : « ما هذا ، يا أم يونس ؟ إنك تُسيئينَ إلى كرامتي بهذا العمل المُهين !»

« أيُّ عمل ؟»

« لقد حذَّرتُك أن تستعيري شيئًا من أحَد . أين أخبأ وجهي منَ النّاس ؟»

وسمِعنا نفيرَ السَّيارة يتعجَّلنا ، فمضيتُ أعينُ أم يونس على حَمْل الحقيبة ، وأخذنا نهبط الدَّرَج وسمعت أمي تقول :

« إن مَن يراك بحقيبتك هذه يحسبُك راحلةً إلى أوربا !»

ورنَّت ضحكتها في سخرية . وما إن بلغتُ السَّيارة حتّى احتضنتُ أم يونس بشدَّة وقبلتُها في حُنُوٍّ بالغ . وركبتُ وأنا أحيِّي سنية والدادة شيرين في صَخَب واهتياج . ولَمّا تحرَّكت بنا السَّيارة التفتُّ إلى أم يونس فوجدتُها بجوار الباب تحدِّق فينا مبتسمة وهي تمسح عينيها ، فباغتَتْني كآبة وأسًى ، واستغرقتُ في تفكير .

وبعد حين سمعت سنية تقول : « انظري . أُنظري .»

فانتبهت من أحلامي ، ونظرت فإذا بموكِب من صغار الكشافة يسيرون بخُطوات راتبة منظَّمة على قرع الطُّبول ، وهم يؤدّون بصفيرهم لحنًا من ألحانهم الساذَجة ، وعلى وجوههم طلاقة وبشر . ورأيت سنية تحيِّيهم بيدها وهي تضحَك ، فالتفتتْ إليها الدادة شيرين بوجهها اللامع البرّاق ، وقالت ، وقد تجلَّت عليها علائمُ الجِدِّ والوقار :

« لا تَضِجّي بالضحِك على هذا النحو ، يا بنتي!»

ثم وجهت إلينا معًا قولها : « إن سيدي الباشا قد أوصاني بأن أرعاكما ، وألا أترككما على هواكما.»

فتبادلت أنا وسنية النظرات ، ثم علا صوتنا بالضَّحك ؛ فصاحت الدادة شيرين : « لماذا تضحكان؟ أ في قولي ما يثير هذا الضحك ؟»

فقلت لها وأنا أشدُّ على يدها : « لقد رأينا قطا أجربَ يَتواثب أمام السيارة كأنه ألعبان ؛ لقد أضحكَنا منظرُه ، يا دادة .»

واستأنفنا الضحك ، وسمِعنا الدادة تقول وهي تضحك معنا :

« لقد رأيته يفرُّ بين عجلات السيارة . كادت تقصم ظهره .»

وبعد حين تخطَّتِ السيَّارة حدود القاهرة ، ومضت تسير في طريق معبَّد تكتنفُه المزارِع . وسرَّحتُ بصري في الحقول مغتبطةً وأنا أستقبل النسيم الفوّاح . ورأيتُ فيما حولي أشجارَ القطن يتناثر فيها نُوّارُه البَنفسَجيُّ ، ومررنا ببعض البيادر (١) حيثُ يدْرَس القمح بالنوارج .

فقالت الدادة شيرين :

« طالما ركبْتُ هذه النوارِج ، وسُقْت الثّيران ، في عهد حداثتي .»

فقلت : « أ كانت نشأتُك في الرّيف ؟»

فقالت سنية : « إنها من بلاد الفلاحين .»

فبادرت الدادة تقول في حِدَّة : « ماذا تقولين ؟ أ فلاحة أنا ؟»

فرأيت سنية تربت ذقَن الدادة شيرين وهي تقول :

« لا تغضبي ، لا تغضبي ؛ أ و قلتُ إنك فلاحة ؟»

ثم حدَّقتْ في وجهها بُرهة وهي تبتَسم ، وقالت : « إنّي أحبُّ فيك طابَعَ الحسن . هذا الطابع الذي يزيّن ذقنك . إني أحبُّه أعظمَ الحبّ .»

ثم انبرت تدغدغها ، فإذا المرأة تتأوَّد ، وإذا بها في ثورة تضحك وتخلِط الضَّحِك بالتمنُّع والاستنكار.

ومررنا ببيدر شاسع تعمل فيه عِدَّة نوارِج ، فقلت للدادة :

« وهل نستطيع أنا وسنية أن نركب النوارج في الضيعة ؟»

فقالت وهي تلفظ كلماتها على رِسْل : « تركبين النوارِج أنت وسنية ؟ هذا أمر قد أفكِّر فيه حين نكون في الضَّيعة .»

فقالت سنية وهي توجِّه نظرها إليَّ :

« ولكن أ ليس في ركوبها مِن خطر ؟ أ لا تجرُّها الثيران ؟»

فقلتُ لسنية : « أيُّ خطر ؟ أ لا ترَيْن الأطفال يعتَلونها ، وقد أخذوا يسوقون الثيران في سُهولة ويُسْر ؟»

والتفتُّ إلى الدادة ، وقلت : « وستركب معنا الدادة .»

فقالت : « أنا أركب النورجَ ؟ ماذا تقصِدين ؟»

« لتراعينا وتُعْنَيْ بأمرِنا .»

« سننظر في هذا الأمر ، سننظر فيه حين نَصِل إلى الضَّيعة .»

و وجدتُها تبتَدِرُ السائقَ بصيحَتها ، قائلة له : « دقِّقِ النَّظرَ أمامك ، وحذار أن تَغْفُلَ ! ما لي أراك تتمايل تمايلَ النِّيام ؟»

ورأيت السائق لا يعقِّب على قولها بشيء ، وإنما اقتصرَ على أن يَهُزَّ كتِفَيه بلا مُبالاة . وظلَّتِ السَّيارة ماضيةً بنا بين الحقول ، ولكنّي لاحظت أن الطريقَ لم يعد مُعبَّدًا ، فقد جعلت السيارةُ تَهتزُّ ، وراح رأسي يصطدِم بسقفها كلَّما اهتزَّت ، فكان في ذلكَ مثارٌ للضَّحك . واضطرَّ السائق أن يُهوِّنَ من سُرْعته ؛ إذ ضاق الطَّريق ، واعترضَتْه القَنَوات ، وتزاحمت أشجار السَّنط المشتبكة على جانبيه . وكنا نمرُّ بزَرافات و وُحدان (٢) منَ الفلاحين ، يَمضون إلى أعمالهم مترجِّلين أو على ظهور الدوابِّ . فأمّا المشاة فكانوا يَحيدون عن وَسَط الطريق ، ويبعثون إلينا عوابرَ النظرات . وأمّا الراكبون فكانوا يتابعون سيرهم ، وقدْ تدلَّتْ أرجلهم الطويلة حتّى كادت تلامِس أديمَ الأرض ، وهم غير مُبالين بدُنوِّ السّيارة ، فلا يجدُ السائق بدا منَ الوقوفِ حينًا والتباطؤ حينًا آخر .

(١) البيادر : جمع بَيدَر، وهو الجُرْن .

(٢) زرافات و وُحْدان : جماعات وأفراد .

وفي بعض الطريق كنا نصادف زُمَرًا (١) من الصِّبية ، فأراهم يُقبِلون على السيارة ، ولا يفتأون يتْبعونها ويتعلقون بها منَ الخلفِ متهلِّلين متصايحينَ .

كان كلُّ شيء يدعو إلى الغِبْطة ، بيد أنِّي ضجِرت من ذلك الغُبار المتطاير ، الَّذي كان ينهال علينا فتضيقُ به أنفاسُنا أيَّ ضيق .

وأخيرًا وصلنا . وتمهَّلتِ السَّيارة وهي تقتربُ من الضَّيعة ، فإذا بي أرى القصر قائمًا وسط أكواخ الفلاحين المتواضعة ، يستقبلنا بهامته البيضاء عليها غبرَة. وكان الطريق المؤدي إليه يقوم على جانبيه صفَّان من الأشجار في استواء ، وتعترض منتصفَه تُرْعَةٌ اجتزناها على جِسرٍ منَ الخشب ، شعرنا به يهتزُّ تحت عجلات السَّيارة ، وسمعنا له طقطقة واضحة ، فتماسكنا بأيدينا ، وقد أخذ منا الهلَعُ كلَّ مأخذ .

وما إن دنتِ السَّيارةُ من الباب حتَّى لمحنا جَمْعًا من موظَّفي الضَّيعة يقتربون منّا . وهُرِع إلينا رجل أشيَب ، صُلب العود ، يرتدي الجلباب البلديَّ والمعطف ، و وجهه الأسمر الممتلئ المضرَّج بنضرة الصحة يتطلَّق تحيَّة ومؤانسة ، فبادر إلى الباب يفتحه وهو يكرِّر مِن كلمات الترحيب . والتفَت إلى الدادة شيرين وهو يقول :

« أهلاً وسهلاً بأمي ! »

وَمدَّ نحوها يده لتستعين بها على النزول ، فنحَّت عنها يده وهي تغمغِم : « أمك ! الأفضل أن تقول إني جدَّتك ! لا تكلِّف نفسَك عناءً في معاونتي ؛ أستطيع أن أنزل دون أن أستعين بأحد . »

فلم يأبَهْ لقولها ، وإنما دنا منها يأخذ بيدها ، فما كان لها أن تستطيع النزول من السيارة دون أن يُعينها .

وقال لها : « لا تغضبي ؛ لن أدْعوَك أمي . أهلاً وسهلاً بأختي . »

وما كادت قدماها تثبُتان على الأرض حتّى ردَّت يده وهي تقول : « الحق ، يا مصطفى أفندي ، أنِّي لا أميل اليوم إلى الهزْل ، فدَعْ هذا المُزاح . »

وكنتُ أنا وسنية نضع مِنديلنا على فمِنا نكتُم به ما يكاد ينبعث منَ الضَّحِكات .

وأحاط بنا جمعُ الموظفين ، وكانوا أخلاطًا بين لابسِ لِبْدة أو عِمامة أو طربوش ، فأقبلوا علينا يُحيّوننا واحدًا تِلوَ الآخر ، وقد ينحني أحدُهم على أيدينا فيقبِّلُها .

ورأيتُ مَدْخَلَ الحارة التي فيها مساكِن الفلاحين قد اكتظَّت بالنساء والأطفال ، وكانوا يشرئبّون بأعناقهم ، ويتطاولون برءوسِهم إلينا ، يزْحَم بعضُهم بعضًا .

ودخلنا القصر أنا وسنية ويدي في يدها . وكان مصطفى أفندي يتقدَّمنا وهو يُصدِرُ أوامره للأتباع ، على حينِ كانت الدادة شيرين تَزْحَف خلفنا في خَطْو كسيح ، وهي تصيح بنا أن نتمهَّل . ونادت مصطفى أفندي فرَجع إليها ، فاعتدلت في وقفتها ، ورفعت رأسها شامخَة الأنف ، وقالت له :

« حضرتك ناظر الزراعة في الخارج ، أمّا في القصر ... »

فلم يدعْها الرجل تتمُّ جملتها ، وإنما بادر بقوله ، وهو يبتسم ابتسامته الساطِعة :

« أمّا في القصر فحضرتك الناظرة ... مفهوم ! »

— ٢٣ —

كان المنزِل عجيبَ الشكل ، على طراز عتيق ، له بَهْو طويل مُعتِم ، يقوم على جانبَيه صفَّانِ من الحُجَر . واستقبلتْنا على الباب فلاحة عجوز كأنها دجاجة هَرِمة

(١) زُمَرًا : مجموعات .

منسولةُ الرِّيش ، ولكنَّها على الرغم من علوِّ سنِّها كانت تبدو عليها مخايلُ النشاط . وما كادت الدادة شيرين تراها حتى مَدَّت إليها يدَها في مظهر من التَّعاظم قائلة :

« كيف حالك ، يا أم نجم ؟»

فأسرعت المرأة تقبِّل يدها وهي تقول :

« أطال الله عمرك ، يا ست دادة .»

والتفتت إلينا الدادة شيرين وقالت : « هذه أم نجم العجّانة ، ستعمل لكما الفَطير المشلتت ، وتطبخ لكما الفريك الفاخر .»

وتقدمت منا العَجّانة الهرِمة ، والبشر يسطَع على وجهها ، وصافحَتْنا وهي تقول : « سأعملُ لكما كلَّ ما تطلبانِه مني . أنا خادمتكما .»

و وقفت تتأمَّلنا وهي تقول : « ما شاء الله ، ما شاء الله . زادكما الله حُسناً وبارك فيكما . عروسان ، ما أملحكُما !»

فقالت الدادة شيرين على الأثر :

« تقدَّمينا إلى الحجرة ، ولا تُكثري منَ الكلام .»

فأذعنتِ المرأة للأمر وتقدَّمَتْنا لتُرِيَنا حُجَرَ المنزل ، فدخلناها واحدة إثرَ الأخرى ، فإذا هي متشابهة في أثاثها الساذَج القديم ، ونظامها الريفيِّ الرّاتب ، إلا حجرةً واحدة كانت تمتاز عن الأخريات بأريكَة فسيحة ، وصِوان عريض للملابس ، عليه مَسحة منَ الوجاهة . وقد أخبرتْنا أم نجم أن هذه حجرة الباشا ، وأنها له خاصّة .

ولبثت الدادة شيرين تناقشُ أم نجم في شأن الحُجَر ، وأيّها أطيب هواء وأكثر تعرضًا للشمس . وقد أطالت تطوافها و واصلت حديثها حتى بلغ منها الإعياء كل مبلغ ، فتهالكت على مَقعد ، وهي تلقي بأوامرها إلى العَجّانة مبهورة الأنفاس ..وخرجتُ أنا وسنية إلى الحديقة ، فإذا بها ساذَجة مهوَّشة ، لا نظام فيها ولا ترتيب : تحسَب شجرها الكثيف المتلاقي بعضَه ببعض قائمًا على الفِطرة . وكانت سابِغَة الظِّلال ، يتدفَّق الماء في قَنواتها ، وقد أثقلت أشجارها ثمار المانجو والبرقوق ، وتدلَّت من عرائشها عناقيدُ العنب . فانطلقْنا نعدو لا نعرِف أين نقصِد ، وقد نقطِف الثّمر من أغصان الشجر فنأكله ، وقد نتراشق بالقشور والنوى ، وقد نرتمي على الحشائش الرطبة النديَّة ونحن نتضاحك متصايحتين ، ونشرب من القنوات ثم نتقاذف بالماء ، ونستأنف العدْوَ في مِراح .

وأدركنا التَّعبُ ، ونحن نعدو ، فاستلقيْنا معًا على الأرض بجوار أقرب شجرة منا ، وحانت منّي نظرةٌ إلى أعلى الشجرة ، فألفيتُ نفسي أطيل التأمل فيها ، فقالت سنية : « ليس فيها ثمرة واحدة !»

« ليس من العجَب أن تكون خالية من الثمر .»

« لماذا ؟»

« ألا تعرفين لماذا ؟ إنها شجرة برتقال ، وقد انتهى موسمُه .»

« وكيف عرفتِ أنها شجرة برتقال ؟»

فابتسمتُ وأنا أتلاعب بعود في يدي ، ولم أجبْها بشيء ، فقالت : « لماذا تبتسمين ؟»

« لأن شجرة البرتقال هذه أذكرَتني أمرًا..»

« أيُّ أمر ؟»

فلم أجب ، ومضيت أنكتُ الأرض بالعود ، فقالت : « أ سِرٌّ هو ؟»

« ليست أسراري محجوبةً عنك . تذكرين ما أخبرتك به مرة من أن حمدي دعاني إلى زيارته ، وأني قصدت منزله بجوار الهرم ؟»

« نعم ، وأذكر أنكما شربتما الشاي في أحد الأندية ، وأنك دخَّنت لفافة تَبغ .»

فأرسلتُ ضحكة طويلة ، وقلت : « ما أحدٌ ذاكرتَك ! »

واقتربت سنية مني ، وهمست في أذني : « وأنه قبلك ! »

فنَحَّيتها عني في دعابة وأنا أقول :

« لا أذكر أني قلت لك شيئاً من هذا . »

« أ نادِمةٌ أنت على أنك أفضيت إليَّ بهذا الخبر؟ »

« كلا ، ولكن اصدُقيني : ماذا قلت لكِ في شأن القبلة ؟ أ أخبرتك بأنها قبلة واحدة أم قبلات ؟ »

« أ ثمَّةَ قبلاتٌ أخرى غير قبلة النادي ؟ »

فخفضت من بصري وتمتمتُ : « تحت شجرة البرتقال في حديقة منزله . »

فصاحت سنية : « لم تخبريني بهذا ، أنت صديقة غير مخلصة . »

فأمسكتُ بيدها وقلت : « وكانت الشجرة ما زال عالقًا بها بعضُ الثمرِ اليانع . كانت قبلةً عذْبة جميلة معطَّرة بأريج البرتقال . »

وأدنتْ سنية وجهها من وجهي ، وقالت : « إنه يحبُّك . »

فلاطفتُ خدها وأنا أبتسم ، وقلت : « يجوز . »

« لا تسخَري مني ! وإنك لَتحبّينَه أيضًا . »

« هذه مسألة أخرى ، يا عزيزتي . »

« كيف ؟ »

« ليس الحب بالأمر السهل ؛ فلنخُضْ في حديث آخر . »

« إذن أنتِ لا تحبينه ؟ »

« وهل قلت ذلك ؟ »

« إني لا أفهم ما تبغين . »

فتضاحكتُ طويلاً ، وطرق سمعَنا في هذه اللَّحظة صوت الدادة شيرين وهي تأمرنا بالعودة ، فقمت وأنا ممسِكةٌ بيد سنية وقلت : « يجب أن نهربَ . »

وجَرينا نطلب مَهربًا ، ونداء الدادة شيرين يقتفي أثرنا ، ونحن نستخفي . وأخيرًا اعتزَمْنا العودةَ إلى المنزل ، فدخلناه والعرَق يتصبَّب من جبيننا ، فاستقبلتنا الدادة بقولها : « أنا لا أحبُّ العبث ! إن سيدي الباشا رغِب إليَّ في أن أراقبكما مراقبة شديدة . يجب أن ... »

فهجمنا عليها ، وانطلقنا ندغدِغها ونقبِّلها وهي تتضاحك مرة وتنهرنا أخرى .

وتناولنا الطعام في ركن من أركان البهْو ، وكنّا نأكل في شهيَّة بالِغة . وأطرَيْنا صنيع أم نجم العجّانة إطراءً أطربَها وأبهجها ، فأقبلتْ تعدِّد لنا الألوان الّتي اعتزمت أن تعِدَّها لنا كلَّ يوم ، وتقول :

« إنها ألوان يستحيل على أمهَر طاهٍ أن يجاريَني في طَهوِها . »

وما إن حان العصر حتّى تركنا الدار مع الدادة شيرين ، وقد اختمرت بخمار أبيض ، وانتعلت خُفا أحمرَ . وكان يرافقنا مصطفى أفندي الناظر ، يتبَعه على بُعد خطوات أحد الخفراء ، سائرًا بهامته المرفوعة وقامته المديدة الصلْبة ، وشارِبَيه الغليظين المتراقصَين على فمه ، وهو يحمِل بندقيته ويسعُل بين فترة وأخرى ، كأنه يشعرنا بوجوده ، وبأنه لا خوفَ علينا ما دُمنا في حماه . وكانت طائفة منَ الأطفال يقتفون أثرنا من بعيد ، وهم يهروِلونَ في ثياب رثَّة مهلهلة ، وينظرون إلينا بعيونهم الّتي تشبه عيون القِططة ، ثم يقبل بعضهم على بعض يتهامسون ، فالتفتتْ إليهم الدادة شيرين وقالت في صيحة منكَرة :

« تنحَّوْا ! فلاحون ! أ أعجوبة نحن ؟ لماذا تنظرون إلينا على هذا النحو ؟ »

وما أسرعَ أن انتهرهم الناظر ، وأشرَعَ إليهم الخفير بندقيته تخويفًا ، فتفرَّقوا هاربينَ . ولكنهم جمعوا جموعَهم بعد حين ، وعادوا يتأثّروننا لا يبالون .

ذهبنا إلى البيدر فقضينا فيه وقتًا نتفرَّج ، وكان منظر الثيران وهي تجرُّ النوارج في حلقات القمح منظرًا جميلاً فيه تسلية . ولكنّني لاحظت أن هذه الثيران تسير محنيَّة الرأس ، تدفع بخُطاها دفعًا ، وعلى جسمها يسبح العرق . ورأيت أحدَها – حينما مرَّ في دورته بالقرب منا – يرفع رأسه إليَّ وينظر بعينيه المحمرَّتين ، وكان بائنَ الهُزال ، بارزَ عظام الظهر ، أصلَم (١) الأذن ، فتأثّرت له ، وأدركتني الشَّفقة عليه، فقلت على الفور للناظر : « من أيِّ وقتٍ دارَ هذا الثور ؟»

« منذ الصباح .»

« ألم يسترِحْ فترة ؟»

« إنه ينال من فترات الرَّاحة ما فيه الكفاية .»

« ولكن يجب أن يأكل ، ألا تراه شديد الهُزال؟»

فضحك الناظر وهو يقول :

« ومَن ذا الَّذي يمنعه من الأكل ، يا ست هانم ؟ إن الحبوب أمامه يصيب منها ما يشاء .»

وسمعت الدادة شيرين تقول :

« لا أسمح لكما بركوب النوارج ، لا أسمح مطلقًا .»

ولم نكن قد أبدَيْنا أيَّة رغبة في ركوبها ، فلم نجبْها بكلمة .

ولَمَّا أردنا العودة سيرًا على الأقدام كما جئنا ، لاحظ الناظر أن الدادة بدأت قُواها تخور ، فأمر لها بدابَّة ، فامتنعَتْ عن ركوبها في شدَّة وجدٍّ ، وأبت إلا أن تمشي كما نمشي .

(١) مقطوع أو مُستأصَل.

وما إن خطتْ خُطوتينِ حتّى كادت تنكفئ على وجهها ، فأسرع الناظر والخفير إليها يحميانها من السُّقوط ، ثم احتملاها إلى الدابَّة فأركباها إيّاها ، وهي ما فتِئَت تتمنَّع وتتأبّى .

– ٢٤ –

نَعِمتُ – في ليلتي الأولى الَّتي قضيتها في الضَّيعة – براحة لم أتذوَّقْها من زمن بعيد ، لقد نِمت نومًا عميقًا صافيًا لم يَشُبْه شيء حتّى طائف الأحلام . فلمَّا استيقظت في رونق الضُّحى سمِعت سُعلة أثارت دهشتي ، فأرهفتُ السَّمع ، ولم يَطلِ انتظاري ، فقد طرق أذني صوتٌ عَرفت صاحبَه على الأثر ، فقفزتُ من سريري ، وقصدتُ على الفور فراشَ سنية ، فألفيتها تتمطّى ، فقلت لها : « ألم تسمعي ؟»

« ماذا ؟»

« إن الباشا هنا !»

« هنا ؟ مستحيل ! أراك نائمة تحلُمين !»

فصِحت بها قائلة : « إنك أنت النائمة الحالِمة ؛ لقد سمعتُه يسعُل .»

« إنه الخفير .»

ودخلتِ الدادة شيرين فبادرتنا بقولها :

« صَهٍ ! لا تتصايحا . إن الباشا في البهو يتناول فَطوره .»

فحملقت فيها سنية ، ثم تركت الفراش عَجْلى ، وخرجَتْ إلى البهو . أمّا أنا فلم أشأ أن أخرج قبل أن أستكمل زينتي .

وبعد حين تركت حجرتي ، فوجدت الباشا يترشَّف قهوته ، وهو يلاطف سنية ويداعبها ، فما إن رآني حتى ابتسم قائلاً :

« ما أرى حياة الريف إلا مَدعاةً للكَسل . ما

هذا ، يا سلوى ؟ أ لا تستيقظين إلا الآن ، وقد بلغتِ الساعةُ العاشرة ؟»

« أ هِي العاشِرة الآن ، يا عمّي ؟

« أُنظري .»

وحيّاني في تَلطُّف وهو يشير إلى ساعته ، ثم قال : « إني قدِمْت لبعض أعمالي العاجِلة . وصلت إلى الضّيعة في قطار اللّيل ، وسأبرحُها هذا المساء .»

فصاحت سنية : « هذا المساء ؟ ولماذا ؟»

فنظر إليّ قائلاً : « إني لا أريد أن أضايقكما !»

فقلت : « تضايقُنا ؟ معاذ الله ، يا عمي !»

وأرَتني سنية عُلبتين كبيرتين ، وفتحتهما أمامي وهي تقول : « علبة فطائر من جروبي ، وعلبة حلوى مختلفة الأشكال .»

وقال الباشا مبتسمًا : « إن سنية لا تفتأ تفكّر فيك، وقد أوصتني بأن أحضِر لك هاتين العلبتين .»

فرفعت بصري إليه ، ثم حَرفتُه إلى سنية وأنا أقول: « شكرًا ، شكرًا .»

وقال الباشا : « إنكما لم تتناولا فطوركما بعد . هيّا إذن . أ لا تعرفان أنكما ستوزّعان الثياب على صِبْية الفلاحين ؟»

« نوزّع الثياب ؟»

« أُنظري .»

فالتفتُّ حيثُ أشار ، فألفيت لفيفة كبيرة بها قِطَع من المنسوجات ذات الألوان الزاهية . وصاحت سنية تقول:

« سوف يبلغ بهمُ السّرورُ كلَّ مبلغ . إن ملابسهم رثّة مُهَلْهلة .»

وسمِعنا الدادة شيرين تغمغم وهي تهيّئ لنا مائدة الفطور :

« إنكم تعوّدونهم التّرف والترفُّه . لماذا لا تطهون لهم الديوك الرّومية أيضًا ، وترسِلونها إليهم ليَطعموها ؟»

وتناولنا الفطور والباشا يفاكِهُنا بحديثِه الرقيق ، ثم خرجنا بعد ذلك إلى إدارة الضّيعة ، فألفيناها تزخر بالموظفين ، وعلى رأسهم مصطفى أفندي الناظر ، وقد ارتدى في ذلك اليوم حُلّةً إفرنجية ، وأمال على رأسه طربوشًا زاهيَ الحمرة ، وأحكم فتل شاربه الأشيب ؛ فكان في منظره أشبه بالديك المنتفِش الريش المزهوّ بعُرفه الأحمر البراق . ولمحت على البعد ركنًا تكدّست فيه لَمّة من الأطفال يحيط بها بعض الخفراء .

وما إن شعَر الموظفون بقدومنا حتّى أقبلوا سراعًا على الباشا وعلينا يصافحوننا ، فشهدت منظرًا رائعًا تجلّى فيه الخشوع والإكبار . وكنتُ — كلما انحنى أحدهم على يدي يقبّلها — أشعر بهزّة تنتظِم جسدي كلّه .

طال بنا وقتُ المصافحة والتحية ، ثم أخذنا مقاعدنا ، ولبِث الموظفون وقوفًا خلفنا ، وقد وضعوا أمامنا قطع المنسوجات ، ثم أذنوا للأطفال أن يتقدّموا منا ، فهُرِعوا إلينا يتصايحون ، والخفراءُ من حولهم يحاوِلون المحافظة على النّظام . وجعل الباشا يتناول الثياب قطعة قطعة فيناولني واحدة ويناول سنية أخرى ، فتعطي كلٌّ منا القطعة لمن يتقدم من الصبية . فكان كل طفل لا يكاد يأخذ نصيبه حتّى يجريَ نحو البوابة ، وهو يثبُ فرَحًا وابتهاجًا . وارتجت الساحة بأغاريد النسوة وأدعيتهنّ ، وهنّ ينتظرنَ أطفالَهن خارج الدُّوّار.

ولَمّا أتْمَمْنا توزيع الثّياب ، رجعنا إلى الدّار ، والباشا ينظر إلينا مبتسمًا وهو يقول : « إن قدومكُما الضيعةَ عيدٌ لهؤلاء الفلاحين . لقد أمرتُ إكرامًا لكما بأن يقيموا لهم جميعًا مأدبةً حافِلة يُعِدّون فيها جِفانَ(١) الثريد مكلّلة باللُّحوم .»

(١) المفرد جَفْنة ؛ وهو الوعاء .

وقصد الباشا إلى الحديقة ، فقضى وقتًا مع مصطفى أفندي الناظر يدبّر معه شئون الضيعة . ولمّا حان وقت الغداء أقبل علينا وقد جلسنا إلى الخِوان (١) ننتظر مقدمه .

وجاءت الصِّحاف ، فإذا هي وليمة عظيمة تعدّدت فيها الألوان ، فبدت على وجهي الدّهشة ، فقال الباشا موجّهًا حديثه إليّ :

« هذه تحيّة صغيرة لضيفتنا سلوى . إن سنية تنتهز دائمًا الفرصة لتؤكّد لكِ تكريمَها لصُحبتك . »

فتبادلت أنا وسنية النظرات ، ولاح على ثغرينا ابتسام . وبعد أن فرغنا من الطّعام اقترح الباشا أن نلعب بالورق ، فراقنا الاقتراح . وكان الباشا في لعبه ظريفًا غايةَ الظّرف ، يلاطفنا بأشتات النوادر والمُلَح ، ويختلِس إلى أوراقنا النَّظَر ، وقد يستلّ بعضها منّا في خِفّة وخفية ، فإذا فطنّا إلى ما يصنع وصحنا به ، أعاد ما استلّه في مهارة وسرعة ، وانبرى يبرئ نفسه في رِقة وبشاشة .

وذهبنا أصيلاً إلى البيدر تصحبنا الدادة شيرين ومصطفى أفندي وقد كنّا استأذنّا الباشا في ركوب النوارج ، فأذِنَ لنا في يُسْر ، ومن ثم ضربنا صفحًا عما تبديه الدادة شيرين من ممانعة واعتراض . واعتلينا هذه المركبات الخشبية الصغيرة الّتي تجرُّها الثيران ، وقد شملتْنا البهجة والإيناس . ورأينا الدادة شيرين تعرض رغبتها في مشاركتنا الرُّكوبَ بدعوى المحافظة علينا . وما كادت المركبة تتحرّك بنا حتّى رأينا الدادة تصفّق بيديها كالأطفال ، وأشداقها المهدّلة تختلج مرحًا .

وأمضينا وقتًا طيّبًا في البيدر نلهو ونلعب ، وامتطينا ظهورَ الحُمُر ، لنجول جولةً صغيرةً في حقول القطن ، ثم رجعنا إلى الدّار حين جنحت الشمس للمَغيب .

وبعد العشاء عدنا إلى اللّعِب بالورق ، وتوالت دُعابات الباشا فلم ينقطعْ لنا ضجيج وصِياح . وسمعنا الدادة شيرين – وهي تجمَع الصِّحاف وترتّب أثاث البهو – تجمجم قائلة :

« ما هذا الصِّياح ؟ شيئًا منَ الرَّزانة والعقل . إن الصَّخب لا يجمُل بغير الأطفال . »

وبعد حينٍ أدرك سنية الفتور والرَّخاوة ، وخمدَ نشاطها كلُّه ، واستبدَّ بها التثاؤب ، فوقفنا اللَّعِبَ بالورق ، وقامت سنية إلى أبيها فقبّلته وقبّلها ، وقصدتْ إلى حجرتنا على الفور .

أمّا أنا فلمّا أردتُ أن أصافح الباشا أودِّعُه ، أطبَق يدَه على يدي ، وأخذ يتوسَّمُني طويلاً ، ثم انحنى عليَّ فطبع قبلةً على جبيني ، وأحسستُ به يُدنيني إليه ويطيل التّقبيل ، ثم قال وهو يُربّت ظهري في صوت مخفوض :

« ثقي أن إعزازي لَكِ لا يقلّ عن إعزازي لسنية . أنت ابنتي مثلها سواء بسواء ! »

وتركتُه وهذه الجملة تدوّي في أذني . ومضيتُ أفكّر فيها ، وأستوضح الأسباب الّتي تدعو الباشا إلى أن يعطفَ عليَّ هذا العطفَ البالغ ، فيجعلني أشارِك سنية في مكانِها من قلبه !

— ٢٥ —

قضى الباشا معظم وقته معنا في اليوم التالي ، فذهبنا جميعًا إلى الحقل ، وطُفنا ببيادر القَمح ، وقصَدْنا إلى المخازن حيث تكدّس الحبوب تلالاً عالية .

وكان الباشا فكِهًا مِهذارًا شديد الملاطفة ، وعجبت من نفسي كيف كنت فيما سلف من أيّامي يتملّكني الخوف حين أراه .

وأراد الباشا في الليل – بعد العشاء – أن يلعب معنا الورق فأبدت سنية معذرتها من ترك اللعب ؛ فقد كانت تشعر بصداع وترغب في أن تنام ، فمضت إلى

(١) الخِوان : ما يؤكل عليه .

الحجرة على الفور ، وأردت أن ألحق بها ، فأمسك بي الباشا وهو يقول : « اجلسي قليلاً ! »

فأطعت ، وأشعل الباشا لفافة تبغ ، وجعل يُرسل دخانها على نحو أخّاذ بديع . وطال بيننا الصمت ، بيد أن الباشا كان يُواليني بنظراته وابتساماته ، فلم أجد مناصًا من مبادلته الابتسام .

وأخيرًا قال : « لقد أخبروني بأن نعجة البستانيّ أنتجت اللّيلة حَمَلاً . »

« حَمَلاً ؟ أين ؟ »

« في مسكنِ البستانيّ ، هناك في الحديقة . »

« وهل يسكُن البستانيّ الحديقة ؟ »

« إن له كوخًا غير بعيد . »

« لم أرَهُ ، مع أنّي جُبْتُ الحديقة طولاً وعرضًا ، أنا وسنية . »

« إنه كوخ مستور بين الأشجار . »

« والحَمَل ؟ »

« يقال إنه جميل جدًّا . »

« ودِدْتُ لو رأيته . »

« إذا أردْتِ ذهبنا السّاعةَ إليه لنتفرّج . »

« الساعة ؟ »

« ولمَ لا ؟ »

« نحن في اللّيل ، يا عمي ! »

« أ تخافينَ وأنت معي ؟ »

« ولكن ... »

« لقد بزغ الهِلال ، وهو على صِغَره يُضفي على الحديقة نورًا غير ضئيل . تعالي ، لا تكوني كسولاً . »

وجذبني من يدي بلُطف ، فنهضت معه ، وقصَدنا إلى الحديقة ، وكان نور الهلال حقا يرسِل أشعّته الرقيقة فيبدد شيئًا من ظلام الطريق .

وأحسّ الباشا أحد الخفراء يتبَعنا ، فأمره أن ينصرف لشأنه .

وسار بي الباشا ويدُه دائمًا مطبِقة على يدي ، ومضى يروي نادِرَة وقعت له منذ الصِّبا في هذه الحديقة نفسها ، إذ هرب من البيت ليلاً ، واختبأ بين الأشجار لينشر الذعر في أسرته ، ويملأ قلوبهم رعبًا .

فبادرته بقولي : « إذن لقد كنت شجاعًا وأنت صغير . »

« إن الشّجاعة تلازمني منذ عهد طفولتي . »

و وقف عنِ السّير ، ونظر إليّ قائلاً : « أ تحبين الشجاع ؟ »

فأجبت مبتسِمة : « إن الشجاع دائمًا محبوب . »

فضغط يدي ولاطفها ، ثم تابعنا سيرنا .

وبلغنا كوخ البستانيّ ، وكان في أقصى الحديقة من جهة الغرب ، ولم أكن قد كشفت هذا الموضع منَ الحديقة حينَ جُلْت فيها أنا وسنية .

وألفينا البستانيّ وزوجَه بباب الكوخ ، فما إن رأيانا وعرفانا حتّى هُرِعا إلينا يحيّياننا في تهلُّل واحترام .

فأسرع الباشا بقوله : « لقد رغِبت سلوى هانم في مشاهدة الحَمَل الذى نُتجَ اللّيلة . أين هو ؟ »

فأدخلانا الكوخ ، ولم يكن فيه من الضّوء إلا ما يبعثه ذلك المِصباح العتيق الكدِر من واهن الشعاع . وشممنا على الفور رائحة غريبة كظيمة ، هي مِزاجٌ من رائحةِ البهائم والسماد والخبيز .

وكان الكوخ يحوي حجرتين يفصِلُهما حاجز قصير من البوص .

وكنّا نحني هاماتِنا ونحن نسير ؛ خشية أن يصدِمَها السقفُ . وكانت إحدى الحجرتين خاصة بسكنى الأسرة ، والأخرى للدّوابّ والدّواجن ، ولكن لم يكن

ثمةَ فارق بين الحجرتين .

وصاحت زوج البستانيّ تنادى ابنتها ، وتأمرها بإحضار الحَمَل ، وكانت وهي تصيح تجاهد في التنقّب بخمارها ، تُخفي وجهها إلا عينيها ، فيخرج الصوت حبيساً غير واضح .

وما إن تقدّمنا خطوتين في كِنّ الدواجن حتى واجهتنا ابنة البستانيّ ، وبين يديها الحَمَل . وكان ثغرها يفترُّ عن ابتسامة لطيفة ، تبيّناها على الضوء الخابي المنبعثِ من ذلك المصباح المغبرِّ .

أمّا الحَمَل نفسُه فكان تحفةً منَ التحف ، له بشَرة وردية يكسوها شعر رقيق كالدّيباج ، وهو ينظرُ إلينا على تخوُّف بعينين سوداوَيْن ناصعَتين . وقد ازداد وَجله حين هبَّت أسراب الدجاج ثائرة في حماقة ، تدفُّ بأجنِحَتها وتتصايح . وكانت النعجة لا يفترُّ لها ثُغاء ، تلاحق ابنة البستانيّ ، وتنقّل بصرها فينا ، كأنها تسائلنا : ماذا نحن فاعلون بوليدها ؟

ولم أتمالك أن قبّلت الحَمَل بين عينيه ، ومسحتُ على جسده الأملس وأنا أدلّله .

ولَمّا هممنا بالخروج ناولني الباشا خِفيةً قطعةً منَ النقود ، وهمس في أذني أن أمنحَ الفتاة إيّاها ، فاهتزتِ الأسرة اغتباطًا بي وشكراً لي .

زايلنا الكوخ ، وكان الهلال قد أشرف على الأفول .

فقال لي الباشا : « هل أعجبك الحَمَل ؟ »

« أعجبني جدًّا . »

« يمكن أن نشتريه . »

ففكَّرتُ برهة ، ثم قلت : « ولكن أمّه ستلتاع لفِراقه . »

« إذن نشتريه هو وأمّه . »

فصِحت : « كلا ، كلا ؛ لا نحرِم هذه الأسرة نعمتَها . »

فسكت وقتًا ، ثم قال : « فلندَعِ الحَمَل إذن حتى تفطِمَه أمُّه . »

« خيراً نفعل . »

وسرنا ، والباشا مطبقٌ بيده على يدى .

ثم وقف هُنَيْهة وهو صامِت ، فقلت : « ماذا ؟ »

« يقولون إن الّذي ينظر إلى القمر في مستهلّه ، ثم ينظر في وجه جميل ، يقضي شهراً سعيداً ، فهل تسمحين لي أن أفعلَ ذلك ؟ »

فابتسمت وقلت : « ولكن أخشى أن يكون طالعي غير حسَن . »

فأخذ وجهي بين يديه ، وقال :

« أ يحمِل هذا الوجه الصبيح غيرَ طالع السّعد والهناءة ؟ »

ونظر إلى القمر ، ثمّ حدَّق في وجهي طويلاً ، فوجدتُني أرخي جَفنيّ ، وأحسست الباشا يلفُّ ذراعيه حولي ويهوي بغتةً بفمِه على فمي ، ثم اندفع يحتضنني ويقبِّلني في جموح ثائر ، وهو يهمهم بكلمات لم أستبِنْ منها شيئًا . ولست أدري كيف تركته يصنَع ما صنع ؟ وما الّذي منعني أن أرده عنّي حتى لا يتمادى ؟

وتلاقت نظراتُنا ، فطالعني على الفور وجه كبير اللّصوص البحريّين بعينيه النفاذتين وحاجِبَيه الغليظين ؛ فانتظمتني قُشَعْرِيرة شديدة ، فاستخلصت جسدي من بين يديه ، وأنا أصيح قائلة :

« لا ، لا . »

وما كِدت أفلت حتّى هِمْت على وجهي في مسالك الحديقة ، لا أعرِف لي وُجهة ولا قصداً . وغاب الهلال فاحلَوْلَك (١) الليل ، ولم أستطع في لُجّة

(١) احلولك : اشتد سواده .

الظلماء أن أستبينَ طريقي ، ولكنّني كنت أجري ، ولا أفتأ أجري ، والباشا يتبعني قائلاً :

« انتظري . انتظري . ما بكِ ؟ »

ولكنّني واصلت عَدوي وأنا أرتجف . وعراني شيء منَ الذُّهول ، فاختلط عليَّ الأمر ، وتمثل لي أن مَن يتبعني ليس إلا كبير اللُّصوص البحريين نفسَه – كبيرَ اللُّصوص الذي شاهدته في الصورة يأسِر العذارى بلا رحمة ولا إشفاق .

وعثرتْ قدمي بشيء ، فانكفأتُ على وجهي ، وأخذت أصيح وأبكي . وما هي إلا أن شعرت بالباشا إلى جانبي يحاول إجلاسي على العُشب ، وهو يقول في صوت متقطِّع الأنفاس :

« ما هذا ، يا سلوى ؟ أ طفلة أنت ؟ »

« دعني ، بربك دعني ! »

« أ أدعُك في هذا الظلام ؟ لِمَ كلُّ هذا ؟ أخشى أن يكون قد أصابك مكروه . »

« لا . لم يُصبْني شيء . »

« الحمد لله . »

ثم صاح ينادي الخفير ، فجاء على عجَل ، فبادره بقوله :

« علينا بالنّور . أسرع . »

وهروَل الخفير ، فمال عليَّ الباشا يقول : « حقا لم أكن أتوقَّع منك هذا ، يا سلوى . لقد برهنتِ على أنك ما زلت طفلة . »

وعاد الخفير بفانوس أوقِدَتْ فيه شمعة ، فجعلت أنفض ثيابي ممّا علِق بها من التُّراب ، وبسطت منديلي أمسح به يدي ، ومضينا يتقدمنا الخفير بفانوسه . وكان الباشا يسير معي جنبًا إلى جنب ، ولكنّه لا يلمسني ، وسمعِته يقول : « أ واثقة أنت أنك لم تُجرحي ؟ »

ولم ينتظر جوابي ، وإنما أمر الخفير أن يدني الفانوس من وجهي ، وتفحَّصني هُنَيهة ، ثم قال : « الحمد لله ، لا أرى أيَّ جُرح . »

ثم واصلنا سيرنا ، وقطعنا بقية الطريق صامِتَيْن . ولَمّا دخلنا المنزل وجدنا الدادة شيرين في البهو جالسة على مَقعد ، يترنّح رأسها ترنُّح الثَّمِل . فما إن أحسَّت بنا حتّى قامت إلينا وهي تمسح عينيها وتتحامل على نفسها ، فقال لها الباشا :

« أعدّي لسلوى كوبًا من شراب اللَّيمون . »

فقلت له على الأثر : « لماذا ؟ لا حاجةَ لي به . »

« لتهدئي من روعك ؛ إنّك ما زلتِ مضطربة . »

« كلا . »

وقالت الدادة شيرين تسأل الباشا : « أ تكون قد خافت من الظَّلام ؟ »

« نعم ، خافت من الظَّلام . »

« إنَّ البُوم والخفافيش تُعشِّشُ في الحديقة . »

والتفت إليَّ الباشا وهو يقول في ابتسامة يلوحُ عليها الارتباك : « والآن ، أ ما زلت مضطرِبة ؟ »

« كلا . »

« أُصدُقيني . »

« أؤكد لك ذلك . »

فوقف صامتًا فترة ، وهو يداعِب حبّات سُبحته ، ثم قال :

« أنت عصبية جدًّا ، يا سلوى . يظهر أنّي أخطأت في الخروج بك من المنزل ليلاً . والآن أرجو لك نومًا هانئًا . »

وربّت ظهري بيده ، ثم تركني ومضى ، فمشيت قاصدةً حجرتي مع الدادة شيرين . وسمعتها تقول :

« إن مَن في رأسه مُسكة (١) من عقل لا يخرج

(١) مُسكة : بقيَّة .

للنزهة في الظلام الحالِك .»

« أردت رؤية الحَمَل الصغير .»

« الحمل الصغير ؟»

وجعلت تتفحصني هُنيهة ، ثم صاحت : « لقد توحَّل ثوبك .»

« توحَّل ؟»

« أجل ، لقد تناثر عليه الطين .»

« زلَّت قدمي فسقطتُ .»

« سقطت ؟ سبحان الله ! كل هذا من أجل الحمل ؟»

وتابعنا سيرنا والدادة تغمغم : « أصحاب العقول في راحة .»

— ٢٦ —

أمضيتُ ليلة قلقة لم أذقْ فيها النَّوم إلا غِراراً ، كنت أقلِّب المسألة على شتّى الوجوه ، فتتنازعُني مختلف الإحساسات . وبالرغم ممّا أصابني من أرق استيقظت مبكِّرة ، وقد أزمعت أمراً حَزمت عليه رأيي وبنيتُ عزمي ، وكانت سنية قد سبقتني بالنهوض من الفراش ، فما إن وقع بصري عليها حتّى بادرتها بقولي: « اسمعي ، يا سنية .»

فهرعت إليَّ باسِمة مشرقة المُحيّا ، فقلت لها على الأثر : « يجب أن أعود اليومَ إلى القاهرة .»

فغمغمت : « تعودين إلى القاهرة اليوم ؟»

« نعم ، يجب أن أعود .»

وأمسكت يدها أضغطُها ضغطًا عصبيا ، فقالت : « ولكن لماذا ؟»

« لأنّني ... لأنني رأيت حلمًا مفزّعًا ، وأخشى أن يكون قد أصاب أمي مكروه .»

ودخلت الدادة شيرين تدعونا إلى الفطور ، فأسرعتْ إليها سنية تقول : « اسمعي ، يا دادة ، إن سلوى تريد أن تعودَ اليومَ إلى القاهرة لأنها رأت حُلمًا مفزّعًا .»

فقالت الدادة وهي تَحْدِجُني ببصرها : « أيُّ حلم ؟»

فقلت : « أخشى أن تكونَ أمي قد أصابها مكروه.»

« قلت لك أيُّ حلم ؟»

« حلم مفزِّع ، فيه قتل وشنّق وعذاب .»

« مثل هذا الحلم يدل على الخير . لا تنزعجي ، اطمئنّي . أمُّك في عافية وأمان .»

فصاحت سنية : « أمك في عافية وأمان ، انتهى الأمر .»

فقلت : « كلا ، كلا ، يجب أن أعود اليوم إلى القاهرة .»

فصاحت الدادة شيرين :

« أ لا تثِقين بما أقول ؟ إن تفسيري للأحلام لا يكذب أبدًا .»

« إنّي واثِقة بما تقولين ، ولكنّي أريد أن أرى أمّي . لا بدَّ أن أعود إلى القاهرة .»

وخرجنا إلى البَهْو ، فوجدنا الباشا يدخِّن ويحتسي القهوة ، وقد احتجب وجهه بصحيفة يطالعها ، فما إن أحسَّ وجودَنا حتى أزاح الصحيفة عن وجهه وابتسم يحيِّينا . ولاحظت على الفور أن ابتسامته تحمل طابعًا آخر غيرَ الطابع الذي أَلِفْته منه .

وأقبلت عليه سنية تقول : « إنها تريد أن تعودَ إلى القاهرة !»

فنظر إليَّ الباشا متسائلاً ، وقد غاضَت ابتسامتُه على الأثَر ، ثم قال لابنته : « تريد أن تعود إلى القاهرة ؟»

« لأنها رأت حُلمًا مفزعًا .»

ودنوت من الباشا وقد خفضت بصري ، وقلت :

« أخشى أن تكون أمّي قد أصابها مكروه .»

فصمتَ لحظة ، وهو يداعب حبات سُبحته ، ثم قال : « أ هذا الحلم يجعلُكِ تحسَبين أن أمّك قد أصابها مكروه ؟»

فجعلت أتأمّل يدي هُنيهة ، ثم قلت وأنا ما زلت خافضةً بصري : « لقد تركتُها متوعّكة. ليست صحّتها على ما يرام .»

ثم رفعت عينيَّ إليه أقول : « وقد طلبتْ منّي ألا أغيبَ أكثر من يومين .»

فصاحت سنية : « لم تخبريني بهذا .»

« أقسِم لك إنّها أمرتني بألا أغيب أكثر من يومين ! وشدّدت عليَّ في هذا الأمر كلَّ التشديد .»

فنهض الباشا وطفق يروح ويجيء صامتًا ، ثم وقف قُبالتي ، وقال في رقة ولطف : « وإذا رجوت أنا منك أن تغيّري من عزمِك ؟»

فلم أجِب ، وقد تملّكتني الحيرة ، و وجدتُني بعد لحظة أقول :

« يؤسفني ، يا عمي ، ألا أستجيبَ لهذا الرجاء ! إني ...»

فقاطعني بقوله : « بل أنت مستجيبة لرجائي .»

« كان بودّي أن أفعل ، ولكنّي لا أستطيع .»

واقتربت سنية منا وهي تقول :

« وأنا أيضًا أرجو منك ألا تُصرّي على السفر اليوم .»

فقلت لها ، وأنا أدعك يدي بشدة :

« لا أستطيع ، لا أستطيع . إن أمّي مريضَة .»

فاستأنف الباشا جيئته وذُهوبه في البهو لا يتكلّم ، ونأتْ عنّي سنية قاصدةً إلى صينية الفطور ، وأخذت تتلاعب بملعقة بها . أمّا أنا فمكثت في مكاني وقد اشتدَّ بي الكرب . ورجع الباشا إلى مَقعده يقول لسنية :

« إذا كانت سلوى مصرَّة على السفر فعلينا ألا نضايقها ، فإن مقصدَنا أن نُبهج نفسَها وأن نهيّئ لها متعة طيبة ، ولكن يبدو أننا أخفقنا فيما قصدنا إليه .»

فبادرت بقولي : « أؤكّد لك ، يا عمّي ، أنّي مغتبِطة بالإقامة في الضيعة كلَّ الاغتباط ، وأني أشكر لك أجزل الشكر ما لقيت من كرم وعطف . ولكن موقفي يتطلّب ...»

« أعلم ، أعلم .»

ثم التفت إلى ابنته قائلاً : « اذهبي فأبلغي السائق أن يُعِدَّ السيّارة للسفر . أظنك سترافقين سلوى ؟»

فقالت : « طبعًا ؛ لا أستطيع أن أمكث هنا وحدي .»

« حسنًا ، أُطلبي إلى الدادة شيرين أن تهيئ الحقائب للسفر بعد الفَطور .»

« وأنت معنا ؟»

« كلا ؛ إن عملي بالضيعة يضطرُّني أن أقيم وقتًا آخر . سأعود بالقطار .»

وخرجت سنية ، ونهض الباشا يمشي بطيء الخُطا، واقترب منّي وهو يحاول الابتسام ، فخذلتْه شفتاه ، فتابع سيرَه قليلاً ، ثم عاد إليَّ و وقف قُبالتي في صمْت. وبعد هُنيهة قال في صوت خافِت عليه مَسحة الألم : « أ ما زلتِ حاقِدة عليَّ ؟»

« كلا . كلا ، أؤكد لك ، يا عمي ، أني ...»

وحَمَى صدري بغتةً بعاطفة مبهمة محتبسة ، وطفرت الدُّموع من عيني ، فأخفيت وجهي في يدي ، فأخذ يربت ظهري ، ثم سمعتُه يقول :

« كل تصرُّفاتك تثبت لي أنك ما زلتِ طفلة . هدِّئي من روعك . ثقي بي واعلمي أني حريص دائمًا

على إسعادك .»

فكفكفت دمعي ، ثم قصَدت على الفور إلى حجرتي .

كانت رحلتنا في السيارة منَ الضَّيعة إلى القاهرة طويلة شاقة ، لا أنْسَ فيها ولا مسرَّة ؛ فقد قطعنا معظم المسافة في صمْت لا يشوبه إلا غمغمة الدادة شيرين وصياحُها بضعَ مرات بالسائق دون أن ندرك لصياحها سببًا . أمّا سنية فكانت منزويةً في ركنها تَستبينُ الكآبة في مُحيّاها . وكانت تخالسني في الفينة بعد الفينة نظراتٍ عابسة .

وضاقت الدادة شيرين بما يغشانا من صمت ، فقالت دون أن تتجه بنظرها إليَّ :

« لمَ هذه العجلة في الأوبة ؟ أ لم يكن يحسُن بك أن تنتظري حتّى ترى سنية الحمل الصغير ؟»

فقالت سنية : « الحَمَل الصغير ؟»

فقلت : « لقد نتجت نعجةُ البستانيِّ حملاً .»

و واصلت الدادة شيرين حديثها : « لم تنتظر سلوى مَطلع الصبح لتراه ، بل خرجت ليلاً إلى كوخ البستانيِّ في الحديقة ، والظلام دامِس !»

فقالت سنية لي : « وحدك ؟»

« كلا ، بل ذهبت مع الباشا .»

وقالت الدادة شيرين : « وانقضَّت عليها الخفافيش والبوم فسقطت على الأرض وانزلقت في الطين .»

فقالت سنية : « خفافيش ، بوم ، طين ، لا علم لي بشيء من ذلك !»

فقالت الدادة شيرين موجِّهةً حديثها إلى سنية :

« أنت فتاة عاقِلة ، تدخلين الفِراش في الوقت المناسب ، ولا تُخاطرين بنفْسِك ليلاً من أجل حَمَل لا يستأهل كلَّ هذا العناء .»

فقلت في شيء من الحِدَّة : « لقد حدث أن ذهبت، وأنا الَّتي انزلقت في الطين لا أنت ، يا دادة !»

فنظرت إليَّ بوجهها اللامع ذى الأشداق المهدَّلة ، وقالت : « ولكنَّني أنا الَّتي غسلت ثوبكِ وكويْته .»

« لم يطلب منكِ أحدٌ أن تغسليه وتكويه .»

فحدَّقت الدادة فيَّ بُرهة وهي صامتة ، ثم صاحت بالسائق : « سُقْ جيدًا وانتبِه ؛ إنِّي لا أطيق هذه السرعة . أقسِم بالله إني سأترك لك السَّيارة في أثناء الطَّريق إن لم تسر على مهلٍ .»

وعاد الصمت يضرب علينا رواقه .

ومضت السيارة في طريقها حتّى ألفيتها أمام منزلي ، وكان ذلك قُبيل الظهر . وأطلق الأسطى جميل نفيرَه يعلِن قدومي ، ورأيت بعد قليل أم يونس تهرول في خِفة للقائي ، فما كدْت أترك السيارة حتّى احتضنتني طويلاً في حنان بالغ ، وهي تُغرِق في الترحيب بي .

وسمِعت الدادة شيرين تقول : « لقد كانت أيّامًا ثلاثة ، ثلاثة فقطْ ، يا أم يونس ؛ فماذا تفعلين لو كانت أعوامًا ثلاثة ؟»

فقالت أم يونس وهي تحدِّق في وجهي والبِشر يغمر مُحيّاها : « عجبًا لك ! أ نسيت أنّها ابنتي سلوى ؟»

فانحنيت عليها أقبلها في تودُّد وحنان ، ثم عدت إلى السيارة ثانية أودِّع سنية والدادة شيرين ، فقالت لي سنية وهي تُطل من نافذة السيارة : « متى تحضُرين لزيارتي ؟»

فأجبت في ابتسامة سانحة: « أ لم تضيقي بي ؟»

« أنا ؟ ما هذا الكلام ؟ ستحضرين غدًا .»

« غدًا ؟ كيف يكون هذا ؟»

« بعد غد .»

« أعدُكِ أني لن أغيب عنك طويلاً . إلى اللِّقاءِ ، يا سنية . أجزل شكر على ضيافتك الكريمة .»

وصافحتُ الدادة شيرين أودِّعها ، فحيَّتني وهي صامتة ، لم يفارق العُبوس وجهها .

دخلتُ المنزل وأمُّ يونس خلفي تحمِل الحقيبة ، ولسانُها لا يكفُّ عن الثرثرة ، فقلت لها : « أين أمّي ؟»

« في حجرتها .»

« أ مريضة هي ؟»

« كلا . ولكنها كسلانة .»

« لعلّها أطالت نومها اليوم .»

فأشاحت بوجهها عني وهي تقول : « حَرُّ هذه الأيام لا يُطاق . ربما باتت ليلتها مؤرقة ، لم تنم إلا خَطفًا !»

وانتهى الحديث في هذا الموضوع دون إطالة . فإن أم يونس انهالت عليَّ تسألني عن الضيعة وما شهدته فيها .

واستقبلتني أمّي في الرَّدهة العُليا ؛ إذ أعْلَمها نفيرُ السيارة بقدومي . وبعد أن تبادلْنا القبلات ، أخذت بي إلى المتّكأ فجلسنا .

ثم قالت : « أ عُدْتِ وحدك ؟»

« بل عادت معي سنية والدادة شيرين .»

« هيه . هل أعجبتك الضيعة ؟»

« لا بأس بها .»

« لا بأس ؟ كيف ؟ أ لم يَرقْك المنزل ؟ أ كان الطعام رديئًا ؟»

« كلا ، لقد كانت الحياة هناك غاية في الدَّعَة ؛ المنزل مريح ، وأم نجم العجّانة كانت تطهو لنا طعامًا شهيا . وقد تنزَّهنا في الحديقة ، وطفنا في الحقل ، ولعبنا في بيادر القمح .»

« إذن لماذا لم يسرّك المُقامُ هناك ؟»

« وهل قلت لك إنّي لم أكن مسرورة ؟»

فحدَّقت أمّي هُنيهة في وجهي ، ثم ضحِكت وهي تقول : « أ حدثَ بينك وبين سنية أمر ؟»

« لا ، لا .»

« ولكن سنية كانت معتزِمة أن تقيم أسبوعًا .»

« لقد فضَّلتْ أن تعود معي .»

« ولماذا لم تمكثي معها بقية الأسبوع ؟»

« أ لم تطلبي إليَّ أن أعود بعد يومين ؟»

« أ ذلك ما حفزكِ على أن تعودي ؟»

فسكتُّ ، وطأطأت رأسي .

وسمعت أمّي تقول بعد لحظة : « أخبريني ماذا جَرى ؟»

« ماذا جرى ؟ لم يجرِ شيء !»

« أسْردي لي كلَّ شيء ، كل شيء .»

فتوقفت عن الكلام هُنيهة ، ثم قلت : « لقد قضيت الأيام الثلاثة على أحسن حال ، لم يكدِّرْها إلا ما كان من صنيع الباشا معي البارِحة .»

« الباشا ؟ البارحة ؟ وهل كان الباشا هناك ؟»

« قضى معنا يومين كاملِين .»

« وماذا كان منه معك ؟»

« أساء الأدب قليلاً .»

« أوضحي .»

« ولكنّني ألزمتُه حَدَّه . لقد رفعت يدي في وجهه وكدت أصفعُه .»

« تصفعينه ! لماذا ؟»

« لأنه حاول تقبيلي .»

« حاول تقبيلك ؟ هو ؟ ويحَه مِن وَغد ! كان عليَّ أن أحذِّرك من كل هذا ، ولكن أنّى لي أن أعلم ؟»

« لا عليك من شيء ، فقد عرَّفتُه ماذا يجب أن يكون موقفه مني ، فأصبح الآن كالقط الذليل .»

« ولكن كيف تم ذلك ؟»

« كنا نتنزَّه في الحديقة ليلاً ، فانطلق يشيد بمحاسني، وأنا أحاول قطعَ حديثه ، وبغتةً طوَّق خَصْري ، وهمَّ أن يقبِّلني ، فدفعته عنّي فسقط على الأرض ، فقصدت المنزل متمهِّلة لا أبالي .»

« وهو ، ماذا فعل بعد ذلك ؟»

« لقد اعتذر لي من هذه الفعلة ، وأقسم إنَّه لن يعود لمثلها ، ثم جعل يترضّاني ويتوسل إليَّ أن أعفوَ عنه .»

فصمتت أمّي ، وقد انسرحت تفكِّر ، ثم غمغمت : « حسنًا فعلتِ .»

وقامت تسير الهُوَيْنى إلى حجرتها . وما كادت تصل إلى الباب حتّى عادت أدراجَها إليَّ تقول :

« خذي من هؤلاء الناس حذرك ، ولا تغتري بما يُبدون من زائف الوُدّ . إن الباشا يحبُّك كما يحب السيدُ تابعَه . إن أمثاله يعدوننا دونهم مقامًا وكرامة. وإنهم ليسمحون لأنفسهم أن يراودونا على كل شيء تشرَه إليه شهواتهم ، لا يقيمون لشرفنا وزنًا . حسنًا فعلتِ .»

— ٢٧ —

صحوتُ من نومي صَباحَ غدٍ ، وما لبثتُ أن رأيت أمَّ يونس تدخل عليَّ في حجرتي ، و وجهها يفيض بشراً وهشاشة ، فأعلمتْني بأن هدايا ثمينة وصلت إليَّ من ضيعة الزهيري باشا ، فقلت لها على الأثر :

« أيَّة هدايا ؟»

« هدايا فخمة : أربع صفائح سمن ، وأربع من الجبن والعسل ، وعشرون زوجًا من الدجاج .أ تسمعين ؟ لا بد أن أدبِّر على وجه السرعة كِنا لهذا الدجاج في ركن من السطح .»

فغمغمتُ ، وشعرت بقلبي يتابع خفوقه : « ما معنى هذا ؟»

« حقا إنك غريبة الأطوار ، يا سلوى ! أ تعجبين من وصول هدايا أرسلها والد حبيبتك سنية ؟»

« وهل أعلمتِ والدتي ؟»

« لقد تركتها تَعُدُّ الدجاج .»

وخرجت من فوري فألفيت أمّي في المطهى معنية بهذه الهدايا . فما إن رأتني حتى ابتسمت لي وهي تقول : « مبارَك .»

« مبارَك ! لماذا ؟»

« أ لا تَرَيْن هدايا الزهيري باشا ؟»

« يجب أن نردَّها إليه .»

فقالت في هدوء ، وهي تشير إلى واحدة منَ الدَّجاج :

« أُنظري إلى هذه الدجاجة ، لم أرَ في حياتي أسمنَ منها .»

ثم مالت عليَّ تقول : « إنه يريدُ أن يترضّانا .»

« قلتُ لك ، يا أمّي ، يجب أن نرُدَّ إليه هداياه .»

« يريد المغفَّل أن يترضّانا .»

ثم أطلقت ضحكةً عالية ، وأتمت قولها : « ولكننا لسنا متخاصِمين . أ خاصمتهِ أنت ، يا سلوى ؟»

« وفيمَ هذا الكلام ، يا أمّي ؟ سأذهبُ إلى سنية أخبرها بأننا لسنا في حاجة إلى هذا السمن والدَّجاج وما إليه .»

« اتركي هذا الأمر أتصرَّف أنا فيه بحكمتي .»

« وماذا أنت صانعة ؟»

« سأقبلُ الهدايا .»

« وماذا بعدُ ؟»

« لا شيء . إذا لقيته فأحسني لُقياه : ابتسامة لطيفة، كلمة ظريفة ، أهلاً وسهلاً بسعادة الباشا .»

« ماذا تقصدين ؟»

« أقصد أن نلهوَ به ، يا غبيّة ، فنستفيدَ منه دون أن ينال منا منالاً ، فشرفنا مصون لا يمسّ .»

« هذا يقتضي أن أكون ذات وجهين .»

« أرجو منك ألا تتفلسفي ، يا سلوى .»

« لا أستطيعُ أن أقوم بتلك المهمّة البغيضة .»

« إنه يريد أن يخدَعك ، فلماذا لا تسبقينه أنت فيكون هو المخدوع ؟ أ تُنكرين أنه متيّم بك ، متدلّه بحبك ؟»

« أمّي ، ما هذا القول ؟»

« لستِ صغيرة ، يا سلوى . إنك تفهمين ما أعْني. الباشا يرضى أن يبذلَ في سبيلك أثمن ما عنده. وهو لا يؤثر على مَرْضاتِك أيَّ شيء ؛ فلماذا تدعين الفرصة تُفلتُ منك ؟ إنك لن تخسري شيئاً معه حتّى قُلامة ظُفر. يجب أن تفهمي الرِّجال كما هم ، يا سلوى . إنهم خدّاعون أشرار ، ولكنّهم مع ذلك مغفّلون بُلْه .»

واندفعتْ تضحك ، وجاءت أم يونس فأمرتْها والدتي أن تتولّى وضع الهدايا في أماكنها .

وفي المساء وردتني رسالة من إنجلترا ، تسلمتُها بيدي من ساعي البريد ، فذهبتُ على الفور أختلي بها في حجرتي ، وشرَعت أقرأ :

« عزيزتي سلوى ،

هل تسمحين لي بأن أدعوَك ‹‹ عزيزتي ›› ؟ إنها جُرأةٌ منّي فأستميحك قبولَ المعذِرة .»

و ضعت الرسالة جانبًا ، واندفعت أضحك ، ثم عدت إليها أستأنف القراءة : « إني اليوم جدُّ سعيد ، سعيد بحياتي الجديدة . أنظر إلى المستقبل ، فيتراءى لي باسمًا يتألّق . ولم تُطوِّعْ لي نفسي أن أحبس هذه السعادة بين ضلوعي أستأثر بها ، فأردت أن أكتب إليك لتشاركيني إيّاها . إنني أعيش الآن في إحدى ضواحي لندن : بلدة خلوية ، تكتنفها الحدائق من كلّ جانب ، حدائق كأنها بساط سندسيٌّ ممدود لا يُدرَك له آخر . أمّا المنازل فموفورة الحظِّ منْ حسنِ الذَّوْق والأناقة والراحة ، لكلِّ منزل حديقة بديعة يتولّى أمرها سكان المنزل أنفسُهم ، فهم البستانيُّونَ . وقد انضممتُ إلى أسرة في أحد هذه المنازل ، أقضي وقت فراغي في الحديقة أفلح الأرض ، وأغرس الأزاهير ، وأمارس تلك الرياضة المحبَّبة . أما الأسرة الَّتي أساكنُها فتتألّف من أب وأمٍّ وابنتهما الوحيدة ، وهي فتاة خطبها لنفسه طالبٌ في جامعة لندن يتحلّى بمكارم الأخلاق . وإنَّ تلك الأسرة لتمثّل الأسر الإنجليزية الصميمة المتحفِّظة ، الَّتي لا تُنسيها مسايرتُها لروح العصر الحديث أن تستمسك بتقاليد الجدود وطابع الماضي .»

ودخلَتْ أم يونس في هذه اللَّحظة ، ودنَتْ مني تقول : « أراهنُ على أن رسالة وردتك من بلاد الإنجليز .»

« لم يخطئ حَدْسُك .»

« وَلكن كيف لم أتسلّمْها من ساعي البريد ؟ لقد شدّدت عليه في أن ...»

فقاطعتها قائلة : « لقد أرحتُك من هذه المشقّة .»

فأطالتِ النظر فيَّ ، ثم قالت مُغمغِمَة :

« وماذا يقول الدكتور في رسالته ؟»

« لقد بدأ الرسالة بقوله : عزيزتي .»

« هذه جُرأة .»

فضحكت وأنا أقول : « إنه يعترف بأنها جرأة ، ويستميحني أن أقبل معذرته .»

« حسنًا فعل .»

ثم التفتُّ إلى الرسالة ، وجعلت أعبّر بعينيَّ ما بقي فيها من سطور يصف بها الطريق من لندن إلى الضاحية ، ثم اختتم رسالته بقوله :

« والآن هل لي أن أسألكِ عن حالك ؟ كيف تعيشين ؟ وماذا تعملين ؟ اكتبي لي كلَّ شيء ، وبوحي لي بمكنون نفسك . شدَّ ما كنت أود أن أكون بجانبك!

« تقبَّلي من أعماق قلبي أطيب تمنياتي .»

المخلص

داود فهيم

« حاشية : تجدين عنواني في أعلى الرسالة .»

وجعلَتْ أم يونس تكرر على مِسْمعي قولها :

« ماذا يقول ؟ ماذا يقول ؟»

فجعلتُ أهزُّ الرسالة في يدي ، وقلت :

« أمّا في الختام فهو يبعث إليَّ بأطيب التمنيات .»

وانطلقتُ أضحك ، فقالت أم يونس :

« وماذا كنت تريدين أن يبعث إليك ؟»

« إن شريف يبعث إلى سنية ما هو أرقُّ من التمنيات .»

« ماذا تعنين ؟ لعلك تقصِدين أنه يبعث إليها بالأشواق الحارَّة والقبلات العَطْشى !»

« لم أقصد شيئًا .»

« إنه خاطِبُها ، وله أن يبعث إليها ما يشاء .»

« حقا لم أكن أعلمُ أنك متضلِّعة هذا التضلُّعَ في أدب الرسائل ، وما يليقُ منها لكلِّ مقام .»

« مهما يكن من أمر فإنّي أرى الدكتور فهيم رجلاً متعقِّلاً رزينًا يزن ما يقول ، ولا يتعدّى ما يجب .»

« حقا . ومنَ العقل والرزانة أن يخبرني بأنه يَفلح الأرض ، ويغرس الأزاهير في حديقة منزله الجديد !»

« يفلح الأرض ويغرس الأزاهير ؟»

« وأن من بين أفراد الأسرة الّتي يساكِنها فتاة في ريعان الشباب !»

« يظهر أنّك اليومَ مُهتاجة الأعصاب ، يا سلوى.»

« أنا ؟ أنا مهتاجة الأعصاب ؟»

وانطلقتُ أتضاحك ، وخرجتْ أم يونس تجرُّ نفسَها متثاقلة .

ولَمَّا جنَّ اللَّيل رجعتُ إلى رسالة الدكتور فهيم أبسطها أمامي على الخِوان ، وأعيد تلاوتَها ، ثم أخرجت ورقًا واعتزمت الكتابة إليه . وبعد أن روَّيت في الأمر طويلاً مضيت أكتب :

« عزيزي الدكتور فهيم .»

ولكنّي ما كدْت أفرغ من هذه الجملة حتّى شطبت عنها فأجريت عليها خَطا ، وسَرعان ما مزّقت الورقة وأنا أغمغم : « بأيِّ حق أدعوه « عزيزي » ؟»

وكتبت في ورقة أخرى : « حضرة الدكتور داود فهيم .»

ولم ترقْني هذه العبارة ، فألحقت هذه الورقة بأختها الأولى ، وأسرعت أكتب في ورقة ثالثة :

« حضرة المحترم الدكتور داود فهيم .»

وحدَّقت برهة في الجملة ثم غمغمت : « كأنّي أكتب التماسًا لرئيس محكمة !»

فجعلت أمزق الورقة شرَّ مُمزَّق ، وألفيتني أكتب في ورقة جديدة :

« عزيزي الدكتور داود فهيم .»

لقد دعاني بقوله عزيزتي ، فمنَ الأدب اللائق أن أدعوَه بمثل ما دعاني به . واطمأننت إلى هذا الرأي ، وأخذت أسطِّر الرسالة . وكانت أفكاري مهوَّشة ،

وعباراتي غير طليّة ، فلم أجدْ بدًّا من تمزيق الورقة ، وألقيت بالقلَم جانبًا . سيضحك بلا شكٍّ من أسلوبي العربي الركيك وخطّي السقيم ، وسيعثر على أغلاط لا حصر لها في الإملاء . لماذا يريد مني أن أكتب له ؟ كان يجمُل به أن يصطفي لمودّته ومراسلته آنسة تُحسِن الكتابة .

وقمت من فوري إلى النافذة أتطلّع إلى عنان السماء ، وقد تحجّبتْ بأستار الدُّجى ، وبدت نجومها شاحبة النور . أ عليَّ أن أستعين شخصاً آخر يدبّج لي رسائلي ؟ إنه يريدني أن أصِف له بإسهاب أسلوب حياتي . أ يريدني أن أقصَّ عليه ما كان من أمر الزهيري باشا معي ؟ أية فائدة في أن أحكي له ما جرى؟

ولبثت حينًا أحدّق في عرْض الأفق ، ثم شعرت أخيرًا بدمعة ترفضُّ (١) من عيني ؛ وتنحدر على خدّي، فأسرعت أكفكِفها (٢) .

وفي مستهلِّ الصبح أعلمتني أم يونس بأن حمدي قد حضر ؛ فنزلت على الفور أستقبِله وأنا أعجَب لهذه الزيارة المبكِّرة ، وكانتْ أمّي لم تصحُ من نومِها بعدُ .

و وقعَتْ عليه عيني في حجرة الزوّار يذرعُها مضطرب الخُطا ، وما إن رآني حتّى أقبل عليَّ متهلّل الوجه ، وقال :

« باركي لي ، يا سلوى ، باركي لي .»

« مبارَك ، يا حمدي ! ماذا وراءك ؟»

« لقد عُيّنتُ في وزارة المعارف بمرتّب قدرُه عشرة جنيهات . عُهِد إليَّ في تدريب الفرق الموسيقية والإشراف على حفلاتها . إن العناية الإلهية ترعاني .»

« مبارك ألف مرة !»

وشددت على يده أهنّئه .

وراح يمسح وجهه المتفصّد عرقًا ، وقال : « عشرة جنيهات ... عشرة جنيهات في الشهر . وهذه فوق الخمسة الأخرى الّتي أتقاضاها ممّا أُلقيه منَ الدُّروس الخاصة . إنّ دخلي الآن يبلغ خمسة عشر جنيهًا . ما رأيك ؟»

« دَخْل طيب .»

« إنه ييسِّر لي أن أحيا حياة هادئة ، ولا تنسي أن صديقي الّذي كان لهُ الفضل في إلحاقي بهذه الوظيفة قد وعدني بالعمل على زيادة مرتّبي . ما رأيك ؟ ما رأيك ؟»

واندفع يدعك يديه فقلت له : « كل هذا حسن يبشّر بمستقبل مزهر .

« أ ليس كذلك ؟ إن مستقبلي مأمون ، ولكن أمرًا واحدًا يضايقني ؛ تعلَمين أنّي وحيد أعيش عيشة مُمِلَّة ، فأنا أهفو إلى أن تكون لي أسرة .»

وكسر من عينيه ، وجعل يدعك يديه بشدة .

فقلت له ، وقد لاحظت أنّنا كنا نتحدث واقفين: « أ لا تجلس ؟»

فجلس صامتًا ، ثم استأنف يقول : « لقد جئت لأنهيَ نبأ تعييني في الوزارة ؛ لأنّي أعلم أنّه نبأ يسرُّك كل السرور .»

« ليس في ذلك من شكٍّ .»

« ما كان لي — وقد أتيحت لي هذه المسرة — أن أستأثر بها وحدي ، وألا تكوني شريكتي فيما أحسُّ من بهجة .»

« حسنًا فعلت .»

وابتسمت على الأثر ، وقد تذكَّرت جملة كتبها الدكتور فهيم في رسالته تُماثل هذه الجملة . وسمِعت حمدي يقول : « سأعنى بشأن الدّار الّتي أسكنها ، أطلي حُجَرها بطلاء جميل ، وأجلُب لها أثاثًا منتقًى ، سأجدِّدها حتّى تكون مُقامًا طيبًا لأسرة هانئة .»

---

(١) تَرْفَضُّ : تَسيلُ . (٢) أكفكِفها : أمسحها .

وأمسك بيدي يضغطها قائلاً: «أ لستُ في هذا القول على صواب؟»

«على أتمِّ صواب.»

«أ هذا كل ما عندك من جواب؟»

«وماذا تريد منّي أن أزيد؟»

«أنت تفهمين بغيتي، تفهمينها حقَّ الفهم. ولكنَّك لا تصارحين.»

«ماذا تقصِد؟»

«أنت تعذّبينني، يا سلوى. شدَّ ما أنت قاسية!»

«لا تكن عَجولاً، يا حمدي.»

«إذًا أنت ترفضين.»

«لا أملِك الرَّفض ولا القبول؛ إن أمّي ...»

فقاطعني بقوله:

«أ تظنين أن أمَّك تأبى أن تزوِّجَك إيّايَ؟»

«هذا ما لا أستطيع الجزمَ به.»

«ولكن عواطفَك ... عواطفك أنت.»

«أ و تجهل عواطفي نحوك؟»

«إن قلبي يؤكِّد لي أن عواطفنا متلاقية. شكرًا لك، شكرًا لك.»

واندفع يقبِّل يدي، ثم نهض قائلاً:

«أُتركي هذا الأمر لي، سأُدبِّر له خطة موفَّقة تبلغ بنا الهدَفَ المنشود.»

وحيّاني متهلِّلاً، وانصرف حثيثَ الخُطا.

وأحضرت أم يونس القهوة، وهي تقول:

«إن مَوقِد الغاز متعطِّل، فاضطررت أن أستعير موقد الست فتحية. هل تأخرت طويلاً؟»

«لا بأس. أعطيني القدح لأشرَبه أنا. لقد خرج حمدي.» وتناولت قدَح القهوة، وجعلت أحتسيه على مهلٍ، ثم قلت لأم يونس:

«أ تقدِّرين أن خمسةَ عشرَ جنيهًا تكفُل الحياة السعيدة لأسرة؟»

فتأمَّلتني المرأة هُنيهة، ثم قالت: «إن بهجت أفندي الموظف الَّذي يسكن غير بعيد منّا يتقاضى مثل هذا المرتب، وهو يحيا به حياة طيبة.»

فناولتها قدح القهوة، وقلت مبتسِمة: «أظنُّ أنَّ هذه الجنيهات الخمسة عشر لا تكفي، يا أم يونس، لأن تشتري بها الزَّوجة الَّتي تكرِم نفسها معطفًا لائقًا.»

— ٢٨ —

تقضَّتْ أيام، وجلستُ يومًا في الظهيرة إلى المائدة أتناول الغداء مع أمّي. وما إن فرغنا منَ الأكل حتّى همَمْتُ بالعودة إلى حجرتي، فقالت لي: «انتظري قليلاً؛ أريد أن أسرَّ إليك نبأ.»

«أيُّ نبأ؟»

«يقولون إن الباشا سيزورنا عصر اليوم.»

فحدَّقت فيها وأنا أغمغم: «الباشا يزورنا!»

«إنَّه لحادث عظيم؛ يحقُّ لك أن تدهشي له. أ لم تكوني على علم به؟»

«ومِن أين لي أن أعلم؟ ولكن أخبريني: فيمَ هذه الزيارة؟»

«إنه على أية حال لا يقصدُني بزيارته.»

«إذًا مَنْ يقصد؟»

«هدِّئي من صوتك شيئًا.»

«أنا هادئة الصوت. أ لا يحق لي أن أسأل لمن تكون هذه الزيارة؟»

«أ لم تزوريه في منزله؟ وفي ضيعته؟ إنه يردُّ إليك زيارتك. أ في هذا غرابة؟»

«لقد كنت أزور ابنته.»

« وإنه يحضر نائبًا عن ابنته لرد الزيارة .»

« أمّي ، أضرع إليك !»

« أنا الّتي أضرع إليك أن تكوني هادئة .»

فصِحت قائلة : « إني هادئة . هادئة . لقد أكّدْت لك ذلك ، ولكني لن ألقى الباشا .»

« شخص له مقام ملحوظ ، يرسل لنا هدايا ثمينة، ويتفضّل علينا بزيارتنا ، أ فنأبى أن نلقاه ؟»

« أنت صاحبة البيت ، يا أمّي ، فعليك أن تَلقيه أنت !»

فأشعلت أمّي لِفافة تبغ ، وجعلت تنفُث دخانَها لحظات في صمت ، ثم أقبلت عليّ تقول : « أ هذا رأيك الأخير ؟»

« نعم .»

« إذًا سألقاه وحدي .»

« لا بأس .»

« يجب ، يا سلوى ، أن يجدَ في المنزل من يرحّب به ، ويشكر له ما خصنّا به من هدايا .»

فتضاحكت قائلة : « هدايا ! أ لم أروِ لك ما وقع منه ؟»

« شيء لا يستحقّ الذّكر . كل الرجال تقع منهم أمثال هذه الهفوات . ولقد أسلَفْت لك وجهةَ نظري فيما جرى ، فلماذا تعاودين الكلام في هذا الموضوع؟»

« و وجهة نظري أنا ؟»

« أنت ما زلت صغيرة ، تفتقرين إلى من يَهديك السبيل .»

ونهضت أريد الانصراف ، فقالت :

« لا عليك من شيء ؛ سألقاه أنا وحدي .»

و وقفت أمّي تترك المائدة ، فصعدت توًّا إلى حجرتي .

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر جاءتني أمّي ، وكانت مرتديةً أبهى أثوابها ، متّخذة أتمّ زينتها ، يَضوع العطر منها ، فلم تنظر إليّ بل قصدت إلى المرآة تُديم التحديقَ فيها وتلملم شعرها ، وما سمعتها تنبس ببنت شفة . وما هي إلا أن دقّ جرس الباب ، فهرولت أمّي من فورها إلى النافذة وأطلّت منها ، ثم عادت عَجْلى إلى المرآة لتلقي على خيالها آخر نظرة ، وقالت لي دون أن تواجهني :

« مُري أم يونس أن تُحسن عمل القهوة ، وأن تتخيّر الأقداح الجديدة ، وأن تُعنى بنظافة الأشياء كلّ عناية .»

وخرجتْ تسرع الخُطا ، وظللْتُ لحظة أنظر إليها حتّى غيبها الدّرج ، ثم قصدت إلى أم يونس وأنهيت إليها ما كلّفتني إيّاه ، وعدت إلى حجرتي . وألفيتُني بعد هُنَيهة أقوم إلى صوان ملابسي وأنتقي منه ثوبًا ، وسَرعان ما ارتديته ، وجعلت أزيّن نفسي وأصفّف شعري متعجّلة . و وجدتني أهبط الدّرَج إلى بهو الطبقة الأولى ، وكنت معتزمة أن أضبط نفسي ، وألا يبدو مني شيء يغاير المظهر الطبيعيّ ، ولكنّي على الرّغم مني شعرت باضطراب يفاجئني ، وأحسست قلبي دائب الخفقان .

ودخلت الحجرة ، فألفيت الباشا ينهض من فوره يستقبلني بوجه تكسوه البشاشة ، وعلى فمه ابتسامة رقيقة ، وفي عينيه لمعة هادئة ، ومدّ يَدَه إليّ مصافحًا ، فمددت له يدي أبتسِم ، واتخذت مقعدي بجوار أمّي ، وعاد هو إلى مكانه عن كثب من أمّي في الناحية الأخرى ، وقال موجّهًا حديثه إليّ : « قَدِمْتُ لأطمئنّ عليك وعلى صحة والدتك .»

فقالت أمّي : « صحتي ؟»

فقال الباشا : « كانت سلوى قلقةً من أجلِك ؛ فلقد رأت حلمًا أزعجها .»

والتفتَ إليَّ قائلاً : « كنتِ مسرفة في ظنونك ، أليس كذلك ؟»

فقالت أمّي : « إن سلوى كثيرة الهواجس ، وهي شديدة التعلّق بي .»

فقال الباشا : « إنها تحبُّك أقصى الحب .»

فقالت أمّي في صوت رقيق النبرات : « وأنا أيضًا أحبها .»

« إنها لهذا الحب أهل .»

فابتسمت أمّي قائلة: « سلوى فتاة لا بأس بها .»

« لا بأس بها ؟ أ ذلك كلُّ ما تصفينها به ؟ إنها مثَل كريم للأخلاق العالية . أقسم لك إنّنا لو فتّشنا مِصر كلّها لما وَجَدنا من يعادلها أدبًا وخلقًا وجمالاً .»

فنظرت إليَّ أمّي ، ثم قالت للباشا : « أشكر لك ، يا باشا. إن لشهادتك عندي أكبرَ شأن . إنها خير مكافأة لي على ما قمت به نحوَها من واجب الأمومة .»

« لم أقل إلا الحقَّ ، وإني أهنئك بهذه الدُّرَّة .»

والتفت الباشا إليَّ ، وقال مخاطبًا أمّي : « إنها لا تجاذبنا أطراف الحديث .»

« ربما كان ذلك حياءً وخجلاً مما تُسبِغه عليها من كرم بالغ ، وعطف موفور .»

« أخشى ألا أكون قد أدّيت ما يجب لها حين شرّفتنا بزيارة الضيعة .»

« لقد أخبرتني بأنها لقيت من الرّعاية والإكرام ما يفوق الوصفَ .»

وفي هذه اللّحظة دخلت أم يونس بالقهوة ، وأخذ الباشا قدحَه ، وجعل يترشّف منه جرعات ، ثم قال :

« كنت أمس في محل ‹‹ الكوكب ›› الخاص ببيع أجهزة الرّاديو ؛ فأراني صاحب المحل جهازين من طراز ‹‹ النجوم الثلاثة ›› ، وأكّد لي أنه لا نظير لهما في مصر كلها ، وأطراهما كلَّ الإطراء ، فابتعتهما منه. وقد قدمت واحدًا لسنية ، أمّا الآخر فيسرُّني أن أقدمه لسلوى .»

فقلت على الأثر : « جهاز راديو ؟»

وأسرعت والدتي تقول : « هذا كرم عظيم ، يا باشا ، لا ندري بأيِّ لسان نشكره لسعادتك ؟»

« لا شكرَ على الواجب ، يا هانم . إن لسلوى في قلبي مثلَ مكانة ابنتي .»

وكانت أم يونس تحمِل صينية القهوة ، وتقف بها عند الباب ، فالتفت إليها الباشا قائلاً :

« اذهبي إلى الأسطى جميل ، فاطلبي منه أن يأتي بالرّاديو .»

فانصرفت أم يونس لهذا الغرض ، و وجّه إليَّ الباشا قوله : « لقد جرّبته فألفيتُ صوتَه واضحًا ، تستطيعين به أن تسمعي كل مراكز الإذاعة في العالم . لقد ظلّت سنية بجانبه هَزيعًا من اللّيل تستمع إليه ولا تريد أن تتركه .»

فقالت أمّي على الفور : « أ لم يكن عند سنية هانم جهاز راديو من قبل ؟»

فتلكأ الباشا قليلاً ثم قال : « لديها جهاز آخر ، ولكنّها أظهرت منَ الحفاوة بذلك الجهاز الجديد ما لم تكن تظهره بالجهاز القديم . لقد أصبح الرّاديو من حاجات العصرِ الحديث الّتي لا غُنْيَةَ لأحدٍ عنها ، أ ليس كذلك ، يا سلوى ؟»

وكان لساني لا يطاوعني على الكلام ، ولكنني غالبت نفسي وقلت : « دون شكٍّ .»

وجاء الأسطى جميل بالرّاديو ، وأخذ يخرجه من صندوقه ؛ فإذا به أفخم جهاز وقعت عليه عيني ، فقلت مغمغمة : « ما أجملَه !»

وسمعت الباشا يقول : « يسرُّني أن يكون قد أعجبك .»

فقالت أمّي : « كيف لا يعجبها ؟ إنه تحفة رائعة! ألف شكر ، يا باشا . »

فقال الرجل : « سأرسل لكم غداً مهندس الرّاديو ليضع السارية ويتّخذ ما يلزم . »

وخرج الأسطى جميل . أمّا أم يونس فقد وضعت الصينية جانباً ، وأقبلت على الرّاديو تتفحّصه بعين ملؤها التطلّع والدهشة ، فقال الباشا لي وهو يضحك :

« يجب أن تسمعيها الأغاني التي تروقها . »

فابتسمت وقلت : « سأفعل . »

وقام الباشا مستأذناً في الانصراف ، فشيّعناه حتّى الباب .

وهناك أمسك يدي قائلاً : « إن سنية دائمة السؤال عنك . لماذا أبطأتِ في زيارتها ؟ »

فقلت : « سأفعل . »

« قريباً ؟ »

« أرجو أن يكون ذلك قريباً . »

وحيّا الباشا والدتي تحية بالغة الرّقة ، وانطلق مبسوط القامة ، فتيّ الخطوات .

وأغلقتْ والدتي الباب ، ثم دنت مني تقول :

« ماذا تريْن ؟ إنه آية في الظّرف والأدب ! »

فقلت في غير تكلّف :

« لا اعتراضَ لي على ما تريْن . »

وفي ضحوة غدٍ جاء مهندس الرّاديو لينصب الساريةَ ويضع الأسلاك ، فأخبرته أمّي بأن الجهاز سيكون في حجرتها .

وسمعتها تغمغم أمام أمّ يونس قائلة : « إن مثلَ هذا الجهاز لا يُترَك في أيدي مَن لا يقدّر ، ولا يعرف كيف يُديره . »

— ٢٩ —

تواصلتْ أيّام أسبوع لم يقعْ فيها شيء يستحق الذّكر . وكانت أمّي قد استحوذتْ على الرّاديو واحتكرتْه لنفسها ، ولم تدعُني إلا مرة واحدة للاستماع إليه ، ولكنّني كنت أغتنم فرصة خروجها فأذهب إلى حجرتها مع أم يونس ؛ نُزجي الوقتَ بجوار الرّاديو ، نستمع إلى مختلِف الأغاني والأحاديث . وحمل إليّ يوماً الأسطى جميل رقعةً من سنية تقول لي فيها :

« ما كنت أتوقّع منك أن تُهمليني إلى هذا الحدّ! أنا مريضة منذ أيام . هل لكِ في أن تحضري لنقضيَ اليوم معاً ؟ السيارة رَهْن إشارتك . »

ورأيت من اللائق أن ألبّي دعوتها ، فأخبرت أم يونس بالأمر لتنهيَه إلى والدتي حين تحضر ، وغادرت المنزل على الفور .

أقلّتني السيارة إلى منزل الزهيري باشا ، فصعدت توّاً إلى حجرة سنية فألفيتها في فراشها ، وعلى مقربَة منها أبوها يجلس على طرفِ السرير ، فدنوتُ منه وحيّيته بأدب ، واتجهت نحو سنية فألفيتها ممتقعة بادية الهزال . ومدّت إليّ يدها في شغف تُمسك بيدي ، ثم مسحتْ عينيها النديتينِ ، فاحتضنتُها وقبّلتها ، وسمعت الباشا يغمغم : « إنها ثائرة الأعصاب ، ثائرة الأعصاب . »

ونهض الباشا تاركاً لي مكانه على السرير ، وجلس على مقعد غير بعيد ، وقلت لسنية وأنا ألاطف يدها:

« لم أكن أعلم أنّك مريضة . »

فقال الباشا : « لقد لزمتِ الفِراش منذ صباح اليوم الّذي زرتك فيه . »

وقالت سنية وقد لمعت عيناها سروراً : « هل أعجبك الرّاديو ؟ »

« كل الإعجاب . »

فقال الباشا : « هل سمعت الإذاعات الأوربية : لندن ، باريس ، روما ؟»

« سمعت بعضها .»

وقالت سنية : « أليس الصوت واضحًا ؟»

« كلَّ الوضوح .»

« إنه تسليتي في مرضي . أتريدين أن أديره لك ؟»

ولم أفطِنْ إلى أن جهاز الرّاديو في الحجرة ، فالتفتُّ حيث أشارت سنية ، فوجدته عن كَثَبٍ من النافذة ، فقلت لسنية : « لنستمع إليه معًا .»

وقام الباشا يعالج مفاتيحه ، وبعد قليل انطلقت الموسيقى تعزف ، فأصغيت إليها . وما لبثتْ سنية أن صاحت :

« إن هذا اللّحن مزعج ، مزعج جدًّا !»

فأدار الباشا أحدَ المفاتيح ، فسكت الجهاز . وقالت سنية : « خير لنا أن نلعب بالورق ، أليس كذلك ؟»

فقلت : « كما تشائين .»

وأخرجت سنية ورق اللعب من تحت وسادتها وبدأت تقلّبه، وتقدم الباشا منَ السرير قائلاً : « ألستما محتاجتين إلى شريك ؟»

فقالت سنية : « تعال ، يا أبي .»

وأدنى مَقعده منّا ، وأخذنا نلعب . ورأيت مدموازيل شانتل تدخُل وفي يدها صحفة حَساء ، فما إن وقع بصر سنية عليها حتّى صاحت: « كلا . كلا. لا أريد .»

وزَهرتْ عينا مدموازيل شانتل دون أن تفوهَ بكلمة واحدة ، ودنَتْ منَ السرير تبسُط الفوطة وتقرِّب صحفة الحَساء من سنية ، فدفعتها سنية دَفعة كادت تلقي بالصحفة على السرير ، لولا أن تمالكت المدموازيل وضبطتِ الصحفة بيديها .

وكانت سنية لا تفتأ تصيح بقولها : « لا أريد الحَساء . لا أريده .»

فأخذت المدموازيل تبرطِم ، والشرَّر يتطاير من عينيها ، قائلة : « هذه أعمال أطفال ! يجب أن تشربي الحساء .»

و وضع الباشا ورق اللّعب جانبًا ، وقام مكفهِرَّ الوجه ، فأمسكت بيده سنية وجعلت تكرِّر :

« لا أريد أن أشربَ هذا الحساء ، يا أبي ؛ إن طعمه كريه .»

« ولكن يجب ، يا سنية ، أن تشربيه . إن الطبيب يحتِم ذلك عليك .»

فقالت سنية وهي ما زالت تستعطِف أباها وتتضرَّع إليه :

« سأشربه في وقت آخر . لا أشربه الآن ، يا أبي . بحقِّك ، يا أبي !»

فقالت المدموازيل : « هذا شيء لا يطاق ! سأذهب عنك ، وسأبعث إليك بالحساء مع الدادة شيرين . إنها ...»

وقاطعها الباشا بإشارة من يده ، فخرجت تدمدم ، ونظرت إلينا سنية وقد اشتدَّ امتقاعُها ، وتَعصفر (١) وجهها ، وقالت :

« أريد أن أستريحَ ، أريد أن أبقى وحدي .»

فغمغم الباشا : « لا بأسَ ، استريحي .»

وأخذ الباشا ينادي الدادة شيرين ، فأقبلت مهرولة ، فأوصاها أن تلازِم سرير ابنته. ورأينا سنية تسبِل جفنيها ، فخرجنا في خطوات ساكنة ، ونزلنا إلى البهو. وأشعلٍ الباشا لِفافة تبغ وهو يَزفِر قائلاً : « إن حالتها لا تسر .»

« أيُّ مرض تشكو ؟»

(١) اصطبغ باللون الأحمر .

« إنها مصابة بفقرِ دمٍ شديد مصحوب بشيء من ارتفاع الحرارة .»

« هذا أمر هيّن .»

« أرجو أن يكون كذلك ، ولكنّه على كل حال مرض قد يطول أمَده . إنه يتطلّب صبرًا وعناية ، وعلاجُه الوحيد هو التغذية الصحية كما أمر الطبيب . وقد شاهدتِ بعينيكِ كيف تأبى الغذاء ؟»

وخيّم الصمت فترة كان الباشا يدخّن أثناءها ، ثم التفت إليّ يقول : « وأنت ، كيف حالك ؟»

« بخير .»

فقال وقد عبرَتْ فمه ابتسامةٌ سانحة : « لستِ ثائرة الأعصاب ؟»

فقلت في هدوء : « ثائرة الأعصاب ! لماذا ؟»

فأرسل قهقهة خفيفة ، وقال : « الحمد لله .»

« أظنُّ أنه قد آن لي أن أستأذن في العودة .»

فنظر إليّ طويلاً ، وهو يبتسم في ملاطفة ، ثم قال: « تعودينَ الساعة ؟ لقد أثبتُّ الآن أنكِ ما زلتِ ثائرة الأعصاب .»

« لا أدري لماذا تريد أن تقنِعَني بأني ثائرة الأعصاب ؟»

« لقد اتّفقنا على أنك ستقضينَ اليومَ كلّه عندنا ، فلماذا تنقُضين الاتفاق ؟»

« ولكن سنية محتاجة إلى الراحة .»

« بل إنها في حاجة إليك .»

وسمعنا في هذه اللّحظة الدادة شيرين تناديني ، فقال الباشا : « أ تَرَيْنَ ؟ لا بدَّ أن سنية تطلبك .»

« سأذهب إليها .»

وصعدت إليها على عجل ، فألفيتها جالِسة في السرير مهتاجة .

فما إن رأتني حتى قالت : « إنهم ما زالوا مصرّين على أن أشرب الحساء ، ولكنّني لن أشربه أبدًا .»

و وجدت الدادة شيرين على مقرَبة من السَّرير ، ممسكةً بالصينية عليها صحفة الحِساء ، وفي يدها مِلعقة تنظر إليها في اكتئاب وحيرة .

فدنوتُ من سنية ولاطفتها ، وأنا أقول :

« أ تحبّينني ؟»

« نعم ، أحبك حبا لا مزيد عليه .»

« إذًا ستتناولين ملعقة واحدة من أجلي .»

« إنه حَساء كريه لا صبرَ لي عليه .»

« أ تسمحين لي بمذاقه ؟»

« افعلي ما تريدين .»

وتناولت ملعقة من الحَساء . وكان في الحق طعامًا فاخرًا ، فصِحْت : « أ يجوز أن تحكمي على شيء دون أن تختبريه ؟ أقسِم بالله إني لم أشرب في حياتي مثل هذا الحساء !»

فصاحت الدادة شيرين قائلة : « أ لم أقل لك ذلك ، يا سنية ؟» وقربتُ صحفة الحساء من سنية وملأت الملعقة وأدنيْتُها من فمها ، وأنا أقول : « ملعقة واحدة ؛ جَبرًا لخاطري .»

فتناولتْ سنية الملعقة وهي ممتعضة ، ثم قالت :

« من أجل خاطرك أنتِ وحدك .»

فقلت : « وخاطر الدادة شيرين أيضًا . يسوءُها ألا يكون لخاطرها عندكِ مقام .»

فضحكت سنية قائلة : « إن راقها أن تستاءَ فلتفعل ؛ لا يهمُّني أن تغضبَ أو ترضى .»

فصاحت الدادة شيرين قائلة : « لا يهمك غضبَي أو رضاي ؟ سأترك لك الحجرة .»

وتهيأتْ للخروج غَضْبى ، فنادتها سنية ، فقالت الدادة : « لن أعودَ إلا إذا شرِبت ملعقة حَساء من أجل

خاطري .»

فوجدت سنية تملأ الملعقة وتصبُّها في فمها . وجلستُ على حافَة السرير ، وصحفة الحساء في يدي ، وما زلت بسنية أروضها على أن تشرب حتّى قبِلت ذلك بشرط أن أشاركها ، ففعلتُ . وأحضرتْ لنا الدادة شيرين بقيَّة ألوان الغداء ، فأخذنا نأكل ونتحدَّث . ورأيت سنية تقبِل على الطعام في شهية .

ودخل الباشا في اللَّحظة الَّتي كنا نتناول فيها الفاكِهة المطبوخة ، ودار بعينيه في الصينية فوجد الصحاف فارغة ، فقال :

« ما شاء الله ! لقد أتيتما على الطعام كلّه ، ولم تتركا لي شيئًا .»

فقلت على الأثر : « لم نكن نعلم أنّك لم تتناول غداءك بعد ، يا عمي .»

فقال و وجهه يكسوه البِشر :

« إني مسامحكما . على أيّة حال ، هذه أول مرة تتناول فيها سنية وجبتها من الطعام كامِلة ، ولا ريب أن الفضل في ذلك لسلوى .»

فأجابته الدادة شيرين على الفور : « لولا وجودي لَما تناولت سنية هانم شيئًا ، إنها ما زالت تخشى غضبي .»

فصاحت سنية تنكر دعواها ، وقهقه الباشا طويلاً ، والتفت إليَّ قائلاً : « ولكن ماذا جنيتِ أنتِ حتّى يكون غداؤك هذا الطعام ؟ إن طعامَنا ينتظرنا في حجرة المائدة .»

فقلت : « أؤكد لك ، ياعمي ، أني أفضِّل هذه الألوان من الأطعمة .»

« ولكنَّنا سنحتاج إليك لإطعام هذه الفتاة العنيدةِ في كل وجبة من وجَبات الأكل .»

« لا أتأخر عنها كلَّما كان ذلك في مستطاعي.»

« ألف شكر لك ، يا سلوى . ألف شكر .»

لم أغادر حجرة سنية طول الوقت ، وقد مضينا نلعب بالورق ، ونتلهّى بأشتات الأحاديث ، ونستمع إلى الرّاديْو ، ونداعب الدادة شيرين . ومكث الباشا معنا فترة ، ثم اضطرَّ أن يتركنا ليستقبل بعض الزُّوّار .

ولَمّا قفلتُ إلى المنزل ، بادرتني أمي بقولها :

« كيف قضيتِ اليوم ؟»

« على أحسن حال .»

« وما حال سنية ؟»

« مريضة بفقر الدم ، وإن علاجها يستغرق زمنًا .»

« لا ريب أنه يستغرِق زمنًا طويلاً ؛ إن فقر الدم مرض قد لا تحمد عُقباه .»

« أ حقا ، يا أمّاه ؟ أنتِ تبالغين !»

« الحقُّ ما قلت ، ولكنَّا نرجو من الله أن يمُنَّ على صديقتك بالشِّفاء . والباشا ؟»

« إنه مهموم من أجل ابنته .»

« أظنه لم يفارِق حجرتها .»

« لقد أمضى معنا فترة .»

« فترة ؟»

« أعني فترةً كافِية لاحظ فيها ابنته وأشرف على تغذِيتها . إنها عنيدة تتمنَّع على الطعام ، مع أن التغذية الصحية هي علاجُها الوحيد .»

« هذا صحيح ، لقد كانت لي من زمن قديم صديقة مريضة بهذا الداء ، وقد توفيت لأنها لم تكن تتناول ما تتطلَّبه الحال من الغذاء .»

« أوه ، يا أمي ، ما هذا الكلام ؟ ولكن ما رأيك في أنني أفلحْتُ في حمل سنية على تناول وجبة الغداء بأكملها .»

« حَسَن ، حسَن ، إنها خدمة جليلة تُسدينها إلى صديقتك في مرضها .»

« ولَمّا عَلِم الباشا بالأمر بالغ في شكره لي ، وقال : ‹‹ إننا سنحتاج إليك لإطعام هذه الفتاة العنيدة في كلِّ وجبة من وجبات الأكل .›› »

« وبماذا أجبْتِه ؟ »

« قلت له : إنني لا أتأخّر كلّما استطعت إلى ذلك سبيلاً . »

« خيراً قلت ؛ إنَّ جوابك مهذب رقيق . »

« وهل كنت تظنّين أني سأجيب بغير هذا ؟ »

« لا أدري ، كنت أخشى أن ينزلق لسانك إلى قول لا يليق بمخاطبة الباشا . »

« أنا لست سيئةَ الأدب . »

« ولكن أعصابَك تبدو ثائرة في بعض الأحيان . »

« لا تثور أعصابي إلا على مَن يسيء إليَّ ، و الباشا لم يَصدُرْ منه اليومَ ما أنكِرُه . »

« الحمد لله . »

« إني لا أجحد حقَّ أحد ، لقد كان الباشا اليوم بالغ الأدب ، رائع الظَّرف . »

« هذا هو رأيي فيه . »

فابتسمتُ وقلت : « يظهر أن الدرسَ الَّذي ألقيتُه عليه في الضيعة أفاده . »

« ما زلت تذكرين أشياء هي الآن في وادي النسيان . ما أفرغَ بالك لهذه التوافه ! »

وابتسمت لي وهي تلاطف خدّي .

وفي صبيحة غدٍ لم تكد تصحو أمي من رقادها ، حتى استدعتني وبادرتني بقولها : « ماذا اعتزمتِ اليوم أن تفعلي ؟ »

« لا شيء . »

« لا تفعلين شيئًا ! وسنية ؟ »

« لقد كنت عندها أمس . »

« الواجب يقضي ، يا بُنيَّة ، أن تعوديها اليوم أيضًا . »

« اليوم أيضًا ؟ »

« لقد جلوت لك رأيي ، على أن هذا أمر يخصُّك . يجمُل بالصديق أن يكون لصديقه وفيا ، وأن يكون في وقت الشدّة إلى جانبه جَهد إمكانه . »

فأمسكت عنِ الكلام هُنَيهة ، فواصلت أمي قولها: « لقد حدَّثْتك أمس في شأن صديقتي الَّتي كانت مريضة بذلك المرض الَّذي تعانيه سنية ، وأزيدك الآن أنّي ما كنت أفارِقُها ، وقد لزمتُ فراشها ليلَ نهار . »

« ليلَ نهار ؟ »

« هذا ما فعلته أنا ، وأنت وشأنك ، ليس عليك أن تَحذي حَذوي . »

ونهضَتْ تخطو بضع خطوات .

ثم نادت أم يونس تطلب إليها إحضار الفَطور .

— ٣٠ —

لم يمْضِ طويلُ وقت على حَديث أمي معي ، حتّى سمِعت صوت بوق السيّارة يدعوني إلى زيارة صديقتي ، وكنت آنذاك في حجرتي أرتِّب أشيائي ، فلم أعبأ بصوت البوق ، وتابعت عملي . وجاءتني أم يونس بعد هُنَيهة تقول : « لقد أرسلت إليك سنية السـ ... »

فقاطعتُها وأنا أعلّق ثوبًا على المشْجَب(١) :

« السيّارة . أعلم ذلك ، لم أكن صمّاء حينما رنَّ البوق يعلن قدومَها . »

فخرجتِ المرأة وهي تغمغم : « يظهر أنك اليوم ثائرة الأعصاب . »

فأجبتها بضحكة طويلة ، ورأيتني أتباطأ في

(١) ما تعلّق عليه الثياب وغيرها .

ترتيب أشيائي بلا مسوّغ ، وأتمهّل في ارتداء ثيابي كلَّ التمهُّل . ودخلت عليَّ أمي وهي تقولُ :

« ما هذا ، يا سلوى ؟ ليس من الذّوق أن تدعي السيارة واقِفَة تنتظِر هذا الوقت الطويل .»

فأجبتُها في إهمال : « لديَّ عمل مهمٌّ ، عليَّ أن أنجزَه قبل خروجي .»

« عمل ؟»

وتمصمصت شفتيها ، وتركتني .

ولبِثت السيارة بباب المنزل نحو ساعة ، ثم نزلت أركبها ، فراحت تنهب بي الطريق إلى دار سنية . فلمّا بلغتُها قصدت على التوّ حجرة صديقتي ، فألفيتُ الجميع ينتظرونني بفارغ صبر ، فَهَشّوا لمقْدمي . وكان في الحجرة سنية والباشا والدادة شيرين . فكان أول ما عملتُه أن قصدتُ الباشا أحيِّيه في أدب ، ثم هُرِعت إلى سنية فتعانقنا ، وسمِعت الباشا يقول لابنته :

« أظن أنّه قد آن لك أن تتناولي فَطورك .»

فقلت لسنية : « أ لم تفطري بعد ؟»

وقالت الدادة شيرين مغمغِمة :

« لو خلِّي بيني وبينها لَما تأخَّرتْ لحظة عن تناول الفطور .»

وجاءت بصينية الطعام ، فبدأت سنية تطعمُ مبتسِمة تبادلني النظرات .

وقضيت الوقت بجانب صديقتي ، يختلف إلينا الباشا في الفينة بعد الفينة ، وكان جمَّ الأدب بالغَ اللُّطف . وفي العصر رأيته يدخل علينا في صحبتِه الطبيب ، فخرجت من الحجرة وانتظرت في البهو حتى ينهي الطبيب مهمتَه ، وبعد بُرهة وجدتُه يغادِر الحجرة وهو يتحدَّث إلى الباشا مشرقَ المُحيّا. وألفيتُهما يقصدان مكاني ، وتقدم منّي الطبيب يقول في تظرُّف :

« أ يهمك أن تنال صديقتك الشفاء ؟»

« يهمُّني جدًّا ، يا دكتور !»

« إذن يجب أن تعلمي أن الأمرَ في يدك .»

« كيف ؟»

« إن العقاقير ، يا آنسة ، ليست وحدها هي الدواء الناجع ، هنالك الحالة النفسية . إن لها أعظم الأثر في مغالبة المرض .»

« هذا صحيح .»

« إن سنية تأنس بك غاية الأنس ، فلزومُك إيّاها كفيل أن يعجِّل لها الشفاء . أستطيع أن أقولَ إنه أنجع دواء .»

« سأكون معها ، يا دكتور .»

وقال الباشا مبتسمًا : « اتفقنا .»

وربّتَ الدكتور خدّي ، وانطلق مع الباشا يستأنفان الحديث .

وقُبيل مغيب الشمس ، وأنا في حجرة سنية أتأهّب للقُفول إلى منزلي ، دخل الباشا يقول :

« لقد أمرتُ أن يعدَّ لك كلُّ شيء ، فلتكوني مطمئنّة هادِئة البال .»

« ماذا ؟»

« طلبت إلى شيرين أن تهيئ لك حجرة نومك ، وأن توفر لك فيها كلَّ ما تحتاجين إليه منَ الثياب ونحوها .»

فقلت له ، وأنا دهِشة متعجبة : « ولكن ، يا عمي ...»

« ماذا ؟ أ لم تسمعي ما قاله الدكتور ؟»

« إنه لم يقلْ ...»

فقاطعني بقوله : « لقد أوضح لي كلَّ شيء .»

فخفضتُ من بصري وغمغمت : « لا ، لا أستطيع .»

« لقد أرسلت في طلب الإذن من والدتك ، فلم تُبدِ امتناعًا .»

« ولكن ...»

فالتفت الباشا إلى سنية قائلاً :

« إن صديقتَكِ تأبى أن تُمضي معك بضعة أيام .»

فأمسكت سنية يدي وشدّت عليها وهي تنظر إليّ في ضراعة .

وخرج الباشا وهو يُقهقِه في تؤدةٍ قهقهتَهُ المألوفة .

ومرت أيام ثلاثة وأنا بمنزل سنية ألقى من أهل الدار أجمعين تكريمًا وحفاوة ، ولا سيّما الباشا ؛ فقد كان متلطّفًا بي أقصى تلطُّف ، وكثيراً ما استبقاني معه بعد الطعام يفاكهني بنوادره وطرائفه .

وفي أمسيّة اليوم الثالث ، وأنا على أهبَة الرّواح إلى حجرتي لأستريح وأنام ، رأيت الباشا يتقدم مني وفي يده علبة كبيرة ، وقال لي وهو يفك وثاقَها :

« إن سنية تفكّر في تسليتِك . انظري ، لقد أوصتني بأن أحضِر لك راديو صغيراً يتنقّل معك حيث تكونين .»

وكشف لي عن هذا الرّاديو فإذا به تحفة جميلة.

وسمعت الباشا يقول : « تستطيعين أن تستمعي إليه في كل مكان ، دون أن تتّخذي له ساريةً أو تمدّي له أسلاكًا .»

وأخذ يشرَح لي طريقة استخدامِه في إطالة واهتمام ، ثم أداره أمامي ، فأسمعني إذاعات من مراكزَ شتّى . وأخيراً قال لي هامسًا :

« إنه يُغنيك عن الرّاديو الكبير الذي في حجرة والدتك .»

فنظرتُ إليه دهشة ؛ فأرسلَ قهقهةً خفيفة ، وأخذ يربّت كتفي ، وقالَ في هدوء : « لقد سألت مهندس الرّاديو عن كل شيء . لا تظنّي ، يا صغيرتي ، أنني مهمِلٌ شأنَك ، غيرُ متتبّعٍ دقائقَ حياتك .»

ودنا مني يواصل قوله : « ما زلتُ أكرِّر على مسْمعك أنّني أتوخّى دائمًا سعادتك .»

ولاطف يدي ، ثم قال لي : « طاب مساؤك ، يا سلوى .»

فقلت مغمغِمَةً ، وقد خفضت من بصري : « طاب مساؤك ، يا عمّي .»

وانقضى يومانِ آخرانِ والباشا يغمرني بهداياه من الحلوى والفطائر المنوّعة . وكان يقول لي وهو يقدّمها إليّ : « قد لا يروقُك ما تجدين من طعام المنزل ؛ فتستعيضين عنه بهذه الحلوى والفطائر .»

وفي مساء اليوم الخامس بعد أن تناولنا العشاء ، جلست إلى الباشا أباسِطه في الحديث ، وإذا بي أشعر بارتفاع الكُلفة بيني وبينه ، وطالت جَلستنا من حيث لا أشعر . وعندما أردتُ الاستئذانَ منه في الرّواح إلى حجرتي ، أخرج من جيب صِداره عُلبة صغيرة فيها خاتَم جميل قدّمه إليّ ، وهو يقول وعلى فمه ابتسامة حائرة : « هذا لك ، يا سلوى .»

وتأمّلتُ الخاتم وقلبي يهفو إليه ، وغمغمتُ :

« لا ، لا ، يا عمي ؛ هذا كثير !»

فمدّ يدَه إليّ بالخاتم ، ثم مضى يضعه في إصبعي ويقول : « خذيه على أنه هدية من سنية إن كنت لا ترغبين في قبول شيء مني .»

« لا أقصد ذلك ، إنما ...»

« إنما يجب أن تحتفظي به تذكاراً لجميلك الّذي أسديته لصديقتك . إنها مَدينة لك بحياتها .»

« لم أقمْ إلا بالواجب ، يا عمي .»

وأمسك بيدي هُنَيهة ، ثم قال وهو يرفعها إلى فمه : « أ تسمحين ؟»

فأطرقتُ في سكينة ، وتركتُ يدي في يده فقبّلها

قبلة طويلة ، وألفيتُه يَهمُّ بقبلة أخرى ، فجذبت يدي في لطف ، وأنا أقول :

« مساء الخير ، يا عمي . أشكر لك .»

ورأيت شفتيه تختلجان دون كلام . وقصدت إلى حجرتي ورأسي يموج بمختلف الأفكار . و وقفت بجوار النافذة ، وجعلت أحرِّك الخاتم في إصبعي وأنا أطيل النظرَ إليه . ثم وقع بصري على الرّاديو غير بعيد منّي ، فذهبت إليه على مهل ، وأدرتُه فانطلقتْ منه رَقائق الأنغام ، فأصغيتُ لها مغتبطة وعيني لا تنحرف عن الخاتم في إصبعي . ومرَّ ببالي في هذا الوقت موقفٌ وقفتُه منَ الأستاذ رجائي ، حين قدَّم إليَّ خاتمًا فأبيته في استنكار ؛ فرفَّت على فمي ابتسامةٌ ، وذهبت إلى سريري أتمدَّد عليه . وقضيت وقتًا وأنا على هذه الحال ، يبعث الرّاديو إليَّ بشدْوِه الطروب . و وجدتُني أردِّد قول أمي :

« لماذا لا نَتَلَهّى بهؤلاء الرجال دون أن ينالوا منّا منالاً ؟»

وفي غدٍ قبيلَ الظهر ، علمت أن أمي قدِمت تزور الباشا ، وأنها معه في حجرة الزُّوّار ، في الطبقة الأولى؛ فنزلت على عجل ، وأردت أن أدخل الحجرة حيث يجلسان ، ولكنّي ما كدت أقترب من الباب حتى تراجعَتْ خُطايَ . أ ليس ممّا يجافي الذَّوْقَ أن أقتحم الحجرة بلا استئذان ؟ ولكن لِمَ حضرت والدتي ؟ إنها مفاجأة غريبة . ربَّما كانت قد حضرت لتسأل عنّي ؛ إني أطلتُ غيبتي عنها ومكوثي في هذا المنزل . و وقفت بجوار الباب أتسمَّع ، فعلِمت أن الزِّيارة أوشكَت أن تنتهي ، وسمعت والدتي تقول :

« لا أدري كيف أشكر لك ، يا سعادة الباشا ، ما تفضَّلت به عليَّ . لن أنسى جميلك معي . سأردُّ إليك النقودَ حين يصِل إليَّ دخلي من الوقف . ولولا أني ضُويِقتُ بأمر الحجزِ ، وهدَّدني المُحضِر مرّاتٍ متوالية لَما طوَّعتْ لي نفسي أن أجاهر بهذا المَطلَب .»

فأجاب الباشا في صوته الهادئ الرزين : « أنا مستعد لأيّة خدمة ، يا هانم . لا كُلفة بيننا . يجب أن تَعُدِّيني صديقًا مخلصًا للأسرة .»

« أشكر لك ، يا باشا ، هذا الفضل . وهيهاتَ أن أنسى ذلك الجميل !»

وصمتَتْ برهة ، ثم واصلت قولها :

« أرجو أن تسمح لي بورقة وقلم لأكتب لك سندًا .»

« سندًا !»

« سندًا بالنقود ، يا باشا .»

« ولِمَ العجلة ؟ أ هكذا يكون الشأن بين الأصدقاء ؟»

« مهما يكن من أمر ، يا باشا ، فالصَّداقة لا دخلَ لها في المعاملات الرسمية .»

« هذا صحيح ، ولكن بيننا ثقة متبادلَة .»

« أريد كتابة السَّند ، فإن لم يرقك هذا فإنّي آسفة إذ أردُّ إليك النقود .»

ولمحت شبحَ أمي وهي تمدُّ يدها بشيء إلى الباشا ، فردَّها عنه يقول :

« لا بأسَ ، لا بأس . إذا أصررتِ فإني أرسل إليك السند غدًا لإمضائه . إن الكاتب غائبٌ عن المنزل الآن ، وما دام الأمر – كما تقولين – يدخل في نطاق المعاملات الرسمية ، فيجب أن يأخذ طريقه الرسمي .»

فسمعت والدتي تقول : « إذن سأنتظِر الكاتبَ يأتي إليَّ بالسَّند غدًا .»

« ذلك ما سيكون .»

ونهضَتْ أمي ، وهي تكرِّر شُكرها ، وحيَّت الزهيري باشا ، فأخليتُ مكاني وتواريتُ عن العيون . وما لبِثت أن شعرت بالهُموم تتألَّب عليَّ ، وبالضّيق

يغزو صدري ، فقضيتُ وقتي تتنازعني شتّى الأفكار ، وقد حاولت أن أكتُم هذه النزعات المتضاربة بين ضلوعي ، وألا يبدو عليّ منها شيء .

وبعد أن تناولنا الغداء ، استأذنتُ سنية في الذّهاب إلى داري لأمرٍ مهمٍّ ، و وعدتُها أن أعود بعد قليل ، فأذنت لي بعد طول ممانعة واعتراض . ودخلتُ المنْزل فلم أجد أمي ، وسألت عنها أم يونس فأخبرتني بأنها لمْ تعُد منذ خرجت في الصّباح ، فقلت لها :

« وهل أخبرتْك أين ذهبت ؟»

« لم تتعوّد ، يا بنتي ، أن تخبرني بما تنوي عمله في يومها . ولكن ما بك ؟ مضطربةٌ أنت !»

« وهل تريدين منّي أن أكون هادئة ، والمُحضِر يأتي هنا كلّ يوم لحجز الأثاث ؟»

فحملقَتْ فيَّ وقتًا ، وقالت مغمغمة : « مُحضِر ! أيُّ مُحضِر ؟»

« إنه كان على وشك أن يبيع الأثاث بالمزاد العلني .»

« بالمزاد العلني ؟ أبعد الله الشرّ ، يا بنتي ! لم يقع شيء من ذلك قطُّ .»

« قلت لك إنَّ المُحضِر كان يأتي هنا كل يوم لحجز متاعنا وبيعه .»

فقالت في هدوء وثقة وهي ترنو إليّ : « لم يحضر أحد .»

« تزعُمين أن المُحضِر لم يأتِ ؟»

فقالت وهي على حالها : « وأين كنت أنا ؟ إنّني لم أفارق البيت ؟»

« ألم يأتِ أحد ؟ أواثقة أنتِ ؟»

« لم يحضُر إلا حمدي أفندي وقد جلس مع والدتك فترة قصيرة .»

« حمدي ! متى ؟»

« أمس .»

« ألا تعرفين لم حضر ؟»

فقالت بعدَ تردُّد: « لم تخبرني والدتُكِ بشيء .»

« ولكنك تعرفين . أخبريني فيمَ حضر ؟»

« أظنُّ ... أظنُّ ...»

« تكلّمي .»

« إنه حدثّها في أمر خِطبتك .»

« وماذا قالت والدتي ؟»

« كان يبدو عليها الامتعاض .»

« هل رفضَتْ ؟»

« لم ترفُضْ رفضًا صريحًا ، ولكن ...»

« حسنًا ، حسنًا .»

وتركتُ أم يونس وقصدت إلى حجرتي ، وقضيت الوقت أنتظر عودة أمي ، وفي صدري كُربة لا تَريم (١) . وكانت أم يونس تتردّد عليّ بين حين وحين ، تحاول أن تسرّيَ عني .

وأوشك اللّيل أن ينتصفَ قبل أن تعود أمي . وما إن أحسستُ أنها تطرق المنزلَ حتّى هرولت إليها على الأثَر في رَدهة الطبقة الأولى .

وإذ رأتني قالت : « ماذا ؟ أنت هنا ، يا سلوى ؟ لمَ تركت منزل الباشا ؟»

« وهل كنت تريدينني أن أقيمَ هناك إلى الأبد ؟»

فنظرتْ إليَّ متفحِّصة بعين يبين فيها القلق ، وكان وجهها محقنًا ظاهرَ الذُّبول ، تكسوه التجاعيد والغضون ، ثم قالتِ : « ما بِك ؟ يظهر أنك غضبى . هل أساء معاملتَك أحدٌ في منزل الباشا ؟»

« كلا ، كان أهل المنزل جميعًا غايَةً في الرقّة والظّرف .»

---

(١) تَريم : تفارق .

« إذن مَن ؟»

« وهل شكوتُ لك أحداً ؟»

« إن كلامَكِ لَيبعث على العجب . أفصحي .»

« لا رجعة لي بعد اليوم إلى منزل الزهيري باشا .»

« لا ريب أن أحداً أساء معاملتك ، أليس كذلك ؟»

« قلت لك إن أهل المنزل جميعًا كانوا في غاية الرِّقة والظرف ، ولكنّني اعتزمت ألا أعودَ إليهم أبدًا .»

فجلسَتْ على المقعد في إهمال ، وأشعلت لِفافة ، وقالت : « أ حدَث منَ الباشا أمرٌ كالّذي كان منه أثناء وجودك في الضيعة ؟»

فقلت في صوت متهدِّج :

« لم يحدث شيء ، ولن يحدثَ من الباشا معي أمرٌ يخدِش كرامتي .»

فنفثت دُخان لفافتها ، وابتسمت قائلة : « حسن ، حسن ، لا أرجو شيئًا غير ذلك .»

« مهما يبذل الباشا منْ محاولات فإن جُهده ضائع. لن يستطيعَ أن يشتريني بهذه المِنحة الّتي منحك إياها صباح اليوم .»

فنظرت إليَّ مدهوشة ، وقالت : « منحة ! أية منحة ؟»

« لقد علمت كل شيء .»

فعادت إلى لفافتها تدخِّنها ، وقالت وهي تُشيح عني بوجهها : « تقصدين مسألة القرض ؟»

ثم واجهتني بقولها :

« أ في ذلك عيب ؟ إنه قرض سأردُّه إليه في أقرب فرصة .»

« هيه ، قَرْض !»

« أجل ، قرض . وهل أنا مِمّن يقترضون ولا يؤدّون ما عليهم من دَين ؟ إنَّ أساسَ معاملاتي كلها الشرف والأمانة .»

« أ ثمَّة سبب يدعوك إلى هذا القرض ؟»

« المحضر والحجز الّذي يتهددنا .»

« أ لا تُعفينني من سماع هذه الأقاويل ؟»

« أ تريدينَ أن يُباعَ متاعُنا بالمزاد ؟ أ تريدين أن نُفتضح أمام الناس ؟»

« هوِّني على نفسك ، يا أمي ! أنت تبالغين .»

« أبالغ ؟»

« أيُّ محضر وأيُّ حجز ؟ إنني لست منَ الغفلة بحيث أُصدِّق ما تدّعين .»

فعقدت يديها على صدرها ، وقالت تتحدّاني :

« إذن أنا كاذبة ! فلِمَ اقترضت هذا المبلغ فيما تظنّينَ ؟»

« هذا سؤالٌ أُوجِّهه إليك .»

فنهضت إليَّ وعينُها تقدح شررًا ، وقالت :

« أ لا تستحينَ ؟ من أنتِ حتى تقاضيني ؟ من أنت حتى تناقشيني في تصرُّفاتي ؟ إنني حُرَّة فيما آخذ وما أدَع !»

« أنا لا أناقشك في تصرُّفاتك الخاصَّة ، ولكن إذا كان في هذه التصرُّفات ما يَمسُّني ويخدش كرامتي ، فإن من حقّي أن أسأل وأن أناقِشَ .»

« يَمسُّك ويخدش كرامتك ! هيه ، هيه ، وهل تدركين أنت ، يا حمقاء ، مِن شأنك ومن كرامتك فوق ما أدرِكه ؟»

وحدجتني بنظرة نكراء ، ثم انصرفت عنّي .

فما مضت خطوتينِ حتّى لحقتُ بها ، وقلت :

« سأضع حدًّا لكلِّ هذا ، سأتزوَّج حمدي ، سأتزوجه .»

فأمسكَتْ عنِ السَّير تبتسِم في سُخرية ، وقالت :

« اختيار موفَّق ، يشهد بذوق سليم ! »

« سليم أو غير سليم ، سأتزوَّج حمدي . »

« حسنًا تفعلينَ ، لن أمنع هذا الزواج . »

وهمَّت أن تتابع سيرها ، ولكنَّها تعمَّدتني بنظرها وهي تقول : « ولكن إذا ندمْت على ما فعلت فيما بعد، فلا تلقي عليَّ لومًا . ذمَّتي بَراء . »

— ٣١ —

نهَضتُ من فراشي صباحَ غدٍ ، أعرِض ما كان من حديثي مع أمي في اللَّيل ، فاستبان لي أني أسرَفت في بعض ما قلت ، وأني تسرَّعتُ فيما كان منّي إليها . لقد كان خليقًا بي أن أتناولَ الأمر معها في هدوء ، وأن أناقشها في تعقُّل . فانتظرتُ حتّى استيقظَتْ وتناولَتْ فطورَها ، ثم ذهبت إليها أحيِّيها تحية الصَّباح. وكانت كعادتِها على الأريكة تدخِّن لِفافتَها ، فاقتربتُ منها وقلت في لهجة وادعة :

« جئت لأسترشدَ برأيكِ في شأن حمدي . »

فلم تنظر إليَّ ، وأجابتني وهي تتأمَّل لفافتها :

« لقد قلتُ لك إنني لا أمنع هذا الزواج . »

« ولكنك غير راضية عنه . »

« حسبُكِ أن تكوني أنت راضية كلَّ الرِّضا . »

فأقبلتُ عليها ، وجلست على طرف الأريكة ، وقلت : « إن حمدي شابٌ مهذَّب ، طيب القلب ، يتحلَّى بصفات كريمة ، ولكن ... »

« ولكن ماذا ؟ »

« أ تظنِّينَ أنه يُسعد زوجتَه ؟ »

« إنه يحبُّك وأنت تحبِّينه ، أ ليس في هذا غَناء ؟ »

« حقا فيه غناء ، ولكن مرتَّبه ... »

« لقد بلغ خمسةَ عَشرَ جنيهًا . »

« قدرٌ لا بأس به . »

« قدر طيب لزوجين قنوعين مثلكما ، ليس لهما في الحياة مطامع . وسيزيد هذا المرتَّب . »

« قال ذلك لي . »

« هذا هو المنتَظَر . »

« أ لا اعتراض لك على هذا الزواج ؟ »

« إن كانت هذه الناحية تشغل بالك فاطمئنّي ؛ ليس لديَّ أيُّ اعتراض ، إذا رغبتُما في إجْراءِ العقد فهيّا . »

« أيُّ عقد ؟ »

« عقد الزَّواج . »

« أراك تسخرينَ منّي . »

« لمَ ؟ ما دمتما متحابَّين ترغبانِ في الزَّواج ، فلماذا لا تبادران بإجراء العقد ؟ »

« أ جادَّة أنتِ فيما تقولين ؟ »

فنظرت إليَّ نظرةً صُلبة ، وقالت :

« عجبًا لك ! لماذا ترتابين في قولي ؟ »

« لأنك اعترضت على هذا الزواج قبلاً . »

« حقا ، كنت اعترضت عليه لأسباب وجيهة بدت لي . وما دمت أنت مقتنعة بأن هذا الزواج سيوفِّر لك الهناءة والسعادة ، فلمَ المُمانعة ؟ لست أنا الَّتي ستتزوج، الأمر إليك أنت . لقد بلغتِ مِنَ السِّنّ ما يؤهِّلك لأن تبني مستقبلك بنفسك . »

« أشكر لك هذا ، يا أمي . »

وأمسكت بيدها ملاطفةً ، وقلت لها بعد صمت لم يَطل : « أرجو ألا يكون قد ساءكِ ما بدر منّي في الليل . »

« أنا ؟ لمْ يسؤني شيء ، إنَّما خُلقتِ الأمهات لاحتمال أعباء الحياة . وأنت ، وإن كنت راجحةَ

العقل ، متّقدةَ الذّكاء ، فإن التجربة ما برحتْ تعوزُك ، والتجربة ، يا سلوى ، أهم مقوّمات الحياة. إن العيبَ الّذي آخذه عليكِ هو سُرعة البتّ في الأمور . أراكِ دائمًا مندفعةً ، لا أناة ولا رَويَّةَ . على أن هذا كله من أخلاقِ الشباب . ولكن أنصح لك أن تتبصّري في الأمر طويلاً قبل أن تَبُتّي فيه برأيٍ حاسِم . إن العجلة قد تضرُّك ، ولكن التأني فيه الخير والسلامة .»

فطأطأت رأسي ، وطفقتُ أعبَث بطرفِ ثوبي . وظلِلتُ وقتًا صامتة ، ثم قلت مهمهمة :

« قد يكون الحقُّ فيما تقولين ، يا أمّاه . أشكر لك نصيحتك .»

وتركتُ أمي ، ومضيت إلى حجرتي . ومكثت فترة في حيرة وقلق ، يتعذّر عليَّ أن أجمع ما تشعّث من أفكاري . ثم خطوت إلى الدُّرج أفتحه لآخذَ المشط أسرّح به شعري ، فوقع بصري على الرسالتين اللّتين بعث بهما إليَّ الدكتور داود فهيم ، فبسطتهما أمامي ، وجعلت أنقّل بصري بين سطورهما ، ثم ما عتّمتُ أن وجدتنيَ أقبِل على قراءتهما في اهتمام . وما إن فرغت منَ القراءة حتّى اعتزمت أن أكتب للدكتور فهيم ردًّا رقيقًا ؛ إنه يضمِر لي شعوراً كريمًا. ليتَه الآن في مصر ! إني لشديدة الحاجة إلى شخص مثله ، أستمع إلى قولِه ، وأهتدي بنصائحه ، وأعوِّل على رأيه .

وجلست أعدُّ العدة لكتابة رسالة إليه ، وما كدت أفعل حتى أقبلت أم يونس تخبرني بقدوم حمدي ، فوضعت القلم جانبًا وأنا أزفِر .

وذهبت إلى حمدي فاستقبلني بِبشر فيّاض ، ثم انطلقَ من فوره يسألني عما قرَّ عليه عزمي في شأن زواجي به ، فلزمت الصمتَ وقتًا ، فبدا عليهِ القلق ، وأخذ يعبَث بيديه ، وهو ينظر إليَّ خُلسة ، فقلت له:

« لماذا أنتَ عَجول ؟»

« المسألة ، يا سلوى ، يتوقف عليها هنائي أو شقائي .»

« أ فكَّرتَ في هنائي أو شقائي أنا ، يا حمدي ؟»

« ثقي بأنك ستكونين أسعد الزوجات . إن زوجك لن يألوَ جهداً في توفير السعادة لك .»

« أ واثقٌ أنت بما تقول ؟»

« كلَّ الثقة ، مرتَّبي لا بأس به ، وسيزيد . وأنت فتاة قنوع ، وعواطفنا متلاقية ، و والدتك لا تعارِض . ماذا تريدين فوق هذا ؟»

« حقا ، لا شيء .»

« إذن لماذا تتردَّدين ؟»

« أعدُك بأني لن أخيِّب رجاءك . ولكن أمهلني رويدًا .»

وأقبلت أم يونس تخبرني بأن الدادة شيرين قد أتت ، وأن السيارة بالباب ؛ لأن سنية تطلبني لأمر ذي بال .

فنهض حمدي وهو يرنو إليَّ في استرحام ، فنهضتُ وأنا أبتسِم له ، ثم قلت : « كل شيء سينتهي إلى خير .»

وخرج وأنا أشيِّعه بنظرة إشفاق ، ولكنّي لا أدري كيف شعرت حين تركته براحة واطمئنان !

أقلّتني السيارة إلى منزل سنية ، فما كادت تراني حتى هُرِعت إليَّ تضمُّني بين ذراعيها وتقبِّلني ، ثم أخرجت من صدرها برقية بالفرنسية ، ومالَتْ على أذني مهتاجة تهمِس :

« من شريف ، سيحضر بعد أيام .»

« مباغتة جميلة .»

ورنَتْ إليَّ بنظرة ساذَجة ، ثم تشبثَتْ بي ، وقد أطبقت جفنيها في غبطة ونشوة ، وأخذت تهمهم :

« إني خائفة ، خائفة ، يا سلوى .»

فاحتضنتُها وأنا أربِّت ظهرها في عطف وتودُّد ، ولكنّي كنتُ فيما بيني وبين نفسي أستهجِن قولها وأتساءل : « ممَّ تخاف ؟»

وعُدْتُ إلى المنزل وأنا أشعر بالتأفُّف من سنية ومن نفسيَّتها الَّتي تبعث على العجب . ثم قلت لنفسي : « هل تستطيع فتاة تبلغ هذا المبلغ من ضعف الشخصية أن تُسعد زوجًا مثل شريف ؟»

وما إن دخلت المنزل حتّى علمت أن أمي تشكو ألَمًا في أمعائها ؛ فصعدت إليها فوجدتها ممدّدة على الأريكة ، وقد وضعت على بطنها كيسًا مُلئَ بالماء السخن . فما إن رأتني حتى قالت : « خيرًا إن شاء الله، ما هو الأمر المهم الَّذي استدعتْك من أجله سنية ؟»

« إن خاطبها شريف أبرق إليها أنه عائد بعد أيام .»

فرفعت رأسها قليلاً ، وقالت : « حقا ، إنه خبر مهم .»

« خبر مهمٌّ لها بلا شك .»

وأخذَتْ والدتي تُصلِح وضع الكيس على بطنها ، ثم قالت وهي تتفحَّصني : « أ سعيدة هي بهذا الزواج ؟»

« كلَّ السَّعادة ، حتى إنها لَتصدرُ عنها أعمال صِبيانية غير لائقة .»

« يحقُّ لها أن تسعدَ . أيُّ فتًى كشريف ؟»

« لا يُنكِر ذلك أحد .»

« شاب ، متعلِّم ، سليل أسرة عريقة ، ميسور الحال . ماذا تطلب الفتاة فوق هذه الميزات ؟»

« هل تظنين أنها ستكون سعيدة ؟»

« بلا شك .»

« وهل تظنين أن الغِنى والعلم والأصل العريق يسعد الأزواج ؟»

« وماذا يسعد الأزواج فيما ترين ؟»

« توافق الأهواء ، وتجانُس الميول .»

« إن توافق الأهواء وتجانس الميول لا يُغنيان فتيلاً ، إذا كان مرتَّب الفتى لا يزيد على خمسةَ عشرَ جنيهًا. أ تظنين أن شخصًا مثل ...»

فقاطعتها قائلة : « أخبرتني أم يونس أنك تشكين ألَمًا في الأمعاء ، فهل أنت الآن أحسن حالاً ؟»

فحدقَّت فيَّ لحظة وهي صامتة ، ثم قالت : « بل إني لأشعر بأن الألم في ازدياد ، على الرغم من هذا الكيس السُّخن .»

« ثقي أنها وعكة خفيفة لا تلبث أن تزول .»

وقمت مستأذنةً ، فما كِدت أخطو خطوتين نحو الباب حتى سمعتُها تقول : « وحمدي ، ماذا قلت له ؟»

فأجبتها وأنا في طريقي : « لا جديدَ ، لم أقل له شيئًا .»

وفي الصباح تبيَّن لي أن حالة أمي تزداد سوءًا ؛ فاضطررنا أن ندعوَ الطبيب ؛ فنصح لنا بنقلها إلى المستشفى ، وأعلمنا بأن الحال قد تقتضي إجراء عملية جراحية ؛ فاشتد اضطرابي ، وأُسقِطَ في يدي . وهال والدتي الأمر ، فأخذت تصيحُ وهي تفنِّد رأي الطبيب وتثور عليه ، وأقسمَتْ بأغلَظ الأيمان إنها لن تذهب إلى المستشفى . ولكن الطبيب أفهمَها في حزم أن الأمر جدٌّ ، وأن كل دقيقة تقضيها في المنزل هنا تعرِّضُ سلامتها للخطر ، وأن واجبه يحتِّم عليه اتخاذ الإجراءات اللازمة لنقلها إلى المستشفى على الفور .

وكان الطبيب يبدو لي في هيئته وشارته كأنه شُرطيٌّ قويُّ الشكيمة صعبُ المِراس ، لا يعرِف إلا إلقاء الأوامر والانقضاضَ على المجرمين . له نظراتٌ نافذة ، وملامح صُلبة ، ولهجة خشنة جافية .

ثم أخذ يجمع أشياءه تأهُّبًا للانصراف ، فألفيت

والدتي قد نَهضت تتشبَّث به ضارعةً باكية ، وهي ترجو منه أن يتولّى علاجها في المنزل ، فرمقها الرجل بنظرة شزْراءَ ، وصاح :

« يجب أن تلزمي الفراش ، يا هانم . يجب ألا تُكثري من الحركة . لا سبيل إلى غير ما أرى . يجب أن تقصدي إلى المستشفى في الحال . »

وخرج بِخُطًا ثقيلة لا يلوي على شيء ، وعادت أمي إلى اهتياجها تصيح وتقسم إنَّها لن تذهب إلى المستشفى ، ولن تبارح البيت مهما يكن من أمر .

وما أمسينا حتى كانت أمي في المستشفى . وقد قرَّر الجَرّاح إجراء عملية لاستئصال الزائدة الدودية في الحال . ورأيت أمي قد تزايل اهتياجها وحل محلَّه استسلامٌ يائس ، فكانت تدور بعينيها المخضلَّتين بالدمع (١) حولها ، كأنها تبحث عن مُنقذ لها ؛ فدنوت من فراشها وقد امتلأ قلبي حُزنًا وأسًى ، وأخذتُ بيديها ألاطفهما وأقبلهما .

ودُعيت لألقى مديرَ المستشفى ، فقصدت إليه . وكان الرجل يجلس منتفخًا خلفَ مكتب فخم في حجرة رَحبة ثمينة الرِّياش ، كأنه غضنْفر يُطلُّ من عرينه ، ومد إليَّ يده بورقة في حركة تتجلَّى فيها السيادة والترفُّع ، وعيناه تعبَثان فيما يغطِّي مكتَبه من أوراق . فتناولت الورقة ، ونظرت فيها ، فإذا هي أخلاط أرقام وكلمات تاهت نظراتي في تضاعيفها ، فلم أدرك منها شيئًا . وسمِعت الرجل يقول في صوت أجشٍّ :

« هذا المبلغ يجب أداؤه قبل إجراء العملية . »

ولم أدرِ أيَّ قدر يطلب ، ولكنَّني على أية حال لم يكن لديَّ مال أؤديه قَلَّ أو كثُر .

فقلت على الأثر : « سنؤدي ما تطلب ، يا سيدي. سنؤدِّيه بلا ريب ، ولكنّي الآن لا أستطيع أداءَ شيء ؛ فأمهِلْني إلى غد . »

فأخذ المدير يعبث بأقلامه وقد قطَّب حاجبَيهِ ، ثم قال : « يؤسفني جدًّا ، يا آنسة ، أن أقول لك إن هذه تعليمات المستشفى ، لا دخلَ لي فيها . »

وكنت أنظر في الورقة ، فأرى الأرقام تتراقَص أمام عيني وتتشابك متزاحِمة ، و وقع في رُوعي أن المطلوب مال جسيم يبلغ المئات ، فازددت حيرة وارتباكًا ، وهمهمت : « وماذا نصنع ، يا سيدي ؟ »

وفي هذه اللَّحظة سمعت خفقَ خطوات خلفي ، خطوات متَّزنة أعرف وقعها حقَّ المعرفة . وقبل أن ألتفت لأتبيَّنَ مَن القادم ألفيت الغضنفر أمامي ينهض نهضة احترام ، وقد انبسطت أسارير وجهه ، وقال :

« سعادة الباشا ، أهلاً وسهلاً . »

وتقدَّم الزهيري باشا يحيِّي المدير ، ولم ينسَ أن يلاطِف كتفي في تودُّد وهو يبتسِم ، ثم تناول الورقة من يدي ، وقال للمدير :

« هذه الأسرة من معارفي ، آمل أن تجد كل عناية ورعاية . »

فانطلق المدير يقول ، وقد انهال على يديه يدعكهما :

« لا شك أننا سنبذل في سبيل راحتها جهد المستطاع . المستشفى رَهن أمرك ، يا سعادة الباشا . »

وهمس الباشا في أذني : « اذهبي أنتِ الآن ، وسألحق بك عما قليل . »

فعدت إلى حجرة أمي والهواجسُ تملأ رأسي . فما إن دخلتُها حتى علِمت أن أمي نقلت إلى حجرة العمليات ، فاشتد جزعي ، وقضيت وقتًا مُهتاجة الأعصاب ، مضطَربة الفكر . وألفيت الزهيري باشا يدخل ، فهُرعت إليه ، وقلت : « لقد نقلوها إلى حجرة العمليات . »

(١) اخضلَّت العين بالدمع : ابتلَّتْ به .

فأمسك بيدي يلاطفني مبتسماً وهو يقول : « عملية صغيرة ، ستنتهي إلى خير . لا تجزعي . اطمئني . لقد أمرت بأن يُعِدّوا لكِ حجرة بجوار حجرةِ والدتك ، حتّى تطمئنَّ إليك وتطمئني إليها .»

وكان يرنو إليَّ في عطف محبَّب ، ويدي بين يديه لا يفتأ يلاطِفها ، ثم قال في صوت خفيت : « لن تطالبكما إدارة المستشفى بشيء على الإطلاق .»

فرفعت إليه بصري متسائلة ، وأنا أردِّد : « ولكن ، يا عمي ...»

فأجابني بصوت رقيق : « سنسوّي الأمرَ بعد خروج والدتك من المستشفى . لا يشغل بالك شيء .»

فألفيتني أتلعثم في الإجابة . وبغتة تحدَّرتْ عَبراتي ، فأخفيت وجهي في يدي ، فجعل الزهيري باشا يقول ، وهو يربت كتفي :

« ما هذا ؟ ألا تريدين أن ترافقيني لأريكِ الحجرة الّتي أُعِدَّت لك ؟»

— ٣٢ —

تمت العملية بنجاح ، وسارت الأمور على ما يُرام ، وطابت في المستشفى إقامتي ، إذ كانت حجرتي نظيفةً أنيقة ، والخدمُ يُعنون بشأني عناية ممتازة ، والممرضات يَحْظنني بمودَّتهن ومؤانستهنَّ .

وكان الزهيري باشا يوالينا بزوراته ، حاملاً إلينا طاقاتِ الزهر المنتقى وعلب الحلوى الفاخرة ، وقد أمر بتخصيص ممرِّضتين لوالدتي تتناوبانِ خدمتَها في اللّيل والنهار . وعلِمت أنه يقوم بأداءِ نفقات المستشفى على اختلاف أبوابها في سخاء ملحوظ .

وترادفت الأيام وأنا في بُحبوحة منْ عيش ناعم هنيٍّ ، وكان الباشا إذا قدِمَ المستشفى توخّى حجرتي أوّل الأمر ، وقضى فترة يناقلني الحديث في تلطُّف ومُفاكهة ، ويا له من محدِّث لبق ، يخلُب اللُّبَّ بطرافة نوادره ودعاباته ! وكان لا ينسى أن يحمل إليَّ تحيَّة ابنته سنية ، ويعتذِر عن تخلُّفها بأنها ما برِحت متوعِّكة لم تستوفِ بعدُ راحتها ، ثم يبتسِم ابتسامته الرقيقة وهو يقول :

« إنها تنتظر مَقدَم شريف ؛ فهو في طريقه إلى مصر ، وهي حريصة على أن تلقاه موفورة العافية ، قد اكتسبت من البدانة حظا .»

وهنا يصمت برهة وهو يحدِّق فيَّ ، والابتسامة ما زالت تضيء على فمه ، ويقول : « إليك يرجع كل الفضل في تقدُّم صحتها ، هيهات أن ننسى جميلك!»

ولا أنكر أنني كنت أرتقِب زيارة الباشا في غِبطة ، وأعنى عناية خاصة بزينتي ومَلْبسي . وكنت أطرح معه الكلفة ، حتّى إنه كان حين يُطري محاسني أو يشيد بذوقي في حسن هِندامي وتصفيف شعري ، أتقبَّل إطراءه وإشادته بقَبول حسن ، وأجيبُه مؤانِسة مُداعبة . وكثيراً ما تركتُ له يدي بين يديه يلاطِفها ويقبِّلها ، ويُطيل الملاطفة والتقبيل .

وحضر حمدي مرَّةً لزيارتي ، فدخل الحجرة جَهْم المُحيَّا ، باديَ الشُّحوب . وبعدَ أن حيَّاني وسألني عن صحَّة والدتي هام في صمت مضطرب ، وكنت آنئذ أمام مِنضدة الزينة أتعطَّر ، فتيسَّر لي أن أراقبه في المرآة أمامي ؛ فلاحظتُ أنّه قلِقٌ زائغ النظرات ، يريد أن يتكلَّم ، وكأنه لا يدري كيف يبدأ الكلام . وأخيراً ألفيتُه ، وقد غالب قلقَه وحيرته ، يقول مجهودَ الصوت ، راعشَ النَّبرات :

« هل يحضر الباشا الآن ؟»

فتابعتُ زينتي ، و وضَحَتْ لي على الفور عِلّةُ ما يغشاه من ضجر . وقلت متشاغلةً بشأني : « لا أدري . ولمَ هذا السؤال ؟»

« لا شيء ، مجرَّد سؤال .»

ثم عاوده صمته المضطرب ، وجعلت أخالسه النظر ، فإذا به يُجفّف جبينَه وقد تفصّد عرقًا ، ثم سمعته يقول بعد حينٍ في لهجة تشوبها حِدّة : « أنت اليوم تبالغين في زينتك .»

فالتفتُّ إليه فورًا ، وأنا أحدجه بنظراتي ، وقلت :

« أ لا تُفصح ؟ لمَ هذه المداورة والمراوغة في الحديث ؟»

ففاجأه من قولي ما لم يكن يتوقّعه ، وقال في لهجة أخفّ حدّةٍ من ذي قبل : « أنا أداور وأراوغ ؟»

« سَلْ نفسك .»

و وجدتُه قد اندفع يجفّف عرق جبينه ، ويروّح وجهه ، ويقول : « ربما كنتِ على حقّ ، يجب أن أصارِحك بالحقيقة ، وبخاصة أني أعدُّك مخطوبةً لي .»

ثم انبرى يفرك يديه مهتاجًا ، وقال :

« إني غير مطمئنٍّ إلى موقف الباشا منك .»

« غير مطمئن ! ماذا يزعجُك منَ الباشا ، يا سيد حمدي ؟»

فحملق فيّ بعينيه الزائغتين ، وجمجم :

« أ تحسبينني أجهل قيامه بنفقات المستشفى ؟»

فأجبتُ محتدةً : « هَبْه فعَل ؛ فما وجه المؤاخذة في هذا ؟»

« سلوى ، لمَ يُسرِع إليك الغضب ؟»

« يجب أن تكون أعصابنا من حديد ؛ لكي نواجه أسئلتك في رزانة وهدوء .»

« إن الباشا بالغُ الاهتمام بك وبوالدتك هذه الأيام .»

« إنه صديق الأسرة .»

« وهذه النفقات التي يضطلع بها ؟»

« سنسوّي حسابها معه بعد خروج والدتي منَ المستشفى . أ تظن أنّي أقبَل أن يؤدي الباشا تكاليف العلاج ؟ سنردُّ إليه ما أدّى .»

فنهض حمدي ، وأقبل عليّ في تحمس يقول :

« أجل ، نردُّ إليه ما أدّى . سألتمِس كل حيلة في هذا السبيل .»

« ولمَ تجشم نفسك هذا العناء ؟»

« أ لستِ لي مخطوبة ، وعما قريب سنصبح زوجينِ ؟»

« سنتحدّث في هذا الأمر ، وأما فيما يتعلّق بدَيْن الباشا فإن أمي ستؤديه جميعًا . أشكر لك شعورك الجميل .»

فاقترب مني مضطرِب الخُطا ، وهو يغمغم :

« ولكن ... ولكن ...»

« ماذا ؟»

وتتابعتْ أنفاسه ، وامتُقع ، وبدا لي أن عظام وجهه تبرز على نحو مفزِع ، وقال متلعثمًا :

« إن عاطِفة الباشا نحوك معروفة . كلُّنا نعلَم أنه بكِ شديد الشّغف .»

« إنه يحبني كابنته .»

« هذا ما يتظاهر به ليُخفي وراءه غرضه الأصيل . يجب أن تكوني من ذلك على حذر .»

« لست غريرة ولا حمقاء ، قلت لك إنّه يعطِف عليّ عطفه على سنية .»

« وأنت ؟ أنت ؟ ما هو مبلغ شعورك نحوَه ؟»

فرمقتُه بنظرة شزْراء ، وقلت : « من تظنُّني ، يا حمدي ؟»

فرنا إليّ في ضراعة يشوبها غيظ كظيم ، وقال :

« إنه غنيٌّ واسع الثّراء ، وماله قد يبهر عينيك .»

فنهضت دفعةً واحدة وقلت في جفوة :

« أنا ذاهبة إلى مخدع والدتي . لقد طلبتْني منذ هُنَيهة .»

فنظر إليَّ وفي عينيه تخاذل ورجاء ، وقال :

« لا يسؤك قولي ، أ تأخذين عليَّ شيئًا ؟»

« سَلْ نفسك .»

« اغفري لي !»

فقلت في غلظة : « لمْ تفعل شيئًا حتّى أغفِر لك .»

« أضرع إليك !»

« لا أحمل لك في نفسي أيَّ ضِغن .»

وغادرته في الحجرة ماضية إلى مخدع أمي .

وبعد فترة عدت إلى الحجرة فرأيته قد بارَحها تاركًا لي رسالة سقيمة الأفكار مهوَّشة الخواطر ، فيها حبٌّ وغيرة ، وفيها عتاب واسترحام ، فلم ألبثْ أن مزَّقتُها ورميتُ بها طُعمة لسلَّة المهمَلات .

وما هي إلا أن سمعت نقرًا على الباب ، ودخل الباشا سمح المُحيّا في يده طاقة زهر تتألّق ، وحيّاني تحيَّته اللَّطيفة . وكان ظاهرَ الأناقة مفتول الشارِب فتلاً مُحكَمًا ، وقدم لي الطاقة وهو يقول :

« لقد سألتُ الطبيب عن والدتك فأخبرني بأنها أحسن حالاً ، ولكن قد تطول فترة النَّقَه . لا أخفي عنك أن العملية كانت خطيرة ، ولكن الله سلَّم .»

وتناولت طاقة الزهر ، وأنا أهينم (١) بعبارة الشكر. ولمحت لفيفة صغيرة بين الورود ، فتناولتها وفضضتها فإذا هي علبة تحوي مشْبكًا ذهبيا مرصّعًا بالماس الثمين ، فرحت أتأمّله في إعجاب ، وقلت في صوت خافت: « لِمَن هذا ؟»

فقال في ابتسامته الرائعة : « لكِ أنت إذا قبِلته هديَّة متواضِعة .»

« أ هدِية متواضعة هذه ؟ ماذا تكون الهديَّة غير المتواضعة إذن ؟»

وتابعتُ قولي وأنا أقلِّب العلبة بين أصابعي :

« ولكن ، يا عمي ... »

فقاطعني قائلاً : « ماذا ؟ إنه تَذْكار من عمك الَّذي يهتمُّ بشأنك .»

فشددت على يده شاكرة ، فدنا مني وقال : « دعيني أضَعْه على صدرك .»

فوضعه في لباقة ، ورحت أتأمَّل نفسي في المرآة وأنا مزهوَّة معجبة ، وسمِعت الباشا يقول : « أنت دائمًا حبيسة هذا المستشفى: مرضى ، أطباء ، ممرضات ، أ لا تُسرِّين عن نفسك بنزهة ، قليلاً من الوقت ؟»

« إلى أين تريد أن أذهب ؟»

« نخرج بالسيارة معًا فنطوف طوفة قصيرة ، تشهدين مناظر مختلفة و وجوهًا جديدة .»

« كما تبغي .»

وصحبته في السيارة ساعةً نتنزَّه ، وكان الباشا كثير التظرف معي ، متأنِّقًا في الحفاوة بي ، ثم أبلغني بابَ المستشفى وانصرف بسيارته .

دخلت حجرتي مغتبِطة أرى الدنيا تبتسم لي . وحضرت الممرضة بالعشاء ، فاسترعى نظرها ع الفور المشبك المرصع يتلألأ على صدري ، فطفقة تتأمَّله ، ثم قالت : « رائع ، رائع جدًّا !» .

فوجدتني أبادر إلى إجابتها بقولي : « إنه من خاطبي .»

« خاطبك ؟ أحسبه الشابَّ الَّذي كان هنا منذ ساعة .»

« أيُّ شاب ؟»

« الشاب النحيف الطويل الـ ... »

فقاطعتها مسرعة أقول : « إنه من الباشا .»

« الباشا خاطبك ؟»

(١) أهينم : أتكلم بصوت خفيض .

فأقبلتُ عليها وهمست في أذنها : « إن الخِطبة ما زالت سرًّا مَطْويا . »

فأخذت تهنئني ، وتبارك خِطبتي .

وتناولت عشائي وحدي ، والأفكار تذهب بي كلّ مذهب . وساءلت نفسي : إذا كان الباشا صادقَ الشعور نبيل العاطفة نحوي ، فلماذا لا يخطبني ؟

وفي رونق الصُّبح هبط حمدي الحجرة ، على أثَر فراغي من تناول فَطوري ، وارتداء ثيابي . دخل في سرعة ، وبعد أن حيّاني باديَ الارتباك قال لي : « لقد جئتك بقدر من المال كي تؤدّيه إلى المستشفى ، أو تؤديه إلى الباشا قسطًا من القَرْض . ها هو ذا . »

وأخرج ورقة مالية من فئة خمسة الجنيهات ، فنظرت إليه ، وقد بدا في مظهر خليق بالرِّثاء ، وقلت:

« أشكر لك حُسْنَ شعورك ، يا حمدي . إنك تكلّف نفسك ما لا قِبَل لك به . »

فأقبل عليَّ في اهتمام وهو يمد بالورقة يده ، وقال: « لم أكلّف نفسي عناء . ثقي أنني سأستطيع الحصول على قدر آخر في فرصة قريبة . »

فرددتُ يده في أدب ولباقة ، وقلت :

« ليس بي شديد حاجة إلى النقود الآن . »

« ونفقات المستشفى ؟ »

فقلت وابتسامة الإشفاق تتراءى على شفتيَّ : « كل شيء سيسوّى بعد مغادرة والدتي المستشفى . »

فردَّ إليه يده في تباطؤ وهو يغمغم : « أنت تزهدين في قبول شيء منّي . »

« إذا احتجتُ إلى شيء فسأرغب إليك فيه . »

و وقع بصر حمدي في هذه اللّحظة على المشبَك يتضوأ في بواكير أشعة الشمس ، وقد بدأت تحيّي الحجرةَ تحيَّة الإشراق ، فجعل يتفحَّص المشبك زائغ النظرات . ولبث فترة صامتًا ، ثم قال أجشَّ الصوت:

« إنه منه ، أليس كذلك ؟ »

فرمقته بنظرة حادّة ، ثم قلت : « ماذا تعني بقولك هذا ؟ »

واحمرَّتْ عيناه وارتعشت شفتاه وانطلق يُهمهِم :

« لقد شرعت تقبَلين هداياه الثمينة . »

« لا تثريبَ عليَّ في قبول الهدايا . »

« أنتِ لا تدركين ما لذلك من سوء العُقْبى . يجب أن تعودي إلى صوابك . »

فوقفت أمامه شامخة الرأس ، وقلت :

« لا أسمح لك أن تخاطبني بهذه اللّهجة ! ليس لك حقٌ إرشادي . »

« عليَّ أن أحافظ عليك ، ما دمتِ لا تستطيعين أن تحافظي على نفسك . »

« اهتمَّ بشأنك أنتَ ، أما أنا فإني حرَّة فيما أصنع. »

وهُرعتُ إلى الباب مغادرة الحجرة ، فما إن بلغتُه حتّى ألفيتُ حمدي يلحق بي ، وهو يقول في لهجة تذلُّل :

« يبدو لي أني أسأت إليك . المعذرة ! المعذرة ! »

« دعني أخرجْ ، إني تاركةٌ لك الحجرةَ . »

« إن أعصابي ضعيفة ، يا سلوى . إني شخص محطَّم . أشفقي عليَّ ! »

فوقفتُ أمامه أنظر إليه . وقد تقلَّصَتْ عضلات وجهه ، وتصبب العرق من جبينه ، وبدت عينُه غائرة عليها غبرة ، وطالت نظرتي إليه ، فاعتلج في نفسي شعور غامض لا أدري أ شعور إشفاق هو ، أم شعور تأفف ؟

وألفيته يرتمي على يديَّ ، ويُندّيهما بدمع هَتون (١) .

(١) هَتون : غزير .

— ٣٣ —

طالت إقامة والدتي بالمستشفى وأنا ملازِمة لها ، وقد لاحظتُ أنها أفادت من البقاء في هذا المكان ، حيث الرّاحةُ مستوفاة والحياة منتظِمة ليس فيها ما يعكّر صفوَ البال . وكانت والدتي تُعنى بزينتها ، ولا سيّما حين تستقبِل الطبيب ، فكان إذا لاحظ ما يبدو عليها من زينة بالغة ، ابتسم لها ابتسامة مجاملَة ، ولاطفها في تكلُّف .

وكان الباشا يزورها في الفينة بعد الفينة زيارات خاطفة ، لا تخلو من تودده المألوف . وإذا خلت والدتي إليَّ انطلقَتْ تسألني عن جلسات الباشا معي ، وتطالبني بأن أروي لها تفاصيل ما يدور بيني وبينه من حديث ، فكنت أخبرها بما يروقني أن أفضي به وأكتم ما أرى كتمانه .

أمّا المشبك فقد أثار دهشتها ، ولقد انتزعته من صدري وأخذت تتفحّصه بعين متفتّحة ، فساورني في شأنه قلق ، ومددت يدي أستردّه فنظرت إليَّ والدتي في ابتسامة شاحبة وقالت : « لن أسلبك إيّاه . »

و وضعتْه على صدرها بُرهة وهي ما فتئَتْ تتأمّلُه ، ثم ردّته إليَّ على كُرْهٍ ، وهي تقول : « شدَّ ما هو مشغوف بك ! »

فوجدتني أندفع قائلة : « إذا كان هذا حاله ، فلماذا لا يتقدم لخِطبتي ؟ »

فأرسلت ضحكة شوهاء ، وقالت : « الباشا يخطبك ؟ ما أعجب أن يَصدرَ هذا القول منك ، يا سلوى ! »

« ولمَ لا يخطِبني ؟ »

« إني أراه أحكمَ من أن يُقدِم على هذا الأمر . »

فقلت وقد أحسستُ بعينيَّ تلتمعان : « وماذا يبتغي منّي إذن ؟ »

فراحت تعبثُ بشريط حريريّ معقود برقبتها ، وقالت في تضاحُكٍ ساخر : « سَلِيه . »

ثم أردفتْ تقول : « إن الرِّجال على فرط ذكائهم تعزُب عنهم (١) بسائط الأمور . يظنّوننا طَوْع بنانهم ، يشتروننا بمُغريات الهدايا ، ولكن علينا أن نضحك منهم كما أسلفت إليك فيما نصحت لك به ، نغنم ما يُغدِقونه علينا منَ الهدايا ، دون أن ينالوا منّا منالاً . »

« إن هذا السلوك لا يروقني بحال . »

« شأنك وما تريدين ، ولكن يجب أن تعلمي أن للباشا فضلاً علينا ، ليس من المروءة أن نقابِله بالجُحود . يجب أن نكون أهلاً للجميل . »

ولم يَطل معها حديثي ، فتركتها عائدة إلى حجرتي ، والأفكار تلتطِم في رأسي .

واعتزمت أن أفاتح الباشا في الأمر ، وأصارحَه بما يعتلِج في خاطري ، ولكنني لم آنس من نفسي جرأة على التكلُّم . كيف أبدأ معه الحديث ؟ كيف أستدرجه إلى لبِّ الموضوع ؟ أخشى أن أتورّط في مزالقَ من الكلام لا أستطيع منها الخلاص .

وحدث مرّةً عقِب زيارة حمدي إيّاي أن أقبل الباشا على حجرتي ، وما إن حيّاني واستقرَّ في مجلِسه ، حتّى سألني قائلاً : « أليس هذا حمدي ؟ »

« هو عينه . »

فتشاغل لحظة بفتل شاربه ، وقال : « شابٌّ مهذَّب ، حميد الأخلاق . أيُكثر من زيارتك ؟ »

« كلّما واتته الفُرَص . »

وأخذ الباشا يسألني عن حاله الآن ، فقصصتُ عليه بعض شئونه ، وأخفيت عنه ضآلة مرتبة ، ثم انطلقت أطري شمائله ؛ فقال مبتسِماً :

« ما أسعد حظه ! إنك تغمرينه بالعزيز من

(١) تعزُب عنهم : تخفى عليهم .

رضاك .»

« هو صديق الطفولة كما تعلم .»

« لقد ترامى إليَّ أنه يطمع أن يكون أكثر من صديق .»

فطأطأت رأسي ، وهمهمت : « هذا صحيح .»

« أ يرغب في خِطبتك ؟»

« يلوح لي ذلك .»

« حسنًا ، ثقي أنني مستعد أن أبحث له عن عمل طيب أكثر دخلاً من عمله الَّذي يزاوله الآن ؛ حتّى يستطيع أن يواجه الحياة الزوجية .»

وصمت لحظة ، ثم استأنف حديثه قائلاً : « ما هي حقيقة ميله نحوك ؟»

« يقول إنه يحبني .»

فحدَّق فيَّ قائلاً : « وأنت ؟»

فحوَّلت عنه بصري وأجبته : « إني لا أكرهه .»

« أنت طيبة القلب ، لا تُضمرين لأحد كُرهًا .»

و وجدت الفرصة سانحة للتوسُّع في الحديث ، فقلت : « أرغب في نصيحة تسديها إليَّ .»

« ما هي ؟»

« إذا تقدم حمدي يخطبني ، فماذا ترى أن يكون جوابي ؟»

« أ لم تُلْقي على نفسك هذا السؤال ؟»

فضحكت وأنا أُردِّد : « مِراراً .»

« وبماذا أجابتْك نفسُكِ ؟ أو بعبارة أصرح : ماذا قال لك قلبك ؟»

فخطوت إلى المرآة خطوة ، وجعلتُ أُصفِّف شعري هُنَيهة ، ثم قلت وأنا أراقب الباشا في المرآة :

« رغبتي إليك في أن تسدي إليَّ نُصحًا .»

« نصيحتي إليك أن تتركي الأمر للزمن ، لا تتعجَّلي . ولكن ثقي أنه إذا استقر رأيك على قبول حمدي فإني لا أتوانى – كما قلت لك – في أن أعينه على تحسين حاله .»

فتركت مكاني من المرآة ، وبنفسي شيء من الضِّيق ، ثم قلت له وأنا أخطو في الحجرة على رِسْل : أشكر لك نصيحتك الغالية .»

فسمعت الباشا يقول : « الأمر يتطلَّب منك رويَّة وأناة . قد يتقدَّم إليك مَن هو خير من حمدي .»

فالتفتُّ إليه مشرِقَة النظرات وقلت : « أ تظن ذلك ؟ من يكون ؟»

فدنا منّي وأخذ يدي بين يديه ، وجعل يلاطفها فترة ، وهو يتوسَّمني ، ثم قال في ابتسامة غامِضة :

« ما رأيك في الخروج إلى السيارة نَتنزَّه بها الآن وقتًا ؟»

فسللتُ يدي من يده في غير عنف ، واستدرت في وقفتي وأنا أغمغم : « لا أحسُّ ميلاً إلى الخروج.»

« كما تشائين .»

ومشيت في الحجرة خطوتين ، فتبعني ، وأدار إليه وجهي ، وقال :

« أ تمانِعين في قبلة من جبينك ، قبلة عمٍّ مخلص ؟»

وقبل أن أجيبه انتهب القبلة في حرارة ، وحيّاني تحية رقيقة ، وترك الحجرة بقامته الفارعة وظهره العريض ، يسير متَّزِن الخُطا .

ولَمّا استخفى شبحه في الممرِّ ألفيت نفسي واقفة وقتًا بلا حَراك ، وما زالت خُطا الباشا يرنُّ وقعُها في سمعي ، ويتزايل رويدًا رويدًا .

وبقيتُ لحظة تذهب بي الخواطر كلَّ مذهب ، ويجيش بين ضلوعي اضطراب دفين . حقا إنَّ هذا الرجل لغزٌ يَستعصي عليَّ فهمُه ! إنه بالغ الحُنُوِّ ، ولكنه كذلك بالغ القسوة . لشدَّ ما يُتعبني !

ليس هو بالرجل التافه على أية حال ، بل إنه لتافهٌ كلّ التفاهة !

أ ليس هو رجلاً كسائر الرجال ؟ إنه يحسبني صيدًا ميسور المنال !

وأطلقت ضحكة ساخرة ، و وجدتُ أناملي في هذه اللّحظة تعبث بالحلْية الغالية الّتي أهداها الباشا إليّ ، فانتزعتُها ، وجعلت أتأمّلها هُنيهة . ولقد هممت أن ألقي بها في عرض الحجرة ، ولكنّي لم ألبث أن ابتسمتُ ، وأخذت ألهو بها ، أدفعها في الهواء وألقفُها مرّة بعد مرة ، وإذا بي أتضاحك .

ما كان أحكمَ أمي حين نصحتْ لي بأن نعبث بالرجال دون أن ننيلهم وطرًا !

ولاح في خاطري طيف حمدي متضرّعًا متخاذِلاً في بؤسه وهزاله ، فخيّم على وجهي عُبوس وجَهامة.

وألفيتُني أطبق يدي على الحِلْية ، كأنما أخشى أن يغتصبِها مني أحد !

— ٣٤ —

رحلنا عن المستشفى أنا و والدتي ، واستأنفْنا حياة المنزل ، تلك الحياةَ الراتبة بأسلوبها العابِس المملول . وكان أهمّ حادث وقع في هذه الأثناء هو إياب شريف من فرنسا ؛ فقد تلقّيتُ من سنية دعوة إلى مأدُبة غَداء أقامتها احتفاءً بعودته . وقد لبّيتُ الدعوة ، فلقيَتني سنية أشدّ ما تكون اهتياجًا : حركاتها ظاهرة الشذوذ ، وحديثها مفكّك لا انسجام فيه ، على أن ثوبها كان بالغًا من الرّوعة كلّ مبلغ ، حريريّ النّسْج هفهافًا ، فُصِّل على أحدث طراز وأطرفه ، ولكن خُيِّل إليّ أن هذا الثوب قد فقد كثيرًا من بهائه على قوام سنية الناحِل ، و وجهها الممتقع المهزول .

وبينما كنت أنا وسنية واقفتين في الرّدهة نتحدّث ، إذ دخل شريف في صحبة الباشا ، وعلى بعد خطوات منهما ظهر حمدي محنيَّ الهامة ، متخاذِلَ المشية . وبدا لي من أول نظرة ألقيتها على شريف أنه اكتسب مَسْحة من الرُّجولة الحقّة . وراقتني خطواتُه المتّزنة الّتي تُفصِح عن اعتداد بنفسه ، واقتدار على أمره ، وإشاراته الّتي تنمّ عن عِزّة وترفّع . وكان يرتدي حُلّة رَمادية أنيقة ، متقَنة التفصيل ، جيّدة النسج ، ولم يكن متخذًا صِدارًا ، إذ ترك لقميصه الحريريّ أن يكشف عن أناقته .

وخطرت ببالي على الفور صورةُ الدكتور داود فهيم ، برزانته والتماع عينيه ذكاءً وحيوية ، ولكن سَرعان ما توارت هذه الصورة عن مخيِّلتي .

وتقدم شريف من سنية فقبّل يدها في رشاقة ، ثم ألقى نظرة عليَّ ، والتفتَ إلى الباشا قائلاً : « من؟ أ تكون سلوى ؟»

فقال الباشا ضاحِكًا : « كلا ، هي صديقة جديدة لسنية .»

فأطلق شريف ضحكة رائعة فيها شيء من التكلُّف غير البغيض ، وقال : « بل إنها هي ، هي بعينها سلوى .»

وأخذ بيدي يهزُّها قائلاً : « كيف حالك ؟»

« بخير .»

والتفت شريف إلى الباشا وقال : « شدَّ ما تغيَّرت!»

فألفيتني على الفور أعاجله بقولي : « وأنت ، أ لم تتغير ؟»

« الحق أننا جميعًا تغيَّرنا ، حتى سنية . أُنظروا ، لقد ازدادت وسامة إلى وسامة .»

فتضرّج وجه سنية وأطرقت على الأثَر . و واصل شريف قوله : « حتّى حمدي تغيَّر ، بعد أن ظننا أنه سيبقى على حاله .»

وتلفَّتَ قائلاً : « أين أنت ، يا حمدي ؟»

وتابع شريف قوله وهو ناظر إليه : « إنه استطال ،

استطال كثيراً . أخشى إذا استمرَّ في طوله ونحافته أن يبلغ السَّقْف .»

فقهقه الباشا يقول : « سنضطرُّه أن يَقفَ استطالتَه قبيل أن يمسَّ رأسُه سقف المنزل !»

وأبصرت حمدي في هذه اللَّحظة وهو صامت مرتبك ، شاحب الوجه زريُّ المَلبس ، فبدا لي كأنّه صعلوك يتطفَّل على مجالس الأمراء .

وجلسنا في الرَّدهة نتحدَّث ، وسَرعان ما امتلك شريف زمام الحديث في لباقة ولطف ، فجعل يتنقل من موضوع إلى موضوع ، يروي لنا طرائفَ من حياته في فرنسا ، ويصفُ لون العيش بين ربوعها في الأندية والمطاعم والمسارح ومعاهد الدرس .

أمّا حمدي فقد ران عليه صمتُه وانكماشه ، وخُيِّل إليَّ أن وجهه قد ازداد استطالة ، وأن عينيه قد غارتا أكثر من ذي قبل . ولم يكن له من عمل في هذه الفترة إلا تجفيف عرقه المتقاطر في حركات مضطربة . وكان يختلِس إليَّ النظرات ، فكنت أحيِّيه على البعد بابتسامات عابرة أجامِلُه بها . أمّا سنية فكانت من غبطتها في غمرة ، تنظُر إلى خاطبِها نظراتِ مسحور ، وتلتَهِم حديثه في شغف ملحوظ .

وقُدِّم لنا غداء فاخر ، ولم تضُمّ المائدة أحداً غيرنا ، وقد استأثرَت سنية بعناية شريف ، يبادر إلى وضع الطعام في صحفتها ، ويتفقَّد حاجتها إلى مختلف الألوان والمشهِّيات ، وعلى فمه دائماً بسمات إيناس ، وكلمات ظَرف ومُداعبة . فأمّا أنا وحمدي فقد أولانا الباشا رِعايته ، وقد أراد أن يُخرج حمدي من صمته ، فاضطره إلى الكلام ، فطفِق يقصُّ علينا في مشقَّة نُتفًا من شئون حياته وعمله .

وكنت أجاور الباشا على المائدة ، وطالما أحسست يده تلامِس يدي . ولا أدري أكان هذا محض اتفاق أم كان وليد عمد ؟

وبعد انتهاء الغداء أدير الرّادْيو فانبعث منه لحن راقص ، فقام شريف يُخاصِر سنية ويرقص معها رقصة رشيقة ، وبعد انتهاء الرقصة عادت صديقتي إلى مجلِسها مضرجة الخدَّين مشرقة العينين فاترِة الأوصال. وكان سلوك سنية على وجهِ الإجمال لا يروقني ، فلم تكن بقادرة على ضبط عواطفها الثائرة ، يتجلّى في كل إشاراتها وحركاتها تكلُّف وتميُّع وجهالة ، فكأنها طفلة بلهاء !

شدَّ ما كرِهْتُ من صديقتي هذه الخصال ، وشدَّ ما رثَيْت لها !

— ٣٥ —

أعلنت خِطبة سنية إلى شريف ، وأسند إلى شريف منصبٌ حكوميٌّ مرموق . وأخذت الأسرة تُعِدُّ لسنية جهازها ، وتتأهَّب لزفافها في أقرب وقت ، ولذلك اتفق العروسانِ على أن يسكنا جناحًا في بيت والد سنية ؛ حتّى يتسنّى لهما في رويَّة ومهْل أن ينشئا مَغنًى خاصا بهما للسُّكنى .

وكنت كلما ذهبت إلى سنية ؛ راحت تُريني طرائف الجهاز من ملابسَ وفرش ورياش . وكان الباشا يباغتنا بزياراته ، ويتحدث إلينا في لهجته المحبَّبة . وكنت حين أرجع إلى بيتي في المساء بعد هذه الزيارات ، أجدُ في كثير منَ الأحيان هدايا تنتظرني في حجرتي ، بعث بها الباشا إليَّ ، وأغلبها مما كنت أرى مثله في جهاز سنية : فرش مزركشة ، ثياب موشّاة ، غلائل ، مجموعة كاملة من آنية الشاي ، إلى شكول من الطرائف والتُّحَف .

حقا ما أكرم هذا الرجلَ وما أرقَّ قلبه ! و وجدتُني أنهض إلى المرآة أتملّى محاسني ، يعتلِج بين جوانحي شعورزهو ومُباهاة .

وكثيراً ما دَعتني سنية إلى أن أصحبها مع خاطبها

شريف في بعض النُّزهات ، أو مشاهدة السينما ، أو ارتياد المراقص – فقليلاً ما كنت أُلبّي هذه الدَّعوات ؛ حرصًا على أن أترك العروسين يَهنآن بخلوتهما ؛ فهما يَرفلان في سعادة وغِبطة لا مزيد عليهما .

أمّا حمدي فلم أكن أراه إلا لِمامًا ، وكان يتلقّى في بعض الأحيان مثل هذه الدعوات من شريف ، ولكنه لا يفتأ يعتذِر . وبين وقت و وقت كانت تَرِدُني منه رسائل يقول فيها إنه يعمل جاهدًا ليُنميَ دخله ويوفِّر به سعادتي .

وقد لاحظت أنني كلما زرت صديقتي سنية عَمدَ الباشا إلى تهيئة فرصة يخلو بها مجلسي معه . ومرةً بينما كان يقص عليَّ بعض نوادرِ ماضيه ، وأحداث شبابه ، وجدتُني أقول له على الفور :

« أكانت في حياتك مغامرات حب ؟»

فنظر إليَّ متعجبًا من جُرأتي ، وقال : « إن قلبي لم يهدأ عن الحب لحظة .»

فتطلعت إليه مَليا في صمت ، وقلت :

« وما هو آخر حب كان لك ؟»

فابتسم ابتسامة رحيبة وقال : « أ لا تُعفينني منَ الإجابة ؟»

فقلت له : « بل أُصرُّ على أن تجيب .»

« إنّي الآن في غَمرة هذا الحب .»

« ومَن هي تلك الّتي تحبُّها ؟»

« هذا سرٌّ بيني وبينها .»

« وهي ، أتبادِلُكَ حبا بحبٍّ ؟»

« من يدري ؟»

« ألا تحبك ؟»

« أحسبُها لا تكرهني .»

ورأيتني أندفع قائلة : « ولِمَ لا تتزوَّجُها ؟»

فاسترسلَتْ ضحكته هيِّنَة رقيقة ، وهو يقول : « أتزوَّجها ؟ أنا ؟»

فلم أملك إلا أن أكون جادَّة في قولي له : « أجلْ ، لمَ لا تتزوَّجُها ما دمت أنت تحبُّها ، وما دامت هي ليست لك بكارِهة ؟»

فأرسل في عُرض الفضاء نظراته ، وهمهم :

« لقد أدبرَ عنّي عَهدُ الزَّواج .»

فصمتُّ خافِضَةَ البصر ، و واصل حديثَه يقول :

« كيف أجني على فتاة غضَّة في رَيِّق الصِّبا (١) ، فأريدها على الزواج برجل في أَوْج الكُهولة ؟»

فهينمت قائلة : « بل أنت في جدَّةِ الرُّجولة .»

فأقبل عليَّ يُلاطف يدي مبتسمًا ، وهو يقول :

« إني على وَشْك أن أستقبِل عهدَ الشَّيخوخة ، أمّا هي فتستقبِل عهودَ نضارة وتفتُّح ونُضج . ثِقي أني لستُ للزواج بصالح .»

« وماذا تبتغي إذنْ بهذا الحب ؟»

« الصداقة ، الألفة اللَّطيفة . إن مثلي وقد بلغ تلك السِّنَّ يأنَس إلى ذلك اللَّون منَ الصَّداقة ، ينعَم فيها بحُسن العِشْرة ، فتضفي على بقايا أيامه طمأنينة وبهجة .»

وشاع بيننا الصمت هُنَيهة .

ونهضت ، فوقف أمامي ، ورنا إليَّ في عطف ، ثم أخذ يديَ يلاطفها ، وقال : « ثقي أنّي لكِ صديق صفيٌّ ، وأني أكِنُّ لك في نفسي مكانة لا يَعزُّ معها أيُّ مطلب تريدينه . إني في حاجة إلى رضاك .»

وقبَّل يدي قبلة مديدة .

وترادفت الأيام على هذا اللّقاء ، فلم أغادر منزلي ، واكتنفتني حيرة وقلق . وكنت أحيانًا أُحسُّ إشراقًا في نفسي ، كلَّما استعاد سمعي حديثَ الباشا الَّذي يفيض

(١) رَيِّق الصِّبا : أوَّلُ الصِّبا وأفضلُه .

عذوبة ، وأراني قد تبيّن لي وجه الحق فيما صارحني به . وأحيانًا أخرى تضيق بحديثه نفسي ، وتتنكر شخصه عيناي ، وأمتلئ غضبًا عليه ، وتتمثّل لي صورة كبير اللّصوص البحريّينَ ، بحواجبه الغزار وملامحه القاسية الصلبة .

وكانت أم يونس تُدرك ما ينتابني من قلق ، وتلاحظ ما يُتحفُني به الباشا من غوالي الهدايا والطُّرَف . فأقبلتْ عليَّ ذاتَ مساء ، وكنت في حيرتي غارقة أفكّر ، فابتدرتني بسؤالها :

« الشابُّ الّذي اسمه حمدي لم يَزرْنا منذ وقت طويل ، ما حالُه يا تُرى ؟»

« أحسبُه مريضًا .»

« شفاه الله ! شاب طيِّب . على ماذا استقرَّ رأيك في شأنه ؟»

« أيُّ شأن ؟»

« شأن الزّواج .»

فأمسكت بُرهة وأنا محدِّقة في وجه أم يونس ثم قلت : « وما رأيك أنت في هذا الزواج ؟»

« وهل يروقُكِ رأيي ؟»

« إن مكانتك عنديَ كمكانة والدتي ، ولرأيك في نفسي كبيرُ مَقام .»

فأخذت أم يونس بيدي ، وحملقت فيَّ بجدٍّ ، وقالت : « رأيي أن تقبلي الزّواج به سريعًا .»

« ولمَ السُّرعةُ ، يا أم يونس ؟»

« ما أوجَب الإسراعَ بالزواج لِمَن هي في سنِّك ! وهذا شابٌّ تتجلّى فيه الطِّيبة ، فضلاً عن أنه يحبُّك .»

« لا أرى للسُّرعة من داعٍ .»

فتوهّجَتْ عينا أم يونس ، وقالت : « أمّا أنا فأرى للسُّرعة ألفَ داعٍ .»

« ماذا تقصدين بما تقولين ؟»

« الأجدرُ بك ، يا سلوى ، أن تُنشئي لك بيتًا ، ولتنفُضي يدكِ من بيت الباشا . إنهم أناس لسنا منهم وليسوا منّا . ليتركوك وشأنك ! لو كان جدُّكِ على قيد الحياة لَزوَّجك حمدي وانتهى الأمر . تزوَّجيه ، تزوجيه ، يا بنتي ، واخلُصي نفسَكِ منَ المتاعب .»

ثم ربتت كتفي في حُنُوٍّ ، وجعلت تردِّد :

« تزوَّجيه ، تزوَّجيه ، يا بنيَّتي ، ودَعيكِ منَ المظاهر الّتي لا طائل تحتها ، ولا تؤمَن عاقبتُها .»

ثم قبّلَت جبيني وانصرفت .

فجعلت أرقب شبحَها الضئيلَ الأعجف يتزايل أمامي رويدًا في لُجّة الظّلام .

— ٣٦ —

تمَّ عقدُ قِرانِ سنية في حفل عائليٍّ كان أكثرَ مَن فيه جنسُ الرِّجال ، وقد ضمَّ بعض الشخصيات البارزة من أقارب العروسين . وكان حمدي بين المدعُوِّين ، وكنت أنا وأمي بين المدعُوّات القلائل . وقد خُصِّصَتْ رَدهةُ الطبقةِ الأُولى من المنزل لحَفْل الرِّجال ، فلبثتُ أنا وسنية ننظر إليهم بين آنٍ وآن ، طلبًا للفرجة . وكان الحفل رائعًا يملأ النفس إعجابًا وبهجة ، ولقد كنت أنظر إلى النُّدُل (١) ، وهم يختلفون إلى المدعُوِّين في حُللهم المزركَشة ، وسراويلهم المقصَّبة ، حاملين أكوابَ الأشربة وصوانيَ الحلوى ، فيخيَّلُ إليَّ أنهم سُقاة على موائد الملوك في أبهى القصور .

وكان شريف فاتنَ المظهر في حُلّته السوداء ورباط رقبته الأبيض ، وهذا القُفّاز الناصع الّذي يخلعه ويلبسه في المناسبات في أناقة ومهارة .

أمّا سنية فكانت باديةَ الاهتياج ، وقد أمضّتني

(١) النُّدل : جمع نادل ، وهو من يقوم على خدمة الناس في الأكل أو الشراب .

بتَرْداد قولها : « أنا خائفة . »

وكدت أصيح قائلة : « ممَّ تخافين ؟ أ إلى غول تزفّين ؟ »

وكانت تحتضنني وتقبلني بعنف ، وشذا العطور الّتي نضَحتْ بها ثيابها يَفْغم (١) أنفي ، ويكاد يُسلمُ رأسي إلى دُوار .

ورأيت حمدي وقد حَشروه في زُمرة المدعُوّين ذوي الأبّهة والمهابة ، فبدا بينهم غريبًا تقتحمُه العيون . ومما زاده غرابة ذلك الزّيُّ الّذي بدا به ملفَّقًا من حُلل وثياب مختلفة ، فغدا كأنه في حَفل من حفلات التنكُّر يرتدي لَبوسًا واضحَ الشذوذ . وهذا المنديل المسكين الذي لا يبرَح يدَه ، إنه ليشدُّه تارة ويروّح به وجهه أخرى ، في حركات تتجلّى فيها ثورة الأعصاب .

أمّا الزهيري باشا فكان عظيمَ المظهر بين السَّراة من رفاقه وأخدانه . يعجبني منه روعة طريقته وهو يشعل لفافته ، أو ينفث دخانها ، أو ينفض رمادها بين حين وحين .

وكانت والدتي معنا في الرَّدهة العليا ، ولكنّها كانت في مَعزِل عنّا ، ولم يكن في سلوكها على وجه عام ما تُلام عليه ، أمّا زينتُها فلم تكن لتروقني . وقد أقلّتْ منَ الكلام واحتفظت بأرستقراطية مصنوعة وتحفُّظ متكلّف . ولَمّا مرّت بها مدموازيل شانتل جاذبتها أطراف حديث قصير بفرنسية عَرْجاء .

وكانت مدموازيل شانتل كالديك الثائر : وجه محتَقَن نافر العروق ، ينبئ عنِ اهتياجِ كمين ، وهي تغدو وتروح في عجلة دون حاجة داعية ، ومنظارها ذو المَقبِض الطويل يعلو ويهبط في يدها دون انقطاع . وأحسب أنها ألقت إليَّ بتحيّة عابرة ، ونثرَتْ عليَّ ابتسامة سانحة .

وبعد أن انقضَتْ مَراسم الحفل ، صعد الباشا ومعه شريف قاصدَينِ مكانَ سنية ، فدنا منها شريف وقبَّل جبينها قبلة عذبة ، وانحرف الباشا نحوي وكنت قد انتحيت الرُّكن الّذي انتحتْه والدتي ، فقدَّم إلينا علبتين من علَب الحلوى الفاخرة . ونزلنا جميعًا إلى رَدهة الطبقة الأولى ، يتقدمنا شريف متأبّطًا ذراعَ سنية . فمضيا إلى الباب حيث كانت تنتظرهما السيارة الجديدة ، الّتي جعلها شريف هدية العُرْس إلى سنية ، فتبعناهما نودّعهما .

وصعد العروسان في السيارة ، فاسترعت انتباهي على الفور فخامتها وأبّهةُ مظهرها ، وهي تتألّق كأنها جوهرة صافية اللألاء . وما أظن أن نظري قد وقع على سيارة تضارِعها من قبلُ . وكان الموقف مشرقًا بهيجًا تنشرِح له النَّفس ، ولكن سنية انخرطت في البكاء دُفعة واحدة على نحو زَريّ ، فعكّرت صفوَ الموقف ، وطمست بهاءه وإشراقه . على أن السيارة ما لبِثتْ أن تحرّكت بين التحيات والتلويحات نبعث بها تِباعًا .

والتفتَ الباشا إليّ قائلاً : « أ ترينَ ذوقي حسنًا ؟ »

« في أيّ شيء ، يا عمي ؟ »

« أنا الّذي اخترت السيارة . لقد كنت مع شريف حين ابتاعها . »

« إنها حقا لرائعة ! »

« ستقلُّهما إلى الإسكندرية . »

« رحلة جميلة . لا ريب أنها أكثر راحةً وأوفر متعةً من السفر بالقطار . »

فابتسم لي وقال : « إذن أنت تُطرينَ ذوقي ؟ »

فخرجَتْ أمي عن صمتها المتكلّف ، وقالت : « إنها تُطري ذوقك دائمًا . »

وأطلقت ضحكة صارخة مفزّعة ، اهتزّت لها أوصالي سخطًا ومَضَضًا . لقد أضاعت والدتي بهذه الضحكة ، كلَّ ما كسَبَتْه من كرامة بتحفُّظها

(١) يفغم : يملأ .

وأرستقراطيّتها المصنوعة أثناء الحفلة . وتشاغَل الباشا لحظة بإصلاح رِباط رقبته ؛ كأنه يتغاضى عمّا وقع ، ويتظاهر بأنّه لم يشعر به ، ثم ألفيناه يصيح بسائق سيارته ، فأقبل بالسيارة على عجَل ، فطلب إلينا الباشا أن نركبَها لتبلغَ بنا المنزل ، فأبدينا الاعتذار ، فأصرَّ على أن نركب .

وبينما نحن في بعض الطريق تمضي بنا السيارة ؛ إذ قالت لي أمي : « هل تعلمين كم جنيهًا دفع شريف مهرًا ؟»

« لا أعلم .»

« سمعت أنه دفع ألفين .»

« ألفين ؟ مهر كبير .»

« هذا فضلاً عن السيّارة وغيرها منَ الهدايا والطُرَف .»

فقلت : « سنية تستحق أكثر من هذا .»

وغشِينا الصمتُ فترة .

وعادت أمي تقول: « أ شهدتِ صاحبَك حمدي ؟»

« لمحتُه من بعيد .»

« لو كنتُ مكانه لرحمتُ نفسي من الحضور .»

« لمَ ؟»

« أ لم تُشاهدي حلّته العجيبة الّتي بدا فيها كأنه ألعبان ؟»

« يظهر أنه لم يدّخر ملبَسًا لمثل هذه الحفل . كلٌّ امرئ وما عنده .»

« ما دام المرء لا يجد لديه ما يليق فليحفظ كرامته ، وليعتذر ترفُّعًا بنفسه عن أن يكون أضحوكة بين الناس .»

وكانت أمي تُلقي بهذه الكلمات جُزافًا ، غافلة عمّا هي عليه من رِداء ملفّق ، وزينة بدت فيها كأنها إحدى المهرّجات في دور اللّهو الرخيصة والمسارح المبتذَلة .

— ٣٧ —

في صبح غد جاء حمدي يزورني ، وما كاد يفرغ منَ التّحية حتى قدّم لي ظرفًا وهو يقول: « أ لم أخبِرْك بأني أعِدُّ لك مفاجأة ؟»

« أية مفاجأة ، يا حمدي ؟»

فقال وعينه ينبعث منها وميض ابتهاج وفرح :

« خُذي الظّرف فانظري ما فيه .»

ففضضت الظرفَ فألفيت ورقتين من فئة عشرة الجنيهات ، فقلت له وأنا أقلّبهما بين يدي : « كيف حصلتَ على هذا القدر ؟»

« لا تسأليني كيف حصلت عليه . ثقي أنه من خالص كسبي . تقيّدت بدروسٍ أعطيها ، وهذا مقدّم الأجر .»

« أخشى أن تكون قد تورّطت .»

« لا تورُّطَ في الأمر .»

وأقبلَتْ أمي في هذه اللّحظة ، فحيّتْ حمدي على البعد تحية في ترفّع ، وهمهمت : « أخشى أن أكون ضايقتكما بحضوري . على أية حال لا أريد أن أكون فضولية أكشف سرّكما . ولكن ما هو وجه التورّط الّذي كنتما تتحدثان في شأنه ؟»

فقال حمدي في تأتأة ، وقد انهال على يديه يفرك إحداهما بالأخرى : « لقد جئتُ لسلوى بقدر منَ النّقود تؤديانه إلى الباشا من حساب القرض .»

و وقعت عين والدتي على الورقتين الماليّتينِ في يدي ، فشمختْ بأنفها ، وقالت في ازدراء :

« إن حساب الباشا معي ، وأنا عنه مسئولة . لا

تُجهدْ نفسَك في هذا الشأن ! سأؤدي للباشا كل ما علينا حتّى لا يبقى له شيء .»

فأجاب حمدي وهو يمسح وجهه بمنديله الملوّن الرخيص : « أعلم ذلك ، ولكنّي أقدم هذه النقود يحدوني ما بيننا من صداقة و وداد . وقد واعدتُ سلوى أن أشترك بنصيب في أداء هذا الدّين .»

فقالت والدتي وهي على حالها من التنفخ والتشامخ : « شكراً ، شكراً ، ولكن هل تعرِف مقدار الدّين الذي يجب أن نردّه إلى الباشا ؟»

« لا أعلم على وجه التحقيق ، ولكن أعِدُ بتقديم قدر آخر في فرصة آتية .»

وازداد وجهه احتقانًا ، وسبَح على جبينه العرقُ ، وبدت يداه كأنما قد صُبَّ عليهما ماء غزير . وأشاحت والدتي عنه ببصرها وهي تقول :

« وعدني وكيل أعمالي أن يحضر لي قدراً وافراً من دَخْلي ، وسأؤدي إلى الباشا دَينه دُفعة واحدة . إذا احتجنا إلى شيء أخبرناك . نشكر لك . لا تتعب نفسك .»

وتناولتْ من يدي الظّرفَ بما حوى ، وقدّمته إلى حمدي ثم حيّته في كبرياء ، وانصرفت منتفشة تتهادى . أمّا حمدي فقد تناول الظرف ، وجعل يفركه بين كفيه ، فأقبلتُ عليه ، وقد آلمني ما بدا فيه من حال يُرثى لها ، وقلت :

« لماذا لا تُبقي هذا القدر عندك لشئون الزواج ؟ أمامك تكاليف كثيرة تقتضيك إنفاقًا .»

فغمغم يقول مطأطئ الرأس :

« أيّ زواج تعنين ؟»

« ألستَ مزمِعًا الزّواجَ ؟»

« كلّ الإزماع .»

« إذن أبقِ النقود لهذا الغرض ؛ إننا في حاجة إليها .»

فرفع بصره بغتة وعيناه تلمعان تطلُّعًا وحيرة ، وقال مردّدًا : « إننا ؟ إننا ؟ أ جادّة في قولك أنتِ ؟»

« كلّ الجدّ .»

« إذن أنتِ راضية ؟»

« لم أرفض مطلبك يومًا .»

فنظر إليّ في غمرة منَ الدّهشة والذهول ، وبقي على ذلك هُنيهة ، ثم أسرع هابطًا على يدي يغمرهما بقبلات مضطربة جيّاشة .

— ٣٨ —

في أصيل اليوم التالي ، وأنا في حجرتي مقبلةٌ على ثوب أرتُقُ فيه بعض الفتوقِ ، بلغ مِسْمَعي بوقُ سيارة يتردّدُ صوتُه عاليًا كأنّه يشعرنا بقدوم زائر . وكان صوت البوق غريبًا عليّ ، وما هي إلا لحظة حتّى أقبلَتْ والدتي في أتم زينة وزخرف ، وابتدرتني في اهتمام بقولها :

« الباشا ... حضر الباشا لزيارتنا . سأنزل إليه فاتبعيني .»

ومضت مسرعة ، فعجبت لهذه الزيارة ، وقرّ في ذهني من قرائن الأحوال — الساعة — أن والدتي كانت تتوقّع قدوم الزائر ، أو أن الموعِد كان مدبّرًا بينها وبينه.

فطويتُ ما بين يديّ ، ونهضت أرتدي ملبسًا آخر متأهّبة لاستقبال الضيف ، ثم هبطت إلى رَدهة الطبقة الأولى ، فبدا لي أن الباشا و والدتي مشغولان بأمرٍ ذي بال يخوضانِ في حديثه ، وما إن رأياني حتّى أمسك كلاهما عن الكلام .

وإذا بالباشا ينهَض للقائي باسِمَ المحيّا ، فلمّا تصافحنا أسرع بتقبيل يدي ، وتطارحنا أحاديث مألوفة في شأن سنية وعرسها ، ثم التفتت إليّ والدتي تقول :

« الباشا يدعونا اليوم إلى الشاي في « مينا هاوس » .»

فبادر الباشا بقوله : « أ تقبلين دعوتي ؟»

« لا أستطيع أن أرفض . الأمر إليك .»

« إذن هيّا .»

وخرجنا ، فألفيت أمام المنزل سيارةً ذات أربعة مقاعد ، تتمثل فيها الفخامة والجمال ، وهي من نوع السيارة الّتي أهداها شريف إلى عروسه ، فقلت على الفور : « إنها سيارة جديدة .»

فابتسم الباشا وأخذ بيدي يدور بي حول السيارة ، وهو يقول :

« وهل كنتِ تحسَبين أنّي أقدّم لك سيارة مستعمَلة ؟»

فوقفت مبهوتة أنظر إليه وأنا أهمهِم :« تقدّم لي !»

وتدانت أمي منا قائلة :

« إن كرم الباشا قد جاوز الحد . هذه السيارة هدية منه إليك .»

« هدية إليّ ؟ ولكن ، يا عمي ...»

فقاطعني الباشا قائلاً : « أ تعجبك السيارة أم لا تعجبك ؟»

فقالت أمي متضاحِكة : « هلُمّا ؛ خَشيةَ أن يضيعَ الوقت .»

وقال الباشا موجّهًا حديثه إليّ : « إن السائق سيكون في خدمتك ، وقد وجدنا مأوًى للسيارة قريبًا منَ المنزل .»

وجعلت أحدّق في السيارة لا أكاد أتمالك من الدّهشة والذهول .

ولَمّا تقدمت أركب سارع الباشا إليّ يساعدني ، آخذًا بذراعي في رشاقة وحِذق . حقا ما أرقّ هذا الرجل ! وما أظرفه !

وتحرّكت بنا السيارة إلى « مينا هاوس » ، وانطلق الباشا في حديثه البهيج ، وأنا أردِّد النظر حولي في غِبطة فائقة .

ولَمّا بلغنا « مينا هاوس » ألفينا المكان عامرًا بالرُّوّاد . وسبقتنا والدتي في مشيتها الأرستقراطية المصنوعة ، والباشا آخذٌ بيدي خلفها. وتخيّرنا مِنضدة بين الخمائل . ولَمّا قَدِمَ أحد النُّدُل ، مال عليه الباشا وأوضح له ما يريد ، ثم التفت إليّ قائلاً :

« لقد تطفّلْت عليكما ، فأذِنت لنفسي في أن أختار لكما الطلبات ؛ فهل أخطأت ؟»

« معاذ الله ، يا عمي ! ذوقك مقبول .»

وبعد هُنيهة قَدِمَ أحد النُّدُل بالشمبانيا . وتولّى الباشا إتراعَ (١) الكئوس . ولَمّا قدّم لي كأسي تمنّعْت قائلة : « لا أستطيع ، أعذرني !»

فقال الباشا من فوره : « لماذا لا تستطيعين ؟»

والتفتُّ إلى أمي بنظرة خاطفة ، فقالت لي : « يجب ، يا ابنتي ، أن نساير المجتمع الّذي نعيش فيه. لكلِّ زمان حال . أ تريدين أن يضحك منّا الناس ؟»

وخطر ببالي موقف والدتي منّي قبل أشهُرٍ مضت ، حينما كان معنا الأستاذ رجائي ، فأصرّت على أن تطلبَ لي شراب اللّيمون .

وسمعت الباشا يقول : « أ تظنين أنّي أقدّم لك شيئًا لا يناسب ؟»

« عفوًا ، يا عمي ! ليس هذا قصدي ، إنما ...»

فقال الباشا وهو يُدني الكأس من يدي :

« اشربي ، اشربي . كلُّنا سنشرب .»

وأخذ هو وأمي يكرعان من الشمبانيا ، فلم أجد بدًّا من تناول كأسي . وأحسست أن مذاقَ الشرابِ ليس بالكريه ، ولكنّي شعرت بحرارة تسري في أوصالي .

(١) إتراع : مَلء .

واندفع الباشا يبسط أحاديثه العِذاب . وتابعنا الشراب جُرعة بعد جُرعة ، وعزفتِ الموسيقى ، فنهض الراقصون إلى مَدار الرقص ، فرأيت الباشا يأخذ بيدَيْ والدتي فيراقصها في دور قصير ، ثم عاد بها وتقدَّم إليَّ من فورِه ، فأخذني إلى الحلقة ، فجعل يراقصني دورًا كان فيه بالغَ الرِّقة والأدب . وعدنا إلى المِنضَدة ، فاستأنف الباشا أحاديثه اللِّطاف مَرِحَ الرُّوح ، جذَّاب الفكاهة ، سريعَ النُّكتة . وجعلنا نجرَع من كئوس الشمبانيا ، والموسيقى تصدَح بأنغامها لا تهدأ . وأحسست بوجهي يلتهب ، وبالحرارة تشيع في جسدي كلِّه . وآنست من نفسي جرأة على التبسُّط في الكلام ومطارحة النُّكات . وقام الباشا يراقصني مرة ثانية ، فشعرت بوجهه يكاد يلمس خدِّي ، وبذراعه تلتفُّ على خاصرتي وتضمني إليه ضمَّة اشتياق ، فلم أجد فيما يصنع غضاضة (١) . فهكذا الناس حولي يراقص بعضهم بعضًا في مؤانسة وملاطفة ، وقد طرحوا عن كواهلهم شيئًا من قيود التحفُّظ والكُلْفة . وألفيتني أزداد غِبطة وابتهاجًا ، فانطلقت أتضاحك مسترسِلة في بُحبوحة منَ المرح .

وفي الدور الثالث من الرقص سمعت الباشا يهمس في أذني :

« شدَّ ما أنت جذابة ، يا سلوى ! »

فراقني ما يطربني به ، وقلت : « أ تراني كذلك حقا ؟ »

« أنتِ فوق ما أصف ... بديعة أنت ... دُرَّة هذا الحفل . »

وكان المرقص يَزخَر بالغِيد المِلاح ، فمِلْت على الباشا أداعبُه ، وأتحدَّث إليه في تدلُّل . وعُدنا إلى المِنضدة ، فألفيتُ أمي تُفرغ في فمها جُرعة وافية منَ الكأس ، فصحت بها :

« أ لا تخشين على نفسك أن تثمَلي ؟ »

فأجابتني متضاحكة : « يا لك من غريرة ! أنا أثمل ؟ لو شربت نهر النيل شمبانيا ما ثَمِلت . »

و وجدتُني أواصل الضَّحكات ، والباشا مبتهج بي جذلان . ولاحظت أنه يبادل أمي نظرات تنطوي على شيء ، فقالت على الأثر : « لقد كانَ الباشا ظريفًا في دعوته إيَّانا اليوم . إننا نطمع أن يتفضَّل بقبول دعوتنا إياه إلى تناول الغداء بعد غد . »

فأجاب الباشا : « إنِّي أقدِّر عواطفَك الكريمة وعواطف سلوى أيضًا ، ولكن لِمَ هذه الكُلفة ؟ »

فقلت له : « أيُّ كُلْفة ؟ أنتَ منَّا ، بيتُنا بيتك . »

« سأحضُر نزولاً على هذه الرغبة . »

ومال عليَّ يقول : « أيُّ ألوان من الطعام تختارين لي ؟ »

« ما تريده ، يا عمي . »

« لا بد أن تتولَّيْ أنت نفسُك إعداد لون من ألوان الطعام . »

« ولكنِّي أخشى أن أفسِدَ عليك الغداء بهذا اللَّونِ الَّذي أعدُّه . »

« لن يعجبَني لونٌ سواه ، ذلك ما أؤكِّده . »

« أنت المسئول إذن . »

وصِحْت متضاحِكة ، وصاح الباشا وأمي يتضاحكان .

وقضينا وقتًا نقصِف (٢) ونسمُر ونرقُص ، وكان حقا من أطيب الأوقات ، وأحفلِها بالبهجة والإمتاع .

وقفَلنا بالسيارة إلى المنزل . فما إن وافيناه حتَّى قال لي الباشا : « أ تسمحين لي بأن تُقِلَّني سيارتُك إلى منزلي ؟ »

(١) غضاضة : عَيْب .

(٢) نقصف : نُقيم في اللهو واللعب والشراب .

فقلت له مبتسمةً والنشوةُ تهزُّني : « لا ، لا أسمح لك . »

فانثنى على يدي يقبِّلها في حرارة ، وقال :

« يَسعني في سبيل إنفاذِ أوامرِك أن أمشي راجلا ليلة كاملة . »

فقالت أمي وهي تنظر إلى الباشا مُشْعثَةَ الشَّعْر ، محتقنَةَ الوجه ، تحاوِل أن تسويَ من هِندامها :

« اِركَبْ ، اركب . لو تركتكما تتحدَّثانِ على هذا النحو لَبقينا أمام الباب حتَّى الصباح . »

ثم التفتت إلى السائق ، وصاحت بلهجة الآمِر :

« لا تنسَ أن تحضر في التاسعة صباحًا ، التاسعة بالضبط ، لا تُبطئ . »

وما كادت حجرتي تحتويني حتّى أحسستُ تثاقُلا يُقعدني ، فرميت على السرير جسدي ، لم أخلع شيئًا من ملابسي . وسَرعان ما أخذ الكرى بمَعاقِد أجفاني.

— ٣٩ —

لم أصحُ من نومي صباحًا إلا بعد العاشرة ، وما كِدت أستيقظ حتّى هُرِعت إلى النافذة أتبيَّن : أجاءت السيارة ؟ فلمحتُها بالباب .

وخرجتْ بها أمي قبيل الظُّهر ، ولم تعد إلا في منتصف اللّيل .

وقد ضايقني ذلك منها كل المضايقة ، كيف سمَحت لنفسها أن تستخدم سيارتي على هذا النحو ؟

وفي صبح اليوم التالي ، يوم غداء الباشا ، قلت لأمي : « ماذا أعددت لضيفنا من طعام ؟ »

« أعددت ألوانًا كثيرة ، لا عليك من هذا . »

« ولكن ليس لدينا أدوات المائدة ؛ الصِّحاف معظمُها لا يليق . »

« لا تُلقي لذلك بالاً ، لقد أعددت كل شيء . »

« ومن الَّذي يطهو الطعام ؟ »

« طلبت الألوان من جروبي . سيكون غداء فاخرًا ، اطمئني . والآن عليَّ أن أخرُج لأتفقَّدَ ما سيحضِره جروبي . سأعود قبل الموعد . »

« وأين أم يونس ؛ إني لم أرها اليوم ؟ »

« خرجت تزور ضريح الست أم هاشم . »

« لم تخبرني بذلك . »

« لقد أخبرتني أنا ، وقد أذنتُ لها في الذَّهاب . »

وتدانت منّي وهمسَتْ قائلة : « يجب ألا تظهر هذه الشوهاء المهدمة في دعوة كهذه . إنها تفضَحُنا بلا ريب . لقد طلبتُ خادمًا لائقًا من جروبي . »

وارتديت ثوبًا أنيقًا ، واتخذتُ زينتي مهتمَّةً أشدَّ اهتمام ، ثم لبثت أنتظر .

وساورتني الحيرة والقلق حين دقت الساعة الثانية عشرة ، ولم يجئ من جروبي شيء ، ولم تكَدْ تدقُّ الساعة انتصاف الواحدة حتى أقبلَتْ على باب المنزل سيارة ، وإذا بالباشا ينزِل منها ، فدخل البهو وخلفَه خادم حسَن البزَّة يحمل عدة لفائف .

وقال الباشا وهو يحييني : « لقد أعطتني والدتكِ هذه اللَّفائف ، وطلبت إليَّ أن أسبقها إلى المنزل . »

وأمر الخادم بأن يعدَّ مائدة الطعام في حجرة الزوّار ، وأخذنا نحن الثلاثة نفضُّ اللَّفائف ، ونرتِّب محتوياتها في الصُّحون والصِّحاف . وكانت حقا مائدة حافلة بشتّى الألوان الطريفة المغريَة .

وقاربت الساعة منتصفَ الثانية ، فالتفتُّ إلى الباشا أقول : « لم تحضر والدتي بعد . إني متأسِّفة . »

فلاطف ذقَني ، وقال : « ننتظر ربع ساعة فقط ، و إلا فليس لغائب نصيب. ما رأيك ؟ »

وانطلق يدور حول المائدة ، وهو ينتقي لي ولنفسِه

بعضَ المُشهّيات ، ويقول : « يمكننا أن نتسلّى بهذه الطرائف . »

و وجدت الخادم يصفُّ قنانيَّ الشمبانيا ، فملأ الباشا قدحًا وقدمه إليَّ ، فلم أرفضه .

وجلسنا إلى المائدة ، وشرعنا نتناول منَ الطعام ومن الشراب .

وأشار الباشا إلى الخادِمِ ، فانصرف عنّا دون رجعة . وانقضى ربع الساعة دون أن يظهر لوالدتي من أثر ، فقلت : « يا عجبًا ! ماذا أبطأ بها ؟ »

فصاح الباشا قائلاً : « عقابها ألا ننتظرَها . »

ثم ربت يدي ، وقال في صوت ليِّن المكاسر :

« هيه ، يا سلوى ، ألا تأنسين بوجودي ؟ »

وكنا قد أصبنا من الطعام نصيبًا غير قليل ، وبدأ الشراب ينعشني ويبعث فيَّ نزعة المرح والتبسّط ، وقلت :

« إذا تأخّرت والدتي فلن تجدَ شيئًا تأكله ، كذلك أرادت لنفسها . »

فأغرق الباشا في الضحك وهو يقول :

« لن نُبقيَ لها شيئًا ، هيهات ! »

وأخذ يمتلخ (١) من صدر الديك الرومي قطعة بعد قطعة ، وهو يقدمها إليَّ قائلاً : « كُلي ، لا تُبقي لها شيئًا . »

وقام إلى المِذياع فأدار مِفتاحه ، فانطلقَتْ أنغامُه شجيَّة تبعث الطرب والإيناس . وما هي إلا أن أخذ الباشا يراقصُني ، فاستجبت له .

وامتدَّ بنا الوقت نطعَم تارةً ، ونشربُ تارة ، ونرقص أخرى . وأخذت أحسُّ بما للشّراب من نَشْوَة ، وكِدت لا أعي ما أصنع ، ولكنّي أذكر أنّي كنت شديدة الابتهاج ، أُكثِرُ من الضّحِك ، وأفسح المجال للباشا يداعبني مداعبات لا تخلو من جرأة ، حتّى إنه حين انتهبَ قبلةً حافلة من فمي لم أجِدْني بقادِرةٍ على التمنُّع . وأحسست بأني أفقِد السّيطرة على مشاعري .

— ٤٠ —

عسير عليَّ أن أتعرَّف شعوري نحو الباشا وأن أتبيّنه على وجه الدقّة . لقد انقضى الآن نحوُ شهر وأنا أحيا حياة غريبة ، حياة تبدو جديدة ، كأنها طفرة من حال إلى حال . أ تُراها حقا طفرة ، أم هي في الواقع نتيجة محتومة لملابسات مرَّتْ بي شيئًا بعد شيء ؟ وعلى الرغم من أن علاقتي بالباشا قد توثّقت جوانبها وتوضّحت معالمها ، وأضحى الأمر بيني وبينه لا غموض فيه ولا خفاء — فإنّي كنت أحس بأني أضرب في عُبابٍ جيّاش (٢) يجذبني تيّارُه قسرًا إلى حيث لا أدري . أحِسُّ بأن ضبابًا يكتنِف حياتي فلا أستطيع أن أرى وسْط هذا الضباب المتراكم إلا اليوم الّذي أعيش فيه ، أمّا الغد فليس إلى استشفافه أو التفكير فيه من سبيل . وأيقنت أن ثَمَّة حافزًا خفيا يدفعني إلى أن أمضِيَ قُدُمًا في هذه الحياة الجديدة لا حيلةَ لي في تغيير أو تبديل .

إنه قَدَر مكتوب على الجبين .

وأكاد أقرِّر أن عواطفي قد صبغتها مَسْحة من التبلُّد ، وكأني أعيش متأثِّرة بمخدر لا إفاقة منه . فما كنت أحس في حياتي الجديدة تذمُّرًا أو استنكارًا يثير فيَّ روح المقاومة ، ولم أكن لأضيقَ إلا بما تبديه أم يونس نحوي ؛ فقد كانت كُلّما رأتني رمقتني في صمت مفزِع ، و وجهها مُربَدٌّ عَبوس . ولم تكن تطارحني الحديث إلا حين تدعو الحاجة القصوى ؛ فكنت أحرص دائمًا على تجنُّب مَرْآها . وأذكر أنها اقتحمَتْ عليَّ حجرتي مرةً ، وأنا أمام المرآة أتعطّر ،

(١) يمتلخ : يقتلع.

(٢) عُباب جياش : سيل متدفّق .

فوقفت تحدجُني بعين حامية وهي صامتة لا تنبس، و وجهها هو هو ذلك الوجه العَبوس المنطوي على التأفُّف والاستنكاف . ولَمّا طالت وقفتها على هذه الحال قلت لها ، وأنا أتشاغل بزينتي : « خيرًا ، يا أم يونس ؟»

فتدانت منّي بقوامها الأعجف الناحل ، وكأنما ازداد وجهها طولاً وبرزت عظامه أكثرَ من ذي قبل ، وإذا قاربتني همهمتْ بَحّاءَ الصوت : « نصيحتي إليك، يا سلوى ، أن تسارعي إلى الزواج . تزوجي ، تزوجي أيَّ شخص ؛ حتمًا أن تتزوجي . اللّٰه ستار !»

فشعرَت بيديَّ ترتجفان وأنا أصفِّف شعري ، و وجدتُني كأن حرابًا من الإذلال تغتالني ، وانعقد لساني فلم تنفرج شفتايَ عن جواب . وزايلت المرأةُ حجرتي في مشيتها الوئيدة الزاحفة ، فما إن استيقنتُ أن ظِلَّها قد انقشع عن الحجرة ، حتّى هُرِعتُ إلى الباب فأغلقته بالمِفتاح .

وقصَدْتُ من فوري إلى النافذة أفتحها وأستروح منها نسيمًا يلطِّف ما أنا فيه من وَقْدة الألم والضيق .

أمّا أمي فلم يكن لها من مَشْغَلة إلا ركوبُ السيارة الجديدة . ولطالما نشبت بيني وبينها المنازعات في شأن هذه السيارة واستخدامها إيّاها صباحَ مساء . ولَمّا انتهى إلى الباشا أمر هذه المنازعات ؛ اتّفق مع والدتي على أن تستخدم في تنقُّلاتها إحدى سياراته القديمة ؛ فأصبحت سيارتي لي وحدي ، لا يركبها سواي .

وشهد بيتنا عهدًا جديدًا من اليُسر والرَّخاء ، فغُصَّت الأَصْونَة بالملابس على اختلاف ألوانها وأزيائها ، ولا سيَّما صِواني الّذي زخرت فيه المَشاجب بفاخر الأثواب . أمّا البيت في بنائه المنقضُ وأثاثه البالي فلم يجدَّ فيه جديد . وكذلك لم تتبدَّل حياتنا الّتي كنّا عليها من قبل – حياة مهوَّشة لا نظام فيها ولا تنسيقَ ، فكثيرًا ما طلبت الفَطور ، فلم أجد شيئًا يُستساغ .

وكذلك أصبحَتْ أم يونس لا يعنيها من أمر المنزل كثير ولا قليل .

وقد حدَّثت أمي في الانتقال إلى مسكن آخر يلائم ما نحن فيه من عهد جديد ؛ فزرنا عدة منازل نستطلع ونتفرج ، ولكننا انتهينا إلى البقاء في ذلك الجحر الخرِب ، نحيا حياة الفوضى والإهمال .

ويومًا وردتني من لندن صورة الدكتور فهيم بعث بها تحية إليَّ ، فلبِثْتُ أتوسَّمها مليا وقد حوَّمت في خاطري أسراب من الذكريات ، وأحسست حنينًا ينبعث من قلبي نحو الصورة . وجعلت أردد الكلمات الّتي كان يُلقي بها الدكتور فهيم إليَّ ، يطلب فيها أن أعوِّل عليه وأن أعدَّه ظهيرًا لي فيما يكون من أمري . وأطلت النظر إلى الصورة ، وقد لمحْتُ لي تلك المَشابه الواضحة بين شريف والدكتور فهيم : نظراتُهما ، قسمات وجهيهما ، بسماتهما . وحانت مني نظرة إلى ظهر الصورة ، فقرأت كلمات يخبرني فيها الدكتور فهيم بأن إقامته في إنجلترا ستطول شهورًا أخرى ، وقد تمتدُّ عامًا ؛ فألفيت يدي تقذِف بالصورة في دُرج مكتبي .

أمّا حمدي فقد أقلَّ من زوراته ؛ إذ كان يستنفد وقته أجمعَ عاملاً على التكسُّب ليوفِّر لي النقود ، فإذا لَقِيني ألقى عليَّ نظراتِ قلقٍ وحيرة ، كأنما يجيش صدره بمعانٍ يخشى أن يُفصح عنها لسانه . ومرة قَدم المنزِل فطفِق يجفف عرقه كعادته وقتًا ، ولاحظت أن حديثه مهلهل غير متساوِق ، وأنه يوجِزُ في القول ما وَسعه الإيجاز ، وأن يده راعشة لا يستقرُّ لها قرار . وبَغْتة قطع مَجرى الحديث ، وقال متهدِّج النبرات :

« لا أستطيع الإغضاء (١) فوق ما أغضيت ، دعيني أفصح ، لقد ترامت إليَّ أنباء شاع ذكرُها واستفاض ، لست لها بمستيقِن ، ولكنّي أريد منك أن تُصْدِقيني القول .»

---

(١) الإغضاء : السكوت .

فقلت وأنا متمالِكة هادئة النفس : « في أيّ قول أصْدقُكَ ؟»

« برأيك فيما يتناقله الناس عنك .»

« لا أفهم ما تعنيه !»

فنكس رأسه ، وهمهم في تَلَعثم : « الباشا ، الباشا.»

فقطبتُ جبيني ، وقلت في شيء من الخشونة :

« أوضِح ! الباشا ، ما له ؟»

فأخذ يعبث بأزرار حُلَّته وقتًا ، ثم وجدته قد رفع بصره إليّ ، وقال في نبرة تشوبها حدّة : « يجب أن تؤثري أحدنا على الآخر .»

فاندفعَتْ مني قهقهة توضّحتْ فيها الزّراية والترفُّع ، وقلت : « لا وجه للمفاضلة بينكما !»

« إذن أنت تؤثرينه ، أنت تحبينه .»

« زِنْ كلامك ، يا حمدي ، قبل أن تتفوّه به .»

فانبرى يقول في حَمِيَّة :

« حقا ، لا وجه للمفاضلة بيني وبينه في نظرك ، ولكن قيمتي في نظر العقلاء أكبر من قيمته . حسبك منّي أن قلبي يفيض لك محبة وإخلاصًا و وفاء .»

وأخذ يقرع صدره بيده ، ويقول :

« أنا أفضل منَ الباشا مائة مرة ؛ إنّي لا أخادع النساء ، ولا أشتري قلوبهن بالمال . إني رجل شريف ، أمّا الباشا فهو رجل خدّاع أثيم !»

وتقلَّصَتْ عضلات وجهه ، و تشنجَتْ يده ، فارتعت لمرآه وخشيت أن يتمادى في ثورته ، فأقبلت عليه أهدئ من رَوعِه متلطِّفة في لباقة ؛ فقال وقد سكت عنه الغضب شيئًا :

« ثقي أنّي لا أغار منَ الباشا ولا سواه ، ليست شخصيته بذات شأن ، ولكن يسوءُني ويحزُ في قلبي أن أراك مسوقة في هذا التيار .»

« أيُّ تيار ، يا حمدي ؟ اسمح لي أن أعاتِبك على هذه الظنون . أ تستبيح لنفسك مهاجمتي ظالِمًا لي ؟»

« إن الناس يتقوَّلون عليك كثيرًا منَ الأقاويل .»

« إنها ألسِنة السُّوء والإفك .»

« إن هِباتِ الباشا لا ينقطع لها وِرْد .»

« الباشا ، يا حمدي ، في منزلة أبي ، وهو يَعُدُّني ابنته . لا تحسبَنَّه أكثر من رجل بنا عطوف . يا لله ! كيف يؤوِّل الناس .مشاعر الشفقة والحنان ؟ ولكنني لن ألقيَ لهذه الظنون بالاً ، حسبي أني مطمئنَّة الضمير .»

ولاحظت أن حمدي قد تأثر بما قلته ، فاستأنفت متحمِّسة أقول : « حقا ما كان يقع في وهمي أنك أنت تسيء الظن بي ! أنتِ الّذي أعُدُّك لي أخًا صفيا ، أ ألقى منك هذه الإهانة ؟»

« إهانة ؟ معاذ الله !»

« إذن أنا في نظرك فتاة وضيعة ؛ فلماذا لا تقطع صلتك بي ؟»

« وهل قلتُ شيئًا من ذلك ، يا سلوى ؟ إن كان قد سبق إلى وهمك ذلك فسامحيني .»

وظللتُ غَضْبى أمسح عينيّ ، فرأيته يقترب مني متذلِّلاً يقول :

« إن حبي إيّاكِ يغطّي على بصري ؛ فلا أتبيَّن الحق من الباطل .»

« لم يكن يقع في وهمي ، يا حمدي ، أن يجيء يوم أكون فيه موضع اتهامك !»

« عفوًا ، عفوًا .»

وانتهت هذه المهزَلة ، أو بالحَرى (١) هذه المأساة ، بأن عادت فسحة الأمل تفتح أبوابها لقلب حمدي ؛ فانهال على يدي بقبلات حَرّى ، وانصرف مشرِق الجبين ، مُثلَج الفؤاد .

(١) بالحرى : بالأجدر .

— ٤١ —

رحل شريف وسنية بعد العُرس إلى سويسرا يقضيان هناك ثلاثة أشهر ، وكانت تصل إليَّ من سنية تِباعًا بطاقات تُغدِق عليَّ فيها القُبلات والتحايا . وهي بطاقاتٌ مصوَّرة تمثِّل الزوجين السعيدين في أوضاع مختلفة وملابسات شتّى: في الفندق ، في الجبل ، في الغابة ، بجوار النَّبع ، في الحدائق العامة .

وكانت ملامح سنية في الصُّورة تنطِق بأقوى الحب لعروسها الشابِّ ، أراها دائمًا متعلقة بشريف ترنو إليه في هُيام ، وابتسامتها ترفُّ على مُحيّاها وَضيئةً بهيجة ، بَيْد أنّها كانت في هذا كلّه تبالغ وتغلو . أمّا هو فكان عظيمًا رائعًا في رجولته ورزانته ، وكانت نظرته إليها نظرة إلى طفل مدلَّل .

وإني أصارِح بأن هذه البطاقاتِ كانت تثير فيَّ مشاعرَ متشابكة غامِضة ، وتسلمني إلى سهوم وانقباض . كِلتانا لها رجل تعيش في كنفه ، ولكن أيّ رجل هذا الذي هو لي ؟ وأية حياة تلك الّتي أحياها معه ؟

وذات صباح رَكِبْتُ السيارة مع الباشا قاصِدَيْن الفيوم ، نستمتع بنزهة خلويّة . وعلى الرَّغم من أن كلَّ شيء كان يبعث على البهجة ويُغري بالمَسرَّة ، فإنّي كنت أجدُني يمتلِكُني الضيق ويسرع إليَّ الاغتمام . وكان يتراءى لي في الفينة بعد الفينة طيف سنية وشريف وهما يتنزّهان معًا في ربوع سويسرا . وقد قضيت اليوم مهتاجة الأعصاب ، لا أحسُّ مُتعة في شيء مما يدور حولي . أمّا الباشا فقد كان كثير الاحتمال صبورًا يلاطفني ويحاول عبثًا أن يُرفِّه عنّي . وطالما سألني ما عِلّة ضجري ، فلم يظفر منّي بصريح من الجواب .

ولَمّا أُبْتُ إلى المنزل علِمْت من والدتي أن أم يونس قد نقلوها إلى المستشفى ؛ إذ أصيبت بالفالج (١) وأصبحت في أسوإ حال ؛ فكانت مفاجأة ارتاعت لها نفسي وزادتني هما إلى همٍّ .

وفي الغَداة اعتزمتُ أن أذهب لعيادتها في المستشفى ، ولكنَّ دافعًا خفيا عاقني ، وقضيت اليوم قلِقَة حيرى . وما كاد النهار يدبر حتّى جاءنا نعيُ أم يونس ؛ فانفطر قلبي لهذا الخبر ، وانتابني بكاء وعَويل .

وكانت ليلتي مضطرِبة جيّاشة بالآلام والذكريات، لا يكاد يغمض لي جفن ، حتّى أستيقِظ متفزِّعة ، يتراءى لي شبح هذه المرأة في مختلِف أدوار حياتها معي . وكان يخيل إليَّ أن صوتها ما زال يردِّد على سمعي جملتها المعهودة : « تزوجي . تزوجي أيَّ شخص . حَتْم أن تتزوجي . اللهُ ستّار ! »

وتتابعت أيام ، وثاب إليَّ هدوئي ، وأحسست أن عبئًا قد انزاح عن كاهلي ، وأن الدُّنيا قد انفسحت أمامي ، حتّى إنّني حين لقيت الباشا أبديت حفاوة بالغة بِمَقْدَمه ، ولم أحجِمْ أن ألقي بنفسي في صدره ، وأنا أقول : « قبلني ، قبلني . »

فنظر إليَّ جذلانَ ، قائلاً : « إن شيطانك اليوم غائب ! ليت هذه الحال تدوم ! »

وضمني إليه ، وطبع على خدّي قبلة حافلة .

أذكر أنّي لم أقصد إلى الجبّانة لأزورَ قبر أم يونس ، ولكنّني لم أغفل عن واجبي نحوها ، فأوصيت بعض مشاهير القُرّاء بتلاوة ختمة كريمة توهَب لروحها، ولهذا الغرض أمرت كذلك بتوزيع الفطائر والفاكهة على الفقراء والمعوزين ، وشملتني الطُّمأنينة والسكينة بهذا الصنيع .

---

(١) الفالج : الشَّلَل .

— ٤٢ —

تزوجتُ حمدي . وإذا سألت نفسي على أيِّ وجه تم ذلك ؛ لم أستطع أن أجيبَ . تمَّ الزواج في مفاجأة غريبة أذهلتني أنا نفسي .

إن الضباب الحالك ما زال يعقد طبقاته حولي ، فلا ترى عيني من حياتي إلا اللّحظاتِ الّتي أحياها . إنها تلك اليد الخفية تدفع بي في الطريق الّذي تختاره هي لي ، لا الطريق الّذي أختاره أنا لنفسي .

كل ما أذكره من الأحداث المتساوقة الّتي انتهت بي إلى الزّواج ، هو أن حمدي زارني يومًا ، ففاتحني عرَضًا في شأن زواجنا ، فوجدتُني أقول له على الفور:

« إذا كانَتْ رغبتك في الزواج صادقةً فلا مانع عندي على الإطلاق .»

« لم تكن رغبتي إلا صادقة ، ولكنّك كنت تُماطلِين .»

« كانت هناك أسباب تدعو إلى التسويف والتأجيل، ولم يبقَ منها اليوم شيء .»

« أ جادّةٌ أنت فيما تقولين ؟»

« إذا رغبتَ في أن نبرم عقد الزّواج بعد يوم أو يومين فلا معارضة منّي .»

فحدّق في وجهي بُرهة ، وقال ، وقد حنى رأسه ، وأخذ يعبث ببعض أنامله : « ولكن المال ... لم أجمع بعدُ ما يكفي منَ المال لنفقات العُرس وما إليه .»

« هذا لا يهمّ ؛ إني لا أتزوجُك لمال . ما عندك اليوم كافٍ .»

« و والدتك ؟»

« أ رأيت أنك أنت الّذي تتصيّد أسباب التأجيل ؟»

فصاح : « أنا ؟ أنا ؟ إذن أنت تجدّين فيما تقولين.»

« إنك بطفولتك هذه تهيج أعصابي !»

فنهض ، لم يدرِ ما يفعل ، وجعل يدور في الحجرة مضطرِم النّفس يفرك يديه ، ويجفّف عرَقه ، ثم وقف قُبالتي قائلاً :

« انتهى الأمر ، غدًا يحضر المأذون ليكتب عقد الزّواج .»

ثم أمسك بيدي يهزها مغتبطًا أبلغَ الاغتباط ، وخرج مهرولاً يثب على الدّرَج بقوامه الطويل الهزيل على نحو أثار في نفسي شيئًا من الضّيق .

ولَمّا لقيتُ الباشا في « مينا هاوس » أنهيت إليه الخبر كأني أحدثه حديثًا لا يدعو إلى الاهتمام ، فاستمع إليّ ظاهرَ الهدوء ، وأجابني وهو يصبُّ الشاي في قدحي : « لقد أحسنت صُنعًا ؛ حمدي شاب طيّب .»

وعرَضت على فمه ابتسامة ، ثم ألفَيته يستغرق في صمت . ولَمّا صدحت الموسيقى نهض يراقصني ، وأمضينا الوقت على مألوف العادة : نشرَب ونرقُص ونسمُر . وقد خاض معي في أحاديثَ شتّى ، ولكن لم يجرِ لسانُه بكلمة حول نبأ الزّواج ، حتّى حان افتراقُنا، فودّعني بقبلة شعَرت بأنّها أشد حرارة وأحفل بالعاطفة العميقة من كل قبلاته السوالف ، واستبقاني على صدره وقتًا ، كأنه لا يريد أن يَدَعني ، ثم قال لي في لهجة وديعة : « بمناسبة حديثك في شأن زواجك ، يسرُّني أن تعلمي أني على استعداد لتلبية مطالبك الّتي تقتضيها الحال . ثقي أني في خدمتك دائمًا ، سأكون لك الصديق الوفيَّ أبدًا .»

وتلاقت نظراتُنا طويلاً ونحن صامتانِ وكأننا اتفقنا في عالم الصمت على كل شيء .

أمّا والدتي فلم تعارض في زواجي ، أو لعلَّ حقيقة أمرها أن الموضوع لم يشغل لها بالاً .

وبعد أسبوع من ذلك الحديث الّذي دار بيني وبين حمدي ، أقمنا حفلة العُرس ساذَجة المظهر . وبمحضر

منَ الباشا تمّتْ مراسِمُ الزّواج . وهيهات أن أنسى ما كان من سماحة خُلُقِه ! إذ أشرف بنفسه على إعداد هذه المراسم ، فهو الّذي استدعى المأذون ، ونثر العطايا والمِنح ، وهو الّذي وقف يتفقّد حمدي أثناء ارتدائه حلّةَ العُرس الجديدة ، حتّى لقد عقد له بنفسه رِباط الرَّقبة . ولا أخفي أن الحلّة على جدتها وبهائها لم تكن لائقة بحمدي ولا موافقةً له ؛ فبدا فيها كأنه أحد النُّدُل في المشارب والنوادي ، أو أحدُ ممثّلي المسارح الهزلية ؛ فأقبلت عليه مبتسمة ، وقلت له: «رائع أنت ، يا حمدي ، في هذه الحلّة !»

فابتسم المسكين في غِبطة ، وهو يهمهم : «حسبي رضاكِ عنّي .»

وانهال على يدي يزحمها بالقبلات .

وتحين خلوة بي ، فقال لي متحدثًا عن الباشا :

« لقد أسأتُ ظني بهذا الرَّجُل ظلمًا . لقد تكشّف لِيَ اليومَ عن نبل عظيم .»

ولم يكن لوالدتي همٌّ إلا أن تتعجّلنا ، وما أحسبُها إلا كانت على موعد تخشى عليه الفوات. وقبل أن تختم الحفلة دنَتْ منّا مسرِعة وهي تقول : « لا أريد أن أعطِّل العروسين ، مبارك ، ألف مبارك .»

وقبّلتني قُبلة خاطفة ، ومالت على حمدي تهمُّ بتقبيله ، ولكن ما أسرعَ أن ارتدّت تمدُّ يَدها إليه تصافِحُه وتَهزُّ يدَه ، ثم خرجت صائحة :

« عليَّ بالسيارة ، عليَّ بالسيارة .»

— ٤٣ —

انتقلت إلى منزل حمدي أحيا معه حياة الزوجية ، فقضيت الأسبوع الأول في عيشة راضية ، يرفرف عليها الهدوء والسلام . وكان حمدي قد تخلّف من عمله بإجازة ، فلم يكن يفارِق البيت إلا في النُّدْرة ، وكان فيّاض العاطفة يغمرني بحبّه ، ويتوخّى مرضاتي في كل شيء ، حتّى إنه كان يقوم مقام الخادم في أداء بعض الأشياء الخاصة بي . وما كان أطرَفه منظرًا حين كنت أجلِس إليه أطارحه الحديث ، وبين يديه طَسْت يغسِل فيه مناديل لي وهو يصفِر مبتهجًا طَلْق الأسارير!

ولم يكن بالمنزل إلا خادمة حبشية ، أحضرها حمدي لتقوم بطَهْو الطعام وإنجاز الشئون المنزلية . وهي نحيفة غائرة الخدّين بائنة الطُّول ، كأنّما كانت تضيق بقامتها المنبسطة ؛ فإذا مشت حنَت هامتها بعضَ انحناء . وهي امرأةٌ صَموتٌ جَهْمةُ الوجه منصرِفةٌ دائمًا إلى شأنها ، فكانت إذا مرّت بنا في تجهُّمها وصمتها ، مال عليَّ حمدي يقول هامسًا في لهجة الطَّروب : « سعادة سفير نيام نيام .»

فنتضاحك معًا ، والخادمة في طريقها ماضية لا تعبأ بشيء .

وكان لهذه المرأة عينان ثاقبتان ، لم أكن آنَسُ بنظراتهما ، على الرغم من أنّها كانت جمة الأدب معي ، بالغة الاحترام لي .

وفي صبيحة كل يوم تقف أمامي وقفةً مهذّبة تقول : « ماذا تريد الهانم أن يُعَدَّ لها اليوم من الطّعام ؟»

فكنت أقدح فكري دون أن أنتهيَ إلى شيء ، فأبتسم لها مجيبة :

« إني بحُسْن ذوقك واثقة ، تخيَّري ما ترين .»

وعلى الرغم من تكرار هذا الموقف بجملته وتفصيله أيّامًا متوالية ، فإن الخادمة لم تكن تُعفيني منه يومًا !

ولَمّا انقضت إجازة حمدي استأنف عمله ؛ فكان يغادِر المنزل بُكْرةً ويعود إليه في العشيّة . وكنت أزوّده في مُنْصَرفِه صبحًا ببعض الشطائر يَطعمها عند الظهر ، كما كنت ألزم نفسي أن أعقد له بيدي رِباط الرقبة ، فيبدو على وجهه سيما الارتياح . وقد شرعت بعد أيام

أحس أن الوقت يمر بي ثقيل الخُطا. ولا أكتم أنّي كنت أجدني مستوحشة لبقائي منفردة في ذلك المنزل ، مع هذه الحبشية العجفاء ذات النظرات الثاقبة ، وكانت تأتي ظهراً بصينية الغَداء ، فتضعها أمامي بوجهها الجهم ، وتقول لي في لهجتها المهذبة :

« أ ليست الهانم في حاجة إلى شيء ؟ »

فأصطنع ابتسامة مغتصبة ، وأقول : « لا شيء ، أشكر لك . »

فتزول عني في خطواتها الوئيدة ، كأنها في خشونة منظرها ، وما تبعثه في نفسي من رهبة ، شرطيٌّ أقيمَ عليَّ رقيباً في محبسي .

فإذا اشتدَّت بي السآمة والوحشة خرجتُ إلى حديقة المنزل الساذجة فلا أجد فيها مُتعة ولا أنساً ، فلا ألبث أن أعود لأتلمَّس السَّلْوة بتصفُّح بعض المجلات ، ولكن سَرعان ما أملُّ التصفُّح ؛ فأقوم بأداء بعض شئون المنزل ، بيد أنَّ هذا العمل لم يكن يروقني ؛ إذ كان عهدي به بعيد المدى . وكان حمدي يئوب في الأماسيِّ مكدوداً ظاهر الإعياء ، وأول ما يلفت نظري رباط رقبته الَّذي عُنيت منذ الصباح بتنسيق عقدته ، فإذا هو كأنه ثعبان ملتوٍ يزحف على رقبته آخذاً بمخنَّقه ؛ فكنتُ أصيح بحمدي : « يا للعجب ! ماذا فعلت برباط رقبتك ؟ »

فيجيبني بَسّام الثَّغْر وهو يطبع على جبيني قبلة :

« لا أستطيع أن أغيِّر ما مسَّته يدك . »

فأربت خدَّه قائلة : « لا بد أن تكون رشيقاً مهندماً ، يا حمدي . »

وحين يأخذ في خلع حُلَّته وارتداء مَنامته أراه يتوقَّف ، ليمضيَ في حديث مستفيض عن مشروعاته الطِّوال العِراض ، الَّتي ستدرُّ عليه وافرَ المال ، ثم يصيح مهتاجاً : « إن مُقامك في هذا المنزل المنعزل يبعث فيَّ الخجل ، سنتركه حتماً ، وسنحل مسكناً لائقاً في قلب المدينة . »

فأطيِّب خواطره وأبادله تمنياته ، وأنبهه إلى أن يُتم ارتداء المنامة .

وأذكر أنّه خرج معي مرتين إلى بعض المراقص . وقد رضي بذلك متوخِّياً مسرَّتي ، وليخرجني وقتاً من أسْر تلك الحياة الراتبة الَّتي أحياها في منزلي الموحِش. وكان هو الَّذي يراقصني ، ولكن سَرعان ما يدركه التَّعب ، فيشحُب وجهه ويتفصَّد جبينه عرقاً ، فلا ألبث أن أخرج به من الحلقة إلى حيث نجلِس ، فكان ينكر ذلك عليَّ ، ويريدني على أن نتابع الرقص .

تواصلت الأيام على هذا النحو . وقد أخذت أضيق ذرعاً بحياتي ، وأفقد السَّلوى في كل شيء حولي ، حتّى إن نِكات حمدي ومعابثاته كانت تثير غضبي بدلاً من أن تسرِّيَ عني . وكان يتَّخذ من جملة « سعادة سفير نيام نيام » دعابة يكرِّرُها على مِسمعي كلَّما مرت بنا الخادمة الحبشية . فلمَّا ضجِرت بهذه الجملة أقلع عنها ، فلم يعد يذكرها مرة أخرى .

وفي محيط هذه الحياة الَّتي أحياها ، كان يلمح في خاطري أحياناً طيف الباشا ؛ فأجدني وقد ثارت في نفسي أشتاتٌ منَ المشاعر الكامِنة .

وبدأت ألقي على نفسي هذا السؤال: « أ أحسنت بهذا الزواج صنعاً ؟ »

— ٤٤ —

في ضَحوة يوم ، وقد انصرف حمدي إلى عمله ، وانتهت الخادمة الحبشية من مهمَّتها الرسمية اليوميَّة ، مهمةِ إلقاء سؤالها عليَّ : ماذا أريد أن تعدَّ لنا من الطعام ـ ألفيتُني وقد عصَفَ الضّيقُ بنفسي كلَّ عَصْف ، فإذا بي أرتدي ثياب الخروج وأتَّخذ زينتي وأغادِر المنزل قاصِدة بيت الباشا . وما إن دخلت البهوَ حتّى طالعني شبحُ مدموازيل شانتل فأقبلتُ عليها أحيِّيها ،

فردّت تحيّتي في اقتضاب ، وعلى فمها تتخايل ابتسامة متكلّفة . و وقفتْ قبالتي وقتًا وهي ترفع منظارها ذا المقبض المفضّض إلى عينها وتنزله عنها تتفحّصني ، كأنّي حيوان غريب لم يقع عليه بصرها من قبل !

وانتزعتِ المدموازيل من بين شفتيها كلمة التهنئة لي بزواجي ، ألقتها إليّ كأنها تجود عليّ بمنحة سامية . ثم شعرت بأن منظارها يسائلني في فضول : « لم جئتِ ؟»

فقلت على الأثر : « لقد أتيتُ لأسألَ هل جاءت رسائل من سنية إليّ ؟»

فهمهمَتْ مغضّنةَ الجبين : « إنها تبعث برسائلها إليكِ بعنوانك .»

« لقد تغيّر عنواني .»

« أ لم تسألي أحدًا في منزل والدتك ؟»

« لم يصل إلينا هناك شيء .»

« ونحن أيضًا لم يصل إلينا باسمكِ شيء .»

وصافحَتْ سمعي في هذه اللّحظة سُعلة الباشا ذات الغنّة المعروفة لي ، فعلمت أنه في حجرة مكتبه ، فقلت : « المعذرة ، لقد أقلقتك . أشكر لك . تحيّاتي لأهل المنزل . لقد انتهت مهمّتي .»

وتظاهرتُ بالاتجاه إلى الباب أنصرف ، واسترقْتُ النظر إلى مدموازيل شانتل ، وهي تغادر البَهْو بقامتها الصُّلبة كأنها فلقة من خشب ، وما برح المنظار في يدها يهبِط ويعلو . وما إن رأيت شبحها قد تزايل حتّى أخذت سَمْتي إلى حجرة الباشا فاقتحمتها عليه . وكان جالسًا في مقعده الجلديّ الفسيح يقرأ إحدى الصحف ، وبجواره قدح القهوة يترشّفه . فلمّا رآني نهض مقبلاً عليّ مشرق الوجه يقول :

« أهلاً بالعروس .»

وأخذ بيدي يحييني ويلاطفني ، ثم دعاني إلى الجلوس ، فقلت وما زلت واقفة : « حضرتُ أسأل عن رسائل سنية ، أ لم يصل منها شيء باسمي ؟»

« كلا ، ولكنّي أستطيع أن أحدّثك عن سنية وأخبارِها كثيرًا إذا شئت . أ لا تجلسين ؟»

وأشار إلى متكأ بجانبه ، فقلت :

« كلا ، أشكر لك ، لقد جئت لأسأل عن الرّسائل.»

فأمسك بيدي يقول : « تعالَيْ ، تعالي نجلس وقتًا أقص عليك نبأ سنية ، وتقصين عليّ أنباء زواجك .»

فقلت ، وما بارحت موقفي ، في لهجة يشوبُها جفاء : « ليس لديّ ما أقصه عليك .»

وما أسرع أن انحرفت عنه ببصري ، فندّت منه ضحكة خفيفة ، وقال وهو آخِذٌ بيدي : « أراهِن على أنك غضبى .»

وحاولت أن أجذب منه يدي ، وأنا أقول :

« دع يدي .»

« لماذا أنت مغضَبة ؟»

واقترب مني يطوّقُ بذراعه خَصري ، فقلت وأنا أنفلت منه : « اتركني ، اتركني .»

فضمّني إليه ضمة اهتياج ، فما هي إلا أن تهالكتِ على صدره أنتحِب ، وتملّكتني نوبة من النشيج .

فجعل يلاطفني ، وأدناني من المتكأ ، فأجلسني عليه ، وقال حنون الصوت :

« هلا أفضيت إليّ بما يضايقك ؟»

فنظرت إليه وعيني بالدّمع شرِقة ، وهمهمت :

« أ تجهل ما يضايقني ؟»

وحدّقت في وجهه وقتًا ، ثم قلت له في لهجة ثائرة : « قبّلني ، قبّلني ، يا قاسي القلب .»

ولكنّني لم أمهله ، فرأيت نفسي أرتمي بين ذراعيه ، وقد وصلَتْ بيننا قُبْلَةٌ عطشى بعيدة المدى !

— ٤٥ —

وصلت من علاقتي السابقة بالباشا ما كان قد انقطع ، وعادت حياتُنا أوثق عُرًى مما كانت قبل . وشعرت بأن كلفي به يزداد على مرّ الأيام . أمّا حمدي فلم ينكر عليّ أمرًا ، ولم يُربْه من سلوكي شيء . يبارح المنزل غُدْوَة ، وقد عقدتُ له رباط رقبته ، وأعددت له شطائر الظهر على مألوف العادة ، ثم يوافي المنزل مساء فيجدني في انتظاره ، وما إن تقع عيني على صدره وأرى رباط رقبته قد انحل وتلوّى كالثعبان زاحفًا يأخذ بمخنقه ، حتى أقول له في دعابة رقيقة :

« ويحك ! ألا تفكّر يومًا في إصلاح هذا الرباط ؟»

فيجيبني بابتسامة هزيلة ، محاولاً أن يطارحني الدُّعابة ، ولكن سَرعان ما يتخاذل ويلحُّ عليه الضعف، فيبادِر إلى الفراش .

وقد لاحظت أنه يفقد شهيّته للطعام يومًا بعد يوم فكنت أستزيده من الأكل ، وأعنَى به أشد عناية ، وأغمُرُه بعطف لم يكن ينتظره مني ، فكان ينظر إليّ بعين يتجلّى فيها الاعتراف بالجميل .

وبان عليه الإعياء ، واستبدّ به السُّعال ، واضطرّ أن يتخلّف عن عمله ، وشعرت بأنّه يعاني الضائقة في موارده ، ولم يكن يقلقني من أمره إلا سُعْلته ، تلك السُّعلة الّتي يبدو أنها ليست مأمونة ، ولكنه كان يطمئنني بقوله : « إنه تعب عارض ، سأتغلّب عليه .»

وكثيرًا ما كان يتحدّث إليّ عن مشروعاته الطّوال العراض ، ويُمنّيني باقتراب تحقيقها ، ويكرّر على مِسمعي قوله : « ثقي أن حالتي المالية في تحسُّن ؛ لقد تم التعاقد على أن أعطيَ دروسًا خصوصية ، وأن أؤلّف أغاني وألحّنها . إني في عملي مجدٌّ . سوف يزدهر المستقبل .»

على أن سُعلته كانت تعترض حديثه فتقطَعه عليه ، فيظل في سُعاله والعرق يتحلّب (١) منه ، ثم أرى وجهه قد امتُقعَ وانتابه شبه إغماء .

ولَمّا وجدت موارد حمدي قد شحّت ، اضطررت أن أقدِّمَ له من عندي مبلغًا منَ المال يستعين به على مآربِ المنزل . كذلك اشتريت له حُلّةً جديدة دعت إليها الحاجة . وكنت أخبره بأن والدتي تمنحني بعض المال من دخلها الخاص ، فلم يكن يُبْدي أيَّ اعتراض أو استفسار ، بل كان ينظر إليّ ساهِمَ الوجه كأنه يفكّر في شئون أخرى .

وازداد حمدي هُزالاً ، وخُيِّل إليّ أنه يزداد طولاً، وكأنما هو يباري تلك الخادمة الزنجية في الطول والنحافة .

وتَلاحَق تخلُّفُه عن عمله ، ولزومُه الفراشَ ، فكنت أقول له :

« لماذا لا تعرِض أمرك على الطبيب ، يا حمدي ؟»

فيبتسم ويحاول أن يَظهر بمظهر الجَسور الّذي لا يعبأ بشيء ، وهو يقول :

« من أجل وعكة خفيفة نعرض الأمر على الطبيب؟ ثقي أن هذا عارِض لن يكون له بقاء . راحةُ أيام تُعيد صحّتي أحسنَ مما كانت من قبل .»

ولكن حان الوقت الّذي لم يستطع معه حمدي مُفارقة المِخدع ؛ لقد بلغ به الضّعف أقصاه ، وغارت عيناه كأنهما فجوتان مرهوبتان .

وتلظّى وجهه من وقدة الحمّى ، ولاحظت أنه يُخفي عنّي مناديلَه ، ولكنّي استطعت أن أرى واحدًا منها فإذا في طيّاته نُفاثات دامية . فاغتنمت فرصة نُعاسه مرّةً وهُرِعت إلى الباشا من فوري ، وأفضيت إليه بجليّة الأمر ، فاهتمّ لذلك أكبر اهتمام ، واستدعى طبيبًا رافقني إلى المنزل .

---

(١) يتحلّب : يسيل .

ولم يَطِب حمدي نَفْسًا برؤية الطبيب بادئ بدء ، وعاتبني بنظراته في صمت . ولَمّا وجد الطبيب يتفحصه مدقّقًا ، ويُلقي وابلاً من الأسئلة ، تغيّرت نفسيّته ، وصار كأنه طِفل مَهيضٌ على وجهه سيما البكاء . ورأيته يُمسك بيد الطبيب ويندفع قائلاً :

« إنها وعكة خفيفة ، أ ليس كذلك ؟ راحة أيام تُعيد لي صحّتي كما كانت ، أ ليس كذلك؟ لديّ أعمال كثيرة تتطلّب الإنجاز . »

ثم رنا إلى الطبيب متضرّعًا وهو يضغَط يده ، ويقول :

« ليس عندك شبهة في شيء غير عادي ، أ ليس كذلك ؟»

ثم إذا به ينخرِط في بكاء يستدرّ الإشفاق ، فجعل الطبيب يرفّه عنه ، ويؤكّد له أن ليس في الأمر ما يسوء ، وأن أيّامًا قِلالاً كفيلة بالشفاء . ثم ربّت خَدّه ولاطفه بقَرْصةٍ خفيفة ، وهو يقول :

« أمثالك ، يا أستاذ حمدي ، يخشاهم المرض . »

فوجدتُ حمدي يكفكِف مَدامِعه ، ثم افترّ ثغرُه قائلاً لي: « أ تسمعين ، يا سلوى ؟ إن المرض يخشاني . »

وخرج الطبيب ، فصحبته إلى الباب ، فقال لي في جِدّ :

« يجب نقلُ المريض إلى مَصَحّة ‹‹ حُلوان ›› دون إبطاء . »

فشددتُ على يده قائلة : « هل الحالة سيّئة ؟»

« لا تخلو من خطر . علينا أن نؤمّل ، والمستقبل غيب ، لا بدّ على أيّة حال من نقله إلى المصحّة . »

« أ يمكث هنالك طويلاً ؟»

« أشهرًا ... أشهرًا قد تطول وقد تقصر . »

ثم أخبرني بأنه سيتّصِل بالمصحة للاتّفاق على إعداد ما يلزم . وما كِدت أسأله عن النّفقات والمطالِب الّتي تقتضيها المصحّة ، حتّى قال لي :

« لا يشغل بالَك شيءٌ ؛ لقد فوّضَ لي الباشا أن أتّخذ كلّ ما يلزم . »

ولم ألاقِ صعوبةً في إقناع حمدي بأن ينتقِل إلى مصحة حلوان ، وأكّدْت له أنه لن يمكث فيها أكثر من أسابيع ، وأنّني آثرتُ نقله إليها حتّى يبتَعد عن مَنطقة هذا المنزل الرَّطْبَة الّتي تطيل أمد المرَض ، فأمسك بيدي في استسلام وذهول ، وهو يقول :

« وأنت ! أ تفارقينني ؟»

« كلا ، سألازمك . »

« أنتِ كنزي الثمين ، يا سلوى . الدُّنيا لا تساوي بدونك شيئًا . »

— ٤٦ —

استقرّ حمدي في مصحة حلوان ، فأقبلتُ عليه في رفق وحنوٍّ أنهي إليه أسفي ، إذ أبَتِ المصحّة ، وَفقًا لأنظمتها ، أن تأذن لي في البقاء معه ، فلم تنفرج شفتاه عن لفظ . وكان الإعياء يرتسِم على سِماته ، حتّى إنه عندما شدّ على يدي يودّعني ، لمحتُه يُسبل جفنيه في فتور .

ولَمّا رجعت إلى منزلي لأقضي ليلتي وحيدة لا شريك لي إلا هذه الحبشية الصموت الجهمة الوجه ، تعاصى عليّ النوم ، فسهدْتُ اللّيل كلَّه تكتنفني الهواجِس المفزّعة . وخيل إليّ أن هذه الحبشية ستقتحِم عليّ حجرتي فتخنُقني بيديها المعروقتين الصُّلبتين في جنح الظلام .

وفي الصباح هُرِعت إلى بيت الباشا ودخلت عليه مضطرِبة ، أقصّ عليه حالي ، فقال : « أ ترغبين في العودة إلى بيت أمك ؟»

فأجبت على الفور : « هذا لا يكون . »

فطفق يفكّر فترة ، وهو يذرع الحجرة ذَهابًا وأَوْبة، ثم قال : « لا سبيل إلى راحتك إلا بوسيلة واحدة .»

« ما هي ؟»

« أن تقيمي هنا .»

« هنا ؟ كيف ؟»

« أنت ستقيمين في دار صديقتك سنية ، أنت في ضيافتها . وهل نحن إلا أسرة واحدة ؟ هذا جناح سنية معدٌّ ، ففي وُسْعِك أن تَحلِّيه ، ولا حاجة لأحدٍ به .»

« ولكنَّ الناس لن يُعفونا من قالة السوء !»

« إذا خشينا ما يقوله الناس لم نستطع العَيش . أيَّةُ شائبة في أن تحيَيْ معنا ؟ أَلسنا أسرة واحدة ؟»

وتركت منزلَ حمدي في عهدة الحبشية ، ولا أدري بعد اليوم على مَن تُلقي سؤالها الرسميَّ المعهود:

« ماذا تريدين أن أعدَّ منَ الطَّعام ؟»

ونزلتُ جَناحَ سنية من بيت الباشا وأنا مغمورةٌ بعَطفه وتعهُّده ، فبدأت الحياة الَّتي طالما صبَتْ إليها نفسي من زمن قديم : هذا السَّرير الفاخر سرير صديقتي ، إني أتقلَّب في أعطافه ، تسري في أوصالي الرَّاحة والرِّضا . هذه الأصْونة الَّتي يزخَر كلُّ صِوان منها بغوالي الثِّياب . هؤلاء الخدم بأمري يأتمرون . تلك السيارات رَهْن إشارتي صباحَ مساء . هاته الشرفة الرَّحْبة المطلَّة على بستان الدَّار. تلك الشرفة الَّتي طالما جلستُ فيها إلى سنية ، لقد أصبحتِ الآن لي عُشَّ الغرام ، أقضي فيها مع الباشا أطيب الأوقات ، وأعذبَ السَّهرات ؛ نلعب بالورق ، ونتنادر ونتضاحك ، وحولنا ما لذَّ وطاب من طعام وشراب .

كان كل شيء وَفْق مُرامي ، إلا أمرًا واحدًا يُثير حفيظتي : هذه الغمزات والإيماءات الخفيَّة الَّتي كنت ألحظُها فيمن يحيطون بي من خَدم الدَّار ، وتلك الهمزات واللَّمزات الَّتي كنت أفطِن إليها فيما يتخاطفونه من حديث . أمَّا الدَّادة شيرين فقد لزِمت حجرتها في الطبقة الدُّنيا من المنزِل ، وقيل لي إنها مُصابة بمرض المفاصل ، ولا أدري مبلغَ هذا القول من الصِّدق . أمَّا مدموازيل شانتل فلم أكن أراها إلا في النُّدرة ، وهي على حالتها : منظارها ذو المقبض المفضَّض تعلو به على عينها وتهبِط في الفَينة بعد الفينة، مشيتها الصُّلبة كأنها دُمية تندفع بلَوْلب ، ابتسامتها المُغتَصبة تحمِل في تضاعيفها الزِّراية والامتهان .

وكنت إذا جُزت بحجرتها لمحتُها ممدَّدة على مَقعدها الفسيح ، وأمامها كتاب تقرأ فيه ، وقد أمرُّ بها بعد ساعات فإذا هي كما تركتها لم تغير جِلستها ، ولم تدَعْ كتابها .

ولقد كانت والدتي تزورني في بيت الباشا كلَّما أعوزها المالُ ، تتظاهر بالسؤال عمَّا وصلت إليه حالة حمدي ، وتتصنَّع الاهتمام بأخباري ، ثم لا تكاد تنال مأرَبَها منَ النُّقود حتَّى تدعني مهرولة إلى الطريق .

فأمَّا حمدي فكنت في بادئ الأمر أواصِل زيارَته كلَّ يوم ، لكن بَعُدَت عليَّ الشُّقَّة ؛ فاقتصرتُ على زيارته يومًا بعد يوم ، ثم شغلني شأني فلم أستطع أن أزوره إلا يومًا أو يومين في كل أسبوع . وكنت أدخل عليه متلألئة في أتمِّ زينة وزخرف ، فيلقاني بادئ بدء في شغف وابتهاج ، ويحتِم عليَّ أن أجلِس عن كثب منه على السرير ، ثم يتوسَّمني مَليا ويدُه تضغط يدي ، ثم أراه يتحسَّس ثوبي مسترسِلاً في صمت وكآبة ، فلا يفوتني أن أحزر ما يعتلج في نفسه من مشاعِر، وما يدور في رأسه من خواطر ، فآخذ في ملاطفته ثم أقدِّم له هداياي : علب حلوى ، فطائر ، كتبًا ، مجلات ، صورًا ، وأحيانًا أناوله بيدي بعض الفطائر أو الحلوى فيطعَمها وقد بدأت أساريرُه تتطلَّق ، وثغرُه يلوحُ عليه الابتسامُ ، ثم تنحلُّ عُقدة لِسانه فيندفع في السؤال عنِ البيت وشئونه ، وعن عيشي فيه ، فأقول له :

« كل شيء على ما يرام ، وإني أبشّرك بأن الصداقة قد توثّقت بيني وبين سفير نيام نيام .»

فنتضاحك ، ثم أجده قد انبرى يتحدّث عن حاله وما يشعر به من تحسّن ، ولكنّه كان يشكو إليّ سوء الطّعام ، ويرغب إليّ في أن أذهبَ إلى المَطْهى بنفسي أرجو من القائمين عليه أن يقدّموا له طعامًا جيّدَ الطّهْو مختلف الألوان .

وكان يختم حديثَه بقوله : « لن يمضي وقت طويل حتّى نرجع إلى عشّنا الحبيب ، وأستأنف العمل لإنجاز مشروعاتي المعطّلة . سيتدفّق علينا الكسب ، فأجعلك في رَغادة منَ العيش .»

وكنت أجدُه وقد أجهده الحديث ، تدركه نوبَة سُعال ، فأريده على أن يستريح ، فلا يلبث أن يستجيبَ آخِذًا بيدي في تشبُّث ، وتنقضي فترة طويلة دون أن أستطيع منه الخَلاص ، فأنهض قائلة : « يجب أن تنام ، يا حمدي .»

فينظر إليّ بعينيه المكدودتينِ ، وينتزع الألفاظ من بين شفتيه الجافّتين انتزاعًا ، قائلاً : « أ كذلك تتركينني مبكّرة ؟»

فأميل عليه حانية ، وأهمس : « لقد أزف موعد انصرافِ الزوّار . إن أنظمة المصحّة لا تأذن للزّائر أن يمكُث كما يهوى .»

فيقول هزيل الصوت أبحّ : « حتى بين الأزواج ؟ إن هذا لظُلْمٌ عظيم !»

ثم يُطبق جفنيه ، ويقول مجمجمًا في نبرات متقطّعة : « يجب أن تعرضي شكوايَ على الطبيب ليأذن لك في البقاء أطول وقت ممكن .»

« سأفعل .»

ثم أحاول أن أجذِب منه يدي بلُطف ، فإذا به يصرّ على إبقائها في يده ، وأسمعه يهمِس :

« والباشا ، أ ترينه ؟»

« منذ زمن طويل لم أرَه .»

« إنه رجل عطوف كريم ، أعترف بذلك . ثقي أنني سأجزيه على جميله معنا . ثقي ... ثقي .»

وأراه قد بدأت بوادر النُّعاس تبدو عليه ، وقد بانَ وجهه كأنه هيكل ، خدٌّ غائر ممتقَع ، فمٌ منفرج بشع المنظر ، يدان عجفاوان كأنّ عظامهما هشة توشِك أن تتداعى .

فأخرُج حثيثة الخُطا إلى الطريق ، كأنّني مفلتة من محبس خانق ، أو منبعثةٌ من قبر عشت فيه ساعةً مع رميم عظام .

— ٤٧ —

في إحدى اللّيالي بينما أنا في الشُّرفة جالِسة إلى الباشا نتفاكه ونتجاذبُ أطراف الحديث ، إذ رأيته قد نهض بغتةً إلى سور الشُّرفة وقد تحسَّس قلبَه بيده ، وهو مبهور الأنفاس كأنّه يختنق ، فقفزتُ إليه أسأله : « ما بك ؟»

« لا شيء ، لا شيء .»

« ماذا ؟»

وكان يشرئبُّ ليستنشقَ الهواء ، ثم سمعتُه يهمهم:

« قليلاً من الكولونيا .»

فأسرعتُ أحضِر ما طلب ، فلمّا عدتُ إليه وجدته قد تهاوى على الأرض ، فصرختُ مُرتاعة ، وانحنيت عليه أتفحّصه ، فوجدته جاحظَ العينين ، يتنفّس في عُسر ، ويحاول الكلام فتضطرب شفتاه ولا يَبين ، فناديتُ بعض الخادمات أستغيثُ ، فأقبلْن عليّ متفزّعات ، فحملنا الباشا إلى حجرتي ومددناه على المَقعد الفسيح . وكنت شديدة الارتباك والذهول ، لا أملِك موقفي ، وظهرَتْ مدموازيل شانتل بقميص النّوم

السابغ وعلى رأسها قَلَنْسُوَة بيضاء ، وفي يدها المنظار تهبط به وتعلو ، وما إن تبيَّنتِ الأمر ، حتّى قالت في حزم :

« يجب استدعاء الطبيب . »

فصِحت : « علينا بالطبيب ، فوراً . »

وانصرفت مدموازيل شانتل مُسرعة تستدعي الطبيب ، وأخذتُ أنا والخدم نُجري ما نُحسنُه من إسعاف ، ففككنا عن الباشا رِباطَ رقبته وأنشقناه بعض المنعشات ، وأخذنا ندلِّك يديه ورجليه .

وبعد لحظات آنست منه تنبُّهًا ، وبدأت وجنتاه تلوحُ فيها صِبغةُ الحياة ، فابتسم لي ابتسامة عارضة ، وهو يهمهم : « لا تنزعجي ؛ إني بخير . »

ثم أشار إلى الخدم أن ينصرِفوا . ولَمّا انفرد بي ، دنوت منه ، فقبلت جبينه ، وأنا أقول : « سَلِمت ، سلمت . »

فأمسك بيدي يلاطفها وقتًا ، ثم همس قائلاً : « شَربةَ ماء . »

فذهبت أملأ له قدحًا ، ولَمّا تقدَّمت أناوِلُه إيّاه لم يتحرَّك لأخذِه ، وكانت عيناه لا تطرفان ، وهما تحدِّقان في الفضاء .

فلاطفتُ يده ، فلم أجد لها من حسٍّ ، وراعتني مقلتاه وهما ترميان بنظرهما الثّابت ، فشعَرت بالكوب يسقط من يدي ، ورأيتني أطلق صَرخة ، وقد تغشَّت عينيَّ غَمامةٌ كثيفة ، وتراءى لي من خلال تلك الغمامة شبح مدموازيل شانتل منحنيةً على وجه الباشا ، ثم سمعت صوتها يقول : « لقد حضر الطبيب . »

ثم أمسكَتْ بيدي ، وخرجت بي من الحجرة ، وإذا بالطبيب مُقبِل يحمِل حقيبته في سرعة واهتمام ، ولَمّا دخل الحجرة أقفلها خلفه ، فوقفت عن كثَب من الباب ، وقد بدأ يثوب إليَّ وعيي ، ولكن أعصابي كانت مرهفةً أشد الإرهاف ، حتى إن أهوَن حركة كانت تزعجني كل إزعاج .

وخرج الطبيب بحقيبته جهم الملامح كابي النظرات ، وبعد أن ألقى في أذن مدموازيل شانتل كليمات عاجلةً ، هبط الدَّرَج يطأطِئ رأسه ، ويجرُّ قدميه .

علا صُراخُ الخادِمات ينعين سيِّدَهم ويبكينه ، فأحسست دُواراً يفجؤني ، وخررت على الأرض مغشيا عليَّ .

ولَمّا أفقتُ من غشيتي ألفيتُني ممدَّدةً على متكأ في حجرة الزينة المجاورة لحجرة النوم ، ورأيت شبحًا يتحامل في سيره على عصًا وهو يروح ويجيء في تثاقل ، يجمع متاعًا من هنا وهناك ، ورأيتني أصيح : « دادة شيرين ، دادة شيرين . »

فنظرت إليَّ الدادة نظرات عابسةً دون إجابة ، ولم أكن قد التقيت بها منذ أشهر ، وتدانت منّي قليلاً ، فلاحظت أن سَحنتها قد نالها كثيرٌ من التغيُّر، فتهدَّلت أشداقُها ، وأمّا لون بشَرتها الّذي كان يلمع سواده كأنه مجلوٌّ بِطِلاء ، فقد انقلب إلى صفرة دَكناء . وسمعتُها تقول بَحَّاءَ الصوت : « يحسن بك أن تتركي المنزل ، أن تتركيه في الحال . »

فلم أحِرْ جوابًا ، وظللتُ أصعِّد فيها البصر مأخوذة متسائلة ، وأخذ بعض الخادمات يتعاقبنَ على الحجرة لشئونٍ شتّى ، ولاحظت أنه كُلَّما انصرفت إحداهُنَّ رمقتني بنظرة شزْراء .

واقتربت مني الدادة شيرين وهَمست في أذني شديدة اللَّهجة : « أ لم تسمعي نُصحي بعد ؟ غادري المنزل من فورك ! »

وأخذت بيدي تجذبني ، وخرجت بي منَ الحجرة، فكنت لها طَيِّعة صاغِرة . ودخلنا حجرة النوم الَّتي قضى بها الباشا نحبَه ، فإذا به قد نُقل إلى حجرته الخاصة . وتركتني الدادة شيرين فترة ، ثم عادت

بحقيبة كبيرة تعاني حملها في إعياء ، وانطلقت تجمّع أمتعتي وحليّ وحُللي ، وتزحم بها الحقيبة كيفما اتفق ، ثم قالت منهمكة في عملها كأنما تخاطب نفسها :

« سيحضُر الباشكاتب بعد قليل ليحصرُ أشياء المنزل، ويضعَ الأختام على الأبواب . »

ولاحظت أن العرق يتحلّب على جبينها ، ولكنّ ملامحها كانت جامِدة صُلبة ، وتركت أنا والدادة شيرين الحجرة ، ومعنا الحقيبة ، سائرتين في مساترة ومحاذرة وتلصُّص .

وانحدرنا إلى سُلّم الخدم فهبَطنا فيه ، فإذا اعترضنا أحد ، جبهته الدادة بنظرة صُلبة ، فلا يلبث أن يفسح لنا الطريق .

و وجدت أمام الباب الخلفي لقصر الباشا سيارتي الخاصة تنتظرني ، فأقبلت على الدادة شيرين أرتمي في صدرها ، وأخفي في حِضْنها وجهي المُخضل بالدُّموع ، فرأيتها تنحّيني عنها وهي تهمهم :

« ليس هذا وقتَه . »

وانطلقَتْ بي السيارة إلى بيت والدتي ، فدخلت رَدهة البيت ، وألقيت بنفسي على أول مَقعد صادفني، والحقيبة أمامي . وعلمتُ منَ الغلام الخادِم أن والدتي في الخارج ، فلم ألقِ لذلك بالا ، وظللت في جِلستي وقتًا طويلاً لا أعرف مداه ، وكنت أنظر في الفضاء نظراتٍ شوارد .

وأخيراً شعرت برأسي يترنّح ، وحواسّي يملكُها عليّ نُعاسٌ .

— ٤٨ —

عاودت حياتي بجانب أمي في ذلك المنزل العتيق ، وانبعثَتْ من قبرها معيشتي السالفةُ بين جوانب ذلك الوكْر الموحِش البغيض . حجرتي هي هي تلك الحجرة العارية من الأثاث يحتلها هذا الصوّان المتداعي، وأمي كما هي ، أراها في غِلالَة نومها الباليَةِ الَّتي تكشف عن صدرٍ أعجفَ ، وقد تكاثرتْ في وجهها الغضون ، وبانت بشرته صَدِئة كامدة أتلفَتْها وطأة الدّهان والمساحيق . وما زالت على فمها تلك الجملة ، تلقيها على مِسمَعي في لهجتها الممطوطة وهي تتبختر شامخة الأنف ، ولِفافة التّبغ بين أناملها المصفرّة : « لو كان كلامي لقيَ منك أذنًا صاغية فتزوجتِ رجلاً ثريا لَما أصبحتِ كما أنتِ الآن ضائعة . »

أضائعة أنا حقًا ؟ وهي ، ماذا ترى نفسَها ؟ أربحَتْ معركة الحياة ، وكسبَتِ الدُّنيا ؟

ودارت بنا عجلة الأيام ، واضطُررْت إلى بيع السيّارة بالرغم من احتجاج أمي ، الَّتي أوهمتني أنها ترغب في شرائها ، وراعني أنّ ثمن السيارة قد جعل يتناقص ، حتّى لم تبقَ منه باقية . لقد ابتلعَتْ معظَمه مَصحّةُ حلوان ، من أجل حمدي . وأغلقنا منزلَ الهرم ، وجلبنا الخادمة الحبشية العجفاء لتقيم معنا في منزل أمي، بدلاً من الغلام الَّذي كان قليل الغَناء . وكانت الخادمة على حالها مهذَّبةَ السلوك غارقة في صمتها وتجهّمها ، لا تنسى جملتَها الخالدة تقرَع بها سمعي كلَّ صبح : « ماذا تريد الهانم أن يُعَدَّ لها من الطعام ؟ »

ومن العجيب أنها كانت لا تنتهي عن هذا السؤال ، وإن خلا المنزل من شيء نطهوه .

أمّا حمدي فقد كانت صحته تنتقل على مَهَلٍ من سيئ إلى أسوأ . وقد أنهى إليَّ الطبيب أن العِلّة قد تطول أشهراً بعد أشهُر ، فكان ذلك يرمي بي في ثورة مكظومة ، إذ أرى ثروتي تتداعى ، ولا أعرف لي بابًا لكسبٍ جديد .

ربّاه ، تعالت حكمتُك ! أردتَ أنْ يطولَ عمر هذا العليل الَّذي يمتدُّ احتضارُه ، فيزداد أَلَمًا إلى أَلم ،

ويزدادَ مَن حوله متاعبَ إلى متاعب ، وحسراتٍ تتبعها حسرات .

هأنذي أعرض حياتي الماضية وما كان لحمدي من دور فيها ، وبخاصة عهدُ الطفولة الهنيء ، حين كنّا نقضي أويقاتِ الصفاء أنا وهو وسنية وشريف جميعاً ، وكيف كان حمدي يشجينا بصفّارته ، ويثير فينا المرح بألاعيبه ونكاته ومداعباته . إني لأحسُّ الآن بوخز الضمير ، إذ أستكثر عليه الحياة وامتداد الأجل . إنه لعُقوقٌ وغدر أن أفرَّ من الميدان الّذي يتطلب مني احتمال حمدي ورعايَته في أحرج ساعات حياته .

وعادت سنية مع شريف بعد أن تلقّيا نَعيَّ الباشا . يا لله ! شدَّ ما كانت سنية سخيفة في حِدادها على أبيها ! كنت أقصد إليها أواسيها فينالني في جلستي معها ضيق شديد ، ولكنّي أعترِف بأن لقائي لشريف كان فيه خير العِوَض من ذلك الضيق . لقد كان شريف يعلو في عيني برجولته واكتمال عقله ورزانته ، وكنت أحسُّ أنه يَبْرَم (١) بحزن سنية الّذي يشبه حزن الأطفال المدلَّلين . إنها تنشج ولا تفتأ تنشج ، والمنديل في يدها لا تَدَعُه ، وعينها محتقنة مَرْهاء (٢) ، وأنفها متورمٌ مُلتهِب ، وصوتها متسلِّخ أبحُّ ، وقسمات وجهها متقلّصة عليها غبرة .

وأحسستُ بأن شريف يخصُّني بنظرات تطلّع واهتمام ، وإذا اتفق لنا أن نختلي رأيته قد خرج من تحفُّظه المعهود ، وتلطَّف بي ، وجلس إليَّ نتنادر .

وكانت سنية تحلُّ جناحًا خُصِّص لها هي وشريف ، أمّا حجرتها القديمة فقد أُغلِقَت إثر وفاة الباشا وظلَّت على حالها لا يفتحها أحد .

وقد علمَتْ سنية بما كان من إقامتي مع الباشا أثناء سفرها ، ولكنَّها علمت ذلك على وجه حسَن ، إذ تطوَّعت الدادة شيرين فأخبرَتْها بأنه على أثرِ اشْتداد المرَض على حمدي ، وما صرتُ إليه من وحدة ووحشة ، استدعاني الباشا لقضاء أيام .

ويومًا وأنا مع سنية راحت ترنو إليَّ متلطِّفة ، ومنديلها في يدها تمسَح به عينيها المخضلّتين ، وقالت :

« لقد تركَتْ وفاة والدي فراغًا كبيرًا في حياتي ، فلم يبقَ لي من أمل في الدنيا إلا أنتِ وشريف . »

فأجبت : « لا يحقُّ لك ، يا أختي ، أن تشركي أحدًا مع زوجك في قلبك . حَسْبُك شريف . حَتْمٌ أن يملأ وحدَه ذلك الفراغ . »

« هذا حق ، ولكن شريف مشغول بعمله في الوزارة ، وأنا وحيدة أشعر بوَحشة . »

واندفعَتْ في نشيجها الطفليِّ المعهود ، وهي تحكُّ أنفها فيزداد من تورُّم واحمرار ، فطفقتُ أواسيها بما ألقيه على سمعِها من عبارات شعرت بابتذالها ، فمللتُ تكرارها .

فضغطَتْ يدي ، وحدَّقتْ في وجهي قائلة : « لماذا لا تُقيمين معي بضعة أيام ؟ »

فكانت مُباغتة لم أملك معها الجواب ، وهممت أن أعتذِر ، فأقبلت عليَّ تقبِّلني في رجاء حارٍّ ، وهي ما زالت في نشيجها مسترسِلة .

لم يمض يومان حتّى كنت قد انتقلت إلى منزل سنية ، وأقمت فيه . وقد تركَتْ لي حُرِّية اختيار المسكن ، فتخيَّرت على الفور حجرتها القديمة ، أو بالحريِّ حجرتي الّتي كانت سكني قبيل أن يقضيَ الباشا نَحبه — تلك الحجرة الّتي سعدت فيها بفترات رفاهة وصفاء . وقرَّ في هذا المسكن قراري ، أستعيد فيه ذكرياتي مع الراحل المأسوف عليه كلّما خلوت إلى نفسي . في هذا الركن كان يجلس فأخلد إلى صدره . ما برحَتْ تصافح أذني دقّات قلبه المنتظِمة ، أرفع رأسي إلى وجهه فتطالعني عيناه النافذتان ترنُوان إليَّ في مَحبة وحنان . في تلك الشُّرفة طالما جلست معه

(١) يَبْرَم بالشيء : يسأمه . (٢) مَرْهاء : متقرِّحة .

نلعب بالورق بين تنادر وتضاحك ومعابثة .

وتوالت الأيام ، فأحسست أن إقامتي بالمنزل تُسبغُ عليه لونًا جديدًا منَ الحياة . لقد سَلَتْ سنية بعض السُّلُوّ ، وفارقتها كآبتُها المُمِضَّة ، وشرعت تعود إلى شيء منَ المرح والتفكُّه .

ولقد لاحظتُ أن العمل الكثير الَّذي كان يَخرج شريف لإنجازه بعد الظهر في الوزارة قد تضاءل ، حتّى لم يعُدْ له بقاء ، فها هو ذا يروقه أن يقضيَ معنا جُلَّ وقته ، نقصد نحن الثلاثة إلى مشارِب الشاي نقضي بها وقتًا .

وتطورت الحال ، فأصبحنا نذهب ليلاً إلى المطاعم فنقضي سهرات لا تخلو من لطف وإيناس .

وعليَّ أن أعترِف بأني كنت أستطيب حياتي الجديدة ، لولا ما كان يشوبها من تميُّع سنية وطفولتها ، وما تُبديه لزوجها من دلال مَسيخ .

على أن شريف كان يحتفِظ برِباطة جأشه ورزانة موقفه ، وكان يُحسِن تصريف الأمورَ في لباقة وكياسة .

ولبثت أبذِل جَهدي في أن أظلَّ الصديقة الوفية المخلِصة لهذين الزوجين ، أتوخّى لهما الهناءة والوفاق .

ولم أنسَ حمدي في مَصَحَّته ، فكنت أزوره في الفينة بعد الفينة ، وألزِم نفسي سماع حديثه المملولِ يعيده في كل زَوْرَة ، ذلك الحديث الَّذي يصِف به مشروعاته الضخامَ ، وآماله الجِسام .

— ٤٩ —

حلَّ يومٌ مرضَتْ فيه سنية ، راجعَتْها عِلَّتها الأولى : فقرُ الدَّم والهُزال ، فلزمت فراشَها ، واستأنفت نَشيجها ، وظهر المِنديل في يدها لا يبرَح . وبدت هاتان العينان حمراوين محتقِنَتين ، وهذا الأنف متورِّمًا ملتهبًا ، وذلك التدلُّل الطِّفْلِيُّ يتمثَّل في إباء الطعام والتمنُّع عَلى الدَّواء. فكنت أنا وشريف نتعاون على تمريضها وإطعامها وإشرابها العقاقير . على حين تقف مدموازيل شانتل عن كثَب من الباب وِقفتها الجامِدة ، والمِنظار ذو المقبض المفضَّض في يمينها صاعِدَة به هابطة ، وهي تُصدِر الأوامر إلى الخدم ، دون أن تباشِر عملاً أيا كان .

وجرتِ العادة بأن أتناول الغداء والعشاء مع شريف على مائدة واحدة . وكثيرًا ما كنا نمكث وقتًا إثر الغداء أو العشاء في بهو الضِّيافة الصغير ، ندخِّن ونحتسي القهوة ونتطارح بعض الأحاديث . فإذا كانت سنية نائمة أطلنا جَلستنا ، وأخذ شريف يتبسَّط فيما يتحدَّث به إليَّ ، مفيضًا في ذكريات إقامته في فرنسا ، غير متحرِّج منَ الخوض في وصف ما كان له من مغامرات غرامية . ولكنَّه لا تفوته اللَّباقة والأدب فيما يخوض فيه من حديث .

وكان شريف دائمًا أنيقًا في بِزَّته ، رشيقًا في حركاته ، عظيمًا في رجولته ، يثير مَرآه في نفسي ذكرى الباشا وما كان له من شخصية أثيرة عندي ، محبَّبة إليَّ .

وعلى تواصل الأيام ارتفعت الكُلفة بيني وبين شريف ، وبدأ يروقه أن يترشَّف قليلاً منَ الويسكي في جَلسات المساء ، فتتجلّى ذَلاقة لِسانه ، ويزداد تبسُّطه في المحاورة والسَّمر .

وفي إحدى الأماسيِّ عرض عليَّ أن أتناولَ كأسًا منَ الويسكي ، وكنّا ساعتئذ مختليَيْنِ في بهو الضِّيافة الصغير ، فتمنَّعْتُ بادئَ بدء ، ولكنَّه ألحَّ عليَّ فلم أستطعْ له ردًّا . وبدا عليه في هذه الجلسة طارئ من سُهوم وشرود ، بيد أنه كان مع ذلك شديدَ الرنوِّ إليَّ والتفرُّس فيَّ . وبدأنا ندخِّن ، فوضعتُ لِفافتي على طرَف المِنفضة وقتًا ، وغشينَا الصمتُ ، فألفيت شريف يمدُّ إلى اللُّفافة يده في هدوء ، وما هي إلا أن اندفع يجتذب أنفاسَها .

فنظرتُ إليه نظرة تساؤل ، فابتسم ابتسامة رقيقة ، ولم يلفظ من قول .

ومرَّت لحظات صمتٍ وجدتُني على أثَرِها أتناول لفافته ، وأدنيها من فمي ، فأدخّن في استرسال .

وأرحت على ظهر المَقعد رأسي ، منبسطةً أنفث الدُّخان ، وأرقب سحائبه وهي تتزايل في أرجاء المكان .

وأحسست بشريف ينهض دانيًا منّي ، ولمس يدي في رفق ، فشخصت ببصري إليه ، وأنا على حالي في جِلستي متراخِيَة . وتلاقت نظراتُنا هُنَيهة ، ثم وجدتُني أسبِل جَفني ، وشعرت بأنفاسه تسبح على وجهي ، وفي لمح البصر تماسَّت شفتانا ، ونهضت عَجِلة أهمهم : « لا ، لا ، أرجوك . »

وغادرت الرَّدهة أحثُّ خُطايَ ، وانطلقت إلى غُرفتي نشوى .

وهُرِعت إلى الشُّرفة ، وكان اللّيل ساجيًا وادِع الأنسام ، وقد اكتست الآفاق بِسَجْفٍ منَ الظّلام ، فطفِقْتُ أحدِّق في السَّماء كأنَّما أحاوِل أن أخترق ذلك السَّجْفَ الحالك ، فأناشدَ للنُّجوم البعيدة أن تكشف لي خبايا نفسي ، وأن تظهِرَني على طوايا الغيبَ المستور .

وفي غدٍ لقيتُ شريف فلم نعرضْ في حديثنا لما وقع بيننا أمس ، ولكنَّ نظراتِنا وابتساماتنا كانت من الكلام أقوى تعبيرًا وأفصح دلالة .

وبعد العشاء ضمَّتنا الرَّدهة على مألوف العادة ، نشرب القهوة وندخن ، فألفيته يهمس إليَّ :

« هل لك في أن نخرج للنُّزهة ساعة ؟ هذا مساء جميل . »

فظلِلْتُ صامتة لا أجيب . وما إن تبيَّن لنا أن سنية قد وافاها نُعاسها ، حتّى رأيته يستأنف مكاشفته إيّاي برغبته إليَّ في الخروج معه .

وخرجنا في سيارته يسوقها بنفسه ، وقصدنا أحدَ المراقِص . وغمرتنا موجة المرَح ، فشربنا ورقَصْنا ، وأرخينا لنفسَيْنا عِنان اللّهو فلم نتحرَّج من شيء . ولعلّي أسرفت في الشَّراب ، فإني لا أعي كل ما كان منّي في تلك السَّهرة الصاخِبة ، ولكنّي أستطيع أن أذكر أن شريف كان مفرِطًا في مداعباته إيّاي ، وأنه انتهب منّي قبلاتٍ حافلةً دون أن أتمنَّع .

وبلغنا المنزل عند السَّحَر ، وإذا بمدموازيل شانتل تلقانا بالباب . واستطعت أن أفهمَ من حديثها أن سنية أرِقةٌ قلِقة ، لم يغمض لها جَفن . وسمعتُ شريف يقول للمربية :

« حسنًا ، حسنًا ، سأذهب إليها الآن . »

وقصدت حجرتي على الفور ، وارتميت على السرير بملابس الخروج ، وأنا أحسُّ بهمود شديد يستولي عليَّ فلا أستطيع معه الحَراك ، ولكنّي قضيت اللّيل في نوم مضطرِب تعتادني أضغاثُ أحلام .

وصحوتُ من نومي ضُحًا ، فشرَعت أعرض في مخيّلتي ما حدث البارِحة ، فهاجمتني الهواجِس ، وخشيت العُقْبى .

وجاءني شريف عليه حَفاوة وبشاشة ، فقبَّل يدي ملاطِفًا . وما إن لاحظ القلق يتراءى في قسماتي حتّى همس في أذني :

« كل شيء قد تمهَّد ، لقد كنّا البارِحة عند حمدي ؛ إذ تلقينا إشارة تليفونية بأن نوبةً أصابته ، وقضينا أطوَل اللّيل بجانبه ، ولم نستطع مفارقته حتّى هَدأَتْ عنه نوبته . »

وابتسم لي ، ثم استطردَ يقول : « هذا كل شيء ، وقد علِمَت به سنية . »

وربت يدي ملاطفًا ، وهو يقول :

« لا تؤاخذيني ؛ لقد أبطأتُ عن الوزارة . »

وأذكر أنّي لم أنبِسْ بقول ، ولكنّي كنت أحاوِل

الابتسام .

واستغرقني فيضٌ من الشواغلِ والأفكار ، لقد اطمأنَّ قلبي حقا في شأن غيبة اللّيل ، وسؤال سنية عنها ، ولكنَّ شيئًا يثير فيَّ القَلَق : إذا تكرر مِثل هذا فكيف يكون أمري ؟ وماذا ندبِّر من عِلات ؟ أ يطول حبل الأكاذيب ؟ وصِلتي بشريف ؟ أ أدعها في تيّارها بلا تفكير ولا تدبير ؟ وصديقتي ؟

وأخفيتُ بين يديَّ وجهي ، ومكثتُ حينًا على تلك الحال .

وسمعت طرقًا على الباب ، وإذ بمدموازيل شانتل تدخُل بسَحنتها الصُّلبة النكداء ، وأنهت إليَّ وهي تحرِّك منظارَها أن سنية تطلبني ، وما لبِثَتْ أن خرجَتْ دون أن تعلَم منّي الجواب ، فانتظمتني رِعشة ، ولكنّي تمالكتُ وقمت إلى سنية .

دخلت وأنا أتكلّف هدوء البال ، والظُّهور بما هو مألوف .

وما إن رفعتُ إلى سنية عيني حتى لاحظت في عينيها شيئًا لم أعهده منها ، وتقدَّمتُ إليها أحيِّيها ، وأردت أن أجلِسَ منها عن كثب فطلبت مني في نبرات يشوبها اختلاج أن أتَّخِذَ مجلسي على طَرَف السرير ، وكانت قسمات وجهها يبدو عليها الامتِقاع فتصنعتُ الهشاشة والابتسام ، وجلست حيث أرادت ، فأطالت التحديق فيَّ ، وغشينا صَمت بُرهة ، وبدا عليَّ شيء من الخيفة ، ثم رأيتها وقد راجعتها طمأنينتها تمسك بيدي بَغتة ، وتقول صريحة اللَّهجة :

« إنهم يريدون الإيقاعَ بك عندي .»

« مَن ؟»

« الأشرار ، ولكنّي لا أصدِّق مما يقولون شيئًا . يا لله مِن الوشايات !»

وظلَّتْ ترنو إليَّ ، ثم استأنفت تقول في صراحة لهجتها : « أ يمكن أن أصدِّق أن ثمَّة علاقة بينك وبين زوجي ؟»

فصحتُ على الأثر مهتاجة : « علاقة ؟ بيني وبين زوجك ؟»

فتضاحكَتْ قائلة : « اسمعي ما هو أعجب : علاقة كالعلاقة الّتي كانت بينك وبين أبي !»

فوجدتني أغطّي وجهي بيدي مهمهِمة : « أ بهذه التُّهم يرمونني ؟»

« لا أصدق من هذا حرفًا .»

فاندفعتُ أنشِجُ نشيجًا حارًّا ، ولا أدري كيف بكيتُ ؟ ولا أدري لماذا بكيت ؟ ولكنّني بكيتُ حقا بُكاءً انهمرَتْ فيه دموعي ، ورأيت سنية تحتضنني حانية ، وهي تقول : « قلت لك لا أصدِّق ، ولن أصدِّق .»

فأجبتها على الفور : « مهما يكن من أمر فقد أصبحت أشعُر بحرَج في المُقام بهذا البيت .»

« ماذا تقصدين بهذا القول ؟»

فربَّتُّ يدها وأنا أقول : « يجب أن أرحل ، يجب ... يجب .»

« أ تتركينني ؟»

« سنية ، لا تنسَيْ أن المسألة تتعلَّق بشرفي ؟»

« كأنكِ تريدين أن نُقيمَ لمكايد الأشرار وزنًا .»

« اسمحي لي بأن أرحل .»

« بل امكثي ، امكثي ، يجب أن نردَّ مكايد الأشرار بأن نُهمِلَها ، فلا نلقي لها أذنًا صاغية .»

وأقبل الخدم بطعام سنية ، وكانت بينهم الدادة شيرين ، وأحسست بها تنحّي عينها عنّي ، ولكني لاحظت أنها تخالسني نظرات نفّاذة مفزِّعة .

وآثرت أن أشرك سنية في طعامها ، حتى لا تجمعَني بشريف مائدة الغداء ، واجتهدتُ أن أجاذِبَها أشتات الحديث ، وأن أبادِلَها المرَح على مألوف العادة ،

ولكنَّ سنية كانت تغلو في عاطفتها نحوي ، فغمرتني بمحبَّة جيَّاشة ، كأنَّها تريد أن تُشعرَ مَن حولنا أنها لا تستمع لشائعات السوء .

— ٥٠ —

مَرَّ يومان حرَصت فيهما على أن تكون عَلاقَتي بشريف علاقةً عابِرَة لا شيءَ فيها .

وعدت إلى تناول الطَّعام معه ، بيد أنّنا لم نكن نُطيل جَلساتِنا لشرب القهوة والتدخين .

وفي عشيَّة اليوم الثَّالث كنت في شرفة حجرتي جالسَة ، وقد أحسستُ وَطأة همٍّ تثقُل عليَّ ، وعادت بي الذّاكِرة إلى أيام الباشا ومَجالِسه الطيِّبة في تلك الشُّرفة معي .

وطوَّحتْ بي الذكريات هنا وهنالك ، فأسلمتني إلى نشوة ، فأطبقْتُ جَفنيَّ أسبَح في دنيا من الأحلام.

وخيل إليَّ أنّني بين ذراعيه القويَّتين تهصِران خَصري (١) ، وكلمات الحبِّ والهُيام يطرَب بها سمعي، وكأنّي أسمع صوته الحنون يقول :

« أحبُّك ، يا سلوى .»

وانتابتني رِجفة ارتَجَّتْ لها أوصالي ، وفتحت جفنيَّ ، فإذا بي بين ذراعَيْ شريف يحتضنني في شغف واشتياق .

ونظرتُ إليه مأخوذة ذاهلة ، وحاولت أن أتخلَّص منه ، ولكن ذراعيه لم تدعاني أفلت ، فوجدتني أتراخى وأطبق جفنيَّ . وعاد يطرب سمعي ذلك الصوت بترنيمته :

« أحبك ، يا سلوى ، أحبك .»

فاختلطت عليَّ المشاعر ، فلم أعد أتبين حقا : أ في يقظة أنا أم في منام ؟ و واقعٌ ما أرى أم باطلُ أحلام ؟

ولَمّا استيقظت في غدي ، وفكرت فيما طواه اللَّيل بيني وبين شريف ، اعترتني هِزَّة شديدة ، ونهضت فزعة من الفراش أستنكر زلَّتي .

أ يحدث ذلك منّي على قيد خُطوات من مِخدع صديقتي ؟

وارتديت ملابسي مسرِعة ، وما إن أتممْتُ ارتداءَها حتّى قصَدت إلى مدموازيل شانتل ، وأخبرتها بأنّي منصرِفة لزيارة حمدي وقد أغيب عن المنزل يومًا أو بعض يوم .

— ٥١ —

رجعت إلى بيت والدتي ، فاستقبلتني الحبشية ، وأعلمتني أن والدتي على سفر ، فأويْتُ إلى حجرتي مكدودة ، وارتميتُ على السرير خائرة القُوى . ولَمّا رجَعت والدتي من سفرها المزعوم ، لم أجد بُدًّا من أن أفضي إليها بسوانحَ مما كان من أمري مع شريف . فأصغتْ إليَّ في اهتمام ، وجعلت تستزيدُني وتستوضحني . وفي خاتمة الحديث ، قالت لي وهي تنفُث دخان لفافتها ، كأنها تُشعرني بأنها ذات فِطنة وبصيرة تدرك بهما كل شيء :

« لقد قلت لك ، يا سلوى ، وما زلت أردِّد : إننا نستطيع أن نتلهّى بالرِّجال دون أن ينالوا منا مَنالاً .»

فابتسمتُ في تحسُّر ، وقلت لنفسي أناجيها : « أيّنا الَّذي يتلهّى بالآخر ؟»

وظَلِلْتُ سجينة البيت أيامًا لا أريمه ، يضيق صدري بكل شيء : بوالدتي ، بسنية ، بشريف ، بحمدي أيضًا. وكان قد مضى أكثر من عشرة أيّام لم أزُرْه . وكلَّما خطرت لي زيارتُه أحسسْتُ عِبئًا يثّاقل على كتِفي ، فأؤجِّل الزِّيارة من يوم إلى يوم . وكلَّما امتدَّ بي الوقت ازددت ضيقًا وتبرُّمًا بحياتي جميعًا .

(١) هَصَرَ الخَصرَ : عطفه إليه وأماله .

ورأيت شريف يدخل عليَّ في ساعة بلغ فيها اهتياج نفسي أشدَّه ، فهممت أن أصيح به أن اخرج ، ولكنَّه تدانى منّي في ترفُّق ، وظل يعاتبني في لهجة ليِّنة ناعمة ، ويسائلني :

« كيف انقطعتِ عن زيارة سنية هذه الفترة ، وهي دائبة السؤَّال عنك ؟»

وانطلق يتحدَّث إليَّ أشتاتاً منَ الأحاديث في مودَّة ومصافاة أشعرتني بطمأنينة وارتياح ، فسَرعان ما سرِّى عنّي ، حتّى إنه لم يكد يعرِض عليَّ الخروج معه للنُّزهة حتّى وافقتُه بلا تردُّد . وانصرف بي في سيارته إلى مصر الجديدة نتنزَّه ، ثم تركنا السيارة إلى مَشرب ، فتناولنا الشاي ، وقضينا وقتًا بهيجًا أضفى عليَّ الأنس والانشراح .

وداخلني إحساس غريب يدفعني إلى أن أحتفِظ بشريف فلا أفرِّطَ فيه ، فمنحتُه كثيراً من توددُّي له ، وإيناسي إيّاه ، وراح هو يُغدق عليَّ عواطف الحب والهُيام .

ولقد نمت هذه اللَّيلة نومًا هادئًا ناعمَ الأحلام . وفي الغَداة ألفيت نفسي يقظَةً مرِحة مدفوعة بجرأة وأثرة إلى حب الحياة والتطلُّع إلى مباهجها ، والرَّغبة في العَبِّ [1] من مُتَعها جَهد الإمكان .

وانصرمت الأيام .

وتوثَّقَتْ عَلاقتي بشريف توثُّقًا أذكرني علاقتي بالباشا المرحوم ، وخيِّل إليَّ أن هذه الحياة الَّتي أحياها مع شريف ليست إلا امتداداً لتلك الحياة السالِفة .

وكان بيت والدتي دائمًا عُشَّ الغرام بيني وبين شريف . ولم يعد خافيًا عليَّ أنَّ والدتي تمهِّد لجلساتي معه وتُفسح لها المجال . وكثيراً ما امتدحَتْ لي شريف وأطرَتْ خِصاله . وقد تعدَّدت حفلات الغَداء الَّتي كنّا نقيمها له ، أو الَّتي كان يتولاها هو في بيتنا ، على الأصح .

وعاد الرخاء القديم يرِفُّ على البيت ، واستطعت أن أؤدِّيَ نفقات المَصحَّة دون تعسُّر . وأقبلتُ على زيارة حمدي في اهتمام ، أحمِل له ألوانًا منَ الطَّعام والفواكه والهدايا . واستأنفتُ زيارة سنية وأنا لا أحسُّ من نفسي أيّة غَضاضة ، بل لقد كنت وأنا أقف أمامها أحِسُّ في دخيلة نفسي بشيء من الزَّهو والاعتزاز ، فأطيل إليها النظر أحاوِل الاستمتاع بذلك الشُّعور الَّذي يحيا بين جوانحي .

وكانت سنية قد نقهت من مرضها ، واسترجعت صحَّتها ، فكنّا نخرج – ومعنا شريف – إلى المشارِب والمراقِص ، نقضي سهرات مِلؤها الصَّفاء .

وتبيَّن لي أن عاطِفة شريف تزداد على الأيام وتتوهَّج ، ولم أعُدْ أحِسُّ معه الهيبة والتحرُّز اللَّذين كنت أحِسُّهما معَ الباشا قَبْله ، فارتفعت بينَنا الكُلفة، وأصبحت جريئة عليه في مَطالبي إليه ، فما كان يأبى عليَّ من شيء . وكلَّما أوغَلَتْ بنا الأيّام ازددت جَسارة ، وازداد هو استسلامًا وطاعة .

وكانت سنية تشهَد ما أنا فيه من رَفاهية في الثِّياب والحُليِّ ؛ فتتفحَّصني بعين لا تخلو من تساؤل . وبدا لي أنها تلاحِظ زوجَها ملاحظة أشبَه بالرَّقابة حين يكون معي ، فأراها قد اعتراها سُهوم وانقباض ، ولكنَّ موجة الأحاديث التي أثيرها معها ، كانت ترد عنها سُهومَها وانقباضها .

وكنت أعنى في بعض الأحيان بأن أحدثّها عَرَضًا في شأن اليُسرِ الَّذي شملنا ، بعد أن فرغنا من أداء الدُّيون ، فأجِدها قد عادت إلى طُمأنينتها ، آخذة بيدي مُلاطفة ، كأنَّما هي تستغفِرني ممّا رمتني به من أسواء الظنون .

(١) العَبُّ : الشُّرب .

— ٥٢ —

تفرَّغتْ والدتي لحياتها الخاصَّة ، لا يعنيها من أمري إلا أن تسلُبَني ما تستطيع سلبي إيّاه من مالٍ ومتاع . ولاحظتُ عليها أخيرًا إفراطَها في الشَّراب ، حتّى إنَّها ما كانت تطيق الصبرَ عنِ الكأس وهي في الدّار .

وازدادت في عينيَّ بشاعةً وابتذالاً . ولَطالما وقفَتْ أمامي في حُلّتها الزَّريَّة ، وبين أناملِها لفافة التّبغ تُلوِّح بها يَمْنةً ويَسرة ، وأنفاسُها المخمورة تهبُّ عليَّ كريهةً ، فتتمثَّلُ في خاطري صورُ الغانيات المتبذِّلات في أحَطِّ دَرَكاتِهنَّ وأرذَلِ مراحلهنَّ !

لقد كانت تقف تجاهي قائلة :

« حمدًا لله ! إني أدَّيت نحوكِ واجبي على أتمِّ وَجْهٍ . إنَّ ضميري مِنْ هذه النّاحية مُرتاحٌ كُلَّ ارتياح . اِعترفي لي بِهذا الفَضْلِ ! »

وساءت حالتُها الصحيَّة ، فألزمَتْها الدّارَ ، وشاع فيها الشُّحوب والهُزال . وكانت في هَذَيانها المخمور تردِّدُ :

« يقول الطبيب إنّي مريضةٌ بالسُّكر . قاتَله الله ! أ يريد أن يحرِّمَ عليَّ تناوُلَ بعضِ المقوِّيات الّتي لا بدَّ منها ؟ »

ثم ترفع بيدها الرّاعشة الكأسَ إلى فمِها فتفرغها صائحةً :

« أيُّ ضررٍ في أن يقوِّيَ الإنسانُ جسمَه بهذه الجُرْعات الخِفاف ؟ أحِسُّ بأن صحّتي تتقدَّم . سأعيش أعوامًا بعد أعوام . سيرى ذلك الطبيبُ الأبلَهُ كيف أدفنه بنفسي ! »

وفي هذا اليوم أصيبت بإغماء شديد ، وحينما أفاقت لزِمَتْ مخْدَعها وبقيَتْ فيه أيّامًا لا تَقْرَب الشّراب . وعندَما أحسَّت بعضَ التّماثُلِ أزمعَتِ الخُروجَ ، فقلت لها : « إنك ما زلت متوعكّة . »

فأجابتني وهي على أهْبَةِ الانصراف :

« إنّي ذاهبَة إلى وَكيل الأعمال . الحياةُ ، يا بنيَّة ، تتطلَّب الكفاحَ . ماذا تريدينَ منّي أن أصنع ؟ لَولا هذا الكفاحُ لَما استطعتُ أنْ أربِّيَكِ ، وأن أنشئَكِ هذه التّنْشئة الّتي بها تعتزّين . »

ومضت لا تأبَهُ لشيءٍ .

وعلى الرَّغم من أنها كانت تردِّد على مِسمعي صِلَتها بوكيل الأعمال ، فإنّي لم يكن لي شرف معرفتِهِ أو التحقُّق من وجودِه على الإطلاق .

وفي ذلك اليوم لقيتُ شريف وقضينا معًا خارجَ المنزِل وقتًا هَنيئًا . وعند عودتي بعد انتصافِ اللَّيلِ وجدتُ الحبشيَّة تنتظِرني في الرَّدْهَة ، فلمّا دخلتُ اعترضتني بوجهِها الجهم الصامت الملامح .

فقلت ، وقد أوجستُ خيفة مِن انتِظارها إيّايَ على غير إلْف : « خير ؟ »

فأجابتني وهي في جمودها المعهود : « كله خير ، لقد نُقِلَت الستُّ والدتك إلى القصر . »

« القصر ؟ مستشفى قصر العيني ؟ »

واستطعت أن أعلَم أن والدتي سقطَتْ فاقدَةَ الرُّشدَ في إحدى الحانات . ورأيت الحبشيَّة تُزايِل الرَّدْهة تارِكَةً إيّايَ في عُبابٍ منَ الحيرة والاضطرابِ ، كأنَّها أدَّت واجبَها ، وأصبحت لا يعنيها بعد ذلك شيء .

وألفيتُني أهرَع إلى شريف فأنهيت إليه الحادثَ ، فأسرع معي إلى مستشفى قصر العيني . ولَمّا وصلنا إليه عِلمْنا أنَّ أمي قد فاضت روحُها منذ قليلٍ ، فبادلتُ شريف النَّظَراتِ ، ثم وجدتُني أنخرِط في البكاء ، وهو بجانبي يواسيني .

وعليَّ أن أعترِف بأن هذا البكاء لم يمتدَّ وَقْته ، فسَرعان ما نضَب الدَّمع في عينيَّ ، وخرجت معَ شريف في السَّيارة عائدَيْنِ إلى منزلي فلمّا دنَونا منه

أحسستُ بِدافع كئيب يخيِّم عليَّ . ولم أستطع النزولَ منَ السَّيارة حين وقفت بالباب ، وهمهمت :

« إنِّي خائفة ! »

« لا عليك . تعالَيْ فاقضي اللَّيلة عندنا . »

فلم أجد إلى الممانَعة من سبيلٍ .

وفي الصَّباح شمِلتني سنية بعطْفٍ بالغٍ ومُواساةٍ كريمة ، وأرادتني على أن أبيتَ معها في حجرتها الخاصَّة .

ومكثتُ على ذلك بِضْع ليالٍ ، كانت سنية فيها مَثلاً نبيلاً للرِّقَّة ولين الجانبِ ، حتّى إنّي في بعض فتراتِ وَحْدَتي كان يطيف بي طائِفٌ من توبيخ الضَّمير .

— ٥٣ —

وفي اليوم الذي رجَعْتُ فيه إلى داري ، لَحِق بي شريف قائلاً : « ماذا أنت معتزِمة أن تفعلي ؟ »

« لا شيء . »

« كيف ؟ أ تحيينَ معتزِلةً في هذا الوَكرِ الموحِش ؟ »

« سأروِّض على ذلك نفسي . »

« لن يكون هذا ؛ لقد دبرت الأمرَ منذ قضت والدتُكِ نَحبَها . »

« أيُّ تدبير ؟ »

فأخذ بيدي قائلاً : « تعالَيْ معي . »

وانصرف بي إلى ميدان سليمان باشا ، وصعِدْنا أحدَ صروحِه ، و وَقفنا أمام شقَّة ، فقال لي وهو يضغط الجرس : « أ لا تروقك هذه المنطقة ؟ »

وانفتح الباب ، فخرج منه غُلامٌ يلبس البياضَ ، ويلِفُّ على خَصره نطاقًا أحمرَ ، وهو يهش لمقدَمنا بوجهه السَّمْح ، ويقول مرحِّبًا : « تفضَّلا ، أهلاً وسهلاً . » و وجدتُني أصحَب شريف داخل الشَّقَّة نجوز بحُجَرِها .

وسمعته يقول في لهجة حانِيَة : « ماذا ترينَ في مسكنك الجديد ؟ »

فتلفَّتُّ حولي مغتبطة بما أجِدُ ، ورنوت إليه رُنُوَّ شُكر ، وما هي إلا أن ألفيتُني أرتمي في حِضْنِه ، فطوَّقني بذراعيه .

وتولّى شريف بيعَ دارِنا العتيقة ، وتصفيةَ ديون والدتي . وبدأت في مسكني الجديد حياةً جديدة طيبة. وكانت الحبشيَّة مع الغُلام ينهضان بالخِدمة على اختلاف ضروبها خيرَ نهوض .

وتتالت الأيامُ وأنا أستمرئ تلك السعادة الشاملَة. ولكنْ أ كانت حقا سعادةً خالِصَة من الشَّوائب والمنغِّصات ؟ أيَّة سعادة هذه الَّتي أبني صَرحَها على أنقاض سعادة أخرى ، لشخص مِن أكرَم الناس عِندي، وأعزِّهم عليَّ ، ولمْ يُسلِفْ إليَّ إلا كلَّ جميلٍ ، ولم يكنْ لي منْه إلا مَحضُ إخلاصٍ ؟

كان شريف يَقْدَم عليَّ بعضَ الأحيان ، وأنا ساهِمة، تعتلجُ بين جنبيَّ هذه الحَسرات ، فكنت أرفَع إليه بصري قائلة :

« لن تطولَ بنا هذه الحال ! »

فيجلس قُبالتي ، وعلى وجهِه سِمات الطُّمأنينة ، ويقول في ثقة ويقين : « أنت شديدة الوسواس ! »

« يُخيَّل إليَّ أنّي أسمَع أفواه النّاس تنفث حواليَّ سُمومَ الكراهة والمَقت ، وأرى عيونهم ترمقني بنظراتِ الزِّراية والامتِهان . »

« أيُّ مقت وأيُّ امتهان ؟ أوهامٌ وخيالات ليس لها من وجود . »

« ليس في مُستطاعي أن أمُدَّ هذه العلاقة الَّتي ألمح فيها شبح الجريمة والعدوان . »

« ليس ثَمَّةَ من عدوان ولا من إجرام .»

ثم ينظر إليَّ بعينِ الوالهِ المتيَّم ، ويحدِّق فيَّ مشغوفًا ، ويقول :

« إنه الحبُّ ، الحبُّ ، يا سلوى . كلُّ شيء في سبيله مُباح ، وكل ذنب من أجله مغفور .»

ثم يأخذ بيدي وينهال عليها تقبيلاً ، وهو يتابع قوله : « أحبُّك ، أحبُّك ، يا سلوى . ولن أفرِّط فيك أبدًا .»

« ولكن ، يا شريف ...»

« أ ترضينَ أن تتخلَّيْ عني ؟ أ مُطاوِعُك على ذلك قلبُك ؟ أ تقضين على سعادتي وتهدمين أملي كلَّه في الحياة والوجود ؟»

ولا يطول بنا الحديث حتّى أجدني قدِ اندَمجتُ معه في تيّارِ عاطِفَةٍ تُذهِلُني عن كل شيء .

وكان يعاوِدني أحيانًا هذا الزّهو الأثيم ، وتلك العاطفة الخاطئة الّتي أحسُّها نحوَ سنية : زهو انتصارِ الخَليلةِ على الزّوجة ، وعاطفةُ تبرُّمِ المرأةِ بِمَنْ تزاحِمُها في قلب رَجُلِها !

وإنه لَيُخجِلني أن أصرِّح بأني كنت أقِف أمامَ صورة سنية أحْدِجها طويلاً ، وكأني أخاطِب نفسي :

« أ لا تستقرُّ بي الحال ، وتصفو لي السَّماء ، إذا رحلَتْ صاحبةُ هذه الصورة إلى عالم آخر ؟»

أ ليست هذه الآدمية هي العقبة الّتي تحول دون أن يُعلِن شريف حبَّنا ، فنعيشَ في وَضَح النهار زوجينِ بدلاً من أن نعيشَ في مسارب الظُّلُمات ، نُخفي وجهَينا عن مساقِط النُّور ؟

لِمَ لا تفسح لنا الطريقَ ؟

إنَّ شريف لا يُضمر لها ذَرَّةً منَ الحبِّ ، وإنَّما يخصُّني بخالِص حبِّه ، وكامِل قلبِه .

— ٥٤ —

لم أدَعْ حمدي فريسةَ النِّسيان ؛ فقد كنت أزورُه في فَترات متباعِدة . وكنت أحمِل همَّ زيارَتِه عبئًا ثقيلاً ، ولكنّي مع ذلك لم أكن أجِدُ عنه محيصًا على أيَّة حال ، فأذهب إليه مُحمَّلةً بالهدايا منَ الحلوى والطُّرَف ، ولا أمكُث معَه إلا قليلاً منَ الوقت .

وقد أخفيتُ عنه نَبأ وفاةِ الباشا ، ولكنّي أعلمتُه بنبأ وفاة أمّي في أوَّل لقاء ، فاضطرب اضطرابًا بالغًا ، واندفع ينشِج كالأطفال ، ثم أخذ يهمهِم :

« يرحمها الله ، يرحمها الله ، ويسامِحُها . إنَّ ضميري مرتاح . لم أسئ إليها قطُّ .»

وكان حمدي لا ينسى في كل زورة أن يتفحَّص حُلَلي وزينتي ، مُلقيًا عليها نظراتٍ قلقة حَيْرى ، ثم لا يلبَث أن يسألني عنِ الباشا ومبلغ اتصالي به . فكنتُ في بعض الأحيان أجِدُ حافِزًا يحدوني أن ألفِّق له أقاصيصَ عن دعوة الباشا إيّاي إلى الغداء أو الشاي ، وأراني أقول له في استفزاز :

« وهل في ذلك بأس ؟ أ لا يجمُل بي أن ألبِّيَ دعوة صديق كريم يتعهَّدنا ببرِّه وحنانه ؟»

فيعبث حمدي صامتًا بمُلاءة السرير عبثًا يكشف عن اهتياجه ، ثم يهمهم في اختلاط :

« وهل أنكرتُ عليك شيئًا ؟»

وقد يحلو لي أن أزيدَ في استفزازِه ، فأمضي في وصف مجالِس الباشا الطيِّبة ، وأمتدِح شخصَه ، وأتغنّى بأفضاله ، ثم أتركه لشأنه .

يا لَلعَجب ! لِمَ أردتُ إثارته ؟ إثارة ذلك الهيكل المحطَّم الّذي لا حول له ولا طول ؟

إنَّها بواعث مجهولة تدفعُني إلى هذه الحماقة ، أجدُ لها في نفسي لذَّة واستجابةً ، ثم أنقلِب ساخِطَة غَضْبَى يَشيع بين جوانبي وخزٌ وتبكيتٌ ، فأفكِّر في

العَوْدة سريعًا لاسترضائه ومُلاطفته بالهدايا والطُّرَف .

على أن زيارات شريف المحبَّبة كانت تُطير من رأسي هذه الأفكار ، فلا أعود أشغَل نفسي بحمدي وبما كان مني إليه ، حتّى لقد يطلُب إلى بعض الأعوان في المصحَّة الاتصال بي ، يدعوني إلى زيارته ، فأسوِّف وأكرر التسويفَ .

— ٥٥ —

تقضَّت أشهرٌ .

إنها لأقدارٌ عجيبةٌ ، تلك الّتي ترمي بي إلى هذا المصير ! حقا إنَّنا لا قِبَل لنا بمقاوَمة تلك الأقدار ، ولكن أ لسنا نحن مسئولين عمّا نقترفُ من ذنوب ؟ أ ليس في اتهامنا الأقدارَ تملُّصٌ من محكَمَةٍ للضَّمير ؟

عشت هذه الأشهرَ في أمواج متلاطِمة ، أرى نفسي أرسُب وأطفو طَوعًا لتدفُّع هذه الأمواج ، لا أملِك من أمري شيئًا . كنت أحِسُّ أنّي في مَهب عاصِفَة عاتيَة تطوح بي ، حتّى تسلم رأسي إلى دُوار عنيف .

لستُ خاطئةً بالقَدْر الذي يبدو ، أوْ لستُ على الأصحّ خاطئةً وحدي . أ ليس شريف شريكي؟ أ ليس هو الّذي كان يدفع بي في تلك الغمرات ؟ ولكن لِمَ ألوم المسكينَ ، وقد كان في ذلك محدوًّا بعاطفته المشبوبة وحبِّه الفوّار ؟

لا خاطئَ سِواي . يا لله ! شدَّ ما أنا بغيضة كريهة ! لست أدرى كيف تمَّت هذه الأحداثُ الجِسام في هذه الأشهر ؟ وعلى أيِّ وجه رتِّبت ؟ وهل كان في المُكنة (١) تلافيها ؟

إني إذ أعرض الآن في خاطري هذه الأحداث ، تعروني هِزَّة كهِزَّة المقرور (٢) . ربّاه ! غفرانَك ، غفرانَك ؛ فقد عَظُمَتْ خَطاياىَ ، وليس لي من عاصم سواك .

قَدَّرتَ ، يا ربٌّ ، عليَّ أن أكون هدفًا لهذه الخطايا، وأنا الضعيفة المَهيضة الجَناح الّتي لا حول لها ولا قوَّة . فيمَ ، يا ربٌّ ، هذا العذاب الّذي أصطليه ؟ أ يكون تكفيري عن تلك الخطايا هو حِكْمَتك السامية فيما قدَّرْته عليَّ من غواية وبَغْي ؟ إنّي لأحس وأنا أجاهِد في سبيل التَّكفير براحة نَفْس وطُمأنينة خاطِرٍ ، تُعينني على أن أحتَمِل تعاسةَ الحياة وثِقَلَها ، غيرَ ضَجِرَةٍ ولا مَلولةٍ .

إنه حقا لشعورٌ جديدٌ عليَّ ، ذلك الشعورُ الّذي أجِدُه وأنا أحاوِل أن أخرُج منَ الهُوَّة الّتي تردَّيت فيها ، أن أغسِل عن ضميري تلك الأوضارَ (٣) الّتي رانَتْ عليه.

إنَّ هذا لمجهودٌ شاقٌ ، ولكنَّ اضطِلاعي به عملٌ عظيم .

قضاءٌ ، يا ربٌّ ، قضيته عليَّ ، فخذ بيدي ، واحمِني من نفسي ، واجعلني أستطيع أن أنهض من كَبْوَتي ، وأن أرفَع هامتي ، وأن أكون من الزَّلَلِ بمنجاة .

هأنذي أروي ما كان من تلك الأحداث الجِسام .

— ٥٦ —

كانت علاقتي بشريف تتوثَّق وتتوطَّد ، وكُلَّما طالت هذه العَلاقة وامتدَّت بها الأيّام ازداد بي تعلُّقًا وهُيامًا .

وكنت أحِسُّ في دخيلتي ميلاً إلى استغلال هذه العلاقة ، فأثقل شريف بألوان المطالب ، ولكنه لم يتقاعَسْ ولم يقصِّرْ . وكلَّما أوغلت في الطَّلَب انصاعَ واستسلَم غيرَ حاسبٍ حِسابًا لشيء .

لم تكن مطالبي تقف عند حدٍّ ، بل لقد تحوَّلَتْ

(١) المُكنَة : الإمكان .
(٢) المقرور : الرجل الّذي أصابه البردُ .
(٣) الأوضار : الأدران ، والأوساخ .

شهوة الطَّلَب عندي إدمانًا وشرهًا ، لا أملك عنه نُكوصًا ، فكان مَثلي كمثل السكِّير ، كلَّما عبَّ ازداد إلى الخمرِ ظَمَؤه ، غير عابئ بشيء .

وتبيَّن لي أن شريف تذوَّق المائدة الخضراء ، ولذَّتْ له المقامرة طلبًا للمال . ولقد ظَفِر بادئ بدءٍ ببعض الكَسْب ، فتملَّكته شهوةُ اللَّعِب ، وفقد سُلطانه على نفسِه ، وانبرى يقامِر ويقامِر ، فتورَّط في خَسارة فادِحة ، وما لَبِث أن بدَتْ عليه متاعِب وآلامٌ .

وبدأت صِلتي بسنية يدرِكها شيء من الجَفوة والفُتور ، فكثيرًا ما أبَتْ أن تخرج معنا إلى المشارِب والمراقص ، وإذا رضيت أن تصحَبَنا قضت وقتها صَموتًا متجهِّمَة ، تنقُل بصرَها بين زوجها وبيني .

وحدث مرَّة أن كانت سنية معنا وقد كرَّر شريف رقصته معي ، فلمَّا عُدْنا إلى المائدة وجدتُ سنية ممتقعَة شاحِبة الوَجْه ، تختَلِجُ شفتاها ، وتضطَرِب أوصالها .

وما إن بدأنا نأخذ في الحديث حتّى رأيتها تهبُّ واقفةً ، وتضرب المنضدة قائلة :

« لن أحتمِل فوق هذا ! »

ثم أجهشَتْ بالبُكاء دفعة واحدة ، وهي تدمدِم موجِّهة إليَّ القول : « ما أنت إلا أفعى ! ما أنت إلا أفعى ! »

وهبَّ شريف يتدارَك الموقفَ ، ويهدِّئ من رُوع سنية ، ولكنَّها اندفعت تصخَب وتسُبُّ وتبكي .

وترامت حولَنا أنظار الجمع ، وأخذوا يتدانَوْنَ منَّا ، ورأينا غِلمان المَرْقَص يتسابقون ليتبيَّنوا الأمر .

وراحت سنية تصيح بي :

« أُخرجي ، اخرجي ، لا تُريني وجهَكِ ! »

ثم اشتدَّت بها النَّوبَة ، وما كادت تسقُط مغشيا عليها حتّى تلقَّاها شريف بين ذراعيه ، وأخذ يعالجُ شأنها .

وشعَرتُ بأن موقفي بلغ غاية الحَرَج ، فتسلَّلتُ والأعينُ تنتهِبُني . واستطعتُ أن أستأجِر سيَّارة إلى داري .

– ٥٧ –

سَهرتُ هَزيعًا منَ اللَّيْل ذاهبةً آيبةً كالحبيس في قفصٍ ، يتردَّدُ فيه ويتلدَّد (١) ملتمِسًا الخلاصَ . وكنت مرهِفَة سمعي لكلِّ خَفْقة أو حركة حَولي ، أتوقَّع مَقدَم شريف .

وانصرم اللَّيلُ ولم يظهر له أثر .

وانقضى النهار بعده دون أن يحضُر ، فجنَّ جنوني ، ولكن لم أجد بدًّا من ملازمة مِخدعي ، فتمدَّدْتُ على المَقعد الفسيح ، أنفُث دخان اللَّفائف واحدةً إثر الأخرى .

وبينما أنا على هذه الحال ، وقد أظلَّني اللَّيل ؛ إذ بدا شبحه يتخايل في القاعة ، دخل صامتًا كاسِفَ الوجه ، واتَّخذ مَجلِسَه عن كثب مني ، لا يتفوَّه بلفظٍ ، فرمقتُه بنظرة غضبى ، وقلت :

« لماذا جَشَّمت نفسَك متاعبَ الحُضور ؟ كان عليك أن تُتِمَّ فصولَ الرِّواية ، فلا تعرِف الطَّريق إلى بيتي ! »

وألفيته ينهض صامتًا فيأخذ زجاجة البراندي ويضعها أمامه ، ثم يملأ منها كأسًا بعد كأس . وسمعته يهمهِم : « لم أكن أتوقَّع أن يحدث ما يحدث . إني لآسف على أيَّة حال . »

فازددتُ اضْطِجاعًا على مَقعدي ، وجعلت أهزُّ قدمي ، وقلت وأنا ألهو بلِفافة التَّبغ بين إصبعيَّ : « فيمَ أسَفُك ؟ »

« إن سنية مختلَّة الأعصاب ، يجب أن نَعذُرَها مهما يكن من أمر . »

(١) يتلدَّد : يتحيَّر .

« أحسبُك تريد أن تقول إن عليَّ أن أعفِّر وجهي بالتُّراب عند موطئ قدميها .»

« ما هذا التفكير ، يا سلوى ؟»

« أ ليس لي أن أفهم مِن قولكَ أنّي أنا المخطِئة في حقها ؟»

فتاه نظرُه لحظةً في أُفُق الحجرَة ، ثم قال : « كان يجب أن نتفادى ممّا حدث .»

« أ كان عليَّ أنا أن أتفادى منه ؟»

« إن الذنْب ذنبي ، وإنّي معترفٌ . إني ألاقي عناءً في سبيل إصلاح ما حدث ، وأرجو أن أُوفَّق في مَسعاي . مُرادي ألا تسيءَ سنية الظنَّ بنا .»

فرفعت إليه هامتي ، وحَدجتُه بنظرة قائلة : « أنت بهذه المخلوقة جِدُّ مهتمٌ ، وأنا في رأيك لا أستحقُّ منك قليلَ اهتمام . لقد أشقاني تمثيلُ هذا الدَّورِ الَّذي أقوم به ! أشعرُ بأنَّك لا تقيمُ لكرامتي وزنًا . إنها الزوجة لها عليك كلُّ الحقوق ، أمّا أنا ... فمن أنا ؟»

فأقبل عليَّ قائلاً : « أنتِ كلُّ شيء .»

فمددتُ يدي أنحّيه عنّي وأنا أقول : « أوهام ، خُدع ، لا صبرَ لي بعدَ اليوم . إنَّ الناس يظنون بنا الظُّنون ، وهذه سنية لم يعد الأمر عليها خافيًا . لا بدَّ أن نضعَ لهذا الموقف حَدًّا .»

« ماذا تريدين منّي أن أفعل ؟»

فقلت ، وقد علوت بهامتي : « أن تختار بيني وبينها .»

« سلوى ! أ تجدّين ؟»

« لا أطيق أن أحيا معك هذه الحياة في جُنْحِ الظَّلام ، وإنّي لا أرضى لنفسي هذه المَهانة .»

وشعَرت بحميةٍ وحماسة تتّقدان في صدري ، فصحت : « طَلِّقْها ، طلِّقها ، وإلا فدعني وشأني !»

و وجدتُه يذْرَع الحجرة مضطربَ الخُطا ، وهو يهمهِم بكلماتٍ لم أستَبِنْ منها شيئًا .

وبعد لحظة قلت : « إنها كلمتي الأخيرة . إنه قولي الفصْل ، فاختر لنفسِك ما يحلو .»

فانتبذ في الحجرة مكانًا حمل إليه زجاجة البراندي، وأخذ يكْرع منها كأسًا بعد كأس .

فقمت إليه وأنا أقول : « أجبني : عَلامَ عوَّلْت ؟ وماذا أزمعت ؟»

فرمقني بعين محتَقنة ، وقال : « دعيني ، لا تَزيدي بلائي .»

« لست أنا الَّتي أزيد بلاءك ، وإنما أنت الَّذي تصب عليَّ وعلى نفسِك أشد البلاء .»

« لست وحدي المسئول عن هذا كله .»

« أنا المسئولة إذن ؟»

« على أيّة حال لا بدَّ من إصلاح الأمر .»

فصِحت ، وأنا أضرب الأرض بقدمي : « بل لا بدَّ من الطَّلاق .»

فأرسل إليَّ نظرة حادَّة ، وهو يقول : « ليس هذا بِمُسْتَطاع ٍ .»

« إذنْ ... دعني ، لا أطيقُ أن أعيش مع رجلٍ مثلِك خائر الإرادةِ ، واهي العَزْم ، خَنوع !»

« أنا خنوع لا إرادة لي ولا عَزْم ؟»

فأحسستُ الثَّوْرَة تهبُّ أعاصيرُها على لساني ، وصِحْت : « بل عِربيدٌ ، مُقامر ، سادِر (١) ، هيهاتَ أن تَصِلَني بكَ عَلاقة !»

فنهض يصعِّد فيَّ بصرَه ، وقال :

« أ تعلَمين حين أتركك ماذا تَلقينَ ؟ أ تُدرِكين أيَّ مصير إليه تُساقينَ ؟»

« ليس من شأنك أن تهتمَّ بما ألقى ، وبما يصير إليه أمري .»

---

(١) سادِر : غير مُبالٍ ، وغير مُهتمّ .

« يلوح لي أنّك بعد أن امتصَصْتِ دمي تبغين البحثَ عن صيدٍ جديد ! »

« أ تجسُر على أن تنطِق بهذا الهُراء ، أيها السفيه ؟ »

ورفعت يدي أريد أن أهويَ بها على صُدْغه ، فأمسك بها في عُنْفٍ وخُشونة ، وهو يحدجني بنظرات مفزِّعة حِدادٍ ، ودَفع بي دَفعة شديدةً ألقَتْني على المَقعد، وقد امتلأ قلبي رعباً .

ثم غادر الحجرَة عَجْلانَ لا يَلوي على شيء .

— ٥٨ —

أمضيت ليلة نكِدَة ساهِدَة الجَفْن ، قَلِقة النَّفْس ، لا ترقأ لي دمعة .

وفي الغداةِ ، وقد عاودني شيء منَ الرّاحة والهدوء ، جعلت أعرِض ما كان من أمري معَ شريف ، وما تداولناه من حديث ، فعجبتُ من نفسي : كيف اتّخذتُ هذا الموقف في غير لباقة وحِكمة ؟

كيف أردتُه على طَلاق سنية فوراً بلا تدبير ولا تقدير ، وأنا أَعلَم علمَ اليقين أنْ ليس إلى ذلك من سبيل ؟

إن شريف لا يملِك إلا مرتَّبه الشّهريَّ المحدود ، وما تَرَفُهُ الّذي يعيش فيه إلا من فضل مال سنية ؛ فأنّى له أن يُغلِق هذا الباب في وجهه ؟

إن طلاقَها لن يكون كارِثَة عليه وحدَه ، بل هو كارثة عليَّ أنا أيضاً .

يبدو لي أن الحلَّ المنطقيَّ المعقول أن يبقى شريف لزوجه خالصاً ، وأن ينفصِل عنّي فأعودَ أنا إلى كنف زوجي .

ولكن أيُّ زوج هذا الّذي أعود إلى كنَفه ؟ إنه ليس إلا خِرقة آدمية يُسرع إليها البِلى . بيدَ أنه زوجي الّذي اختارتْهُ لي الأقدار ، فكيف لي أن أترُكَه ؟

إن الحياة أمامي غائمة غَبراء . غيري يستطيع بمثل تلك الشخصية وذلك الشباب أن يستوفيَ حظَّه من المُتَع والمباهج ، غير عابئ بشيء . أ ليس لي حقٌّ العيش؟ أ ليس لي أن أستكمِل في هذه الدنيا سعادتي ؟

أ ليس ... ؟

ولكن أ مُستَطيعَةٌ أنا أن أفعَل ؟ ولمَ لا ؟

غيرُ شريف من الناس كثيرون يسعِدُهم أن أنيلَهم حبّي ، ليس عليَّ إلا أن أومئ وأن أختار .

وكنت أمام المرآة ، فأخذتُ أتطلَّع إلى خيالي فيها. وكان وجهي مكدوداً وعينايَ تحيط بهما هَالةٌ سوداء . وخُيِّلَ إليَّ أن الغضونَ قد بدأت تعرف طريقها إلى قَسِماتي .

وأحسستُ بأنَّ الوَجْه الَّذي يطالعني في المرآة ما هو إلا وجهُ أمّي ، ذلك الوجهُ الَّذي نسجت عليه حياة السَّهر وعبثُ الهوى وإدمان الخمر آثاراً لا تملِك محوها المساحيقُ والأدهان .

واختلجتُ اختلاجةً شديدة ، وهَوَيْتُ على مَقعد أغطّي وجهي بيدي ، وأحاول أن أنحّيَ عن خاطري صورة تلك الأمّ ، وهي في أخريَاتِ أيّامها تعاني الاضمِحلال والتدهورَ في أشنع مظاهِره .

واستبدَّت بي نوبة بكاء .

— ٥٩ —

وقُبيلَ الظُّهر من غدي أقبلَتْ عليَّ الحبشيَّة ، تخبرني بأن سيِّدة حضَرت مبديَةً رغبتَها في لقائي ، فأجبتها ضيِّقَة الصَّدْر : « لا ألاقي أحداً . »

« إنها تلحُّ . »

« قلت لكِ لا سبيل إلى أن ألاقي أحداً . »

وما هي إلا أن رأيتُ شبح الدادة شيرين تدخل الحجرةَ ، متحاملةً على عكّازتها بخُطواتها المتهدِّمة

تكاد تتعثَّرُ ، وقالت : « بل يجب أن تَلْقيني ، يا سلوى .»

وانصرَفت الحبشيَّة عنّا على الفور .

فقلت للدّادة شيرين مهمهِمة ، وأنا أزورُّ عنها بنظري :

« لم أكن أعلم أنّك أنت الّتي تطلُبين لقائي .»

فجلسَتْ على الأرض قريبة منّي تعبث بطرف البِساط ، صامتة ، مطأطئة الرأس . وشاع بين جنبي القلقُ ، وأردتُ أن أقول شيئًا فأعياني أن أفصِحَ . وسمِعْتها بعد حين تقول : « أ تروقُك هذه الحال ؟»

« أيّة حال ؟»

فرفعت إليَّ رأسها ، وأحدَّت فيَّ بصرها ، وقالت: « لا تتجاهلي !»

وصمتنا معًا بُرْهَة ، ثم وجدتُني أقول شارِدَة النظر:

« وماذا تريدين منّي أن أفعل ؟»

« أن تبتعِدي عن شريف ، أن تدعيه لزوجه .»

« أ تصدِّقين الإشاعات ؟»

فأخذَتْ ترمُقني بنظرات شديدة ، ثم قالت : « قلت لك لا تتجاهلي ، لمْ يعد شيء خافيًا على أحد .»

فنهضت أسير في الحجرة ، وسمِعْتها تقول ، وقد رقَّ صوتُها : « اِقبلي ، يا ابنتي ، نُصحي . أُتركي شريف لزوجه .»

فوقفت تجاهَها أقول : « وهل قيَّدْته بأغلال ؟»

فحبَت نحوي ، وأخذَتْ بيدَيْها الهزيلتين يديَّ ، وجعلت تردِّد : « أرجو منك ، يا ابنتي ، أنْ تُسدي جميلاً إلى تلك الأسرة . إن سنية أختٌ لك ، ولها عليك حق الوداد . شدَّ ما أحبَّتك ، و شد ما أخلَصَتْ لك ! أ ليس ظُلمًا أن تنفصِم بينكُما تلك الوشائج الكريمة ؟ إني لعلى يقينٍ منْ أنَّ قلبك ما زال عامرًا بعواطفَ نبيلة .»

وألفيتُني أجلِس على المَقعد ، وقد تاه خاطري في آفاقٍ شتّى ، وظلَّت الدادة شيرين تتحدَّث إليَّ بصوتها الرَّقيق ، وهي تناشدُني الوفاء والإخلاص . وسمِعْتها تقول : « أقسم لكِ ، يا ابنتي ، إن سنية تضمِرُ لك حبا وصفاءً ليس فوقَهما من مَزيد .»

« لم أكن في وقت من الأُوقات أَقَلَّ منها صفاء ولا أضعف حبا .»

« إذن عليك أن تسدي جميلاً .»

وأسندت رأسي إلى راحتي ، وأنا شارِدَةُ النَّظَر ، تحومُ بين جوانحي عواطفُ متضارِبة ، وأحسُّ في دخيلتي بتخاذُلٍ وانكِسار ، ثم وجدتُني أخفي وجهي في يديَّ ، فإذا بالدادة شيرين تدنو مني حانِيَة عطوفًا ، فرأيتني أنكبُّ على صدرها مسترسِلة في نشيج وانتحاب .

ما أروعها فترة قضيتُها باكية على صدر هذه الدادة الرءوم !

كان يُخيَّلُ إليَّ أني بعيدة العَهد بمثل هذا الصَّدْر الّذي حُرِمت حنانَه وعطفَه سنينَ بعد سنين ، وكأنّي في هذه الفَترة قد طَوَيْتُ العمر راجعَة إلى الوَراء ، فإذا أنا سلوى الطِّفْلة تجد في ذلك الحِضْنِ ملاذَها الحبيب ومَفزَعها الأمين .

ولم تتركْني الدادة شيرين حتّى ذهب عنّي الروع ، وثابت إليَّ الطُّمأنينة ، فوعدتُها بألا أدخر جَهدًا في سبيل تحقيق رغبتها إليَّ .

وكنت في ذلك الوقت صادِقَة النيَّة ، حازِمَةً أمري ، معتزِمةً أن أفعل شيئًا في هذا الصَّدَدِ ليس لي عنه مَحيد .

ومرَّتْ ثلاثة أيّام كنت فيها نهبَ الهواجس والأفكار ، وكلَّما حاولتُ أن أقوم بعملٍ حازِمٍ يتطلَّبه منّي الموقف ، شعَرت بإرادتي تتهافَتُ ، فأجدُ نفسي متداعِيَة حيرى لا أقوى على إقدام .

وكنت أحِسُّ بفراغ يحيط بي ، وأتلمَّس حولي شخصاً يعينني على أمري ، فلا أجد إلا وَحشةً وانفراداً، لا مؤنسَ ولا معينَ .

— ٦٠ —

طالَعني وجهُ شريف بعد مَغيب أيّام ، دخل الرَّدْهة حيث أجلِس ، وهو هادئ النَّفْس مطمئنُّ المُحيّا ، كأنْ لم يقع بيني وبينه من شيء . وقضيت الوقتَ معه على مألوف العادة دون أن نتجاذَب أطرافَ الحديث فيما كان ، بل تجاوزناه إلى التحدُّث في موضوعات شتّى من التّوافه الّتي تعودنا أن نزجِيَ بها الوقت .

وتناول معي الغداء ، ثم انصرف بعد حين .

وعلِمت بعد ذلك أن سنية سافرت إلى الإسكندرية تمضي فيها وقتًا ، وأن غيبةَ شريف عنّي ، مردُّها إلى أنه كان في زيارتها هنالك . ويبدو لي أنّه جعل من برنامج زيارته لها أن يصفّيَ الجوَّ بينه وبينها ، وأن يحصُل منها على نقود .

و وَجدتُ نفسي أسايرُ الأمور في تبلُّدٍ عجيب . وأقبلت على حياتي الّتي أحياها مع شريف حريصة عليها كل الحِرص ، راضيةً بها كل الرِّضا .

وكان كلانا يتجنّب أن يذكُر شيئًا يتعلّق بسنية ، فقد تناسَيْناها عمدًا ، لا يجري لساننا باسمها في كثير ولا قليل .

ودارت عجلة الأيّام ونحنُ على هذا النحو: شريف معي في القاهرة أكثرَ أيامه ، وسنية في الإسكندرية يزورها شريف في عُطلة الأسبوع . وقد أصرَّت سنية على أن تبقى في الإسكندرية مبتعِدة عن القاهرة ، أو بالحريّ مبتعِدة عن الجوّ الّذي أعيش أنا فيه، على الرّغْم من أن شريف أكّد لها أنه فصَم علاقتَه بي ، وأنه لم يعدْ يراني أو أراه . وكان لهذا يتحفَّظ في الخروج معي ، فلا أصحَبُه إلا إذا قصَدنا الأماكن المنزوِيَة غيرَ المطروقة، متوسِّلاً بذلك إلى أن يُسكِتَ ألسنة الوُشاة ، ويغلِق باب الإشاعات ، وينقذَ الظواهر .

بيد أن حياة شريف لم تكنْ في طريق مستقيم ؛ فقد تهالك على المُقامرة ، وأسرفَ في الشّراب ، فتراكمَتْ عليه المغارمُ ، وثقُلت بسبب ذلك الديونُ . وكان إذا شرب فأثقل أصبحت حالُه لا تُطاق : حديثٌ ثائر كلُّه دفاعٌ عن نفسِه ، وتسويغٌ لِمَساويه ، دون أن يكون ثَمَّةَ ما يدعو إلى هذا الدِّفاع . وحين يحتدُّ في حديثه تحتقن عيناه ، ويلتهب وجهُه ، وتتكاثر عليه الغضونُ، ويتناثر من فمِه الزَّبَد ، فيكون شبهه أقربَ إلى شرير عِربيد مشرَّد ؛ ولذلك كنت أخشاه ، وأتوخّى ألا أثيرَه، فأصمتَ مستمِعة صاغِية ، وأسارِع إلى تصديقه ، والموافَقة على كلِّ ما يفيض فيه من قول .

وتوالى تخلُّفه عن عملِه في الوِزارة ، وأحصِيَ عليه إهماله لواجبه . وجاء يومٌ تقرر فيه فصلُه ، فالتحق بعد لأيٍ بمؤسَّسَة تجارِيَّة ليست بذات شأن . وتضاءل دخلُه، فاشتدَّ بي وبه العُسر . وكان ما يناله من سنية يتفاوتُ مَدًّا وجزراً باختلاف علاقته بها حالاً بعد حال . على أنَّ كل ما ينالُه من مالها كان يذهب على الفور طُعمة للمائدة الخضراء .

أمّا حمدي فقد أهملتُه الإهمال كلَّه ، فلم أعد أزورُه . وتكرَّر طلبه أن يراني ، فكنت أنتحِل ألوان المعاذير . وثقُل حسابُ المستشفى ، ولمْ يبقَ في طاقة شريف أن يقوم بأدائه .

وازدادتِ الحالُ على توالي الأيّام سوءًا إلى سوء ، وطفِق شريف يَرهَن ما أملِكُه من حُليٍّ ، وتبع ذلك بيعُها ، فإن مانعتُ لجأ إلى الاغتِصاب .

ولم يَبْقَ في خدمة البيت إلا الحبشيَّة الصابرة الصَّموت ، تلك الآدمية الغريبة الأطوار ، هذا اللُّغز الّذي يثير فيَّ الدّهشةَ والعجب .

وأبلغتني إدارة المَصحَّة يومًا أن حمدي نُقِلَ إلى

الدَّرجة الثَّالثَة ليعالَج مجّانًا لوجه الله .

يا لله ! إنه ما برح حيا يتنفَّس !

ولم نستطع الإبقاء على الشَّقة الَّتي أسكنها ، فتركتُها إلى شقَّة متواضِعة في إحدى زَوايا شارع محمد علي .

وانتقلت معي الحبشية لا تفارقني ، وظلَّت كعهدي بها غارِقة في صمتِها وكآبتها و وُجومِها ، ملتزِمةً ذلك الأدبَ المطبوع الَّذي يقف بها عند حدٍّ لا تتعدّاه . وقد تمضي الأسابيع دون أن تبادِلني قولاً إلا كلمتها الخالدة :

« ماذا تريد سيِّدتي أن أعدَّ لها اليوم من ألوان الطعام ؟»

ومكثت معي تتحمَّل قسطها من أزمة العُسْر الَّتي أحياها ، دون أن تبديَ تململاً أو شكاة .

وكنت أسائل نفسي : « ما سر هذا الرِّباطِ الَّذي يصلني بشريف ؟ إنَّني كلَّما أمعنّا في البؤس واستبدَّت بنا الحاجةُ ازددتُ به من تعلُّق وحِرْصٍ ، وأقبلت عليه بعاطِفَة جيّاشَة ، يدفعني نحوه هوًى كمين مسكين .»

كان مَثلي كَمَثَل ذلك المريض الَّذي كلَّما أزْمَنَ مرضُه وجد نفسه أكثر ألفةً له ، ولم يبذلْ جَهداً في أن يستبدِل به صحَّة وعافية .

لقد نسي المريض تلك الصِّحة أوِ العافية ، أو لقد أصبح يخشاهما ويراهما أمرٌ منَ المرض وأقسى .

وتعوَّدتُ أن أرى شريف يرجع إلى البيت في جوف الظَّلام ، عائداً من نادي القِمار منهوكَ القوى خامد الأنفاس ، فيُلقي بنفسه على المَقعد الطويل ، ويستغرق في خمول واسترخاء ، فأرنو إليه طويلا أتفحَّص قسماتِه المُفصِحة عنِ الألم والبأساء .

أين هذا الشبحُ الهزيلُ المنقضُّ من شريف الغابر ، ذلك الإنسان الَّذي كانت تتوضَّح فيه سمات الرُّجولة والنُّضج والازدهار ؟ ذلك الَّذي كانت تتمثَّل لي فيه صورة الباشا بعظمة صفاته ؟

كنت أرنو إلى شريف وهو مُمَدَّدٌ على المَقعد الطويل ، فإذا الحسرَة تكادُ تأكل قلبي ، فأدنو منه وآخذ برأسه أوسِّدُه صدري ، وألاطف خُصُلات شعره حتّى يواتيَه النَّوْمُ في طُمأنينة وأمان .

— ٦١ —

وذاتَ ليلة طرقَ الدّارَ شريف وهو على أسوإ حال: فكرٌ شارد ، و وجهٌ ممتقَع ، وأعصاب مُستوفِزة ، يتلفَّت مذعوراً كمَن يتوقَّع داهِمَ الشَّرّ ، فحاولتُ أن أكتنهَ خفيَّة أمره ، فلم يبح لي بمكنون ، واكتفى بأنْ أعلَمني أنّه لقيَ خَسارة فادِحَة على مائدة القِمار . ولمحتُ رأسَه يترنَّح من دُوارٍ يغشاه ، فأسرعت إليه أحوطُه بذراعيَّ وأعنى بأمره أشدَّ عناية . وانبثق من أعماق قلبي حنان دافِق ، فانهلت عليه أقبِّله في شغَف ، وعيني تتسايل منها الدُّموعُ ، فحدَّق شريف فيَّ ، وتلاقت أعيننا وقتًا، ثم وجدته يوسِّدُ خدَّه خدّي ، وامتزج بدمعه دَمْعي ، والصَّمْتُ يعقِد لسانَيْنا ، فلم يجرِ بيننا كلامٌ .

وبعد حين ألفيتُني أقول له مهمهِمة : « حتّامَ هذا ، يا شريف ؟»

وراح يتوسَّمني طويلاً ، ثم أزاغَ بصرَه عنّي ، وقال راعشَ الصوت : « لن يطولَ هذا ، لن يطول !»

ثم التفتَ يحدِّق فيَّ وقد ضغط يدي قائلاً :

« أ تحبينني على الرَّغم مما أنا فيه ؟»

فصحت وأنا أضمُّه في لهف : « لم أحبَّكَ يومًا قدرَ ما أحبُّك السّاعة .»

فهمهم : « شكراً لك ، شكراً لك .»

« أ لا تستطيع أن تفعلَ شيئًا تُنقِذ به نفسَك ؟

شريف ، يجب أن تفعل .»

« أخشى أن يكون الوقت قد فات .»

« كلا ، لا تَقُلْ ذلك . أنا معك ، أُطلب ما تشاء من عَوْن أكُنْ طوعَ يمينك . فكِّر قليلاً . دبِّر أمرَك معي .»

فزفر زفرةً حرّى ، وقال : « الدُّيون ... الديون ، يا سلوى . دائمًا خَسارة متواصلة . هذا النَّحس الَّذي يلازمني في المُقامرة . لقد أخلفني الحظُّ وأقسمَ ألا يكون لي يومًا .»

« ولِمَ المقامرة ؟ أليس ثمةَ اتجاهٌ آخر ؟»

« فاتَ الأوان .»

« لمْ يفُتْ . أينَ مضاءُ عزيمتك ؟ أين بُعدُ هِمَّتك؟»

« فات الأوان ، فات ، يا سلوى ، وليس له من عَوْد .»

وأخذتُ وَجْهَه بين يديَّ وأنا أحدِّق فيه ، ثم قلت: « لو طلبتَ إليَّ أن أبذُل نفسي وحبّي في سبيل إسعادك لَما تردَّدت في إجابتك .»

وأطلتُ في وجهه تحديقي ، وقلت : « عُد إليها واتركني إن كان في ذلك طريقٌ إلى النَّجاة والخلاص . ثِقْ بأنّي أرضى هذا المصيرَ مهما يكن من أمر .»

فشدَّ على يديَّ ، وكانت قسماتُ وجهه تختَلِج ، ثم لاطف كفّي في حُنُوٍّ بالغ ، وقال : « لن أترُكَك ، يا سلوى . هيهات أن نفترق ! أنت جزءٌ منّي لا انفصالَ له عنّي .»

وشرد بصرُه ، ثم همهم : « إنها المعركة الأخيرة ، فإمّا الفوز ، وإمّا ...»

ثم ابتسم ابتسامة هزيلة شاحبة ، وأراح رأسَه على صدري ، ورأيته يهمِس بكلمات لم أتبيَّنْها ، وإذا به يُسبِل جَفنَيه ، وصوتُه يتزايَلُ رويدًا ، ثمَّ ما لبِثَ أن طواه نُعاسٌ .

— ٦٢ —

ما إن صَحا شريف من نومه في ضحوة غدٍ حتّى أخبرني أنه قد أزمَعَ السَّفر إلى الإسكندريّة ؛ ليبذُل آخرَ جَهد في طاقته ؛ للخروجِ من المأزق والفكاك من الأزمة . وغابَ يومين ، ثم عاد إليَّ . دخل كمألوف عادته لم يطرأ عليه جديدٌ ، ولكنَّه كان واضحَ السُّهوم ، مديدَ الصَّمت . ولبِثْت أتوقَّع أن يتحدَّث إليَّ فيما كان مِن مسعاه في الشأن الَّذي سافر من أجله، ولكنَّه لم يفعل . ولَمّا ضِقت بصمته ذرعًا دَنَوْت منه أقول :

« رجائي أن تكون قد وُفِّقْتَ إلى حلٍّ مُرْضٍ .»

فربَّت يدي ، وهمهم : « وُفِّقْت إلى حلٍّ طيِّب ، حلٍّ أنا عنه راضٍ كلَّ الرِّضا .»

وأمضى يومه في المنزل لا يريمُه ، وكان يطارحني الحديث بعض الوقت ، وطابَ له أن يعرض معي مشاهد من عهد الطُّفولة وذكريات الصِّبا . وقد تسنح على فمه ابتسامةٌ خفيفةٌ تَنُمُّ عن استسلام وسُخْرِيَة ، ثم لا تلبَث أن تضيع في زوايا الغُضون والأسارير .

واستطرد بنا الحديثُ إلى حمدي فقال : « شدَّ ما أنا عاقٌّ ! لم أزرْه قطُّ ، ولكن أليس هذا خيرًا لي وله معًا ؟ كيف أستطيع أن أزوره وأن أرفع إليه بصري ؟»

« لا تلقِ إلى شيء من هذا بالَك . ليس في قدرةِ آدميٍّ أن يغيِّر مجرى حياته . إنَّما الأقدار يا شريف ، تخطُّ لنا في الحياة مسلَكًا ليس منه مناصٌ .»

فاتسعت حدقتا عينيه ، وقال : « الأقدار ؟ لا أدري لهذه الكلمة معنًى واضحًا على وجه التَّحقيق . ألهذه الأقدار وجود ؟»

ثم عاد يسأل عن حمدي في إلحاف ، فقلت وقد غضضتُ بصري : « إن المسكين مَقْضِيٌّ عليه لا مَحالة ! فلنَعُدَّه ميتًا .»

فغمغم قائلاً : « كلُّنا موتى !»

وظل تائه النظر حينًا ، ثم ألفيته يجذب يدي بغتةً ، وقد التمعَتْ حَدَقتا عينيه ، وهو يقول في نبرات متدفِّعة : « فلنهرُبْ ، فلنهرب ، يا سلوى . »

« نهرب ! أين ؟ كيف ؟ »

« لنهرب ، لنهرب وكفى ، لنهرُبْ إلى مكان بعيد ، فنترك خَلفنا هذه الحياة الشائكة في ذلك الجوِّ المسموم . نبدأ حياة أخرى نبني صَرحها من جديد . »

فقلت له في حَمِيَّة : « أنا معك . مُرْني أسمعْ وأطعْ . »

وتماسكَتْ أيدينا ، وتشابكَتْ أنظارُنا ، وظللنا على تلك الحال هُنَيْهَةً . ثم وجدت ساعِدَيْ شريف يتراخيان ، وسمِعته يقول :

« وهل يمحو الهرب ما نتركه خلفنا من مساوئ؟ إنه هربٌ من الواقع ، إنه الجبنُ عن مواجهة الأحداث ، والعجزُ عن احتمال التبِعات . »

« ما دام الهربُ سبيلاً إلى راحتك فلنفعل . »

« لا أدري ما السَّبيل إلى راحتي ؟ بل هناك سبيل واحد . »

ثم ران عليه صمتٌ كثيف ، وقد اعتمد رأسه بيديه .

وبعد العشاء قال لي ناظرًا إلى حجرته : « أرغب في أن أقضي ليلتي وحيداً . »

« كما تشاء . »

وقبَّل ما بين عيني قبلةً حافِلة ، ثم هُرِع إلى حجرته فطواه البابُ .

وقصدت إلى حجرتي تتقاذف بي وساوسُ وهواجس . وثقلَتْ عليَّ همومُ التَّفكير ، فأسلمني الخُمول إلى نوم يعروه اضطراب .

واستيقظت فجأة متفزِّعة من صوت انفجار ، فتلفتُّ حولي ، و وجدتني أعجل إلى حجرة شريف .

وما إن دخلتها حتى وقع بصري عليه جثَّةً هامِدَة طريحةَ الأرض ، وفي يده مسدَّس ، والدَّمُ يشخَب (١) من جبينه ؛ فانهارت قوايَ ، وفقدتُ رَشادي .

كتبت عليَّ ، يارب ، أن أشهَد مصرَع رجلين أحبَّني كلاهما وأحببتُهما ! إن الشُّؤم بَذْرةٌ كامِنَة في نفسي ! إنِّي أنفُث حولي سُما زُعافًا ، وإنه لمصيبني يومًا ليودِيَ بي .

أنا الجانِيَة لا ريب . أنا التي صوَّبَتُ المسدَّس إلى رأس شريف ، فيا ليتني أستطيع أن أصوِّب مثله إلى رأسي ، ولكنَّه الجُبن المتغلغِل في دخيلة نفسي .

إنَّها أحداثٌ مروِّعة تلك الَّتي مررتُ بها . أحداث متشابكة حالكة لا أملِك لها تمييزاً ولا تفصيلاً . لقد وَعكَتني حُمَّى تركَتني أهذي وأهذي . وما كدْتُ أبلُّ من هذه الوَعْكة حتَّى توالت عليَّ مراحلُ التنقُّل بين دور الشُّرطة والنِّيابة والقضاء وما إليها . أسئلةٌ لا ينضُب لها فيْضٌ ، وأشخاصٌ من خدم سنيَّة وحشمها يواجهونني بعيونهم المتلهِّبة و وُجوهِهِمُ المتجهِّمة . ألفاظٌ جارِحَة وتهمٌ عارِمَة تكتنفني من هنا وهنالِكَ ، وتملأ أذنيَّ طنينًا يدوِّي ولا ينقطعُ لهُ دَوِيٌّ .

— ٦٣ —

ألفيتُني أخوضُ غَمرات الحياة مرَّة أخرى .

لم أستطع في الشقة مُكثًا ، فرحَلْت عنها قاصِدةً منزلَ حمدي بمنطقة الأهرام ؛ فإذا المنزل مسكون . واستقبلني رجلٌ من أهل الصَّعيد فارعُ القامة ضخمُ الجثَّة صُلب السِّمات ، فلمَّا سألته في شأن المنزِل أخبرني بأن شخصاً استأجره منذ زَمن .

فذهبتُ إلى المستشفى من فوري ، واستفسرتُ عن مكان حمدي فأجابني الممرِّض : « أيُّ حمدي ذلك الَّذي تسألين عنه ؟ »

---
(١) يشخَبُ الدَّمُ : يتدفَّقُ مِنَ الجُرح .

فأوضحت له مَن أريد ، فأغرق في الضّحك ، وقال في غير اكتراث : « سلي عن الأحياء ، يا آنسة .»

« أ مات ؟»

« منذ أكثرَ من شهر .»

و وقفت لحظة واجمة .

ورأيت الممرّض يمضي لشأنه ، فاستوقفته أقول له : « وأين دفنتموه ؟» فصعد فيَّ بصرَه هُنَيْهة ، ثم قال : « هل أنبأوك بأنّي ‹‹ شيخ التُّربيّة ›› ؟»

وغادرت المستشفى أتحامَل على قدمي ، لا أدري أيّة وجهةٍ أقصد ؟

لم يعد لي في الحياة شخصٌ أركَن إليه ، لقد دفنت أكرم أصحابي وأعزّهم عليَّ جميعًا . وليس فيمن بقي منَ النّاس أحدٌ أستطيع عليه تعويلاً .

وكنت منهوكةَ القُوى ، لم أطعم شيئًا منذُ وقت طويل ، ولم يكن معي نقودٌ ذاتُ شأن ؛ فلبثْتُ خارج المستشفى أطوِّف ببصري حولي فيَ خَبَل وذُهول . ومرَّ بي وقتٌ وأنا لا أملِك وعيي .

وسنحَتْ لي فكرة مفاجئة : لِمَ لا أنطلق إلى مسكَن الدّادة شيرين ؟ لقد كانت تحتفظ لنفسها أبدًا بشقّة صغيرة تزورُها بين حين وحين ، ولكنَّ هذه الشقّة لم تقع عليها من قبل عيناي . وجعلتُ أقدَح فكري وأجمع ذكرياتي وأسائل نفسي : « أين مكانُها ؟» وأخيرًا اهتديت إلى أنها في منطقة « مصر القديمة » ، فيمَّمْتُ شطرها . وعثرت بعد طول سؤال على مكان الشّقة ، ولكنّي وجدتُها مغلَقة ، فأضافتني الجارة ، إذْ رأت ما أنا فيه من إعياء وبؤس ، فأدركَتْها الشَّفَقة عليَّ ، وأرسلت في طلب الدّادة شيرين .

وبعد ساعات رأيت الدادة تدلف أمامي ملفَّفَة في السواد من الفرع إلى القدم ، كأنّها قطعة من اللّيل تتحرّك . دخلت إليَّ متحاملةً على عُكّازَتها ، فلمّا وقع بصرُها عليَّ هَمْهَمت في لهجة يغيضة :

« هذا ما كنت أتوقّعه .»

وأمسكَتْ بيدي ، وقادتني إلى مسكنها ، فكأني جانٍ أثيمٌ يُساق إلى ساحةِ القِصاص .

وأحسستُ معها بتخاذُل يُفقدني كلَّ مقاوَمة ، كأنّما أنا شاةٌ مستكينة بلهاءُ بين يدَيْ جزّارٍ عتيٍّ .

وما إن احتوتنا الشّقة حتى رمت بي الدادة شيرين في ركن من الأركان ، فرفعتُ إليها عينيَّ وأنا بالدَّمع شرِقة ، وقلت :

« ليتَك تقتُليني ، فأنجوَ ممّا أنا فيه من عذاب !»

وتشبثْتُ بثوبها ضارِعة ، فسمعتها تقول :

« ابعدي عني ! ابعدي عني !»

وما لبثَتْ أن غادرت المسكنَ .

فانكببت على الأرض ، تنهلُّ من مآقيَّ الدُّموعُ الغِزار .

وكنت أحسُّ أنَّ دموعي لا ينفَد لها مَدَد ، وظللْتُ كذلك وقتًا لا أدري مداه . ثم شعرَت بالدادة شيرين تدخل المسكن وتقترب مني ، وإذا بها تمدُّ إليَّ يدَها بقَدَح ماء وهي تقول بصوت أجشَّ : « اشربي .»

فأفرغت القَدَح في فمي دَفعة واحدة .

وسمعتها تقول : « هل أنت جوْعى ؟»

فوجدتني أجيبها على الفور دون استحياء : « لمْ أذق طعامًا منذ أمسِ .»

فغابت عنّي بُرهة ، ثم عادت بصَحن مغطى برغيف تحته قطعة جبن وبِضعُ بيضات ، و وَضَعت الصَّحن أمامي صامِتة ، فاندفعتُ منهومةَ ألتهِم الطَّعام.

وجلستِ الدادة غيرَ بعيد عني .

وبعد حين سمعتُها تجمجم ، كأنّها إلى نفسها تتحدَّث : « لقد وعدتِني أن تتداركي أمرَك قبل وقوعِ الكارثة ، ولكنَّك لم تفعلي .»

فأجبتُها خافِضةً البصرَ : « إنه قضاء الله ، ولا مردَّ لقضائه . »

« حقا قضاءُ الله ، وله في ذلك حكمتُه . لا يمكن الآن أن نستدرِك ما فات وانقضى . »

واقتصر الحديثُ على هذا الحِوار . فنهضَتِ الدّادة تارِكةً إيّايَ ، ولكنّها ما لبِثت أن رجعَت تقول في لهجة يشوبها الجفاء : « إذا رغِبْت في النّوم فدونَك الحجرة . »

وأشارت إلى مكانها .

ثم زايلَت المسكَن وهي تتحامل على عكازتها في جَهد ، وردّتِ الباب خلفها .

مكثتُ في مكاني لا أغادِرُه . وقضيتُ ليلتي كلَّها في هذا الرُّكن متجمعة كالمقرورِ المرعدِ ، لم أهمَّ بالنُّهوض إلى الحجرة أنام فيها .

وانصرم يومان ، وحالتي لا يعتريها تغيُّر : في المسكن لا أبرحه ، تَقْدَم الدادة وقتًا ثم تنصَرِف لا تبادلني إلا كلمات .

وكان وجهُها مُربَدًّا عليه عُبوس . وتمثَّل لخاطري أنّي حيوانٌ حبيسُ قفصٍ ، لا يزوره رائضُهُ إلا ليزوِّدَه بالطَّعام والشَّراب .

— ٦٤ —

وفي اليوم الثّالث قدمتِ الدادة شيرين فوَجدتني قابعةً في رُكني المعهود ، أقلِّبُ من أفكاري السّود ، فجبهتني بقولها :

« تبغينَ أن تقضي بقيةَ عمرِك على هذا النحو ؟ »

فرفعتُ إليها هامتي ، وقلت : « حقا ، لستُ أدري من أمري شيئًا . »

فقالت في جِدٍّ واهتمام : « يجب أن تؤدّي عملاً ، يجب أن تشغلي نفسَكِ . »

« إني لا أتأخَّر عن شيء . أيَّ عمل اخترتِ لي ؟ »

« عليك أن تبحثي وأن تختاري لنفسك ما يحلو . »

« أشكر لك أنك ذكَّرْتني بما يجب عليَّ . »

« اِسمعي ، يا سلوى ، يجب أن تكسِبي قُوتَك بعرَق جبينك . يجب أن تكدَحي في الحياة وأن تجاهدي ، واسألي الله غُفرانَ خطاياك ، إن الله رحيمٌ توّاب . ولكنّه لا يمنح المغفرة إلا مَن كان خالصَ النيَّة صادقَ المَتاب . »

ثم مضت عنّي .

وفزِعتُ لنفسي أفكِّر فيما نصحتني به الدادة شيرين . حقا ما يكون لهذه الحال أن تدوم . يجب أن أفكِّر في كسْبِ القوت . لن أغْدُوَ عالةً عليها ؛ فليس لها طاقةٌ بي . سأقوم بأيِّ عمل . عليَّ أن ابتغيَ الوسيلةَ الّتي تؤهِّلني لغفران الله .

ونهضت من ساعتي مزْمِعَةً الخروجَ ، ولكن إلى أين ؟

اتجهت ناحية الباب ، فما إن دانيتُه حتّى ألفيتُ فتاةً نحيلةً غيرَ مهندَمة ، عليها سيماء الخدَم ، تقف قُبالتي تسألني : « هل حضرتك الستّ سلوى ؟ »

« أنا سلوى . »

« الست إنصاف ترغَب في حضورك . »

« الست إنصاف ؟ »

« نعم ، الست إنصاف ، أ لا تعرفينها ؟ إنها جارتكِ الخياطة المعروفة . إنها تسكن على قِيْدِ خُطوتين من هذه الدّار . »

« وماذا تريد منّي الست إنصاف ؟ »

« لست أدري ، لقد بعثتني أستدعيكِ إليها . »

وانطلقَتْ ، فتبعتُها . ودخلتُ وراء الفتاة منزلاً خيرًا منْ منزل الدادة شيرين جدَّةً وطرازَ بناء .

وصعدنا إلى الطَّبقة الأولى ، حيث طَرَقنا باب

السِّت إنصاف ، ودخلنا إلى حجرتها ، فإذا هي جالسَة على متَّكأ فسيح ، تحوطُه بقِطَعٍ شتّى من الثّياب مختلفة الألوان . وكانت منهمكة تقلّب ما بين يديْها من القِطَع ، فما إن أحسَّت مَقدَمي ، حتّى التفتتْ إليَّ تحدِّق فيَّ .

وهي امرأة بادنة ، جاوزَتْ طَوْرَ الشّباب ، بيد أن قَسِماتِها تنمُّ عن فورةِ نشاط . وكانت تضعُ على عينيها مِنظاراً ذهبيَّ الإطار .

وما هي إلا أن رفعت المِنظار إلى جبهتها ، وقالت: « هل أنت سلوى ؟»

« نعم .»

فصمتَتْ لحظة ، وهي تتفحَّصُني بدقَّة وإمعان ، ثم قالت : « أ لكِ سابقُ اشتغال بالخياطة وتفصيل الثياب ؟»

فقلت دون إعمال فكر : « لم أشتغِل بشيء من هذا قطُّ .»

ولكنني استدركتُ أقول ، وقد فطنتُ للأمر : « إنني على استعداد للقيام بكل ما تكلِّفينني إيّاه .»

فابتسمَتْ ، وأنزلَتِ المِنظار على عينيها ، وانكفأت على قِطَع الثّياب تقلِّبها وتقيسُها . ثم سمعتها تقول : حدَّثَتْني الدادة شيرين في شأنك ، وأخبرتني بأنك سليلةُ أسرة كريمة ، ولكن ما نَفْعُ الأسَرِ الكريمة فيما بين يديَّ من عمل ؟ إنّي أرغب فيمن تعمل ، وتعطي عملَها ما تمِلك من حِذْق ونشاط .»

فنظرتُ إليها في ضَراعة ، وقلت :

« أرجو أن تلقَيْ مني ما تؤمِّلين . فلتكُنْ تجربة ، إن واتاني التّوفيق فيها تابعتُ عملي معك ، وإلا فإني أريحكِ مني .»

فأجابتني غير معنيَّة بقولي ، تشير إلى إحدى الحُجَر: « أُدخلي هناك .»

فأطعتُ أمرها ، وإذا بي في حجرة ضيِّقة حُشِرتْ فيها فتياتٌ خمس منهمِكاتٌ يعمَلْنَ : هذه تفصِّلُ ثوبًا ، وتلك مقبِلة على التطريز ، والأخريات يزاوِلنَ ضُروبًا من شئون الخياطة . فما إن دخلتُ حتّى أشرعن نظراتهنَّ إليَّ ، وانطلقنَ يخافتنَ بضحكاتهِنَّ ويتغامزنَ في سِرٍّ ومسارّة ؛ فدهمني ضيق وحيرة ، وتردَّدت في مُتابعة خُطايَ ، فوجدتُ السِّتَّ إنصاف قد دخلت تُعمِّر الحجرة بجِرْمِها العظيم . وكان مِنظارُها يلتَمع على جبينها المتغضِّن المتزمِّت . ولم تكد تحلُّ الحجرةَ حتّى انصرفت الفتياتُ إلى عملهنَّ حذِرات . و وجَّهتِ السِّتُّ إنصاف نظرتَها إلى واحدة منهن يبدو أنها كبيرتُهن ، ونادتها : « بهية .»

فرفعت رأسها عن آلة الخياطة ، وقالت : « نعم، يا ست إنصاف .»

« هاكِ سلوى ، الفتاة الّتي حدثتك في شأنها .»

ثم التفتت إليَّ محتفظة بسَمْتها وتزمتُّها ، وهي تقول : « سترسُم لك بهية خطَّة العمل .»

وأدبرَتْ عنِ الحجرة ، تزلزِل الأرض بخُطاها الثِّقال .

وأشارت إليَّ بهية أن أتقدَّم آخذةً مجلسي بجوارِها، وعادت الغمزات والضَّحِكاتُ المكبوتة تشيع من حولي .

جلستُ بجانب بهية أرقبُها خُلْسةً ؛ إنها امرأة في لونها سُمرة ، أخلَقتها الوَسامة ، فجانبتها حُظْوَة الحياة ، ويبدو أنّها عانسٌ ألحَّ عليها العِناس . وناولتني إبرة وثوبًا لبيسًا ، ثم أشارت إلى فتوق فيه قائلة :

« عليك أن ترتقيها ، ولك أن تستشيريني فيما يَغمض عنك من دقائق الرَّتق .»

وانبريتُ أعمَل مهتمَّة ، وعلى الرَّغم من قليل مِراني بالخياطة وصنوفِها ، بذلتُ وُسْعي لأُتقِنَ العمل أحسنَ إتقان . وكنت أحسُّ بأن الفتيات ما زِلنَ يحاصِرنَني بالغَمز والضَّحِك فلم ألقِ إليهنَّ بالاً ،

ومضيت فيما بين يديَّ لا آسي على شيء .

وسمعت بهية تزجُر الفتيات قائلة : « الزَمْنَ حدَّ الأدب ! »

فهدأت العاصفة الخفيَّة حينًا ، ثم لم تلبث أن عادت كما كانت من قبل .

وكنت كلَّما أتممتُ شيئًا أطلَعْتُ عليه بهية ، وسألتُها رأيَها فيه ، فلم أسمَعْ منها كلمةَ ارتياح ، وإنَّما كانت تجتهِد في كلِّ مرة أن تبديَ لي ملاحظةً لتشعرَني بما لها من قُدرةٍ وسيطرةٍ .

ومكثت قُرابة ساعتين أرتُق الفتوقَ ، فأحسَسْتُ الدُّوارَ يستبدُّ برأسي ، والعرقَ يتحلَّب من جبيني ، ولكن تجلَّدْتُ وانتزعتُ من الضَّعف قوةً لأتابعَ العمَل في جِدٍّ ، حتَّى ظفرت من بهية بكلمة ثناء عابِرَة أشرق لها قلبي وتفتَّح .

وصحت بها : « أ حقا حذقتُ الرتق ؟ »

فقالت في كبرياء وتشامخ : « لا بأس . »

فقلت في حماسة : « رعاك الله وأبقاك ! »

فتجاوبتْ أنحاء الحجرة بالضَّحِك ، وتلفَّتُّ حولي أتطلَّع إلى الفتيات ، ثمَّ وجدتُني أندفع معهنَّ ضاحكة ، فقالت بهية على الفور ، وهي تحاوِل عبثًا أن تظهر بمظهر الآمر المهيمِن : « قلت لكنَّ الزَمْنَ حدَّ الأدب ! »

انقضى النَّهار وأنا أعمَل في تلك الحجرة الضيِّقَة المخنوقة الأنفاس . وكانت الست بهية تترُكنا فترات نستريحُ ونستجمُّ . و وجدت الفتياتِ يبدأنَ الحديث معي دون كُلْفة ، وسَرعان ما وجدتني أمازِحُهُنَّ وأشاركهن المرَح والطَّرب؛ فسألنني عن حالي، فأجبتهنَّ بأنِّي أرملةٌ ليس لي موردُ ارتزاقٍ ، وأريد أن أجِدَ في الخياطة بعضَ العَوْن على المعاش .

وعدت إلى مسكني ، أو بالأحرى منزل الدادة شيرين ، وكنت على الرغم مما نالني من إعياء في يوم عملي الأول أحسُّ أن نفسيَّتي قد شرعت تتغيَّر ، وأنِّي أنظر إلى الحياة نظرة جديدة عليها مَسحة الرضا .

وفي هذه اللَّيلة طاب لي النوم على السَّرير ، وأحسستُ أنِّي لم أعُدْ عالةً على الدَّادة شيرين . وطفقْتُ أفكِّر كيف أقتصِدُ من أجرتي اليوميَّة لأؤدِّيَ لها نصيبًا من أجرة المنزل ؟ يجب أن أكافئها على صنيعها بشيء ، وأن أثبت لها أني أصبحت إنسانًا آخر . وازدحمتِ المشروعات عليَّ أتدبرُها وأحكِمُ خطَّة تحقيقها .

وفي مَطلع النَّهار قصدت مكان عملي ، يَسري في أوصالي نشاط واهتمام ، وأقبلتُ على الخياطة بجانب بهية ، وظفِرْتُ من تقديرها لِعملي أكثرَ مما ظفرت أمس. و وضح لي أنها على الرغم مما تبدو فيه من مظهر التنفُّخ والتأمُّر ليست لها شخصية تَفرِض احترامها على الفتيات .

وتوثَّقتْ بيني وبين الفتيات الأربع وشائج الألفة والوُدِّ ، ولم أجد من بينهنَّ مَن تتميز بشيء غير ما هو مألوفٌ بين أمثال هذه العاملات : ثرثرة بلا طائل ، تَنادُر وسُخريَة بالناس من كل صنف ، وتطلُّع إلى الحياة بنفوسٍ عِطاش ، ورغبات جوامح في مِضمار الحبِّ والزَّواج .

الحب والزواج !

ماذا يأملن من الحبِّ والزَّواج ؟

لو استطعت أن أنفضَ لهنَّ بناتِ قلبي ، وأكشفَ لهنَّ سريرة نفسي ، لأجْفلنَ مذعوراتٍ ، ولرأينَ في صُحبة الست بهية التافهةِ ، وخضوعِهِنَّ للست إنصاف البدينة المتغطرِسة ، خيرَ ما في الحياة من مغنَم .

ليت المرءَ قادرٌ على أن يجدَ في حاضره قبَسًا من نورٍ ، يُعينه على أن يستطلعَ به صفحة القدَرَ المغيَّب في مستقبله الخفيِّ ؛ إذن لأمِنَ العِثار ، ولوفَّر على نفسه متاعبَ الزَّلل والاستسلام للأوهام .

ولكن كيف يتبيَّن المرءُ أعقاب المصير قبل أن يشقى في طريق التجاريب ؟

— ٦٥ —

استخفت الدادة شيرين عن منزلها فلم أعُد أتبيّن لها فيه ظِلا . ولكنّي استطعتُ أن أستخلِص من الست بهية أنها دائبة السؤال عنّي ، تستوضح منها سلوكي وتصرُّفاتي . وأحسست بأن بعض الجيران حولي عيونٌ ترقبني في غُدُوّي ورَواحي ، فلم أكن أعبأ بهذه الرِّقابة ؛ إذ كنت مطمئنةً إلى حياتي الجديدة ، مخلِصة لها كل الإخلاص ، راضيةً بها كل الرِّضا .

وكثيراً ما كنت أعرِض قُبَيل نومي ألوانًا من حياتي الماضية ، فتتخايل أمامي أشباح حمدي والباشا وسنية وشريف ؛ فسَرعان ما تعاجلُني نوبات بكاء وعويل .

أكان بكائي أسفًا على سعادة غاربة لم يَطُلْ بي مَداها ، أمْ كنتُ أندُب ماضيَّ الحافلَ بالمناكر والمُنديات نادمةً حسرى ؟

لقد كنت أبكي وأبكي . حسبي أنَّ هذا الدمع السخين كان يُميط عن صدري أدرانه ، وكان يبُثُّ من حرارته بين جنبيَّ روحًا جديداً كلُّه صفاء وطهر .

وظهرت الدادة شيرين بعد شهر غابته . دخلت صَموتًا تتوكأ على عصاها ، فأقبلت عليها آخذةً بيمناها أشبعها تقبيلاً ، فلاطفَتْني في سكون ، وجلسَتْ تقول: « أمطمئنّة أنت إلى حياتك هذه ؟»

« كلَّ الاطمئنان .»

« أرجو أن تُتابعي حياتك على هذا المِنوال .»

« لأُتابِعَنّها بفضل ما تحبوني به من رِعاية ورِضًا .»

« الرضا رضا الله .»

« إني لكبيرةُ الرجاء في عفوه .»

« الله توّاب غفور . ولكن لا تنسَيْ ، يا سلوى ، أن الله لا يمنحُ رضاه إلا مَن يتوب توبةً صادقة لا رجعةَ بعدها لذنبٍ أبدًا .»

« إني عازمةٌ على ألا أقارِفَ معصيَةً ما حَيِيتُ .»

وعندما نهضت الدادة شيرين تنصرف ، وقفت أمامها وقد انبعثَتْ من صميم وجداني فكرةٌ لم أدْرِ ماذا أثارها فيَّ .

وقفت لحظة متردِّدَة ، ثم قلت لها خافِضَةَ البصرِ في صوت راعِش : « كيف حال سنية ؟»

فحدجتني بنظرةٍ نكراءَ ، ثم همهمت : « يجب ألا تَلْفِظي بهذا الاسم .»

وازورَّت عني ببصرِها ، وخرجت تتوكأً في جَهد على العصا .

إنها لعلى حقٍّ .

يجب ألا يدورَ لساني بهذا الاسم .

كيف أستبيح لنفسي أن أذكرَه بعد ما كان من أمري معها ؟

وتواصلَت الأيّام ، وأصبح عملي في مَشغل الست إنصاف عملاً راتبًا كثيرَ الجهد والمشقة . وكانت بهية كلّما رأتني مقبلة على الخياطة أضنتني بالمزيد . وبدأتْ تعهدُ إليَّ بالدقيق منَ العمل الذي يتطلّب فنا وحِذْقًا وأناة ؛ فكنت أقضي الساعاتِ منكبةً أبذُل غاية الطاقة.

ولكن ذلك لم يشفع لي في البراءة من توبيخ الست إنصاف وتعنيفها إيّاي . وكثيراً ما فتّتْ في عَضُدي (١) ، وأشعرتني بأنني خائبةٌ في عملي لا سبيلَ إلى تقدُّمي .

بيد أن فكرةً واحدة ظلّتْ تُذلل طريقي وتذكّي عزيمتي وتشدُّ أزري ، تلك هي شبح الدادة شيرين .

كان يتخايل في خاطري فيدفعني إلى الأمام صابرةً على كل عناء .

وكان قصارى هدفي أن أحوزَ ثِقتها ، وأن أنفيَ عن تفكيرها ظنون السوء بي .

لقد قرَّ في نفسي أن هذه المرأة ليست إلا قدّيسة من صفوة المقرَّبين إلى الله ، هؤلاء الذين تستطيع كلمةُ

(١) فتّ في عَضُدِه : أثناه عن عزمه .

شفاعة واحدة من أفواههم أن تسموَ بالإنسان إلى عُليا الفراديس ، وتكفي دعوةُ سوءٍ ينفثونَها لتهبِط بالإنسان إلى درجات الحضيض .

ثابرتُ وثابرت ، وبذلت من جهدي ما بذلت .

وكنت أعود إلى الدار في مُنْصَرَفِ النهار مجهودةَ العينين ، متصدِّعة الرأس ، فكان يلذ لي أن ألوذَ بمَعْزِل في حجرتي ، أخلو إلى نفسي ، وأستمتع بالسكينة حولي ، سابحةً في آفاقٍ من التفكير في شتّى جوانب الحياة ، وجَفناي مطبقانِ .

— ٦٦ —

كنتُ يومًا على مألوف العادة في مَشغل الست إنصاف في تلك الحجرة الضيِّقة المزدحِمة بكومات منَ الثِّياب ، وقد اختنقَتْ في أرجائها الأنفاسُ ، وجلسَتْ في أركانها الفتياتُ الخمسُ يثرثرن ويتضاحكن طليقاتٍ ، فأحسست دُواراً يشتدُّ عليَّ ويزداد اشتداده حينًا بعد حين ، وإذا بي أتهاوى على الأرض .

وثُبتُ إلى وعيي ، فألفيتُني في مِخدع الست إنصافٍ ممدَّدةً على متكأ ، وهي على مقربة منّي ، تُعنى بي . وما إن فتحت جفنيَّ حتّى سمعتها تقول :

« كيف أنت ؟ ماذا ألمَّ بك ؟»

« دُوارٌ بسيط .»

« أ تُراك أجهدتِ نفسَك ؟»

« لا أظنُّ . أنا الآن أحسنُ حالاً ، أستطيع أن أستأنف عملي .»

ورفعت رأسي ، فإذا بالدُّوار يُثقِلُني ، فسمعتها تقول : « اِرجعي إلى بيتك اليوم فالزميه لتستريحي ، وتعالَي غداً .»

ونهضتُ متحاملةً على نفسي ، عائدة إلى الدّار ، وقد صحبَتْني خادِمة صغيرة بعثتها الست إنصاف معي لتعينَني على أمري .

وقضيت ليلي قلقَة أرِقَة ، أحسُّ الضّعف والإعياء ، واعتراني غَثَيانٌ وقَيْء . وفي الصُّبح رأيت الدادة شيرين تدخل عليَّ ، وظهر لي أن الست إنصاف أرسلَتْ في طلبها وأخبرَتْها بأمري . فإن الدادة شيرين بادرت بالاستفسار عمّا جرى ، وانبرت تسألني في دقة وفحص واكتناه . ومن الغريب أنّها وَجَّهتْ إليَّ أسئلة لم تخطرْ لي من قبلُ ، فأجبتُها في إفاضة ، لم أخْفِ عنها أيَّ شيء .

وسمعتها تهمهِم : « أكبرُ الظَّنِّ أنَّك حامل ، يا سلوى .»

فنظرتُ إليها فاغِرة الفمِ تعروني ذَهلةٌ ودَهش ، ثم قلت مردِّدَة : « أنا ؟ أنا حامل ؟»

و وجدتُني أدفِن وجهي بين راحتيَّ ، وأنا أهمهم بصوت حبيس : « لا ، لا ، لن يكون هذا .»

فسمِعتها تقول : « هذه مشيئة الله .»

« إن الله لا يرضى عن مثِل هذا المخلوق .»

« بل إنه عطيَّة من عند الله ، ولن نبيحَ لأنفسنا أن نردَّ عطاياه .»

« كلا ، إنه لدسيسة الشيطان ! لن تُكتَبَ لِهذا الطِّفل حياةٌ .»

وجعلت أضْرِبُ بطني بيديَّ في ثورة واهْتياج ، وأنا شرِقة بالدَّمع ؛ فأمسكت الدادة شيرين بيديَّ وقالت : « إنك تكفُرين بنعمة الله ، وتعرِّضين نفسك لسَخَطِه !»

« إن هذا الطفل وصمةٌ تُدمغ جبيني أبدَ الدّهر . سيكون هذا الطفل شبحًا يثير في دنياي ألوانَ المآسي الّتي أجهد في نسيانها ، وإقامةِ السدود بيني وبينها فيما بقيَ لي من عمْرٍ . إنّي أمضي في طلب الغُفران من الله جاهِدةً مخلِصة ، ولكن يبدو لي أن الله لا يريد !»

وعاودني البكاءُ والشَّهيق ، فقالت الدادة شيرين :

« إن الله يقدِّر علينا مصايرنا ، فليس لنا إلا الإذعان

لإرادته ، وابتغاءُ مرضاته . كلَّما كان جَهدنا كبيراً كان الثَّواب عظيماً والرضا موفوراً . كَفكِفي الدمع .»

وشعَرتُ بتخاذل ، وكان فكري مشرَّداً ، وخواطري مشتَّتةً ، أعمل على حصرها فلا أستطيع . وسمعتُ الدادة شيرين تقول : « ماذا يسوءُكِ من أمر الطفل ؟ كل ما في الأمر أن أباه قُضِيَ قبل أن يراه ؟»

فخفضت من بصري ، وهمهمت : « أبوه !»

« أجل ، حمدي ، قُضِيَ قبل أن يرى ابنه .»

« إنَّه أبوه على الرَّغم منه وعلى الرغم مني !»

ولبثتُ في الدَّار أياماً وحدي ، تختلفُ إليَّ خادمة الست إنصاف فتؤدّي لي ما تمسُّ إليه الحاجةُ .

وقد شعَرت باستسلام لنصائحِ الدادة شيرين ، أتقبَّلُها أحسنَ تقبُّل ، وأُنفِّذُها أدقَّ تنفيذ .

لا سبيل إلى إباء شيء تطلبه إليَّ هذه السيدة .

إني هائمة مُضلَّلَة في دُنياي ، لا هاديَ لي غيرُها ، وإني بدونها لا أستطيع أن أقدِّم رِجْلاً أو أؤخِّر أخرى .

أشعُر بأنّي قد طَوَيْتُ السِّنين القَهْقَرَى إلى عهدِ الطُّفولة ، فلا بدَّ لي من عَون أستنِدُ إليه وأنا أحبو وأحاوِل أن أخْطُوَ خُطايَ الأولى .

وحَرَصَتِ الدادة شيرين على أن تواليني بِزَوْراتها في فترات متقاربة ، وتُغدِق عليَّ مِنْ نصائحها ، ولا تفتأ تُطَيِّب خاطري وتيسِّر لي ما أراه عسيراً عليَّ في طريق الحياة ، حتّى شَمِلني الهدوءُ ، وغمرتني الطُّمأنينة .

وكنت وأنا في وَحدتي أجِدُني قد خطوت إلى النافذة ، وأتطلَّع إلى الطريق ، ملتمِسَةً من مشاهده بعضَ التسلّي ، فكانت تُطالعني أمام الدور أطفالُ الجيران وهم يمرحون ويلعبون ، ويعابث بعضُهم بعضاً في خِفَّة وصَخَب ، فأرنو إليهم أتتبَّع حركاتِهم في شغَف ، وقد أقذِف إليهم بقِطَع منَ الحلوى يتنازَعون عليها ويتنافسونَ فيها ، فكانت هذه المناظِر تُثيرُ في نفسي مشاعرَ شتّى من عَطْف ومحبَّة وحنين . إن ذلك الجنينَ الَّذي بين جنبيَّ لَيَعِدُني أن يكون طفلاً كهؤلاء ؛ فلِمَ لا أخَلّي سبيلَه ، وأرعى نُمُوَّه ، حتّى ينال حظَّه من هذه الحياة ؟

وألفيتُني على الأيام تعتَدِل نفسيَّتي ، وأتشهى أن أكون أماً ، لها طفل ، طفلٌ منه ، من شريف ! سأهَبُه نفسي ، وسأقِفُ عليه عمري . لِمَ لا أكون به فخوراً معتزَّةً ؟ أقضي أيامي معه أطالعُ في مُحيّاه وجهَ أبيه — ذلك الرَّجُل الَّذي ظَلَّ حبُّه إيّاي حبا يخفُق به قلبُه حتّى الرَّمَقِ الأخير .

واستأنفتُ عملي في مَشْغل السِّتِّ إنصاف ، ولاحظت أنها تعاملني ببعض الحنان والرِّفق . أمّا بهية فقد ازدادَتْ في عيني تفاهة وغباوَة ؛ لقد كانت تُرْهِقُني بأسئلة سخيفة مُمِضَّة ، عمّا أحِسُّه من متاعبِ الحمل وأطواره . وصَدَقَني ظَنّي أنها عانِس ، ما بَرِحت تؤمِّل فيْ حياة الزَّواج على الرَّغم من أنها دَميمة ، تخطَّت عصرَ الشَّباب . أمّا الفتياتُ الأربعُ فكنَّ بي فرِحات ، يَعِدْنَني بهدايا لطفلي ، حتّى إن كُلا منهنَّ شرَعت تُعِدُّ هديتها في اهتمام .

وتواصَلَتِ الأيّامُ والدادة شيرين لا تقطَع زيارتَها عنّي بين حين وحين ، دائمةُ التعهُّد لي وموالاتي بالنُّصْح والإرشاد .

وكنت كلَّما أحسستُ الجنينَ يختلجُ بين أحشائي ، تهزُّني مشاعرُ بَهجة واغتباط . وحينما كنت أخلو بنفسي في المنزل أشعُر بأنّي لست وحدي . إنه معي ، إنَّه كائن حيٌّ يُشعرني بوجوده ويؤنسني . أكاد أتمثَّله شخصاً أمامي ، يثير السُّكونَ حولي بما يُرسِل من ابتسامات وإشارات ومناغاة . لم أعُدْ أشعر في المنزل بما كان يحيط بي من وحشة ومن صمت .

– ٦٧ –

ولَمّا استبان الحملُ بين جنبيَّ ، وثقُل عليَّ ، ذهبَتْ بي الدادة شيرين إلى مستشفى الأُمّهات ، حيث عرضتْني على طبيبة الولادة التي أزْمَعنا أن تتولّى أمري .

وكانت سيدةً بسّامة عذبَة الحديث فكِهَةَ الرّوح ، تُشعرُك أوّلَ وَهْلةٍ بالمحبّة والألفة ورَفْعِ الكُلْفة . كانت ضامرة ضئيلة ، تَعجب كيف تستطيعُ ، وهي على حالها منَ الضآلة والضُّمور ، أنْ تليَ هذه المهمّةَ الجسيمة الّتي تتطلّب اقتدارًا وقوّة ؟

وبعد أن أتمَّتِ الطّبيبة الفحص في دقّة وعناية ، انتَبذتْ بالدادة شيرين مكانًا قصيًا ، تحدّثت فيه إليها حديثًا أثار في نفسي غيم الظّنون . وأقبلتْ عليَّ الطبيبة بعد هُنَيْهَة ، فسألتها : « كيف الحال ؟»

فقالت ، وهي تبتسم ابتسامتها المألوفة :

« كلُّ شيء حسن ، الولادة بعد ثلاثة أسابيع . إذا أحسَسْتِ قُرْبَ المَخاض فبادري بالحُضور إلى المستشفى ، سيكون كلُّ شيء مُعَدًّا لاستقبالك .» ثم رسمَتْ لي ما يجبُ عليَّ أن أعمله في فترة الانتظار .

فخرجتُ منَ المستشفى ساهمَةً أفكّر . ولَمّا لحقَتْ بي الدادة شيرين ، سارعتُ أسألها أن تصارحَني بما كان من مَسارّة الطبيبة لها ، فقالت دون أن تواجهني : « هذه الطبيبة تميل إلى مجاذبة الأحاديث والاستفاضة في الكلام . ليس في الأمر سرٌّ . عليك أن تلزمي نصائحها ، وأن تَعْجَلي إلى المستشفى أوّل ما يجيئك المخاض .»

ولقد عُنيتُ بنفسي ما وسِعَتْني العنايةُ ، فآثرتُ الرّاحة ، وانتهجتُ المنهَج الّذي رسمَتْه الطبيبة .

كنت أحسُّ تَطلُّعًا غريبًا إلى الحياة ، ورغبةً وثيقة في تعهُّد الجنين ، حتّى أسلِمَه إلى النّورِ صحيحَ البدنِ أهلاً للنَّماء .

وأخيرًا حان اليومُ الموعود ، فتأهّبتُ للذّهاب إلى المستشفى ، وأبلغتُ الست إنصاف جديدَ أمري ، وعهِدتُ إليها في إخبار الدادة شيرين .

وما إن تناهى إلى مسامع الفتيات نبأ تأهُّبي للخُروج إلى المستشفى ؛ حتّى لحِقنَ بي في الدّار مبتهِجات ، وأحطنَ بي من كل جانِب ، يتقاسَمن العنايةَ بأمري .

أمّا بهية فوقفت صامتة تنظر إليَّ مشدوهةً فاغِرةَ الفمِ ، تتفحّصُني في تعجُّب واستغراب ، كأنّي حيوانٌ طارئٌ لم تَعهَدْه من قبلُ ، أو كأنّها لم تكن تنتظرُ أن يحينَ لي هذا اليوم الموعود !

وحضرَتْ مَرْكبة الخيل ، فصعدتُ فيها ، وصحبتني بهية طوعًا لأمر الست إنصاف ، أمّا الصّبايا الأُخَرُ فجعلنَ يلوِّحنَ بأيديهنَّ متصايحاتٍ يتمنَّينَ لي السلامة .

ومضَتْ مركبةُ الخيل تضرب الأرضَ . وقطعنا الطريق صامتَتَيْنِ ، وبهية على حالها مشدوهةً حالمةً مشْعَثَةُ النَّظراتِ . وبلغنا المستشفى فنزلتُ عن المركبة متحاملةً على نفسي ، لا أجِدُ من بهيّة خفّةً لمعاونتي .

كانت مُعَصْفَرةَ الوجهِ وَجِلة ، تَنقُلُ خُطاها مضطَرباتٍ ، كأنّها هيَ الّتي على وَشْك أن تضع حملَها ، أو كأنّها على موعدِ عمليّة جراحيّةٍ تخشى عُقباها .

ولقد ألفيتُ كلَّ شيء مُعَدًّا في المستشفى ، فحللتُ حجرتي ، وما كدْت ألْمَحُ الفِراش حتّى تساقَطْتُ عليه . وأحسستُ ألَمَ المَخاضِ يزداد ويشتدُّ ، كأنه كان كامنًا يرتَقِب ساعة الوصول .

وحضرَت الطبيبة على الفور ، بسّامة المُحيّا ، تصيح : « أين المولود ؟»

ودارت بعينيها في الحجرة ، ثم استأنفت تقول :

« ألم نتفق على أن تأتي به معك ؟ فلنبحث معًا أين هو .»

ودنت منّي تتفحّصني في رفق ، ثم قالت في ثقة وتأكيد : « إنه آتٍ بلا ريب . لن يُرخي اللّيلُ سُدولَه حتّى يكون بجانبك ، يضجّ بصُراخه وعويله . »

ثم انصرفَتْ ، بعد أن عهِدت بأمري إلى بعض الممرّضات .

وبعد هُنَيْهَة أقبلت الدادة شيرين متحاملة على عكّازتها ، فما إنِ اقتربت منّي حتّى أمسكتُ بيدها وأطبقتُ عليها قائلة : « لا تتركيني ، لا تتركيني ، واسألي الله لي عونًا وفَرَجًا قريبًا . »

و وجدتُني أنخرط في البُكاء دَفعةً واحدة ، وأنا هاوِيَة على يدها أنديّها بقَطر الدّموع .

فلاطفَتني وهي تُطمئنني ، وتيسّر لي الأمر . وبعد بُرْهة قلت لها ، وأنا أكفكِف العَبرات : « متى أخبرَتْكِ الستُّ إنصاف بشأني ؟ »

فأجابتني على الأثَر : « لم تُخبرْني بشيء . إنّي هنا ... هنا منذ أيّام ! »

و وجدتُها تُمسِك عنِ الكلام كأنّها تستدرِك ما فرط منها .

وعادت تقول ، وقد أدبرَتْ ببصَرها عنّي : « في هذا المستشفى سيّدة من معارفي . »

« وكيف حالُها ؟ »

« بخير ، ولله الحمدُ . »

« أ لِوِلادَة قدِمَتْ هذه السيّدةُ ؟ »

« أنت كثيرةُ السؤال ، يا سلوى . إنّ الإجهاد بادٍ على وجهك ؛ فيجبُ أن تلزَمي الرّاحة . »

« الحقُّ ما تقولين . أشعر بأوجاعي تتزايد . لا تدعيني . بحقّك عندي لا تدعيني ! »

« لن أدعَكِ ، يا بنيّة . »

واقتَعَدتْ مَقعدًا بجواري ، وظلّت تلاطِفُني وتُعنى بشأني .

وبَرّحَ الألم بي ، وجاءت الطّبيبةُ تتفقّد الحالَ ، وبدأ العرقُ الغزيرُ يُسبّح على جبيني ، وأحسَسْتُ بأنّي لمْ أعدْ أطيقُ كِتمان ألَمي ، وأنّ صِياحي ينبعِث من حَلقي دون قَصْد . واستمرّتِ الحال كذلك وقتًا ، لا يخفّ ألمي لحظة حتّى يعاوِدَني أشدّ مما كان .

و وجدت الطبيبةَ تخرُج ثم تعودُ مصطَحِبةً طبيبًا . وحُقِنتُ تحتَ الجلد مرّات ، وغامت الدُّنيا أمام عيني ، وشعرت كأنّني في حُلم غريب تلتمع حِيالي سواطعُ أضواءٍ ، كأنّما هي أسنّةُ حِراب مشرَعة إليّ تترامى عليّ .

وانتظمتني غيبوبة فقدتُ فيها شعوري أجمَع ، وما أدري أيُّ وقت مضى عليَّ وأنا في غياهِب هذه الغَيبوبة ، ولكنّني أحسَسْت رُويدًا بهذه الأضواء السواطع تلتمعُ ثانية ، بيد أن حِرابها لم تكن تَخزُني ، بل كانت تتهاوى عليَّ هيِّنَة المَلْمَس .

— ٦٨ —

وثُبتُ إلى رُشدي ، فإذا الوقت صباحٌ . وأخذت أتطلّع حولي في جَهد وإعياء ، وأنا أحسُّ على عيني غشاوةً . وبعد لحظات استطعت أن أتبيّن وجه الدادة شيرين ، فقلت مجهودة الصوت :

« متى يَتم الوضع ؟ »

« لقد تم الوضعُ ، يا بُنيّة . لقد انتهى كل شيء . نحمد الله على سلامتك . »

فحاولتُ أن أشرئبّ إليها ، وأنا أقول متلهّفة واجفةَ القلب : « أين المولود ؟ »

وفي هذه اللّحظة ، أقبلتِ الطّبيبة ، وإذ رأتني قالت : « لقد استيقظتِ ، استيقظتِ لتُتعبينا مرة أخرى . »

فقلت : « أنا ! هل أتعبتك ؟ »

فأمسكت بيدي تَجُسّ نبضي ، ثم قالت : « عظيم!

النَّبض على أحسن حال .»

وألفيتُني أتلفَّت حولي وأنا أقول : « أين هو ؟ أين الطِّفل ؟ أين الطِّفل ؟ ذكرٌ هو أم أنثى ؟»

« تسألين عن الطِّفل قبل أن تسألي عن نفسك؟ صِحّتُكِ قبلَ كلِّ شيء . لقد اجتزتِ محنةً قاسية .»

ثم وجدتُها تكشف عن ثدييَّ تتفحّصهما ، فقلت : « أرغَب في رؤيته . هاتِه لأرضِعَه . ذكرٌ هو أم أنثى ؟ بربِّك أخبريني !»

فهمَستْ في أذني : « دعيه نائمًا ، يجب أن يرتاح وقتًا . سأحضره لك بنفسي إذا استيقظ .»

وتابعت عملَها تفحص ثدييَّ في عناية ، ثم انتحت بالدادة شيرين ركنًا ، وأخذتا تتساررَانِ . ثم انصرفت الطبيبة ، وعادت الدادة شيرين إلى مَقعدها عن كثب منّي ، فقلت لها وأنا أحسُّ قلقًا :

« لماذا أبعدتُم الطِّفل عنّي ؟ ذكر هو أمْ أنثى ؟»

فنظرَتْ إليَّ بعينٍ يتجلّى فيها الأسى ، وأخذت يدي صامتة تلاطفني ، فازدحمت في رأسي الظُّنون تغتالُني ، ثم سمِعتها تقول : « احْمَدي الله على أنْ كتَبَ لك السلامة . أمرُ الطِّفلِ هيِّن . لا تسألي عنه.»

فأحسستُ بشفتيَّ ترتجِفان ، و وجدت الدادة شيرين تزداد ملاطَفة لي كأنها تواسيني في نكبة حاقت بي ؛ فأخفيتُ وجهي بين يديَّ واندفعتُ في النَّشيج ، فقالت الدادة شيرين : « يجب أنِ تُعنَيْ بنفسِك . ولقد كانت ولادةً عَسِرة ، عسرة غايةَ العُسر ، ولم يستطعِ الأطبّاءُ إلا أن يعمَلوا على نجاتك أنت وحدَك .»

فقلتُ مسترسِلة في نشيجي الحارِّ : « حتى هذا الطفل لم يَدَعْه اللهُ لي !»

« هذه مشيئة الله .»

« لقد كان هذا الطفل مَعْقِدَ أملي . إن الله ليستكثِره عليَّ !»

وتابعت بكائي ، وأنا أقول : « كان مُنايَ أن يكون لي إنسانٌ يملأ عليَّ حياتي الفارِغة الموحِشة ، وينيرُ لي طريقي المظلِمَ الحالِك . فأمّا اليومَ فإني أعود إلى الفراغ والوحشة والظلام .»

« أقِلّي منَ البُكاء ، يا بنيَّة . قد يمنحك الله عطية تعوِّضُك خيرًا مما فَقدْتِ . إن رحمة الله قد وَسِعت كلَّ شيء .»

ثم صمتَت بُرهة ، وجعلت تعبَث بحاشية ثوبها ، وهمهَمتْ تقول : « قد تجدين مَن يملأ حياتَكِ بهجةً ويشيع فيها نوراً . مَن يدري ؟»

فحدَّقتُ فيها قائلة : « أيّة بهجة وأيُّ نور ؟ أوهام لا طائلَ تحتها !»

فتَخايلَ على وجه الدادة شيرين ظِلُّ ابتسامة ، وقالت : « يجب ألا نيأسَ من رحمة الله . فَضْلُ الله عظيم !»

كنت أحِسُّ أنّي هيكل مُهَدَّم تألَّبَتْ عليه الضَّربات ، فقضيتُ اليومَ بين يقظة ونوم ، أرْعى حزني في تبلُّد واستِسلام .

وفي غدوة اليومِ التالي أيقظَتني يدُ الطَّبيبة ، وهي تنقُل أصابعَها على صدري . وشهدت الدادة شيرين تسائلُها في هَمس وسِرار .

ولاحظتُ أن الطبيبة بادية العناية بثدييَّ ، فتركتها توالي الفَحْصَ وأنا مخلدة إلى صمت وسكون ، فوجدتُها تسألني : « ماذا ؟ أين ذهب لسانُك !»

فقلتُ في إهمالٍ تائهةَ النظر : « ماذا تريدين منّي أن أقول ؟»

« أيَّ شيء . اِسأليني .»

« إذا لم يكُنْ منَ الكلام بدٌّ ، فإنّي أسألك سؤالاً واحداً .»

« سَليني .»

« متى أترك المستشفى ؟ »

« أنت عَجولٌ ! لم يَحِنِ الوقت بعدُ . يجب أن تستكملي صحتَّك حتّى لا تعرِّضي نفسَكِ لمكروه . »

ثم ضغطَتْ يدي ، كأنها تشجِّعني على احتمال ما حلَّ بي ، وراحت تحثُّ خُطاها إلى الباب .

— ٦٩ —

وفي ظُهر اليوم الثالث للوضع ، بينما كنتُ أقلِّب النظراتِ في عَرْض الحجرة في ضَجَر ومَلال ، كانت الدادة شيرين تختَلس النظرَ إليَّ ، وتُرسِل في الفَينة بعد الفينة آهاتٍ وتنهُّدات .

وفُتح البابُ فجأةً ، فظهرت منه الطبيبة تحمِل لفيفةً بين يديها . وما إن تدانت من فِراشي حتّى تكشَّفَتْ لي اللَّفيفة عن وجه صغير تلتمع فيه عينانِ التماعَ الزُّمرُّد ، وسمِعت الطبيبة تقول : « ألا ترَيْنَه جميلاً ؟ »

فهمهمتُ بلا مبالاة : « جميل . »

ثم رحت أزْوَرُّ ببصري عنه . وعجِبتُ لهذه الطَّبيبة الَّتي سَقُمَ ذوقُها وجمَد شعورُها ، حتّى إنها لتواجهُ أماً ثَكْلى تسألها عن جمال طفل غريب !

واستأنفتِ الطبيبة تقول : « إنه لجميلٌ ، ولكنَّه مع الأسف جائع ، شديد الجوع ! »

وألقَيْتُ على الرَّضيع نظرةً ، فتبيَّن لي على الأثَر ما هو فيه من نحول وهزال . وكانت عضلات وجهه تتقلَّص ويشتدُّ تقلُّصُها ، وهو يتلفَّت يَمنة ويسرة مُهتاجَ الأعصاب ، وشفتاه تختَلِجانِ اختلاجَ التلمُّس .

وسألتُ الطبيبة : « لِمَ أحضرتِه ؟ »

« جاء يطلب قليلاً من طعام . »

« قليلاً من طعام ؟ »

وندَّت من فم الطِّفل صيحةٌ ، إنها صيحة كسيرة عليها طابَع الأسى ، فما أسرعَ أن قالت الطبيبة :

« ها قد تكلَّم ، يريد أن يُطعَم . »

وما عتِم الطفل أن تتابع صياحهُ الكسير ، واشتدَّ تقلُّص وجهه واحتقانه . وتمثَّل لي أن صوتَه أشبهُ بصوتِ مستغيثٍ على شفا الهلاك يطلُب النجاة ، وسمِعتُ الطبيبة تقول : « لقد بدأ يحتجُّ . »

ثم ألقت بالرَّضيع بين ذراعيَّ ، ومدَّت يدها تكشف عن ثديي . فلمّا أحسَّ الطفلُ حَلمةَ الثَّدي تُلامِس شفتيه تعلَّق به وأطبَق عليه . وآلمتني ضغطته ، فكِدْت أصرُخ وأنا أدفع به قائلة للطبيبة :

« نَحّيه عنّي ! »

ولكن راعني منه أنه تشبَّث بصدري ، كأنَّما يحاول أن يأخُذ الثديَ بكلتا يديه ؛ خَشاةَ أن يَفْلِت منه . وكان يجاهِد في سبيلِ ذلك جهاد المُستميتِ ، فأحسَسْت به وهو يستدرُّ اللَّبن كأنَّما ينتزِع قَبْسَةَ من روحي ، وألفيتُني أرنو إليه وهو ماضٍ يتمصَّص .

وعلى الرُّغم مما كنت أعانيه من ألم ، شعَرت بنشوة طارئة تسري في دمي ، وتُنسيني ألمي . لقد بدأت تتجلّى على مُحيّاهُ سماتُ الرِّضا والارتياح . وكان حسيسُ أنفاسه ينبعثُ على صدري ، و وجيبُ قلبه يتابعُ وجيبَ قلبي . ومكثتُ رانيةً إليه في تفحُّص يشملُني شعورُ ابتهاجٍ .

وكان كلَّما ترك الثَّديَ لحظةً ليستريحَ ، عَدَل بوجهه إليَّ ، فلاقتني عيناه الزرقاوان اللامِعتان ، كأنّي أقرأ فيهما شكراً واعترافًا بالجميل . وما هي إلا أن يَميل على الثدي يرتَشف ، وما بَرِحتْ يداه قابضتينِ عليه ، لا تبغيانِ به بديلاً .

ولبثتُ على تلك الحال بعضَ الوقت ، ثم ألفيتُه وقد فترَت همَّته ، وتراخت أوصالُهُ ، ومالَ رأسُه على صدري مَيلة النُّعاس .

وسمِعتُ الطبيبة تقول : « لقد شبِع . أشكر لك ما أسديتِ من حسن الصَّنيع . »

فرفعتُ إليها بصري ، وقد وضعتُ إصبعي على فمي ، وأنا أهمسُ : « لا ترفعي الصوت ؛ إنه على وَشْك المنام .»

فلاحت على وجهها ابتسامةٌ رقيقة ، وانصرفت من الحجرة في خُطوات هَيِّنة لا يكاد يُسمَع لقَدَمها خَفق .

وأحَطْتُ الطفلَ بذراعي أحتَضِنُه في رقّة وحنان ، وعيناي لا تنحرفان عن مُحيّاه . وأحسست رويدًا بجفنيَّ يسترخيان ، وشملني سُبات :

واستيقظتُ بعد ساعة أو نحوها ، فكان أولَ ما عُنيتُ به أن تفقّدتُ الطِّفلَ حولي ، فلم أجد له من أثر.

و وقع بصري على الدادة شيرين جالِسةً بجواري جَلستها الراتبة ، فقلت على الفور : « أين هو ؟»

« لقد ذهبوا به إلى أمّه .»

فهمهمتُ : « أمّه ؟»

ثم خفضتُ من بصري ، فقالت الدادة شيرين :

« إنها تَشكر لك حُسنَ قَبولك لطفلها . لقد أنقذتِه حقا .»

فقلت ، وأنا على حالي مُطرِقة : « مَن تكون أمه؟»

فانحنت الدادة شيرين تعبث بحاشية ثوبها برهة ، ثم قالت : « سيدة من أسرة كريمة . صدِّقيني لا أعرف اسمها .»

« ولِمَ لا تتولّى إرضاعَه ؟ »

إنها ، يا ابنتي ، مهزولةٌ أجهدها الوضعُ ، وقد غاض لَبَنُها ، فما في ثديها منه قَطرة . إن الطِّفل كان يتضوَّر جوعًا منذ ثلاثة أيام ، وهو حائر يستجدي زاده من الوالداتِ بشقِّ النَّفس .»

وأمسكت الدادة شيرين بيدي تلاطِفها وتقول :

« شكراً لك ، يا سلوىَ ، شكراً لك .»

« وماذا فعلتُ حتّى أنالَ منك هذا الشكر كلّه ؟ ليست بي حاجة إلى ما في ثدييّ من لبن ، فإن لمْ يرضعْه هذا الطفلُ ذهب سُدًى .»

فمالت عليَّ تقول : « هذا ما كان في نفسي أن أقول ، لن تخسري شيئًا بإرضاعك هذا الطفلَ ، بل إنك لتكسبين بذلك ثوابَ الله .»

وبعد وقت أقبلَتْ علينا الطبيبة بين يديها اللّفيفة ، فخَفَق قلبي على الفورِ ، و وجدتُني أمدُّ يديَّ أتناول الطِّفلَ في شَغَف . وسمعتها تقول : « لقد جاءك يلتَمِس نصيبَه منَ الطّعام ، فهل تجودين ؟»

وكشفتُ عن صدري ، فما إن دانانى الصغيرُ حتّى ألفيتُه يشرئبُّ إليَّ مختَلِج الشفتين مُهتاجَ اليدين ، وسَرعان ما تشبّثَ بثديي وراح ينهل ويَعِلّ [1] .

وقالت لي الطبيبة : « سأدَعُه لك وقتًا ، ولكن لا تتركيه يرضَع أكثر من عشرِ دقائق ... خمس من كل ثدي .»

وانصرفت منَ الحجرة على الأثَر .

وأمضى الصغير في صحبتي وقتًا ، وعيناي لا تريمان [2] وجهَه الأملَس الرقيقَ . كنتُ أديمُ النَّظَر إليه وإلى عينيه الزرقاوين ، فكلّما لاقتني هاتان العينانِ أحسستُ أن تيّارًا كهربَيا يصِلُني بهما ، تيّارًا متدفّقًا يسري في أوصالي ويبعَث فيهما دفائن الشُّعور . فلمّا انتهتِ الرَّضْعة ظَلَّ الطفل مستيقِظًا يبصُّ بعينيه ، ويضرِب بيديه ورجليه ، ينتظمه النّشاط والمرَحُ ، فأقبلتُ عليه ألاطفُه وأداعبُه . وكانت تسنح على وجهه خَلَجاتٌ كأنها ظِلال ابتساماتٍ . وقدِمَتِ الطبيبة ، فلمّا دنت من سريري ، قلت لها :

« ألا تتركينه قليلاً ؟»

« ألا تضيقين به ؟»

« إنه يؤنس وَحدتي .»

---

(١) يَعِلّ : يرضع تِباعًا . (٢) لا تريمان : لا تبرحان .

« إذن أتركه وقتًا في رعايتك .»

« وأمّه ؟ أخشى أن تستبطئ مَقْدَمَه .»

« إنها في حاجة إلى راحة ، وهي تعلم أنّ طفلها عند مَن يرعاه . إنه هنا يجد على الأقل ما يسدّ جوعته، أمّا هناك فلا يجد من شيء .»

وانصرفَتْ عنّي ، وبَقِيَ الطّفلُ معي طويلاً منَ الوقت ، فكنتُ أعنى به وأرضِعه على النّحو الّذي رسمَتْه لي الطّبيبة في حفاوة وإقبال .

— ٧٠ —

توالت أيامٌ والطّفل يُحمَل إليّ ليقضيَ معي فترة ليست بالقصيرة ؛ فازددت به تعلّقًا ، وآنَسْتُ في صحبته طُمأنينَة وهَناءة . وبدأَتْ تنجاب عن نفسي غيومُ الأسى ، واستقبلتُ الحياةَ بشعور التفاؤل والاستبشار .

لم أكن أفكّر إلا في حاضري ، وفي وجود هذا الطفل معي .

وكنت أجدُني مزهوّة مغتبطة كلّما ألفيتُ الطّفل يتنضّر وجهُه ، وتتوردُ وجنتاه . فقد تجلّت فيه علائمُ الصّحّة ، وانقلب من طفل مهزولٍ على وَشْك أن يفقِدَ حياتَه ، إلى طفلٍ ريّانَ مكتمِلِ النّشاط والحيويّة .

وكنت كلّما نظرتُ إليه أحسَسْت بأنّ لي حقا عليه ، وأنه أصبح مدينًا لي ، لم يَعُدْ غريبًا عنّي ، بل إنه منّي .

لو مَلَكَ الكلام في مَهْدِه لصاح بي : « لا تتركيني .»

وانقضت أيامُ ملازمتي للفِراش ، وجعلت أخطو في الحجرة ، فكان يلذ لي أن أحمِلَ الطّفل بين يديّ أطوفُ به في أرجائها أهدهدُه .

وكنت كلّما ضمَمْتُه ولَثمتُه ، سرى في مَوات نفسي خِصبٌ ونَماء ، وشاعَ في حنايا صدري إشراق وانشراح .

وقلت مرة للدادة شيرين وأنا أدور به في الحجرة :

« ألا أمضي إلى أمّه أتعرّف بها ؟»

فقالت : « جميل منك أن تفكّري في زيارتها ، ولكن لم يحنِ الوَقت بعدُ . سنؤجّل ذلك إلى حين .»

وجلست على السّرير أحمِل الطّفل بين ذراعيّ ، فسمِعتُ الدادة شيرين تقول :

« ألم أقل لك من قبل : إن الله قد يَمُنُّ عليك بما يعوِّضُك ممّا فقدْتِ ؟ إن الله يأخذ ويُعطي .»

فألقيت عليها نظرة ساهِمة ، وقلت : « ولكنّه ليس بطفلي .»

فتابعَتْ كلامها غير معنيّة بقولي :

« إن الله لأكرمُ من أن يحرِمَك ما يختَلِج في نفسك من عاطِفة الأمومَة الحنون . إنه يَهَبُك طفلاً يواسيك في مِحنتك ويشيع في حياتك البهجة والنور .»

فصِحت أواجِهُها بقولي : « إنه ليس طفلي مهما يكن من أمر .»

فأحدّتْ بصرها فيّ وقتًا ، ثم دنت من أذني تهمِس : « تستطيعين أن تكوني له أما ، أما ثانية ، إذا لم يكن لديك من ذلكِ مانع .»

فاستطلتُ بعنقي إليها ، وقد ازددتُ بالطفل تشبُّثًا ، وقلت : « كيف ؟»

« تستطيعين أن تعيشي معه ، لا يكون بينكما فِراق .»

فأخذتُ بيدها أقول : « كيف ؟ كيف ؟»

« هذه مهمّتي . كِلي هذا الأمرَ إليّ ؛ وإني أدبّرُه خيرَ تدبير .»

ولاحت على وجهها ابتسامة رقيقة . ثم خرجت تتثاقل على عكّازتها ، وأنا أرقُبها حيرى يهزّني سرورٌ خفيٌّ .

— ٧١ —

يومانِ مَضيا .

وفي ضَحوة اليوم الثالث أقبلَتْ عليَّ الدادة شيرين وضّاحة الوجه مشرقة القسمات ، بيد أنَّ حركاتها وإشاراتها كانت تُفصح عن تأثُّر ، تُجاهد في كبْته وإخفائه عنّي ، وقالت بعد أن ألقت بجسدها على المَقعد في إعياء :

« أ راغبةٌ أنتِ الساّعةَ في لقاء أمّ الطّفل ؟ »

« ليس لديَّ ما يمنعني من لقائها في أيّ وقت تشائين . »

فاقتربَتْ منّي ، تقول مُرعَشةَ الصوت :

« لقد فاوضتُها في كلِّ شيء ، واتفقتُ معها على كلِّ شيء . إنها لَترحّبُ بأن تكوني ضيفَها تُرضعين الطِّفل وتكفلينه . لقد شَهِدتْ لك الطبيبة عندها بأن لبنَك خيرُ لبن يوافقه ويَضمَن له العافية والنموّ . »

« تقصدين أن أكون في بيتها مُرضِعًا . »

« لن تشعري من معاملتها أنك في صفوف المُرضعات . إنها طيبةٌ رقيقة القلب عطوف ، ستلقَين منها كلَ تكرِمة وإعزاز . هيّا بنا إليها . »

ونهضتُ معها ، و وجدتُها تستندُ إليَّ في مَشيها على الرّغم من وجود عُكّازَتها في يدها . وشعرت بأنها تتعثّرُ في خُطاها تكاد تهوي .

وكانت تَهديني الطّريق ، فسرنا في ممرٍّ انتهى بنا إلى باب ، فدخلنا فيه ، فإذا بنا في بهوٍ صغير يُسلِمنا إلى حجرة الأم .

وطرق سمعي صوتُ سُعلة نِسْوِيَّة تنبَعِثُ من تلك الحجرة ، فوجدتُني أتمهّل في خُطاي . وتوالت السُّعلة مرّاتٍ ، فوقفت أنصِتُ ، وبدأ قلبي يرجف . والتفتُّ إلى الدادة شيرين أستوضِحُها الأمرَ ، فرأيتُها تدفع بي في رِفقٍ لأتابعَ السّير ، وسمعتها تهمس : « ثقي ، يا سلوى ، أنْ ليس في الأمر ما يُضيرك . »

وراحت تجذبني قائلة : « لقد مهّدْتُ لكِ كل شأن؛ عوِّلي عليَّ . »

ودفعَتْ بعُكازتها البابَ ، فدخلنا .

فإذا بي أمام سنية وجهًا لوجه .

كانت تَحمِل طفلها بين يديها ، وهي تخطو في الحجرة خُطًى بطيئةً تُعينها عليها إحدى الممرِّضات . فلمّا رأتني شعرَتُ بها ترتَدُّ خُطوة إلى الوراء ، كأنها تريد أن تتوارى عنّي .

وغامت الدُّنيا في وجهي ، وكأنّي لا أتبيَّن بعيني من شيء . و وجدتُني أستند إلى أقربِ متّكأ .

وأخذت أعتصِرُ جبيني بيديَّ ، وأنا أحسُّ قُشَعْريرة تَهزُّني من فرع رأسي إلى أخمَصِ قَدميَّ . وتراءى لي شبح الدادة شيرين يقصد إلى موقف سنية ، ويُلقي في أذنها بضع كلمات ، بلغتْ سمعي منها هذه الجملة :

« أ لم نتَّفقْ على كل شيء ؟ ما بالك ؟ الخير فيما اتّفقنا عليه . »

وعادتِ الدادة شيرين إليَّ تقول : « أ لا تتقدَّمين لإرضاع الطِّفل ؟ إنه إليك في حاجة . »

وسمِعتُ الطِّفلَ يتصايح ، كأنه يتقاضاني حقّه عندي .

فاستأنفتِ الدادة شيرين تقول في صوتٍ واضح النّبرات : « أ لا تُحبِّينَ صديقتك سنية ؟ لقد كانت في انتظار مَقْدَمِكِ إليها . »

فرفعتُ عينيَّ إلى وجه سنية شديدِ الامتقاع .

وسمعتها تحرِّك شفتيها مُغمغِمةً ، ولكنّي لم أستَبِنْ شيئًا مما تقول .

و وجدتُها تحاول أن تمُدَّ يدها إليَّ ، فأسرعتِ إليها ، وانكببتُ راكعةً أمامها ، وأخذتُ يدَها بين راحتيَّ أغمرُها بالقبلات ، والدّمعُ يَسُحُ من مُقْلَتَيَّ .

إحسانٌ لِلّٰه

مُحَمَّد أفندي صَلِّ على النَّبي

«صَلِّ على النبي .»

« اللّهم صلِّ عليه .»

« لقد نويتُ أن أطلِّق المرأة .»

« لا حول ولا قوة إلا بالله .»

« قلتُ لكَ صلِّ على النَّبي .»

« ألفُ صلاة عليه ، يا أخي .»

« لقد استخرتُ الله في تطليق المرأة .»

« هذا خراب بيوت .»

« خراب بيوت أو عمران بيوت ، هذا ما اعتزمتُه والسلام .»

« أ نسيت أن النبيَّ ﷺ قال : «« أبغضُ الحلال إلى الله الطَّلاقُ »» ؟»

« أعرِفُ ذلك ، ولكنْ لا تنسَ أن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ لا يُكلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلا وُسْعَها ﴾ .»

دار هذا الحوار بين « محمد أفندي » والمأذون الشرعيِّ في مكتبه ، إذ قدِمَ عليه « محمد أفندي » ليتَّفقَ معه على إجراء الطَّلاق .

وجعل المأذون الشرعيُّ يسوّي طوايا عمامته ، مُطيلاً في تَسويتها وهو يتنحنح ، مُعِدًّا حَنجرته لإلقاء خطبته العتيدة ، يحاول بها إصلاح ذات البَين ، وإبراء نفسه من تَبِعة هذا المكروه ، قبل أن يغمِس قلَمه في الدَّواة ؛ شروعًا في تدوين وثيقة الطَّلاق ، وذلك تنفيذًا للتعليمات الرَّسمية المعهودة .

وما عتَّمَ (١) المأذون الشرعيُّ أن انبَجس (٢) لسانُه يشقشق بالجُمل والعِبارات ، محشوَّة بالنُّصح للزَّوْج أن يكفَّ عن الطَّلاق ، وأن يؤثر الحُسنى ، وأن يمسِك زوجته بمعروف .

وكان يتلو هذه الخطبة عن ظهر قلبه ، كما يُنشد التلميذ قصيدة منَ المحفوظات .

فلمّا بلغ الغاية من خُطبته ، أحدَّ النظر في وجه زائره ، كأنه يقول :

« هل بعد هذا مقالٌ لقائل ؟»

ولكنَّ « محمد أفندي » رفعَ طربوشه عن رأسه في ملالة وضَجر ، فتبدّى رأسه أجردَ ماحلاً ، إلا من شُعيرات مبعثرة كأنها أعشاب مصَوِّحة (٣) في صحراء مقفِرة ، وطفِق يمسح بمنديله المخطَّط الكبير جوانبَ وجهه ، وهو ذلك الوجهُ السمينُ ذو العينين المتورِّمتين، والشفتين الغليظتين ، والأنفِ العريض الَّذي يطغى بضخامته على خدَّيه .

ثم رفع صوته في حشرجة يقول :

« صلِّ على النَّبي ، يا شيخ .»

« اللّهمَّ صلِّ عليه .»

« لقد اعتزمتُ تطليقَ المرأة والسلام .»

فأشرَعَ المأذون الشرعيُّ عينيه إلى السماء ، كأنّما يُشهِدُها على أنه أدّى ما يجب ، وأن ذِمَّته بَراءٌ من ذلك الطَّلاق البغيض .

وما أسرعَ أن دُوِّنت الوثيقة الرسمية ، فدسَّها « محمد أفندي » في جيبه ، ونهض بِجرْمه (٤) المتكتِّل ، وألواحه العِراض ، ينقِّل خُطاه كأنَّه بغلٌ أثقلته الأحمال . ومضى يترفَّع برأسه ، ويتطاول بقامته ، على الرَّغم من أنه ذَرَّفَ (٥) على الخامسة والسِّتين ، وهو يفتل شاربه الغزيرَ في زَهْوِ المنتصِر الغلاب ، يحس بين جنبيه سَوْرَة الفُتُوَّة .

ولِمَ لا يَعُدُّ نفسَه فتيا ، وهو بحمد الله لا

(١) ما عتَّم : ما لبث . (٢) انبجس : انطلق .

(٣) مصوِّحة : يابسة. (٤) جرمه : جسمه. (٥) ذرَّف : زادَ.

يشكو علَّة ، ولا يعرف فراشَ المرض كيف يكون ، وهذه جوارِحه وأوصاله مُسلَّمة لم يتخوَّنها الزَّمن ، وتلك أسنانه بيتُ القصيد في ملحمة جُسمانه لم تسقُط منها سنٌّ ، ولم يتثلَّمْ لها حدٌّ ، وإنَّه ليتعهَّدُها بمختلِف ألوان العناية من تنظيف وتسويك ؛ إذ يعلم حقَّ العلم أنها مطيته الدَّءوب إلى إصابة مُتعته الكُبرى في الحياة : الطعام !

عجِلَ « محمد أفندي » إلى داره ، وهو يفكر في مباغتة الزَّوجة بما صنع عند المأذون الشرعيِّ ، فيطعن كبرياءها ، ويشفي غليله منها .

يا لله !

شدَّ ما أوقعتْ به الأذى ، وأذاقته ضروبَ الهوان!

شدَّ ما سلبَتْه مالَه بمختلف الأحابيل الشيطانية الَّتي يَعيا بخُبثها أدهى الناس !

— ٢ —

ما إن حلَّ « محمد أفندي » بالدَّار ، وطوَّف بها ، حتَّى تبين أنها قاعٌ صَفْصَفٌ (١) ، ليس بها من مَتاع ولا أنيس .

فتلفَّتَ يَمنة ويَسْرة ، وانبعث ينادي أهلَ الدَّار ، ليعلمَ سرَّ هذا الخواء الَّذي دهاها ، فلم يُلَبِّ نداءه إلا راجعُ الصَّدى ، يصدَع له بالحقيقة المرَّة .

ولمع في رأس « محمد أفندي » خاطِر اهتزَّ له ، فهرع من فوره إلى كِنِّ (٢) الأرانب ، وجدَّ في البَحث والتفتيش ، فلم يجد إلا نثيراً من فُتات وعشب .

فاربدَّت معالمُ وجهه ، وتسعَّر بين ضلوعه الغَيظ والتحسُّر .

لقد أتتِ الزَّوجة على ما في الدَّار ، فأعملتْ فيها يدَ النَّهب والاستلاب . وإن « محمد أفندي » ليغفِرُ لتلك المرأة كلَّ ما اقترفتْ ، لو أنها أبقتْ له ذخيرَته المفضَّلة منَ الأرانب .

هي تعلم أنها باستيلائها على تلك الذَّخيرة ، تُصَوِّب إلى قلب « محمد أفندي » سهمًا مُرَيَّشًا ، وتصيبُه في مَقتل .

إن الأرانب طعامُه المفضَّل ، وطالما اقتنى منها السِّمان المكتنزَة باللَّحم والشَّحم ، وتفنَّن في تزويدها بالأغذية ، . وقضى أطول وقته في المَطهى(٣) يأمر وينهى ، لكي يتوافر له من تلك الأرانب ما تتحلَّب له شفاهه من طعام هنيٍّ .

جعل « محمد أفندي » يخطر في الرَّدْهة ذُهوبًا وَجيئةً بقدميه الثقيلتينِ ، يضرب بهما الأرض ضرَبات يزدادُ المكانُ بأصدائها من رهبة واستيحاش .

وأنحى الرَّجُل على شاربه يفتلُه ، كأنَّما يقتلع جذورَه ، ثمَّ ألقى بجسمِه على صُفَّة بنيت في أحد أركان البَهْو ، وأطلق العِنان لفكرِه ، يحلِّق حيث شاء .

لا بأسَ .

هذا آخر ما يلقاه من عنَت الأقدار . إنه ليسدِل السِّتار عليه ليستأنف حياة جديدة لا عنَت فيها ولا رَهق . ليؤَثثنَّ الدَّارَ ، وليشترينَّ طائفةً من الأرانب الجِسام . لن يستعصيَ عليه أن يجدِّد عيشه ، ويهيئ لنفسِه المُتعة والرفاهة . ليَصيرَنَّ أمرُه إلى خير ، ما دامت هذه المرأة قد أخلت له وجهَ الحياة .

وبعد قليل جعل « محمد أفندي » يعتصِر جَبينه .

إنَّه يفكِّر في الثأر ممَّن أوقعتْ بداره تلك الخَسارة النَّكراء .

لينتقمنَّ لنفسِه ، ولأثاث بيته ، ولأرانبه .

لن يؤديَ لها مؤخَّر الصَّداق ، ولا نفقة العدَّة .

(١) صفصف : مستوٍ مطمئن ، والمراد خالية .
(٢) كِن الأرانب : حظيرة الأرانب .
(٣) المطهى : المَطْبَخ .

ولكنْ أيُّ موقفٍ يقِفُه من صِبْيَتِهِ – صِبْيته الثَّلاثة ؟

لقد اصطحبتهم في مُنْتَقلها منَ الدَّار ، فلتتكفلْ بهم ، وحسبُها ما نالته من سوالف خيره .

كيف ينفق ماله على هؤلاء الصِّبية الخُبثاء ؟

أ يَنْسى كيف كانوا يكيدون له ، ويمكرون به ، وينصاعون لأُمِّهم دونَه ، ويصبّون عليه غارةً شعواء ؟

القرش الواحد أعزُّ عليها وعلى بَنيها من نُجوم السَّماء .

واستجمعَ الرَّجلُ يدبِّر حسابه ، ويراجع ما له وما عليه ، وأخذ يتداول الأرقام جمعًا وطرحًا وقسمةً . ماذا يكفي لتأثيث البيت ، ولتعميره بالأرانب ، ولبناء كِيانه من جديد ؟

وانتهى به التقدير والتدبير إلى طُمأنينة وسكينة ، فثروتُه وإن نالها كثيرٌ من التحيُّف (١) ما برِحتْ كافيةً وافيةً . في مستطاعه بها أن يحيا وحدَه حياةَ رفاهيةٍ ونُعمى .

أمّا الزَّواجُ فقد قرر ألا يُخطِرَه بباله يومًا منَ الأيّام. كفاه ما لحِقَه من وَيلات الزَّواج .

لقد آنَ له أن يوصِدَ ذلك الباب الَّذي جرَّ عليه شُكولاً (٢) منَ المتاعب ، وجرَّعه ألوانًا منَ العذاب .

– ٣ –

وغادر « محمد أفندي » دارَه ، وقد سرى في نفسه هدوء وارتياح ، وشرع في طريقه يَرْسُم مِنهاج حياته الجديدة . ولكن مخايل من حياته الماضية كانت تحومُ في مُخيِّلته بين الفَينة والفينة .

لقد مضى ما مضى من عُمُره ، تطحَنه رَحا الحياة الزوجية ، حيث لا قرار ولا مهادنة .

كان من قبلُ موظفًا في إحدى مصالح الحكومة، يرى نفسه مهيب الجانب ، ويسري إلى وهمه أنه مسموع الكَلِمة ، ويقعُ في فهمه أنَّ إليه تُسنَد جلائل الأعمال .

ولكنَّه على الرَّغم من ذلك أقصته الوظيفة إثرَ تحقيق ومحاكمة ، فأُحيلَ إلى المعاش ، بعد أن نالتْ منه الألسن ، وشاع حوله سوء القالة .

وإنَّه كلَّما خطرت بباله ذِكْرى تلك القضيَّة الشُّؤمى تثور نفسه ، ويصبُّ جام النِّقمةِ واللَّعنة على أولئك الَّذين دبروا له مؤامرة ، لُحْمَتُها الحِقْد وسَداها الانتقام . أولئك الَّذين خُيِّل إليه أنَّهم قد ضاقوا بهيبته وخشيته ، فاتخذوا لإقصائه وسائلَ وضيعةٍ دون تورُّع ولا حياء ، وحاكوا له حِيَلاً خَفيتْ عنه ، وجازت عليه ، فأوقعتْه في المحظور .

أخذ « محمد أفندي » سَمْتَه إلى قهوة « المعلم شيحة » لِيهنأ بتدخين الجوْزَة . وكان صاحب القهوة قد واعده منذ يومين أن يهيئ له نوعًا ممتازًا من الطُّبّاق .

ولكن ليس يجمل أن يتلقَّى أنفاسَ الجوزة ببطنٍ يَصْفِرُ فيه الجوع ، فليبدأ بطلَب صحفة مشحونة بالشّواء الرشراش يقطر دسمًا ، وليُتْبِعهُ أكوابًا من الشاي العطر يمزُج رشفاته منه بأنفاس الجوزة ، في جلسة رخيَّة يتعوَّض بها من ذلك اليوم العاصف الأنكد .

وجدَّ الرجل في السَّير ، متدفِّع الخُطا ، منفسِح السّاقين ، وقد سطع على محيّاه الطَّلاقة والبِشر . ولـ لا وهذه ساعة من فرائد ساعاته التي يشعر فيها بنشوة الفوزِ والانتصار ؟

إنَّه في هذه الساعة قد خلص من وطأة الزوجة التاعسة ، كما خلَص قَبلاً من زوجاتٍ أربع ، بَنى بهنَّ ، وأنجبَ منهنَّ ، ولكن مَصايرَهنَّ كانت تنتهي تباعًا إلى الطَّلاق .

وأيُّ ذنبٍ هو جانيه ؟

النساء سواء ، الأولى كالثّانية ، وكِلتاهما تشبهُ

(١) التحيُّف : النقص . (٢) الشكول جمع شكْل .

الأخريات . عاشر كلا منهنّ أعوامًا طالت أو قصُرت، وخرج من عشرتهن جميعًا بصفقةِ المغبون . ليس لكلّ منهنّ همٌّ إلا اجترار المغانم ، وابتزاز المطالب . وليس لهنّ دستورٌ إلا السّيطرة والتأمُّر والعجرفة .

ما كان أقسى تكاليف تلك الزَّوْجيّات عليه ! حتّى طلاقُهن كان يجشمه أفدح المشاقّ .

أ لم يكابِد هَمَّ الدَّينِ والرَّهن والبيع ، لِيواجه القضايا والأحكام ، فيؤدِّيَ ما وجب من مؤخَّر الصَّداق ، وما تقرَّر من ألوان النَّفقات لهذه الزَّوجات ، ولذلك الجحْفَل اللَّجِب (١) من أطفاله البنين والبنات ؟

لقد كان يتحمَّل في جلَد وصبر تلك الهموم كلَّ مرة ؛ أيْ عند كل تطليق ، مُنتظرًا من وراء هذه التصفيات راحةَ البال وإزاحة الأعباء عن كتفيه ، فيهنأ بالحرِّيَّة والخلاص .

ما كان أغناهُ عن الزَّواج ، ولكنَّه يعجَب من أمره، كيف كان في كلِ مرَّة وهو يواثِقُ نفسَه على حياة العزوبة ، يجد خُطاه قد تورَّطت في الطريق إلى زَوْجيَّة جديدة ؟

أمَّا اليوم فلا عَوْدَ لذلك الماضي الكريه . لن يُلْدَغ مِن ذلك الجُحر مرَّة أخرى .

فيما أصاب من المتع مَقْنَعٌ له ، وفيما لقيَ من الإرهاق رادِعٌ أيُّ رادِع !

— ٤ —

وتصرَّمت الأيام تستنفدُ جَهد « محمد أفندي » في تصفيةِ حساب تلك الزَّوجية الأخيرة .

وعلى الرَّغم ممَّا عانى من المراوغَة والتحايل ؛ خلاصًا من باهظ النَّفقات ، لاحَقَته المحاكِم تفرِض عليه المغارِمَ ، حتّى ألفى نفسَه يومًا لا يملك أثارَةً (٢) من عَقار في القاهرة . لقد نفِدت ثروته ، إلا دارًا متواضِعة في قرية هي مسقط رأسه ، وأشتاتًا من أرض تُزرع .

وا حرباه !

أ تقضي زوجياته الخمسُ هذا القضاء المبرمَ على ما كان يملِكه في القاهرة ممّا يوفِّر له اليسار الرغيد ؟

ونكَّسَ الرجل رأسَه مهمومًا ، يجترُّ آلامَه ، ويقدَح فكره .

و وثبَتْ في خاطِره فكرة ما عتَّمَ أن هشَّ لها ، وفرِح بها .

لمَ لا يستأنفُ حياة جديدة في الرِّيف ، يعمُرُ داره ، ويتعهَّد أرضَه ، ويستنبت أطيبَ الثَّمر ، ويحيا في خَفْض ودَعَة ؟

ثَمَّةَ خيرٌ كثير ، وإنفاق قليل .

ثمة مَراحٌ عريض تَرتع فيه أرانبه المحبَّبة ، فينعم منها بالسَّمين المكتنِز .

ولكن عَرضت له مشكلة لم يتبينْ لحلِّها وجهًا : أنّى له أن يحصُل على الطَّبَّاق الممتاز الَّذي يُعِدُّه له « المعلم شيحة » في الجوزة ؟

أ تُراه قادرًا على أن يسلوَ أنفاس تلك الجوزة الَّتي يصابِحها ويماسيها لا يَملُّها ولا تَملُّه ؟

وسَرعان ما ضرب جبهته بيدِه . أ منَ العسير على « المعلِّم شيحة » أن يوافيه في الحين بعد الحين بمؤنته من الطَّبّاق ؟

الحمد لله ، كل شيء قد تمهَّد ، سوف يعيش سُلطان زمانه في مَنجاة منَ الضَّنك والأذى . ولمَ لا يطمعُ في حياة رخيَّة ناعِمة ، وإنَّ له لإرادةً صُلبة تَصْدَع المشكلات ، وتأتي بالمعجزات ؟ إرادة لا يقِف دونَها شيء ، ولكنَّها تقِف سدًّا منيعًا تردُّ عنه أبدًا ويلاتِ الزَّواج .

(١) لَجِب : ذو جلَبة وكثرة . (٢) الأثارة : البقية .

— ٥ —

شدَّ « محمد أفندي » رَحله إلى قريته « كفر عقيق » فقدِمها مع اللَّيل ، فواجهته العَتمة والصَّمت .

وقف يتطلَّع حولَه ، فوجد كلَّ شيء كأنَّما يتجهَّم له ، فأحسَّ من فورِه وحشة تباغتُه ، فتدفَّع بجِرمه الضخم ، متجهًا نحو دارِه ، هربًا من تلك الجهامة والرُّكود – داره الَّتي انقطع عن زيارتها منذ أعوام طِوال ، فكاد يضِلُّ طريقه إليها .

وما إن بلغها حتّى استقبلته بمثل ذلك العُبوس الَّذي استقبلته به القرية : بناء متطامِن [1] متضائل ، يختنق بين جاراته الدور ، كأنَّما هو أنقاضٌ يعيث فيها الخراب.

و وقف في صَحْن الدَّار ، يتأمَّل فيما حوله ، وقد زلزلت كِيانه رِعشة واضطرابٌ .

أ مكتوب عليه أن يَقضيَ بين هذه القبور بقية أيامه في الحياة ؟

وراح يوازِن بين ما يشهد السَّاعة من كآبة وخُمود، وبين مجالي حياته في القاهرة : كيف كان يعيش في مسكنه الطيِّب ، وكيف كان يجد الإيناس في قهوة « المعلم شيحة » ، وكيف كان ينعم هناك بالماء المثلَّج ، والجوزة الضاحِكة ، والوجوه المستبشرة ، والمِذياع المُسلِّي ، والباعة يهتِفون بسلعهم في غُدُوٍّ ورَواح .

أين تلك الحياة الزَّاخرة بألوانها وأضوائها من هذا الظَّلام الدَّامِس بين الرُّموس [2] والأطلال ؟

وأخذ يتنقَّل في الرَّدْهة الخاوية ، فكلَّما خطا خُطوة عَلِقتْ بوجهه أقذاء ، فالتمس الخلاصَ إلى مُستَشرَف يطالع منه صفحة السماء ، فتهادت إليه أنسام رفيقة مُعطَّرة ، وأخذت عينه قوسَ الهِلال وهو يتراءى في عُرْض الأُفُق إيذانًا بمطلَع الشَّهر الجديد . فلبِث الرَّجل وقتًا يتوسَّم الهِلال ، ويستقبِل مُلاطفات النسيم ؛ فاطمأنت نفسه بعض الطُّمأنينة ، وحلَّق بفكره في رِحاب من الآمال والرغاب [3] . وراح يسائل نفسه :

فيم الضَّجَر ؟ كلُّ صعبٍ يهون . أمَّا الدَّار ففي المُكْنَة أن يقوم على أنقاضها مَغْنًى أنيق تتوافر له مُعَدَّات الرَّاحة ؛ وأمَّا القرية فإنها في حاجة إلى إحياء وتجديد ، وإنه بهما لزعيم . هَهُنا مجال لآرائه العصرية يَبُثُّها ، ونظراته الثاقبة يشعُّها ، وهمته الماضية يَبْذُلها . فَلَيَشُنَّها غارةً شعواءَ على الرُّكود والضَّعة ، وَلَيَنْتَشِل القرية ممّا هي فيه ، حتّى تصبحَ جنةً آهلةً عامرة ، موفورةَ الحظِّ من أسباب المتعة والإيناس .

وتَعاورَه التثاؤبُ ، وسرى في أوصاله الخُمول ، وإذا هو يتهالك على أقرب كُومة من مكانه ، فاسترخى يُسعِف جسمانه ببعض الرَّاحة .

— ٦ —

ودارت عجلة الأيام ، وما برِح « محمد أفندي » يعيش في ذلك الوَكر الموحِش ، كما يعيش جيرانه من أهل القرية في أوكارهم المتداعية . وكلَّما خطر بباله ماذا صنع بمشروعاته في التجديد والتعمير – اربدَّ وجهُه من حَنَق ، وهو يهجِس :

العجلة من الشَّيطان ، والعاقلُ من حَزَم أمره قبل المضيِّ فيما يريد ، وفي الأناة مَنْجاةٌ من مزالق التسرُّع ، ولكلِّ شيء إبَّان ، وما دامت الإرادةُ الصُّلبة قائمةً والعزمُ موفورَ الوَقود – فلا يأسَ من الإصلاح .

ولأمرٍ ما برزتْ عبقريَّة « محمد أفندي » في التجديد ، واشتعل نشاطُه في التَّعمير ، ولكنَّه خصَّ بتلك العبقرية وذلك النشاط ركنًا واحدًا من أركان الدَّار ، ومِرفَقًا خاصا من مرافقه ، ذلك هو كِنُّ الأرانب .

(١) متطامِن : منخفض .
(٢) الرُّموس : جمع رَمْس ، وهو القبر .
(٣) الرِّغاب : جمع رَغيب ، وهو المرغوب فيه .

لقد استبدَّ هذا الكِنُّ بيقظَته ورعايته ، فأشرف على بنائه ، واجتهد في تزويده بالأدوات والمهمّات ، حتى أصبح مرعًى طيبًا لجيش من الأرانب على اختلاف الأنواع .

واتفق « لمحمد أفندي » أن يعثُر بعد جَهد جهيد على شيخ طَحَنته السنون ، كان يمتهِنُ الطَّهْوَ – كما يزعم – في دُور السَّراة والكُبَراء ، وقد نسيَ مهنتَه من فَرْط التعطُّل ، وبُعدِ العَهد ، وضَعضعة الكِبَر .

فعُنِيَ « محمد أفندي » بأن يستخرج هذا الرجل ، ويُميط عنه غُبار الزّمن ، ويجلوه على عرش المطبخ ، كما كان في سالف عهده العهيد .

وحُقَّ « لمحمد أفندي » أن يفخَر ببنائه حظيرةً عصرية للأرانب ، واستخراجِه لذلك الطاهي التَّليد . وكيف لا وقد راع القرية بمظهر من مظاهر المدنيَّة والتحضُّر لم يكن لها بمثله عهد ؟

وكان « محمد أفندي » يبذُل أطول وقته في صُحبة ذلك الطّاهي المتهدِّم ، يرقُبُ الأرانب وهي في القُدور تتقلَّب في سَمنها مزعفرةً ، يَشيع منها القُتار (١)، على حين يتحلَّب فمُه من تشوُّف وتعجُّل .

وكثيراً ما احتدَم الشِّجار بين « محمد أفندي » وطاهيه في شأن ألوان الطعام ، وما يجب أن يتوافر لها من دقة وتجويد وإتقان ؛ فكان يحاول أن يفرض رأيه على الطاهي مُسَفِّهًا خبرتَه ، ناعيًا عليه تقصيرَه . ولكنَّ زمجرةَ الطَّاهي وتهديده بترك الخدمة كان يحدو « محمد أفندي » على أن يغادرَ المَطْهى في تسلُّل ، قاصداً مستشرفَ الدّار الضيِّق ، يلتمِس فيه الهواء لوجهه المحتقن ، وأنفاسه المحتبِسَة .

– ٧ –

وكان يختلِف إلى الدّار شيخ من حَفَظة القرآن ، يُدعى « الشيخ عَزبان » يقرأ الرّاتب اليوميَّ من آي الذِّكر الحكيم . وكان « محمد أفندي » يخصُّه في الفَينة بعد الفينة بالجُلوس إليه ، تَبَرُّكًا بقراءته ، ولكنَّه لا يلبَث أن يبادِرَه سُباتٌ عميق ، فتنطلِق من خياشيمه حَشْرَجة غطيطٍ ، تُباري صوتَ القارئ في تَرتيله .

وكان « الشيخ عزبان » لا يفتأ يرطِّب لسانه بأسنى المدائح لسيد الدّار ، متغنيًا بأخلاقه وشمائله ، فيستبقيه « محمد أفندي » وقتًا ليقصَّ عليه طَرَفًا من أعماله المجيدة في فَترة اشتغاله بالوظيفة ، ويَسُبُّ الدَّهر الّذي جازاه أقبحَ الجزاء .

ولم يكن ينسى أن يتطرَّق بالحديث دائمًا إلى زوجاته ، وما أفاءه من عطف عليهنَّ ، وبرٍّ بأطفاله منهنَّ ، على الرَّغم ممّا أسلَفْنَ إليه من مَساءة وإيذاء . ومهما يكن من أمرهِنَّ فإنه قريرُ العين ، مطمئن الضَّمير بما صنع ، ضاربًا صَفْحًا عمّا لقيَ . وحسبُه أنَّه أدّى واجبه الإنسانيَّ على خير ما يؤدّيه ذو مروءة وإحسان .

كان « محمد أفندي » يسترسِل في الإشادة بماضيه ، والتمدُّح بأمجاده ، فيستمع إليه الشيخُ مبديًا تصديقَه وإعجابه ، وهو بشخصه الضئيل متكمِّش في عَباءته المُهَلْهَلَة ، يختلِس النَّظَرَ إلى جليسه بمقلتين كأنَّما انتُزعتا من عينَيْ ثعلب .

ولم يكنِ الشَّيخ يخرج من مثل تلك الجلسة خاويَ الوفاض ، وإنما كان يُجزى بما تيسَّر من ضِلع أرنب ، ونثار من رزٍّ ، في لفائفَ من خُبزٍ رَحراح .

– ٨ –

طابت الحياة على هذا النحو رَدَحًا من الزّمن ، وأصبحت مألوفةً « لمحمد أفندي » ، لا يشعر لها بملالة

(١) القتار : دخان ذو رائحة خاصة ينبعث من الطبيخ أو الشِّواء .

ولا ضجر. فقنع من حياة الترف والإيناس في الحضر بما وَعته مخيِّلَته من ذكريات يعرِض صحائفها بين آنٍ وآن .

ونجمت في دنيا « محمد أفندي » حادثة لم تكن له على بال ؛ إذ أصيب طاهيه بوَعكة ألزمَتْه مَرقده ، فضاق « محمد أفندي » بأمره ، وأسقط في يده ، وقضى يومه حيرانَ أسِفًا ، يدور في بيته كأنَّما يتفقد شيئًا أضاعه ، دون أن يعثُر له على أثَر .

وكان في مداره بالبيت يدنو من كِنِّ الأرانب ، يلقي عليها من الطّاق نظرات مسترقة ، فيجدِها راتعةً بين أضغاث البرسيم ، تلتَمع أعينُها في بهجة ومراح ، وتتواثب سمينةً ممتلئة من شِبَع وريٍّ ، فيقف « محمد أفندي » مهمومَ الخاطر ، مَغيظ النَّفْسِ وينصرف عنها متلهِّبًا من حِقد وحَنَق .

ولم يجد « محمد أفندي » في ذلك اليوم بُدًّا من أن يُعدَّ لنفسه مطعمه على شرِّ وجه .

ولَمّا حضر القارئ لم يجد بقيّة من طعام يصيبها ، بل إنه لم تسنح له فرصة يتمدَّح فيها بأمجاد « محمد أفندي » ؛ إذ كان ربُّ الدار مهتاجَ الأعصاب ، جَهْم الحديث .

وطالت العِلَّة بالطاهي ، فثارت ثورة « محمد أفندي » ولم يعد له صبر ، فجأر بالشَّكوى إلى صديقه « الشيخ عَزبان » ، فطيَّب الشَّيخ خاطره ، و وعده أن يُعينه على حلِّ هذه المعضلة .

وفي الغَداة ، بينما كان « محمد أفندي » يترشَّف القَهوة ملولاً متململاً ، أقبل عليه شبَح ضئيل يمشي على استحياء ، متلفِّعًا بالسَّواد ، في بذاذة هيئة .

وتدانى الشَّبح يلثَم يدَ الرَّجل في تخشُّع ، فسأله :

« من تكون ؟ »

فأجاب الشبحُ في صوت ضارع :

« أنا بنت ابن الشيخ عزبان . »

فرمقها الرجل بنظرة استعلاء ، فتبيَّن له من خلال السَّواد عينان براقتان ، يلتَمع فيهما ذلك التوهُّج الَّذي ينبعِث من عيني الشَّيخ جَدِّ الفتاة .

فسألها : « فيمَ قدومك ؟ »

« بعث بي جَدي لأقوم بما يلزم . »

فأجابها على الفَور :

« أ تجيدينَ طهوَ الأرانب ؟ »

« أعانني الله على مَرْضاتك . »

فبسَط الرَّجل جانبيه ، وزَوى ما بين حاجبيه ، و شمخَ برأسه ، وقال :

« على أيَّة الطرقِ تُحسنين طهوَ الأرانب ؟ »

« على أيَّة طريقة تشتهي . مُرْني تجدْني عند أمرك . »

وكان صوتها متخاذِلَ النَّبرات ، فنهَض « محمد أفندي » بصدره ، وصاح بها :

« اِرفعي من صوتك . مِمَّ تخافين ؟ أ وحشٌ أنا تحذَرينه ؟ »

وسما بقامته واقفًا ، وهو يقول في لهجة الآمر :

« اتبعيني إلى كِنِّ الأرانب . »

واندفع في خطاه يهزُّ أرض البيت هزًّا ، والفتاة تقفوه حذِرةَ المشية ، فدخل كنَّ الأرانب ، واقتعد كومةً عالية ، وجعل يرسُم للفتاة خطط اصطياد الفرائس : كيف تَختلُها بأعواد البرسيم ، وكيف تقطعُ عليها طريقَ الرَّجعة والهرَب إلى الثغرات .

وكانت الأرانب قد احتفرت في أرض الكنِّ سراديب دفينة ، تستترُ فيها كأنَّها مخابئ الجُيوش في ساحة الهيجاء . وقد تعلَّم ذلك الحيوان بغريزته كيف يحاذِرُ ويترقَّب ويتحيَّل ، وكيف يقاوم ويتفلَّت ؛ فلم يكن اصطيادُه بالأمر اليسير .

ولشدَّ ما تعب « محمد أفندي » وتعِب طاهيه في اقتناص ما يشتهي من ذلك الصَّيد الأبيِّ العنيد .

وبدأ « محمد أفندي » صِياحه معلنًا تعاليمه ، وأخذتِ الفتاة تعمل في همَّة ؛ مبتغيةً أن تظفر بثقة سيد الدَّار ، وتحوزَ رضاه . واضطُرَّت أن تزحزِح عن جانبِ رأسها ذلك الخِمار المهلهَل ، فبان منها وجهٌ مسنونٌ يميل إلى السُّمرة ، ذو قسماتٍ خلَت من دَمامة .

وبينما كان « محمد أفندي » ماثلاً على رَبوَته يأمر وينهى ، كانت الفتاة تتواثب في خفَّة خلف الأرانب ، تنفيذًا للأوامر والرَّغبات .

ولم يمضِ مديدُ وقت حتّى أفلحَت الفتاةُ في اقتناص زوج من الأرانب منتقًى ، يترجَّح سَمانة وامتلاءً . فحملَته إلى الرَّجل و وجنتاها تُضرِّجُهما نضرة النَّشاط ، وعيناها تلتمعان التماعةَ الفوز . فتناول « محمد أفندي » زوجَ الأرانب من يدِ الفَتاة ، واحتملَه من آذانه ، يتعرَّف زِنَته ، ويتحسَّس أعطافه في نَهَم واشتهاء ، ثم أعاده إلى الفتاة طلقَ الأسارير . وما ملك أن صاح :

« مَرحى ! مرحى ! لقد أحسنتِ الصَّيدَ والانتقاء . »

ثم ما عَتَّمَ أن استدرك يقطِّب جبينه ، ويستنقذُ رزانته وإمرته ، وجأرَ في خشونة :

« إلى المطهى . »

وانطلقا معًا ، وهناك خلَع « محمد أفندي » معطفه ، ثم تشمَّر واهتمَّ ، واستأنف صَولته في إصدار الأوامر . ونهضت الفتاة بكل ما تتطلبه الحال من شئون ؛ فذبحت وسلخت وشرعت تطهو ، والرَّجل لا يفتُر له صياح ، دون أن يشارك في شيء .

ولَمَّا اطمأنَّ « محمد أفندي » إلى خبرة الفتاة وحُسنِ قِيامها بالطَّهو ، تزحزح عن المطهى ، دالفًا إلى مستَشرَف الدَّار ، فما إن بلغَه حتّى تهالك على مَقعَده الفسيح يستريح .

وبينما كان في رخاوة وانطلاق خيال ، يرنِّقُ (١) النَّوم في عينيه ؛ إذ هبَّ على خياشيمه شذا القَهوة المعطَّرة ، واستبان له شبحَ الفتاة تقرِّب منه القدَح ؛ فاعتدل في قَعدته ، وتأهَّب لارتشاف قهوته ، وخالس الفتاة نظرة ترفُّع ، ثم أشار إليها بظهر يده أن تنصرِف لشأنها ، دون أن يَنبس بِبنتِ شَفَة .

وفرغ « محمد أفندي » من اشتفاف القدح ، فإذا « الشيخ عَزبان » يلوح متزاحِفًا في مشيته ، جَمَّ الحياء ، باديَ التذلُّل ، وألقى عليه تحيةً بالغة الإجلال ، ثمَّ اتَّخذ مجلِسَه عن كثَب منه ، وشرَع يتلو بعضَ الآيِ في صوت خافِت ، مُعِدًّا أوتار لَهاته لتجويدٍ وترنيم .

وإذْ هما على هذه الحال ، قدِمتِ الفتاةُ تسترجعُ القَدح ، وما لبِثَتْ أن عادت أدراجها . فرفع الشيخ بصره في محاذرة واستحياء ، ونظر إلى « محمد أفندي » قائلاً وهو يفرُك يديه :

« لعل سيدنا البك راضٍ . »

فصوَّب الرَّجل عينه إلى الشيخ ، وقال مغضَّن الجبين : « عن أيِّ شيء ؟ »

ففرَجَ الشَّيخ ما بين شفتيه ، وبعثر نظراته يَمنة ويَسرة ، وقال مطأطِئَ الرأس :

« عن البُنيَّة ، خادمتك . »

فأشاح الرجل بوجهه في إهمال ، وقال :

« لا بأس بها . »

ثم ما عتَّم أن انطلق يتضاحك في تصنُّع ، وهو يقول :

« ما لبنيَّتك هذه ضئيلة ، لا تكاد تبين ، كأنها حِرباءة ؟ »

فاستجاب له الشَّيخ يضحَك كما ضحِك ، واندفع

(١) رنَّقَ النوم في عينيه : خالطهما ولَمْ يَنَمْ .

يهزُّ عِطفَيْه (١) ويفرُك يديه قائلاً :

« أطال الله عمرك ، ولا حَرَمنا عطفَك ورِضاك .»

— ٩ —

وأعضلَتْ علَّةُ الطاهي الهرم ، فلم تدَعْ له طاقةً باستئناف العَمل ، فواصلتِ الفتاة الاضطلاعَ بخدمة الدّار ، تباكِرُها في ريِّق (٢) الصُّبح ، وتظَلُّ فيها إلى غيوب الشّمس . وأحسَّ « محمد أفندي » في داره إحساسًا جديدًا لم يَسبق له به عهد ، ذلك أنه الآمرُ المُطاع ، والدّاعي المجاب ؛ إذْ خلا المَطهى من زمجرة ذَيّالِكَ الطاهي الخرِف ، وحلَّت محلها تلك الطاعة المطلقة ، والانقياد التامُّ .

وكان يقضي الرَّجل شَطْرَ يومه الأول على عرشه في المطهى بين المواقد والقُدور ، يتملّى مرأى المطاعِم ، ويتشمَّم ما يتضوَّع من شذاها ، ويستمتع من مذاقها بما يريد .

فإذا انتصفَ النَّهار ، تجلَّت أمامه الصينية الرَّحيبة، وقد احتشدت فيها صِحافُ المشهِّيات والخضَر الحِرِّيفة من نحوِ البَصلِ والكرّاث وما إليه ، وفي بُهرَة (٣) الصينية يستقرُّ الطبق العتيد ، تتشامخ فيه أركان الأرانب على حشايا الرزِّ المسمون .

فينبري « محمد أفندي » للطَّعام وقد تطلَّق مُحيّاه وتجمَّع لفرائسه يناقشها الحساب ، ويستصفيها ما تحتوي من زُبدة ولباب .

وربَّما انحرف بصرُه غيرَ عامِد ، فصادفه شبح الفَتاة ، ماثلةً ترتقِبُ إشارتَه ، لتسارعَ إلى التَّلبية ، فيهمهِم والطَّعام يعترك بين شدْقيه :

« طهوُكِ يبشِّر بمستقبل حسَن !»

فتبتسِم الفتاةُ خَجولاً ، وتجيبه خَفِرَة الصَّوت :

« أدام الله علينا عِزَّك .»

وما إن يفترَّ ثغرُ الرَّجل عن مَطلب حتّى تكونَ الفتاة قد أجابته إليه ، فهذا كوبُ الماءِ تنحني به عن كثَب منه ، وذلك طبق نظيف تقرِّبه إليه .

وما يكاد يفرُغ من طعامه ، أو بالحَرِيِّ ما يكاد يفرغُ الطَّعام بين يديه ، حتى يرى الفَتاة قد مثلت أمامه بالطَّسْت والإبريق ، وعلى كتفيها الفوطَةُ حاضِرةً . وهي فيما بين ذلك كلِّه رائحة غادية ، تدأب في إسعافه بما يطلُب ، وفي التفطُّن إلى ما يهجِس في نفسه .

أمّا هو فلا يكون منه إلا العجيج بأوامر لا تنتهي ، والصِّياح بطلبات ليست بذات بال ، وإنما هي رغبة التأمُّر والاستمتاع بالسيطرة ، فلا يجِدُ من الفتاة على أيّة حال إلا الطَّوع والإذعان .

وبعد الغداء يقبِل « الشيخ عزبان » ، فيأمر « محمد أفندي » بجمع بقايا المائدة ؛ ليحمِلَها الشيخُ في منديله الأحمر الفَضفاض . وقبل مُبارحته الدّار ، يسأل « محمد أفندي » في شأن فتاته ، ومبلغ رضاه عنها ، فيجيب الرجل :

« لها مستقبل إن ثابرت وصابرت .»

« تعليمات سعادتك خيرُ مرشد لها في الطَّريق .»

« إنّي أعلِّمُها قدرَ ما تفهم .»

« ثِق بأن ثَوابك عند الله عظيم . إن الله لا يضيع أجر المحسنين ؛ هي بنت يتيمة ، ونحن ليس لنا في الدُّنيا غيرُ عَطفِك .»

— ١٠ —

وفي بُكرة يوم هبَط الطّاهي الهرِم يتحامل على عُكازَته ، وقد نهكَتْه العلَّة ، وتحيَّفه الهُزال ، فتدانى من « محمد أفندي » يحيِّيه ، فبوغِت بِلقائه ، ولم

---

(١) كتفيْه . (٢) ريِّق الصبح : أوله . (٣) بُهْرة : وسط .

يستطعْ أن يكظِم استياءه ، فاستقبله بوجهٍ كالح ، ولكنّه لم يجِد مندوحة عن ردِّ التَّحية ، والسؤال عن الصِّحَّة .

واحتلَّ الطّاهي عرشَه القديم بين المواقِد والقُدور ، وانتهت مهمَّة فتاةِ الشَّيخ ، فلم يعد لها مجال .

وعادت الحياة في الدّار كما كانت : زمجرة الطاهي تجلجل ولا تهدأ ، والمطهى حِمًى لا يستطيع أحدٌ أن يقترب منه إلا في محاذَرة واحتراس .

فكان « محمد أفندي » يفزع إلى مستشرَف الدّار يبثُّ همَّه وضيقه . إذا استبدَّت به الرَّغبة إلى مُطالعة المطهى تسرَّب إليه على أطراف أصابعه ، ونظر من خَصاص [1] الباب يلتمِس الطُّمأنينة على ما يجري في عالم المواقد والقدور من شئون .

وكَرَّتِ الأيّام تنعي إلى « محمد أفندي » تضاؤلَ نفوذه ، وتزايلَ هيبته ، وتناقُصَ راحته ؛ إذ عاودَه ما كاد ينساه من خدمته لنفسه ، وقيامه بحاجاته : إذا عَطِشَ فلا سبيل إلى رِيِّه إلا إن نهض يملأ الكُوب ، وإذا أكل حتّى تضلَّع وأثقل لم يجد مَندوحةً منَ النهوض بعبئه إلى مرافق الدّار يغسِل يدَه . فأمّا شهوة التأمُّر ونزعةُ السَّيطرة فقد احتبست في قُمقُمِها لا تجد السبيل إلى الانفلات .

ولم تكد تمضي أيّام على قدومِ الطّاهي ، حتّى مال « الشيخ عزبان » على « محمد أفندي » يشكو إليه ما دهاه من ألم في الظَّهر ، و وجع في المفاصل ، ممّا اضطرَّه أن يتوكَّأ على كتف فتاته في تنقُّله .

ومن ثم كان « الشيخ عزبان » يؤمُّ الدّار مصطحبًا تلك الفتاة ، فإذا قدم إبّان الطَّعام ، حاولتِ الفتاة أن تخدُم سيِّدَ الدّار على مائدته كسابق خِدمتها له ؛ فيحسّ « محمد أفندي » براحة فقدَها منذ عاودَ الطّاهي عمله .

وكان ذلك الطّاهي إذا لمحَ الفتاة في هذه الفترة القصيرة ، تعكَّر عليه بخُطُواتها صفوَ استقلاله ونفوذِه، اعتلجَت في نفسه زمجرةٌ حبيسة ، وحدَجها بنظراتٍ حِداد ، واستعاذ بالله من شرِّ تلك المنافسة الشَّعواء .

وشاعت في أرجاء الدّار سارِيةٌ منَ الخصومة المكبوتة ، والاستنكار المكنون . وكلَّما طلَع يومٌ جديد ، شعرَ « محمد أفندي » باشتعال رغبته في الخلاص من هذا المأزِق ، وتصفيَة ذلك الجوِّ ، والرُّجوع إلى حياة طمأنينةٍ وراحةٍ وسلام .

— ١١ —

وذات يوم لم يكدِ الشَّيخ ينصرف في صُحبة فتاته بعدَ الغَداء ، حتّى زحَف الطّاهي الهرِمُ إلى سيده يرْجُفُ غيظًا ، وإذا هو يُنهي إلى « محمد أفندي » أن فتاة الشَّيخ قد أعملت في المطهى يدَ العَبَث ، وأنها جَرُؤَت عَلى أن تبدِّد بعض الأواني ، وتسلُب بعض الأطعمة .

واندفع الطّاهي في نكيره وسخطه ، يعلِن أنه يحرِّم على الفتاة مقاربة المطهى بعد اليوم ، وإلا قصم ظهرَها، وقذف بها فاقدة الأنفاس .

وكانت هذه القذيفة أذانًا بانفجار البركان ، فقد نفرَت أوداج « محمد أفندي » وفار الدَّمُ في رأسه ، وصاح من فوره متهدج الصَّوت :

« صلِّ على النَّبي . »

« اللهمَّ صلِّ عليه . »

ومرت لحظة ، فأحس « محمد أفندي » ريقه يغيض ، وأوصاله ترْعد ، فردد قوله :

« قلت لك صلِّ على النَّبي . »

« ألف صلاة عليه . »

« أنت منذ اليوم مطرود ، يا حضرة . »

---

(١) خَصاص : فُتحات ، جمع خَصاصة .

ففوجئ الطّاهي بتلك الكلمة ، وعاجلته البَهْتَةُ ، وأحدَّ بصره في الرَّجل ، كأنّما يستوضح من ملامحه كُنْهَ ما سمعت أذناه ، وهمهم : « مطرود ؟ مطرود ؟ كيف ؟»

« مطرود والسلام !»

وتمالك الطاهي ، واستعاد ثقته بنفسه ، ورمى الرجل بنظرة نكراء ، وصاح في لهجة رعناء :

« مطرود أو غير مطرود ، هذه البنت الخسيسة وجدُّها المحتال لن تطأ أقدامُهما عتبةَ الدّار ، بعد الآن .»

استمع « محمد أفندي » للطّاهي ، وهو يرسل هذا القول ، وجعل يمعن الفكر فيه ، فلم يخرج إلا بمعنًى واحد ، هو أن سيِّد الدّار رجلٌ غيرُه ، وأن الزِّمام مُفلَتٌ من يده ، وأن أمره بطرد ذلك الطاهي الأحمق أمرٌ مشكوك في تنفيذه ؛ وإذن فالطاهي مستأنف عمله كدأبه ، ولن يظهر في الدّار ظِلٌّ لذلك الشيخ وفتاته .

وهمَّ « محمد أفندي » أن يواجه سطوة الطّاهي بما يقضي عليها ، فحاول أن ينهَض مستجمعًا متشجِّعًا ، يستعين جوارحَه ، ولكن سَرعان ما خَذلته رُكبتاه المهتزتان ، فتهاوى على مقعده العتيد يهمهِم في تضعضُع واندحار .

وما عتَّم أن رأى شبحَ « الشيخ عزبان » مقبلاً عليه ، ولم يكن قد غادر الدّار كما توهَّم الطاهي ، وإنما ارتفعت الستارة عن هذه المأساة ، وهو في منصرَفه ، فرجع منزويًا يتسمَّع ، ثم أقبل مبهور الأنفاس ، يتصنَّع الإعياء ، وألقى بجسمه عن كثب من « محمد أفندي » وصاح تخنقه العبرات :

« لا أغلق الله لك بيتًا ! لا تقطع عيش هذا الطّاهي المسكين ؛ إنه رب أسرة . أما أنا والبنت فكلانا فداء لراحتك . خيرك يعمُّنا دخلنا الدار أو لم ندخل .»

وشعَر سيد الدار بقواه تتجدَّد ، وبعزمه يتشدَّد ، فاستطاع أن يقول في شبه صيحة :

« لا ، لا ، إنه مطرود بلا رجعة !»

فما زال به الشيخ متوسِّلاً يقول :

« العفو من شِيَم الكرام . أين يذهب الرَّجل إن تخلَّيتَ عنه ؟ ليس في غُنية عنك ، وما في مقدوره إنكار معروفك ؛ لا ينكر المعروف إلا كافرٌ جَحود . لقد كان قبل خدمته لك بائسَ الحال ، فأطعمته وكسوته ، وبدَّلته بالبؤسِ نُعمى . إنه مَدين لك بالحياة. إنه ...»

فضاق الطاهي بذلك ذرعًا ، وقاطع الشيخ ، وهو يرميه بشواظ عينيه :

« حسبُك ، يا شيخ ، حسبك ! ما هذا الهَرْف [1] ؟»

فاستدار نحوه « الشيخ عَزبان » قائلاً :

« أ تُنكِر أن سيدنا البك جعلك إنسانًا بحق ؟»

« أنا إنسان منذ خلقني الله .»

« إنسان أو غير إنسان ، عليك أن تقترب من سيدك، وأن تستغفره مما فرط منك . تقدَّم فَقبِّلْ يدَه ورجله .»

« أقبل رجله ؟ ما هذا ؟»

فاشرأبَّ « الشيخ عزبان » متنمِّرًا ، وصاح ثائرًا :

« إنه وليُّ نعمتِك . طأطئ رأسك ، واركع أمامه واستغفر .»

« الركوع لله وحدَه .»

فصلب الشيخ قامته ، و وقف أمام الطّاهي وجهًا لوجه ، وقال : « اتَّقِ الله يا رجل ! واعرف لسيدك واجبه .»

« من الَّذي يجب أن يتقي الله ؟ أنا أو أنت ؟»

« أنا رجل لا همَّ لي إلا تقوى الله ، وعرفان جميله ،

---

(١) الهَرْف : المبالغة في الثناء والمدح .

والإقرار بفضل ذوي الفضل .»

« بل إنك لا همَّ لك إلا الأحاديث الفارغة الَّتي تلتمِسُ بها التسكُّع في بيوت الناس .»

« أ متسكعٌ أنا أيُّها المخبول ؟»

« بل إنك شيخ فاسد مملوء القلب من مكر وخداع .»

فالتفت « الشيخ عزبان » إلى « محمد أفندي » وبدت على وجهه المسكنة والاستغاثة ، وقال في لهجة المتباكي :

« أنا فاسد ماكر خدّاع ؟ لا بأس لا بأس . إنّي رجل تجمَّعتْ فيَّ كل خِصال السُّوء ، لا بأس .»

وسما بِطَرْفِ مِنديله إلى عينيه يمسحُهما ، و واصل حديثه مخاطبًا « محمد أفندي » في صوتٍ متخاذل :

« إنّي مسامحه لوجه الله . وأضرع إليك أن تعفو عنه ؛ إنه رجل مسكين ذاهب العَقل ، ليس عليه فيما يقول حَرَج .»

واقترب من « محمد أفندي » ، وأخذ بحاشية معطفه ، وقال :

« أستحلفك بالله أن تعفوَ عنه .»

فصاح الطّاهي محتدًّا مستنكرًا لما يسمع :

« وإن لم يعفُ عنّي فماذا يكون ؟»

فانتفض « الشيخ عَزبان » وأقبل على الطّاهي يسدِّد إليه نظرة حامية ، وصاح :

« يكون أن يَخرَبَ بيتك ، وتصبح فيه كالكلب الجائع !»

فامتدت يد الطّاهي إلى مُخَنَّق الشّيخ ، وأخذ بتلابيبه ، وهو يقول :

« الكلب الجائع أنت ، يا وقح !»

وسَرعان ما اختلط الصِّياح ، وتشابكتِ الأيدي ، وتقارعت اللَّكمات ، و « محمد أفندي » لا يزيد على أن يرقُب المعركة ، محملق العينين في ذهول وَ وَجيف (١) ، يريد الكَلام فترتعش شفتاه ، ولا ينطلِق له صوت ، ويحاولُ الحركة فتختلجُ أوصالُه ، ولا يستطيع أن يتقدَّم خُطوة .

ياالله من هذه المعركة العصيبة الَّتي يخوضها « محمد أفندي » الآن ! إنها موقعة فاصلة يتقرَّر بها مصير سلطانه في الدّار . هل ينتصر ، أو تُكتب له الهزيمة ؟ أ يكون هو السَّيد المُطاع ، أم تكون لهذا الظاهي المستبدِّ سُلطة الأمر والنهي ؟

وتدفَّق حشد من أهل القرية يستجيبون للصِّياح ، فاقتحموا الدّار ، وما لبِثوا أن فرقوا بين المتلاحِمَيْن . وأقبل رَهط منهم على « محمد أفندي » يحيِّيه في تجلة وإكبار ، ويسأله جَلِيَّة الخبر . وكان الرَّجل يتفصَّد جبينُه عرقًا ، وهو جامِد في مكانه ، كأنَّما شُدَّ إليه بأمراس (٢). واستطاع بعد لأيٍ أن يملِك زمام وعيه ، وألفى نفسه يقول في صوت أَبَحَّ :

« صلّوا على النبي .»

فارتَجَّت أرجاء المكان استجابةً له ، وأشْرعتْ إليه الأعين ، واحتبستِ الأصوات استشرافًا لِما يقول .

وشعَر « محمد أفندي » بالعِزَّة والإمرة ، وألفى نفسَه في مَقام السِّيادة بين الأتباع ، فقال :

« هذا الطاهي مطرود منذُ اليوم .»

وأراد أن يُرْدِف هذه الجملة بأخرى ، فلم تسعِفْه القريحة بجديد ، واضطرَّ أن يَختِم خُطبته بقوله :

« انتهى الأمر .»

---

(١) الوجيف : الخوف والاضطراب .
(٢) أمراس : حِبال .

— ١٢ —

وأظلَّ الدّار عهدٌ جديد ؛ عهدُ استقرار وطُمأنينة وسلام . المطهى مُباح لربِّ الدّار ، يقضي فيه من وقته ما اشتهى ، وأرجاء الدّار طوعُ صوته يرجّها بما شاء من صَيحات الهيمنة والتأمُّر . وحفيدة الشّيخ تغدو وتروح مُذْعِنةً ، تلبِّي مطالبَه في غير وَناء (١) . والصينية تزخر بشتّى ما تهفو إليه نفسه من مشهّيات وخُضَر ، يتوسَّطها ذلك الطَّبق العتيد الَّذي تتشامخ فيه أركان الأرانب على حشايا الرزِّ المسمون . و « الشيخ عزبان » يختلِف إلى الدّار يقرأ ما تيسَّر من آيِ الذِّكر الحكيم ، ويطيل جلسته إلى « محمَّد أفندي » يزِفُّ إليه المكرَّرَ من مديح المَلَق والزُّلْفى .

وكثيرًا ما يدعوه « محمد أفندي » إلى ملاعَبته بالنَّرْدِ أو الوَرق ، فلا تنتهي المُلاعبة إلا بهزيمة الشّيخ على الدّوام ، وصِياح ربِّ الدّار بالتهكُّم والسُّخْرِيَة .

فإذا مال ميزان النهار ، تهيأ الشيخ لمغادرة الدّار مصطحِبًا فتاته ، وقد تأبَّط صُرَّةً عامرةً يحاول أن يخفيها تحت عَباءته .

ويومًا ضاقَت معدة « محمد أفندي » بأمرها ، فأعلنتِ العِصيان ، وما هي إلا أن استوطنَ الرَّجُل فراشه يحاوِل علاج الحال ، وعُنِيَ به « الشيخ عزبان » وفَتاته ، فلم يألُوَا جَهدًا في تمريضه وتدبير شأنه وإسعافه بالأشربة المدفِّئة . ولازمه الشّيخ يؤنسُه بالنَّوادر والطُّرَف ، و ما زال كذلك حتّى انسدلَتْ أستار الظّلام ، فهمَّ الشيخ بالانصراف ، ولكنَّه كان يتباطأ ويتلكَّأ ، وأخيرًا أقبل على « محمد أفندي » يقول :

« ليس بهين عليَّ أن أتركَك . سأبيت اللَّيلة تحت قدميك ، ساهرًا عليك . أمّا البنت فإنها تظل في خدمتك ، رهنَ إشارتك . »

سمع « محمَّد أفندي » هذه الرَّغبة ، فأكبر ذلك الصنيع من شيخ هرِم يبذُل راحته فيما يراه واجبًا عليه.

وانقضتِ اللَّيلةُ في سلام .

وتوالتِ الأيّام تسجِّل لزومَ الشّيخ وفتاته للدّار لا يبرحانِها ، وهما دائبان في خِدمة « محمد أفندي » ، متأنِّقان في تأدية مَراسم الولاء له ، والاعتزاز به ؛ فازداد ربُّ الدّار استشعارًا لعظمته ، وثقة بنفسه ، فكان لا يهدأ من صِياح وتأمُّر ، ولا يشكُّ في أنه مُلاقٍ سمعًا وطاعة .

— ١٣ —

وعلى مرِّ الأيّام استطاع الشيخُ وفتاته أن يظفرا من ربِّ الدّار بموفور التّقدير ، فهو يطمئن إليهما في خاصَّة شأنه ، ويعوِّلُ عليهما في الجليل والدَّقيق من أمره . وكان ذلك سبيلاً إلى أن يحتلَّ الشيخ وفتاتُه مَخزَنَ المئونة فيتخذاه محلَّهما المختار .

وبدت على الفتاة مَخايل النِّعمة ورَغادة العَيش ، فاعتدل قَوامُها ، وتورَّد وجهُها ، وترنَّحت أعطافُها من امتلاء ؛ فكان « محمد أفندي » يسترِقُ النَّظر إليها ، باذلاً جَهده في التخفّي والمساترة ، ولكنَّ الشيخ الطيب لم يكن يعزُّ عليه أن يتصيَّد تلك النظرات المخالسة ، وأن يكتنِهَ ما لها من غَوْر ؛ فكان يخلو إلى حفيدته يُسِرُّ إليها الحديث ، وكأنَّما هو يرْسُمُ معها خُطَطًا ذواتِ بال .

ورُئيتِ الفَتاة مَعنيَّةً بِهندامها ، حَفِيَّةً بزينتها ، فإذا قَدمت بالقهوة إلى « محمد أفندي » قاربت من خطوها ، وغضَّت من بصرها ، وفزعت إلى خمارها تسبله على جانب وجهها ، ولكنَّ الخمار لا يلبث أن يسقُط ، فيبدو شعرها قد ترامت ضفائره ، وعلى جبينها قد انعقد منديلٌ مُوَشّيُّ الحواشي ، مختلفُ الألوان . فأمّا وجنتاها فإنَّهما تتضرَّجان كأنَّهما قد أدركتهما صِبغَةُ الخَجَل والحياء . وأمّا عيناها فتَظهران كحيلتينِ ، لا

---

(١) وناء : فتور وضعف .

تدري أ مكحولتانِ هما بإثمد (١) أم هذه صِبغَةُ الله ؟

وإن الفتاة لتسارعُ إلى خمارها تلتقطه ، وقد اختلَط في قسماتها الاضطرابُ بالابتسام . ويتضاحك « محمد أفندي » وهو يقول :

« يا لها من فتاة ساذَجة ! »

وتوالتِ الأيام تَزيد من خلَوات الشيخ بحفيدته ، وبين يوم ويوم تتجلّى نتائج هذه الخَلَوات .

– ١٤ –

وبينما كان « محمد أفندي » ذات ليلة مُضْطَجِعًا على مُتَّكئه ، بعد عَشائه ، وقد رنَّق في عينيه الوَسن ، طرقت الفتاةُ حجرتَه تحمل صينية القلَل ، وكانت كشأنها الجديد : باديةَ الزينة ، متضوِّعةَ العِطر . فجازت بربِ الدّار صامتة خافضة البصر ، فثابت إليه يقظتُه ، وجعل يرقبها وثّابَ النَّظرات .

ولما أقرَّت الفتاة الصينية في مكانها منَ النافذة ، وهمَّت أن تعود ، عاجلها « محمد أفندي » بقوله :

« اِسقيني ، يا صبية . »

فأحضرت له القُلَّة ، يفوح منها العَبَقُ ، فأخذ يترشَّف منها ، وعيناه تراوِحان الصبية وتغاديانها ، وبَخور القلة يمازِجُ عِطر الفتاة ويزدحِم على خياشيمه. وما كاد يناولها القلة حتّى همهَمت في صوت حنون : « هنيئًا . »

وقبل أن تغادر الحجرة ، قالت له كاسرةً من طَرْفها : « نوم العافية ، يا سيدي . »

فشكر لها « محمد أفندي » رقَّةَ عاطفتها ، ومخايلُ الغِبطَة تتجلّى على أساريره .

وتقلَّب الرجلُ على مُتَّكئه ، وهو يجاهِد أنفاسه ، ثم انسرح في آفاقٍ شتّى من الأخيلَة .

ما أعظمَ الفرق بين صبايا الرِّيف ونساء المدائن! صبيَّة الريف مؤدبة مهذَّبةٌ ، ساذَجة طيِّعة ، طيبة القلب نقية . أمّا الأخرى ، والعياذ بالله ، فقد عرفها مَجْمَعًا للشُّرور والآثام : خبثُ نَفْس ، وطول لسان ، وجنون خُيَلاء .

وفي الأمسيَّة التّالية كَمَنَ « محمد أفندي » في مُتَّكئه ، يترقَّب صينية القُلَل . وما إن أقبلتِ الفتاة تتخطَّر ، وعلى أعطافها يتهدَّل خِمارُها الهفهاف ، حتّى سارع الرجل إلى طلب شَربة ماء ، فلما نقع غُلَّته ألفى نفسه يقول للفتاة :

« حقا إنك بنت حلال ، وإني لراضٍ عن خِدمَتك . »

فجثتِ الفتاة من فورِها على يده تلثَمُها في خشوع ، ثم طفِقت تمسَح من عينيها أنداء من دُموع .

فنظر إليها دَهِشًا مهتاجًا يقول :

« ماذا يبكيك ، يا صبية ؟ »

« أبكي من فَرط ما ألقاه من عطفك ، يا سيدي . لم أكن أعرِف أن في الدنيا أحدًا يحمل قلبًا مثلَ قلبك الكبير . إنك تأسِر بمعروفك النفوسَ . »

« حسبُك ، حسبك . »

« قسمًا برأس جدّي إنَّ ما أقوله هو الصدق الخالص . ما ذاق معروفَك إنسان إلا فَنِيَ في خدمَتِك. أنا وجدّي نُنزلك من قلبَيْنا أكرمَ منزلة ، نكبرك ، نجلُّك، نعزُّك ، نحبُّك ، نحبك الحبَّ كلَّه ! »

ثم عقد لسانها التلعثُم والارتباك ، فحنت رأسها، وأسبلت خمارَها .

وشاعتْ الابتسامة على مُحَيّا الرَّجل ، واهتزَّت أوصالُه ، وهمهم : « إني مصدِّقك ، وإن حبُّك أنت وجدِّك ليس بخافٍ عني . »

فرفعتِ الفتاة رأسَها شَرِقة بدمعها ، وهي تقول في

---

(١) الإثمد : أحد مركبات الأنتيمون ، ويكتحل به .

حرارة واهتياج : « أطال الله عمرك ، وزادك عافية وعزة ، بحق جاه النبي وآل بيته ، دعوة من القلب تتفتّح لها السماء . »

وندّت منَ الفتاة تنهدةٌ خافقَة راعشة ، ثم انحنت على « محمد أفندي » تلثم حاشية جلبابه ، وانفلتت تُغادر الحجرة مُهَرولة ، كأنما لا تقوى لخجلها على أن تطيلَ البقاء .

ونهض « محمد أفندي » يَذْرَعُ الحجرة بطيءَ الخَطْو ، ثقيل الحركة . إنه لم يستطعْ أن يظل على متَّكئه . ما أحوجه إلى أن ينفّس عن نفسه !

وعلا بصدره منتفِخًا ، وقد استنار وجهُه . لقد بَرِح الخفاء ؛ لقد وقعتِ الفتاةُ في شَرَك هواه .

كلُّ حركة منها تنمُّ عن هذه الحقيقة الصادقة: صوتُها الحنون ، نظراتُها الجيّاشة ، دمعها المِطواع ، حديثها الفوّار .

وألفى « محمد أفندي » نفسَه يتزاحف إلى المرآة : أ ليس الشبحُ الماثِلُ أمامه صورةً رائعة من الرُّجولة الكامِلة ؟ هيبة وجلال ، طلعة مشرقة ، عينٌ نفّاذة .

وانتفش الرَّجل مزهوًّا يفتِلُ شاربَه الغليظ .

مسكينة هذه الفتاة !

ما أبينَ عُذرَها في التعلُّق بمثل هذه الشخصية الجبّارة !

وتابع سيره في الحجرة هَيِّنَ الخُطُوات ، وقد جعلت أشتات الخواطر تتداعى في مخيِّلته .

أمّا أنَّ الفتاة له عاشقة ، وبه مدلَّهة ، فذلك أمرٌ فوق الشَّك والخلاف .

ولكن ما شعورُه هو نحوَها ؟

شعوره ؟

أ في المعقول أن يفكر « محمد أفندي » ، رئيس مخازن وزارة المالية الأسبق ، في أن يأذَن لقلبه أن يخفق لمثل هذه الفتاة الرِّيفية الدُّنيا ؟

أ وَ ينسى أنَّها عاشت وما زالت تعيشُ في كفالة جَدِّها القارئ ، ذلك الَّذي يتقوّت من فُتات المقابر، وفُضالات الموائد ؟

وما شأن قلبه اليوم بالغرام والهُيام ؟

لقد فرغ قديمًا من سلطان ذلك القلبِ وإذلاله .

إن الرَّجُل اليوم سيِّدُ نفسه . هيهاتَ أن يدَع لقلبِه مجالاً للتمرُّد والتحكُّم والإملاء !

وما قيمةُ المرأة في نظره الآن ؟

لقد انبتَّ ذلك العهدُ الَّذي كان فيه ينقاد لسحر النِّساء ، فأصبح الساعةَ هو السّاحرَ ، وهو المعزُّ المذلُّ .

ولكن ما لهذه الأفكار والخواطر تتداعى في رأسه حين يفكِّر في تلك الفتاة الساذجة العَطوف ؟

ليس في الأمر مطمَع في أن يقابِل حبها بحب . إنَّ خَطْبَها لَيسيرٌ . لا ريبَ أنَّها جديرة بلونٍ منَ العَطفِ والتَّقدير ؛ لقاءَ ما تبذُل من خِدمة ، وما تكنُّ من إخلاص .

و وجد قدميه تسوقانِه إلى صينية القلل ، فأخذ إحداها يَنهل منها ، وراح يستنشي بَخورَها ، وكأنَّه يستروِح في هذا البَخور عطرَ الفتاة .

وعاد إلى المرآة يطالع فيها مُحيّاه ، ويفتِل أمامها شاربَه .

وبعد فترةٍ من الزَّمن شوهد الحَلاق يختلفُ إلى منزل « محمد أفندي » ، يُعنى برأسه وذقَنِه وأظفاره ؛ مستعينًا في عمله بألوان العطور والدِّهان .

ولوحِظَ على ربِّ الدّار أنه حريصٌ على أناقته، يَهبها طويلاً من وقته . فإذا تنقّل في الدّار مشى في تخطُّر ، وإذا تكلَّم كان كأنه يترنَّم ، وإذا تحدَّث إلى « الشيخ عَزبان » خلط حديثه بالدُّعابات والأفاكيه .

أمّا صلتُه بالفتاة فكان يتغشّاها غموضٌ حائر ،

وصمتٌ قلِق .

ولم يكن بينهما من الحديث إلا تبادلُ كلمات مألوفة ، عليها صبغة الرِّقَّة والتلطُّف .

وظلت الفتاة منطَوِية على نفسها ، ولكنَّها كانت في الفينة بعد الفَينة تُخالِسُ ربَّ الدّار خواطفَ النَّظَرات ، ونواعِمَ التنهُّدات . وما كانت تغفُل ساعة عن تعهُّد نفسها بالتزيُّن والتعطُّر .

— ١٥ —

وتواردتْ أيام على هذا النحو ، ثم بدا على « الشَّيخ عَزبان » طارئ من وُجوم وسُهوم ، فكان إذا جلَس إلى « محمد أفندي » بدا كأنما يتهيأ للإفضاء بأمرٍ يكشف عمّا يعتلج في نفسه من قلق ، ثم لا يلبثُ أن يتظاهرَ بالنُّكوص وتلافي الحديث ، والعدولِ بالكلام إلى مجرًى آخر ، فيسأله « محمد أفندي » ماذا يريد أن يقول .

فيعتذِر الشيخ بأعذار مختلِفة ، ويعتلُّ بأشتات من العِلَل ، وتأخذ علائم السُّهوم والوجوم مكانَها من قَسمات وجهِه ، كما كانت من قبلُ .

وآنَ للشيخ أن يضع حدًّا لهذا التمهُّل والانتظار ؛ فقد ضاقت نفسُه بذلك اللَّيل الغامِض البهيم الَّذي أبطأ انبلاجُ فجرِه ، أو لعل الأحرى بالقول أنَّ الشيخ قد أحسَّ أن الموضوعَ قد نَضِج ، وأن الثمرةَ قد أينعت ، وأنَّه قد حان القِطاف .

وأقبل صُبْحَ يوم يجرجِرُ جسمَه المهزول ، قاصداً مُستشرَف الدّار ليَلقى « محمد أفندي » ، وهو مُضطَجِعٌ على أريكته ، يَسبَح في ملكوت الله .

واتخَذ مجلِسَه غيرَ بعيد منه ، وجعل يجمَع بعضَه إلى بعض ، ويلملِم ما انتشرَ من أطراف عَباءَته .

ثم طأطأ رأسَه لحظة ، وانهال على يديه يفركُهُما في اضطراب ، فقال له « محمد أفندي » :

« خيرًا ، يا شيخ عَزبان . »

فمكث الرَّجُل خافِضَ الرأس ، وهمهم في صوت متخاذِل : « لقد حضرتُ في أمر أرجو أن تعينني على تحقيقه . »

« لك ما تريد ، يا شيخ عزبان . »

« لقد لقينا من بِرِّك وكرمِك فيضًا لا ننساه ما حَيينا . وإنِّي أطمَع أن تُتِمَّ جميلَك بفضل جديد . »

« طلبك مُجاب . »

« تسمحُ لي أنا وحفيدتي أن نَبرح الدّار ، وأن تُعفِينا من واجب خدمَتِك . »

فألقى عليه « محمد أفندي » نظرة فيها الدَّهَش والتعجُّب ، وهمهم : « تتركانِ خدمتي ؟ ماذا جرى؟ »

فاشرأبَّ الشَّيخ ، ورفع يديه إلى السَّماء ، وهو يقول صائحًا :

« قسمًا بالله العليِّ العظيم إنّي ما رغبت إليك في هذا الأمر إلا بالرَّغم منّي . ولو خُيِّرْتُ ما اخترتُ إلا أنْ أظلَّ بقيَّة أيامي تحت قدميك ، حتّى أقضيَ نَحْبي . »

فاختلجتْ عينُ ربِّ الدار وهو يقول :

« لم أفهم شيئًا . لماذا تتركانني إذن ؟ »

فصلَّب الرَّجُل قامته جَهد ما يستطيع ، وقال وهو يُزيغُ بَصره عن جَليسه :

« أنت سيد العارفين ، وفي فطنتك غُنْيَةٌ عن الشَّرح والإيضاح . اللَّهمَّ اشملنا بالسَّتر والسلامة . »

وانحنى « محمد أفندي » على شاربه يفتِله، محاولاً أن يتفطَّن للأمر ، حتّى يكون سيدَ العارفينَ بحقٍّ ، وحتّى يكونَ الفَطِنَ الَّذي لا يفتقرُ إلى شرح وإيضاح .

ولكنَّ الشيخ أسعفه بقوله :

« ليس في المستطاع أن أدعَ البُنَيَّةَ في الدّار بعد

الآن . حسبُها ما انتهت بها الحال إليه .»

وأراد « محمد أفندي » أن يتكلّم ، ولكن خانته بديهتُه ، فجفَّ ريقُه ، وجَمَدتِ الكلماتُ على لسانه . وسمع الشَّيخ يتابع قوله :

« سأزوِّج البنت رجلاً اخترتُه لها ، رجلاً من بيئتنا ، ملائمًا لنا .»

وتهدَّج صوتُ الشّيخ ، وهو يقول مهتاجًا :

« لأرغمنَّها على الزَّواج ، رضِيَتْ أو أبت ؛ أمّا ما تُسمّيه قلبُها فإني سأسحقه سحقًا . عجيب أن يجمحَ الخيال بتلك البنت الغَريرة إلى ذلك الأفق البعيد !»

ثم صوَّب نظَره ، كأنَّه يستمدُّ من السماء عونًا في مأزِقه الحرِج .

وما لبِث أن أقبلَ على ربِّ الدّار هابطًا على يدِه يُنَدّيها بدموعه ، وهو يقول :

« عفوك إن كنتُ في ثورة نفسي قد أسأت إليك من حيثُ لا أريد . اشملني برضاك ، ودعني أفرُّ بالبنت إلى مصيرنا المقدور .»

وما هي إلا أن انصرفَ الشيخ عَجْلانَ الخُطا .

— ١٦ —

يا لها من ساعة دهياء ، قضاها « محمد أفندي » يتقلَّب على أريكته لا يستطيع بَراحًا ، ولا يجد من ضيقته فرجًا !

انفرد « محمد أفندي » في الدّار يومَه الأطول ، يَجترُّ همَّه ، ويعاني وَحشته .

ولَمّا عضَّه الطَّوى دبَّر له طعامًا كما اتَّفق . وألحت عليه شهوة القهوة ، فلم يستطع بعد لأيٍ إلا أن يُعِدَّ قدحًا ليس بالسّائغ .

ولم يلبث « محمد أفندي » أن شعَر بأن وَسائل راحته تجشِّمه ضروبًا من الكُلْفة والتَّعب ، سواء في مشربه ونظافته وتنقُّله . فإن سمت نفسُه إلى شيء شقَّ عليه أداؤه ، وحَسَبَ له أعسرَ حساب .

فلَمّا جَنَّ اللَّيل تكاثفت عليه الوَحشة ، واشتد به الضّيق ، فترك مُستشرَف الدّار ، منتحيًا حجرةَ النَّوْم ، وجاز بالمرآة ، فمثل تجاهها لحظة ، فارتاع ممّا وضحَ له من سَحنة غَبراءَ كاد يُنكِرها ، وألفى شاربه الغليظ قد تدلدلَ وتهلهل ؛ فأدبَر عنِ المرآة يتسخَّط ، وتهالك على المتّكأ تتقاذفُه الخَطَرات .

حُقَّ للجدِّ أن يفعل ما فعل ؛ إنه يريد أن يقفَ تلك العاطفة الجموحَ الَّتي استبدَّت بالفتاة . إن الشيخَ لأحزمُ عقلاً ، وأنورُ بصيرة من أن يتطلع إلى تدبير غير هذا التَّدبير ؛ لقد فكر في تزويج حفيدته شخصًا آخر ، كَبْحًا لجماحِ تلك العاطفَة ، وحَسْمًا لذلك الموضوع . ما أكرمَ خُلُقَ الشيخ ! وما أنبلَ نفسَه !

إذن ستُزَفُّ الفتاةُ إلى رجل لا يهفو قلبُها إليه .

وتخايل أمامه طيف الفتاة ناظرةً إليه في وَجْد واسترحامٍ ، يمازجُها حياء وطهرٌ .

وَصعَّد الرجلُ تَنهدَة عميقة لم يُطِق لها كبتًا .

وتلاحقت لناظره مشاهدُ من حياة الفَتاة في داره ، فرآها في كِنِّ الأرانب رشيقة كالظَّبي ، فرِحةً مرِحة ، ورآها وهي مرهفةُ السَّمعَ ، لا يكاد يلفظ من قول إلا سارعت إلى تلبيته .

وهل ينسى مَقدَمَها في الأماسيِّ بصينية القلل يَضوعُ بَخورها ، فيُنعِش نفسه ؟

وهل ينسى تلك الابتسامة الوديعة الحيِيَّة الَّتي تودِّعه بها كلَّ ليلة ، حين تحييه تحيَّة الانصراف ، قائلة : « نوم العافية ، يا سيدي .»

وزفر « محمد أفندي » زفراتٍ متلظِّية ، ثم استرخى على متَّكئه ، وترك للأفكار عِنانَه ، تطوِّح به، حتى أسلَمه الإعياء إلى المنام .

— ١٧ —

وبُكرةَ قَدِمَ « الشيخ عزبان » الدّار ، يقفوه ذلك الطّاهي الهرِم ، وقد تبدّت على أساريره ذِلّة ومسكَنة ، فأقبَل كِلاهما على « محمد أفندي » يحيّيانه تحيّة الإصباح .

ثم أخذَ الشّيخ بيدِ الطّاهي ، مُدنيًا إيّاه من ربّ الدّار ، وهو يقول : « قرِّبْ وقبِّلْ يَدَ مولاك ، فإنّه سَمْحُ النَّفس غفور . »

ولم يكن « محمد أفندي » قد أعدَّ لهذه البغتة عُدّةً من تدبير ، وأحسّ بالطّاهي يركَع بين يديه ، وهو يهمهِم بكلمات الاعتذار والاستغفار .

وسَرعان ما أفلتَت من فمِ سيِّد الدّار كلِمةُ الصَّفح الجميل . وما كاد ينطِق بها ، حتّى ثاب إليه وَعيُه ، فراجعَ نفسه وكأنه يلتمسُ المنفَذ إلى استدراك ما أفلت ، ولكنّ الشيخ أخذ عليه الطريق ، مخاطبًا الطاهي بقوله :

« أ لم أقل لك إن سيِّدنا البك رجل لا يحمِل في قلبه حقدًا ولا ضغينة ، وإنه أسرعُ إلى العَفْو وأقرب إلى الرَّحمة ؟ قُمْ فاضطلع بعملِك ، وأقمِ الدليلَ على أنك أهلٌ لهذا الرِّضا الكريم . »

وألفى « محمد أفندي » نفسَه يُصدِرُ أوامرَه إلى الطّاهي ، فيتلقّاها الرَّجُل في أدب وإذعان ، بيد أن هذا الإذعان وذلك الأدب لم يَدوما طويلاً ، فقد عاودت الرَّجُلَ صلابةُ نفسِه ، وحِدّةُ طبعه ، وشِدّةُ مِراسه ، حتّى إن ربَّ الدّار آلى على نفسه ألا يقرَبَ المطهى ، لينجوَ من سَلاطة ذلك الطّاهي الحَرون .

وطَغَت على الدّار تلك الرّوح السّابقة ، روحُ التزمُّت والفوضى ، حيث لا راحة مكفولة ، ولا أنسَ شائع ، فكان « محمد أفندي » يقطَع نهارَه الممدودَ مَلولاً في مستشرَف الدّار .

ومِمّا جاء ضِغثًا على إبّالة (١) أن « الشيخ عزبان » قطع عن الدّار زَوْراته ، وأناب عنه في تلاوة القرآن غلامًا زريَّ الهيئة ، كأنّما هو صُعلوك شريد . فكان يرفَع عَقيرته بالقراءة ، ويَهُزُّ قامتَه هِزّة عنيفة ، كأنّه دُمية شائهة ذات لولب ، لا تهدأ لها حركة ، فيضيق به ربُّ الدّار ، وتثور في نفسه مشاعر الاشمئزاز .

وإذا أقبل الطّعام ، مدَّ الغلامُ إليه عينيه الضاريتين ، يرقُب يدَ « محمد أفندي » وهي تعالجُ اللُّقمة حتّى تُسلِمَها إلى فمه ، وكأن هذا الغلام يَعُدُّ على ربِّ الدّار ما يزدرد من لقمات .

— ١٨ —

ويا ويلَ « محمد أفندي » من اللّيل ؛ إنه يهبِط عليه حاملاً إليه ضروبَ الأرق والوَحشة والاكتئاب .

وعبثًا كان الرَّجُل يحاول التزلُّف إلى النَّوم بمختلِف الوسائل ، وطالما طرقَه طيفُ الفَتاة في غدوٍّ ورَواح ، وعلى مُحيّاها حُزْن وتحسُّر ، وكأنّما هي تستغيث به ، طالبةً منه العون .

إنّها تتضرَّع إليه أن ينجِّيَها من ذلك الزّوج الّذي فرضه جدُّها عليها فرضًا ، وأرادها عليه حتمًا .

ولكنْ أنّى السبيلُ إلى النَّجاة ؟

وكيف له أن يُبلِغَها ما تصبو إليه ؟

نحن في الرِّيف ، لا خيرَةَ للفتاة في مَن يكون زوجَها . لو تمنَّعَت وتأبَّت ؛ لعُدَّ ذلك عليها عارًا أيَّ عار ! لا مصيرَ لها إلا هذا المصير ، ولا سبيلَ إلى دفع ذلك المقدور . ستتزوّج لا مَحالة ، وإنْ لم تحمِل لزوجِها أثارة من حبٍّ .

لقد وهبت قلبَها رجلاً آخر ، رجلاً تراه مصروفًا عنها ، غيرَ مَعنيٍّ بأمرها . ما أقسى قلبه ! وما أغلظ

---

(١) ضِغثًا على إبّالة : بَليّة على أخرى .

كبده !

وفزِعت يدُ « محمد أفندي » إلى مروحته عن كثب ، فتناولها ثائرَ الأعصاب ، يروِّح بها وجهَه المتضرِّم ويلتمِس منها مددًا لأنفاسه المختنِقة ، ولكنَّه لم يملك أن يصرِف عن خاطِره التفكيرَ في شأن هذه الفتاة .

لن تحبَّ الفتاة زوجَها ، وكيف يستطيع ذلك القَرَويُّ الأغْلَفُ إسعادها ، بعد أن عاشت في كنف « محمد أفندي » فترة ، فاقتبست منه شمائل الحَضَر، وألِفَتْ منه رِقَّة المعامَلة وأدب المعاشَرة ولينَ الحديث ؟

مظلومة هذه الفتاةُ الَّتي أُقصيَتْ عن هذه الحياة الحَضَريَّة ، وقُذِف بها في جحيم لا تُطاق !

وصابَرَ « محمد أفندي » هذه العيشة الَّتي يعيشها أسبوعًا وبعض أسبوع .

أ حكَمَ عليه القضاءُ بأن يظلَّ بين هذا الغلام الفجِّ ، وذلك الطَّاهي العَطِب : يزعجُه الأولُ بصوته المنكَر ، ونَظراته المنهومة ، ويملِك عليه الآخر زمام مَطْهاه ، ويغدو حاكمًا بأمره فيه ؟

— ١٩ —

وفي ضَحْوة يوم شوهد ربُّ الدَّار يتركها بعد خَلْوة مديدة بالحَلاق ، ذلك الزائر الَّذي كان قد انقطع عن الدَّار منذ فترة .

خرج « محمد أفندي » في حُلَّة قشيبة ، مفتولَ الشارب ، مُطرَّى الشَّعر ، تتخطَّر في يدِه عصًا مفضَّضة.

وقادته خُطاه إلى كوخ « الشيخ عزبان » فألفاه على المصطَبة متربِّع الجلسة ، فما إن أخذتْه عين الشيخ حتى انفتل قائمًا ، يجاهد في لمِّ شَعثه ، وصَلْب عودِه ، وما أسرعَ أن فاض لسانُه بالترحيب المكرَّر :

« أهلاً وسهلاً ، أشرقتِ الأنوار .»

وانهمك على المصطبة ينظِّفها ، ويسوِّي عليها الحصير ، ويمهِّد مجلسًا للزَّائر الأعزِّ .

ثم انبرى يصفِّق صائحًا :

« قهوة ، يا بنت ، لسيدنا البك .»

وما إن استقرَّ المقام « بمحمد أفندي » حتّى استشعر العزَّة والرفعة ، فجلس جِلسة الإمارة ، وقال « للشيخ عزبان » :

« كيف الحال ؟»

« أيُّ حال ؟ لقد كنت موشكًا أن أموت !»

« تموت ؟ كيف ؟ سلامتك !»

« سلَّمك الله . لولا لطفُ اللهِ لكنتَ الآن مُعَزِّيًا فيَّ !»

« لقد أحسستُ أنك مُتعَب .»

« قلب المؤمن دليلُه ، يا سيدنا البك .»

« قلت أزورك لأطمئنَّ .»

« أكرم الله مقامك ، و وفر طمأنينتك .»

وتلفَّت « محمد أفندي » حوله ، يرقب الأكواخ والمسالك ، ثم قال :

« ما أحوجَ هذه القريةَ إلى جِهادٍ موصول لإصلاحها وتنظيمها ؛ من أجل هذا تركتُ «« القاهرة »» وآثرتُ المُقام هنا . إن مدَّ الله في عمرنا بذلنا ما في وُسعنا للتَّعمير والإصلاح .»

« كلنا ندرك فضلَك ، ونشكر معروفك .»

وانقضى وقت يتبادل فيه الرجلان حديثَ القرية ، وما تتطلَّب من أسباب النُّهوض .

وأسفرَ بباب الدَّار مُحَيا لَمَّاحٌ فوَّاحٌ بزينته وعطره ؛ مُحيَّا الفتاة تحمِل صينية القهوة ؛ فانتظمت « محمد أفندي » اختلاجةٌ طالت به . فلمَّا دنت منه الفتاة

خافضةً البصرَ ، ابتدرَتْه تحيِّيه ، وتمدُّ يدها ، فترك لها يده تَلْثَمُها ، وهمهم :

« كيف أنتِ ؟ ».

فأجابته في صوت متلعثِم :

« ما دمتَ بخير فالحمد لله على كل حال . »

وما لبثتْ أن رجعتْ أدراجها إلى الدار .

وأظلَّ المصْطَبة صمتٌ ثقيل ، وكان الجدُّ ينكُتُ الأرض بعودٍ يابس بين أنامله .

وأراد « محمد أفندي » أن يستنجد بمشروعات الإصلاح للقرية ؛ لتكشف عن المصطبة حُجُبَ الصَّمت ، فلم تُنجده بشيء ، فأخذ يَسعُل ويتنحنح .

وأخيرًا قال الشيخ حازمَ اللَّهجة ، وما زال يعبث بالعود : « غدًا عَقْدُ زواج البنت . »

فأخذَ « محمد أفندي » بما سمع ، وجمجم في دهشة : « غدًا ؟ غدًا ؟ »

« خيرُ البرِّ عاجلُه ، يا سيدنا البك . »

فقال « محمد أفندي » في سُهوم :

« حقا ، خير البِرِّ عاجلُه . »

ثم تقلَّب في جِلسته وقتًا ، وقال :

« سمعتُ منك أن البنت غيرُ راضية عن هذا الزَّواج . »

« ليس ذلك بمهمٍّ . راضية أو غير راضية . »

ثم سما الشيخ برأسه ، وسرَّحَ ببصره في الأفق ، ثم قال كأنما يهمس :

« أمَّا من ناحية البنت فإن دَمعتها لم تَرْقَأ منذ نبتَتْ فكرةُ الزَّواج . »

« حرام عليك ! »

« هذا هو المقسوم . »

وتكاثرت حركات « محمد أفندي » ، فمرةً يُمِرُّ يدَه على جبهته ، وحينًا يهرش رأسَه ، وتارةً يهزُّ قدمَه ، وطورًا تنبَعِث من صدره زمزمةٌ وَهرير (١) ، ويعالج أن ينبِس بقول ، فلا ينفتح له شيء .

وطال الصَّمت الجيَّاش ، وكان الجَدُّ مهتما يواصِل العَبث بالعود .

و وجد « محمد أفندي » نفسه يعتدِل في جِلسته ، ويسدِّدُ إلى الشَّيخ نَظَره ، وقد انفكَّتْ عقدَةُ لسانه ، فقال مندفعًا : « صلِّ على النَّبي . »

فرفع الشيخ هامته ، متوقِّعًا أمرًا جَللاً ، وقال :

« اللهمَّ صلِّ عليه . »

« وأيضًا صلِّ على النَّبي . »

« ألف صلاة وسلام عليك يا نبي ! »

« أنا خاطب إليك حفيدتك . »

وتراءى الشَّيخ في دهشة مصنوعة ، وهو يقول :

« حفيدتي أنا ؟ »

« لقد سمعتَ ما أقول ، أنا خاطبٌ إليك فتاتك . »

فاندفع الشَّيخ يدعَكُ يديه إحداهما بالأخرى ، وهمهم وقد حَنى رأسه على صدره :

« وهل نحن نسمو إلى هذا المقام ؟ »

« لقد استخرتُ اللهَ ، وعليه الاتِّكال . »

— ٢٠ —

لم تتوارَدْ أيام ، حتَّى كانت الفتاة زوجًا « لمحمد أفندي » تعمُرُ داره .

وانقضتِ الفَترة الأولى كأنَّها حُلْم جميل ينعَم به الرَّجل ليلَ نهار . لقد ألفي نفسَه عَروسًا لفتاة غَضَّة ، تُزْهيه بشبابها النَّضِر ، وتُنعشه بما تشيعه من بَهجة

(١) الزمزمة : الصوت ذو الدويِّ وغير الواضح . الهَرير : صوت الكلب دون نباح .

ومراح ، وتُعزه بما تُبديه من مُلاينة ومُلاطفة وطَوْع ، حتّى إنّها لَمْ تكنْ تستنكفُ أن تمتهنَ بعض ما كانت تقوم به قَبلاً في خِدمة الدّار .

فضاق « محمد أفندي » ذَرْعًا بذلك التّواضع ، وأصدَر إليها أمره أن تكفّ عن هذا الامتهان .

كيف تُبيح زوجةُ ربّ الدّار لنفسها أن تبتذِل كرامتها وكرامتَه بمُزاولة الوضيع من شئون الخدمة ؟

آنَ لها أن تترفّع عن ذلك كلّه ، وأن تكون سيّدة الدّار المخدومَة ، وليس ذلك إلا بعضَ الجزاء لتلك الّتي أخلَصت لرجُلها ، و وَهبته قلبَها الفتيّ النّقيّ .

لقد مسّتِ الحاجةُ إلى خادمٍ يقوم على مَرافق الدّار، فوقَع الاختيار على الغُلام ، تلك الدُّمْية اللّولبية المنكرة الصوتِ ؛ فحَمل الغلام أعباءَ الخِدمَة المنزليّة ، مُتوَّجَةً بهذه الأوامر والنواهي ، يصبُّها على رأسه ربُّ الدّار في الغُدُوّاتِ والرَّوْحات .

وعرض « الشيخ عزبان » نفسَه ليستأنِف تِلاوة القرآن في مستشرَف الدّار كلَّ صَباح ، فتصدّى له « محمد أفندي » يأبى عليه القِيام بهذا الأمر .

كيف يَسوغُ لربِّ الدّار أن يَدَعَ صِهره يقتعد الأرض ، ويمارسُ شأنًا جَرى العُرْفُ باتخاذِه موردَ كَسْب ؟

« للشيخ عزبان » أن يقرأ ما شاء كما شاء . فأمّا الراتب اليوميُّ المعيَّن ، فيجب أن يوكَلَ إلى قارئٍ آخر لقاءَ الأجرِ المعلوم .

وبعد جدال ونقاش استقرّ الرأي على أن يتولّى الغُلام تِلاوة ما تيسّر منَ القرآن في الضَّحَوات .

وهكذا اجتمع على كتف الغُلام ما كان يقوم به الشّيخ من تلاوة ، وما كانت تقوم به حفيدتُه من خِدْمات .

وألِفَ « محمد أفندي » صوت الغلام ، فلم يعد يتبرّم به ، وكثيرًا ما كان يحلو له ، وهو على المائدة يصيبُ طعامه ، أن يستدعيَ الغُلام ، فما إن يلبِّي دعوتَه ، حتّى يقذِفَ له لقيماتٍ وأشتاتًا من لَحم ، فيلقَفها الغلامُ خَفيف الحَركة ، كأنّه قِطٌّ منهوم ، فيبعث الرَّجل ضَحكاته رنّانة من أعماقِ قَلبه ، ثم لا يلبثُ أن يعاجله بفيضٍ منَ الشّتائم ومرذول النُّعوت ، فيتلقّاها الغلام داعيًا لربِّ الدّار بطول العُمرِ .

وعرَف الشّيخ طريقه إلى مخزَن المئونة ، فاحتلّه كسابق عهده ، واتخَذ منه مُصَلاهُ ومَرقده وملاذَ راحته الأمين . وقد جاهرَ « محمد أفندي » بأنّه إنما يؤثر المُقام في هذا المكان على تقارُبِ أرجائه ، حتّى لا يكونَ في وُجوده بالدّار ما يضايِق العروسين العزيزين .

وبدت منَ الشّيخ حَميَّةٌ في رِعاية مصلحة الدّار وشئونها ، وخَصّ بموفورِ عنايته ذلك الطّاهي الحَرون ، يكبَح جماحه ، ويروِّضُه على طاعَة ربِّ الدّار ، والإذعان لأوامره . على أن ذلك لم يمنعْ أن يخلُوَ الشيخُ إلى الطّاهي خَلَواتٍ أنيسة ، يتطارحان فيها الحديثَ في همس وسِرار ، دون أن تَنالهما الأسماعُ والعيون .

طابت الحياةُ « لمحمد أفندي » في ظِلِّ تلك الزَّوجية الجديدة ، ولكنّه شعَر بوطأة النَّفقات ، فلم يُلقِ لذلك بالاً أوّلَ الأمر ، وكثيرًا ما حدّث نفسَه بأن الحياةَ إنفاق ، وأن للهناءة ثمنها ، وأنّه ما دام كلُّ درهم لا يذهب باطلاً فلا أسَفَ عليه .

وماذا كان يفعلُ « محمد أفندي » حين ترغَب إليه زوجُه آنًا بعد آنٍ في مَلْبَس من الحرير ، وحينًا بعد حين في حِلْية من الذّهب ؟ أ ليس من حقّها أن تظهَر بالمظهر الملائم لزوج له مَقام كريم ومكانة اجتماعية ملحوظة ؟

أ وَ ليس من واجبه هو أيضًا أن يرفَعها إلى المستوى اللائق بمَن تُصبح له زوجًا ؟

— ٢١ —

وتجلّت سيما الرّفاهية على « الشّيخ عزبان » ، فأزهرت عمامته ، مُلملَمةَ الطّيّات ، وتضرّجت لِحيته بصبغة الحِنّاء ، وَخبَّ (١) في قَبائه (٢) القشيبِ ، وجُبّته الفَضفاضة مهدّلة الكُمّين.

وأدرك التغيرُ صوتَه ، فانقلب هُزاله وخفوته قوةً وجَهارة ، وأصبح يصلصِل في أنحاء الدّار صليلَ الجرس الرنان .

وكان « محمد أفندي » يسمعه ، فلا يملك إلا أن يرضى بتلك الحركة الدّائبة لمصلحة داره ، ورعاية شئونه . ولكن هذا الصوت المجلجل على الرغم من ذلك كله ينفذُ إلى أعماق قلبه ، يحمِل إليها الخشية والرّهَب .

وألِفَ الشيخُ أن ينام إلى ارتفاع الضّحى ، فإذا جاء ذكر هذه النّومة الممدودة في عُرْض حديثه لأهل الدّار، انبرى الشيخ يتحدّث عن تهجّده وقَطْعه اللّيلَ تلاوة وتسبيحاً وصلاة ، فما يَطْعَم النّومَ إلا بُعَيْدَ الفَجر ؛ ومن ثَمّ أصدرَ أمره علناً إلى الطّاهي وإلى الغلام ألا يزعِجاه من نومة الغَداة ، وألا يُقلِقا راحته بضجّة أو صِياح .

وفي ضَحوة يوم اشتبك الغُلام والطّاهي في حِوار ، فما كاد يعلو صوتُهما حتى انفتح بابُ مخزن المئونة ، وبدا الشيخ محمرَّ الوجه ، متنمرَّ العين ، وثّاب الخُطا ، وفي يمينه عصا خَيزُرانة ، وسَرعان ما صبَّ جام غضبه على الغُلام ، مُنكِراً عليه إقلاقَ راحته ، وإثارته من نومه . وما هي إلا أن أخذَ بمخنَّقه ، وانهال على جوانبه ضرباً بالعَصا ، دون إشفاق .

وبلغتِ الجلبَة سمعَ ربِّ الدّار ، فأقبل يستطلعُ الأمر ، فراعه ما شهِدَ من صولَة الشّيخ وضراوته . هذه أصابعهُ تتشبّث برقبة الغُلام ، وتلك يدُه تعلو وتهبط بالعَصا ، كأنما يحرّكها عِفريت من الجِنّ ، وهاتان عيناه تَجحظان ويتوقّد فيهما الشرّ . فأمّا الغلام فكأنّما هو دَجاجة بين يدَيْ ذابحها ، لا تملِك إلا الحشْرجة والأنينَ .

رأى « محمد أفندي » ذلك ، فأدركته بالغلام شَفَقة ، بيد أنّه لم يستطع أن يقول كلِمة ، وألفى قدميه تتراجعانِ ، وصادفته زوجهُ في طريقه ، فهمهم يقول :

« الولد جدير بالعقاب . للدّار حُرْمةٌ يجب أن تُرْعى .»

ولوحِظَ على ربِّ الدّار أنه يُطيل مكوثه في الفِراش صُبحاً غيرَ نائم ، فما يَريمُ السّرير إلا إنْ جلجلَ صوتُ الشّيخ هنا وهناك .

فيمَ التبكيرُ باليقظة ؟ أ ليس لجسده عليه حقٌّ ؟ الرّاحة قبل كل شيء .

على أنه ما يكاد يطرُق سمعه صوتُ الشيخ ، حتى ينفلتَ من سريره كأنما أُنْشطَ من عِقال ، وفُكَّ من إسار ، فيبرُز إلى مستَشرفَ الدّار ، مسريّاً عن نفسه الملول .

— ٢٢ —

وأذِنَتِ الفتاة لنفسها أن تتدلّل على زوجها وتتجنّى . ولم تلبث أن تغالت في دَلالها وتجنّيها ؛ فكثيراً ما جاءت تجلِس على ركبتيه تداعِب خدّه بيدِها الرَّخْصة (٣) ، وإذا بأصابِعها تندَسُّ إلى صدره ، فتغترِف منه النُّقود ، ثم تقفز عن حِجْره متضاحِكةً ، فإن غضِب الرّجل ورغِب إليها في ردّ ما غصبَتْه إيّاه ، علت بصوتها قائلة :

« أرني بَراعتك . إن طلتني كان لك ما شئت .»

---

(١) خَبَّ: أسرعَ .
(٢) القباء: ثوب يُلبس فوق الثياب ويُتمنطق عليه .
(٣) الرَّخْصة : النّاعمة .

فيحاول اللَّحاق بها ، فتراوغه وتداوره ، حتّى يأخذَ منه الجَهد كلَّ مأخذ ، ويرتمي على المَقعد منتفخ الأوداج ، مكروبَ الأنفاس ، يجمجم حانقًا ، فتتظاهرُ الفتاة بالنَّدم والتحسُّر ، وهي تقول :

« أ حَسبتَني طامعةً في أخْذِ مالك ؟ إنك لا تفهم المداعبة ! »

وما هي إلا أن تواجِهه كالغَضبى ، وهي تقول :

« خُذْ نقودَك ، ولا تحنَقْ عليَّ . »

ثم تتدانى منه ، وهي تغضُّ من طَرْفها ، وتُقَلِّص من قسماتها ، فإذا جاورته جلستْ صامتةً باديًا عليها الجِدُّ والاغتمام .

فيفكِّر « محمد أفندي » في أمر الزَّوجة هُنَيْهَة ، ثم يشعُر بما عليه من تَبِعة فيما كان . إنه الملوم . لقد انقلبتِ الفرحة بسوء تصرفه تَرْحة ، ولقد تغيَّر الموقفُ من مُلاطفة ومداعبة إلى مضايقة وانكسار خاطر .

إنَّها فتاة طَروب لَعوب ، يجب أن تُساس بغير هذا العُنف ، وأن تحاسَب على غير هذا النحو .

لقد أفسد الموقف ، وعليه إصلاحُه .

وفيما هو سابح في مُراجعة نفسِه وتأنيبها ، تمدُّ الزَّوجة يَدها بالنُّقود إليه في صلابة وتجهُّم ، قائلة :

« إليك نقودَك الَّتي عكَّرَتْ علينا صفوَ المجلس . »

فيرد الرَّجل يدها في رفق ، وهو يقول :

« ليست المسألةَ مسألةَ نُقود ، أبقيها معك . أ تحسَبين أنّي أضِنُّ عليك ؟ لقد أخطأتِ التَّقدير . »

فلا تكاد الزَّوجة تسمَع ذلك منه ، حتّى تثِبَ إلى عنقه تغمُره بالقُبلات والمعانَقات ، وهي تقول :

« لا حرمني الله ذوقَك وكرمك ، يا نور عيني وبَهجة فؤادي . »

كانت أمثال هذه المواقف تتكرَّر أشكالاً وألوانًا ، فيتجشَّم لها الرَّجل من النَّفقة ما لا طاقة له به ، ولكنَّه يُلفي نفسَه منساقًا لا يجِد السبيلَ إلى الخلاص .

— ٢٣ —

وظلت صيحات الشَّيخ ترجُّ الدَّار ، وتزدادُ علوًّا وعُتوًّا يومًا بعد يوم ، وربَّما اتفقَ « لمحمد أفندي » أن يسأل الشَّيخ في هوادة وملاينة : « ما الخبر ؟ »

فيقِف الشَّيخ أمامه سامقَ الهامة ، مجنَّح الذِّراعين ، كأنَّهُ نَسر غَضوب ، ويقول :

« يا سيدنا البك ، لقد خَربتِ الذِّمَم ، وفسَد النَّاس ، فلم يَعودوا يخشون الله ؛ إن حولَك ذئابًا لا يتورَّعون عن النَّهب والافتراس . »

وعلى الرَّغم من هذا الدِّفاع الحارِّ ، كان « محمد أفندي » يُحِسُّ أن مخزن المؤونة قد نُزِعَتْ منه البَركة ، فهو بفضل رِقابة شيخه الصَّالح ينهار ويتداعى ، على نحو يُثير الدَّهشة والعَجب ، حتّى كِنُّ الأرانب كان يتناقصُ أوضح تناقص ، على الرَّغم من تغذِيَته دَوْمًا بوارد جديدٍ .

— ٢٤ —

وأسفر يومٌ عرف فيه « محمد أفندي » أن زوجَه تستقبِل بين جنبيها وليا لعهدِه ؛ فعاجلَته فرحةٌ وإشراق ثَمَّةَ وليدٌ سيطالِعه بعدَ شهور ، وليدٌ يضاف اسمُه إلى القائمة السَّابقة الحافلة بالبنين والبنات . ولكن ما أبيَنَ الفرقَ بين اللَّفيف القديم والوليد الجديد ! أولئك لا صلة بينهم وبينه ، فكأنَّهم ليسوا منه . أمَّا هذا الجديد المنشود فله وَضْع غير ذلك الوضع . إنَّه يَقدَم كالزَّهرة النضيرة يضوع عِطرها من حوله ، فيملأ حياتَه من بهجة وإيناس . إنَّه يَقدَم ليتوِّج الدَّار ، مثيرًا فيها النَّشاط والمراح . إنَّه ابنه الوحيد الَّذي يعرِفه حقَّ المعرفة ، ويتمتَّع به جِدَّ التَّمتُّع . إنَّه ابنه الوحيد الَّذي يَفرُغ لتَنشئته تنشئةً طيِّبة وَفْقَ هواه . إنَّه ابنه الوحيد

الَّذي هو جدير بالانتساب إليه .

وجعلتِ الفَتاة تَرْكَن إلى فراشها متكاسِلة ، خالية إلى جنبيها ، توفِّر له الرَّاحة والاطمئنان .

ومرةً أقبل « محمد أفندي » على زوجه ، مستلقيةً على فراشها تتظاهر بالتَّعب والإعياء ، فانحنى على مُحيَّاها يودِعُه قبلةَ ملاطَفةٍ وإقرارٍ بالجَميل ، فإذا هي تُزَجِّيه (١) عنها في جَفوة وضيق ؛ فعجِب الرجل مما أبدته ، وقال مبهوتًا :

« أ تكرهين أن أُقبِّلك ؟ »

« أنفاسي محتبسة ، وأنفاسُك تحمِل من التَّوابل ما يُغثي نفسي . »

فابتعد الرَّجل عنها قليلاً ، واتَّخذ مجلِسه في استنكار وضيق .

وفي هذه اللَّحظة قَدِم الشَّيخ وقد سمع ختام الحديث ، فانهال على ابنته تأنيبًا وتعزيرًا ، وجلَس بجانب « محمد أفندي » يُطيِّب خاطره ويترضَّاه .

ولم ينقضِ عَجَب « محمد أفندي » حين قُدِّم له غَداؤه في اليَوم التالي ، فعرَف أن الطَّعام قد خلا من التَّوابل ، فلمَّا سأل الطَّاهي جليَّة الأمر ، أجابه من فوره: « هذا أمر سيدنا الشيخ . »

وهُرِعَ الرجل يدرس هذه المشكلة الَّتي تمسُّ جوهر معاشه ، فقرَّ قراره على أن يناقِش الشَّيخ في أمره مَهما يكن من شيء ، فتشجَّع مقتحِمًا مخزن المئونة ، قائلاً لشيخه :

« أ حقٌّ أنك أمرت بإخلاء الطَّعام من التَّوابل ؟ »

« نعم ، أنا يا ابني . أنا الَّذي طلبت من الطَّاهي أن يفعل ذلك . »

نطق الشيخ بهذه الكلمات في صوت ليِّنِ المكاسِر رقيقِ النَّغَم ، يسيل من عذوبة وصفاء ، فسأله « محمد أفندي » : « ولمَ هذا ؟ »

« من أجل صحَّتك ، كلنا نهتمُّ بصحَّتك الغالية، نبذُل في سبيلها كلَّ شيء . ما أضرَّ التوابلَ بالصِّحة ! هكذا أكَّدَتْ ‹‹ تذكِرة داوُد ›› . يجب أن تكون بصحَّتك معنيا . »

« ولكن ليس في صحَّتي ما أخشاه ! »

« إذا أثقلتَ على نفسك بهذه التَّوابل عاجلتْك الشيخوخة ، ثم تندَمُ ولاتَ ساعةَ مَنْدَم ! »

« أيُّ كلام هذا ، يا سيدنا الشيخ ؟ »

« هذه نصيحتي خالصة إليك . إن اتبعتَها فَبها ، وإلا فاصنع ما شئت . »

وكان الشَّيخ ينطِق جملته الأخيرة في لهجة يشوبها التَّهديد والوعيد .

ترك « محمد أفندي » وَكر الشَّيخ يكاد يتميَّز غيظًا، فبنى عزمه على أن يقصِد توًّا إلى المطهى ، لكي يُبلِغَ الطَّاهي نقضَه لذلك الأمر الَّذي صدر إليه بإخلاء الطعام من التوابل ، ولكنه ألفى قدميه — دون وَعْي — تقودانِه إلى مستشرف الدَّار ، فرمى بجسدِه على المقعد، يسرِّح بصره في الأفق ، و وجهه يتلهَّب .

— ٢٥ —

وعلى توارُد الأيَّام ازدادت الزَّوجة من تراخٍ وتكاسُل ، لا تكاد تزول عن فِراشها إلا عند الضَّرورة القُصْوى ، فهي منطَوية على جنبيها انطواء الشَّحيح على كَنزه الثَّمين يخشى انفلاتَه ، ويتوقَّى النَّدَم على ضَياعه .

وأحسَّ « محمد أفندي » أنه كلَّما دنا منها عمِلت على إقصائه ، معتلَّةً عليه بألوان التَّعِلات .

وغرَبت عليه شمس يوم رأى فيه نفسه قد أُقْصِيَ عن حجرة الزَّوجة إلى البَهْو ، حيث هيِّئ له فيه مَبيت.

وذات يوم نادى الغُلامَ صُبحًا لبعضِ شأنه ، فلبَّاه

(١) تدفعه .

الطّاهي مخبِرًا إيّاه بأن الغُلام قد أُخلِيَ البارحة من خدمة الدّار ، فسأله « محمد أفندي » :

« من أخرجه ؟»

« سيدنا الشيخ .»

« لِمَ ؟»

« لا أدري ، هذا أمر سيدنا الشيخ .»

فاستجمع « محمد أفندي » واستعصم واستعان بالله ، وجرَّ قدَمَيه إلى وَكْر الشيخ يفاتحه في شأن الغلام، فوجد الشَّيخ منكبا على غِرارة الصّابون يَعُدُّ ويحسُب ، فسأله : « ما حكاية الولد ؟»

فأجابه الشيخ ، وهو ماضٍ في عدِّه وحسابه :

« لقد طردتُه . إنه غلام كَسلان ، صَخّاب ، منهوم .»

ورفع رأسه عن الغِرارة ، فبدا مغضَّن الجبين ، كالحَ الوجه . واستأنف قائلاً :

« إنه كالذِّئب الجائع . لو بقي لخربتِ الدّار ، وفي طرده اقتصادٌ لمرتَّبه الَّذي يستولي عليه بلا جَدوى .»

ثم علا بصوته الأجشِّ قائلاً :

« يا سيدنا البك ، الاقتصاد لازِم . يجب أن ندبِّر أمور الحياة ، وإلا واجَهَنا المستقبلُ بأيام عابسة .»

فهمهم « محمد أفندي » قائلاً :

« ولكن الغلام كان يتولّى شئوني .»

« الطّاهي يستطيع القِيام بما تأمره به .»

« إن الطّاهي أعجزُ من أن يُتِمَّ عملَه الموكول إليه .»

فازداد وجه الشيخ جَهامة وصَلابة ، وقال محتدَّ النبرات :

« لقد فَعلْتُ ما رأيتُه الأصلح ، متوخيًا خيرك ، فافعل أنت ما بدا لك .»

وانكفأ على غِرارة الصّابون ، يستأنفُ العدَّ والحِساب ، وهو يجمجِم مخاطِبًا « محمد أفندي » :

« إذا شئتَ إرجاع الغُلام إلى خدمتك فافعل ، ولكن لا تلمني إذا جرى ما لا تُحمَد عُقباه . البيتُ بيتك ، ولك فيه مُطلَق التصرُّف ؛ فَأمُرْ بما ترى .»

وخرج « محمد أفندي » يحمل في سمعه تفويضَ الشَّيخ إيّاه أن يفعل ما يريد ، وتصريحه له بأنَّه سيد البيت ، وأنَّه صاحبُ الأمر فيه ، ولكنَّه لم يجد سبيلاً إلى استخدام ذلك التفويض ، وتحقيق تلك الإمرة ، فلاذ بمستشرَف الدّار يلتمِس فيه تفريجًا لما يجدُ في نفسِه من كربة وضيق .

وما إن استقرَّ على مَقعده قليلاً حتّى أدركه الظَّمأ فصفَّق ، ثم صاح : « كوب ماء ، كوب ماء .»

فلم يستجب له أحد .

فكرَّر الصَّيحة ، فلم تُرْوَ له غُلَّةٌ ، فاضْطُرَّ أن يَنهض ومشى إلى مرافِق الماء ، وقصَد صينية القلل ، فتناول منها قلَّة وهمَّ أن يكرَع ، فإذا هي فارغة ، ومدَّ يده إلى الثّانية فإذا هي أفرغ من الأولى ، فأخذ الثّالثة فوجدَها أعطشَ منه ، فارتجف غيظًا ، وما أسرَع أن قذف بثالثة القلل إلى الأرض ، فتكسَّرت ورَنَّ لانكسارِها صوت طَبَّق أرجاءَ الدّار ، فَسُمِعَتِ الزوجةُ صائحة تقول :

« ما هذا الإزعاج للرّاحة ؟ أ لا نستطيع أن نهدأ لحظة في هذا البَيْت ؟»

وما كادت تُتِمُّ قولَها ، حتّى هَدَرَ الشيخ يقول :

« ماذا ؟ أيُّ شيء انكسر ؟»

فسرت في دمِ « محمد أفندي » خَشية ، ورَمَق حُطامَ القُلة في حَيرة وقلق ، فعاود الشيخ هديره أشدَّ عنفًا : « ماذا ؟ أيُّ شيء انكسر ؟»

فانبعث صوت « محمد أفندي » هزيلاً متخاذلاً

يقول : « لا شيء ، لا شيء . قُلة سقطت . »

فهمهم الشيخ : « لا حول ولا قوة إلا بالله ! »

وتزحزح « محمد أفندي » عن مرافق الماء ، مؤخّرًا إرواءَ ظَمَئِه إلى حين .

— ٢٦ —

وسَرعان ما تكاثرت شهوات الوَحَم عند الزَّوْجة ؛ فلها في كلِّ ساعة مَطلَب جديد ، ورَغبةٌ تتفنَّن في تلوينها ما وَسِعها التفنُّن . فإن تراخى « محمد أفندي » في الاستجابة لتلك الشَّهوات ، أو استمهل في تحقيق هذه الرَّغَبات ، بادَرَتْه الزَّوجة بإلقاء التَّبِعة في عنقه إن أصيب وليده بضَير ، أو لَحِقَه مكروه .

وكثيرًا ما عانى « محمد أفندي » ألوانًا من المتاعب ، وجِساماً منَ النَّفقات ، في سبيل مَطالب الزَّوجة الوَحْمى : فمِن رُكوب للدَّوابِّ ، ومن احتمالٍ لوقْدةِ الحرِّ في الظَّهيرة ، ومن تنقُّل بين الأسواق والمدن ، طلبًا لما هو عزيزُ المنال من فاكِهة ومَتاع .

وكانتِ الزَّوْجة منذ لزمت فراشها ، يُحمَل إليها الطَّعام في مرقدها ، وكان الغُلام يتولّى ذلك قبل إقصائه ، فتولاه الطاهي من بعده . فأمّا « محمد أفندي » فطعامُه يُحمل إليه في صينية خاصة ، حيث يقيم في مستشرَف الدّار .

وبينما كان « محمد أفندي » يومًا يتلهَّب انتظارًا لغَدائه ، إذ أقبل الطّاهي خاويَ اليدين ، يقول :

« أ تسمح ، يا سيدنا البك ، بالحضور إلى المطهى ؟ »

« لماذا ؟ »

« لتحمِل صينية ‹‹ الست ›› إليها . »

فحملَق الرَّجل في وجه طاهيهِ وقال :

« أنا أحمل الصينية ؟ أ مجنون أنت ؟ »

« لستُ بمجنون ، يا سيدنا البك ! »

فصاح « محمد أفندي » :

« أوْضِحْ ، يا رجل . »

فقال الطاهي في غير مبالاة :

« هذه أوامر سيدنا الشيخ . »

فهبَّ « محمد أفندي » من فوره ، وقد انتفش شاربُه ، ودمدم قائلاً :

« أوامِر سيدنا الشيخ ؟ سأرى ما هي أوامرُ سيدنا الشيخ هذه ! »

وطاوعته رجلاه على أن يقتَحِم الوكْر الحصين ، فألفى شيخه جالسًا متشمِّرًا ، يكيلُ السَّمْنَ في نشاط واهتمام ، فقال له متهدِّج الصوت :

« أ حقٌّ أنك أمرت بأن أحمِل الصينية إلى البنت ؟ »

فرفع إليه الشَّيخ عينه قائلاً في صوت متطامن :

« هذا صحيح ، يا بُنَيَّ . إذا كان الأمر يضايقُك فلا تفعل . »

« أ يصِحُّ أن أكلَّفَ مثل هذا العمل ؟ أ ليس في المنزل من يخدُم ؟ »

فأجاب الشيخ في لهجته المتطامنة :

« إن أردت الحقَّ فلا خادم في الدّار . »

« والطاهي ؟ »

« الطاهي ؛ الطاهي ! »

وهز الشيخ رأسَه فترة ، وهو يُميط عن يديه ما عَلِق بها من السَّمن ، وقال :

« أ يليق أن يقتحِم رجلٌ أجنبيٌّ فراش زوجك ، وهي في حالة حَمل ؟ إنّي أعتقِد أن نَفْسَك الأبِيَّةَ لا تقبل ذلك . »

فبوغِتَ « محمد أفندي » بهذه الإثارة ، وصمَت

هُنَيْهَةً ، وهو يهرش رأسه ، وهَيْنَم (١) :

« على أيَّة حال يجب أن نُحضِر خادمة . »

« فلنبحَثْ عن خادمة . أمَّا الآن ... »

« الآن ؟ الآن ؟ »

« إذا رأيتَ أن أقوم أنا بحَمْل الصينية إليها ، فإنّي أفعل عن طيبة خاطر . »

ونهَض الشَّيخ في جَهد ، وما لبِث أن رُئِيَ وقد عاجَله سُعال متتابع ، يشقّقُ حَلْقه ، ويهزُّ أركانه ، ثم إذا هو يترنَّح رُوَيدًا ، ويوشك أن ينقَضَّ ، فأسرع إليه الطّاهي يَحْفَظُه مِنَ السُّقوط ، ويقول له :

« يا سيدنا الشيخ ، أرِحْ نفسك ، إنك تُضْني صحَّتك في خدمة الدّار . »

وما زال الطاهي بالشيخ يَسْنُدُه ويُعنى به ، حتّى تراءى بأنه قد أفاق ، وعاوده التماسُك .

وسُمع يهمهم :

« رحمة الله على أيام زمان ، أيام المروءة والإخلاص وتواضُع النفوس . »

ثم التفت إلى الطّاهي ، كأنَّما يوجِّه إليه قوله :

« رضيَ اللهُ عنك ، يا عمرُ يا أميرَ المؤمنين ، لم تستنكِفْ أن تَطهُوَ بيدك الطعامَ لامرأة ! »

ثم مصَّ شفتيه في تحسُّر ، وسرَّح ببصرِه طويلاً في الأفق ، وقال في ترتيل :

« إنَّما المؤمنونَ إخوةٌ . وتعاونوا على البرِّ والتَّقوى. صدق الله العظيم . »

وَخَلَّلَ لحيَتَه بأصابعه ، ثم استأنف قائلاً :

« المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنيان يَشدُّ بعضُه بعضًا . صدق رسول الله في حديثه الشريف . »

وتهاطلت على لسان الشَّيخ آياتٌ وأحاديثُ وحِكَمٌ تحضُّ على التعاوُن بين الأزواج ، وتُشيد بالتَّواضع وخَفض الجَناح .

وكان كلَّما استرسل في ترتيله ، اشتدَّ صوتُه ، واعتدلتْ قامتُه . فما إن قارب الفَراغ من إلقائه ، حتّى كانت أرجاء الحجرة تتجاوب فيها أصداء كأنها هزيم الرُّعود ، ينذِر غِلاظَ القُلوب المتكبِّرين بأنكال وجحيم، وطعام ذي غُصَّةٍ وعذاب أليم .

وارتدَّ « محمد أفندي » عن الحجرة ، يجرجرُ خطاه ، مطأطئَ الهامة ، يُحِسُّ أثقال الخَطايا تتراكَم على مَنْكِبَيْه .

وساقته رِجلاه إلى المطهى !

— ٢٧ —

وانتظر الرَّجُل أن يظهر للخادمة أثرٌ في المنزل ، وطال به الانتظار .

ولم يكن بُدٌّ من أن يضطَلع بشئون الزوجة ، لا يقتصر في خِدمتها على حَمْل الطَّعام إليها ، وإنَّما يلي مِنْ أمورها كلَّ ما تَمَسُّ حاجتُها إليه .

وكان كلَّما غمزَه شعورٌ بالغضاضة من هذا الامتهان — صافحت أذنيه أصداءُ مُطَوَّلاتِ الشَّيخ في الترهيب من التَّكبُّر ، ومجانبة التَّواضع ، والتقصير في عون الأقربين ؛ فيُمارِسُ عملَه مجتهِدًا في تسويغه لنَفْسه ، متكلِّفًا الرِّضا والارتياح .

بَيْد أنَّه على الرَّغم من ذلك ، كانت تجوزُ به لحظاتُ همٍّ وضيق ، إذ تثور نوازِعُه ، فيتسخَّط ويتشكَّى ، وتملأ النِّقْمةُ ما بين جَنْبيه . ويتَّفق أنْ يمرَّ به الشَّيخ في مِثل هذه الحال ، فيقف عنده متفرِّسًا فيه ، قائلاً :

« أكبر ظَنّي أنك غيرُ مستريحٍ إلى مشاركتنا في بعض واجبات المنزِل . »

(١) تكلَّمَ بصوتٍ خَفِيّ .

فيرفع « محمد أفندي » رأسه إليه ، مجيبًا في صوت وسْنان : « لا يخطر لي هذا الأمر ببال . »

فيتدانى منه الشيخ مُربّتًا كتفه ، يقول :

« نحن جميعًا في خدمة القادمِ الجديد ؛ ولدك العزيز . كلُّ صعب في سبيل خدمته يهون . »

وتكاثرت مطالبُ الزوجة ، ولم تَعُدْ هذه المطالب تَدَلُّلاً وملاطفة كما كانت من قبل ، وإنما أصبحت بابًا منَ الحقوق المشروعة ليس منه مَناص .

هنالِك وليد يوشك أن يُهِلَّ على الدّار بطلعته الوضيئة . وإن لهذا الوليد حقوقًا يجِب أن تُرْعى ، ومطالبَ لا بدَّ أن تُستوفى .

ماذا في أن تطلُبَ الزّوجة صُنوفًا من الثّياب والأمتعة لذلك الوليد ؟

ماذا في أن تطلُب الزّوجة إنشاءَ حظيرة جديدة للدّجاج تنافسُ كِنَّ الأرانب ، حتّى تستطيعَ هذه الحظيرة أن تُمِدَّ الأم النُّفَساءَ بما يلزَم لها منَ الطّعام ؟

ماذا في أن تطلُب الزّوجة جَمعًا من الكِباش لإحياء يوم السُّبوع ، وللوفاء بالنذور لأولياء الله ، حمدًا له سبحانه على ما أنعم وتفضَّل ؟

ماذا في أن تطلُب الزّوجة كل هذا وغيرَ هذا كلّه من مطالبَ ورِغاب ؟

ولقد انتهى الأمرُ « بمحمد أفندي » ، تحتَ وطأة هذه الأعباء ، إلى أنه كان إذا ذُكر أمامَه حديثُ الوليد الجديد ، خُيِّلَ إليه أنه مهدَّدٌ بمهبِط شيطان يَنْشِبُ أظافره في عنقه .

وكثيرًا ما انفرد « محمد أفندي » بنفسه في مستشرفه ، يعرض تلك الحقبة الرّيفيّة من حياته : ماذا رَبِحَ منها ؟ وماذا خَسِر ؟

ولا يلبث أن يضطربَ خيالُه ، وتَغيمَ أفكارُه ، فيُظْلِمَ أمامه وجهُ الرأي ، لا يدري أ غانمٌ هو أم غارِم ، وشقيٌّ هو أم سعيد ؟

— ٢٨ —

وفيما هو يومًا يصطلي حَرَّ تلك الهواجِس والهموم ، إذ أقبل الشيخ مقتحمًا عليه خَلْوته ، وهو مترنِّحُ الأعطاف ، يتطلَّق مُحيّاه في زهو ، وقال له :

« أبْشِرْ ؛ لقد أرَحْتك من مسألة مهمَّة لم يكن لك بدٌّ من عناء القِيام بها . »

فسدَّد إليه « محمد أفندي » نظرَه في امتعاض كظيم ، كأنه يتساءل :

« أيُّ مسألة مهمة تلك ؟ »

فتابع الشيخ قوله :

« لقد أوصيت بإعداد عُلبة ذهبية للمصحف الصَّغير الّذي سيكون تميمة الوليد ، ولن تكلِّفَنا أكثر من عشَرة جنيهات . »

فصعَّدَ إليه « محمد أفندي » نظره وصوَّبه ، فتجلّى له ما يتحلّى به الشّيخ من عَباءة قَشيبة ، ومُطْرَف [١] مُزَخْرَف ، وعِمامة زَهراء . وسَرعان ما رجَعت إلى مخيِّلة « محمد أفندي » صورةُ الشّيخ منذ عهد قريب وهو في أسماله وأطماره ، بادي الذِّلة والبذاذة ؛ فبرقَتْ عينُه ، وقال محتدَّ اللّهجة :

« عشَرة جنيهات ؟ عشَرة جنيهات ؟ »

فلاحقه الشيخ بردِّه :

« أ تضَنُّ بعشَرة جنيهاتٍ على حِراسة وليدك العزيز الّذي تَعْمُر به الدّار ؟ »

فتوهَّجت عينُ « محمد أفندي » ، وأحسَّ الغيظَ يشتَعِلُ في صدره ، ونهض واقفًا يَرْجُفُ ويصيح :

« فلتنهدِمِ الدّار على رأس الوليد وعلى كل مَن فيها . »

وألفى نفسَه يندَفِعُ مبارحًا مكانَه كالزَّوبَعة الهوجاء ، وانطلق إلى الطريق .

(١) رداءٌ من خزٍّ مربَّعٌ ذو أعلام .

— ٢٩ —

وبعد قليل بلَغ الرَّجل بيْتَ المأذون الشرعيِّ ، فلمّا أقبل عليه في رُكنه منكبا على دفتَرِه ، حيّاه تحيَّةً عاجلة ، وقبل أن يسمَع ردَّ التحيَّة قال في صوت زاعق :

« صلِّ على النَّبي . »

فارتاع المأذون لِمرَآه ، ومَسح لُعابه ، وقال :

« اللَّهمَّ صلِّ عليه . »

« لقد استخرتُ الله في تطليق المرأة . »

فتنحنح المأذون وقتًا ، ثم قال :

« أبْعَدَ الله الشرَّ . ماذا جرى من بنت ابن الشيخ ؟ إنَّها بنت طيبة ، وزواجُكُما قريب . »

فصاح به « محمد أفندي » صَيحةً مُنكَرَة ، قائلاً :

« قلت لك صلِّ على النَّبي . »

« اللَّهمَّ صلِّ عليه ، يا أخي . ليكُن بالك رائقًا . »

« بالي رائقٌ ، ولكنّي اعتزمتُ تطليق المرأة والسلام . »

وأعدَّ المأذون نفسَه لإلقاء محاضَرته في إصلاح ذات البيْن ، والتنفير من أبغَض الحلال ، ثم اندفَع كالسَّيل يشقشق بالعِبارات والجُمل ، بَيْد أنَّ « محمد أفندي » قاطعه قائلاً :

« أرِحْ نَفسَك من هذا كلِّه ، فإنّي أعرفه حقَّ المعرفة . »

« هذا واجبٌ عليَّ أؤدّيه ، وإنَّ الدِّينَ النَّصيحةُ ، ولك ما ترى . »

« لقد انتهى الأمر ، ولا رادَّ لقضاء الله . »

وسَرعان ما دُوِّنتْ وثيقةُ الطَّلاق .

— ٣٠ —

وشوهد « محمد أفندي » بعد أيام يَبْرَحُ « كفر عقيق » ؛ متَّخذًا الطَّريقَ الزراعيَّ العامَّ ، يمشي مُنْسَرِقَ القُوى ، مُمتقَعَ الوجه ، غائر العينين ، عليه معْطَف مُغبر ، وفي يدِه صُرَّةٌ مهزولة حَوَتْ كلَّ ما يملك في دنياه من متاع .

لقد أرْغِم « محمد أفندي » على أداء مؤخَّر الصَّداق وما إليه من نَفقات ، وأحدَقَ به الدّائنون ، فاستوفَوا ما لهم من ديون .

لقد فرَغ اليومَ من « عملية التطهير » الأخيرة ، فخَرج من القرية على هذا النحو ، يَحْدوه مَصيرٌ مجهول !

من أناشيد البَرْدي

زَهرَة المرقص

في إضمامة (١) من أوراق البَرْدي العتيقة ، دُوِّنَتْ هذه القصيدة الَّتي يَبْسُطها شاعرها على النحو الآتي :

إلى مَن تسقُط في يده هذه الأوراق ، أروي هذه القصة .

إنَّها غُفْل من الأعلام ، فأرِحْ نفسك من محاولَة التعرُّف لصاحِبها .

إنه إنسان مثلُك ، صبَّتْ نفسُه إلى أن ينقُل إليك هذا الحديث ، لعلَّه واجدٌ في ذلك تسرية ، كما أنت واجد فيه مَسْلاة .

أمّا أن تعلَمَ : أ وَهْمٌ ما يقال أم حقيقةٌ واقعة ؛ فليس في ذلك ما يَنْقُص من قَدْر القِصَّة أو يَزيد .

أيُّ جَدوى لك في أن تكون القصَّة من وادي الحقائق ، أو من صيد الخيال ؟

(١) إضمامة : حُزْمة .

ستقرؤها في فُسحة من وقتك، وفرصَة من فراغك؛ فإن شاركتَني إحساسي وشعوري، باركتُك وطلبتُ لروحِك أمنًا وطُمأنينة في اجتيازها برزخَ الأرواحِ، ولجسدِك سلامًا ورَفاهية في ناوُوسِه (١) الحجريّ.

وإن لم تقع هذه الأوراق من نفسِك موقِعَها المؤمَّل، فلا تُنكرْ عليَّ ولا تلعنّي؛ إذْ أضعتُ وقتك هَباء. واختر أن تكون سَمْحَ النَّفْس، كريمَ الخُلُقِ، تَنْشُدُ الرَّحمة لهذا الشاعر المأخوذ، الّذي صبَّ عُصارة عمرِه زيتًا تُضاء به ذُبالةُ الأوهام.

هي قصة فتاة — فتاة طالَعتِ الحياة تمارِس الرَّقص، وتعرض فنَّها وفتنتَها سِلعةً في أسواق المواخير.

لم تكن بذات حُسنٍ باهِر، يجتذبُك بروعة القَسامة والوسامة، ولكن روحها الحيَّ المتألِّق كان يسري في جسدِها اللَّدْن المشيق، فيتضوأ ويبثُّ مِن حوله الفتنةَ والسِّحر.

إنك لتُحِسُّ نور ذلك الرّوح وحرارتَهُ يشفُّ عنهما ذلك الجسد، كما تُحِسُّ ضوء الشمس ودفئَها خلفَ غلائل الغُيوم.

إذا اتفق لك أن تراها عَفْوَ النظرة، وهي في مألوف الرَّواح أو الغُدُوِّ، فإنك ربما ترفَّعتَ عن أن تعاوِد إليها النَّظر، بيدَ أنك ما إن تلمَحها قد توسطت مَدارَ الرقص، وجعلتْ تنقُل قدميها في خِفَّة، وتُراوِح بين يديها بَسطًا وإرخاء كأنَّهما جناحا طائر، وتتأوَّد بخَصرِها كانسياب الجدول الرقراق؛ حتّى تراها وقد تضوَّعت منها فِتنة نفّاذة أخّاذة، وانبعثت من حواليها قَبسات مشبوبة تتغلغل بحرِّها بين الحنايا والضُّلوع.

لم تكن تتحلّى بزينة بالِغة، أو تتحسَّن بملبَس زاهٍ. سِرُّها وسحرُها كمين في ذلك الرّوح الوهّاج.

إنه ليظَلُّ كأنَّما هو حَبيسٌ قُمقم أحكِمَ صمامه، فإذا ما احتوتها ساحةُ الرَّقص، تخلّى الصِّمام عن مكانه، وانطلق الرّوح كأنه بَخورٌ مسحور يشيع ولا يفتأ يَشيع، حتّى يملِكَ على النّاس مساربَ الأنفاس.

وقد تثير شَعْرَها في الرَّقص، وكان سَبْط (٢) الغَدائر فاحمًا، يتهدَّل كأنه سَعَفُ النخيل، تعابِثه نسماتُ الأصيل.

إنها تستعين بشعرِها على التفنُّن في الرَّقصات، فتارةً هو غدائر تتواثب على الكتفين، وَطوراً هو سابِحٌ على الصَّدر، وحينًا هو غِلالة تنسدِل شفّافة هَفْهافة توقِظ الإغراء.

وسَرعان ما طار لها في الأرجاء صيت، وجَرت بحديثِها ألسن، فلم يبقَ في الأرجاء قاصيها ودانيها مَن لم يعرف «زهرة المرقص».

وما هي إلا أن تبوأت مكانَتها في سوامِرِ الأمراء، ومحافلِ السَّراة، فراحوا يتهافتون عليها تهافتَ الهوامِّ على الشَّراب المعسول، يَعُبّون منه عبَّ العِطاش.

وكانوا يُثقِلونها بأمداد من مال ومَتاع، فتُثقِلُهم هي بألوان من دَلال ومِطال.

لا يصدُّهم مللٌ عن التلطُّف والتقرُّب والزُّلفى.

ولا تأخذها هَوادة ولا رَحمة في تكسُّب واغتنام.

وما برح نجمُها يتصعَّد ويأتَلق، حتّى كان ما ليس في حُسبان.

لقد توارت «زهرة المرقص» عن العيون، فاعترى النّاس طائفٌ من دَهشة وأسَف.

أين ولَّت؟

أما أنَّها ماتت، فلا.

لقد خلا ناووسُها من جسدِها المعطَّر، ذلك الناووس الذهبيُّ الّذي شغِلت بإعداده، وشُغفت

(١) الناووس: صُندوق منْ خشب أو نحوه، توضع فيه جثة الميت.

(٢) السَّبْط: الطَّويل غير الجَعْد.

بتنميقه ، بِضعةَ أعوام .

أ تُراها ظَعَنت (١) إلى ما وراء التُّخوم ، تقصِد الشَّرق الأقصى ، لتُرَوِّع بفتنتِها أقيال (٢) الممالك ، وغطاريف (٣) الشُّعوب ؟

لو كان ذلك شأنَها ، لترامى إلى الأسماع حديثُها ، فإن أنباءها قمينة (٤) أن تَسيحَ بها طوّافة النسيم ، وأن ترفَّ بها أجنِحة الطيور .

وظلَّ استخفاؤها لغزًا لا يَتبينُ له وجه .

هذا قَصرُها ، قد تخلَّتْ عنه .

وتلك حُلاها ، لم تعبأ بها .

عجبًا لها ! زهِدت في كل شيء ، وتولَّت تَنشدُها تائهات الظُّنونِ .

وتتالتِ الشُّهور ، والناس على عهدِهم يلهَجون بذِكر « زهرة المرقص » ولياليها الملاح ، ولا يَملُّون في شأنها السُّؤالَ والاستخبار ، يقلِّبون الأمر على شتّى وجوهِه ، ويتمثَّلون في استخفائها أشتاتًا من الفَرْض والتَّخمين .

فمِنْ قائل : إنَّها بَرِمت بحياة الظُّهور والتَّرف ، فَشَهَقَتْ نفسها إلى عيشة شَظَفٍ وانزواء ، ومن ثَمَّ احتوتْها مَثابَةٌ كاهن من الزُّهاد ، في منقطع عنِ العمران .

ومن راجمٍ بالغيبِ يرى أنَّها لم تجد لها كُفْئًا بين الرِّجال ، يَقْدُرُها قَدْرَها الحقَّ ، فآثرت أن تكون للنِّيل العظيم عروسًا تَفنى في أبوَّته الخالدة .

وهناك مَن كان يزعُم أن ربَّ الأرباب « رع » قد أغرِم بها ، فانتزعَها من بين أحضان البشر ، وأفرد لها عُشا في ملكوته الرَّحيب تَحيا فيه ، وبين الفينة والفينة يهبِط إليها ، ليتعرَّف أيُّ شيء ذلك الَّذي يفتتن به البَشَرُ من لَذاذة ومَتاع .

وكَأيِّنْ مِن قِصَصٍ وأساطير أنيقة الوَشْي ، جميلةِ التنسيق ، تتناقلُها الألسن في شأن تلك الرَّاقصة ، الَّتي ارتفعت عن أعيُنِ النَّاس ، كأنَّما أدبَّرَ عنهم إله .

— ٢ —

وذاتَ مَساء جلست لُمَّةٌ منَ النَّاس ، يتنادرون أمام إحدى الدُّور ، في حاضرة الجنوب .

وساقتهم شُجون الأحاديث إلى أنباء « زهرة المرقص » ، فشرَعوا يتنافسون في تَجلِية ما يدور حول استخفائها من أقاويل .

وكان بين السُّمّار شيخٌ أشعثُ أغبر ، تقاذَفَته الفلواتُ والأودِية ، وعركته الرِّحْلات والأسفار . فأمّا أديمُ وجهه ، فقد كان ملوَّحًا ، يضرب إلى السَّواد ، كأنَّه الفَخّار صَهَدَتْه النّار . وقد عَملتْ فيه السنون ما يعمَل المِحراث في الأرض من أخاديد وتجاعيد . كلُّ خَلْجة من خلَجاته تُفصِح أنَّه جَوّابُ آفاقٍ تسلِمهُ النِّجاد إلى الوِهاد ، لا قَرار له في أرض ، ولا مَقام له في مَثوًى .

كان الشَّيخ في الحلْقة سكوتًا خافضَ البَصر كأنَّما أخذَته سِنَةٌ من النَّوم ، فلمّا خوَت وفاض الرُّواة من الأنباء ، وكَلَّتْ ألسنة الجُلاس من التحاوُر — سما الشَّيخ برأسه ، وانفرجت أجفانه عن وَمَضات خابية كابية ، ثم جعل يعتصِر جبهتَه هُنَيهة ، وشرَع يتكلَّم بصوتٍ مستضعَف منهوك .

قال : « إنكم متسائلون عن تلك الَّتي تلقِّبونها ‹‹ زهرة المرقص ›› ، وإنَّكم لتقُصّون من أنبائها حديثًا عَجَبًا . ولئن لم يكذِبْني ظَنّي لتكونَنَّ تلك الفتاة هي الَّتي شهدتُها في بعض أسفاري القُصْوَى ، شهَدتها

(١) ظَعَنَتْ : رَحَلَتْ .

(٢) أقيال : جمع قَيْل ، وهو الملك ، وكان يطلق ذلك على ملوك اليمن في الجاهلية .

(٣) غطاريف : جمع غطريف ، وهو السيد الكريم .

(٤) قَمينة : جَديرة .

في مطرَحٍ نبا عنِ العُمران ، يكادُ لا يُعتَدُّ في عالمنا الآهل المسكون .»

وعاود الرجلُ صمتَه .

فتصدَّت له العيون تسدِّد نظَراتها كأنها سِهام تُحاول أن تَنفُذ فيه ، لتثيره وتَبعثه على مُواصَلة الكَلام.

وران على المجلِس صمتٌ أشبه شيء بصمتِ المُسَجّى في ناووسه ، ينتظِر عودة الرُّوح .

وعِيلَ صبرُ الجمع ، وضاقوا ذَرعًا بهذا الترقُّب والانتظار ، فازدحمت الألسُن بغتة تقتحِم على الشَّيخ سكتَتَه ، وتدانت منه الأجساد ، حتّى ضاقت حولَه الحلْقة ، وأحسَّ الأنفاس تتكاثَف على وجهه ، كأنها زوبعة هَوجاء من زوابع البِيد ، الّتي قاسى عُنفوانَها في رحلاته من صُقْع إلى صُقع .

فصاح الرجل وقد احتقن وجهُه المعقَّد ، قائلاً :

« حسبكم مِنْ تَعجُّل !»

ثم أشرع سَبابته إلى نجم ألاق في عُرض السَّماء ، وقال : « إن هذا النجمَ أقربُ لكم منالاً من تلك الّتي تنشدونها .»

فازداد الجَمع تألُّبًا عليه ، وإحداقًا به ، واستحثاثًا له على الإفضاء بما عنده .

فشعَر الرجل بأن أنفاسَه تحتبس ، وما لبِث أن غاب عن وعيه .

فلمّا ذهب عنه الإغماء ، ألفى نفسَه في بهو تترامى أرجاؤه ، ويسطَع ضياؤه ، ويَشيع فيه نَفْحُ الأطياب .

وطالعته عُمدٌ ضِخام سَوامق ، عليها النُّقوش والتهاويل (١) . وراعته أستارٌ من المُخْمَل تَحْجُب النَّوافذ والأبواب .

فجعل يُرجِع البصر كرّات في ذلك البهو الرّائع ، حتّى استقرَّ نظره على مِنَصَّة يعتلي عرشَها رجلٌ متلألئ في أكسيته الزّاهية ، ومن حَواليه حَشَمٌ وأتباع .

وصافحت أُذُن الشيخ هذه الكلماتُ :

« لقد ثاب إليه رشده . قَرِّبوه .»

وما إن نطق سيد المنصة بكلماته ، حتّى أحسَّ جوّابُ الآفاق بأيدٍ غِلاظ شداد تحمِله ، فتلقي به عن كثب من قوائم العرش ، فألفَى نفسه يهمهم :

« أين أنا ؟ ماذا يُرادُ بي ؟»

فدنا منه رجلٌ وثيق الأركان ، فارعُ القامة ، في حُلّة حربيَّة لَمّاعة ، وهو شاكي[٢] السِّلاح ، أظْهرُ ما يظهَرُ مِن قَسَماته نَدَبَة هي أثرُ جُرح غائِر في جبينه .

وما هي إلا أن قال للشيخ :

« أنت بين يدي الأمير حاكمِ الجنوب المحفوظ بعناية ربِّ الأرباب ، وإنه لآمِرُك بأن تُفضِيَ إليه بما في علمِك من شأنِ ‹‹ زهرة المرقص ›› .»

فأطرق الرَّجل وقتًا يلملِم ما تبعثر من ذِكْرياته ، ويجمَع شَمْل خواطِره ، ثم قال حائر النظرات :

« ليس لديَّ ما أضيفه إلى ما قلته . إنَّها في مَطْرَحها القصيِّ ، وإن نجمَ السَّماء لأقربُ إليكم منها مَنالاً .»

فعلتْ صيحةُ الأمير ، وهو ينتفِض من غضب :

« ليس في الوجود ما يَتعذَّر علينا مَنالُه أيُّها الصُّعلوك الشريد ! أَصْدُقْني ! أعلى ظَهْر الأرض هي؛ فَننشُدَها ، أمْ طواها ‹‹ أوزوريس ›› في ملكوته الخفيِّ ؟»

فأمعن الشيخُ في شروده ، وهمهم :

« حقا لست أدري .»

فصاح الأمير حازمَ اللَّهجة :

« ألم تقل إنَّك رأيتها ؟»

(١) التهاويل : زينة التصاوير والوشي والنقوش .

(٢) شاكي السلاح : تام السلاح كامل الاستعداد .

فقال الشريد ، وحدقتاه تدوران في محجريهما من حيرة واضطراب :

« بلى ، رأيتها ، رأيتها بعينيَّ هاتين . »

ورفع سبّابته يشير بها إلى كلتا عينيه ، فقال الأمير :

« إذن هي في الحياة . »

« من يدري ! »

وتعالت بين حاشية الأمير همهمةُ تساؤل واستيضاح .

وتحرّك الرجل الحربيُّ صاحب النَّدبَة الغائرة في جبهته ، وما لبث أن رفع يديه بسوط غليظ ، وقال :

« أفصح ، وإلا ألهبتُ بالسَّوط ظهرك ! »

فريعَ الرَّجل ، وتكمّش يرجُفُ ، ثم صرخ بصوتٍ راعش : « قسماً بربِّ الأرباب إنّي لصادقٌ فيما حدّثتُكم به . »

وغامت الدُّنيا لعينيه ، واستلقى على أديم الأرض ، يستغيث هاذيًا .

وتقدّم الرجل الحربيُّ ذو النَّدبَة منَ الأمير ، قائلاً له :

« مخبول هذا الرجل ، يا مولاي ، أو لعله محموم ! »

« سواء أكان مخبولاً أم محمومًا ، فإنّنا لن نُفلتَه حتّى يطلعنا على سرّه في شأن « زهرة المرقص » . »

وأقيم جوّابُ الآفاق في حجرة من حُجَر القصْر ، مخفوراً بأحراس ، محوطًا بأسباب العلاج والتّمريض ، مكفولةً له راحةُ العيش .

وما انقضتْ أيّام حتّى استعاد الرَّجل طمأنينة النَّفْس وصَفاء الفِكر .

وكان في الفَينة بعد الفينة يزوره الرَّجل الحربيُّ ذو النَّدبة الغائرة ، في يُمناه سوطه يتلاعب به ، فيتحدَّث إليه تارةً متبسِّطًا يستدرجه ، وطوراً مغلِظًا له في القَول يَتهدَّدُه ، فما قَدَر على طول المجاهدة والمعاناة أن يستخلِص منه إلا أمشاجًا أشبه شيء برؤيا نائم .

عرف الرجل الحربيُّ ذو النَّدبة أن جوّابَ الآفاق رأى « زهرة المرقص » ليلةً في ضوء القمر ، وهي ترقُص على مَرْج كأنه بِساط من سُندس ، تُحدِق به نُخيلات فوارع ، يجوس خلالَها جدول رَقراق — رآها، ولكن كما يرى طيفًا من الأطياف ، لا تأخذُه العينُ إلا لمحًا ، وكانت تتردَّد في هذه السّاعة أنغامُ ناي حَنون ، لا يتبيَّن له صافِر .

ولبِث الجوّاب وقتًا بمرأى من ذلك ومسمَع ، لا يعلَم أطال به وقتُه أم قصُر ؟ بيد أنه موقن أصدقَ اليقين أن صوتًا شديداً هتف من حوله :

« ابتعدْ أيُّها التّائهُ الشريد عن هذا الوادي المقدس. تنحَّ عنه لا تطأه بقدميك . أنجُ بنفسِك ، وإلا حاقت بك غَضْبة القُدْس الأعظم ، وحقَّت عليك لعنة الأبد! »

ففرَّ الجوّاب من فورِه مذعوراً ، مستطار اللُّبِّ ، يضرِب في المفاوز والفَلَوات .

ذلك قُصارى ما انتهى إليه حديثُ جوّاب الآفاق في شأن « زهرة المرقص » .

— ٣ —

وجاء يومٌ شاهدَ فيه أهلُ المدينة قافلة تبرُز من قصر الأمير ، على رأسها ذلك الحربيُّ الفارع ذو النَّدبة الغائرة ، وعن اليمين جوّاب الآفاق ، ومن ورائهما الأعوان ، بينهم حَمَلَة الأمتعة والأزْواد .

وتناهى إلى المسامع أنَّ القافلة إنّما تبغي سفرًا بعيدَ الشُّقَّة ، في مهمَّة ذات بال .

وفَصَلَتِ القافلةُ عن المدينة تودِّعُ الرَّفاهة والأمن ، بِجوار النِّيل السعيد ، وتستقبلُ ذلك الخِضمَّ العَسْجَديَّ من الصَّحْراء ، تعاني في قَطْعه ألوانًا من العذاب .

و واصلت القافِلة سَيْرَها ، وسُراها ، تسيل بها الوِهاد [1] ، وتعلو بها النِّجاد . فمِنْ شمس تُسلِّط شُواظَها ، وتُلهِب مواطئ الأقدام ، ومن زوابعَ تبسُط أستار الرِّمال ، فتعشي العيونَ ، ومن جَفافٍ قاحلٍ ماحل لا زرع فيه ولا ضَرْع ، ومن ليلٍ موحش تسري فيه زَمزمة الضَّواري وتتخايلُ أشباح العادِيات .

والقافلة فوق هذا العَناء كلِّه تمضي لغير هدَف مرسوم ، إلا تلك الرُّؤيا الحالمة الَّتي ألفت بين أشتاتها مخيِّلةُ جَوّابِ الآفاق الشريد .

وما زال رهطُ القافِلة يمضون ويمضون ، حتّى تجمَّعت من أيام رحلتهم أسابيعُ وأسابيع ، وكأنَّما هو فوجٌ من أسارَى حربٍ أفلتوا من مأسرهم ، فهاموا على وجوهِهم يطلُبون ملاذًا وقد عزَّ الملاذ و شحَّ الزاد ، و شاع في الأجساد هُزال وإعياء ، وعلتِ الوجوه غُبْرَة الشَّظَف والحَيرة وغموض المصير .

وتبادل الرِّفاق صمتًا يَرْدُفُهُ صمتٌ . واستعاضوا عنِ الكلام بالنظرات تنمُّ عن تخاذُل وقُنوط .

واستبدَّت بقائد القافلة جَهامة وعُبوس ، ولم يعُد يسأل جوّابَ الآفاق عن شيء ، فقد نضَبَ معينه من قولٍ يضيفه .

لقد عاد القائد يفكِّر فيما يُنجيه من ذلك التِّيه ، أكثرَ ممَّا يفكر في بلوغ الغاية وإدراك المنشود .

لم تبقَ في الرَّكب قوَّة على متابعة المسير ، بل لم تبقَ في نفوسهم أثارة من رجاء تشدُّ من العزائم الخاوية.

ولكن كيف السبيل إلى مآب ؟

أنّى للقائد ذي النَّدَبة الغائرة أن يعودَ مجرجِرًا أذيال خَيبة وإخفاق ؟

بأيِّ وجه يلقى الأمير ؟

بأيِّ لسان يَبْسُط عنده العذْرَ ؟

أ ينسى قولَ الأمير في يوم وداعه :

« إنه لمعدٌّ له أنكالاً وعذابًا أليمًا إن هو قصَّر ، وإن هو لم يبلغْ ذلك المأرَبَ العظيم .»

أمّا جوّابُ الآفاق فقد غشيه الذُّهول ، وألحَّ عليه الضعف ، وانتهى به الأمر إلى أن تملَّكتْه غيبوبة أصمَّت سمعه ، وعقلَتْ لسانه .

فظلَّ ممدودًا في مِحَفَّة يتناوب حملَها رُفْقة السفَر، مَنْهوكي القُوى ، لا يكادون يستطيعون لأجسادهم حملاً .

وَصُبْحَ يوم أقبل القائد ذو النَّدَبة على جوّاب الآفاق في مِحَفَّته ، يصعِّد نظره فيه ويصوِّبه ، وقد بلغ منه الغَيظ كلَّ مبلَغ . وما لبِث أن أمر بإلقائه على متن الرِّمال تتولَّى رَعيه .

واستأنفتِ القافِلة سيرها ، ولكن إلى أين ؟

وكانت الصَّحراء تتقاضى الرَّكبَ كلَّ يوم صريعًا هالكًا أو مُوشكًا أن يهلك ، وكأنَّما لذَّ لها أن تقتنِص كلَّ يوم طعامَها من تلك الأجساد الَّتي أنضاها السَّفَر ، وأضناها الكلال .

وأخيرًا حان يومٌ ألفى القائدُ ذو النَّدَبة الغائرة نفسه فردًا يتنفَّس ، لا عونَ له ولا رفيق ، ليس مِن حوله إلا حُطام من مَتاع .

وهبَّت عليه نكباءُ من ريح الصَّحْراء ، أشاعت حولَه الظُّلمة والعُبوس .

وأحسَّ أنفاسَه تختَنق ، والحياةَ تَيْبَس بين أوصاله .

وتواصلت أشهرٌ ، والأمير يرتقِب عَوْدَ الرَّكب ، يمنّي نفسَه بأوبةِ قائده المظفَّر ، وقد اصطحَب الضّالة المنشودة .

ولكنَّ الأشهرَ رَدِفَتْها الأشهر ، دون أن تُذهِب عن الأمير مَرارة الانتظار والترقُّب .

وأخيرًا دبَّ اليأس إلى قلبه ، فَنَسِيَ أو تناسى شأنَ تلك القافلة الَّتي أصبَحت في ذمَّة الظُّنون .

(١) الوهاد : جمع وَهْدَة ، وهي الأرض المنخفضة .

— ٤ —

وفي أمسيَّة من الأماسيِّ المقمِرة ، تَحلَّق جمع من الناس بباب إحدى الدّور في حاضِرة الجنوب ، وهم يسمُرون .

وفي أعقاب السَّمَر تسلَّل بِهِمُ الحديثُ إلى شأن « زهرة المرقص » فتنازعوه بألوان من الحَدْس والتخمين .

وكان بين الجُلاس غريب يُشبه في أسماله جوّابي الآفاق ، تعبَث بوجهه التَّجاعيد ، ذو بشَرة لوَّحها القَيْظ، تكسوها غَبَرَةٌ ، وعلى جوانب وجهه يتهدَّل شعرٌ غزير .

ولم يكن يأخذ بطرف من أطراف السَّمَر ، وإنما قَنع بالإصغاء مطأطئ الرأْس ، كأنَّما تَسري فيه إغفاءة. فما إن عرض حديثُ « زهرة المرقص » وخاضَ فيه السُّمَّار حتّى جعل يرفَع رأسه ، وينفُض الغَفْوة عن جفنيه ، ويقلِّب في وجو ه المتحدِّثين نظراتٍ كليلة عشواء ، ثم همهم في صوت راعش :

« أ عَنْ تلك الرّاقصة الحسناء تتحدَّثون ؟ أكبر ظنّي أنها هي تلك الفتاة الَّتي لمحتُها في بعض أسفاري القاصِيَة. إنَّها في مثابة (١) لا تصل إليها قدَم بَشر . إنَّها بعيدة عنّا بُعدَ ذلك النَّجْم السيّار . »

وأشار بيده إلى السماء .

فما عتَّم الجَمْع أن أطبقوا عليه يحاصِرونه بأسئلتهم في إلحاح ، فلاذ الرَّجل بصمته ، وعيناه الكليلتان تدورانِ في حَيرة وخَبال .

وسَرعان ما شاع في المدينة نبأ ذلك الغريب الَّذي يعرف سرَّ « زهرة المرقص » ؛ فلم يلبَث الرَّجل أن أحسَّ بنفسه محمولاً إلى قصر مُنيف . واحتواه بهوٌ فسيحُ الأرجاء ، تتراءى فيه العُمُدُ مزدانةً بالرُّسوم والنُّقوش ، والأستارُ المُخْمَليَّة (٢) تكسو النوافذ والأبواب ، وذلك العرش المتألق تحفُّ به الأحراس والأتباع .

وتدانى منه رجلٌ بادِنٌ متكتِّل في حُلَّة حربيَّة ناصِعة ، وهو يتلاعب بسَوطه ، وصاح به :

« لقد سمِعَك النَّاس تتحدَّث عن «زهرة المرقص» ، فهلا أوضحتَ للأمير حاكم الجنوب المحفوظِ بعناية ربِّ الأرباب حقيقةَ ما تعلم ؟»

فجعل الرَّجل يطوف ببصره حولَه ، يحاوِل أن يكشِف عن مخيِّلته ما ران عليها من ذَهْلة و شُرود .

و شاعت على شفتَيه ابتسامةٌ حَيْرى ، وهمَّ أن ينطِق فلم يملِك .

وطال صمتُه ، وأحسَّ لسعة السَّوط من يد ذلك البدين ، وهو يقول له :

« ألم تَعِ ما أقول ؟»

فجمجم الغريب ، متلعثمًا : « رُحْماك ! »

« لا رحمة قبلَ أن تُفضيَ بما عندك . »

فرفع الغريب عينه ، يبعث منها نظرة زائغة ، وقال: « لقد قلت لكم إنَّها بعيدة المَنال ، بعيدة كنَجم السَّماء ، ما أنتم ببالغيه . »

وهوى السَّوْط على ظَهره ، فصاح الغَريب يتضرَّع ، وقال الأمير في صوته الرَّكين :

« أدرِكوه بِجُرْعة من شراب . »

وصافح هذا الصوت سمع الشيخ الذّاهل ، فأرهف له أذنيه ، وخُيِّلَ إليه أنَّه صوت ينفُذ من بعيد ، مخترِ طيّات الأحقاب ؛ فأخذ يستنقِذُ ما بقي من ذاكرتِه تحت أنقاض الأحداث .

وجيء له بقَدح مُتْرَع بالشَّراب المنعِش ، فاشتفَّه اشتفافًا ، وجعل يعبث بشعره المسترخي على جوانبِ وجهه ، وما هي إلا أن استبانت في جبينه نَدَبَة هي أثر جُرح غائر .

وانتفض الأمير ، متنحيًّا عن عرشه ، وأقبل على الرجل يتفحَّص سِماته تفحُّصَ متثبِّت .

---

(١) مثابة : مكانة . (٢) مُخْمَلٌ : نسيج له خَمْل ، وهو القطيفة .

ثم لم يملِك أن صاح : « أ هذا أنت ؟ »

وانتبه الغريب ، واتسعت حدَقتا عينيه ، وجعل يرنو إلى الأمير ، كأنَّهُ يُميط الغُبار عن صَفَحاتٍ طال بها العهد .

ثم صاح فجأة : « مولاي ! »

وخرَّ ساجدًا .

وحُمِل القائد ذو النَّدَبة الغائرة وهو مَغْشِيٌّ عليه إلى إحدى حُجَر القَصر ، محوطًا بألوان الرِّعاية والاهتمام .

ومضتْ أيام والرَّجل طريحُ الفِراش ، صريعُ الحمّى .

وكان الأمير يعودُه في الحين بعد الحين ، فيلازِم مَرقده ساعة ، يُصغي فيها إلى هَذَيانه ، وهو يقول :

« إنها في واحة ‹‹ رع ›› ، واحته العليا ، حيث الخضرة السُّندسيَّة ، ينساب فيها الماء من لُجَيْن ، ويظلِّلُها النَّخيل الباسِق بسَعَفِه الفَينان . يا لهذا الناي السّاحر يَصفِر فيه ربُّ الأرباب ، فتتخطَّر على إيقاعه تلك الفاتنة الحسناء ! »

وامتدت الحمّى بالقائد ذي النَّدَبة ، حتّى أفضت به الوَعْكة إلى فِقدان الحَراك .

ويومًا ذهبت الحمّى عن الرَّجل بَغْتَةً ، وعاجَله صحوٌ وَهّاج ، فأشرق وجهُه ، وسطَعت عيناه .

وسَرعان ما طار النبأ إلى سمع الأمير ، فَقَدِم من فوره ، وأقبل على القائد ، مستبشرًا طَلْقَ المُحيا ، وتبوأ مَقعَده عن كثَب منه ، فرنا إليه القائد في ضَجعته ، وقد ضاءت على فمه ابتسامةٌ وديعة . وجيء له بقليلٍ من شَراب ، فَصُبَّ في فمه ، فسرَت في وجنتيه انتعاشة خفيفة . وبَعْدَ فترة لاطفَ الأميرُ يدَ القائد ، قائلاً :

« أَصْدُقْني ، أ حقا رأيتَها ؟ »

فهمهم الرجل خافت الصَّوت ، رزين اللَّهجة ، وئيد النَّبرات : « نعم رأيتها ، رأيتها بعينيَّ هاتين . »

وتاه بصرُه في الأفق ، كأنَّه يستعيد في خياله ذلك المشهد البعيد الَّذي رأى فيه « زهرة المرقص » .

ثم استأنف يُهينم :

« ليست هي الآن منَ البشر .

« إنَّها حُلم ورديٌّ ، تلوح أطيافُه في عالم المنام .

« إنَّها رُوحٌ لطيف يسري في كون سماويٍّ .

« إنَّها فِكرة قُدسِية تَرِفُّ في ملكوت ربِّ الأرباب ‹‹ رع ›› .

« إنَّها شعاعة لَمّاحة تدور في فَلَك الإله ‹‹ آتون ›› .

« إنها عصيَّة المنال عن هذا العالمِ الأرضيِّ .

« إنها ... »

وما هي إلا أن عرَت الرَّجُلَ هِزَّة ، فمال رأسُه ، وتراخى جفناه ، وسكنت أوصاله .

فابتدره الأمير مستحثا ، في تلهُّف ، قائلاً له :

« تكلَّمْ ، أوضِح ما تقول . »

ولكنَّ القائد كان في هذه اللَّحظة قد خلَص بروحه من دنيا الأباطيل والأوهام ، وأصبح في ذمَّة « أوزوريس » ، حيث الحقيقة الخالدة !

إحْسان لله

أدّى « أبو المعاطي » فريضَةَ الفَجر في المسجد ، على مألوف عادته في تأدية الفرائض حاضِرةً ، ثم غادر بلْدَته « كوم الزَّهر » القائمة في بُقعة مُشرِفة على النّيل شَمال القاهرة . فما كاد يخرُج من البلدة ، ويمضي في الطريق العامِّ ، حيث الدّوابُّ تروح وتجيء ، والسَّيّارات العامَّة تنتهب الأرض – حتّى كان أولُ شُعاع من أشعَّة الشمس يحيِّي الكَون تحيَّة الصباح . وكان النَّسيم رطبًا مشبعًا بأنداء الفَجر ، والحياة تبدأ انتعاشَها البهيج ، والضوءُ في بواكيره يختلج على

صَفحة النّيل ، فتناجيه العَصافير وهي تبرح أعشاشها تلتِمس الرِّزق ناشطة .

بَيْد أنَّ ذلك الجمالَ الرائق الَّذي يبعث في النَّفْس الرّاحة والطمأنينة ، لم يظهر له أثر على وجه « أبي المعاطي » ، فقد وضح على سيماه طابَعُ الهمِّ والكآبة ، فهو يسير لا تَعْنيه سقسقةُ العصافير ، ولا مشيُ الدَّوابِّ ، ولا جرجرة العرَبات . وإنّما يفكِّر في شأنه وشأن المهمَّة الَّتي كلَّفه أبوه أن يقضيها له في القاهرة : عليه أن يقابِل كاتب المحامي ، وأن يدفَع إليه بعضَ الأوراق الَّتي تَخُصُّ قضية الأرض المتنازَع عليها بينه وبين أقاربه . كلَّفه ذلك أبوه ، وضنَّ عليه بركوبة يمتطيها ليصِل بها إلى العاصمة ، فليس له إلا أن يقطع الرِّحلة سعيًا على القدمين ، ثم يرجع بعد قضاء هذه المهمَّة راجلاً كما ذهب . وما كان ليُعْنَى بهذا الأمر لو أنَّ حياته العامة هنيئة رَغْدة ، وأن له جوانبَ من معيشته تَمنَحُه السرورَ والغِبْطة .

استمر « أبو المعاطي » في سيرِه ، وكلَّما فكَّر في شيء ، تداعت أمامه مناظرُ حياته التّاعسة منذ نعومة أظفاره . إنه شابٌّ يافع يبلُغ الثّامنةَ عشْرَةَ من العُمْر ، حالفه سوء الطالعِ منذ شهد الضَّوْء في هذه الحياة ، فقد قضت أمُّه نحبَها وهي تلِده ، وفي اليوم التالي شبَّ حريق في الدّار كاد يأتي على كلِّ ما فيها ، وكان العام الَّذي قضى فيه طفولته الأولى عامَ جَدْب عانت الأسرة فيه أسبابَ العُسْرَة والضّيق ؛ فتشاءم الأب والأهل ، بل سائر مَن في القرية ، بهذا الوليد الَّذي اقترنت بمقدَمه عواملُ البؤس والأسى . ونشأ الغُلام تحتَ سيطرة امرأة أبيه ، تُغري أباه بإبغاضه ، والتقزُّز منه ، والتشدُّد معه .

ولم يكن بالفتى الوسيم المُشرق الطلعة ، الذَّلِق اللِّسان ، يستجلِب ببشاشته القلوبَ ، ويسترعي بحلاوة لفظه الأسماع ، وإنَّما كان صَموتًا منطويًا على نفسه ، بائن القَماءة ، دَميم الخِلقة ، فظلَّ موضع امتهان أبيه وامرأته ، يكلِّفانه أعمالَ الدّار ، فيؤدّيها صاغرًا لا ينبِس . وإذا جال في القرية لم يُرَ إلا منفردًا ليس له من صاحب ولا من خَدين . فإن صادفَه أحدُ العابثين فحاول مناوشته بسُخْرِيَة لاذعة أو سِباب جارح ، تصامَمَ عنه ، وأولاه إهمالاً وعدَم اكتراث ، وهو يجيش في وجدانه شعورالتَّرفُّع والازدراء .

ولَمّا بلَغ مَبلغ الفُتُوَّة انتهى إليه عِبْءُ الحقل كلُّه، فنَهض به صابرًا حَمولاً لا يلقى من ذويه على موفورِ جُهده جزاءً ولا شُكورًا . وما كان له إلا أن يُذْعِنَ ويستسلم لِما أُريدَ عليه ، وكيف يستطيع أن يرفعَ بصرَه إلى أبيه متحدّيًا إيّاه ، وهو يراه على الرَّغم من علوِّ سنه جبارَ العزمة ، مَهيب الكلمة . وهل ينسى مرة أنَّه عمِل على أن يدَّخر مبلغًا منَ النُّقود في مدًى منَ الزَّمن مديد، يبتغي أن يشتريَ به بعضَ ما تطمَح إليه نفسُه في الأسواق ، فنمى إلى أبيه هذا الصَّنيع ، فاستدعاه إليه ، وطلَب منه على الفَور أن يُخرِج له ما عندَه من المال ، فهمَّ الغُلام أن يثور ، وأن يأبى الاستجابة لهذا الأمر ، فهوى أبوه على صُدْغه بكفٍّ جبارة أخمَدَت الثورة في مُستهلِّها .

وسَرعان ما امتدَّت يدُ الغلام إلى أبيه ، لا ليذودَ عن نفسِه ، بل ليعطيَ أباه ما جمع من المال والآمال ، وترك الغلام والده مطأطئ الرأس ، يجرُّ قدميه ، وقد تحيَّرت في مآقيه الدُّموع . وفزع إلى المسجد ، حيث أوى إلى رُكن فيه ، فأسلم رأسه إلى ركبتيه ، واندفَع ينشج ويذرِف العَبَرات . وأنبهته سَعْلة عريضة ، فمال ببصره يتفقَّد من قَدمَ المسجد ، فرأى الإمام في طريقه إلى المحراب ، يتعثَّر في خُطُواته المهدَّمة . فنهض إليه يقبِّل يُمناه ، وكان يَلقى أبدًا في رِحابه أمنًا ورِفقًا لا يأنسهما من سائر الناس ، فسأله الإمام ما خَطبه ؛ فأخذ يسرُد له ما وقع من أبيه ؛ فربَّتَ الإمام ظهره ، وطيَّب خاطره قائلاً :

« أباك ! أباك ! أنت ومالك لأبيك . كنْ طيِّعًا صبورًا تغنم ثوابَ الله . »

ثم تحسَّس جيبه ، ومدَّ يده إلى « أبي المعاطي » وهو يقول :

« قد تجد ، يا بنيَّ ، في هذا المبلَغ على ضآلته بعضَ ما يعوِّضُك ممّا فقدت . وليكن قرْضًا . »

فردَّ يدَ الشّيخ في أدب وتمنُّع ، وشكر له جميلَه ، وانصرَف من المسجد أهدأ بالاً .

جدَّ « أبو المعاطي » في طريقه ، تتوارد هذه الذّكريات على خاطِره . وبدأ يشعُر بأشعّة الشّمس تلفَح وجهَه ، والعَرق يتصبَّب من جبينه . وصادف في سَيره قريةً قام فيها سوق الأسبوع ، فجاز بها ينظُر ما يُعرض فيها من ألوان السِّلَع ، واختلب نظرَه فوق كلِّ شيء منظرُ الطّعام ، فقد رُصَّتْ بعضُ الصواني ، عليها أشتاتُ المأكول من أرز مطرَّز بأخلاط شهية جذابة ، ومشويات يفوحُ قُتارها (١) فيفغَم (٢) الأنف بأزكى الرّائحة ؛ فرجعت به الذّاكرة إلى أيام صِباه الباكرة ، حينما شهد وليمة أعدَّها العمدة احتفالاً بزواج حفيده ، فذاق مثل هذه الألوان ، وما فتئ منذ ذلك اليوم يجدُ طيبها في فمه .

وأبطأت خُطاه في جوانب السّوق ؛ إذ كان يمتّع البصر بهذه المرائي الّتي فتنت لبَّه ، ويستنشق عبيرَ تلك المطاعِم الّتي تحلَّبَ لها ريقُه . ثم انساق بقدَميه ليبتعد عن هذه النّاحية ، ولم يلبث أن أحس بجوعه ، فتلمَّس جيبه ليستخرجَ اللّفيفة الّتي أعدتها له امرأة أبيه ، تحوي كِسرًا من الخبز اليابِس ، وقطعة منَ الجبن القريش . وهمَّ بأن يُسكتَ جَوعَته بقضمة ، ولكنّه تذكر أن هذا زادُه كلُّه في رحلته الطّويلة ، فعليه أن يحسِنَ تَدبيره حتّى لا ينفَدَ قبل انتهاء مهمتَّه وأَوْبته .

واسترعى نظرَه ضريحٌ شاخص على الطّريق ، لأحَد أولياء الله ؛ فمدَّ الخُطا إليه ، وما إن داناه حتّى أمسك بشبّاكه ، وقرأ له الفاتحة ، ثم أخذَ يتضرَّع ويبتهل ، ويمسَح وجهه بيديه مرات . وكان بجوار الضّريح سائلٌ مكفوف البَصَر ، يتلو بعض آي الذّكر الحكيم ، وإذا برجلٍ ممتطٍ ركوبةً مُطَهَّمة (٣) ، تدلُّ سِماته على اليَسار والنّعمة ، فأخرج كيسه المنسوجَ ، وأخذ منه قطعة منَ النّقود دسَّها في يدِ القارئ ، ولم ينتبه إلى أن قطعة أخرى سقطت منَ الكيس ، ولكن « أبا المعاطي » لمحها على الأرض فأسرع إليها ، وأخذ يقلِّبها بين أنامله فترة . وكان القارئ قد عاد يرفعُ صوتَه بآي الذّكر الحكيم ، فألفى « أبو المعاطي » نفسَه يرفَع عينيه إلى الضريح هُنيهة ، ثم عدا في طريق الرّجل المحسِن الماضي على مطيّته ، فصاح به حتّى استوقَفَه ، وناوله قطعةَ النّقود الّتي سقطت منه .

واستأنف « أبو المعاطي » سَيره يغادِرُ السّوق ، وقد اشتدَّت وطأة الشّمس عليه ، وأحسَّ بالهمّ ينمو في نَفسه ، والمتاعبِ تتجمَّع على كتِفَيه . وعاودته ذِكرى قطعة النّقود الّتي ردَّها إلى صاحبها ، وتراءت لعينه صواني الرّز والشّواء ؛ فتضاربت بين جوانحه مشاعرُ الأسف والحَيرة والقلق . وانحنى ناحيةً على الجِسر ، ووجد ألا بُدَّ من أن يُخرج زاده من جيبه ، وأن يتناول منه مُضْغة تردُّ عنه السَّغَب (٤) . وبينما هو جالِس يأكل ، سمع هَرير كلْب على مَقْرَبة منه ، فحوَّل إليه بصره ، فوجده يرقُبه عن كَثب في خوف وحذَر ، وجعل الكلب يرسِل إليه نظرات توسُّل واستجداء ، وهو يلوك لسانه بين فكيه ، فحدجه « أبو المعاطي » بنظرات نكراء ، وما عتَّم أن تناول حجرًا قذفه به ، فانطلق الكلب يعوي في ذِلة المقهور ، وأقبل « أبو المعاطي » على طعامه يغمغم بالسِّباب .

ثم نهض يُتابع سيره ، وقد بدأت الطّريق تتشعَّب ، فانطلق يسأل هذا وذاك :

(١) القتار : دخان ذو رائحة خاصة ينبعث من الطبيخ أو الشّواء .
(٢) يفغم : يملأ .
(٣) مطهَّمة : سمينة تامة .
(٤) السَّغب : الجوع .

«أين السبيل إلى القاهرة ؟»

ودخل المدينة دُخول الحائر الوَجِل ، وقد بدأ صَخَب الحياة يكتنفُه ، فطفِق يستدلُّ على مقرِّ كاتب المحامي في حيِّ «السيدة زينب» . وشارف المسجدَ بعد جَهد ومشقَّة ، وقد أخذ منه الإعياء كلَّ مأخذ ، فأراد أن يُريح جسمَه بجَلسة ، وأن يصلِّيَ ركعتين بجانب المقام. وبعد أن أدّى في المسجِد الصَّلاة ، تعلَّق بأستار الضَّريح ينفض نفسه في مناجاة وضَراعة ، ثم عَدَل إلى الباب ، فرأى أناسًا متفرِّقين يجلِسون ، فاختار مكانًا ظليلاً رطبًا جلَس فيه ، وقد اعتزَم أن يذهب إلى كاتب المحامي بعد أن يستوفيَ قِسطه من الرّاحة والتفرُّج .

واستند إلى الجِدار ، فغفا غَفوة لم يَدْرِ مداها ، وعند ما استفاق من نَعسَته وجد الحرَكة تشمَل المسجد ، والأرجلَ تكثُر غادية رائحة . وبينما هو في جلسته ، مسترسلٌ في تفكيره ، إذ أحسَّ شخصًا يقترب منه ، وشيئًا يُلقى في حجره ، فرفع جفنيه وتطلَّع إلى ذلك الشيء ، فإذا به قطعة مغرية من النُّقود ، فأمسك بها يقلِّبها ، وهو ينظر إلى الَّذي ألقاها ، فهمَّ أن يعيدها إليه ، ويخبره بأنَّه ليس بشحّاذ ، ولم يكد يفعل حتّى كان الرَّجل قد غاب في زحمة السّابلة ، فجعل يتفقَّده بُرهة دون أن يجده .

ولمحتْ (١) في فكره على الأثَر مناظرُ الصَّواني ، عليها الرُّز المطرَّز والمشويّات الشَّهية . أ ليس هذا رزقًا ساقه الله إليه ؟ أ و ليس هو برَكة «السيدة زينب» وساحتها الكريمة ؟ وتلفَّت يَمنة ويَسرة ، فلم يجد أحدًا يُعيره التفاتة ، فأسرع بقطعَة النُّقود يحفظُها في جيبه ، ورغِب في القِيام ، ولكنَّ هاجسًا هجَس في خاطره أن استرِحْ قليلاً ، ففي الوقت مندوحةٌ (٢) ، وليس مقرُّ كاتب المحامي ببعيد .

وفيما كان يسبَح في أخيلة شتّى ، وجد امرَأ في مُنصرَفه من المسجِد ، أنيق البِزَّة ، وجيه الطَّلْعة ، تحفُّ به شمائل الطِّيبة ؛ فتصدّى له سائل كسيح يَظلع (٣) على عكّازته ، ومدَّ له يمينه مستعطِفًا ، فنفحَه الوجيهُ بقطعة منَ النُّقود ألهجت لسانه بالشُّكر والدُّعاء ؛ فأحسَّ «أبو المعاطي» على الفور بيدِه تمتدُّ وكفَّه تنبسِط ، فوقع بصر الوجيه عليه ، فأخرج قطعةً منَ النُّقود ، وألقى بها إليه ، فاختلج قلبُه وأسبل أهدابه متناومًا . وبعد هُنيهة استخفى شبح ذلك الوجيه ، فجعل «أبو المعاطي» يضمُّ قطعة النقودِ إلى أختها الأولى ، ثم انسرَح يفكِّر : ماذا يأكل ، وأيَّ الألوان يختار. وتباينَت تَصوُّراتُه في شَهَوات الغذاء .

و وجد نفسَه يطيل الجلوسَ ، فهتَف به هاتِف : أ لم يَحِنِ الوقتُ لأن يهبَّ إلى كاتِب المحامي ليُنجِز المهمَّة الَّتي قَدِم من أجلِها ؟ ولكن يدَه كانت على حالِها مبسوطةَ الكفِّ ، وعينيه كانتا مطبقتَي الأجفان . وسمع اثنين يتحدَّثان على مَقرَبة منه ، فيقولان :

«حقا إنه لسائل جدير بالإحسان !»

وهبَطت على يده في الحال قطعةُ النُّقود ، فخطرتْ ببال «أبي المعاطي» صورةُ القارئ القاعِد بجوار الضَّريح ، وهو في جِلسة الذِّلَّة والمهانة ؛ فتحرَّكت في قلبه أشياء من الأنفة والعزَّة ، وتهيَّأ ليفارِقَ مكانه ، فإذا امرأة عجوز تتوكَّأ على عصًا تدنو منه ، وتضعُ في يده على استحياء وصمْتٍ قطعةً منَ النُّقود لها قيمتُها ، وتهمِس في أذنه ملحَّةً أن يسألَ لها الله شفاءَ ابنتِها الَّتي أضنتْها العلَّة ، فلم يتحرَّك في مجلسِه ، ولم يفتحْ عينيه لها ، واجتهد أن يقلِّص من قَسَمات وجهه ، تعبيرًا عن معنى الابتهال إلى الله ، وهو يهمهِم بكلمات مضطرِبة لم يستبن منها حرفٌ. وعادتِ العجوز أدراجَها ، وهي تقول :

«الدَّعوةُ من خُدّام المقام هؤلاء ، ليس بينها وبين

(١) لَمَحَتْ : لَمَعَتْ .

(٢) مندوحة : سَعَة وفسحة .

(٣) يظلع : يعرج .

السماء حجابٌ .»

وامتدّت جلسة « أبي المعاطي » ، وعَمَرَ جيبُه بقطَع النُّقود . فما كاد الظَّلام يُرخي سُدولَه ، حتّى فترتِ الحركةُ ، وانقطع سيلُ الزُّوَّار ، فنهض يلمُّ شعَثَه (١) ، ويستقبِل الطَّريق ، يتحسَّس النُّقود ، ويَعُدُّها مرّةً بعد مرة ، وقد أدار في ذهنه أن هذا المبلغَ من المال يعدِل كسبَ أيام معدودات في الريف ، عاملاً فيها على أديم الحقل في وَقْدَة القَيْظ ، مُقاسيًا ضروبَ المشقّة والكَدّ ، وها هو ذا قد يسَّره الله له وهو في جِلسته الهادئة الوادعة . أ و ليس هذا بُرهانَ رضًا أسبغَه الله عليه ؟ أ وَ ليست هذه رحمةً ربانيّةً تستوجب مزيدًا من الحمد والشُّكران ؟ ورفع بصره إلى السَّماء ، مبتهِلاً إلى وليِّ النِّعم أن يُديمَ عليه مِنّتَه ، ثم مسَح وجهه بيديه كلتيهما .

وانساب يتصفَّح الحوانيتَ متشمِّمًا يبحَث عن طعام . ومَثَل أمام وِجهَة الزُّجاج على بابِ أحدِ المطاعم ، وقد فتنَته من ورائها مناظرُ الشّواء تتطاير رائحتُه شهيةً مغرية ؛ فأعاد راحته إلى جيبه يتلمَّس النقود . واشتبكَت في رأسه أسرابُ الأمانيِّ : لِمَ لا تكون هذه الصُّرةُ نواةَ ثروة يشتري بها ثوبًا أنيقًا يجمِّله ، وقَلَنسُوَة تزهو على جبينه ؟ أ لا يمسِكُ رَمَقَه ببقايا الزّاد في اللّفيفة الّتي أعدَّت له ، ويحتفظ بما جمَع ؟ وهنا ازدحَمت على خياشيمه روائحُ الشّواء ، فما هو إلا أن اندفَع نحو المطعَم ، وملأ بطنَه بما لذَّ وطاب حتّى اكتفى ، ثم خرج يتجشَّأ نَشوانَ ، وسار بخُطُواتٍ أثقلتها التُّخَمة ، وقد أحسَّ الرغبة الملِحّة في أن ينام .

وما كاد ينعطِف في أحد الأزِقّة المجاورة ، حتّى ألفي زاوية مهجورة بِجوار خَرِبَةٍ (٢) قد تمدَّد فيها أحدُ الصِّبية المشرَّدين ، فانتحى مكانًا غيرَ بعيد منه ، فمهَّده لرُقاده ، متوسِّدًا ذراعَه . ولم ينسَ قبل أن يُسلم للكرى مقلتَيه أن يخرج نقودَه ويعُدَّها ، فرأى أنه لم يبقَ منها إلا فلولٌ ، فقد مضى الأكثر الأغلبُ فيما حشا به بطنَه من ألوان العَشاء ، فلبِث يتأمَّل البقيَّة الباقية ، ثم أحكَم رَبْطَها ، و وضَعها في قَرارَة جيبه . وهام في أحلامِه ، معتزِمًا أن يقضيَ مهمّته مع كاتبِ المحامي من غده ، ويبرَح القاهرة إلى بلدَته ، مكتفيًا بما راح له من عطيَّة الله .

ولَمّا أهلَّت تباشيرُ الصَّباح ، انبعثَ من مرقَده ، فكانَ أوَّلَ ما سنَح لخاطره أن يتحسَّس رَبْطة نقوده ، فاطمأن إلى سلامتها ، وبنى عزمَه على أن يكون في يومه قَنوعًا ؛ فعرَّج على لفيفَة الزّاد الّتي جلَبها من البلدَة معه ، ففكَّ وَثاقها ، وبسَط رُقْعتَها أمامه ، وجعَل يرنو إليها بُرهة . ومرَّ برأسِ الزُّقاق بائعٌ جوّال ، يحمِل صينية فَطير ، وهو يَصيح متغنّيًا بما ضَمَّت من حلْوٍ لذيذ ، فمدَّ « أبو المعاطي » يده إلى زاده ليتناول أولَ لقمة يتبلَّغ بها ، فإذا بيدِه ترتدُّ إلى قرارة جيبه ، وتستخرجُ رَبطة النُّقودِ . وسَرعان ما استوقفَ بائعَ الفَطير ، فابتاعَ منه واحدةً وَالتهمها على الأثَر . وما كاد البائع يضعُ الصّينية فوقَ رأسه ، ويستأنف سيره ، منشداً مقطوعتَه في الإشادة بالفَطير الحلو اللّذيذ ، حتىَ وثب إليه « أبو المعاطي » يبتاع فطيرة ثانية ، فثالثة ، فرابعة . وألقى نظرة على ربطة النُّقود ، وقد خوت مما حوت : ما له وللنقود يتحسر على ما أضاع منها ؟ لقد تناول فَطوره ، بحمد الله ومَنِّه ، وهو قاصِدٌ مَقرَّ كاتب المحامي يقضي مهمته في لحظات ، ثم يئوب إلى بلده راضيًا .

وسارَ مُجِدًّا بِمَنْكِبيه الهواء ، فما إن قطَع الزُّقاق ، ومال إلى الطَّريق العام ، و وجدَ نفسَه في مُتَّجَه المسجِد ، حتّى شعر بخُطاه تتّئد : أ يليق أن يقرَع أبواب البيوتِ في ذلك الوقت الباكر ؟ وهل يجوز أن يذهب إلى كاتب المحامي قبل أن يؤديَ فريضَةَ الصُّبح ؟

(١) شعثه : ما تفرق من أموره .

(٢) الخَرِبَة : الموضع الخراب .

إلى المصلّى إذن . ومضى إلى المسجد حتّى بلغ بابه ، فوقف يتأمّل رُوّاده بين ذَهاب وأَوْبة . واسترعى انتباهَه أنه وجد حواشيَ الباب ، وقد عشّش في كل ناحية منها سائلٌ مستقرٌّ في وكْره ، كأنّه مقامه الموروث . وثنى طَرْفَه إلى الرُّكن الّذي كان يستريحُ فيه أمس حين قُدومه القاهرة ، فرآه خاليًا . ها هي ذي الشّمس قد سطَع شُعاعها منذ بُرهة ، ولم يعد لوقتِ الصّلاة متّسع، فسواء عليه أن يصلّيَ الصُّبح الآن أو بعد فترة . لا جُناحَ عليه إذن في أن يستمتع وقتًا بنَسيم الصّباح البهيج في ذلك الرُّكن الظّليل . فأفضى إليه ، واحتلّه في طُمأنينة وسُكون ، ومرّت فترة لم يتحرّك في جلسته ، وقد أسبَل جفنيه إلا قليلاً ، وتظاهر بالنّعاس ، فسَرت إلى أذنه همسات مبهَمة ، فألقى إليها سمعه وباله ، وأدار حولَه النَّظر خُلسة ، فاستبان له أن السائلين يتهامَسون في شأنه ، ويتغامزون به ، فأغضى ، ولم يُبْدِ لهم أنّه فطِنَ لشيء .

وشَرع رُوّاد المسجِد يتوافدون على أبوابه ، وأخذت قطعُ النُّقود تتهافت على يدِ « أبي المعاطي » ، فكان يتلقطها ويدُسُّها في جيبه عَجولاً . ولاحظَ أنّ من يمر به من المتصدّقين يقِف بُرهة يتفرّس فيه ، ويتألم لما يبدو على وجهه من علائم البؤس والمَسْكنة ؛ فأدرك أنّه قد أوتيَ ملامحَ معبّرة تستدرُّ الإشفاق . وما كاد يفطِن إلى ذلك حتّى ازدادت تلك الملامح من وضوح ، وصحِبَتْها أنّات وترنيمات تجتذِب الأنظار .

وطالت الجلسة ، وتوافر المدَد ، ورفَّ على ذاكرة « أبي المعاطي » شأنُه مع كاتب المحامي ، و وَعْدُه أباه أن يعود إلى البَلْدة في يومه ، فاهتزّ في جِلسته ضَجِراً . ليس بالأمر المنكر أن يبقى بالقاهرة يومًا على أن يعود لا محالة غدًا ، أ ليس له بعد أن أمضى في العمل المتواصل دهرًا طويلا يكُدُّ ويُجهِد نفسَه لمصلَحة أبيه — أن ينال حظَّه من المتعة يومًا ؟ لقد اعتصر دمَه في سبيل منفَعة الأسرة والقيام على مَرافقها ، أ فما آنَ له أن يستجِمَّ قليلاً بعدَ طول الكدِّ وفرطِ العناء ؟ وفوق ذلك لن تكونَ النقود الّتي جمعَها من حقِّه وحدَه ، بل إنه سيُشرك فيها أباه . وهل يبلُغ به الجحود أن ينسى نصيبَ أبيه مهما يكن من أمره معه ؟

أخلَدَ « أبو المعاطي » إلى هذه الفكرة ، واستقرَّ في جِلسته ، يستنشق النّسيم العليل في الرُّكن الظليل .

وانطوى اليوم ، و « أبو المعاطي » في مكانه بجوار المسجِد ، تهبِط عليه الحسَنات ، فما هو إلا أن يأخذَها حسنة بعد حسنة ، ويُودِعَها قرارةَ جَيبه ، وهو هائم يتنقَّل بين التصوُّرات والأماني . وظلَّ كذلك لا يستطيع بَراحًا . وحين أحسَّ بالجوع في بعض النّهار، تبلَّغ بشيء ممّا يطوف به باعةُ السّوق . وما كان له أن يبارِحَ مكانَه والناس بين مُقْبِل على المسجد ومنصرِف عنه . فلمّا آذنتِ الشّمس بالمغيب ، أبصرَ بالسائلين المرابطين حولَ المسجِد ينفرِط عقدُهم سائلاً في إثر سائل ، هذا يجرُّ عكازته ليتحامل عليها ويظلع ، وذاك يحمل غِرارتَه على كتفه ، وذلك يستدعي غلامه ليقوده . فقام « أبو المعاطي » يتمطّى وهو يروِّضُ على السير أوصالَه الّتي خدَّرها طول القُعود .

وتغلغل في الطّريق ، واخترق بعضَ الدُّروب ، فوافقَ سائلاً ممّن كانوا معه بباب المسجد يُميط اللّفائف الّتي شدَّ بها يدَه إلى عنقه ، وينزِع الضّمادة الّتي أدارها على عينيه ، ثم ينفتِلُ مستقيمَ العود ، صحيح الجسد ، يشقُّ حجاب الظّلام بعينين تلتمِعان .

ونَفَذَ « أبو المعاطي » من الدَّرْب إلى الشارع ، وانتهت به قدماه إلى مطعَم ممتاز ، فملأ بطنه ممّا اشتهى، وقضى ليلته حيث قضى البارحة ، يهنأ بأعذب الأحلام .

وفي رونَق الصُّبح ، راع جماعةَ السائلين حيال باب المسجد أن « أبا المعاطي » قد شدَّ يُسراه بلَفائف إلى عنقه ، وتوكّأ على عُكّازة غليظَة ، وهو يَدْرُج في

جَهد وإعياء ، ثم انتهى إلى مكانه المختار فاحتلَّه كسابق يومه ، وما كاد يستقرُّ في مجلِسه ، حتّى تعالى الحسيس (١) حواليه ، وتزاحمت الهمهَمة ، فتلفَّت في خُلسة فأبصر برفاقه يسدّدون إليه النظر وهم يتغامزون. ولم يَطُل به المقام حتّى أخذت عينه قادمًا من السّائلين لم يرَه من قبل ، وهو شيخ منتفخُ الجثّة ، مترهِّل الأكتاف ، ذو لحية شَمطاء ، يضعُ على رأسه عِمامةً خَضراء ، ويرتدي جُبَّة تكاثرت فيها الرِّقاع مختلِفة الألوان ، وتتدلّى على صدره سُبحة طويلة ذات حباتٍ غِلاظ . وجعل الشيخ يتهادى نحو « أبي المعاطي » ، فكلّما دنا منه لمعَتْ على وجهه سيماء الدَّهشة والحنَق . وما إن حاذاه حتّى أخذ يصوِّبُ فيه النَّظَر ويصعِّدُه ، واشتدَّت هَمهمة الرِّفاق ، وتقاربوا نحو القادم الشّيخ ، يحيّونه تحيَّة احترامٍ وتلطُّف . وسمع « أبو المعاطي » ذلك الشيخ يسأله :

« ما أتى بك إلى هنا ؟»

فأجابه : « أتيت أستريح بجوار بيت الله ، وضريح السّيدة الطّاهرة .»

« هذا مكاني ؛ فكيف ساغ لك أن تقتحِمَه ؟»

« الساحةُ فسيحة لمن يريد الجلوس .»

« قلت لك هذا مكاني ، فعليك أن تتنحّى عنه .»

فنظر إليه « أبو المعاطي » نظرة متفرِّس ، وقال في شيء من الازدراء :

« ومن أنت حتّى تطلُبَ إليَّ أن أتنحّى لك عن مكانٍ أجلِس فيه ؟»

« قلت لك هذا مكاني ، وقد اتّخذتُه لي مَثابةً منذُ خَمسة أعوام ؛ إذ ورِثته عن عمي ، فكيف ساغ لك أن تنتهِز فرصَة تغيُّبي لتحتلَّه دوني ، وكان عليك قبل أن تنضَمَّ إلى الرِّفاق أن تستأذنَني ؟»

« أ وَ حسبتني مستجديًا مثلكم ؟ إنّما أطلُب الرّاحة والتبرُّك بمجاورة الضريح المطهَّر .»

« خلِّ عنك هذا الهُراء ! لم يسبِق لأحد أن يأخُذ في هذه السّاحة مكانًا إلا إذا أجزتُه ، وَعيَّنتُ له مجلِسَه لا يَعدوه .»

فلم يُبدِ « أبو المعاطي » حَراكًا ، بل لَبِثَ يقلِّب فيه البَصَر ، فشعر بقَدَم الشّيخ تَرْكُلُه ، وهو يقول :

« قلت لك تَنحَّ ، وإلا فالعاقبةُ وبالٌ عليك !»

وفي هذه اللَّحظة برزَ منَ المسجِد رجلٌ ، فرمى بقطعَة من النُّقود في حِجر « أبي المعاطي » ومضى لطِيَّته ، فما كان من الشيخ إلا أن انقضَّ على القِطعة انقضاضَ الصَّقر ، ولم يشعر « أبو المعاطي » إلا وهو يَثِب على الشيخ ، ويشدُّ على يدِه ، وينتزِع قطعة النقود . وفي لمح البرق ألفى نفسَه مشتبكًا معه في عِراك عنيف . واستمرَّ الصدام وقتًا وهما يتواثبان ويتغالبان ، والرِّفاق حَلْقة حولَهما يتفرَّجون . وما زال « أبو المعاطي » يستشعر يَقظةَ السَّطوة تسري في أعضائه ، ونارَ الحَمِيَّة تتلظّى في قلبه ، وقد استحال كلُّه أعصابًا نافِرة ثائرة ، حتّى وجد نفسَه قد أخذ بخُنّاق الشّيخ وهو جاثمٌ على صدره ، يكيل له الضَّربات بِجُمْع يديه ؛ فتخاذل الشيخ ، ونَدَّت عنه صَيْحات الاستغاثة والاستنجاد ، فنظر « أبو المعاطي » وهو آخذ برقبة الشيخ إلى الرِّفاق حولَه بعين متنمِّرة ، و وجهٍ ينمُّ عن الافتراس والحيرة ؛ فتصاغَر الرِّفاق ، وتَداخَلَتْهُمُ الخَشية ، ولم يجرؤ أحدٌ منهم على أن ينتصِر للشّيخ العميد . فلمَح « أبو المعاطي » في هيئتهم معنى التهيُّب له ، والرَّهبة منه ، فارتَدَّ إلى فريسته يقلِّب فيها النَّظَر ، فاطمأنَّ إلى أن الشّيخ لم يَعُد بقادِرٍ على أن يُنازِلَه ، فتركَه مُلْقًى على الأرض ، وعاد إلى مكانه ، وجلَس فيه جِلسةَ التأمُّر والتنفُّخ ، وهو يسوي من ثِيابه ، ويمسح التُّراب عن وجهه . وبعد قليل نهضَ الشيخ

(١) الحسيس : الصَّوت الخفيّ .

كسير الخاطر ، مستكينَ النَّفس ، وانتبذَ ناحيةً قصيَّة يأمن فيها جانب ذلك الشَّيطان العنيد . وتنفَّس « أبو المعاطي » تنفُّسَ الارتياح ، وتلمَّس هِراوَته ، فقرَع بها الأرض في نَشْوة ، وقد بَرَقت على فمه ابتسامة خبيثة ، وأخذ يرمُق جمعَ الرِّفاق بعينٍ مِلؤها السَّيطرة والاستطالة . وتفرَّق الجمعُ في سُكون ، كلٌّ يسعى إلى رُكنه المختار .

وعجِب « أبو المعاطي » من نفسه : كيف استطاع أن يُذِلَّ هذا الطّاغية ، وأن يقهَر ذلك البُنيان الشّامخ ، وأن يجعَل رأسه في مواطئ الأقدام ؟ ولكنَّه تذكَّر أطرافَ حوادثَ وقعت له في الحقل : فمرةً كبَح جِماح ثَور أفلَت من مِحراثِه ، ومرَّةً أدار ساقِية ثقيلة بقوَّة عَضُدَيْه . واتَّسعَت ابتسامتُه ، حتّى أضاءت جوانبَ مُحَيّاه . ولم يطُل به المُقام حتّى أحسَّ قدمين تَدِبّانِ عن كثب منه ، فطأطأ رأسَه ، وقلَّص قسماتِ وجهه كالضّارعِ المتألِّم ، وتمتَم بألفاظٍ حبيسة ، فسقطت قطعة النُّقود في كفِّه ، فأودعها من فَوْره جيبه ، واستأنف تمتمته آمنًا .

وفي غَداة اليوم التّالي ، هبَّ « أبو المعاطي » من نومه مبكرًا ، وعَجِلَ إلى مكانه منَ المسجد . فما إن أشرف عليه من بعيد حتّى لاحت له العِمامة الخَضْراء تحتلُّ موضِعَه المكين ؛ فاندفع مهرولاً وقد شدَّ على هراوته . وإذْ قارب المكانَ وجدَ شيخَ أمسِ متمكِّنًا في جلسته ، تحيط به شِرْذِمَةٌ من أتباعه ، فاتَّجه « أبو المعاطي » إليه صامتًا ، وما شعر إلا أن امتدَّت يده في قساوة وغلظة تأخُذُ بتلابيب الشَّيخ ، وتُقصيه عن مكانه. ولكنَّه لم يكد يفعَل ، حتّى رأى الأتباع يتألَّبون عليه ، ويتقسَّمونه ضربًا وجيعًا ، ولكمًا شديدًا ، فأحسَّ ثِقَل الوطأة عليه ، وتوقَّع الهزيمة توشك أن تَحِلَّ به . ولَمَعَت في مخيِّلته حَسنات النقود وهي تنهَمِر على حجرِه ، وتمثَّلت لخياشيمه روائحُ الشِّواء يَطعَمُهُ شهيا ؛ فإذا الهِراوة تستيقِظ في يدِه غَضْبى . وفي خَطْفة البرق راح يخبِط بها في الجمع خَبْطَ عشواءَ ، مُشَمِّرًا في مُتابعة الضَّرب ذات اليمين وذات الشِّمال . فما هو إلا أن تَقوَّض الجمعُ عنه ، و ولَّوْا فِرارًا منه ، غير مصيخين إلى نِداء الشَّيخ واستغاثته . وتقدَّم قَزَم من الأتباع الَّذين لم يكن لهم في المعركة نصيب ، فتقرَّب من « أبي المعاطي » وتشبَّث بثيابه ، وهو يصيح :

« فَليحمِكَ الله . ليس للأمر إلا أنت . »

وهنا تعالت صَيْحات تؤيِّد قولَ القَزَم ، وأبصر « أبو المعاطي » الصائحين يتدانَون منه ، ويتلطَّفون به ، وينفُضون الغُبار عن جِلبابه . فعاد « أبو المعاطي » يتخطَّر في خُطُوات وئيدة إلى مكانه المعهود، واقتعده مزهوًّا منتفخ الصَّدر . فأمّا ذو العمامة الخَضراء ، فقد كان يرتدُّ إلى النّاحية القصيَّة الَّتي لاذ بها أمس ، وارتمى فيها متكوِّرًا ينكمش بعضُه في بعض .

وفي اليوم التالي ، تجلَّى « أبو المعاطي » قُبالَةَ المسجد ، وهو يضع على رأسه العمامة الخضراء الضخمة ، ويرتدي الجُبَّةَ المتكاثِرة الرِّقاع ، المختلفة الألوان ، وعلى صدرِه السُّبْحَةُ ذاتُ الحبّات المائة الغِلاظ ، وقدِ التفَّ حوله الأتباعُ يحيّونه تحيَّة التَّوَدُّد والإكبار ، ثم جعلَ يتهادى في مشيته ، حتّى وصل إلى مقعده الظَّليل ، فاطمأنَّ فيه .

وطاف برأس « الشيخ أبي المعاطي » طيفُ والدِه ، وهو يسائله عمّا فعلَ ، وعمّا ادَّخر من النُّقود ، فشعر بالهِراوَة تتحرَّك بين أنامِله ، فدَقَّ بها الأرض بضعَ دقّات ، وقد كشر عن أنيابه ، وانبعثَتْ من حَلقه قَهْقَهَةٌ شَيطانيَّة ساخِرة !

زَوْجٌ وَضَرَّتان

كان « عثمان أفندي » رجلاً وثيقَ الأركان ، أميلَ إلى البدانة ، مُحتقَنَ الوجه من أثر الشَّراب ، ولكنَّه حَسَنُ الصُّورةِ ، أنيقُ البِزَّة ، ذو شاربٍ مسنون . وعلى الرَّغم من أنه ذَرَّفَ (١) على السِّتّينَ ، فقد سَلِمتْ أساريره من عَبث السنين ، إلا ما تلمَحُه من تلك الرَّعْشة الَّتي تنتظِم يدَه حين يَمُدُّها إلى الكأس ، أو يشير بها للتَّحيَّة .

وقد أَلِفَ الناسُ أن يروا « عثمان أفندي » مُسلَّمَ الأوصال ، فلم يكن يدور في أخلادهم أنَّه يقع يومًا في إسار المرض ؛ فلا غَرْو أن تُسرع إليهمُ الدَّهشة حين ترامى إليهم أن الرجل أصابه الفالج (٢) بَغتةً ، وأنه نال منه أبلَغ مَنال ، حتّى لقد أشفى على هلاك وشيك ، وكأن الموتَ مطوِّف ببابه ، يهُمُّ بأن يطرقه .

عجِب الناس أشدَّ العجَب ممّا سمِعوا ، فإنَّه ليقرُّ في أذهانهم أنَّ الموت يُهادنُ أمثال ذلك الرَّجل المتين المهيب ، فكانوا إذا مرَّ أحدُهم بداره ، هَمهم قائلاً :

« الدَّوامُ لله ! »

كان « عثمان أفندي » يقيم مع زوجتيه في داره الَّتي يملِكها في حيِّ « السيدة زينب » . وقد رضِيتْ زوجتاه أن تَضُمَّهما دارٌ واحدة في طاعة ذلك السَّيِّد المهيمِن . ولم يكن أحد يرتاب في أن السَّعادة ضاربةٌ على الدّار رُواقها ، وأن أهلها يحيَوْن في أمن ونُعمى ، فبذلك كانت تجري أحاديث الخَلْق .

وإذا كان لكلِّ شيء آفة ، فإن الآفة الَّتي أصابت « عثمان أفندي » أنَّه لم يُرْزَق بالذرِّيَّة ، فظلَّ في الحياة فردًا .

وقد أنعم الله على الرَّجل بدخلٍ كريم سوَّغَ له أن يعيش مُرَفَّهًا طيِّب المأكل والمَشْرب .

ومهما يكن من صَلابة الرَّجل فيما يَرى ، وعِناده فيما يريد ، فقد طُبِع على سَخاوة الكَفِّ ، وكرَم البَذْل ، لا يألو جَهدًا في تنعيم زوجتيه وإقرار أعينهما بما تشتهيان من متاع .

وإحدى زوجتيه تُدعى « فتنة » ، قطعت في طريق الحياة نصف قرن ، واستأنفت السَّير لا يظهر عليها إعياء . وهي فارِعة القامة ، عَجفاء ، قوية العضَلات ، تستبين وُعورة أخلاقِها فيما تبعثُه عينُها من نظرات نفّاذة عنيفة ، وفيما يرتسِم على وجهِها من قسمات جَهْمة قاسية .

كانت في شبابها ذاتَ حظٍّ من مَلاحة ، لَبِقَةً بالتخطُّر والتثنّي ، بصيرةً بتصويب النَّظرات من جَفنٍ مكحول ، يدفعها المرَحُ إلى فنون من التدلُّل المطويِّ على إغراء .

فما كاد « عثمان أفندي » يتعرَّف إليها حتّى استجابت لها نفسُه ، وهفا فؤاده . وما هي إلا أن تمَّ بينهما زواج ، فوهبَته هي قلبها أجمع ، وفَنِيَتْ في حبه ؛ فنَعِمَ في صُحبتها بعيش صفاء وهناء .

بَيْدَ أنَّ الدَّهر – كما يقولون – قُلَّب ، لا تدوم له حال ؛ فبعد أن اشتفَّ (٣) « عثمان أفندي » عُصارة الحسن من « فتنة » ، واستمتع بما لها من شباب غضٍّ ، لَوى رأسه عنها حين أحسَّ أنَّها تخطَّت عصرَ التفتُّح والازدهار ، ولم يبقَ لديها ما تمنحُ من عِطر الزَّهرة الفوّاح ، ونضرتها البهيجة .

مضى « عثمان أفندي » يتطلَّع إلى زهرة جديدة ، فوقَّع اختياره على « بهية » ، وهي فتاة في ريِّق (٤) الشَّباب ، وربيع الحُسن ، فتزوَّجها وحملها إلى داره ، ولكنَّه أبقى مكانَة الصَّدْر لزوجه الأولى .

---

(١) ذرَّف : زادَ .   (٢) الفالج : الشلل النصفي .

(٣) اشتف : امتص .   (٤) ريِّق الشباب : عنفوانه .

ولكن ما نَفْعُ « فتنة » بأن تكون صدر الدّار ، وأن يكون لها المقام الأول ، وهي تحس بأنها شوركت في رجُلها ، وفقَدت قلبه ، بعد أن أفنت أكرَم عمرها وفاءً لزوج لم يُؤْثِرِ الوفاء !

ولقد راب « فتنة » من جديد أمرها — أنَّها قد استشعرت عاطفة غريبة لا تفتأ تنمو ، وإنها لتزدادُ على الأيام من تَضَرُّمٍ واتِّقاد . أ هي عاطفة ذلك الحبُّ الأصيل يريد أن يظلَّ المالكَ المسيطر ؟ أم هي عاطفة حقد مكين ينزِع إلى التشفّي والقِصاص ؟ أم هي مِزاجٌ من عاطفتين متناقضتينِ من مَقت وتعلُّق ، اتَّخَذَ من سريرة « فتنة » مسرحًا للتقاتل والصِّراع ؟

لم تلبث « فتنة » حين شوركت في رجُلها أن بدأت في الحياة عهداً جديداً لم يكن لها به عهد — عهداً تقاسي فيه ذلك الشُّعور الثّائر الحائر الَّذي لا يفتُرُ عنها في صحو ، ولا يُشفِق عليها في أحلام .

إن « فتنة » لتذكُر أنَّها لَمّا آنَسَتْ نُذُرَ هذه العاصفة ، وفَطِنت إلى أن قلب زوجها أخذَ يَشْرَه [١] إلى شيء جديد ، لم تدَّخِر وُسْعًا في سبيل الاحتفاظ بذلك الزوج ، وثَنيه عن عزمه ، فابتغت كلَّ الوسائل من رعاية وتَحنُّن تارة ، ومن توعُّد وتهدُّد تارة أخرى ، فما أجدَتْ وسائلها في التَّأثير . وكيف لها أن تطمَع في إذعان « عثمان أفندي » لإرادتها ، وهي الَّتي ما إن يقَعْ بصرُها على شاربه المسنون يتراقص ثائراً على شفتيه ، كما يتراقص شارب الأسد إذا تهيأ للوثب والانقضاض ، حتى ترى نفسها قد عاجَلَتْها استكانة واستسلام ؟

وأكبر ما آلم « فتنة » وأوغر صدرَها أنَّ زوجها لم يكتفِ باتِّخاذ ضَرَّة لها ، وإنَّما أضاف إلى ذلك أنَّه أسكن تلك العدوَّة معها ، يُظِلُّهما سقفٌ واحد ، غير متورِّع عما يلحَقُها في ذلك من بالغ الأذى .

أمّا الرجُل فإنَّه في الحقِّ ما تعمَّد زوجَه الأولى بإهانة ، ولا رضيَ لها المذلَّة ، ولا أحسَّ بأنَّه يَأثَم في هذا الصَّنيع ، وإنَّما كان عميقَ الإيمان بأن الجمع بين الزوجتين أمرٌ لا تأباه سنَّة الحياة ، ولا تنكِره شريعة الله .

وما له يجشِّم طاقَته فتحَ بيتين ، ويَقْسِم نفسه في مكانين ؟ إن زوجتيه كلتيهما بعضُ أسرته ، ومن خير الأسرة أن تكون في كَنَف عائلها مجتمعة ، وبِظِلِّه محتمِية .

وما لزوجه الأولى تَجحَد جميلَه فيما اتَّخذ من خُطَّة ، ولا تُقِرُّ بفضله فيما آثَرَ من عمل ؟ لقد كان في مُكْنته أن يُلقيَ عليها كلمة الطَّلاق ، وأن يَفسَحَ البيتَ كلَّه لزوجه الجديدة ، لا يُشْرِكُها فيه شريكٌ ، ولكنَّه استنكف أن يفعل ذلك ؛ وفاءً لماضيها معه ، وعِرفانًا لحقِّها عليه . وأبت نفسه إلا أن يوفِّر لها الكرامة ، ويقرَّ لها بالصَّدارة ؛ فأبقى عليها سيدةَ بيته الأولى .

وما كان لشيء ألا يَتِمَّ وَفْق إرادة « عثمان أفندي » ، فقد ائتلفت أسرته الصَّغيرة تحت جناحه ، وجَرتِ الأمورُ في أعنَّتها كما يهوى ، ورفرف الأمنُ والسَّلام على بيت الرَّجل ، حتّى تناقَل النّاس حديثَ تلك الأسرة ، الَّتي تُعَدُّ طرازاً فريداً للصَّفاء والرِّفاء [٢] .

توخَّت « فتنة » في العَيش مسلَكًا حميداً لم ترَ عنه مَحيداً ، ذلك هو إحسان المعامَلة لضَرَّتها « بهية » . وقد أعانها على ذلك أن « بهية » كانت فتاة خاملة النَّفْس ، خَوّارة العَزْم ، أجنَح ما تكون إلى السَّكينة ، أجفَى ما تكون للنِّزاع . وكانت أعصابها مُتراخية ، وبنيتها متداعية ، على الرَّغم مما تكتسي به من سَمانة وامتلاء .

اطمأنت « بهيَّة » بما لها من مكانة ، في قلب الزَّوج ، وآنسَتْ أنَّها مَطمح عينيه ، ومَألَف روحه ،

(١) يشره : يطمح بشدة .

(٢) الرِّفاء : الاتفاق .

فماذا وراء ذلك يدفعها إلى التّطلّع ؟ إنها لتنزل طيّبةَ الخاطر عن إدارة البيت ، ورعاية شئونه ، للزّوجة الأولى « فتنة » ، وفي ذلك إعفاء لها من مشقّة العمل ، وكُلْفة التّدبير ؛ فتفرغ بنفسِها لقلب زوجها ، تُفيءُ عليه المتعة والإيناس .

ولعلّ « فتنة » كانت تحاول أن تتناسى ذلك المثل السائر :

لا جديد تحتَ الشّمس !

والتاريخ يعيد نفسَه !

أ ليس الّذي حدث اليوم إنما هو تكرارٌ لما حدَث معها بالأمس ؟

بدأ « عثمان أفندي » حياتَه زوجًا لامرأة ، لم يكد شبابُها يولّي حتّى وقع بصرُه على « فتنة » في صِباها النّضِر ، فهام بها ، وأضافها زوجًا ثانية ، فأذعنَتْ تلك الزّوجة الأولى لِما كان ، كما تُذعِن « فتنة » الآن . ولكنّ تلك الزّوجة الأولى عاجلَتها المنيّة ، فانتشلتها من جحيم الغيرة الخرْساء ، وخلا « لفتنة » وجهُ الطريق .

لا تستطيعُ « فتنة » أن تنسى تلك المأساة . وكلّما ساءلت نفسها :

أ يكون لها مثلُ ذلك المصير المشئوم ؟

أحسّتْ وَقْدَةَ (١) الحمّى في دَمها ؛ من أين لها أن تُطيق ترادُفَ الأيّام ، تَسقيها ذلك السّمَّ الكريه قطرات ؟

لَبِثتْ تفكّر ، وما فتِئَت تفكّر ، دون أن تهتديَ إلى ما يريح فؤادَها من ذلك العذاب ، ولكنّها ملَكت أن تكبِتَ شعورَها بما أُوتيت من صلابة الطّبع . وجرت قافلة البيتِ في جوٍّ ظاهرُه الهدوء ، فأيقن « عثمان أفندي » وهو يطوي أيامه بين زوجتيه ، أنه قد فرَغ من مشكلة الضّرّتين ، وانتصر برجولته على تلك الصّغائر التي تثيرها غيرة النساء .

وكان عزيزًا على « عثمان أفندي » ، وهو المؤمنُ بسَطْوَته ، المعتزّ بهيمنَته ، أن يشقّ بالنّظر النافذ ذلك السّطح الناعم الأملَس الّذي يغشى بيته ، ليَستَجْلِيَ تلك التيّارات المتدافعة تعلو وتهبط لا يَقِرُّ لها قرار ، فحسْبُه ما يراه حولَه من شيوع الأمن واستتباب النّظام .

لم يُعْنَ الرّجل بما كان من ذلك الانقلاب السّلْميّ الّذي لحق بزوجه « فتنة » — ذلك الانقلاب الّذي جعل من تلك المِمْراح الطّروب امرأة رزينة رَكينة صَمُوتًا صارِمة القسَمات .

لقد هَزِلَ وجهُها ، فازداد طولاً ، وضَمَرَ عودها فتقوّس ظهرُها ، وأصبحت تمشي مَحنيّةً ، كأن برِجلِها قيدًا .

لقد انطوت على نفسِها تحتضن حِقدها الواغل ، وتتعهّده بالرّعاية والصّون ، كأنّها تخشى عليه أن يذهب هَباءً .

لقد آثرتْ أن تحيا في توحّد وانفراد ، بجوار نافِذة حجرَتها المطلّة على الطريق . فهي تلبَث السّاعة بعد السّاعة مُدْلِيَة بأنظارها في سُهوم ؛ وما كان بصرُها في الحقّ يقيّد شيئًا مما تراه العيون ؛ فإن عينيها كانتا مصروفَتين إلى تصفّح مشاهدَ أخرى من حياة ضَرّتِها الأثيرة عند الزّوج ، وما تَجِده تلك الضَّرّة الرّخوة المِكسال من حُظْوَة وقَبول .

وما كانت « فتنة » تقنَع بما تعيه ذاكرتُها من حقائق تلك المشاهد في حياة البيت — تلك المشاهد الّتي كانت تتراءى فيها « بهية » مكرّمة منعّمة . وإنّما كانت « فتنة » تستعين الوَهْمَ والخيال ، فتبتَدِعُ الأحداث ، وتؤلّف الصّورَ . وكلّما أوغلت في التوهّم والتخيُّل لجّتْ بها الرّغبة ، واشتدّ الظّمأ ، كأنّما هي النّار ، إذا ما زيدت وَقودًا ازدادت من تسعُّر واضطرام .

لقد كان يَلَذُّ « لفتنة » أن ترقُب « بهية » في دقائقِ حياتها ، وما لها من غَدَوات ورَوْحات ، فما كان

---

(١) وَقْدة : شدة .

يغيب عن ملاحظتها شيء مما تَفعَل ، ولا سيَّما حين يَقْدَم الزوج في مواعيد أوبَته إلى البيت ، واستقراره فيه ؛ إذ كانت « بهية » تأخذُ زينتها ما وسعها أن تأخُذ ، ولا تفتأ دانية من الباب ، تأهبًا للاستقبال ، تُلقي السَّمع إلى خَفْق أقدام السَّابلة في يَقظة وتنبه ، فإذا رنَّتْ خُطا الزَّوج المنتظَر – تلك الخطا الثابتة المصحوبة بقرع العَصا ذات المَقْبِض العاجيّ ، شوهدَت « بهية » قد تورَّد مُحيّاها ، وافترَّ ثَغْرُها ، وأمسكَت بمصراع الباب تفتَحُه للقادم الحبيب ، فما تكاد عين الرجل تقَع عليها ، حتى يتهلَّل ويتطلَّق ، ولا يُعتِّم أن يتلقى « بهية » بين ذراعيه ، وما هي إلا أن تغشاهما موجةٌ من المداعبات والمفاكهات وفضول الأحاديث .

ذلك كلُّه كانت تحرِص « فتنة » على أن تراه من خَصاص الباب ، وأنفاسُها تتواثَب ، وأوصالها تنتَفِض ، على حين تستمرئ تلكَ النَّشوة الغريبة – نشوة إمداد حقدها الكمين بأسباب الغِذاء والنَّماء .

وكم من مَشاهدَ على هذا الغِرار ، أبت « فتنة » إلا أن تستمتع بمرآها ، لتذكِّيَ بها ما بين جنبيها من بَغضاء .

وكان اللَّيل يَفِد على « فتنة » أقسى ما يكون هما و وَيلاً – ذلك اللَّيل الَّذي هو ملاذ المُحِبِّين ، ومَثابة المتعة والإيناس . إن « فتنة » لتقضيه ساهِدَة يقْظى ، يتلذَّع فؤادها على مثل الجمر ، لا يرحمها القلقُ لحظة ، فهي حَيرى ، تارةً تَذْرَع حجرتَها في اهتياج ، وتارةً تَخِفُّ إلى باب حجرة زوجها تتسمَّع وتترقب . وكانت تجيش بين أحنائها رغبةٌ جامحة مِلحاح ، هي أن تقتحم الباب ، فتنتزعَ تلك المرأة الرَّخوة المِكسال من بين أحضان الزَّوج ، ثم تَسقُط عليه فتطوِّقه بذراعيها العنيفتين ، وتُنحي عليه تقبيلاً كأنه نَهْش الأفاعي ، حتى لا تُبقيَ فيه على أثارةٍ من أنفاس .

تلك هي دخيلة ما كان يجري في بيت « عثمان أفندي » – بيته الهادئ الوادع الَّذي يحتوي أسرة يَحْسَب النَّاس أنَّها تَخفِق عليها راية الأمان ، وتَشيع بينها علائم المودَّة والصَّفاء .

وحان اليومُ الذي حُملَ فيه « عثمان أفندي » إلى البيت ، وقد ضربه الفالج ، فأصبح نصفَ حيٍّ أو نصف ميِّت ، بل إنه لميتٌ حقا ، ولكنَّ الحياة نَسِيَتْ في بعض أوصاله نُفاية من نُفاياتها ستزول عمّا قليل .

وفي تلك الفترة شرعت المأساة الكامنة في البيت ترفع عن وجهها النقاب .

لم تكد « فتنة » ترى ما حل بالزَّوج ، حتّى سيطرَتْ في لحظة على كل شيء في الدّار ، باذلةً ما في الوُسْع من عزم وحَزْم ، فملَكت الموقفَ ، وشدَّتِ الزِّمام .

كان مَثلُها في ذلك مَثَلَ القائد الألمعيِّ الَّذي لا يكاد يأنَس اقترابَ نهاية الطَّاغية في أمَّة ، وانفلاتَ الأمر من يديه ، حتّى يبادرَ بإقامة نفسه مَقام هذا الطَّاغية ، يدبِّر الأمر ، ويَقمَع الفوضى ، ويضرِب على أيدي العُصاة .

سَرعان ما ألفينا « فتنة » تُسْدِل ستارةً غليظة بين البيت وما وراءه من العالم الخارجيِّ ، حتّى إنَّ « بهية » لم تكد تُفيق من ذُهولها حتّى وجدت « فتنة » قد حملَت الزَّوج إلى حجرتها ، فاختصَّت به ، وتولَّت رَعْيَه وتعهُّدَه ، و وقفت دون بابه تمنعُ الوصول إليه .

وشَدَّ ما تطلَّعت « بهية » إلى أن تتفقَّد الزَّوج ، أو أن تسأل عنه ، أو أن تتعرَّف ما طرأ من شأنه ، فإذا بـ « فتنة » تَفجؤها بردٍّ حاسم مقتضَب ، وقد انعقدت على جبينها أساريرُ صارمةٌ ، فلا تجد « بهية » مَفيضًا إلى كلام ، ولا تلبث أن تتراجع مخذولة مقهورة ، لا طاقة لها إلا بعين تدمع ، ولسان يَلهَجُ بالضَّراعة والغَوث .

فأمّا الزَّوج فكان فاقدَ النُّطق ، فاقد الحَراك ، وقد

استحال في لحظةٍ من طَوْدٍ شامخٍ يهتزُّ فيزلزِل الأرض تحت قدميه ، إلى حُطام ورُفات .

هذا الإنسان العتيُّ الجبّار الّذي كان يمشي فتحفُّ به العيون ، إكباراً له ، وإعجاباً به ، لقد صار الآن في مَضْجَعِه كومةً من لحم وعَظْم ، لا سِمةَ عليها من مهابة الحياة .

لم يبقَ له من أسباب الاتّصال بالعالم الخارجيِّ إلا بصرٌ يَبْرَق (١) ، وسمْعٌ يتلقّط .

وأيُّ بصر ؟ إن هو إلا نظرات كابية زائغة ، كلّما اجتهد أن يتّخذَها للتعبير عمّا يجيش في نفسه ، خانَته ولم تكن له عَوْناً .

وأيُّ سمع ؟ إن هو إلا سمعٌ ثَقيل مضطرِب ، لا يُنيله إلا أطرافَ الحديث منقوصةً تَزيده من حيرة وقلَق .

فأمّا كل ما أبقته له الكارثة من قدرة وسلطان ، فهو تلك الحشرجة المحتبسة الّتي يصعّدها بين حين وحين ، حاملةً إلى عالم الأحياء رسالة الآلام والحسرات .

تَوقّد نشاط « فتنة » وحَمِيَّتها في خدمة البَيْت ، فاستخفى ذلك الشَّبَحُ الرّكين الصّموت المتقوّس الظَّهر، الّذي كان يجرجِر خُطاه ، وظهر مكانَه ماردٌ فارِعُ القامة ، جبّار الخطوة ، سريعُ التنقّل ، يقلِّب حَواليه أنظارَ صَقْر مفترِس .

أقبلَت « فتنة » غَداةَ الكارثة على حُجرتِها ، حيثُ اعتقلَت زوجَها ، فجلَست عن كثب منه ، وشاع بينهما الصّمت هُنيهة . وكان الرّجل يبذُل جهدَه محدّقاً في وجه « فتنة » ، كأنّه يحاول أن يكتَنِهَ ما يُحيط به من مظاهر ، وأن يستجليَ ما تُكِنُّه سريرةُ تلك الزّوجة من مشاعر .

وكانت تبدو على غُضون وجهِه مَهانة الضّراعة ، وذِلّةُ السّؤال . وكلّما أمعن في التّحديق والتطلُّع إلى « فتنة » تشاغَلَتْ عنه ، وأشاحتْ بوجهِها دونه ، فلا يملِك إلا تَرجيعَ الأنين .

وبعدَ لأيٍ نطقَتِ المرأة تقول :

« ربَّما عَجِبْتَ : كيف لم نُحضِر لك الطبيب ؟ »

وتخايلت على فمها ابتسامةٌ نكراء ، و واصلت قولها :

« وما نَفعُ الطبيب ، يا سيدَ الرِّجال ؟ إنه لا يؤخّر الأجل عن موعده ، داؤك واضح ، وأنا عارِفة به . أصيبتْ به أمّي فلم يُمهِلْها أكثرَ من يومين — يومين اثنين ! »

واختلجت عينُ الرَّجل ، وتشنّج شدْقاه ، وتابعت المرأةُ قولها كأنّها تتحدّث إليه حديثاً مألوفاً لا غُبار عليه:

« وفيمَ العَجب ؟ كلّنا إلى الموت نصير . لقد تَبيَّن لي أن حالَتك كحالة أمّي سواء بسواء ، وإن إخلاصي لك ليدعوني أن أصارِحَك بهذه الحقيقة ، حتّى تتأهّب لتلقى وجهَ الله . »

وصمتت « فتنة » وقد تلهّب في عينيها وميض ساطع ، ثم همهمت تقول :

« ولكن لست أدري بأيِّ وجهٍ تَلقى الله ، وقد أسلَفْتَ في دنياك هذه المخازيَ الّتي يتورّع عنها الأبالسَة والشّياطين ؟ كنتَ تَحْسَب أنّك قادر على أمرك إلى الأبد ، وأنَّ الدُّنيا تَدين لك على الدّوام ، فَظَلِلتَ تُصَعِّد وتُصعِّد ، وتُدْلي إلى مَن هم دونَك نظراتِ إصغار وإزراء . حقا ما أعظَم المرضَ من قاهر ! وما أقوى الموتَ من مُذِلٍّ ! ما برِحتَ في مُهلة من عمْرِك للتّوبة والاستغفار ؛ تطهيراً لنفسِك ، واستدراكاً لأمرك ! ولكن لا تحسبنَّ أن الموت ممهِلُك أكثرَ من يومين ، مضى منهما بعضُ وقت . إن أمي حلَّت بها مثلُ كارثتك ، في مثل الوقت الّذي حلَّت بك فيه ،

---

(١) يبرق : يزيغ ويدهش .

وقد ماتت في مَبرَق الصُّبح ، وستموت أنت في هذه السّاعة عينِها لا محالة .»

فندّت من صدرِ المريض زفرةٌ مرتعشة ، وغارت في وجهه الأخاديد ، وعالج أن يُحِدَّ من بصَره الكابي ، فترجّحَتْ حدَقتاه ، كأنّه في اضطرابه وحَيرته ، يتساءل :

أ يقْظان هو يرى ويسمع ، أم نائم تَتيه به الأحلام ؟ هذه « فتنة » قُبالَته تحدِّثه ، أم ذلك شيطان تشكّل له في صورتها وزيِّها ، وجَعل يَروعه بالمنكر من القول ؟

وفطِنتِ المرأة إلى خَوالجه ، فرفَعت من صَوتها ، وهي تتدانى إليه قائلة :

« كل ما تسمَعه وما تراه حقٌّ لا مَسحة للخيال فيه . إن زوجتك «« فتنة »» بلحمها وعَظمها هي الّتي تتحدّث إليك . إنّها امرأتك الوفيّة المخلِصة الّتي صدقَتْ في حبِّها إيّاك ، و وَهَبَتْكَ حياتها جمعاء ، فكافأْتَها بأشنعِ الجُحود وأقبحِ الجزاء ! لقد أشركْتَ بها فَتاةً حمقاء غريرة ، ليس فيها ما يُغري القلبَ أو يسرّ النّاظِر . لا يتبادَرْ إلى ذهنك أنّي غَيور ؛ وهل أحفِل بتلك الحشَرة الممقوتة فأحسُبَ لها أيَّ حِساب ؟ ماذا بها من مَيزة تَبْعث غيرتي ؟ إنّها عاطِل من كل شيء . شدَّ ما سَقُم ذوقُك ! لو كنْتَ اصطفيتَ لك زوجة ذاتَ حُسن باهِر أو سليلة بيت ماجد ، لالتمسنا لك المعاذير ، ولكنّك لم تظفر إلا بفُضالة (١) مما تلفظ الأزقّة والحارات ، فرفعتها بغفلَتِك إلى صفوف الزّوجات الكرائم . على نفسك جنيتَ ، وعليها أيضًا كنتَ جانيًا !»

وكان « عثمان أفندي » في مَرقده ، تزداد غضون وجهه ، واختلاجات عينيه ، على حينَ استأنفتِ المرأة تقول في صوت أبحّ ، كأنّه فحيح الأفاعي :

« أنصَح لك أن تهدّئ من ثائرتك ، وأن تهوّن على نفسك . لا يجدي عليك الحَنَقُ فَتيلاً ، لا يطيل من أجلك كثيرًا أو قليلاً ، بل لعلّه يسرع بك إلى المصير المقسوم ، والقضاءِ المحتوم . ولو مِتَّ قبلَ الموعدِ المضروب لأفسدتَ عليَّ التّدبير ، ولزجَجْتَ بي في حَرَج وضيق . لقد رتّبتُ أموري على أنّك مُسلِمٌ روحَك مع الفَجر ، فأوصيتُ باحتفار قبرٍ جديد لم يطأْه جُثمان ، وسنُقيم لك على القَبر بناء من المرمر المصقول. فأمّا الجنازة فقد هيَّأتُ لها نظامًا سيكون غاية في الرَّوعة ؛ إنّي امرأة تعرِف الواجبَ للعَشير ، وإنْ أنكرَ هو ما كان واجبًا عليه . إن كان لي عيبٌ فهو الإحسان لمن أساء إليَّ . وعلى الرَّغم من كلِّ هذا أُراك ممعنًا في طَيْشك ، أراك تُغمِض من عينيك ، كأنّك تأبى الاستماعَ لما أقول ، ولكنّك تنسى أنك لا تسمَع بعينيكَ ، فإنَّ لك أذنينِ ضخمتين تلتقِطان أخفى الهمسات .»

واندفعَتْ كالسَّيل تُتِمُّ قولها ، والرَّجل مطبق أجفانه ، يتجرَّع تلك السُّموم الّتي تَنفثها تلك المرأة جُمَلاً وكلمات .

وما زالتِ المرأة تقول ، حتى بُحَّ صوتُها ، وجَفَّ حَلْقها ، فَنَهَضت إلى القُلّة تكرَع منها ، ثم رجَعت بها إلى الرَّجل ، و وضَعت حافَتها على شفتيه ، فما إن أحسَّ نداوة الفَخّار حتى انفرجت شفتاه ، وهو على حاله مُغمِض العين ، فصبَّتِ المرأة في فمِه جُرعات قلائل ، وهي تُعينه على أن يُسيغَها في غير عناء . وكانت تردِّد :

« لا تظنّنّي أسيء معامَلتك ، وأنتَ في هذه الحالة . سأقيم على خِدْمتك حتّى الرَّمَق الأخير ، أعني حتى مطلَع الفجر !»

وانصرفَتْ عن الحجرة وقتًا ، ثم قفَلت إليها تحمِل صَحفة فيها حَساء ، فقرَّبَتْها من الرَّجل ، وانحنَت عليه تسقيه بالمِلعقة في رعاية ، كأنّها تُطعِم طفلاً قريب عهد

---

(١) الفضالة : البقية من الشيء .

بالفطام .

ولَمّا فرَغتْ من إشرابه الحَساء ، أقبلَت عليه تمسح فمه ، وتُعنى بترجيل شعَره ، وتنظيم فراشه ، ثم همهمت تقول :

« لَعمري إن موتَك لَيشقُّ عليَّ ! مهما يكن من أمر، فما أقسى ساعةَ الوَداع بين اثنين جمعت بينهما المعاشرة جنبًا إلى جنب ، فترة من الزّمن ! »

كذلك كان شأن « فتنة » مع « عثمان أفندي » وهو طريح سريره ، أسيرُ عِلّته . أمّا شأنها مع « بهية » فقد دخلَت عليها في حجرتها ، وأبلغتها في صرامة ألا تبرَحَ الحجْرة ، وألا تَصْدُرَ منها نأمَة (١) أو صيْحة ، وإلا كانت العُقبى أوخمَ ما تكون .

ثم ألقت عليها نَظْرة ذابت من حرارتها أعصاب « بهية » فلمْ تملِك ردًّا . وما هي إلا أن غادَرت « فتنة » حجرة ضَرَّتها ، وأحكَمت إغلاق بابِها بالمِفتاح .

ولبِثت « بهية » في الحجرة طول النَّهار ، حبيسةً ، موزَّعة الخواطر ، تُشرِّدها الهواجسُ كلَّ مُشرَّد ، ولكنَّها لم تجِد سبيلاً إلى غير الطَّوع والإذعان .

لَبِثتْ في مَحْبِسِها تلك السّاعات الطّوال تُرهِف السَّمع ، فلا يتناهى إلى أذنها إلا خَفْق أقدام « فتنة » يحمِل إليها الرَّهبة والفزَع . ومتى انقطَع خَفْقُ هذه الأقدام رزح في الحجرة صمتٌ ثقيل يُخمِد الأنفاس .

وما كاد ضوءُ الأصيل ينهزِم في معركَة اللَّيل المقتحِم ، حتّى ضاقت « بهية » ذَرْعًا بما تَجِد من ظُلمة وإيحاش ، واستشعرتْ ثورَةً مباغتة ؛ فشرَعتْ تطرُق الباب في إصرار . فما هي إلا أن قَدِمت « فتنة » فدخَلت منَ الباب كالإعصار ، و وقفت قُبالَتَها تردِّد في صوت مختنق :

« ما هذه الجِنَّة ؟ ألا تُشفقين على المريض ؟ »

وألقت على « بهية » نظرات سِراعًا ، ففطِنت إلى أنّها تتحيَّل للهرَب والانفلات ؛ فأمسكتْ بها تنهال عليها لَطمًا ولكمًا ، حتى أوشكت أن تسلُبَها الحياة .

ثم وقفت تنظُر إلى « بهية » وهي مصروعة تحت قدميها ، كما تنظر النَّمِرة الضّارية إلى فريستِها بين المخالب ، وانبرت تقول :

« يظهر أن الله قد كتب عليَّ الشّقاء في دنيايَ ؛ حتّى لقد أراد لي في آخرة عمري أن أتولّى تهذيب أمثالك من حُثالة الأشرار والأوغاد . أ عليَّ اليوم أن أصلح منك ما أفسدَتْه السِّنون ؟ لا بأس ! إني حَمولٌ صبورٌ ، وسأضْطَلع بهذه المهمَّة ، لا آلو جَهدًا . »

وخرجت « فتنة » منَ الحجرة ، فأحكَمت إغلاق بابها كما كان .

وجَنَّ اللَّيل يضرِب رِواقَه على هذه الدّار ، حامِلاً في تضاعيفه ثِقال الهموم وعَظائم الأسرار .

وأبت « فتنة » أن تضيء في حُجُرات الدّار أيَّ مِصباح ، فلم يَخدِش حِنْدِسَ (٢) اللَّيل فيها إلا فُلولٌ مهزولة من أضواء الطَّريق . وازدادت الظُّلمة وَحْشة ورَهبة بما ران عليها من صمت عَميم .

ولذَّ « لفتنة » أن تجوسَ خِلال الدّار ، تخترِق ذلك السِّجْفَ (٣) المتكاثِف من الصَّمت والظّلام ، كأنَّها شيطانٌ مَريد يُهيمِن في كهفه على روحين سجينين .

وأخيراً شاءت إرادة « فتنة » أنْ توقِد شَمعة على رأس زوجها المريض ، زاعِمةً له أنَّها تريد إمتاعه ببصيصٍ منَ النّور ، قبل أن يُحرَمَ في مطلَع الفَجر نورَ الحياة ، ليستقبِل إلى الأبد ظُلْمة القَبر .

وعلى الرُّغم من ذلك السُّكون المطبق ، كان كلُّ شيء في كهف الشَّيْطان يُشعر بتيَّارٍ خَفيٍّ من اليقظَة والانتباه .

(١) نأمة : صوت خفي .

(٢) حِنْدس : ظلمة . (٣) السجف : الستر .

يا لَهذا اللَّيل العجيب في ذلك الكَهف الأسود !

لم يعدْ ليلَ نومٍ وراحة وسكون ، ولم يعد مَثابةَ اطِّراحٍ للهُموم ، ونِسيان للمتاعب .

إنه الساعةَ ليلٌ تحوم في جوانبه الذِّكريات الأليمة ، كأنَّها الخفافيش تَدِفُّ [1] بأجنحتها مذعورة غَضْبَى .

وما زالت تلك الخفافيش تتنقَّل في حُجُرات الدّار، حتّى بلغت مأوَى « بهية » في ركن من أركان المحبس ، فما إن أحدقتْ بها تضرب رأسها في شدَّة ، حتى هَبَّتْ « بهية » تطلق من حلقها صرخة مكروبة ، تتبعها صرخات ، لا تدري أ هي تأوُّهٌ وتوجُّع ، أم استغاثة وتضرُّع ؟

واندفعت في بكاء وإعوال ، فبلغ عويلها سمعَ عابر سبيل ، فوقف يتطلع إلى نوافذ الدار هنيهة ، ثم تنهد ، ومضى في طريقه يردِّد :

« الدَّوام لله يا ‹‹ عثمان أفندي ›› ! »

وأقبلَتْ « فتنة » على حُجرة « بهية » مُهتاجة مُحنَقة ، فما إن لمحت « بهية » شبحَها ، حتّى هَجَمت عليها هجمةَ مستبسِل مُستَيئس ، وما أسرَع أن التحَم الخَصمان ، ولجَّ بهما التَّطاعن والتقاتُل في صَمت لا يقطعه إلا هرير الأنفاس .

وانجلَتِ المعركة عن « بهية » مُوثَقةً مُكَمَّمة الفمِ ، مُلقاةً على الأرض تتلوّى في جَهد وإعياء ، وأمّا « فتنة» فواقفة مجنَّحة الذِّراعين ، يتفصَّد وجهُها عرقًا . وبعد قليلٍ شرَعت تقول متلاحِقة الأنفاس :

« لعنكِ اللهُ من شَيطان في ثوبِ إنسان ! شَدَّ ما كنتُ مخدوعةً بك ! وحقا لقَد استطعتِ أنت في هذه الفَترة الماضية أن تخفي عنّا ما انطوَت عليه نفسُكِ من أذيَّة وشرٍّ ! ما كان أمهرَكِ في الظُّهور بمظهَر المسالم الوديع، ولكنْ ها قد بَرِح الخفاء ، وانكشَف الغطاء ، فلم يكن بدٌّ من أن آخذَكِ بالشِّدَّة . ولستُ ألامُ على ما أفعل ؛ فالشرُّ لا يُحسَمُ إلا بشرٍّ . »

وتركت « فتنة » الحجرة ، واستعادت الدّارُ ما كان فيها من وحشةَ الصَّمت الثَّقيل ، واستأنفت خَفافيش الذِّكريات سَعيها في جَوانب الدّار ، تضرِب الرُّءوس بأجنحتَها الشِّداد .

وكان اللَّيل يسري ، يحسُّ السجينان — « عثمان أفندي » و « بهية » — سُراهُ [2] بطيئًا بطيئًا ، كأنَّ دَقائق الوقت تئودُها [3] القُيودُ والأصْفادُ ، بل إنَّهما لَيشعُران بأنَّ الزَّمن يدرِكُه الإعياء ، فيقِف بين الحين والحين جامداً فاقدَ الحَراك ، على حينِ تشعر « فتنة » بأنَّ الوقتَ يمضي قُدُمًا كأنَّما يقطَع مراحلَ اللَّيل وَثْبًا ، فتعجَب لسُرعَته ، وتخشى أن يفوتها تحقيق ما اعتزمَت من أمْرٍ ، في مطلع الفَجْر ، في تِلك السّاعة المرهوبة الَّتي تراها مَفْصِلاً بينَ حياة وموت .

ذلك كان شعور أهلِ الدّار نحوَ الزَّمن في سَيره ، والزَّمن منطلِقٌ لِطيَّته ، يُلقي على هذا الكهْف العجيب ظِلالَ ابتسامته الخالدة ، تحمِل في تضاعيفِها السُّخْرية والاستهزاء .

وكان المريضُ قد أخذَتْه سِنَةٌ منَ النَّوم ، فأنبهته حركةٌ طارئة ، فاجتهد على بصيصِ الشَّمعة المتخاذِل أن يتبيَّن ما طرأ ، فطالَعه مشْهد انخلَع له جَنانه ؛ إذ رأى « فتنة » تدخُل الحُجرة وهي تجرجِرُ جُسمانًا موثقًا يَندُّ عنه أنينٌ خافت ، وما لبِثَت أن ألقتْ بالجُسمان على مَقعد قُبالةَ مرقَدِ المريض .

وعالَج « عثمان أفندي » أنْ يُحدَّ بصره ، حتّى لكأنَّ حَدَقَتَيْه تَهُمّان بالانفكاك عن مَحْجرَيْهما ، ثم شقَّ عليه ما يرى ، فما عتَّم أن أطبقَ جَفنيه من جَزَعٍ .

و وَقفت « فتنة » وسَط الحُجرة ، وقد وضَعت يَديْها في خَصرْها ، وبدت مَرفوعةَ الهامة ، برّاقة النَّظَرات ، مُرْبَدَّة الوجه ، منفوشَة الشَّعر ، تتخايل عليها

---

(١) تدف : تضرب .

(٢) سُراه : ذهابه ومُضيّه . (٢) تئودها : تُثقلها .

الظِّلال متراقصة خَلْف بصيصِ الشَّمعة الخابية .

يا له من شبح راعبٍ مفزِع !

لكأنه كائنٌ من عالم بعيد ، لا يَمتُّ بصلَة إلى ظَهر الأرض – عالم الخوارق والطَّلاسم والأساطير !

وإنَّ المريض ليرتعش جَفناه ، فتنفذُ منهما نظْرة إلى ذلك المشهد ، فسرعان ما يُخيَّل إليه أنَّه قد انتقَل هو وزوجتاه إلى الدّار الآخرة ، وأنَّ المكان الَّذي يَحتويهمُ الآنَ ليس هو إلا رُكنًا من أركان جَهنَّم يتلقَّون فيه عَسير الحِساب ، وأليمَ العَذاب .

وعلى حينِ فَجأة ، ارتفع صوت « فتنة » قائلاً :

« الفجر يتدانى ، والموتُ يقترب ، وإنّي امرأة أعرف ما يليق ، ولا أقصِّر في أداء واجب . وكان حقيقًا بي أن أجمعَ بينك ، يا ‹‹ عثمان أفندي ›› ، وبين زوجتك الأخرى في ساعة الوداع . ثِقْ أن ضُلوعي لا تنحني على ضِغْن ، وإنَّما أنا مخلِصة صافيةٌ غايةَ الإخلاص والصَّفاء . وليس الَّذي يبدو من حِدَّتي وعُنفي إلا عارضًا على الرغم منّي ، فأنتما تَضْطرّاني إلى ذلك أشدَّ الاضطرار . هذه ‹‹ بهية›› أمامك يا ‹‹ عثمان أفندي ›› فتملَّ مَرآها ، وتمتَّعْ من ريّاها . ولتَغتنِمْ هي أيضًا هذه الفُرصة فتشاركَك في التملّي والتمتّع ، ولكن إيّاكما أن تنسيا التَّكفير عن خطاياكما ، والاستغفارَ من ذنوبكما ، من سوء معامَلتِكما لإنسانة لم تَنلْكما بأذيَّة ، ولم تُرِدْ بكما أيَّ ضُرٍّ !»

وصمتَتِ المرأة لَحَظات ، ثم استأنفت تقول ، وقد بدأ صوتها تشيع فيه نبراتٌ من التَّحسُّر والتحزُّن :

« ماذا كان منّي ، يا ‹‹ عثمان أفندي ›› ، حتّى تَجزِيَني جزاءَك القاسي ؟ أ لم تذق على يدي شَهْدَ السَّعادة حُلوًا مُصَفًى ؟ أُذْكُرْ سوالِفَ أيّامي معَك ، و وازِنْ بينها وبين حياتك من قبل ، فإنَّك واجدٌ أنّي كنت لك يُمنًا وبركة . أ في طَوقك أن تُنكِر حبّي إيّاك حبا ليس وراءَه مطمَع لمستزيد ؟ وهل كان في مُستطاع امرأةٍ أن تُحبَّك فوقَ ما أحببتك ، وأن تكون بك متلطِّفة كما تلطَّفتُ بك ؟ لا تَخْدَعَنَّك الظَّواهرُ المزورة ، والكلماتُ المعسولة ، من تلك الَّتي ضممتها إليك ، فأنت أعقَلُ من أن تجوز عليك مثلُ هذه الأخاديع .»

وهنا أخذ صوتُها يَرِقُّ ويَتحنَّن ، وتنتابه رِعْشة ، وإذا هي تقول :

« مهما يكن من أمر فإنّي لك مُسامِحة ، وكذلك سامحتُكِ أنتِ أيضًا يا ‹‹ بهية ›› . ليس لي إلا أن أوثِرَ العَفْو في هذه السّاعة المرهوبة التي تقترِب فيها طَلائع الموتِ . ليس لنا جميعًا في هذه السّاعة ، يا ‹‹ عثمان أفندي ›› ، إلا الموَدَّةُ والتصافي . ليس لنا إلا إسبالُ السِّتر على ما كان . في هذا الوقت الفاصل أجاهِرُك في غير خَجَل ولا حياء ، أمام ضَرَّتي ، بأنّي ما زِلتُ أحبُّك . هذا حقٌّ ؛ فما بَرِح حبّي إيّاك يَعمُرُ جوانحي .»

وشرِقتْ « فتنةُ » بدَمعها ، فإذا بها ، على حينِ فَجأة ، تهبِطُ على حافَة السَّرير ، وترفَع الصِّمام عن عاطِفتِها المكبوتة ، فاستبدَّت بها نَوبةٌ جيّاشة منَ البُكاء ، وقد دسَّتْ وجهَها في ثَنايا الفِراش ، ويداها متشبِّثتان بحواشيه .

وأخيرًا رفعت « فتنة » رأسَها ، وقد ذَكَرَتْ شيئًا أثارها ، فتلفَّتت جَزِعَة تهمهم :

« يا لله ! يا لله ! شدَّ ما يهمِلُ الإنسان واجبه في سبيل عاطِفتَه ، ولكنَّ الزَّمن لا يعرِف للعاطفة معنًى .»

ونهضت صُلْبَةَ القامة ، خفيفةَ الحركة ، وقد أحسَّت كأن أثقالاً كانت تَنوءُ بها قد وضِعَتْ عنها . وما أسرَع أن كَفْكفت عَبَراتِها ، واستبان على محيّاها إشراق !

و وقع بصرها على الكومَة المطروحة على المقعد ،

فقصدَت قصدَها ، وشرعَت تحُلُّ وثاقَها ، وتنزِع الكِمامةَ عن فمها ، وهي تهينم :

« ليس الوقتُ ، يا «بهية» ، وقتَ حقد وانتقام؛ نحن الآن على عتبة الموت ، فلْنغسل أوضارَ (١) الماضي، ونُعِدَّ أنفسَنا لمرضاة الله . هنالك في العالَم الآخر سَنَحيا ثلاثَ نساءٍ في عِصمَة زوجٍ واحد . هذه إرادةُ الله . ولكنَّنا سنحيا حياةً هانِئة ؛ لأنَّ الدّار الآخرة لا مكروهَ فيها ولا هوان !»

وأضحَت « بهية » طَليقةً ؛ لا قيدَ ولا وثاق ، ولكنَّها ظلت على مَقعدَها بلا حَراك . أ سمعَتْ قول « فتنة » و وَعتَه ، أم لمْ تملكْ له سمعًا ؟ أ في غيبوبة هي ، أم دَهاها شيءٌ أخرجَها من عِداد الأحياء ؟

والتفتَت « فتنة » إلى « عثمان أفندي » وهي تقترب من فِراشه وتقول :

« ستجمَع بين ثلاث زوجاتك ، ولكنَّك لن تعرِفَ إلا العدْلَ بينهن ، فتكفُلَ لهنَّ جميعًا عيشة رغيدة .»

وانحنت عليه تحتَضِنُه وتقبِّله ، ثم فارقَتْهُ في ثَبات وسَكينة إلى النّافذة ، ففتَحتها ، فآنسَت لمحاتِ السَّحَر تضيء الأفُق ، فأغلقتِ النّافذة واتَّجَهت إلى عُقْبِ الشَّمعة الهزيلة ، فتناولَتْه بين أصابعها ، وألقَت به على صرَّةٍ من مَتاع كانت عن كَثَبٍ من فِراش الزَّوج .

وما أسرع أنِ اندلَعَتْ ألسنَةُ اللَّهب !

وانثنت « فتنة » إلى مِرآة على منضدة الزينة ، فجعلَت على ضوء اللَّهب المتوهِّج تمشط شعْرَها ، وتُصفِّفُه ، وتُطرِّيه بالدِّهان ، وتستكمل زينتها بالتكحُّل والتعطر .

وبلغَت من ذلك مآربَها على عَجَل ، وخطَت إلى الباب رَكينة القدَمين ، وعيناها تَتيهُ نظراتُها كأنَّهما تجوسان خِلال أفقٍ بعيد .

(١) أوضار : جَمْعُ وضر ، وهو الوسخ .

وبلغَتِ البابَ ، فأخذَت بمِصْراعِه ، تفتَحُه ، وأشارَتْ بيدِها كأنَّها تأذَنُ لطارئ بالدُّخول .

وعادَت إلى جانبِ السَّرير تجلِس على الأرض ، وقد توغَّلَتِ النّار تأتي على الفراش ، والمرأةُ تُحدِّق أمامَها ذلك التَّحديق التّائه ، وقد تخايَلَت على فمِها بَسْمة عجيبة ، لا تدري : أ بَسْمة روح من الملائك هي ، أم بَسْمةُ شَيطان مَريد ؟

وكانَتْ شفَتاها تختَلِجان بِهَذَيان غيرِ مُبينٍ !

ثلاثي عُمَر الخيّام

في أعقاب الحربِ العالميَّة الأولى ، ابتدَع « النادي الأهلي » في « القاهرَة » بِدْعة جميلة ، تلك هي أن يُقيم في الفَينة بعدَ الفينة حَفَلات ساهِرة ، كنتُ أحرِص على شهودها ما واتَتني الفُرَص ، وانفسَحت لي الأوقات .

وكانت هذه الحفلاتُ طريفةً في مجتمعِنا المصريِّ ، ونشاطنا الفنِّيِّ ، بما تزدَهي به من مَشاهد في الغِناء والتَّمثيل ، مختلِفة الشُّكول .

وقليلاً ما كنّا نجد في هذه الحفَلات ممثِّلين أو مُغنِّين محترِفينَ ، فجُلُّ من كانوا يقومون بتلك المشاهد ، هم من كِرام الهُواة الَّذين شَغَفَهم الفنُّ الجميلُ حبا .

وأظهَرُ ما كانت تمتاز به سَهَراتُ « النّادي الأهلي » في ذلك الزَّمن ، طابع الإيناس الَّذي يَشيع بين النَّظّارة ، كأنَّهم أبناء الأسْرة الواحِدة ، على تفرُّق ما بينهم من المناسِب والمَنازِع .

سَعِدْتُ بأمسيَّة من تلك الأماسيِّ الشّادية ، وتبوَّأتُ مَقعَدي في تلك الرَّدْهة ، الَّتي ليس لها من مَظاهر المسرح إلا مِنَصَّةٌ ساذَجة أقيمت في صَدْر المكان .

ولبِثْتُ أتتبّع المشاهدَ ، وفي يدي صفحة البرنامَج ، أقلّب فيها النّظر بين فترة وفترة .

و أوشك أحدُ المشاهد أن يَنتهيَ ، فأرسلتُ النَّظَر في البَرْنامَج أستوضِحُه ما سيجيء من فِقْرات :

« ثُلاثي عمر الخيّام ، يقوم به «« علي أفندي المستكاوي »» وكريمتاه . »

وأحسَسْت أنَّ ابتسامةً عابِرة تتخايلُ على فمي .

« علي أفندي المستكاوي » ، وهل أنساه ؟ إنه ضابطُنا في المدرسة الابتدائية في ريِّق الصِّبا .

ولَمعَت في خاطري صورةُ ذَلك الضّابط الظّريف ، الّذي كان يُحيل جوَّ المدرسة المتحفِّظ المتزمِّت إيناسًا ومِراحًا وبهجة .

كنّا نعلَم أنَّه رَجُلٌ « ابن حظ » ! وَهَبه الله جانبًا من حُسن الصَّوْت ، وآتاه ذوقًا سَليمًا في تأليف المقطوعات الغنائيّة وتلحينِها .

وكان يتناهى إلى أسماعِنا أنّه سميرُ الأصدقاء ، يُحيي لهم حفلاتِهم بالغناء والأفاكيه . وكثيرًا ما شهدناه قد تخطُر في فِناء المدرَسة يرسِل ترنيماتِه في الأفق .

ولعلَّ أعجَب طرائفه أنّه كان إذا نادى أسماء المعاقَبين من التّلاميذ في مُنصرَف النّهار ، وقف ينادي كُلا منهم في نَغمة خاصّة باسمه ، كأنّه يضَع لمختلف الأسماء مختلفًا منَ الألحان ، فيثير بين التّلاميذ روحَ الطَّرب في أحرج الأوقات — أوقات الحِساب والعِقاب .

لا عجبَ إذن أن يكون « علي أفندي المستكاوي » بطلَ المشهد المُسَمّى « ثُلاثي عُمرَ الخيّام » ، ولا بدَّ أن يكون مشهدًا حافلاً بالمفاكَهة والإطراب .

ما أحبَّ إلى نفسي أن أتنسَّم نَفْحة من نَفَحات الماضي ، يَرِفُّ بها ذلك الضّابط الأنيس !

وأحسَسْت حركةً على المِنَصّة ، فأشرَعْتُ عيني ، فطالَعني على الفورِ « علي أفندي المستكاوي » يقتعدُ كرسيا ، وعن يمينه ويَساره صَبيّتان ماثِلتان .

كان يرتدي جبَّة ساذَجة ، وعلى رأسِه عِمامة كوَّرها كما اتُّفق ، وهو يحتضِنُ عودًا يداعِب أوتارَه .

ولم يكن في المشهَد من مَعالم « عمر الخيام » إلا تلك الجُبَّة والعِمامة ، إن كانتا من معالمه .

فأمّا الصَّبيَّتان ، فكانتا في لَبوس أبيضَ ناصِع فَضفاض ، يُراد به أن يمثِّل زيا شرقيا قديمًا ، وما هو منه في كثير ولا قليل .

وأوَّل ما راعني من هاتين الصَّبيَّتين قوةُ الشَّبَه بينهما كأنَّهما تَوأمان ، وذلك الخَفَرُ يكسو وجهيهِما الوسيمَين اللّذين يُفصِحان عن أصالة مَنْبِت .

كانت كِلتاهما زهرةً لَمّا تَتَفَتّحْ عن كِمِّها (١) ، تحرِص على أن تختزِن عِطْرها لنَفْسها ، لا تَدَعُه مستباحًا لكلِّ من يَشَمُّ .

وشرَع العود يخفُق بأنغامه الرِّقاق ، وطفِق « المستكاوي أفندي » يساوِقُه (٢) بصوته ، وما هي إلا أن تستجيب له الصَّبيَّتان عِنْد كلِّ مَقْطع .

وكانت الأغنية تجمَع بين لُطف المعنى وعُذوبة التَّلحين ، فأمّا الأصوات فلمْ تكُنْ تبلُغ مستوى الجَمال الفنيِّ ، ولا سيَّما صوتُ صديقي الضّابط القَديم ؛ فقد كان — على الرُّغم ممّا يبذُل من جَهْدٍ — مُتَثَلِّمَ (٣) الصَّوتِ ، مُتَقَطِّع الأنفاس .

على أن المشهد ، في جملته ، لَقِيَ استحسانَ النَّظّارة ، فلمْ يكدْ يَنتهي حتّى تجاوبَت أرجاءُ الرَّدْهة بالتَّصفيق .

ولا ريبَ أنَّ ما لَقِيه المشهَد من الاستحسان مَرَدُّهُ إلى تلك الرّوح اللَّطيفة الَّتي تسري في الأغنية ، وإلى ذلك الصَّفاء الَّذي كان ينبَعِثُ من تَيْنِكَ الصَّغيرتينِ ،

---

(١) كمها : برعمها . (٢) يساوقه : يباريه . (٣) متثلم : متقطع .

وهُما تَشْدُوان .

وأعقب هذا المشهدَ فَترة راحة . وبعد لَحَظات رأيتُ « المستكاوي أفندي » وقد نضا عنه لَبوسَ « عمر الخيام » ، وبدا في زيّه المألوف ، مصطَحِبًا فَتاتيه إلى الباب . وكانَتا قد نَزَعتا عنهما اللّبوس الأبيضَ الفَضفاض ، وظَهرتا في رداءٍ مألوف ، يأخذ بصَرك أولَ نَظْرة بمظهَره الرَّخيص ، وتَفاهتِه الّتي تبلُغ أقصى حدٍّ ، حتّى إن المرءَ ليلمَح جَواربَ الفَتاتين ، وقد توضَّحَت فيها الفُتوق والرُّتوق .

ولَمَحْتُ غيرَ بعيدٍ مَرْكبةَ أجرة ، جلَس فيها رجلٌ لم يكد يَرى الفتاتين حتّى تقدَّم فأخذهما صاعدًا بهما إلى المركبة ، وهو رَجلٌ أشيَبُ وَقورٌ ، تدلُّ ملامِحُه وسِماته على أنه خادمٌ من أولئك الّذين تأنَس بهمُ البيوتُ ، وتَعُدُّهم الأسرُ من أفرادها المكرَمين .

أمّا « المستكاوي أفندي » فلم يكد يطمئنُّ إلى أنّه ردَّ الوديعة ، وأدّى الأمانة ، حتّى كَرَّ راجعًا إلى المَقْصِف ، يعبُّ من الشَّراب .

وأحدَق به جمعٌ من الخُلان ، يُشيدون ببراعته ، ويهنّئونَه بما أصاب من تَوفيق .

ولَمّا خَفَّت حِدَّة الأحاديث في حَلْقة « المستكاوي أفندي » ، وأخذ الجمْع يتفرّق عنْه ، دَلَفْتُ إليه أقدِّم نفسي ، فتهلَّل وجهُه ، وأطبَق على يدي يحيِّيني في ترفُّق ، ثم انطلق يبعَثُ غابِرَ الذِّكريات في تنادُر ومُزاح .

ولم تَطُلْ وَقفتي معه ، إذِ انقضَت فَترة الرّاحة ، و أوشَكَت المِنَصَّة أن تستقبلَ المشهد الجديد .

وكان ابتهاجي بما أرى وما أسمع يخالطه شَوبٌ من أسًى وضِيق ، كلَّما طالعَتني صورة « المستكاوي أفندي » وهو في المَقصِف بوجهه المحتقَن الّذي لَعِبَت به التّجاعيد ، ويدِه الرّاعشة الّتي لا تكاد تضبط الكأسَ بين الأنامل ، ولبوسه الملفّق الصَّدِئ الّذي تفشَّتْ فيه الأوضار .

وملتُ على بعض الرِّفاق أسألهم في شأن ذلك الصَّديق القديم ، فأنبأوني أنّه أُعفِيَ من الخِدمة لبُلوغه السِّنَّ ، وأنّه تحت ثِقَل أسرة موفورة المطالب ، فهو لِذلك يعاني العُسْرة ، ويحاوِل أن يستدِرَّ الكَسْب باشتراكه في بعض المحافِل والسَّوامر ، ولكنَّ إدمانه على الشَّراب وإفراطَه فيه يتحيَّفان (١) كَسبه ، فلا يزال في معيشةٍ ضَنْك .

ولَست أدري ماذا أقول ؟ أ أنا الّذي انقطَعت عن حَفَلات النّادي ، فلم أشهَدْها ، أم النّادي هو الّذي ألغى تنظيم هذه الحفلات ؟

وأكبر ظَنّي أن ثلاثة أعوام كاملة قد انقضَت بعد ذلك ، دون أن يتناهى إلى سَمعي شيء من أنباء « المستكاوي أفندي » ودون أن ألمح له وجهًا في مكان .

وجاء صيف ، ففررت إلى « الإسكندرية » أصطاف ، وكانت المدينة تَغَصُّ بالمساهر مختلفة الدَّرَجات ، فقصَدت ليلةً « مَسهر المنارة » ، وهو من المساهِرِ الشَّعبية الّتي تتباين فيها المشاهد من تمثيل وغِناء .

وصادفْتُ المسهَر زاخرَ الجنَبات ، فأقحَمْتُ نفسي بين الجُلاس في ذلك الجوِّ الخانِق العكِر ، حيث تُخيم على المكان سحائبُ ثِقال من دُخان اللّفائف ، وصواعد الأنفاسِ ، وبخار الخمرِ الغَثّة .

وطَفِقتِ المشاهدُ تتعاقَب ، ولم يكن ثَمَّةَ مِن بَرنامج مكتوب ، وإنَّما كان يقوم مَقامه رجلٌ هرِم من نُفايات المسارح ، يرتدي لبسة البهاليل ، يَزْعَق باسم المشهد الّذي يَجِدُّ على المِنَصَّة ، ويتّخذ في تَصايُحه لهجَة المتظرِّف المتفكِّه ، ولكنّه لا يظفَرُ بغيرِ السُّخر والاستهزاء ، فهو بَرْنامَج آدميٌّ فاشِل ، عزَّ عليه التَّوفيق .

(١) تَحَيَّفَ الشَّيءَ : أخذ من حافاته وتنقّصه .

وانتابني الضَّجَر ، فأزمعْت انصرافًا ، ولكنَّ البهلول استوقفني بصيْحته قائلاً : « ثُلاثي عُمر الخيَّام ! »

وسَرعان ما وثب في ذاكرتي ذلك المشهدَ الَّذي لا أنساه .

فجعلتُ أسائل نفسي : « أ حقا ؟ »

وفيما أنا يتنازعني العَجَب والحَيرة ، رُفِعَتِ السِّتارة عن منظر شرقيٍّ مبتذَل ، تتراءى في أفقه سَماء تَبِصُ (١) فيها نجومٌ شواحِب .

ولمحْتُ رجلاً قد جلَس على الحشايا ، يكسوه طَيْلَسان ظاهرُ البِلى ، وعلى رأسه عِمامة ضَخْمة تكاد تبتلع وجهه ، وعن كثَب منه عود . وما لَبِث أن نَهَض يرصُد الفَلَك بمنظار طويل ، ثم أومأ بعض إيماءات مسرحيَّة كأنه يستدني إليه شيئًا في السَّماء ، وما هي إلا أن هَبَطَ المسرح فتاتان كأنَّما توحيان ببريق ثَوْبَيهما أنَّهما لجمان .

ومدَّ الرجُل يدَه إلى عوده ، وشرَع يغنِّي ، فإذا أنا أسمَع تلك الأغنية الَّتي سمِعتها في رَدهة « النادي الأهلي » منذ أعوام .

وأمَّا الفتاتان فكانتا ، على الرَّغم من ثوبيهما الرَّخيصين ، تتضَوَّعان لُطفًا وإيناسًا ، وتبدوانِ في زينة هادئة لا تَصُدُّ النَّظَر . وكانتا في وقفتِهما على المسرَح يمازِج رِقَّتهما خَفَرٌ وحَياء : بَسمات حيرى ، وإشارات لا تخلو من سَذاجة ، وسمات صافية بَعَثَتْ من مراقد ذاكرتي مَلامحَ طيفين شَهِدْتُهما بالأمس الدَّابر على مِنَصَّة « النادي الأهلي » .

وتبع المشهدَ الغنائيَّ لحنٌ صامِت ، كانت فيه الفَتاتان تخفُقان بأقدامهما على أنغامه ، في حرَكات ساذجة أقرَب إلى الرَّقص الإيقاعيِّ .

وكانت الفتاتان خِلال هذا المشهَد البهيج تماثلان زهرتين نَديَّتين تفتَّحَت أكمامهما ، فانبعَث من حَولَيهما أريجٌ يسري فيُنْعش الأنفاسَ .

وما إن انفَضَّ المشهدُ حتَّى ضَجَّ المكان بالتَّصفيق والتهلُّل ، فشاعت البسَمات عَذْبة على وجهي الفتاتين ، وهما تردِّان تحيَّة النَّظَّارة ، تَنُمُّ عن اغتباطِهما بما أحرَزَتا من إعجاب .

لم يكن في المشهَد كلِّه ممَّا يثير الحفاوة والإقبال إلا شيء واحد ، ذلك هو وَسامة الفَتاتين .

كانت فِتنة جَمالِهما لُبابَ ما في المشهد من فنٍّ يستهوي القلوبَ .

وأنَّى لِلقلوبِ ألا تستجيبَ لهذا الضَّرْب من الفنِّ الرفيع ؟

إنَّه هبةُ الطَّبيعة ، تسخو بها على أناس ، كما تسخو بالعَبقريَّات المختلِفة الضُّروب على الأفذاذ الخالدين .

فتنة الجمال ! أنعِمْ بها من جوهرٍ غالٍ نفيس ! حسبُها أن تكون ، فإذا الفنُّ في رِكابها طَيِّعٌ ذَلول .

وبعد انقضاءِ المشهد تركتُ مَقعدي ، لا أحرِص على استيفاء بَرنامَج السَّهرة ، وحَثَثْتُ خُطايَ إلى ركن في الرَّدهة ، عن كثَب من الباب الذي يخرج منه الممثِّلون ، وانزويتُ أترقَّب .

وبعد حين رأيتُ صديقي « المستكاوي أفندي » يتَّئدُ في مِشيته ، متأبِّطًا فتاتيه ، وعلى مُحيَّاهُ مَسحةُ زهوٍ واعتزاز بما تملِك يُمناه ويُسراه من ذُخرٍ ثمين .

وكانت الفتاتان تُسايران الرَّجل ، وهما تتغايدان (٢) في مَرح رفيق ، وقد اكتسَت كلتاهما ثوبًا رشيقًا في سذاجته ، يسبغ عليها الوداعة واللُّطف .

فأمَّا « المستكاوي أفندي » فقد عُنيَ أبلغَ العِناية بملبَسِه ، وتأنَّق فيه أيَّما تأنُّق .

ولا أنسى رِباط الرَّقبة الهفهاف ، يميس على

(١) تبص : تلمع و تتلألأ .

(٢) تتغايدان : تتمايلان وتتثنَّيانِ في لين ونعومة .

صدره أحمرَ قانيًا .

وأحدقت أعين النُّظّارة بذلك الموكب الصغير ، وشاعت حولَه هوامِسُ التَّحية ، وتعالَت هواتِفُ الإعجاب ، ولم تملِك بعض الأكفّ أن تسترسِلَ في تصفيق .

وكنت ألمح بين أولئك النُّظّارة عيونًا يتمثَّل فيها الشَّرَه ، وتعتلج شهواتُ الافتراس . وصافَحَتْ أذني بين تلك الهوامِس والهواتف نِثار من ألفاظٍ نابِيَة ، ليس فيها تحفُّظ ولا احتشام ، تَتْبعها ضَحِكات خَلاعة ومُجون .

فكان « المستكاوي أفندي » يستقبِل ذلك بوجهٍ مُرَبَّدٍ عَبوس ، ونَظَراتٍ ينبعِث منها الاستْنكار .

فأمّا الفتاتان فكانتا تتلقَّيان تلك الحفاوة الخليعة بابتسامات خَجِلة ، تَنمُّ عن طرَب واهتزاز ، حتّى إنَّهما لتُسارِقان رُوّاد المسهَرِ نظرات فيها تلطُّفٌ وارتياح .

وجدَّ « المستكاوي أفندي » في مسيره إلى باب الخروج ، فإذا مَرْكَبة أجرة يجلِس فيها ذلك الأشيَب الوَقور الَّذي رأيتُه في مثل هذا الموقف على باب « النّادي الأهلي » قبل سِنين .

ولم يكد « المستكاوي أفندي » يُسلِّمُ إلى الرَّجل وديعتَيه الغاليتين ، حتّى قفل إلى المَقصِف يتخطَّر في حُلَّته القَشيبة ، ورِباط رَقبته المتلَهِّب يباريه في التخطُّر والازدهاء ، وما أسرَع أن أنحى على الشَّراب يعبُّه عبا.

و وجدتُني أجلِس غيرَ قريب من مَرْمى عينَيه ، ولا أدري ماذا عداني عن التَّقدُّم إليه أحيِّيه ، فقد ملكتني خَواطري . وجعلَتُ أتصفَّح في مخيِّلَتي مرَّ الفتاتين بين الجُموع ، يحاصِرُهما من شَرَه الأحداق نِطاق ، وتتساقَط عليهما ألفاظُ بذاءة وهَذَر ، فلا تضيق الفتاتانِ بشيء من ذلك كلِّه ، كأنَّما يقع من نفسيهما موقعَ رضًا واستحسان .

وأحاطَت شرْذِمَة من أخلاط النُّظّارة بصديقي صريع الشَّراب ، يهنِّئونه بتوفيقه ، ويساجِلونه الحديثَ ، فإذا بالرَّجل يشرئِبُّ ويتنفَّخ ، وتأخذُه عزَّة الفَنِّ ، فينبري مُفيضًا في شرح دقائق المشهَد الَّذي يضطَلِعُ ببطولَته ، متمعنًا في تفسير خَوافيه في التأليف والتَّلحين والأداء ، مُشيدًا بمجهوده في تَنظيم تلك الحرَكات الإيقاعية الرّاقصة .

وكان يُتْبِعُ حديثَه بإنشاد فِقْرات ومَقاطع ، ثُمَّ لا يلبَثُ أن ينهَض متراقصًا لتصوير حرَكة أو إيماءَة مِمّا ابتدَعه في مَشهده الفَريد ، فيستجيب له الجمْع ، متظاهرين بالإعجاب والتَّصْديق .

واستقبلتِ الحلْقة ثُلَّةً منَ الشُّبّان الموسِرين ، الَّذين هم أحلاس[1] اللَّهو ، مِمَّنْ تقوم عليهم صُروحُ المساهِر، بما ينفِقون فيها من أموالٍ سخيَّة في بَذَخ وتَفاخر ، فأخذوا يشترِكون في السَّماع ، ويُغدِقون الإطراء .

ولبِث الجمْع كذلك وقتًا ، ثم انفرط عِقدهم رُوَيْدًا ، حتى لم يَبقَ على مائِدة الشَّراب إلا صديقِيَ الضّابطُ القديم .

وكان بَرنامَج التَّمثيل قد انقضى ، و وَلِيَهُ بَرنامَج المخاصَرة في حَلبة الرقص .

وخَلا المكان الَّذي يحجُب الرَّجل عنّي ، فوقَع بصرُه عليَّ ، وبدا مِن نَظْرته أنَّه لم يَحقُّني[2] ، ثم تلاقت عينانا مرة ثانية ، فألفيتني ناهضًا إليه ، محيِّيًا إيّاه ، مقدِّمًا نفسي ، فحيّاني تحيَّةً مهذَّبة ، غيرَ متحمِّس في التَّرحيب ، وكانت عينُهُ تتوهَّج من أثر الشَّراب . وبَغْتةً قال لي :

« يَقيني أنَّك هنا منذ ابتدأتِ السَّهرة .»

« نعم ، وإنّي أكْبِرُ مجهودَكَ العَظيم في مشهدِك الرّائع .»

فأخذ يُحِدُّ بصره في وجهي ، كأنَّما يريد أن يستجليَ سَريرتي ليتبيَّن مبلَغ قولي من الجِدّ .

---

(١) أحلاس اللهو : الذين لا يفارقونه .

(٢) يَحُقُّ الأمرَ : يتيقَّنه .

ثم قال :

« لا بد أنّك فطنْتَ إلى ذلك المدخَل الّذي مهّدتُه للقطعة الغنائية – أقصِد رَصْدَ الأفلاك . »

« حقا كان مَدخلاً شائقاً . »

فلمّا وَثِق بي ، واطمأنّ إلى قولي ، انبرى يشرَح لي تفاصيل المشهد وأسرارَه ، مُعيداً ما ألقاه على شِرذِمةِ النّظّارة الّتي أحاطت به منذ قليل .

ورأيت منَ الكياسة أن أؤيّدَه في قوله ، وأن أستجيب له بما يَزيدُ طُمأنينتَه ، ولكنّني كنت أحِسُّ – وأنا أُلفّق حديثي – أن لِكلماتي طَعماً مُرًّا على لساني .

وقد طالما أشادَ صديقي في محاضرته بما للتّلحين وتنظيم الحَركات الإيقاعية من أثر في تقويم المشهد وإمداده بالرَّوْعة ، كأنّما يحاول صديقي بهذه الإشادة والتّأكيد لها أن يُلقيَ في رُوعي أن ما حَظيَ به المشهد من توفيق وإعجاب ، لا مردَّ له إلا براعته هو في التّلحين والغِناء .

وبينما كانت هذه الكَلمات يَغَصُّ بها سمعي ، كنتُ ألمح طَيف الفتاتين يتخايل تُجاه عيني ، وهُما تبعثان بابتسامةٍ يختلِط فيها التهكُّم بالإشفاق .

وأخيراً نهضتُ مودِّعًا صديقي ، فما إن فصلْتُ عنه ، حتّى أحسَسْت كأنّني انطلقْتُ من أسْرٍ ، ودفعتُ خُطايَ إلى الطّريق أنتشق الهواءَ .

وتواصلَتْ أيام وأيام ، وكلّما لجَتْ بِيَ الرَّغبة في ارتيادِ « مَسهر المنارة » ، صَدَدْتُ النَّفْس عن هَواها ، ولكنّي في النِّهاية لم أُطِق لِرَغبتي دفعًا ؛ فيمَّمْتُ المسهر أشهَد « ثلاثي عمرَ الخيّام » .

ظلَّ المشهَد في جوهرِه على حاله ، كما كان ، ولكنَّ الجديد في الأمرِ هو ما أحاط بالمشهد من مَظاهر .

فقد ازدادت الفَتاتان ألَقًا وازدهاءً ، وازدادَ الجمهورُ بهما إعجابًا وإغلاءً . فما تكادُ إحداهُما تُبدي أقلَّ حرَكة ، أو تَنثَني أهونَ انثناءة ، أو تبسُط ذِراعَها أيسر بَسْط ، حتّى يتعالى هُتافُ الإعجاب ، وتتوالى تحيّات المعابثة ، فكانت الغادتان تستَجيبان لِذلك استجابةَ مُجترِئ مِمْراحٍ ، وتردّان التحايا في رِضًا واغتباط .

وفي مُنْصَرفهما – وهما تشقّان الطَّريق بين النَّظّارة، يتوسطهما صديقي في حُلّته الأنيقة ، ورِباط رَقَبته الهفهاف – لاحظتُ ما كانتا ترتَديانه من مَلبس منتقًى يُفصِح عن مفاتنهما اليانعة .

وما أسرع أن رأيتُ زُمرةَ الشُّبّان الموسرين اللاهينَ تُطبِق على « ثلاثي عمرَ الخيّام » ؛ فتَحجبُه عنِ الأنظار .

وما كاد الموكبُ الصّغير يتدانى من بابِ الخروج ، حتّى صاح فتًى من أولئك الزُمْرَة قائلاً للـ « مستكاوي أفندي » :

« لقد وعدْتنا أن تُجيب أنت والآنستانِ دَعوتنا إيّاكم إلى العَشاء . »

فبدا على وجه « المستكاوي أفندي » قلقٌ وتردُّدٌ ، ولكنَّ الزُمْرَة ما عتّمتْ أن زَحَمتِ « الثلاثي المحبوب » فدَفعت به صَوْبَ المطعَم ، وكِلتا الفتاتينِ تُحاول أن تَستُرَ طربَها في مِنديلها المعطَّر .

وتبِعتُ الرَّكبَ إلى مطعم المسْهَر ، فاتّخذتُ مجلِسي على مائدة أرقُب من مكانها ما يقعُ ، دون أن تأخذَني العيون .

وحُمِلَ الطّعام إلى مائدة الحفْل شهيا متعدِّدَ الألوان، معزَّزًا بفاخرِ الشّراب .

وشرَع « المستكاوي أفندي » يتناولُ الكأس في تمهُّل القانع ، ثم إذا هو يسترسِل فيعُبُّ من الشّراب بِلا حساب .

ونهض أحدُ أولئك الزُمْرَة ، وكأسُه في يُمناه قائلاً:

« فلنَشْربْ على نجاح ‹‹ ثلاثي عمرَ الخيّام ›› –

طُرْفَة الفنّ، وآية الطَّرَب .»

وكان وهو يَصيح بتلك الدَّعوة ، يُحِدُّ نظرَه إلى الغادتين ، فابتسمتا له ، وضجَّ المجلس بالتصايُح والتصفيق .

وضاق بالجمع صدري ، فلم أُطِقْ بقاءً حتّى أشهَدَ آخرَ فصول هذه المهزلة الشنعاء .

وفيما أنا متأهِّب للخُروج التقَت عيناي بعيني صديقي « المستكاوي أفندي » ، فأزاغَ بصره عنّي في استنكاف ، وأيقنْتُ أنّه عرفني ، فمضيتُ مسرِعَ الخَطْو ، وأقسمتُ وأنا أغادرُ عتَبة الباب على أنّي لا أعود إلى « مَسهَر المنارة » أبدًا .

وبعد أيّام دعاني صديقٌ كريم إلى عشاء ، وطال عنده سهري ، حتّى آذَن اللّيل بانتصاف . فلمّا تركْتُ بيت الصَّديق آثرتُ أن أترجّل في طريقي ؛ استمتاعًا بسكينة الجوّ وصَفاء الهواء .

ولا أدري كيف ألفيتُني أمرُّ « بمسهر المنارة » !

أ قَصْدًا كان ذلك منيّ ، أم هي خُطًا تائهة ساقَها القدَر ؟

وتلاحَق على سمعي هَدير الضَّجَّة وأنغام « الجاز » المعربدَة المتمرِّدَة ، كأنّما هي ريح عاصِفة تَلُفُّني في تدويمها ، فإذا بي تَثْقُل خُطايَ ، و وجدتُني أخلي سمعي لهذه الأصوات ، كأنّي أنتخِلُها لألتمسَ فيها صوتًا يعنيني ، وما لبِثْتُ أن سمِعت صائحًا يقول في اهتياج :

« فلنشرب على نجاح ‹‹ ثلاثي عمر الخيام ›› .»

وتقارعتِ الكؤوسُ ، وتجاوبت الصيّحات ، تتوضّح بينها ضحكاتٌ نسوية رقاق .

فأمددتُ قَدَميَّ بِعزمٍ يُنجيني من تلك العاصفة النّكراء .

وأخذتْ عينيَّ مركبةُ الأجرة ، ماثِلةً بباب المسرح، وعلى سُلَّمها ذلك الأشيب الهرِم قد تجمَّع ، ورأسه يُهوِّم ، وسماته تنطِق بالملالة والسَّأم .

وقطعت في السير شوطًا . وبغتةً ثارت بي الرَّغبة في العَوْد ، وما هي إلا أن كنتُ عن كثَب من باب « مسهر المنارة » .

وظهرت ثُلّة الشُّبّان يُحدِقون « بالثلاثي المحبوب » في صَخب وطرب ، وتقدَّم « المستكاوي أفندي » من مركبة الأجرة ، فأسلَم فتاتيه إلى الأشيب الهرم ، فانطلقَتِ المركبةُ لغايتها ، وتقوَّض الجمعُ ، وهمَّ « المستكاوي أفندي » أن يلجَ الباب ، قاصدًا إلى الحان، ولكنّه في هذه اللَّحظة لمحني ، فوقف يحدِجُني ببصره، فأنكرتُ أنّي أراه ، وخطَوت خُطًا سِراعًا في الطَّريق ، ولكنّه صاح بي يناديني في صوت متحشرج ، ولَحِقَ بي يَحُثُّ قدميه ما وسعه أن يَحُثَّ ، فاضْطُرِرْتُ أن أرجع إليه ، محيِّيًا إيّاه ، فلم يردَّ تحيّتي ، بل وقف يبعَث إليَّ نظَراتٍ صارمةً ، ثم صرخ :

« لماذا تتجسسُ عليَّ ؟»

« أنا ؟»

« نعم ، أنت . لا تُنكرْ ! إنك تحاوِل أن تتعرَّف دخائلَ شئوني . ماذا تعيب من سلوكي ؟»

« لا أعيب منك شيئًا . لا شيء .»

« كذّاب ! كذّابٌ وحقِّ السَّماء !»

وأخذ بيدي يهزُّني جيّاش الأعصاب ، وهو يقول :

« لك أن تتقوَّل عليَّ ما شئت ، لا يَعنيني منك قليلٌ ولا كثير . لك أن تُشيع عنّي أنّي مهرِّج ، سِكِّير ، ولكن أ أنفق من مالِ أحد ؟ إن المهرِّج الّذي لا يروقُك يكسِبُ قوتَه بعرَق جَبينه ، مِن أشرف طريق !»

« مَهْلَكَ ، يا سيدي ، مَهلكَ ! إنّك ترميني بما أنا منه بَراء . ماذا أستطيع أن أقول فيك ؟ وأيُّ شيء أشَعْته عنك ؟»

« إني على بيِّنة مما يجول في خاطرك . أ تظنُّني بليدَ الفَهم ؟ إنّي أتصيَّد الأفكار وهي طائرة . الفنُّ الرَّخيص الَّذي تزعُم أنّي أعرِضه — هو فن رفيعٌ ، ليس في طوقِ أمثالك أن يُحسِن تَذَوُّقَه . إنّي أضرب بما يقولُه النّاسُ عُرْض الحائط ؛ الفنّان يعرِف قَدْر نفسه ، ولا يُبيح سمعَه لأحد . لك أن ترى رأيك فيَّ كما شئت ، ولكنْ إيّاك أن تتجاوزَ هذا الحدَّ . فحَذارِ أن تستطيلَ بك الجُرأة إلى المَساس بكرامة ابنتيَّ هاتين ! فأمّا إنْ حَدَّثَتْك نفسُك بهذا الإثم ، فإنّي باطش بك ! »

ورفع يدَه يلوِّح بقبضَتها في الهواء ، ولكنَّه ما لبِث أن اختلَّ توازنُه ، وأوشك أن يتداعى ، فأسرعتُ إليه أقيله من عثرته ، وهو ما برِح يهذِر محاولاً أن ينحِّيَ نفسَه عنّي ، كأنَّه يأبى أن أكون له عونًا .

وأقبل بعضُ عمال المسهَر يأخذون به ، ولم يستطعْ أن يتمالك ، فتعاونّا جميعًا على حمله إلى مركبة أجرة ، فما إن استقرَّ فيها حتّى أشار إلى العُمّال أن يَدَعوه وشأنَه ، لا يرافقه منهم أحد .

وجرجرتِ المركَبة خُطاها ، ينازِع صوتَ حركتها صياحُ « المستكاوي أفندي » ، وهو يمجِّد شرف ابنَتيْهِ ، ويعلو بهما عن أوضار القيل والقال .

وقصَدتُ بيتي تغتالني مَضاضة [1] ، ولا تبرَح رأسي أخيلَةُ ما وقع اللَّيلة على باب « مَسْهر المنارة » .

وكانت هذه اللَّيلة آخرَ عهدي به ، فما طَرَقته بعدُ ، ولا دَنَوتُ من مكانه . ولكنَّ أخبار « ثلاثي عمرَ الخيام » كانت تُلاحقني كَرْهًا ؛ فلم تكنْ تخلو صحيفةٌ من إعلان عن ذلك المشهد ، أو حديث في شأنه ، أو إشادة بتوفيقه .

لقد انتقل « الثلاثي المحبوب » من « مسهر المنارة » المتواضع إلى مساهر أخرَ أعزَّ مَقامًا ، حتّى تَسنَّم مكانةً مرموقة في « مسهر النُّزهة » أرقى ملاهي المصيف .

وحاصرتْني صُورُ الفتاتين في الصُّحف ، مختلفاتِ الأوضاع ، يتضوَّع من مفاتنهما أريجُ السِّحر ، وتتوقَّد في عيونهما نزعةُ الغَواية والإغراء . وكُلَّما لمحتُ هذه الصُّوَر طالعني على الفَور طيفُ وجهين على مِنصَّة « النّادي الأهلي » ، ينقّلان نظراتِهما البريئة على استحياء .

وتعاقبتِ الأيّام أكثرَ من عام .

ودُعيتُ إلى حفل في « فُندق شبرد » تقيمه هيئة اجتماعيَّة لها خَطَر ، وضمَّ الحفلُ صفوةَ الكُبراء ، ونُخبةَ السَّراة ، ممَّن تلتَمع شخصيّاتُهم في مختلف النواحي والبيئات .

وبعد أن أُلقيَتْ خُطَبٌ تُناسِب المقام دُعينا إلى العَشاء ، فأبصرنا الموائدَ حَلْقة ، في بُهْرَتها [2] مَعرض لمشاهد مسلِّية من الرَّقص والغِناء ، و وُزِّعَ علينا البرنامَج ، فَقَرأتُ في سطره الأخير :

« ثلاثي عمر الخيام » .

وانتظرتُ على أحرَّ من الجمر أن أرى صديقي وفَتاتيه بعد غَيبة طال مَداها .

ولَمّا حان ظهورُ « الثلاثي المحبوب » أظلَم المكان ، ثم انصبَّت الأضواء بَغتة على بُهْرَة الحلْقة ، مختلفًا ألوانُها . وبدا « الثلاثي » في المعرض يتخطَّر ، فانبعثَت من الأكفِّ عاصِفة من التَّصفيق .

ولا أخفي أنَّ هذا المشهد قد بهر عينيَّ حقا بتلك الأزياء الفاخرة ، والحُليِّ الألاقة ، وذلك الترف الواضح في كل ما تقَع عليه العين .

ولكنَّ كلَّ هذه المباهج كانت تتضاءل وتتصاغر إزاء تلك البَسمات الَّتي يفترُّ عنها ثغرُ الغادتين ، متوهِّجةً بفتنة الأنوثة ، تنسكِب صَهْباؤها متَّقدة حرَّى ، لو شرب قطرة منها « عمر الخيام » في صوفيَّته لأوحَتْ إليه أن ينظِم قلائد تُزْري برباعيّاته ، وتجرُّ عليها ذَيلَ

(١) ألم من وجع المصيبة أو الحزن .

(٢) بهرتها : وسطها .

العفاء .

وراعني أن المشهدَ قد خلص من عنصر الغناء ، وطغتِ الموسيقى والرقص الإيقاعيُّ على المشهدَ كلِّه ، فلم تدع لسِواهما مَقامًا فيه .

ولكنْ أيُّ موسيقى وأيُّ رقصٍ إيقاعيٍّ أسمَعُ وأرى ؟

حَسْبُ الفتاتين أن تَندَّ عنهما انثناءةُ عطف ، أو التواءةُ خَصْر ، أو اهتزازةُ قدٍّ ، أو اختلاجةُ نهد ، أو انبساطةُ ساق ، في ذلك الموج من الأضواء الملوَّنة ، حتّى تسريَ نَفَثات السِّحر فتملأ شِعاب القَلْب من نَشْوة وإمتاع .

وَحدِّثْ ما شئت عمّا لقيَ المشهد من تَرحاب وإعجاب ، وما وُدِّعَ به من هُتاف وتصفيق .

وبعدَ حين رأيت صديقي « المستكاوي أفندي » في حُلة السَّهْرة السوداء متألقًا ، يقصِد مِنضدة تحفِل بزُمرة من عِلْية القوم ، وما لبثوا أن تقارعت أيديهم بمُترَعات الكؤوس .

وأمّا الغادتان فقد ازدانَت بِهما مِنضدة الصَّدارة ، حيث يجلِس الدّاعي وكُبراء المدعوين . وكانت الغادتان في أتمِّ زينة وأبهى حُلل وحُليٍّ ، تتوالى عليهما ألوانُ الحفاوة من كل جانب . وما أسرَع أن تجمَّعت حول هذه المِنضدة فرقة المصوِّرين كسربٍ منَ النّحل ، يتفنّن في اقتطاف ما يطيب له من نَضرَة هاتين الزَّهرتين العطِرتين ! وانطلَقت قذائفُ الأنوار من يد هؤلاء المصوِّرين تتصيَّد مختلف الأوضاع ، على حين تنبعِث من جمع الحاضرين لَطائف النُّكات والضَّحِكات .

وصَدَرْتُ عن الحفل ، أسيرُ راجِلاً في الطَّريق ، عارضًا في مُخيِّلَتي تلك المَشاهد الّتي مرَّتْ بي اللَّيلة .

وأطلقتُ العنان لفكري ، يحلِّق في هذا المجتمع الصّاخِب ، موازِنًا بين ما فيه من زيف وجوهر ، وباطل وحق ، متسائلاً :

أيُّ العوامل هي الّتي تُتيح النَّجاح وتُؤْتي الفَوزَ في هذه الحياة ؟

وعلى أيِّ أساس يُصْدِرُ المجتمع أحكامه على سُلوك النّاس ، ومصايرِهم ، وتقلُّبِهم في مراتب الأخلاق ؟

وزحمتني الأفكار ، واختلَفت بِيَ السُّبل ، واختلطَت عليَّ القِيمُ ، فلم أعد أستطيعُ تمييزًا ولا وزنًا ولا تفرقةً بين صَلاح وفساد ، أو زيغ وسداد .

وفيما أنا تستغرقُني هذه الحَيرة ، إذا بسيّارة فَخمة رائعة تتهادى جواري ، فتطلَّعتُ إليها ، فرأيتُ فيها أفذاذًا (١) من ذوي المقامات الكريمة ، يتوسَّطُهم في عِزّةٍ وخُيَلاء ، وفي ترف وازدهاء ، ذلك الثلاثي العظيم : « ثلاثي عمرَ الخيام » !

ابنة إيزيس

دخل المَثّال رَدْهة منزله ، في لَمَّة (٢) من رفاقه ، متّجهًا بهم إلى مكان تِمثاله الجديد « ابنة الربَّة إيزيس » ، ذلك الّذي أتمَّ نحته منذ قليل .

وكان صديقُه كبير الكهَنة قد علِم بهذا التِّمثال الفاخر ، فأعدَّ له في الهيكل الأعظم أكرَم مَقام .

أمّا هذا المَثّال فهو في زهرة العُمر ، وقد حلّى كثيرًا منَ الهياكل بالبارع من تماثيله . وعلى الرَّغم ممّا ذاع من شهرته ، وما بلغ من مكانته ، فإنه يلمح الذُّروة الّتي يتطلّع إليها بين عباقرة الفنِّ بعيدةَ المنال .

وإنَّه الآن إذ يزهو بتمثاله الجديد ، ليشعرُ بأنَّ ذلك التمثال جديرٌ أن يتسنَّم به تلك الذُّروة ، فتكون له الصدارة بين الخالدين من بُناة التماثيل .

---

(١) أفذاذ : جمع فَذّ ، وهو الفرد .

(٢) اللَّمَّة : الناس المجتمعون .

والرجل يقضي حياته في صُحبة زوجة وفيَّة ، أخلَصت لِبَيتها الإخلاص كلَّه ، و وفَّرت لزوجها وسائلَ الطُّمأنينة والإسْعاد . وإنَّ له منها طفلةً توشك أن تستكمِل عامَها الخامس . ولكنَّ هذه الزَّوجة على ما تبذُل من جَهد لا تَسلم من لوم الرَّجلِ وتعنيفِه ، فهو دائبٌ على الانتقاص من قَدْرِها ، حريصٌ على الزِّراية بها . يأخذ عليها دائمًا أنها في غَفْلة عمّا هو فيه من حياة فنيَّة ، ويرى أنَّها لا تتذوَّق من الفنِّ ما يتذوَّق، ولا تشاركه في تلك السَّبَحات الرَّفيعة في آفاق الرُّوح ، فليس بينهما في هذا المجال من تجاوُبٍ أو نَجوى .

ولقد يذهبُ الرَّجل في تجنِّيه على الزوجة كلَّ مذْهب ، فيرميها بأنَّها تعكِّر عليه صَفْوَ خَلوته إلى عمله ، وأنَّها كثيرًا ما تخدِش السَّكينة الَّتي يأنَس إلى ظلِّها في ساعات الإلهام ، ولها من طفلتها المدلَّلة الشَّغوب عونٌ أيُّ عون على إثارة القلَق والاضطراب .

وطالما صاحَ الرَّجل بزوجه في نوباتِ غَضبه ، قائلاً : « ما دمتِ لي زوجًا ، لا أمل لي في أن أكون فنَّانًا عبقريا ، فإنك لتفرشين طريقي بأشتات العوائق والعقبات ! »

إلا أن الرجل اعتقَد ، منذ فرَغ من نحت ذلك التِّمثال الجديد « ابنة الرَّبَّة إيزيس » ، أنه قد صنع معجزة الفنِّ الَّتي تُيسِّر له منزلة الخلود ؛ فلا غَرْوَ أن يزهُوَ وأن يفخَر وأن يدعوَ رِفاقه إلى المنزل ، يشهدون فَنَّه في أوْجِه الرَّفيع .

وأقبلَ الرَّجلُ في أصحابه على التِّمثال ، وكان في صدر البهو ، مسبَلةً عليه غلالة . وطفق المثَّال يتحدَّث في شأن تمثاله ، كأنَّما يهيِّئ أذهان الرِّفاق لاستقباله ، وييسِّر لهم تذوُّق ما فيه من روائع الفنِّ وبدائع الجمال.

وما إن اطمأنَّ إلى أنَّه أوْفى من ذلك على الغاية ، حتّى أخذ يُميط الغلالة عن التمثال ، فانتظمت الجمْعَ هِزَّةُ إكبار وإعجاب ، وجعلوا يهمهمون بألفاظ التمدُّح والإطراء ؛ فاشتعل المثَّال حَمِيَّة ، وانتفضَت منه المشاعر ، فتدفَّق في التحدُّث عن تمثاله ، مشيرًا إلى أوصاله وشِياته (١) ، مفيضًا في التَّعجيب ممّا تتميَّز به من روعة وافتتان .

وفيما هو مستغرِق في الحديث لا يجفُّ له ريق ؛ إذ تراءت طفلة انفرجَت عنها إحدى السَّتائر ، وقد تسلَّلت في خُطًا حَذِرَة ، وهي تنقل النَّظَر في البهو ومَن فيه .

لقد ترامى إلى سمعها صوتُ أبيها يشقشق بالحديث عن التِّمثال ، فقدِمَتْ تستطلعُ الأمرَ ، وقد وقعَ في وهمها أنَّ أباها يقصُّ قصة طريفة ، فأرادت أن تستمع إليها في غَفلة من عين أمِّها ، فلقد حذَّرَتْها أمها أن تخرُجَ إلى أبيها في تلك السَّاعة الَّتي تشغَلُه عن كل شيء .

ورأتِ الفتاة حول أبيها ذلك الجمعَ الماثِل وقد أنصتَ له كلَّ الإنصات ، فأذكى ذلك من فُضولها ، فواصلَتْ سَيرها وئيدةَ الخُطا ، وعيناها السَّوْداوان النَّجْلاوان تلتمعان بشرًا وارتياحًا ، ويداها معقودتان خَلْف ظَهرها دلالاً واختيالاً .

وكان أنِ انحرف بصرُ واحدٍ من الرِّفاق ، فلمحَ الطفلةَ آتيةً ، فاستغرب الأمر باديَ بَدء ، وعجِب لتلك الطِّفلة : كيف يُؤْذَن لها أن تقتَحِم ذلك المحراب الفنيَّ الَّذي لا تَعرف له كُنْهًا ؟

وخَشيَ أن يكون منَ الطِّفلة ما يثير استياء أبيها في تلك السَّاعة ، وهو يعهَد منه سرعة الغضَب في مثل هذا الموقف ؛ فسلَّ نفسه من بين الجمع ، وعجِل إلى الطِّفلة ، فإذا به أمام وجه أميلَ إلى السُّمرة ، جذّابِ الملامح ، ذي عينين دعجاوين (٢) ، وشعرٍ فاحم موّاج ، فانحنى يُمسك بيدها ، ويحاول أن ينحوَ بها نحوَ باب الخروج ، وهو يسرُّ إليها قوله :

(١) شيات : جَمْعُ شيَة ؛ وهي العلامة .
(٢) شديدتا سواد العَين وبياضها .

« يحسُن بك أن تعودي إلى أمك ؛ إنها تدعوك .»

فلبِثَتْ تحدِّق فيه بهاتين العينين اللَّتين تأتلقان ذكاءً وحيوية ، وقالت في لُثْغة محبَّبة ، وهي تتمهَّل في الكلام ، كأنها تزِن ألفاظَها وزنًا :

« أمي ليست في حاجة إليَّ !»

واهتزَّ الرجل لتلك اللَّهجة المتَّزنة ، وذلك النغم الأغنِّ ؛ فلم يملك أن ابتسَم ، فاستجابت له الطفلة بابتسامة حُلوة كشفَت عن أسنان لؤلؤية مُنَضَّدة . وأخذ الرَّجُلُ يلاطف يدها قائلاً :

« إن أمك لا شك في حاجة إليك . وهي الآن تبحث عنك ولا تجدك ، فهلمِّي إليها .»

فقالت له الطفلة وهي على حالها تُحَدِّق فيه :

« أمي في المَطْهى تُعِدُّ الطَّعام .»

وألقى الرجل نفسَه رانيًا إليها ، يتملّى فتنة مُحيّاها، ثم همهم خافِض الصَّوت : « ولكن ، يا صغيرتي ، عليك أن تعودي .»

وخطا آخذًا بيدِها إلى الباب ، فازورَّت به عن الطَّريق ، واستدارت تقول :

« لماذا لا تريدني أن أصغيَ إلى تلك القصَّة اللَّطيفة الَّتي يحكيها أبي ؟»

فاستفاضت على وجه الرَّجُل ابتسامةٌ رَقْراقة ، وشاعت بين جوانحه بَهجة جيّاشة ، وقال وهو يعاني أن يُخافِت بصوته :

« حقا إنها قصة لطيفة ، ولكن ألا تَرَيْنَ هذا الجمع الزّاحم ؟ إنه يعوقُكِ أن تسمعي شيئًا .»

فتشبَّثت بيده ، وقالت وهي تُحاكيه في همهَمته، والمخافتة بصوته : « إذنْ احكِها لي أنت !»

وإذا الرَّجل يجِد نفسَه قد حمل الطِّفلة بين ذراعيه، وهو يتوسَّمها (١) حينًا ، فتقبِل هي على خدِّه تُلقي عليه قُبلة من ذلك النَّوع الغُفْل — قبلةً كأنَّها الزهرة في كِمِّها لم تنضَح بعد عِطرَها الفَوّاح ، ثم قالت في إلحاف (٢) :

« احكِها لي ، احكِها لي .»

فمضى الرجل بالطِّفلة خفيفَ الخَطْو ، وانتبذَ بها ناحيةً ، وجلس على متَّكأ ، وأراح الطِّفلة على ركبته، وطفق يحكي لها أقصوصة من صَيْد خَياله ، وهي شديدة الإصغاء إليه ، يلوح على مُحيّاها كبير اهتمام .

وظلَّت تُتابِع حديثَ الرَّجل ، معبِّرة بملامحِها وإشاراتها عمّا تسمَع من مشاهد الأقصوصة الساذجة .

وطالما قطَعتْ حديثَ الرَّجُل تحاوره في مَنطِق هيِّن ليِّن ، ولا تلْبَث أن تدعُوَه إلى استئناف الحديث .

وكان الأبُ المثّال ماضيًا في عُجب وازدهاء ؛ يشرح لرفاقه رَوعة الفنِّ مصورةً في تمثاله الفذِّ .

وشاعت في الرَّدهة سارية من الجَهامة والتزمُّت ، حتّى لتحسَب أن ثَمَّة سحبًا جعلَت تتعقَّد في أفق الحجرة ، فتُلْقي على المكان غشاوة من قَتام .

وما كان ذلك الفنّان في لهجتِه المتحفِّظة ، ومنطقه المعقَّد ، المطويِّ على الأحاجي ، إلا كمثل كاهن متخشِّع يثقله التزمُّت ، وقد استرسَل في مواعِظه الجافية المملولة ، والرِّفاقُ من حوله ، تبدو على وجوههم علائم المضَض والكَلال ، ملقين أسماعَهم إليه على اضطرار ، وإن لم يفهَموا الكثيرَ ممّا يبلُغُ الأسماعَ .

فأمّا التحفة الماثلة « ابنة الربَّة إيزيس » — تلك القِطعة الفنيَّة الَّتي تمثِّل الطُّفولة الزَّكية ، فقد تراءت حيالَ الجمع كَدْراء مُغَضَّنة الوجه كابِيَة ، وكأنّما قد تكاثَفت عليها أنفاسُ ذلك الفنّان العَبوس ، فغاضت نَضْرَتُها الفتيَّة ، وذهبَت بشاشَتُها الصّافية ، واستحالتْ عجوزًا أوْقرَتْها (٣) السِّنون .

وبدَتْ من أحَدِ الرِّفاق لَفتة غير واعية ، كأنَّه

(١) يتوسم : يَنْظُرُ ويتثبَّتُ .

(٢) إلحاف : إلحاح . (٣) أوقرتها : أثقلَتْها .

استشعر الحاجة إلى أن يُريح بصَره ممّا يرى تجاهه ، فوقَعت عينُه على رَفيقه قد خلا بتلك الصَّغيرة في ناحية من الرَّدهة يتناجيان ؛ فرأى قَدميه تخفّان به إلى ذلك الرُّكن القَصِيِّ ، وما هي إلا أن اشترك مع الصَّغيرة في ملاطفة وحوار . وما أسرعَ أن انتعشتْ روحه بسحر تلك الفِتنة الوادِعة — فتنةِ الطفولة في أبهى حُلاها ، وأروع خَصائِصِها .

وما لبث هذا الثّالوثُ الصَّغير أن اجتذَب إليه من الرِّفاق واحداً بعد واحد ، وكانت الطِّفلة واسطة العِقد في هذا الجمع ، تُشِعُّ فيه الأُنْس والبِشر والمِراح .

وما زال الرِّفاق حَول الصَّغيرة يتنافَسون في اجتلاب بسماتها ، وانتهاب قُبُلاتها ، حتّى احتوى هذا المجلِسُ سائرَ الرِّفاق ، فلم يبقَ هُنالك حول التمثال إلا ذلك الفنانُ العَبوس في غَمرة من أحاديثه الغامِضة ، وأحاجيه الملتبِسَة ، يتناول بها أسرارَ الفنِّ والجمال ، لم يشعرْ بانفراط الرِّفاق من حوله ، وانفضاضِهم عنه ، فقد كان ضَباب العَتَمة والوَحْشة يغشى عينيه ، ويُطبِق عليه، على حين كان الرُّكن القصيُّ — ركنُ الطِّفلة ومَن اجتمع حولَها من الرِّفاق ، قد أضاء بنور علويٍّ وضّاح السَّنا ، وكأن « إيزيس » نفسَها هي الّتي أشعّتْ ذلك النورَ على تلك الطِّفلة ، فأحسَّ الرِّفاق كأنّما هم أمام ابنة الرَّبة الحقَّة ، قد تجسَّدت في ذلك الكائن الإنسيِّ اللَّطيف ، وكأنّما هذه الطِّفلة قد خرَجت بهم من عالم الوحشة والظُّلمة إلى عالم من الطَّلاقة والنَّضارة والإشراق .

ها هم أولاء يُحِسّون لها نشوةَ الحبِّ الصّادق ، بل ما هو فوقَ الحب ، إنهم يحسون لها روح التعبُّد ، ولكنّه ليس التعبُّد في هَيكل معتم موحش تتلاطم فيه أشباح البَخور المفزعة ، وتنوح التَّراتيل المَكروبة .

إنه تعبُّدٌ بروح الطَّبيعة الطَّروب ، فهم بين يدي « ابنة إيزيس » ، الحقَّة تتوقَّد حَيَوية ، فتبعَث في نفوسِهم دِفء الحياة ، وتَهبُهم قَبَساً من شُعْلَتِها المقدَّسة.

ليسوا همُ الآن حِيال تمثالٍ قُدَّ من صَخر ، مهما يتفنَّنْ صانعُه في نَحته ، فإنّه يحاول عَبَثًا أن يَبُثَّ فيه وَمْضة من نورٍ ساطع ، ينبَعِث من ذلك التِّمثال الحيِّ .

لا ريبَ عندهمُ الآن أنَّهم يتعبَّدون على خيرِ وَجه، وأهدى طريق ، فهم يَرَوْن أنفسَهم قد ظَفِروا بجوهرِ التَّعبُّد ، ذلك التجاوب الروحيّ ، والتَّمازج الصَّميم ، بين العابد والمعبود ، ذلك الحبّ السّاذَج يخفُق به القَلب ، مستشعراً متاع الحياة الصَّريح ، غيرَ مشوب بخَشية أو ترهيب ، ذلك التطلُّع إلى وجه الإله ، دون فُروض أو قُيود أو رُسوم ، ذلك الارتواء من نَبْع علويٍّ عَذْب الفَيض يسيرِ المنال .

كانت « ابنة إيزيس » الطَّروب المِمراح بين أيديهم، يتوسَّمونها ويطارِحونها ألوان المطايبات والأفاكيه ، فيرون فيها أروعَ مِثال للفن العبقريِّ — الفنِّ الّذي تُحِسُّ الفطرةُ جَماله ، وتتذوَّق متعتَه ، دون تعريف أو إيضاح ، الفنِّ الّذي لم يَنحتْه إزميل ، ولم يعمَلْ في تسويَتِه مِرقَم (١) ، ولم تتكلَّفِ التأنُّقَ فيه أناملُ صانع من البَشر . إنّه نعمة الطبيعة الحسنى ، ومِنْحَتُها الطَّيِّبة ، سخَتْ بها عَفْوَ الخاطر ، لا تَصنُّعَ ولا معاناة .

وظلَّ الأبُ الفنّان بجانب تمثاله الصخريِّ وحده ، وهو مسترسِلٍ في شقشقته . فلمّا فطِن إلى أنه خالٍ بنفسه ، يتحدَّث إليها ، تلفَّت حائرًا يتفقَّد الرِّفاق ، فلمَحهم في أقصى الرَّدهة ملتفِّين حولَ ابنته الصغيرة ، يتناوبون حملَها بين أكُفِّهم ، ويُجاذِبونها أطرافَ الحديث .

فهبَّت بين جَوانحه عاصفة من الغَضب ، وهمَّ أن يخطوَ إلى الجمع يُعلن إليهم استنكارَه ، ولكنَّ عينَه التقتْ بتمثاله ، ففطِن أول مَرَّة إلى أنَّ به شيئًا غير مألوف ، فأخذ يُحِدُّ النظَر فيه ، ثم عدل ببصره إلى

---

(١) المرقم : كل آلة رَقْم أو نَقْش .

طفلته ، فرأى عينيها الدَّعجاوَيْن تُفيضان السَّنا ، وابتسامتَها الرَّقّافةَ تُشيع البهجة والإيناس .

واستأنف النَّظَر إلى تمثاله .

أ ثَمَّةَ جهامةٌ تَغشى عَيني التِّمثال ؟

أ ثمة جَفْوة تتمثَّل في الشفتين ؟

وهل تكون « ابنة إيزيس » جَهمةِ جافية ؟

كيف سَوَّلَتْ له نفسُه أن يَنْحِت التِّمثال عبوسًا جافي القَسمات ؟

وجعل ينقِّل بصرَه بين الطِّفلة الجياشة المِمراح وبين الطفلة الصَّلْدة العبوس ، ولبث كذلك وقتًا ، حتّى أحسَّ الغَضَب يتلهَّب بين جوانحه – الغضبَ على نفسه وعلى تمثاله جميعًا !

لقد جاد فنَّه في هذا التمثال ، حتّى أصبح في عينه تُحفَتَه الخالدة ، وإنَّه الساعة ليتبيَّنُ تفاهةَ هذا الأثر الَّذي بلَغ به أَوْجَ الفنِّ .

فكيف إذن تكون نظرتُه إلى سائر تماثيله الَّتي تفاوَتَ تقديرُه لها من قبل ؟

وأخذت الغشاوة تنقَشِع عن عينيه ، وإذا هو قد انتفض انتفاضة تزايلت بها كبرياؤه واعتزازه ، وشعر بوطأة الخيبة وثِقل الهزيمة ، فتهاوى على مَقعَد قريب منه ، وقد انتكس رأسُه ، وانطبق جَفناه ، وتدلَّتْ يداه، وانساب به الفِكر في ظُلُمات يأس وقُنوط .

وأنبهته أناملُ رقاق تداعِب كَتِفه، فرفع رأسه ينظُر؛ فألفى طفلَته بجانبه تبتَسِم له على تخوُّف وحذَر ، فهمَّ أن ينحِّيها عنه ، ولكنَّها عاجلته تتعلَّق برقبته ، وتقول له في رجاء ، وهي تشير إلى التمثال :

« أبي ، أبي ، قُصَّ عليَّ قِصةَّ هذه الدُّمية . إنها بهية الطَّلْعة . »

فألفى نفسَه يقول لها من فوره : « أ تروقك ؟ »

« غايةٌ في الجمال ! »

فنهض الرَّجل بطفلته ، وأدناها من تمثال « ابنة إيزيس » ، فلم تلبث أن أَقبَلَتْ على التمثال تقبِّل مُحيّاه في بهجة وفرح ، فأحسَّ الأَب طارئًا من النشوة يسري في أوصاله ، وإذا هو يضُمُّ طفلَته إلى صَدره مُهتاج النَّفْس ، وإذا هو يطبع على جبينها قبلة جيّاشة .

عندما تضحك الأقدار

جلَس إليه صديقُه في مشرَب من المشارب المعروفة ، يناقلُه الحديث في شئون الزواج ، وقد رفرفَت حولَهما أنسامُ الأصيل .

وكان هو بَرِمًا بحياته الزَّوجية ، يشرَح لصديقه ما يعانيه من متاعِبها ، على الرَّغم من أنه حديثُ عهد بعُرْس .

فانطلق يقول :

« لقد حَسِبْتُ شهرَ العسَل مديدَ الأمد ، فإذا هو متضائلٌ منكمش قصير العُمر ، وما أسرعَ أن بدأنا عهدَ مناوأة وعِناد . إن الحياة ، يا صديقي ، لأقصرُ من أن تتَّسع لهذه المناكَدات ، ولذلك أجمعنا أمرًا نضَع به حدًّا لما نكابِده . ما أعجبها نهاية عاجِلة لم تقع لي في حُسبان ! »

وأشعل الزوج المتذمِّرُ لِفافته ، وأسْرَعَ نظراته في الأفق ، كأنَّما يطلُب إلى السماء تخفيف ما به .

وانبعثت صَدَحاتٌ موسيقيَّة رفيقة تتودَّد إلى الأسماع . وكان نغمُها شجيا تَستنيم(1) له الأعصابُ ، وتستيقظُ الأحلام ، فلبِث الرَّفيقان وقتًا يستعذِبان تلك الأنغام الرِّقاق .

وتنهَّد الزوج من أعماق صدره ، وهو يصل ما انقطع من حديثه ، في صوت تَشيع فيه الرَّخاوة ، قال:

« أ تعلم كيف عرفتُها ؟

---

(1) تَستَنيمُ : تَستَقِرُّ وتَهدأ .

« إنها لمصادفةٌ عابرة كان لها في حياتي أبلغُ الأثر . ومن عجب أنه كلّما خطرت ببالي ذكرى هذه المصادفة أهدَتْ إليَّ جديداً من المتاع .

« كان ذلك على شاطئ «« سيدي بشر »» ، وكنت في لَمَّة من الصِّحاب نسبح ، ونستمرئُ مُداعبةَ الأمواج . وبغتةً دوَّتْ صرخةُ استغاثة ، فرأيت الشاطئ قد تراكمت عليه جموعُ النّاس مهتاجين ، يحدّقون في الماء .

« وسرعان ما ظهر قارب النجاة يَسوسُه ذلك البحّار المعهود ، في قميصه المخطَّط ، وسراويله القصيرة الدَّكناء ، تتهدَّل على جوانب وجهه قبعته البيضاء .

« وتلفَّتُّ أنظر حيث ينظر الجمع ، فلمحتُ على البعد رأسًا لا يكاد يطفو حتّى يطويه الموج .

« وألفيتُني أسبح من فوري ، قاصِداً إليه ، دون أن يكون ذلك وليدَ عزْم أو تفكير . إنها خطفة من خطَفات الشُّعور ، تريد المرء على الاضطلاع بعمل جَسيم ، دون حساب لعُقبى ، أو تقدير لما يكون . كنت آنئذٍ كتلةً من الأعصاب ، أتدفَّع في تهوُّرٍ للَّحاق بذلك الرأس الَّذي يصارعُ الموت .

« و وجدتني أسبِق القارب ، وكلَّما دنوتُ من مكان الرأس ، ازددتُ من حَمِيَّةٍ وحماس ، فلقد كنت أحس أن أنظار الجموع على الشاطئ ترقب ما أنا مُقْدِم عليه .

« واقتربتُ منَ المكان المقصود ، فإذا الرَّأسُ يَغشاهُ الموجُ ، وتنتشر على صفْحة الماء خُصُلات من الشَّعر كأنّما هي دماءٌ قاتمة مسفوحة .

« وغاب عن عيني في لحظة كلُّ شيء ، وَشعَرْتُ بأنّي أتهاوى بين طِباق الماء ، أتلمَّس ذلك الغريق الَّذي تعلَّق مصيره بجَهدي .

« وما كنتُ أرى شيئًا ؛ فقد تخبَّطْتُ في بطن الموج ، أضرِب بيديَّ على غير هُدًى . وفجأة وجدتُني أرتطمُ بجسَد ، وأحسَسْتُ على الفور يدَيْن تتشبَّثان بعُنقي في قوَّة وعنف ، ولا أدري أيَّ جَهد واتاني حتّى استطعتُ أن أجتاز غائلةَ الموج ، دون أن يَجتذِبَني التَّيار بمَن أحمل إلى القاع .

« طفوتُ على سطح الماء ، وما زال الجسَد متعلِّقًا بي ، وشاهَدْت من خلال غشاوة الماء الَّتي تُغلِّف عينيَّ ، شبحَ القارب يتوسَّطُه ذلك القميص المخطَّط والسراويل الدكناء ، وهو يَصيح بي أن أعجَلَ إليه ، فلم أُعِرْه جانبَ اهتمام . وكيف لهذا البحّار الفضوليّ أن ينازِعَني ما غَنِمته من فوزٍ ، ويقاسمني دون حقٍّ ما بذَلْتُ من مجهود ؟

« ظَللتُ في طريقي أشُقُّ العُباب ، وأنا أحمِل ذلك الغريق ، وكنت أحِسُّ رأسَه مُلقًى على صدري ، وشعْرَه الفاحم الغزير يُناوِش عُنقي .

« ولا أذكر أنّي تبيَّنتُ من قسَمات الوجه شيئًا . وقُصارى ما لاح لي منه أنه وجهٌ ممتقع ، لا تنبَعِث منه أنفاس .

« وكانت صيْحات البحّار الفَضوليّ تلاحِقُني ، وضَرَبات المجداف تبعَث خفقَها إلى أذنيَّ ، فألهَبَ ذلك من شعوري ، وأمدَّني بقوَّة أستعينُها على الانطلاق .

« لن أفلت هذه الفتاة الَّتي ألقت المقاديرُ شبابَها ونضارتَها بين يديَّ . لقد آمنتُ منذ اللَّحظة الأولى بأن مصيرَها قد ارتبط بمصيري ، وأنَّها قد أصبَحت لي أنا وحدي .

« وبلغتُ الشاطئ ، فصَعِدتُ إلى اليابسة ، وأنا أحمِل كَنزيَ الثمين أشقُّ به الزِّحام ، ومن حواليَّ

يتعالى الهُتاف .»

وأشعلَ الزَّوج لِفافة ثانية ، وزَفَر زفرةً حَرَّى ، ثم استأنف يقول :

« ما يسوغُ لي أن أُنكِرَ ما أسدَتْه إليَّ هذه الفتاة من جميل .

« تلك النشوة الفريدة في حياتي ، بل في حياة الأقلين من البَشر .

« ذلك الشُّعور النادرِ من الفوز والانتصار .

« ذلك الزَّهو الرَّفيع الَّذي يرنِّح أعطافَ من أنقذَ حياةَ إنسان .

« ولم تنقضِ أيامٌ حتّى كُنْتُ للفتاةِ خاطِبًا ، ثم أصبَحْتُ لها زوجًا . وشمِلَتْنا غَفوة من غَفَوات الأحلام ، نَعِمنا فيها بأفانينَ من مباهجِ الحبِّ ومناعمه الحِسان .»

ونفضَ الزَّوج لِفافته على طرَف المنضدة ، وجعل يعبَث بما تناثر من الرَّماد ، وهو يردِّد نظراتِ أسَف وتحسُّر ، ثم نفخ فيه نفخَةً أسلَمته للرِّيح ، وهمهم :

« لقد تطاير كلُّ شيء كما تطاير الآنَ هـذا الرمادُ . لم يكن من ذلك بُدٌّ .

« لست أدري كيف أفضى بِنا المساقُ إلى هذه القَطيعة ؟

« قُصارى ما انكشف لي أننا كنّا على غير تآلف ، أو على طَرَفيْ نقيض .

« ما اتصل بيننا شيء إلا كان مثارَ تنازعٍ واختلاف .»

وأرسل الزَّوجُ المنكودُ ضحكة عصبيَّة ، و واصل قوله :

« بل إنَّ أمرًا واحدًا لم نختَلِف عليه — ذلك هو الفِراق ! على هذا الفِراق اتَّفقنا ، في خَلوةٍ شَمِلتها السَّكينة والصَّراحة والإخلاص .

« ولقد كان اتفاقًا كاملاً ، تفاهمنا فيه على «« مستقبل الجنين »».»

فسأل الصديق ، وقد اتسعَتْ حدقتاه :

« أ حاملٌ هي ؟»

« أحْدَثُ ما علِمْتُ أنَّها مُوشِكة أن تضَع . إن هي إلا أيام .»

« وهل تتزاوران ؟»

« لم أرَها منذ أشهر .»

وأمسك الصديقان عن الكلام .

ثم بدأ الزَّوج يقول :

« إنها تطلُب الاحتفاظَ بالطِّفل . فلتكُن لها مشيئتُها ، وسأضطَلع بكلِّ ما تتطلَّبه الحالُ من إنفاق . في سبيل الرَّاحة تهون الصِّعاب . لستُ بمضمر لها حقدًا ولا ضَغينة ، وما أضَنُّ عليها ببذلِ ما يستوفي لها الطُّمأنينة ورفاهة البال .»

وأقبل في هذه اللَّحظة رسول إلى الزَّوج ، فتدانى من أذنه ، وهمس له بكلمات أثارَتْ في وجهه علائم الاضطرابِ ، ولكنَّه سَرعان ما تمالك ، وهمهم : « لا بأس ! ليس في الأمر ما يهمُّ .»

وتزايل شبَحُ الرَّسول ، وجعلَ الزَّوج ينقُرُ المِنْضدة بأصابعه نَقَرات تُفصح عما يختلِجُ في حنايا صدره من قَلق .

ثم التفت إلى صديقه قائلاً في ضحكة عابثة :

« هم يبلغونني أنَّها تضع . أ وَ حسبوني طبيبًا يُدْعى في هذه المناسبة ؟»

فواجهَه الصديقُ قائلاً في لهجة رزينة :

« إنك الزّوج على أيّةِ حالٍ .»

فصاح في صوت متهدّج يقول :

« أ تدْعونني زوجًا بعد أن تَقطّعت بيني وبينها الأسباب ؟»

فقال الصّديق هادئَ الصّوت ، رقيقَ النّبرات :

« إن الزوجية بينكُما في هُدنة . لَسْتُ بفارض عليك شيئًا . لك أن تَسْلُك الطّريقَ الّذي تهوى . لو كنتُ مكانك ...»

فقاطعه الزوج قائلاً :

« لكنتَ الآن بجوارِ سَريرِها تحمِل عنها بَعْضَ ما تُعانيه . أ ليس كذلك ؟»

« حقا إنك لإنسان غريبُ الأطوار !»

« أيُّ غرابة رابتكَ منّي ؟»

فلاطفَ الصّديق كتِفَ الزّوج قائلاً :

« إن أوضاع المجتمع تدفَعُ بنا إلى اتّخاذ موْقِفٍ في الحياة ليس لنا منه مَفيص[1] .»

ثم تمهّل يقول :

« أضِف إلى ذلك أن الموقِفَ موقفٌ إنسانيٌّ ، يجب أن تترفّع به فوق المشاحَنات والأحقاد .»

« إذا شئتَ الحقَّ فقُل إن الموقِفَ لا يعدو المجامَلات الرّسمية ، والتّظاهُرَ بما هو في الواقع رِياء اجتماعي .»

ونهض الزّوج على الفور ، فسأله الصديق :

« إلى أين ؟»

« أ لم تُرِدْني على أن أذهب إلى المستشفى ؟»

و وقَفَ الصّديق يبتسِم في ملاطَفة ، وأخذ بيدِ الزّوج يضغَطُها كأنه يقول له :

« نعِمَ ما فعلت .»

وما كاد الصّديقان يُبارحان المشرَب ، حتّى التفتَ الزّوج إلى رفيقه ، وهو يتراءى بالمداعبة والمعابثة ، قائلاً : « وماذا تقترح أن أفعل أيضًا ؟»

« مثلك في رقّةِ حاشيته ودَماثة طَبعه لا ينسى ما هو اللائق في هذه المناسبات .»

« تعني أن أصطَحب هديّة ؟»

« كِدْتُ أرغَب إليك في ذلك .»

« أ ليس من اصطِحاب الهديّة بُدٌّ ؟»

« ذلك عملٌ يوحي به الذّوقُ السليمُ .»

« لن تكون الهدية أكثَرَ من طاقة وَرْد ، كيفما اتّفق .»

وانطلقا معًا إلى بائع الأزْهار ، فأخذَ الزّوج يسير في أرجاءِ الحانوت يتطلّع إلى الرّياحين المعروضَةِ ، وما لبِث أن أعرَضَ عنها ، وأقبَل على الزّهّار يسأله عن نوع خاصٍّ منَ الوَردِ النّادِر ، فاستنظَره البائعُ لَحَظات ليجلُبَه له من مكانٍ قريب ، فَرَجَع الزّوج إلى صديقه ينتَظِر الوَرْدَ المنشودَ ، فابتدرّه الصّديقُ قائلاً :

« فيمَ وقوفُك ؟»

« في انتظار الورد الّذي طلبتُه .»

« هل طلبتَ وردًا معيّنًا ؟»

« أجل ، طلبتُ نوعًا من الورد ، كنْتُ أهديتُ إليها طاقةً منه في يوم الخِطْبة . المسألة مسألة ذَوق ، لا أكثر .»

فهز الصديق رأسه ، وقال :

« هذا عهدي بذوقك دَوْمًا .»

حمل الزّوْج طاقةَ الوَردِ قاصِدًا في صحبة صديقه إلى المستشفى .

وانتهى بِهما الدَّرَجُ إلى الطّبقة الّتي تقوم فيها حُجَرُ الوالدات ، فاستقبلهما مَمشًى فَسيح ممتدٌّ ، تسطَع أضواؤه ، فتَزيد جوانبه سُطوعًا . الممرضات والأطباء

(١) ليس لنا منه مَفيص : ليس لنا عنه محيد ومَعْدِل .

في ذُهوب ومآب ، يَحثّون الخُطا في همَّة ومَضاء . وهنا وهنالك زُوّار تختلف سيماهُم وتتباين شاراتهم ، فهم بين قَلِق حائر بِدافع لحظاتِ الترقُّب والاستطلاع ، ومبتهج استخفتّه البُشرى ، فترنّحت أعطافُه من المِراح .

فأخذَ الزَّوج يتلفَّت حولَه ، وقد عاجَلَتْ مُحَيّاه مَسْحَة من شُحوب . وما كاد يجِد نفسَه عن كثَب من إحدى الممرِّضات حتّى أقبل عَليها يواجِهُها في اهتمام، فيسألُها أين تقوم حجرة زوجته .

ولم يكن في وقت الممرِّضة فُسحة للوقوف وإجابة السّائل ، فاستمهلَتْه حتّى ترجعَ إليه لتُصاحبَه إلى الحجرة الّتي تَعنيه .

فانتحى هو وصديقُه ناحيةً ينتظِران ، ومرَّت دقائقُ ظلَّ فيها الزَّوج واقفًا فيما يبدو ، ولكنَّه في حقيقة أمره مستوفزُ الأعصاب ، يتحرَّك في موقفه حركاتٍ لو كانتْ خُطًا لانطوتْ بها المسافاتُ الطِّوال .

ولمح غيرَ بعيد مِحفَة يزجيها [1] بعضُ الممرِّضات ، وقد اضطَجَعت فيها سيِّدة عليها أعراضُ المخاض ، فرنا إليها الزَّوجُ متفحِّصًا متحقِّقًا ، وهو يهينم :

« ليستْ إيّاها . »

وما كادت تتوارى المحفَّة بِمَن تحمِل ، حتّى نَدَّتْ صَيحة نِسْوية قَرَعَتْ سمعَه ، لا يدري لها مأتًى .

وأحسَّ في هذه الصَّيحة رنينَ مكروب على شَفا الهَلَكة ، ينشُد الغَوث .

ورأى نفسَه على الرَّغم منه ، يقبِل على صديقه ضاغطًا يدَه ، وهو يقول : « ما هذا الصوت ؟ »

« صوت حامل على وَشْك الوَضْع . »

فازداد الزَّوج ضغطًا ليدِ صديقه ، وهمهم :

« أ يكون صوتَها ؟ »

فلاطف الصديق يده مبتسمًا ، وقال :

« أنتَ منّي بصوتها أدْرى ! »

فترك الزَّوج صديقَه ، وخَطا إلى نافذة قريبة ، وأسلَم نَظَراته للأفق ، وطال به الوقوفُ على هذه الحال ، وقد حوَّم به الفِكْر في أودِيَة شتّى ، وعَبَرَ به الزَّمن إلى عهد تقضّى :

شاطئ « سيدي بشر » يزخَر بالرُّوّاد ؛ صَفْحة الماء تضطَرب بالأجساد وهي تُغالب العُباب ؛ هو في مصطَخَب الموج يعلو مزهوًّا ويهبط ؛ حارِسُ الشاطئ المعهود في قميصه المخطَّط يتوسَّط قارب النَّجاة ؛ ذلك الرأس يطفو ويرسُب ، تنسكب خُصُلات شَعره الفاحم على صفحة الماء .

وبغتةً دوَّت في أذن الزَّوج صرخةُ استغاثة عَلِقتْ بقلبِه ، فغامتْ عينه ، وأحسَّ في غشية حلمه كأنَّما هو يصارِع الموجَ مندفعًا للَّحاق بالغَريق .

وفي لفتة عَصَبيَّة غيرِ مقصودة ، ألفى صديقَه مقبلاً عليه ، فلم يلبَث أن اندفع إليه ، يقول له :

« إنه صوتُها حتمًا ، إنها هي ، إنها تَنْشُد معونتي بلا ريب . »

وجاءت الممرِّضة تدعوهما أن يَتبعاها ، فقادتهما إلى حجرة الزُّوّار ، وقالت للزَّوج في إشراق :

« لِتطمئنَّ ؛ كلُّ شيء على ما يُرام . سأدعوكَ إلى حجرة الوالدة بعد قليل . »

وبارحَتْ حجرة الزُّوّار على عجل ، فقال الصَّديق للزَّوج : « ما بِك ؟ »

فأجابه الزَّوج ، مُرْعَشَ الصوت :

« لا شيء ، لا شيء ؛ إنَّما هو تهافُت أعصاب من وفرة ما قُمْتُ به اليوم من أعمالي الخاصَّة . آن لي أن أخفِّفَ عن نفسي متاعِبَ العمَل . »

---

(١) يزجيها : يدفعها .

ولَبِثا في الحجرة فترةً ، لا يتناقلان الكَلام ، والزَّوجُ ساهِمٌ ، يُرْهِفُ السمعَ ، ويتلقَّط ما يَنْأَم (١) منَ الأَصوات .

إن صَدى الصرخة الَّتي سمعها منذُ لحظات ، ما فتئ يترجَّع في سمعه .

إنَّه صوتُها بلا ريب .

شدَّ ما تتألَّم ، بل شدَّ ما تألَّمتْ إبَّانَ الحمل !

إنها نحيفة لا قِبَلَ لها بمِثل ذلك المجهود .

لم يرَها منذ أشهر خلَت .

أ كانتْ في حاجة إليه ، فأخذَتْها العِزَّة ، وأبتْ عليها كبرياؤها أن تطلُبَه ؟

ليس ينسى ما لها من ابتسامة وديعة ، تنمُّ عن سَريرتِها النقيَّة الَّتي تَزِلُّ عنها الضَّغائن والأَحقاد .

صَدى الصَّرخة يعاوِد أذنَه في لجاجة وإلحاح .

لن يصيبَها مكروه ، ما دام قادراً على أن يذودَ عنها ذلك المكروه .

ونهض مستوفِزاً يقول لصديقه :

« هيَّا بنا ننظر ماذا تمَّ في الأمر . »

وفيما هما ماضيان إلى الباب ، قَدمت عليهما الممرِّضَة ، بين يَديها لفيفةٌ بيضاء ، تحمِلُها في عِناية وتحفُّظ ، وقالت مُتهلِّلَةَ الأسارير ، وهي تقرِّب اللَّفيفة إلى الزَّوج ، وتُميط عنها اللِّثام :

« أُنظرْ . أ لا تراها قمراً يتواضع لها القمر ؟ »

فحدَّق الزوْجُ فيها ، وقد عاجَلته البهتةُ ، وسأل :

« مَن تكون ؟ »

فتضاحكت الممرِّضة ، ومالت بوجهِها إلى صديق الزوج ، تقول له : « أُنظرْ كيف يتجاهل ! »

وتطلَّع الصديق إلى مُحَيَّا الوليدة بين ألفافها ، وصاح بصديقه الزوج قائلاً :

« نسخةٌ منك وَفْقَ الأصل ! »

فرنا الزوج إلى الوليدة ، يتوسَّمُها في صمت واجف .

حقا إنَّ فيها الكثيرَ من مَشابهه ومَلامحه .

ولكنَّ ذلك الفَم المتميِّز : لمن يكون ؟ وتلك الشَّفة العُليا ذاتُ النُّتوء : أيَّة شَفَةٍ تُشْبِه ؟

وطارت به الذِّكْرَيات إلى يوم اجتلى فيه شبيهَ تلك الشَّفة ، يوم أنقذَ فَتاته من الغَرَق ، يومَ انتشلَها من بين أطباق الماء ، وحملَها إلى ظُلَّتها على الشاطئ ، يسعفها بالعلاج .

لقد كان أوَّلَ ما استرعى نظرَه منها يَومئذٍ تلك الشَّفَةُ ذات النتوء . لَشدَّ ما كان وجهُها ساعتئذٍ شاحِباً بالغَ الشُّحوب ! كانت مشرِفة على الهلاك !

ورفع بصره من فوره إلى الممرِّضة ، يقول : « كيف حالُها ؟ »

« إنها بخير ، وإن كانت قد عانت عسيراً من المجهود . »

« أ لم يَحِن الوقت لزيارتها ؟ »

« كما تشاء . إنها في الحجرة التالية . »

وهمَّ الزوج بالخروج ، فاستوقَفه الصديق قائلاً : « لا تَنْسَ طاقةَ الورد ! »

فجعل الزَّوج يتلفَّت باحثًا عنها ، ولكنَّه لم يعثر عليها ، وجدَّ في البحث ، فذهبَ بحثُه سُدًى .

فوقف لحظةً حيرانَ قَلقًا ، ثم وقعت عينُه على الوليدة ، فأشرق وجهُه بغتةً ، ودَنا من الممرِّضة يجتذب اللَّفيفة من يديها ، وانطلقَ إلى حجرة الزَّوجة في خُطًا سِراع .

وما إن دخل الحجرة حتَّى احتبسَت خُطاه ؛ لقد

---

(١) ينأم : يخفت ويضعف .

طالعته زوجُه ، ممدودةً على سَريرها ، باديًا شُحوبُها ، فجعَل يرقُبها مهتزَّ الأوصال .

وتلاقت عيناهُما .

كانت نظرتُها إليه كليلة وانِيَة .

وألفى خُطاه تتهادى به إلى السَّرير على استحياء .

وإذا بوجه الزَّوجة تكسوه سَحابة من الشَّجو ، وتتخايل عليه اختلاجة إجهاش ؛ فما هي إلا أن وجد الزَّوجُ نفسَه يُهْرَع إليها ، ويضَعُ اللَّفيفة مترفِّقًا في حِضْنِها .

وانحنى على يَدِها يَبُثُّها قُبْلَةً عميقة زاخِرة .

مَوْعد

كان اليومُ يومَ الجمعة ، والوقتُ منتصفَ الحادية عشْرةَ صَباحًا ، حين جلَس « توفيق بك سعودي » يدخِّن ويرتَشف القَهوة على مَهْل . وهو في الفترة بعد الفترة يَنقُل نظَره في جريدة مبسوطة بين يديه ؛ إذ يستمتع بالرَّاحة بعد أسبوع شاقٍّ قَضاه يعمَل في وزارة المالية . وعن كثَب منه جَلَسَتْ زوجه « بهيجة هانم » منكبَّةً على آلة الحِياكة تَخيط ثوبًا لها .

ورفعَت الزَّوجة بصرَها تقول لزوجها : « نَسيتُ أن أخبِرَك بأنَّ ‹‹ سامي ›› قدِم بعد خروجِك أمس ، فدخَل حجرةَ ملابسك ، وانتقى من بين أربطَة الرَّقبة رِباطًا راقه .»

فقهقه « توفيق بك » وهو يقول :

« لعل ما أعجبَه هو الرِّباط الأزرق ذو النُّقط الحُمر .»

« هو بعينِه .»

« كنت أقدِّرُ ذلك ؛ فقد اشتريتُه منذ أيام قليلة ، ولم أستعمِلْه بعد .»

و وضع « توفيق بك » رِجْلاً على رِجل وأتمَّ قوله : « ثم ماذا ؟»

« لقد عرَفْتَ أمرَ الخُفِّ .»

« رأيته في قدمه .»

وجعل « توفيق بك » يهزُّ ساقَه عابِثًا ، ثم قال : « ممَّن يأخذ إذا لم يأخُذْ منّي ؟»

فتَطلَّق وَجْهُ الزَّوجة بابتسامةٍ نَيِّرة ، وعادت إلى ثوبها تَحيكُه .

وأقبل « توفيق بك » على الجريدة يقرأ ، ولكنَّه ما عتَّمَ أن ألقاها جانبًا وهو يغمغِم :

« لا شيء إلا أنباءَ الحرب والغارات ، كأنَّما خَلَت الدُّنيا ممَّا يستحِقُّ أن يُرْوى . و وُلاة الأمور لا يُعْنَوْنَ بغير ذلك من الشُّئون ، أمَّا حالة الموظفين ، والنَّظَر في إنصافهم ومنحهم من الدَّرجات ما يستحقُّون ، فذلك ما لا يتطلَّب منهم أقلَّ العِناية والاهتمام !»

فأجابته زوجه وهي تدير آلة الحِياكة ، وتَتَبع بنظرها حركة الإبرة : « ومذكِّرتك الَّتي تطلُب بها التَّرقية ، ماذا تَمَّ فيها ؟»

« لقد أعددتُها ، ولكن يجبُ أوَّلاً أن ... »

وسُمع التليفون يدقُّ ، فقال « توفيق بك » على الأثر: « أكبرُ ظَنّي أنه ‹‹ محفوظ بك ›› . لقد وعدَني أن يكالمني اليومَ في شأن هذه المذكرة .»

« أسْرِعْ إذن .»

وكان التليفون في ركن بعيدٍ من الرَّدهة ، فنهَض إليه « توفيق بك » ، وظلَّت زوجُه على حالها منصَرِفة إلى ثوبها تَخيطُه .

وجذب « توفيق بك » السَّمَّاعة وهو يقول : « ألو .»

فإذا بصوتٍ حُلوِ النَّغْمة ليِّن النَّبْرة يجيب : « ألو ، مَنِ المتكلِّم ؟»

فأجاب في تحفُّظ : « هنا منزل «« توفيق بك سعودي »» .»

فقال الصوت النّاعم : « أ موجودٌ «« سامي بك سعودي »» ؟»

فأجاب « توفيق بك » في لهجة حازِمة :

« وماذا تريدين من «« سامي بك سعودي »» ؟»

« أريد أن أعلَم أوّلاً : أ موجودٌ هو أم غيرُ موجود ؟»

فقال « سعودي بك » في عنف :

« غير موجود .»

فتلطّف الصوت الناعم وقال :

« لا بدَّ أنك «« عيسى الفرّاش »» . لا تحتدَّ ، يا «« عيسى »» ! أرجو منك أن تخبِرَ سيِّدَك «« سامي بك »» أن موعدَنا اليوم سيكون تُجاهَ دارِ البَريد في السّادِسَة مساءً . لا تنسَ . سعيدة ، يا «« عيسى »» .»

وهمَّ « توفيق بك » أن يقاطع المتكلّمة ، فخانه صوتُه ، فرمى السمّاعة مكانها وهو يَهْدِر : « وقاحة ! قلّة أدب !»

ثم عقَد يديهِ خلفَ ظهره ، وانطلق يصيح :

« يا «« عيسى »» ! يا ولد ، يا «« عيسى »» ! أين أنت ، يا كلب !»

فسمع زوجه تقول : « «« عيسى »» اليومَ مريض ، وهو في بيته معتكِف .»

فدمدمَ « توفيق بك » قائلاً : « فَلْيَذْهبْ في داهِيَة !»

وانبعث يصيح ثانيًا : « يا «« سامي »» ، يا ولد يا «« سامي »» !»

فقالت زوجه وعيناها مَوْصولَتان بإبرة الحِياكة :

« إن «« سامي »» مع أستاذِ الرِّياضة في حجرة الدّرس .»

« مع أستاذ الرِّياضة ؟»

واستأنف صِياحه ينادي : « يا «« سامي »» ، يا ولد يا «« سامي »» !»

فرفعت « بهيجة هانم » رأسَها عن آلة الحِياكة ، وقالت : « أتركْه ، بربِّك ، يتمَّ درسَه في هدوء . إن الامتحان قريب .»

« امتحان ؟ هه !»

وطفِق يَذرَع الرَّدهة ويَداه معقودتانِ خلف ظَهره ، وهو يُغمغِم بالألفاظ يمضُغها مضغًا ، فسألته زوجه :

« ما بك ؟ أ حَدَّثك «« محفوظ بك »» بشيء جديد في شأن المذكَّرة ؟»

« المذكَّرة ؟ المذكرة ؟ نعم ، نعم .»

وما فَتِئَ يَذْرَع الرَّدْهة بالخُطا القَلِقَة ، ومَضَتْ « بهيجة هانم » تستكمِل عملَها في حِياكة الثَّوب ، وقد فطِنتْ إلى أن أمرًا جَدَّ في شأن المذكَّرة عكَّر على زوجِها صَفْوه ، فحَرَصت على تجنُّب الحديث فترة حتى تسكُنَ الثّائرة .

ولَبِثَ « توفيق بك » يُتابع سيرَه ذَهابًا وجيئة ، وسمِعته زوجُه يُجمجِم : « أطفال لم يخرجوا بعدُ من البيضة تصدُر منهم هذه الأعمال !»

« من تَعني ؟»

« ابنك «« سامي »» . هل أعني غيرَه ؟ ابنك الَّذي حذَّرتُك مِرارًا وتكرارًا من تدليله فلم تُصْغي إلى قولي .»

« ماذا جرى ؟»

« لا شيء ، لا شيء . «« سامي »» آية في الأدب والكمال .»

وما زال يسيرُ وقد وضَع يديهِ في جيب معطفه المنزليّ . وما هي إلا أن رَجَع إليها و وقف أمامها

يقول :

« أنت التي أفسدْته . ما زلتِ تغمُرينه بآيات المَدْح والإعجاب ، ولا تَنْفكّين ترددين على أذُنيه أنّه جميل ، خفيف الرّوح ، غاية في الجاذبية ، حتّى حَسِب نفسه ‹‹ دون جوان ›› آسرَ القلوب ! »

« ما هذا ، يا ‹‹ توفيق ›› ؟ »

« أ لم تلاحظي عليه أنه أصبح الآن يُعنى بِزينته أكثَر من عِنايته بدرسه ؟ لقد صار مكتبُه أشبه شيء بمعْرِضٍ شائقٍ للعُطور والأدْهان ! »

« إنه شابٌّ ، وسِنّه تتطلّب ذلك . »

« سِنُّه تتطلّب ذلك ؟ لعلّك تزعُمين أيضًا أن سِنّهُ تُلزِمُنا بأن نبحَث له عن ... عن خليلات ! »

« أنت بلا ريبٍ تَهذي ! »

فتحوَّل عنها ، وخَطا قليلاً ، ثم قَفَل إليها يقول :

« قلت لك لقد سَمَّمْتِ عقلَه بهذا المديح . »

فابتسمت الزوج وقالت :

« أ لا تعتزُّ الأمُّ بجمال ابنها ؟ أ ليس ‹‹ سامي ›› جميلاً ، يا ‹‹ توفيق ›› ؟ ولكنّي أعترِف لك أنّه لم يبلغْ مَبلغَ أبيه في الوسامة ، مع أن قوامكما واحد ، وعيونكما متماثِلة ، وهذا الحاجب والأنف والفم نسخة أصيلة منك ، يا ‹‹ توفيق ›› . تكادان تكونان تَوأمين ! »

وانثنى عنها « توفيق بك » ، وترَفَّقَ في سَيْره ، بيد أنّه لم يعقِدْ يديه في هذه المرة خلفَ ظَهره ، ولم يضعْهما في جيب مِعطَفه ، بل رفَعَهما في سَكينة وتُؤَدَة إلى شاربه وأخذ يفتِله في عناية ! وعرّج على مرآة قائمة في الحائط ، وراح يتراءى فيها ، ثم انعطَف يمشي في الرَّدْهة لا ينبِس . وعَنَّ له أن يقصِد حجرة « سامي » فخفَّ إليها ، وامتدّتْ يداه تعبثان بأوراقه وأشيائه . وعثر فيما عثر على بضعة أعداد من مجلات أسبوعيّة ، فاعتدل يتصفّحها على عجَل ، فاسترعت بصَرَه صُوَرٌ لبعض غانيات يعمَلن في المسارح والمراقِص ، وقد جلَتهنَّ الصُّوَرُ في أوضاعٍ خَلابة ، فانهمكَ يتفرّجُ . ورأى في عَقِبِ إحدى الصُّوَر عَلامة مرقومة بالقَلَم الأحمر ، فأطال نظرتَه إليها ، وأسرَعَ إلى ذهنه حديث « التليفون » ، وذلك الصّوت النّاعِم الرَّقيق ، فلمَعَتْ عيناه ، واندفع ينقر حافَةَ النّافذة ، ثم غمغم قائلاً : « سأفاجئه بصورتها ، وسيفتضِح أمره . »

واقتطَع الورقة منَ المجلة ودسَّها في جَيبه ، ثم غادر مكانه وتوجّه نحوَ الباب ، فَعلِقَ بصرُه بصورة ابنه على خُوان الزّينة ، محوطةً بقَواريرِ العِطر والأدهان ، فمَثَل قُبالَتها وقتًا ، وجعل يتفحَّصُها ، ثم رفَع حاجبَه الأيمن ومطَّ شفتَه السُّفلى في استهزاء ، وترك الحجرة وهو يتضاحك .

وما إن بَصُرتْ عينا زوجه به حتّى بادَرَتْه قائلة : « ومذكّرتك ، ماذا قال في شأنها ‹‹ محفوظ بك ›› ؟ »

« مذكّرتي ! قال لي إنّه عرَض الأمر على الوَزير ، ولكنّي لم أعلَمْ على وجه التّحقيق ماذا تمَّ حتّى الآن ؟ »

واتّجه إلى الشُّرْفة ، وأسنَد يديه إلى حافَتها ، وسرَّح ببصرِه في أجواز (١) الفَضاء . ثم أخرَج من جَيبه ورقة المجلَّة ، وجعل يتأمّل فيها ، وأسرَع يَطويها ، ثم أشعَلَ لِفافةً منَ التّبغ ، ولبِث يتفرّس في دُخانها . ورَجَع إلى الرَّدْهة بخُطًا بطيئة ، وجلَس على المتّكأ وقد بسَط الجريدة أمامَه ، وظلَّ وقتًا ينقل نظرَه فيها ، دون أن يقرأ حرفًا . وسَرعانَ ما صاح دُفعة واحدة : « أفٍّ لصوتِ هذه الحائكة ! ما أنكرَهُ ! »

فرفَعتْ « بهيجة هانم » بصرَها إليه تتعجب ، بيْدَ

(١) أجواز : جمع جَوْز ، وهو من كل شيء وسطه .

أنَّها لم تنبِس . كان هذا أول اعتراضٍ سمعته منه في شأن هذه الحائكة . وما هي إلا أن استأنفَتْ حياكتَها ، فغمغَم « توفيق » في حِدَّة : « إنَّ الرَّاحة مفقودةٌ في هذا المنزل ! » وألقى الجريدَة من يدِه ، ونهض إلى حجرته .

طرح « توفيق بك » جسمَه على مَقعَد فسيح وأخذ يَزْفِر ، ثم واتاه الهدوء رُوَيدًا ، فانطلَق يفكِّر ، فإذا به يعرِض مشاهد من حياته . وأحسَّ في هذه اللَّحظة وحدَها ، ما ساد حياتَه الرَّاتبة من خُمول يستوجِبُ المَلَل : المنزلُ والديوان والقَهوة — وجوهٌ لا تتغيَّر ، ونظامٌ لا يتبدَّل ، وطابَع من الحياة أشبَه بطابع التَّلاميذ في المدارس أو الجند في الثُّكْنات . كان صوتُ الحائكة يَهْدِر في الرَّدْهة ، فصاح وهو في مكانه لم يفارق مَقعَده :

« أكادُ أجَنُّ من هذه الحائكة . »

وحينئذ قَدِم « سامي » على أبيه فقال له : « هلْ طلبتَني يا أبي ؟ »

« نعم ، طلبتُك . أهلاً وسهلاً ! »

وزايل « توفيق بك » مَقعَده ، واشتبكَتْ يداه خلْف ظَهره ، وعاد سائرًا في الحجرة يغدو ويَروح ، ثم مَثَل أمام ابنه ، وقال له ، وقد زَوى ما بين عينيه : « إلى متى استهانتُك بحقِّ أبيك ؟ »

فدَهشَ الفتى وتساءل : « أيُّ استهانَةٍ ، يا أبي ؟ »

« خُفِّي من قبلُ ، ورِباط رَقبتي أمس . إنَّك لتُبيحُ لنفسِك ما أعُدُّه افتئاتًا على ما يجِب لي من احترام . »

« الحقُّ ، يا والدي ، أنه لم يكن لديَّ رِباطٌ على لون كسوتي الجديدة ، وقد استأذنتُ والدتي في استعارة هذا الرِّباط الملائم ، فأذنَتْ لي . »

« أذنتْ لك ؟ تَعني أن لوالدتِك حقَّ التَّصرُّفِ في ملابسي كما تشاء ! »

« لم أقل ذلك ، ولكنَّني أقصِد ... »

« آه ، لا ، لا . لقد بلَغ الأمرُ حدًّا لا يُطاق ! »

« سأعيد إليك الرِّباط من فوري . »

« بعد أن استعملته ؟ شكرًا . وما شأن هذه الكسوة الجديدة ؟ لم أعلم بها من قبل . »

« لقد نقلتُ إليكَ نبأها . »

« لعلَّها الكسوة الخامِسة أو السَّادسة الَّتي تستحدِثُها هذا العام ، على حين أقتصِرُ أنا على واحدة أو اثنتين . »

« إنني لا أستحدِث كسوةً إلا بأمرك . »

« بأمري أو بغير أمري ، لقد أصبحتَ الآن لا تُعنى إلا بملبَسِك وزينتك . تحسَبُ نفسك أبهى الشُّبَّان رُواء(١) ، وأرشقَهم قوامًا ، وأجملَهم شكلاً . يجب أن تُخلِيَ رأسَك من هذه الأفكار . »

« ما هذا يا والدي ؟ إنني ... »

« يجب أن تهتمَّ بدروسِك ، بدروسك وَحْدَها ، وأن تُعَدِّل من سيرك ، وتقوِّم من سلوكِك . أ فاتك أن الامتحان قريب ؟ »

« إنني لا أغفُلُ عن الدُّروس ، يا أبي . »

« هذه نصيحتي إليك ، وما أبغي إلا نفعَك . »

وضرب يدَه في جيب معطفه المنزليِّ غيرَ عامد ، فلمسَتْ أناملُه ورقة المجلَّة ، فأمسَك بها وأبقاها مكانَها . و مشى يَذْرَع الحجرة بخُطُوات قَلِقة ، وقال : « إن والدتَك قد أفعَمَتْ رأسك بألوانٍ زاهية من المديح والإطراء ، فركَبكَ الغُرور ، وخيَّلَتْ لك نفسُك أنك ‹‹ دون جوان العصر ›› . »

وتضاحك وهو يردِّد : « ولكنْ أيُّ ‹‹ دون جوان ›› هذا ؟ ‹‹ دون جوان ›› لا يساوي بصلة ! »

وربَّت كتِفَ ابنه في مُداعبة ساخِرة ، وقال

(١) الرواء : الحُسن .

له : « لا يُغضبنّكَ كلامي ! إنني لا أعنيك وحدَك ، بل أعني هذه الطّائفة المتطرفة من شبّان اليوم – هذه الطائفة الّتي إن وازنتَ بينها وبين طائفتنا حينَ كنّا في مثل أعماركم ؛ ظهر لك البَوْنُ شاسعاً . ومع ذلك فلِمَ نذهبُ بعيداً ؟ تأمّلْ قامتك المُقوّسةَ و وجهَك المعروق ، ثم ارجعْ بصرَك إلى قامتي المنتصبة و وجهي الرّيان . لقد أفسدكم التخنّث ، على حين دفعتنا الرُّجولة الحقُّ إلى المكانة الّتي نستحقها . ذاكِرْ دروسَك ؛ إن الامتحان قريب . »

وضمّت مائدةُ الغداء الأبَ والزوج والولد ، وكان « توفيق بك » صَموتاً مُوزّع الفِكر . وحضَر الطعام ، فأكل الثّلاثة في جوٍّ يسوده السُّكوت المطويُّ على قلق وحَيرة .

وزفر « توفيق بك » مُدمدِماً :

« كل يوم ‹‹ قورمة ›› ! أ ليس في الدنيا غير ‹‹ القورمة ›› ؟»

فقالت زوجه وهي تنظر إليه متعجّبة :

« إنه اللون الّذي تستطيبه وتفضّله على غيره من الألوان . »

« ولهذا السبب تقدّمينه إليَّ كلَّ يوم ؟ إن أشهى الألوان وألذّها إذا قُدّم كل يوم كان جديراً أن يُعافَ ويُكرَه . »

« ولكننا لم نطبخ ‹‹ القورمة ›› منذ عشَرة أيام . »

« تعنين أنني كاذب في دعوايَ ؟ أ لا يحقُّ لي أن أنتقدَ الطّعام الّذي آكُله ؟ أ تريدين أن تُرغميني على أكْلِ ما لا أشتهي ؟»

« إنك ثائرُ الأعصاب اليوم ، يا ‹‹ توفيق ›› ، ولا يمكنني أن أبادلك الحديث . »

فصاح على الأثر : « إن كلامَك هذا هو الّذي يثير الأعصاب . »

« إذن سألزَم الصّمت إن كان هذا يروقك . »

« لن تسمعيني ألفِظُ كلمة واحدة . استريحي ! »

وفي السّاعة الخامسة جعل « توفيق بك » يرتدي ملابسه ، فإذا به ينتقي أبهى ما عنده ، وكان يختلس النّظر إلى ساعة يده ، في الفينة بعد الفَينة ، وأحكم فَتْلَ شاربه وتضميخَ شَعره بالعطور والأدهان .

ودخلَتْ عليه زوجُه تقول : « إنك بلا ريب تُعِدُّ نفسَك ‹‹ للسينما ›› . سنذهب معًا على حَسَب الاتفاق . »

فقال لها وهو مهتمٌّ بعَقد رباط الرقبة :

« ولكن ، يا ‹‹ بهيجة هانم ›› ، لديَّ موعدٌ مع ‹‹ محفوظ بك ›› في شأن المذكّرة . »

« المذكّرة ! ما هذا القول ؟»

فربّت خدَّها مداعِبًا ، وقال : « لا تستائي ، يا عزيزتي ؛ إنه موعد مهمٌّ جدًّا . أمّا ‹‹ السينما ›› فيمكن أن يصحبَك فيها ‹‹ سامي ›› . »

فغمغمَتْ « بهيجة هانم » : « سامي ؟ لقد أخبرني بأنه سيُذاكِر دروسَه مع صديقه ‹‹ فتحي ›› . »

فوقف « توفيق بك » وقفة اعتراض ، وقال : « درس في الصّباح ودرس في المساء ! أ نسيتِ أن اليومَ يومُ الجمعة – يومُ الرّاحة والاستجمام ؟ إن الولَد يقتُل نفسَه بهذا العمل المضني ! »

وأصدر « توفيق بك » أمره إلى ابنه بأن يُلغيَ مذاكرته مع صديقه « فتحي » ، ويصحبَ أمّه إلى « السينما » ؛ لأنه شديدُ الحاجة إلى رياضة ذهنية تُريحه من كدِّ المذاكرة .

وغادر « توفيق بك » المنزل بعد أن رَشَقَ وردةً حمراء في عروة سترته ، وسار في خُطا المتظرِّف الرَّشيق ، و وِجهتُه دارُ البريد !

سِرُّ الأميرِ الهِنْدِيِّ

تَحِيَّةٌ لِذكرى المرحوم « علي طَبنجات »

سمعتُ بالشخصية المسرَحية الّتي سَرَتْ بحديثها الصُّحُفُ ، مُغْدَقَةً عليها ألقابَ الإشادَةِ والإعجابِ ، وهي شخصية الأمير الهنديِّ « أوتاكاما » ، الَّذي يعرِضُ دَوْرَهُ الهزْلِيَّ البارِعَ في « سينما الكواكب » .

فهَفا بيَ الشَّوقُ إلى أنْ أقصِدَ دار « السينما » في إحدى الأماسيِّ ، لأنْعَمَ بشُهود ذلك الفَصْلِ .

وما إنْ بدا الأميرُ يتواثبُ في خِفَّةٍ على المَنَصَّةِ ، حتّى ثارتْ عاصِفةٌ منَ التَّصفيقِ والحفاوة .

وما كادَ بصري يأخُذه ، حتّى عَرتني هِزَّةٌ .

هذِه الملامحُ والسِّماتُ معروفةٌ لي بِلا رَيْبٍ : هَذا الوجْهُ الأعْجَفُ المسْنونُ ، وذَلكَ الأنفُ المدَلّى ، وتلكَ القامَةُ القصيرة المرِنة . ليْسَ شيء من ذَلك بالجديد في عينيَّ .

ولَكِنْ ما خَطْبُ هَذِهِ اللِّحية المُشَذَّبة الخفيفة المُعصفَرة (١) ؟

وحَوَّمَ بي الفكرُ غيرَ قليل ، تختلِطُ عليَّ الأشباهُ ، وأنا من أمر هذا الأمير في حَيرة وعجَب .

ليس هذا الرَّجلُ غريبًا عنّي . أ ممكِن أنْ يكونَ مَنْ أعني ؟ أ هُو حقا ؟

إنَّ مَنْ يتجه إليه بالي قد طواه الرَّدى منذ أعوامٍ ، وأصبحَ في ذِمَّةِ النِّسيان .

انطلَق الأميرُ الهِنديُّ يمارِس ألاعيبه ، فاستهواني بلَطائفه وأفانينه ، وما يشيعه من جوٍّ مَرِحٍ ينتزع الضَّحِكَ من أعماق القلوب .

فأنساني ذلك ما كنتُ أفكِّر فيه من اشتباه شخصيّته عليَّ ، واندمجْتُ مع النَّظّارة فيما ينعَمون به من أنس صَخّاب .

لقد كان صديقُنا « أوتاكاما » يتألَّق في لَبوسه الحريريِّ ، تنعكِس عليه ألوانُ الأضواء ، وعلى رأسِه عِمامته الهِندية المتطاولة المُوَشّاة ، آمنةً أن تسقُط ، وإن علا بها وَهبط ، وإن دار بها في الهواء دَوْراتِه « البهلوانيَّة » الخواطِف .

وفي الفَينة بعد الفَينة تَنبعِث من حَلْقه أصواتٌ متباينة ، يحاكي بها هَديلَ الحَمام حِينًا ، ونُعابَ البوم طَورًا ، وصُراخَ القُرود تارةً ، ومُواء القطط تارةً أخرى .

وقد يَدَعِ ذلك كلَّه ، فتراهُ دفعةً واحِدة قد خيَّل إليك – بما يصطنع من نَبَرات مخالفة ولهجات متباينة – أنَّك تستَمِع إلى مجلِس صاحِب لأناسٍ اشتدَّ بينهمُ النِّقاشُ بمختلف اللُّغات .

ولا يلبَث أن يَفْجَأك بدَوْرات متلاحِقة ، يمثل لك فيها أشْهَر رَقَصات الأمم ، غيرَ غافِلٍ عن إظهار حِذْقِه وبراعته في رقصة البُطون .

وإنه ليبلُغُ الذُّروة في خِتام دورِه ، إذ تنشَقُّ الأرض عن الشَّيطان في صورة مارد سَمْهريٍّ (٢) القامة ، بائنِ الطُّول ، كأنه في ثوبه الأحمر القانئ لِسانٌ من نار ، فيتصدّى له الأميرُ الهنديُّ ، وسَرعان ما يَنْشَب بينهما عِراك ، يلتحِمان فيه ويختلطان ، فلا تدري في زوبَعة المعركة الدائرة أيُّهما الأمير وأيُّهما الشَّيْطان ؟

ولا يلبَثُ الشِّجار أن ينجَليَ عن فوز ذلك القزَم الهِنديِّ ، بعد أن تورَّمت عيناه ، وتمزَّقت سراويلُه ، وهو يُجرجِر الماردَ ، ممسِكًا بقدَميه ، على حين يتزايلُ شبحهما عن النظارة بتزايل الأضواء، وتَراخي الأستار، وَسْط عاصِفةٍ هَوْجاءَ من التَّصفيق والهُتاف .

وتبِعَ ذلك الدَّورَ عرضُ روايةٍ سينميَّة (٣) على السِّتارة البيضاء ، لم تستطع على طلاوتها أن تُنسيَني

(١) المصبوغة باللون الأحمر المستخرج من نبات العصفر .

(٢) سمهري : معتدل .

(٣) سينمية : سينمائية .

مباهجَ تلك المعابثات ، الَّتي راعنا بها القَزَمُ الهنديُّ السَّاحِرُ .

وفيما أنا أبارحُ دار « السينما » – شهدْتُ لَمَّةً منَ الناس قد تجمهروا عند الباب ، وقد انبعَثَ منهمُ التَّصْفيقُ والضجيج ، وإذا بعينيَّ تلمَحان القَزَمَ الهنديَّ في لَبوسه الحريريِّ اللامع ، وعمامته الطولى ، ولِحيَتِهِ الهفهافة المعصفَرة ، يَختَرِمُ (١) الصفوفَ ، تتهادى خُطاه ، وهو يوزِّع بَسَماته الرَّفيعة بين الجموع ، ويبعَث تحيَّاته إشاراتٍ رشيقةً يتجلّى فيها الظَّرف والكِياسة .

رَنَوْتُ إليه أتأمَّلُه ، واتَّفق أن التقتْ نظْرتي بنظرته ؛ فسَرعانَ ما لَمَحْتُ في عينه اختلاجَةً طارئة ، وأحسَسْتُ بدافع يحدوني أن أقبِل عليه أحيِّيه ، ولكنّي شعرتُ به يشيح عني بوجهه ، ويتابعُ سَيره ، ثم ارتقى سيّارَته الفخمة ، وغاب بها بين أطباق الزِّحام .

وبينما كنتُ في طريقي إلى البيت ، عاوَدَتْني الدَّهشة والعَجب من ذلك التشابه الناطق بين الأمير الهنديِّ وبين صديقي القديم « أبي علي الأَرتيست » ، فتملَّكتني صورته ، واستبدَّتْ بي ذكرَيات أيّامه .

وهل أنسى آخِرَ موقفٍ له على مَسْرَحِه الخشبيِّ الوضيع ، الّذي شيَّده في « سيدنا الحسين » بما وَرِثه من مال أبيه ، وكيف كان يمثِّل دوره في مأساة عنيفة ، انتهت بأن شيَّعه الجمهورُ بألوان من القَذائف ، وضُروبٍ من صِياح الاستنكار وصَفير الاستهجان ؟

وكانت آخرُ لُقْيةٍ رأيتُه فيها ، وهو موسَّدٌ فِراشَ المرض في حجرته المهلهَلة ، الَّتي يُفْصح كلُّ ما فيها عنِ الإفلاس والاندحار .

ما أنسَ لا أنسَ وجهه المتقَع ، وقد انتابَتْه غيبوبةُ مرضه الأخير ، فاندفَع في تخليطه يَهذي بمشروعه الجسيم : إنشاء مؤسَّسة للتَّمثيل على أحسن طراز !

وفي الغَداة ، وأنا أتناولُ فطوري ، صلصلَ « التِّلفون » ، وإذا المتكلِّم كاتب سرِّ الأمير الهنديِّ « أوتاكاما » ، يُنهي إليَّ رغبة الأمير في لقائي الآنَ بفندُق « شبرد » .

وكانت مفاجَأةً غريبة أسلَمتني إلى تفكيرٍ حائر لم ينتهِ بي إلى قرار .

ما خَطبُ تلك الدَّعوة ؟

وماذا يبتَغي الأمير منّي ؟

وكيف عرَفني ؟

وكنتُ كلَّما تقاسمَتني هذه الأفكارُ ، ازددْتُ شغَفاً وتطلُّعاً إلى هذا اللِّقاء . وجعلْتُ أتعجَّل الخُطا ، وأنتهِب الطَّريق ، حتّى إذا بلغتُ باب الفُندق ، ألفيتُ كاتبَ سرِّ الأمير يرتقب محضري ، فتقدَّمني من فوره إلى مَثوى الأمير .

وما كِدْتُ أخطو في الحجرة حتّى رأيتُ « أوتاكاما » ينهَض دُفعة واحدة لاستقبالي ، وقد بسط لي ذراعيه ، وهو يصيح : « أهلاً وسهلاً . »

فوقفتُ مشدوهاً أحدِّق فيه ، وكأنَّني قُبالةَ شَبَح قد انشقَّتْ عنه غَياهبُ المجهول البعيد . وهمهمتُ: « من أرى ؟»

فعلا صوتُه بقوله : « صديقك القديم ، أ لا تعرفني ؟»

« أبو علي ؟»

فأقبل عليَّ يعتنقني ، ويشدُّ على يدي ، و رأيتني أقول له : « لقد شهدتُك البارحة . »

« وأنا أيضاً تبيَّنتكَ بين الناس . »

ومال بوجهه قليلاً ، وهو يدعَك يديه ، ثم قال: « الموقف لم يكن مُواتياً لملاقاتك ! »

ثم دعاني إلى الجُلوس ، واتَّجه إلى مِنضدة قريبة ،

---

(١) يخترم : يشق .

فتناول منها قدحًا قدمه إليّ قائلاً : « تذوّقْ هذا الشّراب الهنديّ ؛ ليس فيه عليك ضير .»

فأمسكْتُ بالقدح ، وقد انسرح بصري ، وأنا ساهمٌ أغمغم : « ولكن ، كيف كان ذلك ؟»

فأطلق الصديق ضحكة مُجلجلة ، وقال : « لعلّك تعجَبُ من لِقائي الآن ، بعد أن غيّبتني أطباق الثّرى . يُحيي العظام وهيَ رَميم !»

ثم أخذ يدي يضغطُها ، واكتسى وجهُه مَسحةَ الجِدِّ والتفكير ، وقال :

« لقد مِتُّ حقا ، مات صديقك ‹‹ أبو علي ›› الّذي كنت تعرف من أمره كلّ شيء . ولقد بعِثْت اليومَ بعثًا جديدًا . تلك حياة طَويتها ، وهذه حياة أخرى أحياها ثانيًا .»

ومدَّ يده إلى عُلبة اللّفائف السّوداء الفاخرة ، وأعطاني واحدةً منها ، وأخذَ لنَفسه أخرى ، وأشعل اللّفافتين بِقَدّاحَةٍ مُذَهَّبة ثمينة .

واسترخى في ضِجْعته ينفُثُ ضَباب الأنفاس ، وهو يقول : « ما أجملَ أن يستمرئَ الإنسانُ أطايبَ الحياة !»

و شاع الصّمت بيننا فترة ، وأنا أتفرّس فيه ، وهو يستمتع باجتذاب الأنفاس من لِفافته . وسمعتهُ يقول وهو تائه الفِكر ، شارد النّظرات :

« كان بِودّي أن ألقى بَقيّة الرِّفاق ، وأن أزورَ مَعاهد الذّكريات ، ولكنّني أريد أن أستبقِيَ لنفسي حياتي الجديدة ، فلا أشوبَ صَفْوها بنبْشِ الماضي — ذلك الّذي كابَدْتُ من أيامه ما كابدتُ !»

« أ لستَ راضيًا عن حياتك الأولى ؟ لقد كنتَ فيها مجاهِدًا ، وكانت لك مُثُلٌ عالية تُناضِل في سبيل تحقيقها .»

« لم يكن ذلك كلّه إلا عبثًا وأضغاثَ أحلام . لِتَدَعِ الميت ينطوي عليه قبرُه !»

فجرَعتُ من القَدَح جَرْعةً أتذوقها على مهل ، وقلت خافض الصوت : « حقا إنه لَسِرٌّ عجيب !»

فتطلّق وجهه ، وقال : « ما زلت أنتَ كعهدي بك ، طَلاعًا إلى التعرُّف ، شديدَ الفُضول . لن أبوحَ بمكنون أمري لغيرك ؛ فكنْ له صائنًا . إنْ هي إلا أيام قلائل أقضيها هنا في وَطني الأول ، ثم أواصِل التّطْواف في مختلِف الأصْقاع .

« لقد شَهِدْتَني آخرَ مرّةٍ وأنا على فِراش الاحتِضار، أعالج سكَراتِ الموت . وما كان لك أن تعرِف من أمري بعد ذلك أيَّ شيء .

« لا تنتظر منّي أن أجاهِرك بالكثير ممّا غاب عنك. بحَسْبِك أن تعلم أنّي بعد أن ذاع مَنْعايَ بوقت لا أدري أ قصيرًا كان أم غير قصير ، شعَرت بمبعثي ثانية في مدينة ‹‹ الأقصر ›› . وكنتُ لا أكاد أجِدُ لي مأْوًى ، وتدهورَتْ بيَ الحال أسوأ التّدَهور ؛ أمسِكُ الرَّمَق بالكِسْرَة بعد لأيٍ ، وأمتهِنُ أرذَل المهن استعطافًا لِلقوتِ .

« وكنتُ ساعةً على رَصيف النّيل ، أتملّى مَغربَ الشّمس ، وأشباحُ السُّفُن تَنساب على مَتْن الماء غاديةً رائحة ، تكسوها صِبغة الشَّفق ، وكأنّها بما تعكِسُه من ظِلال قاتمة تحمِل بين طَيّاتها طلائع اللّيل .

« وبينما أنا مستغرق في تأمُّلاتي ، أعرِض حياتي الماضية ، وأوازِنُ بينها وبين أيامي الحاضرة ؛ إذ شعرت بيدٍ تلاطفُ كتفي ، وإذا أنا أمام رجلٍ أجنبيٍّ مهندَم ، حليق اللّحية ، ناصع البَشَرة ، يرتَسِم على وجهه وَسْم السنين .

« فقال لي في لهجة مِصرية مألوفة : ‹‹ هل لك أن تكسِب اللّيلة « ريالاً » ؟››

« فقلت على الفورِ ، وسُعار الجوع يُلهبني :

‹‹ بكلّ سرور ! نظير ماذا ؟››

« فأخذ بيدي ، وسار معي على الرَّصيف ، وهو يقول : ‹‹ الأمر هيِّن لا يكلِّفك شيئًا . ليس عليك إلا أن ترتديَ الحُلّة الرَّسمية السوداء والقبَّعة العالية ، وتخطِرَ على المسرح بِضْع دقائق ! ››

« فثارت بي ذكريات خالية — ذكرياتُ المسرَح ، ومَواقفي على مِنصته . أيّةُ مفاجأة هذه الّتي تدعوني أن أصِلَ ما انقطَع من حياتي الفنيّة ؟

« فوقفتُ أشْرِعُ نَظراتي إلى الرَّجل ، وقلت : ‹‹ ليس المسرحُ غَريبًا عليَّ . تستطيع أن تركَنَ إليَّ ، وسَترى من أمري عَجبًا . اِشرَحْ لي ما ينبغي أن أضْطَلع به من مواقف البطولة . ››

« فأخذ الرجل بيدي ثانية يتابعُ بِيَ السَّير ، وانطلق يشرح الدَّور الَّذي اختارني له ، فتبيَّنتُ أنه يريدُني لموقف هازئ أغدو به أضحوكة للنّاظرين .

« فأنِفْتُ ذلك كلَّ الأنفة ، واستيقظَتْ كبريائي تحميني أنْ أذعِنَ لهذه السُّخْريَة الّتي تُجافي الكرامة .

« وباطلاً حاول الرَّجل إقناعي ، وتهوينَ الأمر عليَّ ، حتّى لقد اضطُرِرْتُ أن أردَّه عنّي ؛ فأغلَظْتُ له في القول .

« وكلَّما أصرَرتُ ، ازداد بي إلحافًا ، وهو ينظر إليَّ في مُلاطفة ، ويبتسِم لي في رِفق .

« وما زال بي حتّى قلتُ له في لهجة حاسمة: ‹‹ هَيْهاتَ أن أظهرَ على المسرَح إلا في الموقف الَّذي هيَّأتني له العِناية الإلهيَّة . لقد خُلِقْتُ لأداء رسالة « المأساة » ! ››

« فألفيتُه يتأمَّلني مَليا ، وابتسامتُه تلتمع على مُحَيّاه ، وقال : ‹‹ ليست هذه أولَ ساعة رأيتُك فيها ، فإني رقَبتُك أيامًا موصولة ، وفطنت إلى النَّوع الّذي تجيدُه ، ويقيني أن العناية الإلهية إنَّما هيَّأتك لغير « المأساة » . إنّي رجل قد بَلوتُ المسرَح ، وأبلَتني التجاريبُ ، فلتطمئنَّ إلى اختياري ، وأؤكِّد لك أنَّك لن تَنْدَمَ على مُطاوعتي ! ››

« فصحتُ حَمِيَّ الصوتِ ، راجفَ الأوصال : ‹‹ « المأساة » وإلا فلا ! ››

« فنظر إليَّ الرجلُ نظرَةَ إشفاق ، وقال لي : ‹‹ شأنَك وما تريدُ ، يا صاحبي ، وهاك عُنواني . إنْ شئت أن تُراجع نفسَك ، وترضى ما عرضته عليك ، فأنا في انتظارِك ، أرحِّب بك . ››

« ودفع إليَّ بطاقتَه ، وانصرف عنّي ، فوقفْت أشيِّع شبَحه يَطويه الظّلام ، ثمَّ أدرتُ بصري إلى النيل ، أتبيَّن في غير وضوح قِلاع السُّفن تَميد في الأفق ، كأنَّها أشباح مُخيفة توشك أن تهجُم عليَّ .

« وتناهَتْ إلى سمْعي أصواتُ المجاديف ، وهي تقرَع الماء قرْعَها المتواتر ، فتبعَثُ في نفسي الوَحشة والاكتئاب .

« و وجدتُني أتنحّى عن الشّاطئ ، ويَدايَ معقودتان خَلْف ظهري ، وأنا خافِضُ الرَّأس ، يتوزَّعني خليطُ الهواجس والأفكار .

« وأحسستُ بين جنبيَّ معركَة الجوع تدور رَحاها في صَخب وعنف .

« مهما يكن من أمرٍ ، فلن أذيلَ (١) فنّي ، ولنْ أشتَريَ بِمُثُلي العالية ما يُعْرَض عليَّ من قوتٍ وَضيع ، ومَجد رخيص !

« ولكن ... لنتدبَّرِ الأمرَ على هِينة ورِسْل (٢) . ذلك الرجلُ الأجنبيُّ يريدني على أن أظهر في موقفٍ فُكاهيٍّ .

« أ ليستِ الفُكاهة مُعترَفًا بها في التَّمثيل ؟ أ ليسَ للمسرحِ أبطالُ ‹‹ المَلْهاة ›› ؟ أ ليسوا هم وأبطالُ ‹‹ المأساة ›› على قَدَم المساواة ؟

« وتعالى من أحشائي صوتُ الغَوْث ، وَطوَّفَ

---

(١) يذيل : يهين ويبتذل . (٢) الهينة والرِّسل : المهل .

بمُخيِّلتي أبطالُ الأفاكيه والمهازل في عالم الفنِّ ، يعرضون أدوارَهم أمام عينيّ .

« فرأيتُني أستوقِف شبحَ ‹‹ شارلي شابلن ›› في مواقفه المشهورات ، لم يَدَعْ حركة إلا قام بها ، ولا وسيلة إلا ابتغاها ؛ انتزاعًا للضَّحِك ؛ وبعثًا للبَهجة والإيناس .

« على أيَّة حالٍ لو قُدِّر لي أن أتدلّى بنفسي إلى مواقفِ هؤلاءِ الأبطال المضحكين ، فلن يكون ذلك إلا في مثل هذا البلد الّذي أنا فيه غريب ، لا يعرفني أحد .

« وأخرجتُ بطاقة الرَّجل ، أقلِّب فيها النَّظر ، على سبيل التعرُّف ، فشعَرتُ بخُطايَ تَطوي الطَّريقَ إليه .

« وكان نجاحي في تلك اللَّيلة على المسرَح تقريرًا لمصيري !

« لقد تراميتُ في خِضَمِّ حياتي الجديدة ، بدافعٍ لا طاقةَ لي بردِّه . وتوالتِ الأيّامُ ، أواصِل الرِّحلات والأسفار ، يُسلِمُني بلدٌ إلى بلد ، ونَجمي يزداد من سُطوع ، والنُّعمى تُقبل عليَّ بغير حساب ، وأنا أقوم بدوري الفُكاهيِّ الجديد ، منتحِلاً شخصيةَ أميرٍ هنديٍّ .

« لقد بدأتِ الغشاوةُ تنقشِعُ رُوَيْدًا عن عينيّ ، فأبصرتُ نفسي على حقيقتها ، وتوضَّحَتْ لي عبقريَّتي في مَيدانها ، وعلمتُ أن مهمَّتي الأصيلة على المسرح هي تلك المهمَّة الّتي رأيتها أنتَ منّي البارِحة : أن أرقُص ، وأن أدور ، وأن أواليَ هذه الأفانينَ من المعاكَسات والمشاحنات !»

واستبقاني صديقي « أبو علي » — أو بالأحْرى أميرُ الفُكاهة الهنديُّ — ساعةً ، نَعِمنا فيها بأطايِبِ الأحاديث ، وتذاكَرْنا سوالِف الأحداث .

وتركتُه مُواعِدًا إيّاه أن نلتَقيَ في القريب ؛ فصدَفَتْ بي عن المبادَرة إلى إنجاز الوعد شواغِلُ لم أستطع لها دَفْعًا .

وصُبحَ يوم قرأت في صحيفة سيّارة أنَّ الأمير الهنديَّ « أوتاكاما » بارحَ « القاهرة » على متن إحدى الطّائرات ؛ تلبيَةً لدعوةٍ مفاجئة تلقّاها من إحدى الدَّوائر الفنيَّة في الخارِج .

وعَلَّقَتِ الصَّحيفة على هذا النبأ تعليقًا تناولَتْ فيه حياةَ الأمير الهنديِّ ، فصوَّرَتها صورة مرقَّشة محشوة بالأكاذيب .

وختَمَتْ تعليقَها مُطنِبةً في الإشادة بفنِّ الأمير ، سَخيَّةً له بأطيب الأمانيِّ .

فوضَعْت الصَّحيفة جانبًا ، تتخايل ابتسامة شاحبة على شفتيّ .

ثم وَجَدتُ يدي تَدْلِفُ إلى أحَدِ أدراجِ مكتبي ، عابثَةً بما يضُمُّ من أوراقٍ ، وكان من بينها مَجلَّةٌ قديمة العَهْد ، ورأيتني أقلِّب صَفَحاتها ، فوقَعَتْ عيني على نُبذة تُعلِّق بها المجلة على الرِّواية الّتي ظهر فيها « أبو علي الأرتيست » يومَ بَنى مسرَحه الخشبيَّ الوضيع في حيِّ « الحسين » .

وجعلْتُ أقرأ تلك النُّبذة ؛ فهالني ما فيها من نقدٍ مُرٍّ ، وتجريحٍ بالغِ القَسوة ، وسخْرِيَة شديدة اللَّذع ، وألقابٍ ذميمةٍ في غير رحمة .

وكان ختامُ تعليق المجَلَّة نداءً حارًّا إلى رجال الأمن ، أن يسوقوا ذلك المأفون إلى مستشفى المجانين !

ونهضتُ أشعل لِفافةً ، وقصَدت إلى النّافذة ، أسيمُ (١) النَّظرَ في الأفُق .

ما أكثرَ أمثالَ « أبي علي » في الناس !

ما أحوجَهم إلى أن يموتوا كما مات !

وما أسعدَهم بأن يُبعَثوا كما بُعِث !

(١) أسيم النظر : أرمي به .

حَربٌ خاطِفة

١- برقيَّة إلى الآنسة ع . ك بجاردن سيتي بتاريخ أول سبتمبر :

« أحبُّك !

« هي كلِمةٌ واحِدةٌ لا أقولُ غيرَها ، جَرْيًا على أصول المنطِق الحديث وملابَسات العصرِ الحاضر .

« أحبُّك !

« كَلِمةٌ حوَت عناصر السُّرعة والتركيز .

« نعم ، أحبُّك ، ولا تَعنينا التَّفاصيلُ الآن !

م . ن »

٢- برقيَّةٌ إلى الآنسة ع . ك : بجاردن سيتي بتاريخ ٢ سبتمبر :

« إن حبٌ سنة ١٩٤٣ حبٌّ يهبِط على القَلب كما تهبِطُ القنبلةُ من الطائرة قاذِفة المفرقَعات ، وهذا هو شأنُ حبّي .

« رأيتك في جهةٍ ما ، وفي ساعة من ساعات الحَياة ، ومن ثَمَّ تكلَّم القَضاء ، فأصدرَ حكمَه الَّذي لا يُردُّ .

« أهواك يا معبودتي !

م . ن »

٣- برقيَّةٌ إلى الآنسة ع . ك بجاردن سيتي بتاريخ ٣ سبتمبر :

« إنَّني أعرفُك ، ولكن أنت لا تعرفينني . ماذا يُهِمُّ ؟

« وقد أحببتُك ، وستُحِبِّينني .

« إنَّها إرادتي ، وهي أيضًا إرادتك . وإرادتُنا كِلَينا هي إرادةُ القدَر !

م . ن »

٤- برقيَّة إلى الآنسة ع . ك بجاردن سيتي بتاريخ ٤ سبتمبر :

« توقَّعي غدًا أمرًا خطيرًا .

« مفاجأةٌ ليس بعدها مفاجأة .

« لا تفاصيلَ اليوم .

« أعبدُك ، يا غراميَ الدائمَ !

م . ن »

وفي اليوم التَّالي وقفَ أمام باب الشقة بـ « جاردن سيتي » شابٌ مهندَم معطَّرٌ ، رَشَق وردَةً حَمراءَ في عُرْوَةِ سُتْرَته ، وحمَل طاقَةً من الأزهار الفوّاحة مُعدَّةً لغَزْوِ القلوب .

وفُتح الباب ، وظَهرَتْ على عَتَبته غادَةٌ رائعةُ الحُسن ، في مَنامةٍ حَريرية هَفهافة ، فألقَتْ على الشّابِّ نَظْرةً فاحِصة من طَرْفها الكحيل ذي الأهدابِ المتراصَّة الطويلة ، ثم قالت :

« حضرتك بلا رَيْب م . ن صاحبُ البرقيات .»

« أنا نفسي !»

« تريدُ طبعًا أن تعلمَ رَدّي على هذه البرقيّات ، وَفْقَ مَنْطقكَ الحديث وملابَسات العَصْر الحاضِر ، حيثُ السُّرعةُ والتركيزُ في الأقوال والأفعال من ألزم الواجبات !»

« لا فُضَّ فُوك !»

« ها هُوَ ذا رَدّي . »

وارتفعت يَدُ الحسناء ، وسَرعانَ ما هَبَطَتْ على صُدْغِ الفتى !

وإذا بِفَرقعة تَرِنُّ مُتعالية ، فتتجاوَبُ بها الحيطان ، تَبِعَها في الحال دَوِيٌّ بابٍ يُقفل !

وكان م . ن حادَّ الذَّكاء ، على اطِّلاع واسع بخُطَط الحروب الحديثة ، فعَلِمَ أن الهُجومَ الخاطِفَ إذا لم يُصادِفه انتصارٌ حاسِم ؛ انقلَبَ إلى هزيمة فاصِلة ، تتطَلَّبُ التقهقُرَ العاجِلَ في انتظام .

فأطلَق ساقَيْه للرِّيح – كما يقولون – وجعَل يَقفِزُ على الدَّرَج مَثنى وثُلاثَ ورُباعَ .

كُلُّ عَامٍ وَأَنتُم بِخَيْرٍ

كُلُّ عام وأنتم بخَير

بَرِحْتُ مَشرَب « نيو بار » بميدان الأوبرا ، مَشْرَبي المفضَّل ، الَّذي أزجي فيه أكبرَ وقتي في الضَّحَوات والأماسيِّ .

برحته في مَدْخل اللَّيل إلى داري ، أتأهَّب للجُلوس إلى المِذياع ، كيْما أستمعَ إلى الحفلة الساهِرة الكُبرى ، الَّتي تقام في مسرح حديقة الأزبكية ، مُشْتَرِكةً في إحيائها كواكبُ مصر في الغناء .

ما بُكوري في العَوْدِ إلى منزلي ، والحفلةُ لا تبدأ إلا في منتصَف العاشرة ؟ وهل تتطلَّب الأهبَةُ لِلسَّماع هذا الوقتَ المديد ؟ إنَّها بضعُ لحظاتٍ أدير فيها مفاتيح المِذياع ، فتَنساب الأنغام في انسجام .

لم أجدْ في نفسي من جَواب عن سؤالي ، فقد ألفيتُني أتخلَّى عن اللَّعب بالنَّرْد في حلَقْة الصِّحاب ، تاركًا ورائي سَواطعَ الأضواء ، زاهدًا فيمن كنت آنَس إليهم من الباعة الجوَّالينَ في المَشرَب ، أساوِمُهم وأماكِسُهم (١) ، وأخرُج ظافرًا ببَعض السِّلع ، لقاءَ ثَمَنٍ بَخْسٍ .

نَفَضْتُ يدي من هذا كلِّه ، وعَجَّلتُ بالانصراف ، آخُذُ الطَّريقَ إلى الدَّار ، على حينِ أنَّ اللَّيلة ليلةُ العيد ، و مِن شأنها أن تُثير البهجة وتبعَثَ على الانشراح ، ولكنِّي لا أشعر بابتهاجٍ ، بل أشعُر بتذمُّر وتضجُّر .

« كلُّ عام وأنتم بخير ! »

شَدَّ ما كَلَّ لساني اليومَ من تَردادِ تلك العِبارة الشَّائعة المبتذَلَة ، بل شَدَّ ما سَئِمَ سمعي وَقْعَها .

لماذا أستشعِرُ أنِّي مستغرِق في الشَّواغِلِ ، وأنَّ على كتِفي أعباءً من جِسامِ المهامِّ ، فإذا رجعتُ إلى نفسي ، أتبيَّن ما يشغلُني ويثقلني ، لم أَلْمِس شيئًا يقوم به عُذْري ، وتَنهَض حُجَّتي ؟

تعلَّقتُ بترام « شبرا » واتخَذتُ لي موقِفًا في الدَّرجة الثَّانية ، ولبِثْتُ أعاني ضَغْط الزِّحام من حولي ، ولكنِّي لم ألْقِ لِذلك بالاً ، فقد ألِفْتُ هذا الوقوف ، واحتمالَ مكارِهه ، طَوْعًا لسياسةِ الاقتصاد الَّتي أخذتُ بِها نفسي في المعاش .

لماذا أنا ضائق ؟

لقد أنجزْتُ كلَّ مطالبِ العيد .

أعدَدْتُ البطاقاتِ والرسائلَ الَّتي أحيِّي بها الأهلَ والخُلان .

أوْصَيتُ بصُنع الفطائر وشراء الفاكِهة والورودِ ، للذَّهاب بها إلى القَرافة في الصَّباح .

كتَبْتُ قائمةً بالعِيديَّاتِ الَّتي عليَّ أن أمنحَها للمحتاجينَ وغيرِ المحتاجين ، ممَّن ألِفوا مِنْحتي في هذا اليوم السعيد .

و وجدْتُ يدي تفزَع إلى جيبي تنتزِع منه دفترَ الحِساب ، واستغْرقتُ في مُراجعة ميزانية العيد ، مجتهِدًا في اختصار ما يُمكن اختصارُه ، سيرًا على سَنَنِ الاقتصاد الحميد .

وما زِلتُ مصروفًا إلى دَفتري وحسابي ، حتَّى كاد التَّرامُ يجوز الموقِفَ الَّذي يجب أن أنزِل فيه ، فقفَزْتُ من المركَبَة قفزةً زلَّت بها قدمي ، فتماسكْتُ وتمالكتُ ، واتَّخذْتُ الطريقَ إلى منزلي ، وأنا أغمغِم ساخِطًا ثائرَ النَّفْسِ .

وما خطوتُ بِضْعَ خُطُواتٍ ، حتَّى برز لي رجل أشعثُ أغبرُ يتوكَّأ على عصاه ، وعلى فمه ابتسامةُ مَلَقٍ باردةٌ ، فمدَّ يده القذِرة قائلاً :

« كلُّ عام وأنتم بخير ! »

فصِحتُ به : « وأنتَ في شرٍّ ، يا سيدي ! ليس لديَّ ما أُعطيه ! »

(١) أطلبُ منهم أن يَنقصوا ثمن البضاعة .

دخَلتُ الحارة الضيِّقَة ، لأبلُغ منزلي الصَّغير .

إنه المنزل الحبيب إليَّ ، على الرَّغم من قِدَمه وضآلته .

لقد أورثني إيّاه أبي ، وإني لَمشفقٌ عليه ممّا أصابَه من تصدُّع ، فما أشبهَه بعليل أزمَنَ داؤه ، حتّى أوشَك أن يصرعَه !

والحقُّ أنَّ منَ الرَّحمة القضاءَ على مثل ذلك العليل، تخفيفًا عنْه ، وإراحةً له ممّا يُلاقيه ، وذلك ما اعتزمْتُ في شأن منزلي العزيز ؛ لأهْدِمَنَّه ، ولأقيمنَّ مكانه دارًا جديدة على طِراز هندسيٍّ حديث .

إنّي لفاعلٌ ذلك حتْمًا ، ولكنْ متى ؟ لستُ أدري . فقدِ انتوَيْتُ ذلك ، وبنيت العزْم عليه ، منذ قَضَيِ والدي . وها هي ذي خمسةَ عشر عامًا تمرُّ ، وأنا أرسُمُ على الورَق خططَ الدّار الجديدة ، وأعمِلُ فيها يدَ الإصلاح والتعديل ، وفقًا لما يجدُّ في هندسة البناء ومرافق الحياة من مخترَعات وكشوف ، وما بَرِح المنزل القديمُ ماثلاً يصارِعُ الزَّمن في تجلُّد واحتمال .

دخَلْتُ الدارَ ، وألقيت بالطربوش جانبًا ، ورُحت أمسَح عرقي . ولم يكد يستقرُّ بي المُقام حتّى صافَح سمْعي صوتُ صبيٍّ يتباكى وينتحِب انتحابَة المَمْلول .

إنه ابنُ الطَّباخ ، ذلك الَّذي يكمُن في رُكن المطبخ ، لا يَبْرَحُه في ليلٍ ولا نهار ، كما تكمُن القِطَّة مترصِّدَةً لكلِّ ساقطة .

يعلَم الله أيَّ خسارة يجشِّمني إيّاها ذلك الصبيُّ الشَّره الشُّغوب . إنه ساعِدُ أبيه الأيمنُ في التصيُّد والاغتنام .

فيمَ نَحيبُه وتباكيه ؟

أ لا يتقلَّب في أعطاف خَيري ، ويُنمّي عَظْمَه ولَحْمَه من حُرِّ مالي ؟

هذه الدّيدانُ الصغيرة هي الَّتي تعمَل في خراب البيوت ما يَعمَل السُّوس في الخشَب الغليظ .

ضِقْتُ ذَرْعًا بما تَواصَل على سمعي من ذلك الطَّنين السَّقيم ، الَّذي استرسَل فيه ابنُ الطّاهي ، فصحت :

« إن لم تسكُت لَكُمْ ضوضاءُ ؛ فَلَقتُ أدمِغتَكم ! »

وانقطع الصَّوْتُ ، وشاع الصَّمت ، وانكفأتُ على المِنضَدة أتصفَّح دفتري ، وأراجعُ حسابي .

ما زال دَخْلي وافرًا بحمدِ الله ، وما زالتْ ثروَتي تتكاثر .

ما أيْمَنَ تلكَ السياسة الاقتصادية الَّتي الْتزَمْتُها منذُ خلَفْتُ أبي على ماله ! لقد نَوَّلَتْني خيرًا جزيلاً، ولكني مع ذلك ظَلَلْتُ في الحياة فردًا ، لا يخدُمني إلا ذلك الطبّاخ وابنُه المنهوم . وهأنذا قد ذَرَّفْتُ (١) على الأربَعين ، وأنا مستكمِلٌ أسبابَ العافية ، في عيشة راضيَة .

عجبًا لأولئك الَّذين لا يتركون الناسَ يَحيَوْن في طُمأنينة وأمان ! ما شأنُ الخلائقِ بي ؟

ما بالُ هؤلاءِ المُتطلّعينَ يُحْدِقون بي ، ويُحَدِّقون فيَّ ، تنبَعِث من أعيُنِهم نظراتُ الحسَد والحِقد ؟

وإنّي لأحِسُّ بأنَّ أشدَّ الناس عداوةً لي ، هم أولئك الأقاربُ الَّذين إخالُهم يَعُدّون عليَّ ما أصيبُ من لُقَيْمات .

هذا عمّي لطيف بك ما أسمجَه وأثقلَه ! قامة كالسّارِية عجفاءُ ، وعُنُق تمتدُّ كأنَّها أفعى ، وشَفتان تَبدُوان في ابتسامة كابِية حينَ يتحدَّث إليَّ . وإن ريقه لَيتحلَّب طَمَعًا في ثروتي الَّتي تربو على ثروتِه ولا تفتأُ تربو . وإنَّه ليتحوَّلُ كلَّ حيلة ليُغِلَّ رَقبتي بالزَّواج من ابنته فكرية ، فهو يَنْصِبُ لي ذلك الفخَّ الأنيق ، ولكن هَيهاتَ أن أكونَ له صيدًا !

أمّا ابنته فأعترِف بأنها على شيءٍ منَ الوسامة ، وإنّي لأحِس بأنها تَميل إليَّ كلَّ الميل . وكيف يغيب ذلك

---

(١) زِدْتُ

عنّي ، وأنا الّذي لا تندُّ عن فِطنتي خفايا النُّفوس ، ولا يُعْيِيني أن أستكْنِهَ ما هو مستورٌ خلف الظَّواهر ؟

إلا أن عقلي ينهاني أن أرضى بهذا الزَّواج الَّذي يهدِّد ثروتي ، ويشفي بها على الخطر . وهلِ الزَّواجُ إلا نفقاتٌ إِثْر نفقات ، تَستنزِف الأموال ، وتهدِم الثَّروات .

خاب فأل عمي ، وذهب طمعُه أدراجَ الرِّياح .

وألفيتُ يدي تَعبث في دُرْجِ المنضَدة بأوراق ، وإذا بها تُخرِج رسومَ المنزِل الجديد الَّذي أزمعْتُ ابتناءَه ، فأقبلْتُ أدرس الرُّسوم وأفاضِل بين بعضِها وبعض ، متوخيًّا أن يكون منزلي المنشودُ على أحدثِ طِراز ، تتوافَر به الرَّاحة والطُّمأنينة .

إنّي لأذكُر يومًا دخَل عليَّ فيه عمّي ، وأنا باسِطٌ هذه الرسومَ أتصفَّحُها ، فجعل يشاركني فيما أنا فيه ، وكانت له ملاحظات في شأن حُجَر الأطفال وما إليها . وفيما هو يتحدَّث ، كان يكشف لي في ابتسامته المداهنَةِ عن أسنان نَخِرة صُفْر .

حقا ما أسمجَه ! ما أسمجَه !

سألقى عمّي هذا حتْمًا في القَرافَة صُبْحًا ، فهو لا يتخلَّف عن زيارة القَرافة في كل مناسَبة وكلِّ موسم .

إنّه يَعُدُّ اختلافه إلى تلك المقابرِ نزهةً طيبة ، فأراه هنالك متطلِّقَ الوجْهِ ، هانئ البال .

عجبًا له ! يُبْدي هذا التفاؤلَ الموصول ، حتّى في مَثابَة [1] الموتى ! إنّي مُلاقٍ عمّي في غَدي ، وإنّي لمحيِّيه تحيةَ العيد لا بدَّ ، وسألقى معه شرذمةً من ذوي القُربى، أولئك الَّذين لو كشفوا عن طواياهم ، وأفصحوا عن نيّاتهم ، لصاحوا صوتًا واحدًا وهم يحيّونني :

« كلُّ عام وأنت مع الرَّاحلينَ ! »

ما أشقَّ يومَ القرافة عليَّ !

ألا ساءت تلك العاداتُ المرذولة من توزيع الفَطائر والفواكه على قومٍ لا يَطعَمونَها ، وإنَّما يجمعونها ليبيعوها بدُرَيْهِمات !

لقد أيقَنتُ أنَّ طاقات الورودِ الَّتي أنتقيها وأبذُل فيها غاليَ الثمنِ ، تكريمًا لمن يضمهم الثَّرى من أهلي ، لا تلبَث أن تُحملَ بَعد مغادرتي للقرافة ، فتباعَ لمن يطلُبها زينةً لمجلس ، أو حِليَةً لعُرْسٍ !

ومن هو المستغِلُّ الأول لهذه النفقات ؟

هو « التُّرَبيُّ » .. التربيُّ . يا لله من هذا الرجل الذي يتظاهر بالتديُّن والتقوى ، لا تفارِق السُّبْحَة الطويلة السوداءُ أصابِعَه ، ولا تلْقاه إلا بفمٍ يُبَسْمِل ويُحَمْدِل ، ويعلَم الله ما يُكِنُّه في وليجةِ نفسِه من خُبث وشرٍّ وطَماعية !

هذا التربيُّ ... إنّي ملاقيه أيضًا غدًا ، فهو يقف على رأس الطَّريق ، يرتَصد لِمَقْدَمي ، فما إن يلمحني قادمًا حتّى أجدَه قد تحامل على ساقيه ، مترائيًا بالبِشر ، قائلاً لي :

« كلُّ عام وأنتم بخير ! »

ثم يُمسِك بيدي يحيِّيني تحيةَ حفاوة وإكبار ، فأشعر ويدي في يده برعْشَة تسري في أوصالي . إنَّ تلك اليدَ الهزيلةَ المعروقة الَّتي يحيِّيني بها هي الَّتي ستوسِّدني ترابَ القَبر ، وتسوِّي عليه جنادله [2] الصُّمَّ . لأكاد أراه جاثمًا على فمِ القبر ، حارِسًا له ، كأنَّما يصدُّني أن أتخلَّص من سجن التُّراب إلى دنيا الطَّلاقة والنُّور !

وإنّي لأتمثَّل في مُخيِّلتي هذا « التربي » وقد جمع حولَه تلك الشّرذمة من أقربائي ، على رأسهِم عمي ، وهم يتقاسَمون في اجتماعهم مالي ، ويتوزَّعون ثروتي – تلك الثروة الَّتي ضَنيتُ في جمعها وادِّخارها ، وهم في خُمولهم يتثاءبون .

---

(١) بيت أو ملجأ .

(٢) الكتل الصخرية ، جمع جَنْدَل .

هي ثروة أسْهرتُ فيها جفني ، وأسْقَيْتُها جَهدي، وتعهَّدتها بحيلتي وفِطنتي .

كم من صَفَقاتٍ مُرْبحة لِبيوع جَبْريَّة ، ما زِلتُ بها حتّى اغتنمتُها !

كمْ من مآزقَ وضوائقَ ، في أسواق البيع والشِّراء، انتهزتُ فرصَتها فكانت كَسبًا عظيمًا !

أ أترك هذه الثروةَ نُهبَةً لأولئك الحَقَدة والحسّاد من أقاربي الطّامِعين ؟

ما اضطراري إلى زِيارة هذه القَرافة ؟

أ ما آن لنا أن نثور على هذه التقاليد البالِيةِ الَّتي لا خير منها ولا نفع ؟

وما لي أجشِّم نفسي ما لا ترتاح إليه نفسي ؟

بِئسَ يومُ العيد من يومٍ عَبوس ، أقضيه في هذه القرافة البغيضة ، فتتجمَّع فيه على كاهلي آلام العُمُر ، وهمومُ السنين !

وفزِعتُ إلى دفتر الحِساب ، وأنا أزْفِر .

وشغَلْتُ نفسي بالأرقام وقتًا أجمع وأطرَح .

ما ألَوْتُ جهدًا في القِيام بما يجب عليَّ لِذكري والديَّ كِليهما في هذا الموسم الكريم .

هأنذا أوصي القُرَّاء بتلاوةِ القُرآن ، في المواعيد المقرَّرة ، وأجري عليهم ما جرت به العادة من أرزاق.

أين الشُّحُّ الَّذي يعزوه إليَّ هؤلاء الأفّاكون ؟

أنا أنفِق المالَ في وجوهه ، قِيامًا بالمفروض .

حسْبي أنّي عن نفسي راضٍ ، ولن يكون لِلحَقَدَة والحسّاد من نصيب إلا الخزيَ والخَسار .

سيُمِدُّ اللهُ في عمري ، وستظَلُّ في يدي ثروتي الَّتي تتحلَّب لها شِفاه أولئك الأقارب المتكالبين .

و وقَع بصري على المِذياع ، فنظَرت في ساعتي. في الوقت فُسحة ، حتّى يحينَ موعِدُ الحفلة .

الحمد لله على ما وَهَبَني من عقلٍ ، أضبِط به أمري ، وحَزْمٍ أحكِم به تصرُّفي .

لقد آثَرتُ القُفُول إلى داري ، أنْعَم بجَلسة رخيَّة ، فأستمع إلى غِناء الحفلة في هدوء واطمئنان .

ورُحت أخلَع سُترتي ، وأستبدِل بِحذائي خُفَّ المنزل .

أ كنتُ مستطيعًا أن أكون على هذه الحالِ المريحة لو ذَهبتُ إلى المسرَح للسَّماع ؟ المسرحِ المكظوظ بالرُّوّاد ، المخنوق بالأنفاس وضَبابِ الدُّخان !

أينَ يقَع ذلك المسرَح من جلستي الطيبة في منزلي الآمِن ، حيث أملِك التصرُّف في أمري كلِّه على الوَضع الَّذي أهْوى ؟

وفتحتُ النافذة استجلابًا للنَّسَمات الرِّقاق ، فطالعتني تلك الأبنِيَة الشّوامخُ ، كأنَّما هي مَرَدَة عماليق تأخذُ الطَّريق على منزلي الوادِع .

وجعَلتُ أمسَح جبيني المتفصِّد عَرَقًا ، وأنا أحاوِل استنشاقَ الهواء .

ثم انطلقتُ أرْجع البصَرَ حولي .

يا لَه من عُشٍّ جميل أسعَد بسُكناه !

ولكن سَرعان ما تبدَّتْ لي على ضَوء المِصباح الكليل ، تلك الحوائِطُ المستهدِمة ، وذلك الأثاثُ الرَّثّ .

عَيبي الَّذي أعترف به أنّي وفيٌّ ألوف ، لا أحبُّ التغييرَ والتَّبديل . بيدَ أنَّ سُنَّة الكون غالِبة ، وسيحينُ وقتٌ يضطرُّني إلى التفريط في ذلك العُشِّ القديم ، فأقيم مكانَه مَغْنًى عصريا جديدًا .

وخَطَوتُ الهُوَينى ، وأنا أروِّح وجهي بِمنديلي ، مُهمهِمًا :

« يا لَهَذا الهدوء الجميل ! ما أروعَ أن ينفردَ المرءُ بنفسه ! نِعْمَتِ الوَحْدةُ ، ونِعْمَ الصمت !»

وفي تلك اللَّحظَة علا صوتُ ابنِ الطباخ يُعْوِلُ ، يطلُب المعونة والغَوث ، فصِحت :

« كرَّرتُ عليكم أنّي لا أريد الضَّوضاء . سكوتًا ! »

وألفيتُ الصبيَّ يُهْرَع إليَّ باكيَ العين ، وخلفَه أبوه. وما هيَ إلا أن أمسَك به ، وأنحى عليه يعنِّفُه ، فقلت للطّاهي ثائرَ الصَّوت :

« ألا تسكنُ لك ضَوضاء ؟ أليس عندكم حياء ؟ »

فانبرى الطاهي يعتذِر ، وهو يقول :

« الولد يرغَب في حلَّة جديدة للعيد ، وهو مصِرٌّ على ألا يلبَسَ من قديم ثيابه شيئًا . »

فقطَّبتُ ما بين عينيَّ ، وأنا أجيبُه :

« وما شأني ؟ لقد أخذْتَ مِنحَةَ العيد منّي ، فدبِّر أمرك . »

وما لبِثتُ أن أشرْتُ إليه أن ينصرِف ، فمضى يجرُّ ابنَه المتباكي .

لا مِريَةَ عندي في أن المنحة الَّتي خَصَصْتُ بها ذلك الطاهي لا تقوم ثمنًا لثوب جديد ، ولكنّي لست المسئول عن تدبير تلك الشئون ، فما أنا لذلك الطفل بوالِد .

وانسرَحْتُ أفكِّر ، وأنا أَلْمَحُ شبحَ الغُلام متباكيًا ، يَطويه البابُ في ذِلَّة وانكِسار .

لو كان قُدِّرَ لي أن أتزوَّج لأعقَبْتُ مثلَ هذا الغلام . عجيب أن يدور هذا الخاطِر برأسي !

أيُّ زواجٍ ؟ وأيُّ غلام ؟

أكنتُ أرضى أن يكونَ لي ولد مثلُه ، يزعِجني بِبُكائه ، ويُقلِقُني بمَطالبه ؟

وحانَت منّي نظرَة إلى المِذياع ، أنعِم النظرَ فيه . جَليلُ الفائدةِ هذا المِذياع !

لقد أربحني جنيهًا كاملاً كنتُ أبذُله اللَّيلةَ ثمنًا لِتَذْكِرَةِ الدُّخول في المسرَح ، غير ما قد يَجِدُ من نفقاتٍ ، يحميني البقاء في المنزِل أن أبذلَها .

المسرح ... المسرح !

وظَلِلْت أتخيَّل ما فيه : أنوارٌ سواطع ، مشاهد بهيجة ، جمهور يعلو قَسماتِهِ البِشْر والائتناسُ ، وتتنقَّل بين طوائفه النُّكاتُ والمداعَبات .

وكيفَ لا يكون الأمر كذلك ، والجمهور مقبِل على الاستمتاع بحفلَة من أروع حفَلات السَّنة في ليلَة العيد ؟

لماذا أحِسُّ السَّاعة انقباضًا وكآبة ، على حينِ أنَّ الجوَّ كلَّه مَدْعاة إلى فرح وابتهاج ؟

لماذا أستشعر الآن وحشَةً وقلَقًا ، على حينِ أنّي في منزلي الأمين ، لا يشغَلُني شاغل ؟

وطَفِقْتُ أذْرَع الحجرةَ في جيئة وذُهوب ، وأخيِلَةُ المسرَح تتراقص أمامَ عيني مختلِفةَ الألوان .

وألفيتُني أتَّجِهُ إلى التِّلفون فأطلُبُ بائع الدُّخان ، القائمَ حانوتُه على رأسِ الشّارع ، ذلك الذي أعرِفه يُعْنى بالحُصول على تَذاكِرِ الحفلات الكُبرى ، ويتَّجر بها بين المُختلِفينَ إلى حانوته .

ولَمّا أجابني قلت له :

« لَمْ أطلبْك إلا لأحيِّيك تحيةَ العيد ، جريًا على سُنَّتي مع المعارف والأصدقاء . »

فردَّ الرجل تحيتي في أدب ورِقة ، فتابَعتُ قولي :

« كيف حالُ التجارة ؟ وماذا كان مِن شأن التَّذاكر الخاصَّة بحفلة الليلة ؟ »

فسرَعانَ ما قال لي ، والسُّرورُ يتجلّى في صوته :

« لقد بعتُ التذكِرَة بضِعْف ثمنِها ، وقد نَفِدَتِ التَّذاكِرُ جميعًا . أمّا شباكُ التَّذاكر في المسرح ، فقد

أغلِقَ منذ الضَّحْوة . لا تحسبنَّ ، يا سيدي ، أنَّ في استطاعتِك الحصولَ على تذكِرة الآن .»

فعاجلته بقولي ، مكروبَ الصوت :

« أمجنون أنا حتّى أسعى إلى شراء تذكِرة ؟ أتريدُني أن أهرِقَ راحتي وأترُك منزلي ، لأزُجَّ بنفسي في مُلتطَم من الجمهور الصّاخِب ؟»

ووَضعتُ سماعة التلفون ، وعدت أذْرَع الحجرة ضائقَ الصَّدر . كيف فاتني أن أدعوَ نفَرًا من خُلاني يقضون هذه الأمْسيَّةَ معي بجِوار المِذياع ، فأجدَ لمشاركَتهم ما ينفي الوَحشة عنّي ؟

ولكن هل كان يجمُل بي أن أدعوَهم ، دون أن أهيِّئَ لهم بعض الطَّعام والشراب ؛ احتفاءً بِمَقْدَمِهم عليَّ ؟

بَيْدَ أنَّ هذا الطعامَ والشَّراب أكثرُ نفقةً من ثمن التذكِرة ، وتمضيَة العَشيَّةِ في المسرَح ، فأيُّ جدوى لهذا الإجراء ؟ ألا ساءَ هَذا التفكير !

كانت الفِكرة السَّليمة الموفَّقة أن أقتصِر على دعوة صديقي الأثير ، رفيقي منذ الطُّفولة : حسني . وإنَّ ضيافةَ فردٍ واحد لا تكلِّفني إلا القليل .

إلا أني أعلَم علمَ اليقين أن حسني يقضي ليلته في بيته ، بجوار المذياع ، ومن حوله زوجُه وبنُوه.

لقد أنشأ حسني أسرة يدَّعي أنَّه ينعم معها بِعَيش خصيب ، فهَلْ هو صادِق فيما يدَّعيه ؟

يا طالما نَعَيْتُ عليه أنه تزوَّج ، وعدَدتُ ذلك زلَّة فرطت منِه . الزَّواج ! ما الزَّواج ؟

أليس هو إهدارًا لحُرِّيَّة الزوج كلَّ الإهدار ؟

أوَ ليس هو تجشُّمًا لألوانٍ من التَّبِعات تقصِم الظُّهور ؟

أوَ ليس هو سلسلةً من النفقات موصولةَ الحلقاتِ يومًا بعد يوم ، ولا سيَّما في مثل يوم العيد الَّذي يلقِّبونه اليومَ المبارك السعيد ؟ وأيُّ بَركة وسعادة لِمَن هُوَ مُطالَبٌ بالإنفاق بعد الإنفاق فيما يسمُّونه الواجبات والأوضاع ؟

لا عقلَ لمن يُسْلِم عنقَه لِنير (١) الزَّواج !

الحمد لله الَّذي كَمَّلني بعقلي ، فحماني أن أكون زوجًا !

لستُ أنسى قول حسني إذ يماريني في شأن الزواج والأبوَّة :

« يجب ألا يكون الإنسانُ أنانيا في الحياة ، يؤثِر نفسَه بكلِّ شيء . الزواج تآلف وتعاطُف ومؤازَرة ، وهو سبيل الذرية الصَّالِحة ، تلك الَّتي هي قِوام المجتمعِ الرَّكين ، هي وَصْلٌ لحياة الوالدَيْن بعد انقضاءِ العمر ، هي الوسيلة الكريمة لِتحقيق فكرَة الخلود .»

وكان حسني حين يبلُغ هذا المَبْلَغ من قوله ، يأخُذ بكَتِفي وهو يهزُّني متحمِّسًا ، ثم يقول :

« لن تَفْنى في هذه الدنيا ما دام لك ولد !»

وإنَّ حسني إذ يَقْرَعُني بقوله هذا في فلسَفة الخلُود ، لَيذكِّرني بموقفه في عهدِنا الغابر أمام مدرِّس اللُّغة العربية ، إذ كان يُلقي محفوظاتٍ من الشِّعر والنثر، ينال عليها النهاية العليا في دفتر الدَّرجات ، فهو إذ يردِّد لي اليوم كلامَه في فلسفة الخلُود ، لا يَزيد على أن يكرر على مِسمَعي ما يعيه من المجلات والكتب ، الَّتي يبعثر في شرائها ماله .

لقد كان حسني في عهد المدرسة تلميذًا مثاليا يواظِب على الحضور ، ويحفَظ الدُّروس ، ويُطيع الأساتذة ؛ فليس بِمُسْتَنْكَرٍ عليه أن يكون اليومَ زوجًا مثاليا يحمِل ما يُلْقَى عليه من تَبِعاتٍ وفروض!

وأَحْدَثُ مرة زُرْتُ فيها دار حسني كانت منذ أسبوعين ؛ إذ قصدتُه مهنِّئًا إيّاه بطفلِه الثّالث ، ولا يبرَح

(١) الخشبة المعترضة فوق عنق الثور أو الثورين المقرونين لجرِّ المحراث ، والمقصود هنا القيد .

مخيِّلتي مَرآهُ وهو مقبل عليَّ في بشر وابتهاج ، وبين يديه وليدُه الجديد . وما إنْ لمحني حتّى بادرني يقول ، وهو يُميط اللِّثام عن وجه الطفل في اهتياج :

« أُنظر ! أُنظر ! أ لا ترى فيه مَلامحي وَضّاحةً متميِّزة ؟ أُنظر إلى أنفه ، أ ليس هو أنفي ؟ أُنظر إلى عينيه ، أ لستَ تراهُما عَيْنَيَّ ؟ ما قولُك ؟ إن هذا الطفلَ صورةٌ لي ، قطعة منّي . إني لأحِسُّ بأنّي أحيا فيه حياة جديدة أخرى . أ ليس هذا هو الخُلود عين الخلود ؟»

وألفيتُني أحدِّق في وجه الطفل ، ملاطفًا إيّاه وقتًا.

ما أملحَ هذا الكائنَ الصغير الَّذي تتجمَّع فيه عناصر الإنسان كاملةً !

إنّي لأعجَبُ ، وأنا أنظُر إلى تلك اللّفيفة المختلجة، كيف تغدو بعد حين إنسانًا سَويا له شأنه ؟

وتعالت صَيْحاتُ الطِّفل ، فأخذ حسني يجول به في الحجْرة يهدهِدُه ، والطِّفل مسترسِلٌ في صِياحه لا يسكن ، فلم يجد أبوه بُدًّا من أن ينطلِق به إلى أمه .

وشيَّعتُ صديقي في مُنصرَفه بابتسامة إشفاق ، وأنا أردِّد : « هذا هو الخلودُ عينُ الخلود ! أراحَنا اللهُ أيُّها الصِّديقُ المخدوع من مثل هذا الخلود !»

وبينما أنا في ملتطَم هذه الأخيلة والتصوُّرات ؛ إذ أنْبهَتْني دقّاتُ الساعة يعلِنها مِذياع الجيران ، فانحسَر عن رأسي وافدُ الذِّكرَيات المتداعية ، ومدَدْتُ يدي إلى المذياع أهُمُّ بأن أعْرُكَ مفاتيحه ، فما لبثت أن سمعتُ ابنَ الطاهي مسترسِلاً في أنينه ، فأردتُ أن أصيح إسكاتًا له ، ولكنّي لم أفعل .

ما أبْيَنَ الحزنَ في بكاء هذا الطِّفل ، فإنّه ليشعرُ بِما تمتلئُ به نفسه من كُربة وتحسُّر !

هذا الكِساء الجديد الَّذي أعدُّه أنا شيئًا تافهًا لا بال له ، يَعُدُّه ذلك الصبيُّ أُمنيتَه القُصوى وكَنزه الثمين . فهو يطوي الأيام واللَّيالي ارتقابًا ليوم العيد ، ذلك اليوم الَّذي يُتيح له أن يَخرج في حُلَّته القشيبة ، مزهوًّا بها بين أترابه ولِداته . وها هو ذا اللَّيلة يقتله الأسى ؛ إذ يجِد نفسَه محرومًا في غدِه تلك المتعةَ ، فلن يخرُج إلا في ثوبه القديم ، وهو خَزْيانُ يتوارى عن عيون رفاقه المتفاخِرين بالجَديد منَ الثِّياب .

ولكن ماذا أنا مُستطيعٌ أن أعمل له ؟

ما أكثرَ أمثالَه ممَّن لا يُنيلهمُ العيدُ ما يشتهون !

الدُّنيا تزخَر بالمآسي وضروبِ الحِرمان ، وما خلَقني اللهُ عائلاً للبشَرية ، كفيلاً بإسعاد الأشقياء !

وتواصَل عويلُ الطِّفل ، حزينَ الرَّنين ، فأذكَرَني ذلك وليدَ حسني وهو بين يَدَيْ أبيه لا يسكُن له صِياح ، وأبوه لا يَمَلُّ الطَّواف به في الحجرة ، يُهَدهِده في رِفق وحنان .

وما برِحتْ أذني تحمِل أصداء قول حسني :

« إن هذا الطفل صورة لي ، قطعةٌ منّي . إنّي لأحس بأنّي أحيا فيه حياةً جديد أخرى !»

و وجدتُني أذْرَع الحجرة ، تُطبِق عليَّ الوَحشة من كلِّ جانب ، ثم وقَفْتُ أمام الرسوم الخاصّة بمنزلي المُزْمَع بناؤه ، فألقيت عليها خواطِفَ النَّظَرات ، ثم ارتسَم في خاطري أنَّ هذا المنزل قد تم بناؤه على أحدَث طراز ، وهو عامِر تتجلّى فيه بهجَةُ الحياة ، وتخيَّلْتُ أنّي مقبِل على المنزل ، فإذا طيفُ فكرية ابنة عمّي ماثلةً في النافذة ، تلوِّح لي بمِنديل في يدها، وعلى ثَغرها ابتسام !

لم تبقَ مِرْية في أنّي مُتْعَب منهوك ، وإلا لَما دار في رأسي هذا التخليطُ ، ولا جرى في مخيِّلتي ذلك السُّخف من التصوُّرات .

وقصدتُ إلى النافذة أستَرْوِح ، وتطلَّعت أتفرَّج .

ثَمَّةَ السابلةُ في غُدوٍّ ورَواح ، وهم مستبشِرون طَلْقَةٌ وجوهُهم ، يتطارحون تَحايا العيد .

ما فَتِئَ ابنُ الطّاهي ينتحِب .

ورأيتُني أذهبُ إلى حجرة الأَصْونَة ، حيثُ تستقرُّ الملابس والتُّحف ، وطَفِقْتُ أقلِّب فيها ، حتى أخرجتُ منها صُنْدوقًا تليدًا (١) تُصان فيه بعضُ الحُلِيِّ والنفائس، فوضعته على المِنضدة مَعْنيا به ، وفتحته أتَمَلّى ما يحتويه ، فبرزَ لعيني خاتَم لأمّي ، وذكرت قولها :

« هذا الخاتَم تستبقيه لزوجِك ، يا بنيَّ . لا تفرِّط فيه ، ولا تَهَبْه لغير من تختارها لك زوجة . »

وجعلت أتلمَّس الخاتَمَ بينَ أناملي . إنَّه خاتَم طويلُ العمر ، تتوارثُه الأسرة خَلَفًا عن سَلَف ، كما هو شأنها في كثيرٍ غيرِ هذا الخاتَم من نفائسَ وألطاف.

تلك هي ساعة من الذَّهب كانت لأبي ، وقد أوصاني أن تكون ميراثًا لابني البِكر ، فغمغمتْ شفتاي : « ابني ؟ ابني ؟ ابني ؟»

وظلَّ بُكاء ابن الطاهي يلاحِقني حيثما حَلَلْتُ .

لا مندوحةَ لي عن إسكاته على أية حال !

وأودَعْتُ الحُلِيَّ صُندوقَها التّليد ، وحمَلتُ الصندوق إلى حِرزِه المكين ، وانثنَيتُ أقلِّب في الأَصْونَة ، حتّى عَلِقَتْ يدي بحُلَّة صغيرة مزركَشة كانت لي في عهد صِباي ، وقد صُنِعَتْ في مناسبة خاصَّة بي ، فاحتَفظَتْ بها أمي منذ ذلك العهد تذْكارًا لِتلك المناسَبة .

وما هي إلا أن انتزعْتُ تلك الحُلَّة ، وعَجِلْتُ بها إلى المَطْهى .

لا شكَّ أن مصير هذه الحُلَّة أن تكون طُعْمةً للعُثّ ، فلا خُسْران عليَّ في أن أسكِت بها ذلك الصبيَّ الّذي لا ينقطع لبكائه طَنين .

وما إن رآني الصبيُّ حتّى تَفزَّع ، ولاذ بأبيه يلتمِس عندَه المأمن ، فقلت له وأنا أمُدُّ بالحلَّة يدي :

« لا تخشَ بأسًا أيُّها الأبله ! تلك حلَّة العيد ، ما كنتَ لِتَحلُمَ بالحصول على مثلِها ما حَيِيتَ ! فافرَح بها ، وأقصِر عن البكاء .»

فتلقَّفها الصبيُّ وهو يتواثَب طربًا ، وفغرَ الطاهي فاه متعجِّبًا ، ثم صاح بطفله يقول :

« اِذهَبْ فقبِّل يَدَيْ سيِّدك الّذي جاد لك بما لم يَجُدْ به لأحد قبلَك . ولْتَدْعُ له بِطول العُمر ، ورَغَد العَيْش ، والذُّرِّيَّة الصالِحة بنينَ وبنات ، يعيشون في ثبات ونبات .»

وجاءني الطِّفل مُهتاجًا يُهْوي على يدي بفمه ، فوجدتُني ألاطِف شعرَه ، وأتوسَّم وجهَه ، وقد بدأتُ أستشعِر ارتياحًا ورضًا .

وتلفَّتُّ حولي ، فَخُيِّلَ إليَّ أن ذلك المَطْهى العَبُوسَ قد اكتسى تألُّقًا وبهجَة .

ثم وقَعت عيني على الطّاهي ، فلبِثْتُ أتفرَّس في وجهه الموسوم بمختلِفِ التَّجاعيد ، وهو مقوَّسُ الظَّهر ، كأنَّه شجرةٌ عتيقة نال منها الزَّمن ، وأوشكَتْ أن تَعْصِفَ بها ريحُ الفناء .

ثم عدلْتُ ببصري عنه إلى الصبيِّ ، وهو في نَضارة وجهٍ ، وفُتُوَّةِ ملامح ، كأنه فَنَن رَطْبٌ ينبت من جذور تلك الشجرة الفانية ، مُورِقًا يتفتَّحُ للحياة .

غدًا يقتلع البستانيُّ تلك الشجرةَ العتيقة ، فيخلُصُ بتعهده وتنميته لِذلك الفنَن الغَضِّ ، حتّى يشقَّ مكانَه في الأفق .

ولكن هل تَفْنى تلك الشَّجرة العتيقة حقا ؟

إنها أوْدَعَتْ خَصائصها جميعًا ذلك الغُصْنَ النّابِتَ ، فهو يستأنِف حياتَها في الكون ، ويجدِّدُ عمرَها على ظهرِ الأرض .

وقفتُ إلى حُجرتي ، وقد تخفَّفْتُ من وحشتي ، وجعَلتُ أعرِكُ مَفاتيح المِذياع معابِثًا إيّاها ، ثم أخرَجْتُ ساعتي ، وعلِمتُ أنَّ الحفلة بادئةٌ بعدَ قليل .

---

(١) قديمًا .

وفيما أنا قُبالةَ المِذياع ، إذا بيدي تنسَلُّ إلى جيبي فتلامِس فيه شيئاً .

ماذا ؟ يا لَلْعَجَب ! إنَّه خاتَمُ أمّي الَّذي أوصتني أن أجعلَه لعَروسي هديةَ الزوَّاج .

كيف وضعتُه في جَيبي ؟

كيف نَسيتُه فيه ؟

ومكَثتُ أتفحَّص الخاتَمَ ، وقد طافَ بخاطِري شبَح فكرية ابنة عمي ، وهي تحيِّيني تحيَّةً خفِرَة ، وتبتسِم لي في تلطُّف .

لستُ أنْكر أنَّها فتاةٌ أنيسة ، ولا شكَّ أن قلبَها عامرٌ بحبِّي .

أما أنا فما هو شعوري لها ؟ أعترِف بأني تُجاهَها لغزٌ معقَّد عَصِيٌّ . وجعلْتُ أدفَع بالخاتَم ِ عاليًا ، وأتلقَّفه باسِمَ الثَّغر .

وعدْتُ أطوي الحجرةَ ذَهابًا وجيئةً ، في خُطُوات مُهتاجة .

وبَغتةً ألفيتُني أمام التِّلفون ، وأدرتُ القُرص في غير وَعْي ، وإذا أنا بعدَ لحظةٍ أكلِّم عمي قائلاً :

« أردت أن أبادرَ إلى تحيَّتكم وتهنئتِكم بالعيد . كلُّ عام وأنتم بخير ! »

« وأنت بخير ، يا بُنَيَّ . كيف حالك ؟ »

« الحمد لله . وأنتم كيف حالكم ؟ »

« لا بأس . لا جديد . »

« ماذا تفعلون الآنَ ، يا عمّي ؟ »

« نحن الآن مجتمِعون تأهُّبًا لسَماع الغناء في حفلة اللَّيلة . »

« اتفاق طريف ! وهذا شأني أنا أيضًا ! »

« حالُنا واحد ! »

« ولكنْ ثَمَّةَ فرقٌ بيننا ، فأنتم أسرة كثيرة العدد ، وأنا واحد فرد . »

« ولِمَ الوَحْدَةُ ، يا بُنَيَّ ؟ »

« هذا ما جَرى . ولا أكتم عنك أنّي أشعرُ بوحشة ! »

« هل لي أن أقترِح عليك ؟ »

« اقترِحْ ما شئتَ . »

« لِمَ لا تكونُ بيننا ، فنأنَسَ بِك ، وتَشْرَكَنا فيما نحن فيه من اجتماع الشَّمْل ؟ »

« كيف ؟ أ أنتقِل إليكمُ الآنَ ، وقد تأخَّر الوقت ؟ »

« يا بُنَيَّ ، لا كُلْفَةَ بيننا . زيارتُك في كل وقت موضعُ ارتياح ! »

« لست أدري بماذا أجيبك ! »

« دعني أُلحَّ عليك في المسارَعة إلى الحضور . ستزيد ليلَتنا طيبًا ومَسَرَّة . »

« أ حقا ؟ »

« أ أنْتَ في ذلك تَرتاب ؟ لا تتكاسَلْ ، ولا تتلمَّس المعاذير . »

« سأحاولُ ، يا عمي . »

« نحن في انتظارك . »

« أرجو أن أفعل ، ولكن لا تَعتِبوا عليَّ إن منعني عائق . أشكرك ، يا عمّي ، أجزَل الشُّكر . طابَ مَساؤك. تحيّاتي للأسرة جميعًا . تحياتي لِفكرية . »

وألفيتُني أهْرَع من فوري ، فأستخرِجُ حُلَّتي الجديدة ، وما هي إلا دقائق ، حتّى كنتُ أنيق البِزَّة ، يَنْفَحُ العِطرُ منّي ، وأنا بِباب الدّار ، جيّاشُ الوِجْدان ، أنتظِر سيَّارة أجرة ، ذَهب ابنُ الطّاهي في طلَبها .

وبين الحين والحين ، كنت أضعُ يدي في جَيبي ، لأستوثِق من وجودِ العُلْبَةِ الفاخِرة ، يتوسَّطُها الخاتَمُ الَّذي أوصتني أمي أن يكون هَدِيَّةَ الزوَّاج !

صراع في الظلام

غادر الشابُّ حدودَ القرية النائية الَّتي اتخَذها لنفسه مُقامًا جديدًا منذ سنواتٍ قلائل — غادرَها قافلاً إلى قريته الأولى ، مَسْقَطِ رأسه ، وموطن أبوَيه .

هذه هي المرة الثانية الَّتي يزور فيها بلَده الأصيل، وإنَّه لَيطرُقُه والليلُ في مُؤْتَنَفِه (١) ، كما طرقَه في مثل هذا الوقت منذُ عامينِ اثنين .

قَدِمَه في المرَّة الأولى ليشهَدَ عُرْسَ أبيه ، مجامَلةً له ، ورغبةً منه في أن يصفوَ ما بينهما من كدَر المنازَعة والخِلاف ، فلقَد ظلَّ الشِّقاق يَدِبُّ بين الابن وأبيه ، حتّى اضطرَّ الشّابُّ أن يفارِق موطنَه ، وأن يستقِلَّ بعيشِه في قرية غيرِ قريته .

لقد كان الخَصم في هذه المنازَعة أباه ، وإنَّ للأب حُرْمَةً عليه أن يرعاها ، مهما يَلْقَ في ظِلال الأبوَّة من عَسْفٍ وإعنات .

ما أوفَقها فرصةً يغتنِمُها الشّابُّ ، ليلاطِفَ أباه ويترضّاه ، وإن كانت هذه الفرصة تهنئةً يقدِّمها الابن لأبيه في زواجٍ جديد .

وأيُّ غضاضَة في أن يهنِّئَ أباه بالزَّواج ؟

ليستِ امرأة الأبِ بالأمر الغريب عندَه . لقد قضَتْ (٢) أمُّهُ وهو في كِنِّ الطفولة ، فهو لا يذكر من عهد الأمومة إلا مخايل هزيلة لم تَرْوِ ظَمأه من كوثَرِ الحنان .

ولقد نشأ يرى زَوْجَ أبيه الأولى تسومُه سوءَ العَذاب ، ولا تفتأ تُوقِعُ بينه وبين أبيه ، فيلقى على يَديهِما ألوانًا منَ المهانة والإذْلالِ .

ولم يُنْجِه من ذلك العيش النَّكِد الَّذي صَحِبَه حتّى مطلَعِ الشَّباب ، إلا أن يترُكَ القَرية ومَن فيها ، غيرَ آسِفٍ على الفراق .

وما هي إلا أشهرٌ تقضَّت بعد رحيله ، حتّى تناهى إلى سَمْعه أن هذه الزَّوجة قد غَيَّبَتْها المنون (٣) . وأن أباه يستقبل زوجةً أخرى ، زوجة جديدة لم تقع عينُ ابنه عليها ، ولا يعرِف من أمرِها شيئًا قلَّ أو كثر .

وما له يُعْنى بها ، وهو اليومَ يحيا حياةَ حرِّية واستقلال في تلك القريَة النائية ، ناجيًا بنفسِه من شرور زوجاتِ الآباء ؟

ها هو ذا يأبى إلا أن يجشِّمَ نفسَه مشقَّةَ السعي إلى بلَدِه الأول ، ليشهَدَ عُرْسَ أبيه ، وكأنَّه يعبِّر بذلك عن موفورِ ثِقَته بنفسِه ، واعتداده بأمره ، وحِرصه على أن يظهَرَ أمام الأب في مظهرِ الندِّ للندِّ ، لا يجد منه تهيُّبًا ولا خَشية ، ولا يشعر معه باستكانةٍ ولا خُضوع .

حَوَّمَتْ هذه الخواطرُ برأسه ، وهو يتَّخذ سبيلَه إلى بلده في المرة الأولى ، ليشهَدَ عُرْسَ أبيه ، وإنه ليذكُر كيفَ تمَّت هذه الزيارة القصيرة في ذلك الوقت — زيارة لم تستغرِق إلا يومًا وبعض يوم .

لقد دخَل يومئذٍ قاعةَ الدّار ليلاً ، وهي حافلة بالنِّساء ، يطلِقْنَ الأغاريد فتُدَوِّي في الأرجاء ، لتنافِسَ قرْعَ الطبول وشَدْوَ المزامير .

ولقد راعتَه العروسُ في صدر القاعَة ، تتَضَوَّأُ بَهاءً ، فتقدَّم إليها يُزجي تهنئتَه ، وألقى نظرةً على وجهها الصَّبيح ، فواجَهتْه عينان دعجاوانِ (٤) مغرقتان في السَّواد ، نجلاوان (٥) بالِغَتان في السَّعة ؛ فانتظَمَتْه هِزَّة لم يملِك نفسَه معها ، هِزة أثارت في دخيلته غرائب الإحساس .

وانصرَف عن الدّار بعد قليل ، قاصدًا ساحة البَيْدر (٦) المهجو ، في أقصى القرية ، واقتعَد الحجَرَ العريض العتيق ، حَليفَ طفولته وأليفَ صِباه ، ذلكَ

---

(١) أوله . (٢) ماتت .

(٣) غَيَّبَتْها المنون : ماتت . (٤) شديدتا سواد العين وبياضها .

(٥) واسِعتان . (٦) الجُرْن .

الَّذي كان يجلس إليه السّاعة تِلْوَ الساعة ، نافضًا إليه نفسَه ، شاكيًا إليه بثَّه وهمَّه .

لقد أعرضَ عن الدّارِ في تلك الليلة ، زاهدًا في مَباهجها وزينتها ، ولاذ بذلك الرُّكن الخَليِّ ، مُشْرِعًا عينَه إلى السَّماء الداجية كأنما يرصُد مواقع النجوم .

ما بالُه يتجافى عن ذلك الجوِّ المرِح الطَّروب ؟

وما لَهُ لا يجدُ أنسًا بتلك القرية الَّتي هي مَدْرَجُ نشأته ، ومثَابة أهلِه وخُلانه ؟

وَيْحَ نفسِه ؛ إذ يحس في هذه اللَّحظة وَحْشة كئيبة !

إنها وحشة تحمِل إليه في تضاعيفها سَوالف ذِكرياتٍ مُمِضَّة .

ما أقسى ما يتمثَّله الآن من تلك النظرات المَقيتة الَّتي كانت تُسدِّدها إليه امرأةُ أبيه الأولى ! تلكَ الَّتي رَحَلَتْ إلى العالم الآخر – نظرات تشعُّ من عينين دعجاوين مغرِقَتين في السَّواد ، نجلاوينِ بالغتين في السَّعة !

لقد واجهتْه الليلةَ عينانِ كَهاتين العينَين ، تتوهَّجان في صدرِ قاعة الدّار . فما عِلَّة هذه المشابهة بين زوجتين نفضَت أولاهما يدَها من الدُّنيا ، وخَلَفَتْها الأخرى تستقبِل الحياة في بيتِ أبيه ؟

هيهاتَ أن ينسى عينيْ زوجِ أبيه الرّاحِلة !

لكأنَّ كلَّ عين منهما مغارةٌ عميقة المَهْوى ، حالكَة الظُّلمة ، تعشِّش في جوانبها الأفاعي والحيات . فما تكاد نظراته تلتقي بنظراتها حتّى كان يستشعِر انتفاضَة تملك عليه أقطارَ نفسه جمعاء .

واليومَ ، ما كادت عينُه تقع على عين عروس أبيه، حتّى انتفضَتْ أوصالُه .

أ ثَمَّةَ فارقٌ بين انتفاضةِ الأمس ، وما استشعرَه اليوم؟

مهما يكن من أمر ، فإنَّه الساعةَ وقد عَرَتْه تلك الانتفاضة ، لا يجد إلى قَرار نفسه من سبيل .

لن يدعَ القرية ، ليهنِّئَ أباه بزَواجه ، ثم لا يُعتِّم (١) أن يترُك القرية ؛ لِيعاودَ عيشَه الآمنَ السّاكن في موطِنه الجديد .

وكان يسيرًا عليه أن يبلُغ من ذلك ما يَروم ، فأدّى واجبَ التهنئة ، وأدبَر عنِ القرية راجعًا .

وانصرَم بعد ذلك عامان ، وها هو ذا يخطو إلى بلده الأصيل مرة ثانية .

ولكنَّه في هذه المرَّة لم يكن قُدومُه لعُرْس بهيج ، بل كان لمأتَم مَهيب . ما جاء ليهنِّئَ أباه ، بل ليتلَقّى العَزاء فيه .

دخل الشّابُّ قاعةَ الدّار ، وهي تَعجُّ بالنساء مُعْوِلاتٍ يَنْدُبْن – دخلها فارعَ القامة ، عريضَ المنكِبَين ، يَخُبُّ (٢) في جِلبابه الريفيِّ من الصّوف الأسود .

وما إنْ ألقى الشّابُّ نظْرةً حوله ، حتّى أخذتْ عينُهُ في صدر القاعَة زوجَ أبيه في جِسمها الخِصْبِ الرَّيّان (٣) ، يكسوه رداؤُها الأسود السّابغ ، وقد توضَّح وجهُها الأبيضُ الناصع يشوبُه شحوب ، فخَطا إليها يدانيها ، فما إنِ استبان لها شَبَحُه حتّى اختلَج مُحيّاها اختلاجَة إجهاشٍ ، فأسرع مُقْبِلاً عليها يواسيها بمألوف الكَلام في مثل هذا المقام .

ولَمّا هَمَّ بأن ينصرِف منَ القاعة ، رَفَعَتْ إليه مُحيّاها ، فواجهتْه بهاتين العينين الدَّعجاوَين النجلاوين ، فأحسَّ من فورِه ما أحسَّه من قَبلُ في زَورته (٤) الأولى للقرية ، ليلَةَ عُرس أبيه .

لقد سَرَتْ في أوصاله تلك الانتفاضةُ الَّتي تهزُّ نفسَه هزًّا ، فبارح القاعَةَ قاصِدًا ذلك البَيْدَرَ المهجورَ في أقْصى القريَة ، واقتعَد الحجَر العريض العتيقَ ، وصَوَّب نظراتِه إلى الأفق ، يرصُدُ مواقعَ النُّجوم . ما أشبهَ اللَّيلَةَ بالبارحة ، وإن تباينَتِ المظاهِرُ ، وتناقَضَتِ

(١) لا يلبث . (٢) يُسْرِع . (٣) الممتلئ . (٤) زيارته .

الأوضاع ! عُرسٌ يُستبدَل به مأتم ، وأغاريدُ يَحُلُّ محلَّها نَدب ونُواح . ولكنْ أ ليس الأمر في جوهَره على ما هو عليه بمنزلةٍ سواء ؟

هذه القرية هي هي ، وتلك الدارُ كما كانت ، وزوج أبيه كما رآها في المرة السالفة بقوامِها الخِصْب الريّان ، وعينيها النجلاوين الدعجاوين .

إنه ليُحِسُّ بأن كلَّ شيء قد يدركه التغيُّر ، ويلحقه الفناء ، إلا هاتين العينين !

ما زالت الانتفاضةُ تنتظِم جُسْمانه ، منذ نظَرت إليه زوجُ أبيه .

شعور كَمين يبعثُه على أن يَفِرَّ من وجه هذه المرأة!

أ هوَ يكرهُها ، لأنَّها كانت لأبيه زوجًا ؟

أيّةُ إساءةٍ أسلفَتْها إليه ؟

فيمَ هذه النُّفْرةُ الَّتي يصطنِعها لها ؟

أ يكون مردُّ ذلك إلى أنَّها امرأة تنطوي على ألغازٍ وأسرار ، يتعذَّر عليه أن يكتَنِهَ دفائنها ؟

لقد ترامى إليه من أخبارها نُتَف ، وإنَّها لَعَجائبُ أخبار !

قبل أن يتزوَّجها أبوه كانت زوجًا لشيخ البلد ، وكان يحُبُّها متدلِّهًا ، يُغْدِق عليها عَطاياه ، حتّى أتلَفَ بين يديها مالَه ، وامتدَّ زواجهما عامين ، لم يُرْزَقا فيهما بمولود . وما إن مات الشيخ عنها حتى شغَفتْ أباه حُبا ، فتزوَّجها وظل يُسرِف في تنعيمِها وتكريمها حتى ركِبَتْهُ الدُّيونُ ، وأمضى في صحبتَها عامين ، لم يرزَق فيهما بمولود ، ثم قَضى نَحبَه بِمَرْأى منها ومَسْمَع .

ما سرُّ هذا التوافُق بين الحالتين ؟

أ مَحْضُ مُصادفةٍ هو ؟

أ تطوي هذه المرأة أحناءها على طِلَّسْمٍ (١) فيه الفناء والدمار ؟

تلك هي تجتذب بظاهر فِتنتها قلبًا بعدَ قلب ، وإذا هي تُورِدُ القلوب موارِد المَنون .

ولكن فيمَ تفكيرُه في هذا كله ؟

وهل له من شأن مع تلك المرأة إلا أنها اليومَ أرْمَلَةُ أبيه ؟

إن هي إلا أيام معدوداتٌ تنتهي فيها مراسِمُ التعزيـة ، ثم يفارِق البلدَ في غير إبطاء .

ماذا في القرية يستهويه ؟

ماذا في القرية يستبقيه ؟

لو كان لأبيه تَرِكةٌ عامِرة ، لتقاضَتْه أن يمكُثَ من أجلها ، حتّى يستوفيَ تدبيرها ، ولكنَّ ميراثَ أبيه تنتهبه الدُّيون ، وحَسْبُه هو أن يَأمُلَ الإفلاتَ من مغارِمِ الدائنين .

إنَّ موطنَه الآخر يناديه ، وإنَّ مستقبَله فيه . هنالك يواصِل عملَه ، ويتَّخذُ له ربَّةَ بيت ، وينتظر أن يُرْزَق بالذُّرِّيَّة الطيبة ، فيَرْغَدَ عيشُه ، ويَرْخى بالُه ، ويحيا حياة الدَّعَة والنَّعيم .

ونهض الشّابُّ إلى دارٍ لبعض أقربائه ، مُؤْثِرًا أن يأوِيَ إليها خلالَ إقامته في القَرْية ، كما فَعل في زيارته الأولى حين قَدِم ليشهَدَ عُرْسَ أبيه .

وتقضّتْ أيام التعزية ، وتدانَتْ ساعَةُ الرَّحيل .

إنه لتارِكٌ القريةَ غَداةَ غَدِه .

ولكنَّه ما ينبغي له أن يَرْحَل قبل أن يُوَدِّع أرْمَلةَ أبيه وداعَه الأخير .

هَبَط القاعَة ، وكانتِ الدّار خِلْوًا منَ النّاس ، وقد هدأت نَوْباتُ النَّحيب ، إلا بعضَ أصداءِ أحسَّ بها الشّابُّ تتردَّد في تَزايُلٍ وخُفوت .

كانتِ الدّار يَغشاها ليلٌ بَهيم ، لا يقاوِم حُلْكَتَه إلا مِصباحٌ هزيل تترجَّح ذُبالته (٢) ، فتتخايل الظِّلال على

(١) لُغز .

(٢) فَتيلته .

الحوائط والأركان ، كأنها أشباح تنبعث من عالم مجهول .

لكأنَّ هذا المصباح بما يسطُ من اللَّهب ، وبما يُثير من الظِّلال ، لم يُوقَدْ إلا ليبعثَ المخافَةَ والرَّهَب ، فهو يُكْسِب الدّار منَ الوَحشة والكآبة أضعافَ ما يهَبُها منَ النّور ، وإنَّه ليؤلِّف معَ تلك الأصداء المتزايلة — أصداءِ العويل والانتحاب ، جوًّا قاتمًا عابسًا يُحيل هذه الدّار كهفًا موحشًا في مجاهِل الأرض .

ولَمّا دخل الشابُّ قاعة الدّار ، ألفى امرأةَ أبيه خاليةً بنفسها ، تجلِس على حصير ، وقد أخذتها غَفوةُ التفكير.

وإذ شعرَتْ بمَقْدَمه ، انتبهت تحيِّيه ، وما هي إلا أن فَرَشتْ على الصُّفَّةِ (١) سَجّادة عتيقة ، وأشارتْ إلى الضَّيف تقول :

« تعالَ اجلِس هنا في مكان أبيك . هذه صُفَّتُه ، وتلك سَجّادته .»

فأحجم الشاب لحظة ، فعاجَلَتْه قائلة :

« ومَن أحقُّ منكَ بأن يَحُلَّ مكانه ؟ كان هذا مَجلِسَه الأثيرَ عنده ، يقضي فيه الأماسيَّ ، يرتشف القهوة ، ويُطارحني الحديث .»

ومسحت عينيها المُخْضَلَّتَيْن (٢) .

و وجد الشابُّ نفسَه جالِسًا على السَّجّادة ، يتحسَّس خَمْلَها ، وهو ساهِمٌ شارد النظَر .

وتوارت المرأة فترةً ، ثم رجَعت تحمِل صينيَّة القهوة ، وقَرَّبتْ إلى الشاب قَدَحه ، وهي تقول :

« إنه قَدَح أبيك الَّذي لم يكن يطيب له سواه . شَدَّ ما كان يحلو أن يشرب القهوة فيه !»

وتناول الشاب القدح ، وطَفِقَ يتأمَّله ، وأحسَّ بالمرأة تقتعِد الحصير عن كَثَب منه ، فَهمَّ بأن يدعُوَها أن تجلِس على الصُّفَّة ، فإذا هي تقول ، مشيرةً بيدِها إلى الحصير:

« ذلك هو مكاني ، وهكذا كنت أجلِسُ من أبيك !»

وحَنَتْ رأسها تختلج في صدرها تنهُّدات ، وجعل هو يترشَّف القهوة في مطاولة وأناة .

وأراد أن يُفْضِيَ إليها بإزماعه السَّفَر من غَدِه ، ولكنَّها سبقَتْ بقولها :

« كان أبوك — رحمة الله عليه — كريمًا واسعَ الكَرم ، فأسرفَ في الإنفاق ، وخَلَّفَنا بعده ، لا ندري ماذا نصنع ؟ لا بدَّ من يدٍ مدبِّرة حازِمة تُنقذ الدّار ممّا يوشك أن يستقبِلها من خراب .»

وسمتْ بعينيها إليه ، فما أسرَعَ أن اشتبكَت النَّظَرات ، وإذا الشابُّ يهمهِم :

« سنتدبَّر الأمرَ . كلُّ شيء ينتهي إلى خيرٍ إن شاء الله .»

واسترسلت المرأة تَصِفُ من خاصَّة شئونها لجليسها الشابّ ؛ كيف كانت تَنْعَمُ بالحياة في ظِلِّ أبيه ؟ ما مبلغُ خوفها منَ المستقبل ؟ إلى أيِّ مصير يسوقُها القَدَر المستور ؟ وكان بَديهًا أن يُطيِّب الشابُّ خاطرَها ، وأن يؤمِّنها منَ الخوف القريب البعيد .

وانتهتِ الزِّيارة ، فخرَج الشاب تقودُه قدماه إلى البَيْدرِ المهجور ، واعتَلى ذلك الحجَر العريضَ مُصَعِّدًا بصرَه إلى السماء الحالكة ، يتبيَّن مَسالكَ النجوم ، فكانت تتراءى له في كل نجمٍ عينٌ نجلاءُ دَعجاء تتحيَّر فيها الدُّموع .

لماذا أجلسَتْه المرأة على الصُّفَّة الَّتي كان يُؤثِرها أبوه ؟

لماذا بسطت له سَجّادة أبيه الخاصَّة به ؟

لماذا قَدَّمَتْ له القهوة في قدح أبيه المختار ؟

إن الشابَّ ليعترِف في إخلاص بأن المرأة كانت حَفِيَّةً به ، وأن قلبَها كان يخفُق بالمودة والصفاء .

---

(١) مصطبة مرتفعة ضيقة . (٢) المُبتلَّتين .

هذا الحديث الَّذي ناجتْه به ، تصف ما هي فيه من حزن وضيق ، أ ليس دليلاً على أنَّها اتخذت منه موضعًا لنجواها ، ومَفْزَعًا لشكواها ؟ هذه النظرات الَّتي كانت تُراسله بها بين الفَيْنة والفينة ، تتجلّى فيها الدَّماثة والرِّفق ، أ ليست آيةً تُبين عما تنطوي عليه ضلوعها من حَدَب وإشفاق ؟

وا عَجَباه ممّا يشعُر به الساعة !

إنه ليُحِسُّ الظَّمَأَ أبلغَ الظمأ إلى عاطفةٍ ترامى به عهدُها ، فهو يبحث عنها جاهدًا في ألفاف الماضي السَّحيق ، ذلك الماضي الَّذي طوَته الأيام ، ونسجت عليه العناكِبُ خيوطَ النسيان .

إنه ليطوِّح بذاكرته في أعماق عَهْده الغابر ، ذلك العهد الَّذي كان ينعَم فيه برعاية أمه ، قبل أن تودِّع الحياةَ الدُّنيا ، راحلةً إلى العالم الآخَر .

أ مُستَطيعٌ هو أن يتمثَّل ذلك الحنان الَّذي تَذَوَّقَه في كَنَفِ أمِّه ؟

إنه لَيخترِقُ الآن ما تكاثف من حُجُب الماضي ، فتلوحُ له أشباحُ أحلامٍ غامِضة تائهة ، فيذكرُ كيف كانت عيناه الدَّقيقتان تَرْنُوان إلى وَجْهٍ طَلْق بَسّام ، وكيف كان يُحِسُّ ذراعينِ مبسوطتينِ تلتفّانِ حولَه ، فتضمانه في تَرفُّق ولُطف .

ولبِثَ الفتى حينًا تَشْرُدُ به الذِّكريات إلى ذلك العهدِ القصيِّ ، وكأنَّه في زورق ينساب على صفحة الماء ، والهواءُ رُخاء .

وبغتةً شعر بالجو يكفهِرُّ ، وبالإعصار يَهُبُّ جارفًا يثير الموج ، فإذا بالزورق ينقلب به ، وإذا هو يتخبَّط في ملتطَم العُباب .

وبينا هو يتقاذفه التيّار ، طالعه وجهٌ ذو عينين سوداوين مغرقتين في السواد ، واسعتينِ بالغتين في السَّعَة ، تشعُّ نظراتهما فتبعَث الوَحشة والفزع . وما أسرعَ أن استبانَتْ له فيهما عينا زوج أبيه الأولى ، فَنَدَّتْ منه صيحة مختنقة ، وألفى نفسه يغطي وجهه بكفيه ، يحاول أن يحجُبَ عن عينيه تلك النظرات .

ما بالُ هذه الذكْرَياتِ الشاردة تُساوره اللَّيلة ؟

وما بالُ هذه الإحساسات الغريبة تُراوِدُه في غير هَوادة ؟

وَيْحَه من تلك الذكرياتِ المتناقضة ! يختلط فيها الصَّفاء بالكدر ، وتشتبك فيها الرَّهبة بالإيناس ، ويتلاقى فيها حنان الأمومة ورهبةُ زوجة الأب !

لقد كان منذ قليل في صحبة زوج أبيه الأخرى ، تلك الَّتي لم يَلْقَ على يدها شرًّا قَطُّ ، بل تلك الَّتي أنِسَ معها بجلسة هدوء وصفاء . ولكنه يحسُّ في وَليجة (١) نفسه بأن هذه المرأة على الرغم من ذلك كلِّه أشبهُ ما تكون بِطِلَّسْمٍ مُستغلِق ، تتنازع فيه الطُّمأنينة والقلق ، ويتقاتل فيه الموت والحياة .

أ تُراهُ يعجز عن مجابَهة ذلك الطِّلَّسْم ، والوقوف منه موقفَ الصّامد الجسور ؟ أ تُراه يظَل أبدًا ، كما كان في عهده الأول ، ذلك الطفلَ المُضطهَد ، ذلك الصبيُّ المُعذَّب ، حين كان يستنيم للضَّيم ، ويصبر على الأذى ، لا يَدَ له بمكافحة ودفاع ؟

لا فِرارَ اليوم من وجه المغامرات ، ولا خوفَ من مجالدة الصِّعاب ، فإنه اليومَ غيرُه بالأمس ، مِلءُ إهابه الفُتُوَّة وصدقُ العزم ، وملء نفسِه الثِّقةُ بالنفس .

ونهض الفتى عاليَ الهامة ، بارزَ الصَّدر ، يَسْتنشي (٢) نَفَحات النسيم ، وهو يضرِب بقدمه أديم الأرض ويشُقُّ طريقه في غَمَرات الظلام .

وجرتِ الأيام في عِنانها ، وألفى الفتى نفسَه يتشمَّر مهتَما بشئون زوج أبيه ، حتّى استطاع أن يؤمِّنَ حياتَها فيما يستقبِلها من أحداث الزَّمان .

واطمأنَّت نفسُه بأنَّه قد أدّى الواجبَ على خير ما يُرام . وما له لا يرى ذلك واجبًا عليه ؟ وهل هذه المرأة

---

(١) دَخيلة . (٢) يَسْتَنشق .

إلا أرملَة مَهيضة الجَناح ، ضعيفةُ الجانب ، رَمَتْ بها الأقدار هذا المَرْمى ؟

أ ليس لِزامًا عَليه أن يأخذ بيدِها ، رِفقًا بها ، ورعاية لِحُرمة أبيه ؟ أمّا الآنَ وقد أنجزَ مُهِمّته ، فما عليه إلا أن يَبيتَ على رحيل .

وإن موعدَه الصُّبح ، أ ليس الصبح بقريب ؟

ولكن عليه ألا يُغْفِلَ زيارة المرأة ساعة أو بعضَ ساعة ، قبل أن يفارِق القرية ، فليمض ِ إليها من فورِه يُلقي عليها تحيَّة التوديع .

وكان الوقت عشاء حين أقبل على القاعة ، وهي في سكينة وهدوء ، لا يُحِسُّ فيها ما كان يُحِسُّ قبلاً من أصداء النَّدْب والعَويل ، تتردَّد في تَزايُلٍ وخُفوت.

واسترعى نظره مصباحٌ جديد صافي اللَّهب ، رأى في ضوئه أثاث القاعة على شيء من التَّنسيق .

وبَدَتْ لَهُ زوجُ أبيه ، طَلْقَةَ المُحيَّا ، وادِعة الأسارير ، يَستَبينُ وجهُها في إطارٍ من خمارٍ أسودَ قشيب . وكانت على الرَّغم من رداء الحِداد مُهندَمة الزِّيِّ ، فلمّا تبادلا مألوفَ التَّحِيَّة ، ألفى الفتى قدميه تسوقان إلى الصُّفَّةِ ذات السَّجّاد ، فأخذ فيها مجلِسَه. وبعد قليل قَدَّمت المرأةُ له القهوة في قدح أبيه المختار ، فتناوله في زهوٍ واعتزاز ، وكان وهو يترشَّف ما في القدَح يجِدُ له أطيَب المَذاق .

وقعَدتِ المرأةُ على الحصير ، قريبةً من الفَتى ، وشرَعت تُطارِحُه أطرافَ الأحاديث ، فانطلَق الفَتى يَصِفُ لها ما صنع من أجلِها ، وما دَبَّر لمستقبلها ، وراح يؤكِّد لها أنَّها لن تصادِف في حياتها ما تَخشاه ، فعقبتِ المرأة تقول :

« إنّي مطمئنَّة إليك ، وما دمتُ أنا في رِعايتك فلا يُصيبني مكروه .كان أبوك بي شَفيقًا ، وأنت سرُّ أبيك ! »

ثم حَدَّقَتْ فيه قائلة :

« عجيبٌ هذا التَّشابُهُ بينك وبينه ! هامَتُكَ ، قامَتُك ، عِمامَتُك . سأصارِحُك بما يدهشك : إنك إذ قَدِمْتَ ليلةَ المأتَم عليَّ ، و وقَع بصري عليك ، راعني أمرُك ؛ فقد خُيِّل إليَّ أن أباك قد بُعِثَ من مَرْقَدِه حيا ، وأنَّه قد نفَض عنه أكفانه ، وحضر يَشْهَد مأتَمَه ! »

فهَمْهَم الفتى يقول :

« أ كذلِكَ تَرَيْنَني مُشْبِهًا أبي ؟ »

فأجابته : « كلَّ الشَّبَه ! لكأنَّه أنت .حتّى في مشيتك ، حتّى في شارتك (١) ، حتّى في إشارتك ! »

ثم نهضَت وهي تقول : « انتظِرْني لحظات . »

وما هي إلا أن رَجَعت إليه تحمِل مُطْرَفًا (٢) مُوَشى بين يديها ، وقبل أن يُدرِك مُرادها ، ألقتْ بالمُطْرَفِ على كَتِفه ، وهي تُسوِّي حواشيه عَلى صدرِه ، وتقول :

« هكذا كان أبوك يتلفَّع بمُطْرَفه هذا . »

ثم جعلت ترنو إليه ، وهي تردِّد :

« يا لله ! كأن أباك الشيخَ أماميَ الآنَ . ولكنَّ شيئًا واحدًا يُعْوِزُك ! »

« أيُّ شيء هو ؟ »

« لِحيَته ؛ فلقد كان ذا لِحيَة مشذَّبة يُعْنى بها أشدَّ عناية . »

فابتسم الشاب يقول : « اللِّحى جميلةٌ لِمَن يرغَب فيها . »

« إنها زينة الرِّجال ، تُسبغُ عليهمُ البَهاء والرُّواء (٣) ، وتكسوهم المهابةَ والجلال . »

وأحسَّ الشابُّ بيدِه تتعالى إلى ذَقَنه يتحَسَّسُه ، مُهمهِمًا : « مهما يكن من أمر ، فبيني وبين أبي فرق ! »

---

(١) هيئتك .
(٢) رداء أو ثوب من خزّ مربع ذو أعلام .
(٣) المَنظر الحَسَن .

« أيُّ فرق تقصِد ؟»

« السنُّ ! لقد كان أبي شيخًا ! »

« أمّا أنت فشابٌّ . لقد جَمَعْتَ بين فُتُوَّة الشَّباب وحُنكة الشيوخ . إنَّ الناس جميعًا يتحدثون بما لك من عَقل وحِكمة ، ويتناقلون عنك أطيبَ الأخبار . »

« ماذا يتناقلون عنّي ؟»

« لقد بنيتَ لنفسك في قَريَتك الَّتي رَحَلْتَ إليها مكانةً ، جعَلت اسمَك يدور في المَجالس . »

« ما كان ذلك ليُتاحَ لي ، لولا عونُ الله ! »

« طالما ذَكَرك أبوك ، وشدَّ ما آسَفَه رحيلُك ! وكانت أمنيَّته أن تعودَ إليه لتُعينَه على أمرِه في شيخوخته . »

فأطرق الشابُّ هُنَيْهةً ، ثم قال :

« لم يكن يَسيراً عليَّ أن أعود إليه . لقد كان بيتُه جحيمًا تتلظّى ! »

فلمّا سمعت المرأة هذه الجملة ، أخذت أناملها تعبث بأطراف رِدائها ، وهي تقول :

« أ ما زِلْتَ ترى البيت ، كما كان ، جحيمًا ؟»

وهنا وجد الفتى نفسه ينهَض ، وقد أنهى إلى أرمَلَة أبيه إزماعَه الرَّحيل ، وأعرب لها عن أطيب تمنّياته .

وتواقَفا لحظةً صامتَيْن ، وأعينُهما مشتبكاتٌ .

وألقى عليها الفَتى تحيَّة الوَداع ، وانطلَق يطلُب الطَّريق .

وما أسرَعَ أن اتَّخذ سبيلَه إلى البَيْدر المهجور ، تؤنسُه سَماءٌ صاحية ، ويرفرِف من حوله نسيم دافئ مشبع بأريجِ الزُّروع ، وبين يديه فيضٌ من نور القَمر الفتي .

وجاز الفتى في طريقه بغدير رَقراق ، فمكَث أمامه غيرَ قليل ، ثم مال عليه يتوسَّم وجهه في مرآة الماء ، و وجد يده تمرُّ على ذقنه . وما عتَّم أن نَدَّتْ منه ضحكة خفيفة أشرق لها سيماه . لقد تراءى له وجهُه ، وقد اكتَسى لِحيةً مَهيبَة مهندَمَة كلحية أبيه الرّاحل ، وما كادت تلوح له صورةُ أبيه حتّى تداعَت المعاني في خاطره ، فسرَعانَ ما تزايلت تلك الضَّحْكة ، لِتفْسحَ مكانَها لِمَسْحَةٍ مِنَ الجهامة والاكتئاب يبعثُها تفكيرٌ عميق .

وفَصَلَ عن الغدير ، ماضيًا إلى البيدر المهجور ، يقتعِدُ الحجر العريض ، ويراجع ما دار في ليلته من حديث أرمَلة أبيه .

وأنبهَتْه من تفكيره هَبَّةٌ من النَّسيم الدافئ داعَبتْ كَتِفَه ، وإذا هو يَتبيَّن مُطْرَف أبيه الَّذي منحَتْهُ المرأة إيّاه .

ودارتْ مواكِبُ الذِّكريات أمام عينيه ، فألفى نفسَه يرجع القَهْقَرى إلى عُهود الصِّبا ، وبدا له طيفُ أبيه وهو على الصُّفَّة ذات السَّجّادة ، جالسٌ يرتشف القَهوة من ذلك القدَح الأثير ، وقد تهدَّل على كتفيه هذا المُطْرَف المُوَشّى . فأمّا هو فكان في ذلك الحين يقف بِمَنْأى من أبيه وقفةَ المَذلَّة والصَّغار ، وعلى الحصير بجانب الصُّفَّة تجلِس امرأة أبيه الأولى ، كأنها أفعى تنفُث من نظراتها إليه سُما زُعافًا ، ولا تدعُ فرصة إلا تَجنَّتْ عليه ، وكادت له ، فأثارت عليه أباه ، وأوغرت صدرَه ، ونصَبَتْه هدفًا لألوانٍ من الإيذاء .

ما أعجبَ هذه المقادير !

أ كان يخطِرُ بباله أنَّ يومًا يُمْسي به ، وهو مقتعِدٌ مجلِسَ أبيه ، يشرب القهوة في قدحه ، ويتلفَّع بمُطْرَفِه ، وعن كَثَب منه ذلك الحصير تجلس عليه زوجُ أبيه في تلطُّف ومُلاينة واستسلام ؟

حقا ليست هذه زَوْجَ أبيه الأولى ، تلك الَّتي أذاقته مرارة المهانة والإزراء ، ولكنَّها على أية حال زوجٌ لأبيه ، مكانُها منه مكانُ تلك الزوجة الراحلة .

على رغمٍ منه يجِد في طَوايا صدره ثورةً جامحة

تبتغي التّشفّيَ والانتقام .

ولكن ممّن ينتَقِم ويتشفّى ؟

إن أرْمَلَة أبيه هذه تتألّفُه ، وتتودّدُ إليه ، وتَحوطُهُ بأقصى ما تملك من أسباب التكريم والإعزاز .

بَيْدَ أنه لا يدري : أ يكون ذلك منها رِياء ومخادَعَة ؟

أ يكون وراء هذا البريق الخلاب تبييتٌ لِمكيدة وعُدوان ؟

أ ينسى أنها مهما يكن من أمر ، فهيَ « زوجةُ أبٍ » ؟

أ وَ ينسى أنّها عُنوانُ شُؤمٍ ، ونذيرُ شرٍّ وأذًى ؟

أ لم تقضِ على رجلينِ اثنين ، سلبَتْهُما المالَ والرُّوح ؟

حَيرةٌ بالِغة تكتَنِفُه !

كيف تسوِّل له نفسُه أن يظُنَّ الظنون بهذه المرأة الّتي تبسُط له رِحابها أنسًا ومُصافاة ، ويجد في مَجلسها منَ المتعة والنعيم ما لا عَهْدَ له به من قبل ؟

ونَهَضَ ضائقًا بِنَفْسِه ، تَصْطَرِع بين جوانحه شتّى النّزَعات .

وَدفَع بخُطاه إلى الغَدير ، يَنْضَحُ وجهه بالماء .

وكانَ أنْ رَحلَ الفتى إلى القرية البعيدة الّتي اتّخذها له وَطَنًا آخر ، إلا أنّه لم يمضِ عليه فيها شَهران ، حتّى استقبلَتْه قريَة أبيه عائدًا .

وسَرْعانَ ما طرق الدّار ، متجهًا إلى القاعة ، وئيدَ الخَطْوِ ، يُطلق سَعْلة يُحاكي بها سَعلة أبيه المألوفة .

وما هي إلا لحظاتٌ ، حتى هُرِعَتْ إلى القاعة أرملة أبيه ، فما إن واجهتْه حتّى انبعثَتْ صارخةً ، وهَمّت أن تتراجع ، فأوشكت أن تتهاوى ؛ فعَجِلَ إليها يأخذُها بين يدَيه ، واتجه بها إلى الصُفّة يُذْهِب عنها الرَّوْع ، وهو يقول : « ماذا بكِ ؟»

ورفعتِ المرأة عينَها إليه ، وقد عاودها بعضُ الطُّمأنينة ، فهمهَمت تقول :

« حَسِبْتُكَ الشيخَ نفسَه ! أنتَ الآنَ هو لا ريبَ! هذه اللّحية الّتي كَسَتْ عارِضَيْك لم تدَعْ بينك وبين أبيك مِنْ فارق .»

وأقبلت عليه تتوسّمه ، كأنها تستوثق وتتثبّت ، خَشيةَ أن يكون ما تراه حِيالها طيفًا من عالم الرُّؤى والأحلام !

و واصلتْ قولَها في اهتياج :

« إنّي لأشُمُّ منك رائحته رائحتَه عينَها ، رائحةَ السُّعوط الّذي كان يتنشّقُه .»

« لقد هفتْ إلى هذا السُّعُوطِ نفسي ؛ إذْ وجَدتُ فيه وِقايةً من البرد ، وعِصمةً منَ المرض .»

« كذلك كان يقول أبوكَ .»

وما أسرعَ أن أعَدّتِ القَهوة ! وما أسرع أن وجد الفتى نفسَه يحتسيها في قدَح أبيه الأثير !

وتربّعتِ المرأة على الحصير ، قريبةً منَ الفتى ، ترقُب حركاته في تطلُّعٍ ملحوظ .

وشرع الفتى يجلو للمرأة سِرَّ عودته ؛ إذ عَلِم بنزاع قام بين إحدى قريباته وزوجِها ، فجاء يَحسِم هذا النّزاع ، ويعالج إصلاح ذاتِ البَيْن .

فقالت المرأة رنّانةَ الصوت : « أنت رجلٌ لا تُقَصِّر في واجبك . ولقد صِرْتَ للأسرة عميدًا . أبقاك الله وحماك !»

فعقّب على قولها ، عَطوفَ اللّهجة : « وكيف حالُكِ أنتِ ؟»

فأمسكتِ المرأة عنِ الجواب ، بِضْعَ لحظاتٍ ، وهي ناكِسَةُ الرأس ، ثم قالت في نبرات حزينة :

« الحمد لله على كل حال .»

« أ ثَمّةَ جديدٌ ؟»

فتهدَّج صوتُها قائلةً : « لا جديدَ . »

« كأنّي بكِ تُخفين عنّي أمركِ . »

« ليس من شيء أخفيه . »

وتخاذلت لهجتُها ، وإذا هي تنفُض نفسَها في نَشيج مُحتدِم ، و وجهُها بين يديها تحجبُه .

فانحدرَ الفتى إليها ، يأخذ بجوارِها مكانه ، وهو يربِّتُ كتِفَها ، ويقول :

« صارِحيني . ماذا جرى ؟ »

فاندفَعت في نشيجها تقول :

« لا شيء الا شيء ! »

فصاح بها قائلاً : « قسَمًا لأعْلَمَنَّ الخبر ! »

وبعد لأيٍ قالتِ المرأة ، وهي تَغُضُّ من بَصَرِها :

« سيبيعون الدّار بعد أيام – دارَنا هذه – دارَ أبيك . تلك الّتي كانت أعزَّ شيء عليه في الوجود. »

« كيف ؟ »

« لقد وقع عليها الحجزُ ، وفاءً لِدَيْنٍ قديم . »

« لماذا لم تُخبريني ؟ »

« كيف أبيحُ لنفسي أن أزعِجكَ بشأني ، وقد تركتَني عائدًا إلى قريتك الجديدة ؟ »

« لم يكن بُدٌّ من عودتي إليها ، ولكنّي لا أهمِل أمرَكِ أبدًا . لن تُفلِتَ من أيدينا دارُ أبي . »

فرَنَتْ إليه ، ورنا إليها ، و وَصلت بينهما تلك النظرةُ العميقة الجيّاشة ، وإذا المرأة تَهْوي عليه ، فتشبع يدَه تقبيلاً ، وهي تقول :

« ما دام لي قلبُك الكبير ، فلن يمسَّني سوء . »

وتلاقتْ نظراتُهما ثانية .

وما هي إلا أن أحسَّ الفتى بأن المرأة تقبِّل جبينَه قبلة تتَّقِد من عطفٍ وحنان . وإذا هو يطوِّقها بذراعيه ، فتنقادُ له ، مُخْفِيةً وجهَها في صَدره ، وهي تتشبَّث به!

ومنذ هذه اللّيلة استقرَّ الفتى في دار أبيه ، مع تلك المرأة ، يقاسِمها العَيش .

وكان لا يبرَح الدّار في يومه إلا لِمامًا ، حين تُلجِئُه مطالبُ الحياة .

على أنه كان في بعض الأماسِيِّ يرتقِب ساعة من هَزيع اللّيل ، فيخرُج وقد أوى الناس إلى مساكنهم ، متسللاً إلى ذلك البَيْدر المهجور ، يقضي فيه طَويلا من الوقت ، وهو جالِس على الحجَر العريض ، يرقُب السماءَ ، شاردَ اللُّب ، موزَّع الخاطر .

وكثيراً ما أخذَتْهُ انتفاضةٌ زلزلتْ كِيانه في مجلِسه، فجعل يَدُقُّ صدره بيدِه ، يغالِب ما احتبس فيه من نزعات ومشاعر .

إنه لَيُحِسُّ بأن في طَوايا نفسه بُرْكانًا يتضرَّم ، و يوشك أن يقذف بالحُمَم ، وعبثًا يحاوِل أن يسُدَّ فُوَّهَتَه ، أو يُخمِد جَذْوَته .

وإنه ليفزَعُ إلى الغَدير ، ناظرًا في صفحته تحتَ ضوء الكواكب ، فيتجلّى له وجهُه أمامَه ، تكسوه تلك اللِّحية المهندَمة ، فيلمِسُ أطرافَها بأنامِله ، ثم لا يلبث أن تعاجِله ثورةٌ عارمة ، فكأنه يريد أن يقتلع تلك اللحيةَ من جذورها ، لا يُبقي منها ولا يَذَر (١) .

لقد اتخذ اليومَ لنفسِه حياةً طابَعُها عُزلةُ الناس ، فهو يتجنَّب مَرآهم ما وَسِعه أن يتجنَّب ، حتّى لَيُحاوِلُ وهو يسلك طريقه أن يتنكَّبَ (٢) عن مواجهة أقرب ذَويه ، وقد علَت سَحْنَتَه صلابةٌ وجَهامة ، حلَّت محلَّ ما كان قبلاً من وداعة وتطلُّق ، فأمّا عيناه فكانتا ترميان بنظراتٍ تتلظّى فيهما الشَّهوة والشَّرُّ ، بعد أن كانت هاتان العينان تترسَّل منهما نظرات الطُّهر والصفاء .

إلى أيِّ طريق في حياته هو مَسوق ؟

تُرى أيّةُ نهاية ترتقِبه لتختِم حياتَه تلك ؟

---

(١) يترك . (٢) يتجنَّب .

أ صائرٌ هو في صُحبة هذه المرأة حيث صار زوجاها الراحلانِ ؟

أ مُستطيعةٌ هي أن تقضيَ عليه قضاءها عليهما من قبل ؟

مَن تكون هذه المرأة ؟

إنها زوج أبيه ، في مَقام أُمّه !

يا سوءَ هذه العلاقةِ الّتي تربط بينه وبينها اليوم !

حتّى متى تبقى هذه العلاقةُ الشنعاء ؟

أولئك همُ الناس يتهامسون به ، ويجري ذِكرُه في حديثهم مشوبًا بالأقاويل .

أ لا يملك إخمادَ هذه العاطفة الهوجاء الّتي شبّت بين جوانحه لتلك المرأة ؟

عَجبًا لهذه العاطفة الّتي تلتقي فيها المتناقضات !

لا سبيلَ إلى إنكار أنّه يهواها ، بل إنه لا يُطيق عنها بُعْدًا ! فما بالُه على الرّغم من ذلك كلّه ، تثور به الرّغبة في أن يعصف بها ويقضي عليها ؟

وانتهى الأمر بالشّابّ إلى أن يَلزمَ الدّار ، حَبيسًا لا يُفارِقُها في ليل أو نهار .

واتخذت هذه الدارُ صِبْغةً مرهوبة في القَرية ، فرانت عليها كآبة و وحشة ، كأنّها قبرٌ أخطأ مكانَه ، فاستقرّ بين دُور الأحياء .

وكان الناس يجوزون بتلك الدّار ، فينظُرون إليها خَربَة من الخربات ، تعمُرُها أرواحُ الشّياطين .

وفي أمْسِيَّة من الأماسيّ الساجية ، تَفزّع أهلُ القرية ، فتدفّقوا من أعماق الدُور ؛ إذ رأَوا ألسِنة النّار تتعالى من تلك الدّار المشئومة ، فتُحيط بها من كل جانب .

وأقبل جمعٌ من رِجال القرية ، يحاولون اقتحام الدّار ، وتخليص مَن فيها من السُكان ، فهالَهم أنّهم لم يسمعوا نَأْمَةَ استغاثة ، ولا حركة فِرار . وألْفَوا البابَ مُحْكَمَ الرِّتاج ، فانطلقوا يقرعونه ، فانبعَث من جَوف الدّار صوتٌ ثائر ، كأنه هَذَيانُ مَحْموم ، وهو يردد :

« لا تَقْربوا البابَ ! دعوا الدّار تأكُلُها النار ! »

وجعلت جحافل اللَّهَبِ تَزْفِر وتَجيش ، والناس يتراجعون من خَشيةٍ ورَهَب ، كأنّهم يهربون من نار الجحيم !

مجنون

أ مجنونٌ أنا ؟ لا عقلَ لي ولا اتّزانَ ؟

أم أن عَقلي موفورٌ لم أفقدْهُ ، وأنّ ما أعانيه ليس إلا أثرًا لِتهافُتِ الأعصاب من فرْط الكدّ والجَهد ؟

فوق مُستطاعي أن أبْلُغَ في هذا التساؤل فصلَ الخِطاب ، وما يسوغُ لي وأنا طبيبٌ مكين ، سَبَرْتُ أغوارَ العِلَل ، واكتنَهْتُ أسرار الأدواء ، أن أقف حِيالَ نفسي قَلِقًا حيرانَ ، لا أقطَعُ برأي ، ولا أستنيم لِحكْم .

ولَكنْ فيمَ جَزَعي ، وليست حالتي إلا صورةً من طابَع الحياةِ الّتي نَحياها ؟

إنّهاحياة تضطَرب فيها الخواطرُ ، وتصطَرع الآراءُ ، فلا تَرى الأحكامَ إلا أطيافًا وأخيلَة ، ولا تكادُ تطمئنُّ فيها إلى حقيقة واحدة .

على أنّ اضطرابَ الحياة واصطراعَها أمرٌ لا غرابةَ فيه ولا شذوذ .

مِن أين للمجتمع أن يقرِّرَ تلك « الحقيقة الواحدة » المزعومة الموهومة ؟

ما كانتِ الحقيقةُ شيئًا مجردًّا قائمًا بذاته يهبِط عَلينا مَهْبِطَ الغيث .

هي من صَوْغ أيدينا ، وصُنْع أنفسنا .

كلٌّ منّا يصوغ حقيقَتَه ، تهديه عواملُ شتّى من بيئة وتجربة واستعدادٍ جُسْمانيٍّ وعقليٍّ ، موهوب أو

مكسوب .

كل منا يصنع مبدأه وَفْقَ ما تاح له من حُظوظ ومُلابسات ، وما رُكِّبَ فيه من مِزاج .

حتّى هذه الحقيقةُ الخاصّةُ بِكُلِّ فردٍ ، ليست هي « الحقيقةَ الواحدة » له على اختلافِ عهوده وأحواله .

شأنُ أمسِ غيرُ شأنِ اليومِ ، وإن لِغَدٍ شأنًا غيرَ ما كان وما هو كائن .

بل إن اللَّحْظة تِلْوَ اللّحظة لَقمينةٌ (١) أن تَستَقْبِلَ طارئًا منَ الأمرِ ، تتغير به الحقيقة من وجه إلى وجه ، فإذا الَّذي أصبحَ صِدقًا أمسى من الكَذِب الصُّراح ، وإذا الَّذي كان مطويا في جُنْحِ اللَّيل صار واضِحًا كضوءِ الصُّبح المُسْفِر .

مَهما يكُنْ من أمرٍ ، فقُصارى ما أستَطيع الحكمَ في حين أحَبِّر هذه الأسطُرَ – أنّي رجلٌ مريض .

منذ أشهرٍ ، وأنا أسيرُ العقاقير .

ألستُ بلا ريبٍ في عِدادِ المرضى ؟

الواقعُ أنَّ هذه العقاقيرَ لا تَزيد على أن تكون شُكولاً (٢) من المُنوِّماتِ والمُخدِّرات ، أحاول بها أن أهرُبَ من ألمِ الشُّعور بالأوجاع والآلام .

هذه الأُوَيْقاتُ الّتي يسيطرُ فيها المخدِّر على أعصابي هي وحدَها فترات راحتي وسكينتي . وطالما فَزِعْتُ إليه حين يشتدُّ كربي ، وأعيا بأمري ، ولكنّي أشعرعلى الرَّغم من كل شيء بمَقت وزراية لذلك المخدِّر الَّذي يخدَعني عن نفسي ، ويُيَسِّر لي الفرار إلى طُمأنينةٍ مكذوبة ، وراحة زائفة .

إني لأوثِرُ العذابَ في يَقظتي و وَعيي ، على أن أكون ألعوبةً تعبَثُ بها الأوهام والأخاديع .

في عذاب اليقظة والوَعي أستطيع أن أدرِك شأني ، فأفكِّرَ وأقدِّر ، وأفحص وأمحِّص ، لا يفوتني ممّا أنا فيه قليل ولا كثير ، ومن ثَمَّ ألتمس السَّبيل إلى مَخْلَص أطمئنُّ به ، وقرارٍ أسكُن إليه .

في عذاب اليقظة والوعي أشعر بأني كائن حيٌّ ، توافَرتْ له عناصر الحَيَوية من شعور وإحساس ، فأمّا تحتَ سُلطان هذا المخدِّر فأنا جثة هامدة ، لا يُعْوِزُها إلا الكَفَنُ ، لتكون كُفئًا لِغَيابة الرَّمْسِ .

إنْ طلبتَ السببَ ، فيما أعانيه ، عرفتَ أنّه امرأة .

أ في ذلك تَرَيُّب ، أم منه تتعجَّب ؟

امرأة هي السببُ كلُّ السبب !

شخص آدميٌّ تافهٌ كهذه الألوف المؤلَّفة منَ الخلائق ، الَّتي تزدَحم بها الأرض ازدحامَ الشُّقوق بجحافِل النِّمال .

ولكنْ أ تافهةٌ هذه المرأةُ حقا ، وقد صيَّرتْني إلى هذه الحالِ الَّتي أكابِدها بينَ مَضٍّ (٣) الآلام و وَطْأة القُيود ؟

قد تكونُ امرأةً غامضة مُعقَّدة ، تَزْخَر بِقُوًى عارِمة .

وقد تكون ضَحْلَةً لا استعصاءَ فيها ولا عُمْقَ ، ولكنَّها تَصَوُّراتي وأخيلتي هي الَّتي حاكَتْ حولها تلك الألفاف من ذلك التعقُّد والغموض .

أ أكونُ قاسيًا عليها ، عنيفًا بها ، مُسرفًا في الظُّلم والتجنّي ؟

يا طالما رثَيْتُ لها ! ويا طالما أنحيتُ باللائمة على نفسي من أجلها !

أمّا اليومَ ، فما أشوقَني إلى أن أعتقِدَ بأنّي كنت لها ظالمًا ظلمًا بيِّنًا لا ريبَ فيه !

ما أحبَّ إليَّ أن يكون ذلك !

إذن لتخلَّتْ عنّي آلامي ، ولانزاحت عن نفسي

(١) جديرة . (٢) أشكالاً .

(٣) الوَجَعُ والمشقّة .

غُمتي .

حقا هي الّتي أسلمتني إلى ذلك السّجن الخانق أفنى فيه .

ولكن أ ليس لها أن تقول إني أنا الّذي حرمتها متعتها في الحياة ؟

كِلانا عِلّةُ عذابِ الآخر ، ومصدرُ بلائه !

وكل ذلك من جرّاء ما يسمّونه « الحبّ » ! ذلك الطائش الأخرق الّذي يخبط خبْطَ العشواء ، ويَصُبُّ الغارة الشعواء .

كلانا يَفنى وَجْداً بصاحبه ، وكلانا يذوب جُهْداً في التنكيل به .

أمّا حُبّي إيّاها فحَقٌّ لا يشوبه خلاف .

وأمّا حُبُّها إيّايَ فإنه على مثل ذلك يقيناً وقوة .

أشهى ما تَشتهيه نفسي أن تلتَحِمَ شفاهُنا في قبلة متضرِّمَة ، تختنِق بها أنفاسُنا معًا قبلةِ نشتَفُّ (١) بها زُبْدَةَ النعيم ، فتُسلِمنا إلى راحة الأبد .

أجلْ ، قبلةُ الموت هي غايةُ ما أصبو إليه ! وأكبر اعتقادي أن صاحبتي تَشْرَكُني في هذه الأمنيَّة الغالية ! قبلةِ الموت !

أ منطِقُ عاقلٍ هذا ، أم هَذَيانُ مأفون (٢) ؟

إليكَ قصتي ... ولك مَقْطَعُ الرأي ، وفصلُ الخِطاب :

كنتُ طبيبًا نابهًا في مِهْنتي ، تَفِدُ عليَّ أفواج المرضى ، مختلِفةَ الطبقات والأنواع ، من رجال ونساء .

وكانتِ النساء ضُروبًا وأفانينَ ، بينَهُنَّ المِلاح اللّواتي يَتَضوّأنَ وسامة ويَتضوّعْنَ فِتنة ، ولكن عيْني لم تَعْلَقْ بإحداهن يومًا ، وقلبي لم يخفُق لواحدةٍ منهنَّ لحظة .

ومن بين هؤلاء من بَثَثْنَ لي شِباك الحبِّ ، بَيْدَ أنّني رددتُ هذه الشِّباكَ في غير عَناء ، ولم تظفرمني إلا بنظرة إشفاق .

وليلةً دُعيتُ إلى عيادة مريض ذَرَّفَ (٣) على الستينَ ، قيَّد الشَّلَلُ أوصالَه .

في تلك الليلة وُلِدَتِ المأساة !

لهذا المريض زوجٌ ما إن رأيْتُها حتّى بدتْ لي كأنّها الصورةُ الجامعة لمفاتِنِ الجمال ؛ الصورةُ الّتي كنت أنشدها دون وَعْيٍ وقَصْد في مُخيِّلتي وفي وليجةِ نفسي ؛ الصورةُ الّتي تؤلِّفُ عندي المثلَ الكامل الجاذبيَّة الأنثى .

أستطيع أن أؤكِّد– دون تهيُّب – أن هذه الإنسانةَ وحدَها الخليقةُ بالحبِّ دون سائر النِّساء ، بل أن الحبَّ نفسَه ما كان إلا لها ، وما خُلِق إلا من أجلها .

لا تنتظرْ منّي أن أواتيَكَ من وصفها بما يصوِّر لك فتنتها ، وما يقوم برهانًا على صدق تقديري لها .

فإن ألححتَ في أن أصِفَها لك ،فلستُ بقادرٍ على أن أنيلَكَ بُغيَتَك إلابشيءٍ واحد ، هو أن تَشُقَّ صدري، وتُفَرِّقَ بين ضلوعي ، فتنتزعَ من مكانه قلبي ، لتَتبيَّنَ فيه مِن فورِك صورةَ مَن أحببتُ ماثلة كاملة .

آنستُ من صاحبتي رُوحَ استجابةٍ لعاطفتي . فكثيرًا ما أخذتْ بيدي ، بعد عيادة زوجها المريض ، إلى حجرة مجاورة ، تُطارحني الحديثَ في تلطُّف ، وتناقلني النَّظراتِ في عذوبة وصفاء .

لا أدري على وجه الدِّقَّة : كيف تَوَضّح بيننا هذا الحب ، واستبانت لكلٍّ منا لواعِجُه ؟

ثمَّةَ مقدماتٌ ... ليس من ذلك بدٌّ !

وثَمَّةَ تطوراتٌ ... ليس في ذلك ريب !

هنالِك نقطةُ بدءٍ . وهناك سلسِلةُ مَشاهد . هذا كلّه

(١) اشتفَّ ما في الإناء : شَرِبَ كلَّ ما فيه . (٢) ناقص العقل . (٣) زاد .

لا مَعْدى (١) عنه ، ولا نِزاع فيه .

إن أحْداثَ الحبِّ بين العشّاق في ترتيب فُصولها ، وتساوُقِ (٢) مشاهدها ، والخلوص إلى النّتائج من المقدّمات ، شأنها شأن الرّوايات والمسرحيّات ، سواءٌ بسواء .

هذا قولٌ منطقيٌّ أصيل ، وهذا ما كان في مأساتي.

ولكنّي أقِف عاجزًا عن أن أكونَ راويةً لِقصةِ حبّي .

الروائيُّ الفَطِن هوالّذي في مقدوره أن يصوغَ هذه القصةَّ في أسلوبِها الطبيعيِّ ، وحبكتَها الفنيّة ، مسبوكةَ الأطراف ، مُسلَّمَةَ الأوصال .

ذلك شأنُ الروائي الناجح ، فأمّا أنا فَمِنْ أين لي أن أكونَه ؟

أ محبٌّ ناجح أنا حتّى أتطاولَ إلى هذا المَقام ؟

أ بقيتْ لي بقيَّةٌ من فِطنة وتدبُّر ، حتّى أصوغَ قصتّي موفورة الحظ من التّساوُق والتناسق ؟

أ لم أقل إني مجنون ، أو على الأقل مغلوبٌ على أعصابه ؟

أيّنا كان أسبقَ بالحبِّ لصاحبه ؟

أ أحببَتُها أنا بادئًا ، فشعرَتْ هي ، فاستجابت ؟

أمْ أحبّتْني ، كحُبّي لها ، فتلاقَيْنا على هوًى ؟

وأيُّ شأنٍ لهذا البحْث والتمييز ؟

الجديرُ بالذّكر في هذا الصدد أنّي لم تكَدْ زوْراتي لِذلك البيت تتعاقَب ، حتّى كنت أنا وصاحبتي في حبائل غرام عنيف .

أ يسوغ لي أن أعترفَ بأن هذا الحُبَّ كان وصمَةً آثِمَةً في جبين المهنة الّتي شرّفتْني بالانتساب إليها ؟

ليكنِ الأمرُ كما يكون !

فمهما يختلفُ الرأْي والتقدير ، فإن هذا لا يغيِّر شيئًا من الحقيقة الواقعة .

تَشيعُ في المجتمع ألفاظٌ يتشدَّق بها الناس ، ويحوطونها بهالات الإكبار والتقديس .

وإنَّ المجتمع ليتّخِذُ في هذا الصددَ لَبوسَ طاغيةٍ حاكِم بأمره ، يَشْرَع الحلال والحرام وَفْقَ هواه .

فليفعلِ المجتمعُ ما يشاءُ ، ولْيقررْ ما يريد ، وليكنْ مَثَلُه كمثل الأقطاب الدينيّينَ في العصور الوسطى ؛ هؤلاء الّذين ادَّعَوا لأنفسهم القُدرة على الإباحة والحَظْر ، والمنحِ والحِرمان ؛ هؤلاء الّذين حَسِبوا أنفسَهم قُوّامًا على أبوابِ الجنّة ، يبيعونها لِمَن يَهْوَوْنَ بالشّبْر والذّراع !

هل أفلحَ أولئك الحاكِمون المُسيطرونَ في أن يُغَيِّروا مَجْرى الحياة ، ويُحيلوا طبائعَ الناس ؟

إنَّ الدنيا لَتسيرُ ، وتَمْضي في سَيرِها ،لا تعبأ بشيءٍ، ولا يتعاصى عليها شيء .

إنْ كان ثَمَّةَ مِن حاكِمٍ يأمُر فيُطاع ، وينهي فَيَرْدَعِ ، فما ذلك إلا القَدَرُ . ذلك هو المُسيطِر الغلابُ ، تعنو (٣) له الجِباهُ ، وتَخِرُّ له الجبابِر .

لماذا أحْسَبُ جانيًا فيما كان منّي ؟

أ لستُ مسيَّرًا مُجْبَرًا ، تزجُّني يدُ القدر ؟

ومَن ذا الّذي يردُّ القدَر المُتاحَ ؟

ربما كنتُ في أعيُن الناس موصوفًا بالنذالة والخِسَّة، على حينِ أني أراني لم أتعدَّ حَدًّا ، ولم أستجبْ إلا لنوازعَ طبيعيةٍ لا طُغيانَ فيها ولا شذوذ ، نوازعِ الاستِمتاعِ بما وهَبتني إيّاه الحياةُ من قُوًى وحُرِّيات .

يُخَيَّلُ إليَّ أني أسمَع همساتِ سُخريَةٍ وازدراء ، وهَمهمات تعجُّبٍ وإشفاق ، وكأنّي أتبيَّن فيما أسمع قول قائل : « وَيْحَه من مخبول ! »

---

(١) لا تَجاوُزَ إلى غيره . (٢) تتابُع .

(٣) تَخْضع وتَذِلّ .

إن المخبولَ لَيتابعُ حديثَه غيرَ لاوٍ (١) على لَوْم ، فَيُفيضُ في هذيانه ما وسعه أن يُفيضَ .

كانت ساعاتُ الصفا الَّتي أختلسها مع صاحبتي ، نقضيها دائمًا في الحجرة المجاورة لحجرة الزوج العليل.

كنا نجلس تغشانا روحٌ غريبة منَ الحذر : قلبٌ واجف ، نظرة قلِقة ، سمع مرهَف لأقلِّ نَبْأة (٢) ؛ على حين تتشابَكُ أيدينا ، وتتواصَلُ أعيننا ، وتتراسَلُ شفاهنا حينًا بالحديث همسًا ، وحينًا باللَّثم خَطْفًا .

وكانَتْ صاحِبَتي هيَ الَّتي توحي بأن تكون اللُّقيَة على هذه الحال ، بل إنها لَتُصِرُّ على أن تكون عن كَثَب من زوجها ، لا تفصِلُهما إلا خطواتٌ ، معَ أن الدّار كثيرة الحجُرات ، تتوافر فيها الخَلوات الَّتي لا تبعث قلقًا ولا تثير ريبَة .

ولَشَدَّ ما ضِقْتُ ذَرْعًا باللِّقاء على هذا النَّحو .

فيمَ هذا الحَجْرُ على العاطِفة ، والإحراجُ للنَّفْس ؟

لِمَ نتلاقى ، على رأسَيْنا سيفٌ مُصلَت ، يَنهانا أن نتحرَّكَ إلا بمقدار ، وأن نَنْبِس إلا بِحساب ؟

أ رأيتَ إلى الناس تُظِلُّهم حربٌ شنعاء ، ولا يَطيبُ لهم أن يقيموا وَلائمَهم إلا في العَراء ، والطائراتُ من فوق رءوسهم محلِّقةٌ منذِرةٌ بالشَّرِّ ، فهم يتناولون طعامَهم على ترقُّب وتخوُّف ، وكان في مُكنتهم أن يفزَعوا إلى المخابئ الكَمينة ، والمعاقِل الحصينة ، يستمرئون فيها طعامَهم آمنين ؟

ذلك مَثَلُنا نحن في ولائمنا الغرامية الَّتي تحلِّق في سمائها الخيفَةُ والتوجُّس ، لغير ضرورة قاضية .

حَسْبُ الزوجِ أن يَسْعُلَ سَعْلة ، أو يبعث من فراشه نَأمةً (٣) ، لِكيْ تحتبسَ منا الأنفاسُ ، ويشملَنا انتفاض .

ولقد كنتُ في هذه الساعات المشبوبة أنظُر إلى صاحبتي ، فأتبيَّن في مُحَيّاها إشراقًا يشف عمّا تجيش به نفسُها من نشوة ليس وراءها نشوة .

أمّا أنا فقد كنتُ في بعض الأوقات يَشتدُّ بي الضّيـق ، فأتهيَّأ للنهوض ، هامسًا في أذن صاحبتي :

« فَلأرحلْ ! فَلأرحل ! »

فتحدِجُني ببَصرها وهي تتغيَّظُ ، كأنَّما تقول :

« لقد عكَّرتَ عليَّ نشوتي ! »

فلا أرى مَناصًا منَ الإذعان لرَغبتها في إطالَة الجَلسة معها ، على ذلك النحو المَقيت .

ومن عجيب أمرِ هذه الإنسانة المُعقَّدة ، أنَّها على الرغم من هُيامِها بي ، وإعزازها لي ، كانت باديَةَ العَطْف على زوجها العليل ، وكان عطفُها محضًا لا رِياءَ فيه ولا تصنُّعَ : تسهرُ على راحته ، وتوافيه بأسباب العِناية والتعهُّد ، وتبذُل في ذلك منتهى الوُسْع ، لا تألو جَهدًا في تمريضٍ وعلاج ، وإعدادٍ للطعام والشراب ، حتّى إنها لم تكن تُبارح الدّارَ إلا قليلاً ، كلُّ همِّها مصروفٌ إلى تدبير شئونها المنزلية على خير وجه وأهدى طريق .

وكثيرًا ما رأيتها وهي بجانب زوجها ، على حافَة السرير ، توسِّدُه صدرَها ، وتلاطِفه في حُنُوٍّ و ولاء ، وتدلِّله كأنَّه الأعزُّ ؛ فأراني قد ثارت بنفسي غَضْبَة وحَنَق ، فتلحَظ ذلك في نظرات عينيَّ ، فما إن تختلي بي في الحجرة المجاوِرة ، حتّى تبادرَ إلى سمعي ، تُسِرّ إليَّ قولَها : « أراهِنُ على أنَّك غيور ! »

« أ بعدَ ما رأيتُه ، تطلُبين منّي ألا أغارَ ؟ »

« أ تخشى على مكانك من قلبي ؟ »

« إن القلبَ لا يتسعُ إلا لحبيب واحدٍ . »

« كنت أحْسَب أنكَ أحكَمُ وأحزم من التأثرِ بهذه الأمثال الشائعة ! »

(١) غير مُنْتَظِر .

(٢) الصوت ليس بالشديد ولا بالمُسْترسِل .

(٣) الصوت الضعيف الخفي أيا كان .

« تريدين أن تُسفِّهي قولي ، وتزيِّفي رأيي ؟»

« وأنتَ ؟ إنك دائمًا تريد بتلك المقاييس التّافهة أن تُسفِّهَ حبّي ، وتزيِّف عاطفتي ! لقد صدق حَدْسي في مبلغ حبِّكَ إيايَ !»

« أ تجرُئين على التّهوين من شأنِ حبّي ؟»

« إنك تُحِبُّ كما يُحِبُّ سائر الناس .»

« وكيف تريدنني أن أحِبَّ ؟»

« كما أحبك أنا !»

« ناشدتُك الله أن تخبريني ! كيف تحبينني ؟»

« تسألني كيف أحبُّك ؟ تسألني كيف ؟ أليس لك طاقةٌ باستشفافِ حبّي على أي نحوٍ يكون ؟ إنك لا تفهمُني ، ولن تفهمَني ما حَيِيتَ !»

وأقِفُ قُبالَتها ، وهي تلفظُ هذه الجملة ، و وجهُها الفاتنُ تنطِق قسماتُه بالإخلاص في القولِ والجِدِّ فيه .

وإني لأُقِرُّ بيني وبين نفسي بأنّي لم أوتَ قدرةً على تَفَهُّمِ كُنْهِ هذه المرأة ، واستبطانِ ما في نفسها من تعقُّد واستعصاء .

وأسْمَعُها تقول : « حَسْبُك فاتركني .»

فأشعر كأنَّ نِياط قلبي تتمزَّق ، وأهْوِي على يديها أستغفِر .

وعلمتُ يومًا أنَّها سافَرتْ إلى الإسكندرية في مُهِمَّة من خاصَّة شأنها ، وعجبتُ لها :

لماذا لم تُنْبِئْني بأمر هذه السَّفْرة ؟

ولكنّي قَدَّرْتُ أنها فُوجِئت بباعِث السَّفر ، فلم تملِك إبلاغي .

وقَفَوتُ أثَرَها إلى الإسكندرية وأنا أمنّي النَّفْسَ بِخَلوة صافية هانئة ، في نَجوةٍ من بيت زوجها المريض .

إنَّها المرةُ الأولى الَّتي أنعَم فيها بجوٍّ هادئ ، لا تَغيمُ سماؤه برعب ولا حَذَر .

وقصدتُ من فَوري فندق « وندسور » إذْ كان فيما علمتُ مَثْواها المُفضَّل ، كلَّما سافرتْ إلى الثَّغْر .

ولم يكْذِبْني ظنّي ؛ فقد كانت هناك .

وطرقتُ بابَ حجرتها ، ثم دخلتُ فألفيتُها على وَشْك الخروج . فلمّا وقع بصرُها عليَّ ، بدا على مُحَيّاها دَهَش وتجهُّم ، وقالت : « أنتَ ؟»

« أ ساءكِ قدومي ؟»

« ماذا جاء بكَ ؟»

« عجيب أن تَسْألِيني .»

« لم أطلب منكَ أن تَقْدَم ، فَلِمَ فعلت ؟»

« وهل تحسَبينني أنقُل خُطايَ وَفْقَ أمرك ونَهْيك ؟»

« كان عليك أن تحترم رغبتي !»

« ورغبتي ! ألا احترام لها ؟»

« لو تبصَّرتَ في الأمر ، لعَلِمْتَ أنَّ رغبتي ورغبَتَك تلتقِيانِ !»

« بل إنَّك لتُفَرِّقين بينهما جَهد مستطاعِك .»

« ما أشدَّ مضايقتَك لي بهذا الجدل !»

« لقد باغتَني منكِ هذا الاستنكارُ لِقُدومي . أيُّ جَريرةٍ فيما صنعتُ ؟ إنها لفرصةٌ فريدة طيبة أُتيحَتْ لنا ، فما بالُك تأبَيْنَها ؟»

« ما زلتَ تَلوكُ منطقَ عامَّة الناس !»

فَثار غيظي ، وقلت : « لم يَهبْني الله إلا ما وَهَبَ النّاسَ مِنْ منطق ، فماذا تطلُبين أنت ؟»

« إنّي ليُؤسفني أن أسمعَ منكَ ما سمعتُ .»

« وإنّي لَيؤسفني أن أقِرَّ لك بِعجزي عن الرُّقيِّ إلى أبراجِ أفقك الرَّفيع .»

« إنكَ تتوخّى طريقَ المشكلاتِ بسوءِ تصرُّفك . تُقوِّضُ صرحَ الحلم الجميل الَّذي نعيش فيه .»

فصمَتُّ بُرهةً أحدِّق فيها ، تتنازعُني مشاعرُ حنق

وألم وتحيُّر .

ثم صحتُ : « أ تأبَينَ قضاءَ وقت معي في هذا البلد ؟ أوْجزي الجوابَ ! »

فرفعتْ رأسَها في عزَّة ، وقالت : « أرُفض ذلك ! »

« ألي أن أسألَ لماذا ؟ »

« وتسألُني لماذا ؟ »

« ألا يَحِقُّ لهذا الغبيِّ المتشرِّف بالمثول أمامَك أن يستوضحَكِ أمرًا عَزَبَ [1] عن فهمه الكليل ؟ »

« لستُ ممَّن يُعْنَيْنَ بتَفطين الأغبياء ! »

فصرختُ ، وقد جاوز بي الغضبُ حدَّ التمالُك :

« كفى منك هذا الغرورَ ! اسمعي ! هذه آخرُ مرة ألقاك فيها ! إنَّهُ فِراق بيني وبينك ! »

ورأيتها صامتةً كالتِّمثال ، ويداها معقودتانِ على صدرها .

فاستأنفتُ أقول ، وأنا أضرِب المنضدَةَ بجُمْع يدي:

« هل عِندكِ من جواب ؟ »

فندَّت عنِ التِّمثال حركةٌ واحدة ، اليدُ مشيرةً إلى الباب !

و وجدتُني أمْرُقُ مروقَ السَّهم ، وأنا أنتفِض انتفاضَةَ محموم ، وأقسَمْتُ أن أفصِمَ العَلاقة بيني وبين هذه الإنسانة الَّتي لم أجْنِ من ورائها إلا فنون العذاب.

واستبان لي في هذا الوقت عِظَمُ الوِزْرِ الَّذي اقترفْتُه في حق مريضي الشَّيخ الَّذي أعوده . كيف طوَّعَتْ لي نفسي أن أستنيم لهذه الدَّنِيَّة ؟

وما وصلتُ إلى القاهرة حتى كَلَّفْتُ المُمَرِّضَ أن يتَّصل بمنزل الزوج ، ويُنْهِيَ إليه أنِّي موعوك ، وأني أنَبْتُ أحدَ زُملائي الأطبَّاء في مُواصَلة العِلاج والإشراف.

وكنت أقطَع وقتي في استقبال زُوَّاري من المرضى ، وأنا أستسلِم لِلعمل ، مُحاولاً أن أستغرِق فيه، متناسيًا – جَهدي – ذلك الحبَّ الأثيم ، ولكن كُلَّما صلصَل التِّلِفون هُرِعْتُ إلى المِسْمَعَةِ بنفسي ، لا أدَعُ المِرِّضَ يسبقني ، وفي نفسي تعتلج هزَّةُ الارتقاب لصوت معيَّن ، بيدَ أنَّ هذا الصوت نَبا عنِّي ، وعزَّ عليَّ!

وتوالتِ الأيَّامُ ، وأنا على تلك الحال ، أشعُر وئيدًا بأنِّي قد هدأتُ شيئًا ، وأنِّي في الطريق إلى الخَلاص من أعقاب تلك العاطفة الجَمُوح .

ولقيتُ يومًا في طريقي الطبيبَ الَّذي أنَبْتُه عنِّي في علاج الزوج الأشلِّ ، فأخبرَني بسير العلاج ، وحالةِ المريض ، ثم ما لبِث أن أشاد بتلك الزَّوجة السَّمْحَة العطوف ، وبما وُهِبَتْ من فتنة وَ وسامة . وافترقنا وأنا أحسُّ ضيقةً يتَنزّى بها صَدري ، وقضيتُ يومي مهتَما مكتئبًا ، لا تُجدي الوسائلُ في التَّرفيه عن نفسي .

وبكْرَةً طلبْتُ صديقِيَ الطبيبَ في التِّلفون ، فشكَرتُ له عنايته بالمريض ، وأخبرتُه بأنِّي قد تخلَّصتُ من شواغلي ، وأنِّي مستأنفٌ إشرافي على مريضي . وما أسرعَ أن جذبتُ حقيبتي ، وقصدتُ تلك الدَّارَ المنشودة !

لماذا أقدمتُ على ذلك ؟ لستُ أدري !

وما إن بلغْتُ الدَّارَ ، حتّى شعَرتُ بأن أوصالي يعروها انتفاضٌ ، لا أعرِف أ مِنْ ألمٍ هُوَ أم من ابتهاجٍ ؟

ويَمَّمْتُ حجرةَ المريض ، فألفيتُ الزَّوجة في مكانها المختار من السَّرير ، تُدلِّل زوجَها ، وتحوطه بعَطفٍ وإيناس . وما إن رآني المريض حتّى تهلَّل وجهُـه ، ترحيبًا بي ، وأمَّا الزَّوجة فقد حيَّتني تحيَّةً مألوفة في أدبٍ ، وسَرعانَ ما أتممْتُ الفحص ، وأوصيتُ بالعِلاج ، وخرجتُ أنا والزوجة إلى الحجرة المجاورة .

(1) بَعُدَ وَخفيَ .

يا لله من هذه الحجرة البغيضة الحبيبة !

يُخيَّلُ إليَّ أنّي أقرأ على حوائطها تاريخ ذلك الغرام العجيب ، مُسطَّرًا بأحرف بارزة !

كأنّما لهذه الأحرفِ أبواقٌ تنطق فتُسْمِعُني ذلك التاريخَ ، مجلجلةَ الصوتِ ، قوية الرنين !

و وجدتُني أستأني في سيري ، وسَمِعتها تقول :

« أهنئك على سلامَتك من وَعْكتك ! »

فقلتُ لها ونظراتي تنحَرِف عنها :« أ تهزئين بي ؟ »

« وفيمَ الهزؤ ؟ »

« تعلمينَ أنّي لم أكن بمَوعوك . »

فربّتتْ كتفي ، وقالت مبتسمة : « بل كنتَ موعوكًا ، هذا ما نتّفق عليه . وإنما الخلافُ بيننا على وَصْف الوعكة ، وتَسميَة المرض ! »

« أ كنتِ تحسبينَ أن وعكتي تُزْمِن ، أم كنتِ تقدِّرين لها قريبَ زوال ؟ »

« الّذي استيقَنْتُهُ أنّكَ لا بدَّ عائد ! »

« أ ما كانَ في حِسابك أن تنتهيَ بِيَ الوَعْكَةُ إلى انقطاع ؟ »

« ما كنتَ لتنقَطعَ ، ولك نائبٌ عنك يطرُق الدّار. »

« أيُّ أثر لذلك ؟ »

« ثَمَّةَ شيءٌ يسمُّونه الغيرة ، يا صاحبي ! الغيرةَ الكاوية ، وقانا اللهُ لَفْحَها ! »

وأخذتْ بيَدي تلاطِفُني ، فقلت :

« تُخطئينَ الحَدْس والتقدير . لقد أصبحتُ اليومَ سيِّدَ قلبي ، وما جئتُ إلا لأثبت لكِ هذه الحقيقة . لن يعنوَ (١) قلبي لذُلِّ الهوى ! »

وخطَتْ بي إلى ركننا المعهود ، وهي تقول :

« أنتَ على حق ! »

« وسأضع لهذه العلاقة حَدًّا . »

« لا تَعجلْ ، فالأيّامُ رَهْنُ مشيئتك . أمّا الآن ... »

« الآن ؟ »

« سأحتَفِل بِمَقْدَمِك ! »

« ماذا تقصِدين ؟ »

« أ تأبى أن أحتفِيَ بحضورِكَ بعد غيبة ؟ إن هذا لا تأثيرَ له فيما تعتزِم من أمر . »

ورأيتها تُخرج من صِوانٍ في الحجرة صينيةً عليها قارورةٌ أنيقة وكأسانِ .

فقلت متعجِّبًا : « شمبانيا ؟ »

« شراب لذيذ ، فيه خِفّةٌ وصفاء ! »

وطرقَتْ سمعي سَعْلة الزوج ، فأمسكتُ بيدِها أرُدُّها عن صَبِّ الشّراب ، وأنا أقول :

« لا ، لا ، لن يكون ذلك ! »

فنحّتْ يدي في لُطف ، وأتْرَعَتِ (٢) الكأسين ، وقدَّمت لي كأسي فكدت أقذِف بها ، ولكنّني وجدتُ صاحبتي تشتَفُّ كأسَها دُفعة واحدة ، وقد التَمعتْ عيناها ، وتوردّت وَجنتاها ، فإذا أنا أتوسَّمها مُتَمَلِّيًا مفاتنَها الحِسان .

وأحسستُ كأنّي أنْهَلُ بعيني كأسًا أخرى أغلى وأمتعَ من تلك الكأسِ المُتْرَعة في يدي . ثم هَمْهمتُ:

« أيّةُ إنسانة أنت ؟ »

وكانت عيناها معقودتين بعيني ، فأجابت في صوت الحالم :

« حقا لا علمَ لي . لكَ أن تقول ما في نفسك، وإنّي لَشَيِّقةٌ (٣) إلى أن أسمع ! »

وتدانتْ منّي ، حتّى أحسستُ بأنفاسِها تتلاقى

---

(١) يخضع ويذل .

(٢) مَلأتْ . (٣) مشتاقة .

بأنفاسي ، وقلت في همس :

« أشعر في بعض الأوقات أنّكِ لستِ آدميةً من طينة البشر . لكأنك حينًا قَبْسَةٌ من نار الجنّ ، وتارةً نَهْلَةٌ من طُهْر الملائك !»

ورأيتُني أعُبُّ الكأسَ عَبًا بلا وَعْي ، وسمعتُها تُهينم : « هَبْني مَلَكًا أو هَبْني شيطانًا ، ألا تُقبِّلني ؟»

وما هي إلا أنِ استوعبتُها بين ذراعيَّ ، وغيَّبتْنا قبلةٌ عارِمَة .

ونَدَّت منّا حركَة أطاحَتْ بالمنضدة وما عليها ، فانصدَع السكونُ الشامل بصوتٍ مُفزِّعٍ ، وانتهى إلى أسماعنا قولُ الزّوج المريض : « مَن ؟ مَن ؟»

فأنصتَنا وقد بلَغ منّا الرَّوْعُ غايتَه ، واستأنَف المريضُ يقول مُتَلَمِّمَ [1] النَّبرات ، متلاحقَ الأنفاس :

« من ؟ من في الحجرة ؟»

وخرِسَتِ الحجرةُ لا تُجيب !

كنّا لائذَيْن بصَمتٍ لاذعٍ جيّاش .

وتابع المريضُ صَيْحاته العِجافَ ، وأحسَسْنا بِه يتحرَّك ، كأنّما يحاوِل أن ينهَض ، وإذا بالزّوجة تَنْفَلِتُ من بين ذراعيَّ ، وتدفع بصينيّة الشّراب بعيدًا عن مواقع النَّظر .

واستبان سَمْعي حركةَ جسم في الحجرة الأُخرى يتقلقَل ، وقدَمٍ تَدِبُّ متخاذِلة ، وعصًا تدقُّ الأرض واهيةً ، وأنفاسٍ مكروبة تُغالب الإجهاد .

و وجَدْتُ الزّوجة تُمسِك بيدي ، وتدفَع بي تحتَ المُتَّكأ ، قائلةً : « هُنا ! هنا !»

فانتابتني أخلاطٌ منَ الخِزْي والرُّعبِ والارتباك ، تَنتهِبُ نفسي وتَتَقسَّمُ تفكيري .

وازداد خَفْقُ القَدم ودَقُّ العَصا ، مِنْ وضوح . و وجدتُني تحتَ المُتَّكأ أتكمَّش وأتجمَّع ، لا أملِك من إحساسي إلا أذنًا تُصغي .

فأمّا الزّوجة ، فما أسرعَ أن تمدَّدَت على المتّكأ في سكون .

ودَلَفَ الزّوج إلى الحجرة ، وهو يقول : « ماذا ؟ أأنتِ هنا ؟ لقد ناديتُ فلَم يلبِّ ندائي أحد .»

« معذِرةً ! مَلَكَتْني إغفاءةٌ .»

ونهضَتْ إليه ، تُعينه في خَطْوِهِ ، واستأنفَ الزّوج يقول : « لقد فَزَّعني صوتٌ انبعَث من الحجرة .»

« ربما كانت قدمي دَفَعتْ بالمنضدة ، وأنا في سِنَةِ نومي .»

وسكتت لحظةً ، ثم واصلت قولَها حانيةً عليه تقول : « لماذا حَمَلْتَ على نفسِك وتركتَ الفِراش ؟ شدَّ ما تشغَلُ بالَك بأتفَه الشئون !»

وما زالت به حتّى أدنَتْهُ منَ المتّكأ ، حيثُ كنتُ أجلس ، فأحسَسْتُ المريضَ يتداعى بجسمه الأشلّ ، وأقْبَلَتْ عليه زوجُه تلاطِفه وتضاحِكه .

وسمعتُه يقول : « أخزى اللهُ الشّيطان الوَسْواسَ الخنّاس !»

« ماذا ؟»

« لا شيءَ . لا شيء .»

« صرِّحْ لي بما في نفسِك .»

« إنَّ أعصابي متهافِتة ، فلا عليكِ .»

وتناول يدَها يقبِّلها ، وهو يردِّد :

« لولا وجودُكِ معي لَما حَلا لي طعمُ الحياة . لولا أنتِ لَما صبرْتُ على ما أنا فيه . لكنَّ أكبر ما يؤلمني ما تقاسينَه من عَناءٍ معي . ما ذنبُكِ في هذا كلِّه ؟»

« أيُّ عَناء ؟ ألم أحَرِّمْ عليك أن تُخطِرَ ببالِك شيئًا من هذه الهواجس ؟»

« كلَّما وقعَ بصَري عليك ، وتجلَّت لي وسامَتُك

(١) متكسّر ، متهدِّج .

وشبابُك ، أراني مهمومًا من أجلِك . إنَّك لَتَبذُلينَ في سبيلي أعزَّ ما يبذلُه إنسان !»

« أقسِم لكَ إنّي راضية بعيْشي معك ! لا ضيقَ ولا ضَجَر . وإنّي لا أمنيَّةَ لي إلا أن أراك مطمئِنَّ النَّفس ، خاليَ البال .»

وأطبق الصمتُ على الحجرة ، ثقيلَ الوطأة ، فأحسَسْتُ في مَحْبِسي أنَّ شيئًا يجثُمُ على صدري ، فيُخمِدُ أنفاسي .

وسمِعت المريضَ يقول ، مهزولَ الصَّوت ، راعشَ النبرات : « والطبيب ؟»

فأجابته الزوجة في لهجة تذوبُ رقة : « الطبيب ؟ ألكَ به حاجةٌ الآن ؟»

« أقصِدُ ... أقصِد... لا شيءَ ! لستُ بحاجة إليه.»

وشعَرتُ بأن المريض يَلُمُّ شعَثَه (١) ، ويتأهَّب للنهوض ، فقالتِ الزوجة :

« ألا تستوفي قِسطَك منَ الرّاحة ؟ إبْقَ جالِسًا . لن أدعَك تمضي الآن .»

« لماذا ؟»

« أنتَ الساعة ضَيفي ، وقد سَعِدتْ بمَقدَمِكَ حجرتي ؛ فقد امتدَّت عنها غيبتُك ، وطال شوقُها إلى زَورتك .»

فتنهَّد قائلاً : « حقا ، غِبْتُ عنها طويلاً . منذ أمَدٍ بعيد لم أجتلِ هذه المناظرَ . إنها لَتبعثُ في نفسي ذِكْرَياتِ أوَيقاتٍ هانِئة ، قضيناها معًا في هذا الرُّكن الأنيس - رُكْنِنا المُختار .»

« من أجل هذا رَغِبتُ إليكَ في أن تُطيل جلستَك .»

ثم نهَضتْ ، وهي تقول : « لك عندي مفاجأة .»

« أيَّةُ مفاجأة ؟»

ولمحتُ قدمَيها الدَّقيقتين تتحرَّكان نحوَ الصوّان ، وما هي إلا أن أخرجَتْ أشياء ، قصدتْ بها إلى المِنضدة ، فرتَّبتها عليها . وصاح الزوجُ :

« ماذا ؟ شمبانيا ؟»

« احتفالاً بِزَوْرتكَ نَحتسي كأسين .»

« وهل كنتِ تتوقَّعين قدومي ؟»

« إني أنتظِر هذه الزورة وأعِدُّ لها العُدَّة منذُ وقت مديد . فلْنشرب على صحتك ... ولكن لن أصُبَّ لك إلا مِلْءَ رُبع الكأس ؛ لا يُجيز لك الطبيبُ إلا هذا القَدْرَ .»

وسمعتُه يُهمهم : « الطبيب ؟ متى ترك الدّار ؟»

« بعد أن ذهب إلى المَطْهى كعادتِه ، وتفقَّدَ طعامَك . إنه دقيق في إشرافه وتعهُّده .»

« إنّي أتبعُ نصائحَه ، لا أحيدُ عنها .»

وجعلتْ تصُبُّ الشّرابَ في الكأسينِ ، ثمَّ ما لبث الزَّوجانِ أن أخذا يترشَّفانِ ، وهُما في مُصافاةٍ ومؤانسة ، على حِينِ أنّي كنتُ في مَحْبِسي أكاد لا أستطيع إمساك الرَّمَق .

أعفِني من أن أصوِّرَ لكَ : على أيِّ نحوٍ انتهى بي هذا المشهد .

كيف عاد المريضُ إلى مَرْقَدِه ؟

كيف انطلَقتُ من مَحبِسي أواجِه الزَّوجة ؟

كيف زايلْتُ الدّار ؟

ذلك حُلم مُهَوَّش أليم ، تشابكت أحداثُه ، ومشى بعضُها في بعض ، فلم أملِك لها تفصيلاً .

مُجْمَل أمري أنّي تركتُ الدّار محمومًا ، أحسُّ كأن شرْيانًا في رأسي على وَشْك الانفجار .

وما بلغتُ بيتي ، حتّى استعنت بمخدِّرٍ قويٍّ يُسلِمُني إلى تبلُّد وسُبات .

---

(١) يلم شعثه : يجمع أمره .

وفي صبيحة غَدي ، عقدتُ نيتي على ألا أعودَ إلى هذه الإنسانة العنيفة ، مهما تكنِ البواعث .

انتهى كلُّ شيء ! انتهى كل شيء !

كنتُ أردِّد هذه الكلمات في عَزْم وحَزْم ، وصلصلَ في هذه اللَّحظة جرس التِّلفون ، وإذا صوتُها ، صوتُ هذه الإنسانة يقول في لهجة فَزِعة يقطعها النَّشيج : « انتهى كل شيءٍ ! مات زوجي ! »

مات زوجها ! كان لهذا النبأ وقعٌ في نفسي شديد ، حتّى إنّي لم أستطع مواصَلة الحديث ، وهُرِعْتُ من فوري إلى دارها .

بهذا يبدأ فصلٌ جديد في قصتّي العجيبة .

دارت بِيَ الأفكارُ كلَّ مَدار ، ورُحْتُ أسائلُ نفسي طويلاً : كيف تكون صِلتي اليومَ بهذه الإنسانة؟ أ قطيعةٌ ونسيان ، أم مواصَلةٌ وتَلاقٍ ؟ كيف يكون شعوري نحوَها ؟ أ شوقٌ وشَغف ، أم فترة وسكون ؟

بدأ لقائي إيّاها ، غِبَّ (١) وفاةِ الزَّوج ، لقاء ليس فيه إلا مألوفُ المجالسِ والأحاديث . وشدَّ ما راعني أنّها على زوجها والهةٌ جِدُّ محزونة ، حتّى لقد أثار ذلك بين جوانحي إحساسَ ضيق بذكرى ذلك الزَّوجِ . ولكن أ أضيق بشخص لم يصبحْ له وجود ؟ بل لقد أخْلى ليَ السبيل ، لكي أنفِّذ من أمري ما أريد . أ ليس هو اليومَ جديرًا بالرِّثاء والإشفاق ؟ حَقا إنّه لكذلك ، ولكنَّ الزوجة بحزنها من أجله ، وحِدادِها عليه ، تجعلُني حائرًا بين النَّقائض من المشاعر والأحاسيس .

على أنّي لم أكن أدري أيَّة عاطفة تلك الَّتي توحي إلى الزوجة أن تحزَن على زوجها الرّاحل ؟ أ هي عاطفة ندمٍ ويقظة ضمير ، أم هو الوفاءُ لمن كان رجلَها وشريكها في الحياة ؟

لم تَطُل بِيَ الأيام ، حتّى انتهت بِيَ الحَيرة إلى طُمأنينة ورضًا بما صنعتِ الأقدار .

وانصرفتُ أتحبَّبُ إلى تلك الإنسانة ، أحاوِل أن أخترقَ حجاب التحفُّظ ، الَّذي فرضتْه مُلابَساتُ الأحزان ، وأعالجَ أن أثير كوامنَ حبِّها إيّايَ ، فلم أجدْ منها أيَّ استجابة .

كانتْ في لَبوسِها الأسود ، لا زينةَ ولا زُخرف ، غارقةً في سُهوم ، ضنينة بالحديث ، لا تُقابل محاولاتي إلا بمُلاطفة عابرة .

وتواردتِ الأيام ، تُخفِّف من وطأة الحزن ، وشعَرتُ بتلك الإنسانة تُراجع ما انقطعَ من شئون حياتها المألوفة .

وشرعتْ تستجيبُ شيئًا لعاطفتي ، فتُطارحُني الملاطفاتِ ، في ابتسامٍ ساحر خلاب .

وكانت تقضي معي بعض الوقت في مُستَشْرَف الدّار ، نَحتسي الشّايَ ، أو نترشَّف القهوة ، في رقة وإيناس . وقد اختارت هذا المستشرَف مكانًا لِلّقاء ، وهجرتْ ذلك الرُّكن المعهود ، في الحجرة المجاورة لحجرة الزَّوج الراحل إبّانَ مرضه الأخير .

ليس من شكٍّ في أن حبّي إيّاها كان حينئذٍ يتضاعَف ويتضاعف ، وقدِ انسدل الستارُ على كل ما كنتُ آخذُه عليها ، وأنكِرُ منها .

لم أعدْ أفكِّر في شيء من أحداث الغابر .

كانت نفسي مُفْعَمة بآمال ورغاب عِذاب ، لا تَدَعُ لغيرها أن تجد مَفيصًا (٢) .

أمّا هي فكانت في ظَرْفها ومُؤانستها آيةً بيِّنة ، وكنتُ أحِسُّ أنّها تكِنُّ لي أعمقَ الحبِّ وأصدقَه ، ومن ثَمَّ تتضوأُ آمالي ، وتطمئنُّ إلى مستقبلها المنشود .

بَيْدَ أنَّ هذا الاطمئنانَ والصفاء كان يعكِّره تحفُّظ بالغ ، تَحفُّظُ عذراءَ ليس لها بِخاطبها عهد .

(١) بَعْد أو عقِبَ .

(٢) محيدًا ومعدلاً .

على أنّي لم أملك إلا أن أحترم إرادتَها ، مُلتمِساً لها ألوانَ التعلات والمعاذير .

وكنّا أصيلاً في مُسْتَشْرَف الدّار ، تتهادى إلينا نفَحاتٌ من نسيمِ الغروب ، وكانت صاحبتي تتّخذ مَجلسها قُبالتي ، وقد أذكى فتنتَها ما أحاط بنا من صفاءٍ وسكون . وفي الفَينة بعد الفينة يحوم حولَها النّسيمُ عابثًا بشعْرها الموّاج ، فتترسَّل منه غِلالَةٌ (١) تَنْبَسِط على جانب مُحيّاها ، فتبدو كأنها لِثام هفهاف يتراءى خلف ظلمتهِ الشّفافةِ حُلْم رائع لَمّاح .

وتدانيتُ من مَقعدها ، ولاطفتُ راحتَها ، وأنا أقول : « أ لا تَرَيْنَ الوقتَ قد حان لأن نؤلِّف بين قلبَيْنا برباط أوثقَ وأبقى على الأيام ؟ »

فنظرتْ إليَّ في دهشة ، تقول : « أ تحسُّ أننا في حاجة إلى مثل هذا الرباط ، لِنُقوِّيَ به ما بيننا من عاطفة ؟ »

« أحسُّ أن حياتَنا تفتقِر إلى ذلك النَّهج المألوفِ من أوضاع المجتمع ونظامِ الحياة . كنّا في عهدنا لا حيلةَ لنا إلا في أن نحيا على ذلك النحو ، فأمّا اليومَ ففيمَ هذا التباعدُ والانفصال ؟ »

« ثق أنّني لم أشعر ساعةً ، منذ تعارَفْنا وربَطَ الحبُّ بين قلبينا ، أننا منفصلانِ . »

فجعلتُ أتوسَّم يدَها رَخْصة بَضّة ، وأصابعَها قانيةَ الأطراف كأنها حبّات « الكَرَز » ، وقلت :

« الحقُّ ما تقولين ، ولكنَّك تَعنينَ جانبَ الخيال والعاطفة والرُّوح ، فأمّا الحقيقةُ الواقعة ... »

فقاطعَتْني تقول : « أنت تفرِّق بين ما تسمّيه عاطفة وخيالاً وروحًا ، وما تسميه حقيقة واقعة . ولكن أ لا تؤمن معي بأن العاطفة والخيال والروح جوهَرُ الحقيقة ولُبابُ الواقع ؟ أنت تتحدّث في شأن الحبِّ ، أ تشكُّ في أن حبَّنا حقيقةٌ من أعظم حقائق الحياة ؟ »

وكانت ترسِل قولَها ، وهي تبعَث في الأفق نظراتٍ حالمةً ، فَرَبَّتُّ يَدها في رِفق ، وأنا أقول :

« أنظري إليَّ ، حَدِّقي في وجهي . اِستيقظي ، يا صديقتي . تحدَّثي إليَّ حديث اثنينِ لهما في الوجود كيان . »

فالتفتت إليَّ باسمة في إشفاق ، وتلاقت نظراتُنا برهة في نشوة ، وأحسستُ أنّي سابح في فيضٍ من نور مُحَيّاها الألاق ، ثم ألفيتُني أدني وجهي من وجهها ، وكادت شفاهُنا تَتلامس ، ولكنّي وجدتُها بغتةً تتراجع قائلة : « لا ... لا ... »

فنهضتُ على الأثر ، وقد أصمتَتْني كلمتها ، وقلتُ غاضبَ اللَّهجة : « لم يَبقَ لي في قلبك حبٌّ ! »

فردَّت هادئةَ الصَّوت : « أ هذا قولك ؟ »

« منذ تُوُفِّيَ زوجُك ، وأنا أشعر بأن عاطفتك نحوي لا تعدو جانب المُجامَلة . »

« إنَّكَ لَتثيرُ بقولِك عجبي ! »

« بل إن موقفَك منّي لَهُوَ العجَبُ العُجاب ! »

« ماذا تُنكِر منّي ؟ »

« إنَّكِ لتأبَيْنَ عليَّ كلَّ شيءٍ ، حتّى القُبْلَةَ ! »

« القبلةُ ، يا صديقي ، أثمنُ وأغلى من أن نبتَذلها . إنَّها كالزهرة الناضِرة على فَنَنِها الرَّطيب ، تَبُثُّ الأريج ، فتفتِنُ النَّظر ، وتُنعِش الرّوح . أ فلا نَدَعُها على فَننها تتألَّقُ وتتنَضَّر ، فتلهِبَ في نفوسنا الشوق والشغَف ؟ أ فلا ترى أننا بذلك نستمتعُ بنشوة جيّاشة ؟ »

فابتسمتُ ابتسامة استخفاف ، وقلت : « على رِسْلك ! أ فنَدَعُ الزَّهرة على غصنها دانية دونَ مَساس؟ أ فتظلُّ كذلك إلى الأبد ؟ »

« بل إن لكلِّ شيء إبّانَه الموعودَ ! »

« ومتى يَحين ، في زَعْمِكِ ، قطفُ هذه الزَّهرة العصيَّةِ المنال ؟ »

(١) ثوب رقيق يشفُّ ما تحته ، ويقصد هنا خصلة من شعرها .

« إن المُحِبَّ الأصيل يجبُ أن يعرِف متى يَحين القِطاف ، أمّا أن تعبَثَ الأيدي بالزهر في كل نَزوة ، فذلك امتهان لمتعة الاقتطاف أيُّ امتهانٍ ! »

« إنّي أعرِف شيئاً واحداً : ما دام المُحِبُّ يتلهَّب وَجْداً إلى القبلة فقد وجَب اقتطافُها على أيّة حال. إن الظَّمآنَ لا تدبيرَ له إلا أن يرتَويَ بالنَّهَلاتِ العِذاب . »

« أ في حُسْبانِكَ أن الظمآنَ ينقَع غُلّته (١) على الوجه الأمثل إذا تيسَّر له الماءُ دون عَناء ؟ »

« هذا هو الوضعُ الطبيعي للظَّمأ والريّ ! »

« ماذا ترى في عطشانَ بلغَ منه العَطَشُ كلَّ مبلغ ، و وجد الماء حِياله صعبَ المنال ، فما زالَ يُجاهد ويكابدُ ، حتّى أصاب منه ما استطاع ، بعد لأيٍ وإعياء ؟ »

« لا ريبَ أنه يشرَب ماءَه ، مَشوباً بالضيقِ والعَنَت . »

فقامتْ إلى حاجز المُسْتَشْرَف ، تهيم بأنظارِها في الفضاء ، وهي تُهمهِم :

« بل إن ذلك هو الَّذي يُفيضُ على الرِّيِّ كلَّ مُتعة وانتشاء ! »

فتركتُ مَقعَدي ، وخطَوْتُ إليها أدانيها ، وأنا أقول :

« دَعينا ، بربِّك ، من هذه الفلسفة الشعرية الشّرود . لو مضينا نتطارَح مثلَ هذه الخواطرِ لَما انتهينا إلى قصد . أشفقي على نفسِكِ وعليَّ ! لِنَختصرِ الطريقَ ! كَلمةٌ أريد أن أقولَها قبل أن أنصرف ، ولا أطلُبُ منك إلا ردّاً موجزاً صَريحاً . »

فالتفتتْ إليَّ في ابتسامة سانحةٍ ، وهمهمتْ :

« قل ما بدا لك . »

« إنّي أعْرِضُ عليكِ نفسي زوجاً ؛ فهل تقبَلين ؟ »

فظلَّت صامتة تحدِّق في وجهي ، كأنَّما تريد أنْ تستجلِيَ ما وراء عينيَّ من دخيلة نفسي . واستأنفتُ أقول : « ما جوابُكِ ؟ »

« إن أردتَ المصارَحة ، فإنّي لم أدِرْ هذا الأمر بفِكري من قبلُ ! »

« ومتى تفكِّرين فيه ؟ »

« لا أدري ! »

« معنى هذا أنَّك ترفُضين ؟ »

« أ سمعتَ منّي كلِمةَ الرَّفض ؟ »

« إذنْ أنتِ تَقبَلين . »

« أ سمِعْتَ منّي كَلِمة القَبولِ ؟ »

و وقفتُ حائراً مَغيظاً ، أرنو إلى حَدَقتِها ، كأنّي أسبُرُ غَوْرَ بئرٍ تائهةِ الأعماق ، ثم وجدتُني أقول :

« لماذا تعذِّبينني ؟ »

فأقبلَتْ عليَّ مشغوفةً ، تُمسِكُ بيدي وتُلاطفها في ترفُّقٍ وإخلاص ، وهي تقول :

« قَسَماً بما بيننا من حبٍّ إني لم أرِدْ لك عَذاباً . »

« أيُّ حبٍّ ذلك الَّذي تُقْسِمينَ به ؟ إنك لَتهدمينَه هدماً ! »

« بل إنّي لأعملُ جاهدةً على الاحتفاظِ به صافِياً نقيا ، لا تتطرَّق إليه شوائبُ الانحلال . »

وتقضَّت أيامٌ دون أن يطرأ على صِلتنا جديد .

وظَلِلْتُ أروضُ نَفسي على الصَّبر ، قانعاً من صديقتي بِوُدِّها المَحْض ، يحدوني أملٌ في مستقبل سعيد .

وترامى إليَّ نَبأ فَزِعْتُ له ، ولم تكَد تصدِّقُهُ أذني ، فَبَكَرْتُ إلى دارها ، وصادفتها في المستشرف ، تلهو بالتَّطريز ؛ فما لَمَحَتْني حتى ضاءَ وجهُها ، وتجلّى فيه

---

(١) ينقع غلته : يروي ظمأه .

إشراق ، وابتدرَتني بتحيَّة شيِّقة ، وهي تقول :

« الساعةَ كنتُ أفكِّر فيك ، وأحسُّ الشوقَ إلى رؤيتك ، فهل كان هذا الإحساسُ هو الَّذي اجتذبك إليَّ ؟»

فقلتُ ، وأنا أحدِّق فيها بِمَجامعِ عينيَّ (١) :

« أ حقا كنتِ تفكِّرين فيَّ ؟»

« أ في قولي تَشُكُّ ؟ أ ليسَ في مستطاعِكَ أن تستمعَ إلى نجوى قلبي ، وتتعرَّف سريرتي ، دون استعانة بما يلفظه لساني ؟ أ أكون قد أخفقتُ في إشعارِكَ بحبِّي إيَّاكَ ؟»

أصغيتُ إليها واجفَ القلب ، جيَّاش الأعصاب ، فوجدتُني أتخاذَل وأستكين . ولكن عاودني الاهتمامُ بما جئتُ من أجله ، فاستنقذتُ شَجاعتي ، وتمالكْتُ قائلاً :

« كيف تَزْعُمين أنَّك تحبِّينني وأنت تُزمِعين اتِّخاذَ غيري شريكاً لحياتك ؟»

فقالت في ثِقةٍ ويقين : « أنتَ شريكُ روحي الأولُ والأخير .»

« أ زاعمةٌ أنتِ أن نبأ زواجِك إشاعةٌ لا صحةَ لها ؟»

فأجابَتْ في تمكُّن ورَباطة جأش : « للإشاعة من الصِّحَّة نصيب !»

فقلتُ لها مشدوهاً : « إذنْ أنت مقبِلةٌ على الزواج بغيري .»

« وماذا يَريبُكَ من هذا الصنيع ؟»

فصحبتُ بها : « يجب أن يركِّب الله في نفسي طبعًا غيرَ طبعي ، وخُلُقًا غيرَ خُلُقي ، حتَّى أستطيعَ أن أجيبَكِ عن هذا السؤال !»

فأخذَتْ تعبَث بمِنْديلها لحظة ، وهي تَرمي بنظَرها إليه ، ثم قالت :

« يؤسفني أن هُناك تفاوتًا كبيرًا بيننا في النَّظر إلى الأمورِ ، واعتبار الحقائقِ !»

« أؤكِّد لك أني في لُبْس ٍ وحَيرة من شأنك ، فبِرَبِّكِ أوضحي وأبيني !»

فَسَمَتْ إليَّ بعينيها ، فبهرني من حدقتيهما صفاءٌ ألاق ، ينكسِف أمامَ سوادِه أسطَعُ الأضواء ، وقالت في صوت لَيِّن المكاسر :

« إنِّي في حاجة إلى رجل يقاسمني عِبْءَ هذه الحياة الراتبة – أقصِد رجلاً من أولئك الأزواج الَّذين تقوم عليهم دعائمُ البيوت ، رجلاً عشيراً أركن إليه وأطمئنُ به . وقد اخترتُ شخصاً توافرتْ له تلك الصفاتُ الَّتي أرجوها . أ لستَ مُوافِقي على رأيي ؟»

فانبثقَتْ من بين شفتَيَّ ضِحْكَةٌ ساخرة شَوْهاءُ ، وقلت : « أرجو ألا تَحْرِميني أن أكون شاهداً في عَقْد زواجك !»

« إنك دائمًا تنتزع من حديثي مَثارًا لسُخريَةٍ واستهزاء .»

« أيُّنا الساخرُ المستهزئُ ؟ إنك تتحدَّثين عن خاطِبِ اليوم وزوج الغدِ ، فتُسبِغينَ عليه أكرمَ خِصال الرجال !»

« ما قلتُهُ أنا حقٌّ .»

« وأنا ؟ ماذا أكون في دنياك العجيبة ؟»

« أنت ؟ أنت شيءآخر .»

« حقا ... شيءآخر ... على الهامِش ... لست أهلاً أن أملأ حياتك !»

« أنتَ مِلْءُ حياتي كلِّها ، لا تَدَعُ لغيرك فيها ناحيةً .»

فصرختُ : « هذا هُراءٌ كلُّ الهراء !»

« خفِّفْ من حِدَّتِكَ .»

---

(١) نظرت إليها بإمعان .

« هذا فوقُ ما أحتمل .»

« آفتَكِ هذه الغيرةُ الحمقاء .»

« وأنت ، يا سيدتي ، ألا تَغارين ؟»

« أثَمَّةَ شيءٌ يثير غيرتي ؟»

« إذا قُلتُ لكِ إنّي متزوّج غيركِ ، فماذا تَرَيْنَ ؟»

فأجابتْ وقد برقَت عَيْنُها : « أحقا تقول ؟»

« أقسَمْتُ لأفعلَنَّ .»

« ليتَك تَبَرُّ بقَسَمك .»

فنظرتُ إليها كالمخبول ، أقول :

« لا بأسَ ! تتزوَّجين غيري وأتزوَّج غيرك ، ثم نطوي حبَّنا ، وننفصِل إلى الأبد !»

« بل إننا نستقبِل عهداً من الحبِّ يبلُغ فيه الأوج ، ويَستكمل النضجَ والإيناع .»

« أمّا التفاهم معك فلم يَعُدْ إليه سبيل ! أحَدنا مجنونٌ وحقِّ السماء !»

وركضتُ مغادراً الدّار ، يغلي رأسي كالمِرْجَل .

ما كان أعظمَ انتصاري فيما بعد !

لقد نجحَتْ خُطّتي في صرف صاحبتي عن زواجِها الّذي أزمعَتْه . ولم أقفْ عِند هذا الحدِّ ، وإنّما أقنعتُها بأنْ تكون لي زوجًا .

مجهودٌ جبّار بذلتُه ، ووسائلُ شتّى لجأتُ إليها غيرَ مَلول ؛ مرةً أقاطع ، وحينًا أهدِّدُ ، ويومًا ألاينُ ، وساعةً أسترحِم ، حتّى أوفيتُ على الغاية ، وملكت القيادَ .

الآنَ وقد مضتْ أشهرٌ على زواجي إيّاها ، لا أدري أكان ذلك فوزاً بلَغتُه ، وكسبًا أصبتُه ؟

أخشى أن أقول إن أحلامي كلَّها قد ذابت .

لقد جنيتُ على نفسي وعلى هذه الإنسانة ، بما سَعيتُ إليه جاهداً من زواجي إيّاها .

إنّي اليومَ لأتبيَّنُ سَلامة رأيها حينَ كانت تؤثرُ ألا يكون بيننا هذا الزَّواج . لقد هدَمْتُ أنا سعادتَنا هدمًا.

لقد أحلتُ هذه المرأةَ بذلك الزَّواج من إنسانةٍ تضطَرِم حيويَّتها ، وتتوهج عاطِفتها ، إلى تمثال من الرُّخام ، لا حَيَويَّةَ فيه ولا عاطفة — تمثال جميل ، ولكنَّه جمالٌ صامت ، تشيع فيه البُرودة والجمود .

كأنّي أعاشر ميتًا ، لا روحَ فيه !

طالما هَفا بِيَ الشّوقُ إلى أن أقبِّلَها ، فلا أكاد ألامِس شفتها ، حتّى أحسُّ كأنّي ألامِس قطعة من جليد ، وسَرعان ما يشملني همود وخمود .

وحقيق بي أن أعترِف بأن هذه الزوجةَ ، على ما طرأ عليها من جُمود عاطفة ورُكود إحساس ، كانت ربةَ بيت يزدان بها البيت ، وكانت زينةَ المحافِل في الكِياسة والظَّرف ، حتّى إنّي لأدهَشُ إذ أراها في هذه المحافل ، وقد انسلَختْ من جُمودها الرُّخاميّ ، وتوهَّجت أنوثةً ورِقَّة . وكان ذلك يَهيج بين جوانحي ألَمًا دفينًا أجاهِد في كَبْته ، فيسلِمني التفكيرُ إلى ظُنون وأوهام ، أعْجَبُ كيفَ تَخطِر لي ببال .

وكثيراً ما بَرِمْتُ بهذه المحافل ، إذ كنت أحسُّ بأنّي فيها واغل غريب ، وأن شَمائلي قد اتَّسَمت بطابَع الخشونة والاستيحاش ، على حينِ أنّي كنت فيما مضى معروفًا بدماثة الطَّبع ، ورِقَّة الحاشية ، والبراعة في مطارَحة الأحاديث ، ومُؤانسة الجُلاس .

وأحْصى عليَّ بعض إخواني بوادرَ مِن سوء المعامَلة، لم يعرفوا لها من تَعليل ، فاستبانَتْ على وجوهِهم مخايِلُ الاستياءِ والنُّفور ، وأخذتْ تبدو على أفواهِهم بَسَمات إشفاقٍ ورِثاء .

وحقا كنتُ في هذه المحافل لا أملك لأعصابي زمامًا ، أتلفَّتُ لأقل نَأمة مُباغتة ، فإذا انقلَبَتْ مائدة أو هَوى كرسيٌّ هَزَّ التفزُّع أقطارَ نفسي جميعًا .

أمّا زجاجات الشمبانيا فكان منظَرُها يُثيرني ، ويملؤني اشمئزازًا ؛ فصَدَفْتُ عنها ، ولم أعُدْ أمدُّ إلى

أقداحها يدًا .

وكانت هذه التصرفاتُ تزعج زوجتي ، فتُقبِلُ عليَّ بعد السهرة معاتِبةً مُسائلة ، ولم أكن أجدُ عَونًا من لساني إلا كلمات الاستعطاف والاستغفار ، ولا ألبثُ أن أبثَّها آياتِ حبِّي وشغفي ، ثم إذا بي أطوِّقها بذراعي ، كأني أحاول أن أستبقيَها في حوزتي ، خاشيًا أن تصفِرَ (١) منها يدي .

وما زال ضيقي بهذه المحافلِ والسهرات يشتدُّ ، حتى انتهى بنا الأمر إلى أن عزَفنا عنها كلَّ العزوف ، فأصبحنا لا نزور ولا نُزار .

ولاحظتُ أن زوجتي تُكثر من الاختلاف إليَّ في عيادتي ، حيث أستقبل مرضايَ ، وتجعل زَوْراتها في مواعيدَ متباينة . وما أدري أ كانت تزورني حقا لأمر ذي بال ، أم كانت تصطنع الأسباب والتعِلات ، متخذَةً منها أستارًا وأقنِعَة ؟

ومما كان يثير عجبي ، أنها تُطيل انتظارَها إيايَ في حجرة الزوار ، فأجِدني قد اعتراني قلَق واضطراب ، وراودتني ألوانٌ من الشكوك ، حتى إني لم أكن أستنكف أن أسأل الممرِّض في الفينة بعد الفينة :

« ماذا تصنع زوجتي ؟ وهل يتحدث معها أحد؟ »

وشرعتُ أتجسَّس عليها ، وما كان في طوقي ألا أفعلَ ، فقد دَفَعَتني إلى ذلك دوافعُ نفسية ليس عنها مَحيص (٢) .

وكنتُ أحيانًا ، بينا أنا أتفحَّص مريضًا ، أراني قد تركت حجرتي ، وانطلقتُ إلى حُجُرات الزوَّار ، أتبين زوجتي : كيف هي ؟ وإلى مَن تجلس ؟

وفي أغلَب هذه الأحوال ، كنت أجِدُها متكئة على الكرسيِّ منهمِكة في نسج وتطريز .

وربَّما عاجلَتْني نَوبَة هِياج ، واندفعتُ في أرجاء العيادة ، أتصفَّح الناسَ وأتفحَّص الأشياء ، وما أزال أدقِّق في البحث والتفتيش ، تحتَ المتَّكآت و وراء الأبواب ، مُدَّعِيًا أنِّي فقدتُ شيئًا وأنِّي أنشدُه .

وكان هذا التصرُّف يبعَث دهشة الزُّوَّار والخدَم ، فيسري بينهم التساؤلُ والهمسُ .

وكثيرًا ما يَمَّمْتُ المِرآةَ ، أتطلَّع إلى مُحَيَّايَ ، وأتبيَّنُ عينيَّ : هل في نظراتي علائم جنون ؟

كنت أشعر بأنِّي مُكتمِل العَقل ، صحيحُ الإرادة .

ولكن أ ثمَّةَ مجنونٌ يعترف بأنَّه فقدَ من عقله مُسْكَةً ؟ (٣)

ويومًا ثارت ثائرتي ، فتقدَّمْتُ إلى خدَم المنزل بأن يُخْلوا الحجرات منَ المناضد ، ولكنِّي لم أعتِّم أن رجَعتُ إليهم في غَدي ، آمرهم بأن يعيدوا تلك المناضد حيث كانت .

ومِمَّا رابني من أمري ، أنِّي كنتُ لا أطْعَم الهدوءَ إلا إن كانت زوجتي خارجَ الدَّار ، فثمَّة أجد الراحة سابغةً ، وأحِسُّ بأنِّي أحيا حياةً مألوفة ، يشيع فيها السكونُ والصَّفاء ، فإذا احتوى البيتُ زوجتي ، وتناهى إليَّ من جانبها حركةٌ أو صوت ، جُنَّ جنوني ، وهاجَتْ أعصابي ، وكأن أفاعيَ تتناهب فؤادي !

وقد تُقْبِلُ عليَّ ، وأنا في هذه الحال ، فآخذُ بيدها محدِّقًا في وجهها ، أتفرَّس وأستَشفُّ ، محاولاً أن تتجلَّى ليَ الحقيقةُ المستورة خلف ما يَبدو من مَظاهر .

وجاء يومٌ أصبحَتْ فيه عيادتي قليلةَ الزُّوَّار ، بعد أن كانت تَضيق بهِم من كل صَوْب وحَدَب ، فاتسع وقتُ فراغي ، فكنت أقطعُه بتفكير عميق في أمري ، وتحليلٍ دقيق لنفسيَّتي ، وعَرْضٍ لما يكتنفُني من ملابَسات وأحوال ، ثم ينتقل بي فِكري إلى زوجتي ، وما هي عليه من غرابة طبع ، وتعقيد نفس .

و وضحَ لي أن صحَّتي تتهاوى : رأسٌ يَصْخَب بآلامه وأوجاعه ، وجِسمٌ تنتابه لَفَحات الحمَّى ،

(١) تخلو . (٢) مهرب .

(٣) جزءًا .

وأعصاب مستوفِزة (١) يَقْظى ، وينتهي بها التوتُّر إلى خَوَرٍ (٢) وتهافت .

واضطُرِرْتُ أخيرًا أن أنقطع حينًا بعد حين عن عيادتي ، ملازمًا بيتي . ونَصَحَ لي رفاقي الأطباءُ بأن أقضيَ وقتي في راحة شاملة ، وأكَّدوا لي أن ما بي يرجع إلى إجهاد وإعياء .

ولكن أنّى لي أن أذوقَ الرّاحة ، وهذه زوجتي تُقاسمني حياةَ البيتِ ؟

إني لأقرُّ بأنَّها لا تألو جَهدًا في العطف عليَّ ، والبرِّ بي ، والعناية بما أنا في حاجة إليه من علاجٍ وتمريض . ولكنَّ هذا كله كان يَزيد في قلقي ، ويُضاعف من اضطرابي .

لقد أمسى البيتُ أمام عيني جحيمًا لا تُطاق .

لكأنَّ كلَّ ركن فيه مغارةٌ نكراء ، تتدسَّس فيها عناصر أذيَّة وشرٍّ ، متربِّصَةً بي ، راصدةً فرصةَ الانقضاض عليَّ ، والانتقام منّي !

بل إن البيتَ كلَّه لكأنه مُلتقى أجحارٍ تزدحِم فيها الثعابين ماكرةً غادرة ، ولكأني بها تُطلق فَحيحَها فأسمعه عَجيجًا في الأرجاء ، وتنفثُ سمومَها فأستنشقها ساريةً في الهواء !

وأدَّتْ بِيَ الحال إلى أنْ أستوطنَ الفراش ، لا أبرحُه إلا قليلاً ، وكان أكبَرَ ما راعني أن أكون لهذا الفراش عبدًا ذليلاً .

أ ما من وسيلة إلى تحطيم هذه القيودِ ؟ أ لا سبيلَ إلى فِرار ونَجاة ؟

فإن لم يكن بدٌّ من بقائي رَهْنَ وِسادي ، فهل من ذَريعة إلى أن أبقِيَ زوجتي مشدودةً إلى جانبي بأغلال ثِقال ، لا تملك معها الانتقال ؟

ولكن ليس ثَمَّةَ قوةٌ في الأرض ولا في السماء تستطيعُ التغلُّب على هذه الشيطانة الشَّغوب !

ربَّاه !

كيف سوَّلتْ لي نفسي أن ألقِّبها هذا اللقبَ الذميم ؟ وهي الَّتي تغدِق عليَّ من حَنانها وعَطفها ما لا عهدَ لي به من قبل ، وحقا إنه لَحنان وعطف لم آنَسْهُ من أحدٍ غيرِ هذه الزَّوجة الرَّءوم (٣) !

لستُ أنسى يومًا استغرقني فيه نومٌ ثقيل الوَطأة ، وجسمي كأنَّه سَنْدان تتعاقَب عليه المطارِق ، وأكاد لشدَّة وقْعها أتبيَّنُ مساقِطَ الضَّرباتِ من أوصالي .

وبينما أنا كذَلك إذ أنْبَهني صوتٌ . أ كان هذا الصوتُ منسربًا من وَليجة نفسي ؟ أ هو صوت من أصوات تلك المطارق الَّتي تدُقُّ جسدي ، أم هو صوتٌ منبعِث منَ الحجرة الملاصقة لحجرتي ؟

وكانت زوجتي ، ساعةَ نومي ، على مقرَبة منّي ، فلم يكدِ الصَّوت يصُكُّ سمعي ، حتّى ألفيتُني أدير حولي نظراتٍ متفزعةً ملهوفة ، فلم أجد لِزوجتي من أثر .

و وجدتُني على الفور أجاهِد لأنهض ، وانطلقَتْ من فمي صيحة : « ما هذا ؟ من هناك ؟ »

ثم أرهفتُ السمع .

لماذا صحتُ هذه الصيحة ؟ إنه لخطأ جسيم ، وفَلتةٌ خرقاء !

كان أحْزَمَ أن أعاجِلَ الحجرة مفاجئًا .

وتحامَلْتُ على نفسي قائمًا ، وأنا أتَّخذ منَ الجدران عونًا على أن أخطُوَ ؛ إذ كانت ساقايَ لا تقويَانِ على حمل ذلك الجسَد المهدود .

وأشرفتُ على الحجرة المجاورة ، وأنا أحدُّ من بصري ، فلمَحتُ زوجتي ممدَّدة على المتكأ . وما إن شعرَتْ بمَقْدَمي ، حتّى أسرعَتْ إليَّ تأخُذ بيدي .

---

(١) غير مستقرة ، أو غير مطمئنة . (٢) ضعف .

(٣) العطوف .

وكنتُ مُستَرَقَ الأنفاسِ ، راجفَ الأعصاب .

وسمعتُها تقول : « لماذا أجهدتَ نفسك ؟»

فقلتُ : « لقد ناديتُ ، فلم يلبِّ ندائي أحد .»

وما كدتُ ألفظ هذه الجملة ، حتّى شملتني ارتعاشة عارمة .

يا لتَعسي ! ما زلت مندفعًا في حماقتي ، أتعثّر في الكلام .

لماذا أخبرها بأني ناديتُها ؟

إنها سِلسلة من الأخطاء ، أضيف حَلْقة منها إلى حلقة .

وسمعتُ زوجتي تقول : « معذِرَة ! أخذتني إغفاءةٌ .»

ثم واصلَتْ قولها في حُنُوٍّ بالغ : « تعال هنا . تعال نجلِسْ على المتّكأ معًا .»

وحَدَجْتُ المتكأ بعين تضطرِم ، وأنا أتباطأ في خُطايَ إليه .

إنّه المتكأ العظيم ، ذلك العَرْشُ الآثِمُ الخَدّاع ، الّذي تكمُنُ فيه الخناجر المسمومة ، فلا أكاد أجلِس عليه حتّى تنغرزَ نِصاله في جسدي .

ورأيتُني على الرّغم مني أتدانى منه ، وفي لحظة تهالكْتُ عليه .

وطوّفتُ ببصري ، أبحَث عن المِنضدة ، فصَدَمَتْ عينيَّ قائمةٌ في ركن منْزوٍ ، تحدِجُني كأنّها بومَة مشئومةٌ ، تلتمعُ في نظراتها السُّخرِيَة والفناء !

والزُّجاجات ؟ أين هي ؟

إنها هنالك ، بلا ريبٍ ، في مكانها المعهود عينِه !

ونَدَّتْ من فمي ضِحْكة أفزعَتني ! أ هي ضحكتي حقا ؟ أم ضحكتُه هو ؟

هو ... إنّي لأحِسُّ أنفاسَه الحبيسة تجيش تحت المتكأ ، فكأنّي جالِسٌ على بُرْكان ، تحتدِم فيه الحُمَم !

وقالت لي زوجتي ، وهي تنظر إليَّ في ذُعْر :

« أنتَ شديدُ الاضطِراب ! أ لا أحضرُ لك جُرْعَةً من دواء ؟»

فصِحت : « بل شَرْبة ماء !»

فقد كنْتُ أحسُّ بحَلْقي قد جَفَّ حتّى تشقّق ، ولساني قد جَمَد ؛ فلم أعُدْ أستطيع له تحريكًا بين شِدقيَّ .

وما أسرعَ أن عادت إليَّ زوجتي بكوب ماء ، فقرّبَتْه إليَّ ، ولكنّي جعلْتُ أحدِّق فيه بُرهة ، لا أمُدُّ إليه يدي .

أ كوبُ ماء هو ، أم قدح شمبانيا ؟

ويلي ! إنّ زوجتي مصرّةٌ عَلى أن تُعيد الرواية كاملة الفصول .

يا لله ! مِنَ النَّزَق أن أغالِطَ نفسي ، فلا ألقِيَ بالا لتلك الحركةِ الّتي أحِسُّ بها تحت المُتّكأ .

ودفعتُ بالكوب جانبًا ، وصَرخت ، وأنا أحاوِل النُّهوض :

« سأكشف السِّرَّ ، مهما يكنِ الأمر .»

في تلك اللّحظة ، غامَتِ الدُّنيا أمامي ، وكأن ضَبابةً كثيفة غَشيَتْ عينيَّ ، ففقدتُ وعيي على الأثر .

ولَمّا ثاب إليَّ رَشادي ، ألفيتُني في حجرة غير حجرتي ، بل في دار غير داري .

وكنتُ كأنّي قد أجريَتْ لي منذ قليل عملية جراحية ، فشرعتُ أصحو من تأثير مخدِّر . بل لكأنّي قد مِتُّ حقا أو توهّموني مِتُّ ، فأنزلوني رَمْسي (1) ، وهالوا عليَّ التُّراب ؛ فلما تَبيَّنوا أنّي ما زِلت حيا ، أخرجوني من مَحْبِس الموت ، و وحشة القبر ، إلى حيث النورُ والهواء .

---

(1) قبري .

النور ... النور اللألاء الّذي أمتّعُ به عينيَّ بهيجًا.

والهواء ... الهواء النقيُّ الّذي أملأ منه رِئتَيَّ مُنْعِشًا.

وهمهمتُ : « أينَ أنا ؟»

وإذا صوتُها الحَنُون العذب يُجيبني ، وقد أخذتْ بيدي تلاطِفني :

« أنتَ في المستشفى . هيَ أيام قلائل تقضيها هنا للرّاحة والجَمام !»

إذن أنا في مستشفى .

ولكنْ أيُّ مستشفًى هو ؟

أ للأمراض الجُسْمانية هو ، أم لأمراض العقول ؟

وتلك الأيام القلائل ...

أ تمضي سِراعًا ، أم تمتدُّ شهوراً وسنين ؟

مجنون !

ما ضرَّني أن أكون مجنونًا ؟

إنها تجربةٌ جديدة أمارِسها في هذه الحياة .

يلوحُ لي أنَّها تجربة طريفة لطيفة !

متاعبي تتزايل ...

نورٌ بهيج ... وهواء منعِش .

وهي بجانبي ... هي ... دائمًا هي !

واحتويتُ يدَها الرَّخْصَةَ (١) بين يديَّ ، أتوسَّمُ مَليا تلكَ الأصابع القانيةَ الأطراف ، كأنَّها حباتُ الكَرَز اليانع ، ثم أدنيتُها من فمي ، وأودعتُها قبلةً جيَّاشَةً زاخرةً !

الحُكْمُ لله

كان جالسًا القُرْفُصاءَ في حجرته الفرديَّة منَ السِّجن ، معتمداً ذَقنَه بيديه ، رانيًا إلى الحائط المُعتِمِ أمامَه. ولم يكن له غيرُ الحائط مجالاً للنَّظر ، فحجرتُهُ ليست كلُّها إلا حوائطَ متشابهة .

وذلك الظلامُ المُخيِّم على كلِّ شيء ، كان يراه شائعًا حوله ، ويُحسُّه يغمُر دَخيلةَ نفسه . إنَّه الظلامُ الدائم العابسُ ، ذلك الزميلُ الوحيد الّذي يلازمه ولا يريد له فِراقًا .

لقد أمضى في هذه الحجرة أيامًا لا يُحصي لها عددًا ، ولم يكن يستطيعُ أن يميِّز بين ليلِها ونهارها ، فقد كانت الحجرة متغلغِلة في مبنى السِّجن ، كأنَّها هارِبةٌ تريد أن تلوذَ بمكانٍ سحيق ، تستخفي فيه عنِ الأنظار .

ولا يَذكر أنَّه رأى ما يسمّونَه ضوءَ الشّمس ، وإن كان يذكر أن بصيصًا يَدْلُف إليه حينًا بعد حين ، فلا يعرِف : أ بقية هي من أشعَّة الشمس ، استطاعت أن تُفْلِت من بين الجدران والسدود ؟ أم فضلةٌ هي من فَضَلات أضواء المصابيح الشحيحة في ذلك البناء الكئيب ؟

وذلك الصمتُ الثقيل ... كان يتمثَّل في مخيِّلَته كأنه كتلٌ ضخمة منَ الحِجارة ، تتراكَم على كاهل ذلك المأوى الضيِّق الّذي يحتويه . صمتٌ متواصِل يقطعُه رنين أجراس السجن في فترات متباعدة ، فيترامى هذا الرنين إلى أذنه مضطرِبًا متخاذِلاً ، مزَّق بُعْدُ الشُّقَّة أشلاءه ، فلا يبلغه إلا أصداءٌ غامضة لا يدرِك لها كُنْهًا ، حتّى إنه لَيتخيَّلها بعضَ وساوِس نفسه الموحِشة .

وقد اتخذتْ هاتِه الحجرة في ظلامها وصمتها وحوائطها المتشابهة الدائرة حولَه ، شكلَ بئرٍ بعيدة المَهْوَى ، كأنما انطبق فمُها فلا منفَذ لها ، وهو مُلْقًى في قراراتها ، كأنَّه إحدى الهوامِّ الّتي تأوي إلى جحورها في بطون المغاوِر والكهوف .

وأحسَّ السجينُ ضَغْطًا يتكاثَف على صدره ، واحتبسَت أنفاسُه ، فراح يتلمَّس الهواءَ جاهدًا .

---

(١) الناعمة اللينة .

لقد أبرمَ (١) القضاءُ منذ أيام حكمَه فيه بالإعدام شنقاً . وسيُنفَّذُ الحكمُ يوماً ما ، إن تراخى قليلاً فهو آتٍ لا ريبَ فيه .

إنه لَيذكر تلك اللَّحظة الَّتي نَطق فيها كبيرُ القضاة بحكمه ، وقد تلقى هذا الحكم واقفًا شامخَ الرأس بقامته المديدة ، وجسمه الصُّلب المُكتنز ، و وجهه المستدير المُطَهَّم (٢) ذي العينين المتألِّقتين .

كان في قفَص الاتِّهام ، والحرّاسُ حواليه ، وعيون الناس في قاعة المحكَمة تنتهبه بنظراتِ التفحُّص والفضول . وإنَّه لَواثق أنه استقبَل ذلك الحكم بجأش رابط وقلبٍ جسور . ولِمَ لا يكون كذلك وهو يشعر شعوراً قويا ، في تلك اللَّحظة الَّتي سمع فيها الحكم عليه ، بأنه كائن موجود لم يُمَسّ بسوءٍ ، ويرى الناسَ حِيالَه أحياءً مثله ، يستمتع بما يستمتعون به من مجالي الحياة ، فقاعة المحكمة أمامه رَحْبة ، تزخَرُ بالنور والهواء والضجَّة .

لم يتغير شيء ، ما زال على حاله حيا يتحرَّك ويتنفَّس ، ويستطيع أن يتكلَّم وأن يبتسِم ، بل يستطيع أن يضحَك وأن يقهقِهَ إذا أراد .

لقد صدر عليه حكمُ الإعدام ، ولكن أين منه ساعةُ التنفيذ ؟ كل جارحة من جوارحه تكذِّب أن حكمَ الإعدام نافذٌ فيه . وتهيأ وقتئذ لِيتحرك حتّى يُثبت لِنفسه أنَّه ممتلئ قوةً وفتوة ، وأنه جَيّاشُ القلب بحرارة الحياة ، فلم يلبَث أن أحسَّ رِعْشَة تتمشّى في أوصاله فتوهِن ساقيه . وهمَّ بأن يبتسِم ، فأحسَّ بعضلات وجهه تتقلَّص كمن أجهش بالبكاء . أمّا الضُّحْكةُ الَّتي أزمع إطلاقها ، فقد ألفاها ترتدُّ إلى حَلْقه متخاذلةً . وأحبَّ أن يتكلم بصوته الجَهْوَريِّ الحادِّ ، شأنه فيما اعتاد من مناقشة وحِوار ، وأن يقول: ليس في طَوق أحدٍ أن يَنالني بضُرٍّ ؛ فإذا بشفتيه تجمجمان بنغْمَة مختنقة ، قائلاً :

« ما قَتَلْتُ إلا مُنتقِمًا لشرفي ! ربُّنا عادل ! الأمرُ لله ! »

وعَجِبَ لِما أدركه من ضَعف . أ ليس هو الشيخ « عبد المُتَجَلّي » عزيزَ قومه وعميدَ بلدته في الصعيد ، رجلَ الدِّين والدنيا ، مَن أصاب من علم الشريعة قدراً ومن السلطان والتحكُّم نصيبًا ، مَن استطاع أن يوفِّق في نظره بين روح التديُّن وطابَع الحياة ، ويستخلص منهما فلسفةً فريدة له ؟ الرجل الذي أقام نفسَه ، بسطوة شخصيَّته ونفوذِ جاهه ، حاكِمًا مَهيب الرأي مَخْشيَّ الجانب ، يفصل في المنازعات ، ويُنْزِل العقوبات بأصحابها ، دون أن يُرَدَّ له أمرٌ أو نَهْي ؟

إنه لَيعرفُ الحقَّ والعدلَ أكثرَ من أولئك الحكام والقضاة ، الَّذين نَصَّبَتْهمُ الدَّولة ، يُقِرّون الأمن والنظام . إنه يحكُم بقلبه وضميره ، أمّا أولئك فيحكمون بمنطق القوانين المصنوعة . إنه وَحْدَه القانون والمحامي والقاضي . وهو في ذلك كلِّه عادل في قسوته، حكيم في شدَّته . إذا اعتقد أن المتهم جانٍ فهو جانٍ ، ما من ذلك بدٌّ . إنه لَشديدُ الاعتداد ببصيرته النافِذة الَّتي لا تخطئ ، فليس هو بِمُفتقِرٍ إلى شهود نَفْيٍ أو إثبات ، وإلى مرافعة أو دفاع . بل إنه في أغلب الأحيان ليس في حاجة إلى أن يستنطِق المتَّهَمين ، أو يستدرجَهم إلى اعتراف . وكان في أسلوب قضائه يقرِّر ما يراه وينفِّذه في آنٍ ، لا تعقيبَ لحُكمه ولا استئناف .

وقد جرى على تلك الخُطَّة لَمّا أسَرَّ إليه أحدُ أعوانه « سعداوي » أن « ستيتة » حَقَّ عليها العقاب ؛ إذْ فَرَّطَتْ في شرفها ، وخاضت في حديثها ألسنة الناس . وكان النَّبأ شديد الوقع عليه ، فإن « ستيتة » شقيقته الباقية من إخوته الرّاحلين ، وهو لِذلك يحمِل لها كبيراً من الحبِّ والإعزاز . وبعد أن استيقَن من سعداوي

(١) أبرم الحكمَ : قطع به وأيَّده . (٢) السمين المنتفخ .

أن الأمر جِدٌّ ، لا يحتمل التأويل ، أحسَّ على الفور حَميَّةَ الشرف تَهُبُّ أعاصيرها بين جوانحه ، فأقسَم أن يَثْأر للشَّرف المثلوم ، وأن يغسل ما لحقه من عار . وما عتَّمَ أن أصدر في دخيلة نفسه حكمَه الفاصل على شقيقته ، وعلى شريكها في الإثم ، ولم يَبُحْ بما تمَّ في محكمة نفسه لأحد .

أمّا التنفيذ فقد جرى على أهون سبيل ، تَرَصَّدَ لغريمه المتهم بهتك عِرض أختهِ ، وراءَ أَكَمَةٍ في مِنْطَقَةٍ غير مأهولة ، وما إن رآه في الطريق آيبًا إلى البلدة قُبَيْلَ الغروب ، حتّى رماه بطلق ناري ، وهو يغمغم :

« هذا جزاءُ الفاسق الأثيم ! »

وفي منتصَف اللَّيل ، دَلَفَ إلى مِخدَع أخته ستيتة ، وهي مغرقة في سُبات ، فلم يزعجْها بإيقاظ ، بل أخذ برأسها فورًا ، وأعمل السكين المسنونة في رقبتها ، فغارت في أوداجها ، حتّى كاد يَهْوي الرأسُ عن الجسد ، وهو يهمهم : « الله أكبر ! فلتموتي أيتها الفاسقة الأثيمة ! »

وترك الجثةَ تختلج اختلاجاتِها الأخيرة ، والدَّم يَشْخُب منها دَفّاقًا .

ومضى يمسَح السكين في قَبائِه (١) ، ثم ذهب فاغتسل ، وأوى إلى فِراشه ، ونام ملءَ جفنيه .

إنه لا يذكر على وجه الدِّقة ماذا وقع بعد ذلك من أحداث ؟

تَجَمْهُرُ الأهلين ، هَرْجٌ ومَرْج ، شُرطة ورجال تحقيق ، ثم ألفى نفسَه نزيلَ السجن . وترادَفتِ الأيّام ، وتوالتِ المَشاهد ، وهو يتنقَّل بين مَحْبِسه ومكتب النيابة : شاهد يُقْسِم ، ومحام ٍ يجادل في صيحة واحتداد ، ومحقِّق يضرب المكتب بكلتا يديه ، وحُجّاب يغدون ويروحون ، وشرطة يتراءون هنا وهنالك : يهزّون الأرض بأحذيتهم الضخمة ، ويُقعقِعون بأسلحتهم المرهوبة .

تشابكت في رأسه المَشاهدُ واختلطت الأيام ، وتداخلت الحوادث ، وغَشّى ذلك كلَّه ضبابٌ متراكم. ولكن صورةً واحدة بينَ ألفاف هذه الصُّورِ الغامِضة ظلَّت ماثلةً في مخيِّلته واضحة الملامح ، لا تبرحُ مكانها من رأسه ، تلك هي صورة سعداوي الَّذي سَعى إليه بتُهمة أخته ، وهو بين يدي المحقق يعترِف أخيرًا اعترافه الخطير ، الَّذي لم يكن في الحِسْبان .

إن اعتراف هذا السعداوي ما زال يقرع سمْعَه بكلمات كأنها قذائفُ حامية صَخّابة . لقد أدلى الرَّجُل أمام المحقق ، بأن اتهامه القتيلين في شرفهما لم يكن إلا تبليغًا مكذوبًا ، و وِشايةً مقصودة ، وأنه إنما عَمَد إلى هذه المكيدة منتقِمًا منَ الرَّجل القتيل لضغائنَ كمينةٍ ، ومن ستيتة لأنَّها حَرَمَتْه ما كانت تُجزِلُه له من عطاء .

إذنْ ، لقد وضَح للشيخ عبد المُتَجَلّي أن جنايته المزدوجة لم تكن في موضعها . لقد قتل نفسين بريئتين مُنساقًا بدافع وَهْم وخُدعة ؛ قَتل أختًا عزيزة كريمة ، وصديقًا وفيا أمينًا ، قتلَهُما بلا جريرة كأنه يلهو ويعبَث . وغَضَّ من بصره ، وجعل يَقْرِض أظفارَه بعنف ، حتّى أدمى أنامله ، وصَعَّد زَفراتٍ حَرّى ...

وسَرعان ما لاحقه الرَّيْب : ليس بمعقول أن يقتُل نفسين بغير حق . إن فِراسته لم تخطئ مرة ، وبصيرته لم تكذِبْه يومًا ... ولكن ماذا يصنَع أمام اعترافِ ذلك السعداوي بأنه واش كَذوبٌ ؟ وماذا يصنع بما أقنعه به محاميه من أنه قَتَلَ بلا مُوجِب ، وأن شهادة الشُّهود وقرائن الحادث كشفت هذه الحقيقة ساطعة ناصعة ؟

وغامتِ الدُّنيا أمام عينيه ، وازداد المكان تجهُّمًا وحُلوكة .

ورفع رأسه ، فاصطَدم بصرُه بهذه الجدران الكالحة البغيضة – جدرانِ البئر المظلِمة الَّتي لا منفَذ لها . وفتح

(١) ثوب يُلبس فوق الثياب أو القميص ويُتمنطق عليه .

عينيه جهدَ إمكانه ، وراح يحَمْلق تائهَ النظر ، وتمثَّلت له اللَّحظةُ الَّتي نطق فيها كبيرُ القضاة بحكْم الإعدام : إنَّه لَيراه الآن أمامه جَليَّ الصورة ، واضح القَسِمات ، مُنْكبًا على أوراقه ، فإذا رفَع رأسَه تراءت عيناه الصغيرتان خلْف نظَّارته ، وهو يُركِّزُ بصرَه دائمًا في موضع ثابت ، لا يعدوه إلى مِنَصَّة المحامين ، ولا إلى صفوف الجمهور ، ولا إلى قفص الاتهام ، كأنه لا يعنيه من هذا كلِّه شيء . وكان ذلك القاضي لا يفتأ يتابع حركةَ يدِه إلى رأسه ، يخلَع طربوشَه ثم يعيده مكانه ، فتظهر صَلَعَته ملتمعةً وتستخفي سريعًا . وقد نطق بحكمه في صوتٍ أخَنَّ [1] ، ولهجة فاترة ، كأنَّه يتحدَّث إلى جارٍ له حديثًا تافهًا لا يثير الانتباه .

وبينما كان الشَّيخُ عبد المُتجَلِّي منسرِحَ الفكر في هذه الأخيِلة ؛ إذِ انتفض في جِلسته انتفاضَةً مباغتة. كلا لن يشنق ، ولن يمسَّه أحدٌ بضُرٍّ ؛ لقد قتل من قتل ثأرًا للشَّرف . إنَّ أخته وصمتِ اسمه بل اسمَ الأسرة بالعار ، فحقَّ عليها القتلُ . ولكن أ يكون قتلَ من قَتل بلا أناة ولا رَوِيَّة ؟ أ ينسى ساعة دَنا منه السعداوي والتحقيقُ آخِذٌ مجراه ، وانكبَّ على يده يغسِلُها بدموعه ويستغفره ، ويردِّد بصوت متحشرج :

« لقد خدعتُك ، يا عبدَ المتجلّي . لقد أثرتُ حفيظَتك على بريئين . أختك طاهرة طُهْرَ الملائكة ، وصاحبك مخلص ، لم يَخْطر بباله أن يهتك لك سترًا ولا أن يُلحِق بك عارًا . عفوَكَ ، عفوَكَ ! »

وكان يُصغي إلى استغفار هذا السعداوي ولا يلفظ من قول . إنه يسألُ نفسَه الآن : لماذا لم يجبه حتَّى بكَلِمة واحدة يصبُّ فيها عليه اللَّعنة ؟ لماذا لم ينقضَّ على هذا الوغد ويصرعْه بدَفْعة واحدة ؟ لماذا كان خاملاً كالمعتوه لم يحرِّك ساكنًا ؟ إنه يذكُر أنَّ كل ما فعلَه ساعتئذٍ أنه ازْوَرَّ ببَصَره عنِ السعداوي وهمهَم :

« إن الله لا يظلِمُ من عباده أحدًا . »

ثم طَفَرَتْ من عينِه دَمعة ، فلم يمسَّها ، بل تركَها تتهاوى على خدِّه .

إنه لَيذكر كيفَ خلا به محاميه بعد ذلك ، وجعل يتحدث إليه حديثًا مُسْهَبًا مستفيضَ الحواشي ، لم تَرْسُخْ منه في ذِهنه إلا هذه الجملةُ الَّتي ختَم بها قوله : « ليس للإنسان أن يحكُم على أخيه الإنسان مهما يكن من أمرٍ ، يا شيخ عبد المتجلّي . الحاكمُ هو الله ! »

وانصرف عنه المحامي ، وعاد هو إلى تلك البئر في حلوكتها وصمتها المرهوب ، وظلَّت هذه الجملة ترِنُّ أصداؤها المفزِّعة في حَنايا نفسه . لقد أحسَّ بها تأخُذ عليه سبيل تفكيره ، بل تُلهب رأسه ، وتسري في أوصاله ، تَخِزُهُ وَخْزَ الإبر .

وألفى لسانَه يردِّد ، وهو مطأطئ الرأسِ :

« ليسَ للإنسانِ أن يحكُم على أخيه الإنسان ، إنَّما الحاكمُ هوَ الله ! »

واعترتْه بَغْتةً نوبَةُ بُكاءٍ حادٌّ ، وتمادى في نَشيجه وهو يشعُر أن ليس لهذا البكاءِ من آخِرٍ . ثم أدرك أنه لا يَجمُلُ به أن يبكي ؛ قد يَمُرُّ على مَقْرَبَة منه أحدُ الحُرّاس فيسمعُه . فلْيكفكِفْ دَمْعَه ، وليكبَحْ ثائرةَ نفسه .

ورفع بصره وجمجم : « إنَّما الحاكم هو الله ! »

أ يكون في سوابق أحكامه على الناس قد وقع في مثل هذا الخطأ الَّذي وقع فيه ؟ وإذا فُرِضَ أنَّه كان عادلاً في أقضيته ، لم يَحِدْ عن جادَّة الحق مرةً ، فَمن الَّذي نصبَه قاضيًا يتحكَّم في شئون العباد ؟ وأولئك الذين أدانهم مَن أهل بلدته ، على فَرْضِ أنَّهُمْ قدِ اقترفوا – حقًا – جرائمَهمُ الَّتي اتُّهموا بها ، وتَصدَّى هو للفصل فيها ، أ ليسَ لهم من مُلابَساتِ حياتهم ودوافع عيشهم وحدودِ تفكيرهم ، ما يَزُجُّ بهم في مَزالقِ الجريمَة ، دونَ أن يستطيعوا لها ردًّا ؟ أ ينسى

(١) صوت خارجٌ من الأنف .

كيف حكَم بالجَلْد على سارق لأنه تسلَّل إلى أحد البيوت فاستولى على جانبٍ من الذُّرَة ، وتبيَّن بعد ذلك أن هذا السارقَ لم يُقدِم على فَعلَته إلا لِيُطْعِمَ بنيهِ الجياع ؟

ولماذا يذهب في التفكير بعيداً ؛ ها هو ذا قد قَتَلَ متوهِّمًا أنه يؤدِّي واجبًا ، لا قِبَلَ له بالتغاضي عنه ، فهو في حِساب نفسه بريءٌ شريفُ الغَرَض ، ولكنَّه في حساب العدالة مجرمٌ يستأهل أقصى عقاب .

إن أيَّ رجُل لو كان في مكانه ، وحاطت به هذه المُلابَسات ، وكان صاحبَ كرامة وحَميَّة ؛ لَما تردَّد في أن يفعَل ما فعل ، ويقتُل مَن قتل . المأمور الَّذي قبَض عليه ، و وكيل النيابة الَّذي حقَّق معه وأدانه ، والقاضي الَّذي أصدر حُكمه فيه ، هؤلاء جميعًا لو وقفوا موقفه من هذه الحادثة ، لَما تردَّدوا في أن يرتكبوا جريمته .

ليس لأحد أن يقاضِيَه ، ليس لأحد أن ينفِّذَ فيه حُكمًا ، ليس للإنسان أن يحكُم على أخيه الإنسان ، إنما الحاكمُ هو الله ، الله وحدَه هو الَّذي يُقَدِّرُ على الإنسان ما كسَبَتْ يداه من خير أو شر ، فما يجوز لنا أن نُجادِل فيما اقتضَت حكمتُه أن يكون . هي إرادةٌ عُلْوِيَّة تتصرَّف فينا منذ الأزل ، فَلْيَدَعِ البَشَرُ حُكْمَ السماء للسماء .

واعتمدَ الشَّيخ عبد المتجلِّي رأسه بيديه ، وما لبِث أن راح في سُباتٍ ، لا يدري أ طالَ به أم قصُر . ثم رفعَ رأسه ودار بنظَره مستطلِعًا حولَه ، وقد قامَت بنفسِه رغبةٌ في أن يتبيَّن : في أيِّ وقتٍ هو ؟ أ في مَهْبِط الغروب أم في مطلَع الفجر ؟ ليس من شيء حوله إلا الصمتُ والظلامُ .

وأحسَّ بالوقت يمرُّ به الهُوَيْنى ثقيلَ الخُطا ، وشعَر بأن تفكيره قد تعطَّلت حركتُه ، وجمد .

لقد أضحى لا يفكِّر في شيء على الإطلاق .

وانتابه شعورٌ مفاجِئ غريب ، شعورٌ غامض لم يعرِف كُنْهَه ، يتوثَّب من أعماق قلبه ؛ متلمِّسًا له منفذًا . وتكاثَف هذا الشعور ، وازدحَمَت طبقاتُه ، يدفَع بعضُها بعضًا ، تريد الانطلاق .

وأُلْقِيَ في رُوعه أنَّ الوقتَ الَّذي هو فيه إنَّما هو طلائعُ الصَّباح ، وتأكَّد له هذا الحَدْس . أ نفحةٌ من هواء رَطْب لامَسَتْ وجهَه هي الَّتي أَلقَتْ في رُوعِه هذا الشُّعور ، أم بصيرتُه هيَ الَّتي أوحَتْ بذلك إليه؟

الشَّمس الآن في طُفولتها ، تتهادى على بِساط الأفق بَسَّامةً ، تنشر الضياء وتشيع النشاط والحركةَ في رِحاب الكون . وهل نَسِيَ تلك الساعة الرائعة في قريَته ؟ لقد طالما استقبلَتْه بواكيرُ النَّهار في مُنْصَرَفِه من المسجد ، وهو يُنَقِّلُ حبَّاتِ السُّبْحَة بين أصابعه ، مردِّدًا الأدعيةَ والابتهالاتِ الَّتي أَلِفَ أن يختِمَ بها صلاةَ الصُّبح . ولقد طالما حيَّاه نسيمُ السَّحَر وهو على المِصْطبة الفسيحة أمام داره ، وقد بُسِطَتْ عليها مَفارِشُ صوفيَّة زاهيةُ الألوان ، وهو جالس يقرأ بعض كُتب الشريعة والسِّيَر ، مُتذوِّقًا مُستمتِعًا بما تَهْدي إليه من غذاءٍ رُوحيٍّ ورِضًا نفسيٍّ .

على هذه المِصطبة ، نَعِمَ حينًا من الدَّهر بصُحبة صديقه المتَّهم بتدنيس شرفِ أخته ، قضى مع هذا الصديق أوقاتًا كلُّها مؤانَسةٌ وصفاء ، وبادله أحاديثَ كلُّها مؤازرة وتعاون ، وكانت نهاية هذه الصَّداقة أن سَدَّد إليه طَلْقًا ناريا أرداه قَتيلاً . وأمام هذه المصطبة ، تمتدُّ الساحة الرَّحبة ، الَّتي كانت تزخَر بطلاب الحاجات ، ومن يَفْزَعون إليه يطلُبون قَضاءه في المنازعات . كان يقضي في هذا المكان شَطْرَ نهاره ، يتناول فيه الطَّعام ، الَّذي تُعِدُّه أختُه له بارعَ الطَّهْوِ مختلِفَ الألوان ، شهيا .

أختُه ! وتراءت له السكين المُخَضَّبة ، وهو يَمسحُها في قَبائِه ، ورأسُ القتيلة يتسلَّل منه الدم غزيرًا .

أ بريئةٌ هي حقا ؟ لقد اعترف السعداوي بأنه كان أفّاكًا مخادعًا فيما رماها به من تُهمَة العار . وعلى فَرْض أنها ليست بريئة ، أ فكانَ له أن يحاكِمَها وأن يحكُم عليها ؟ إن للكون خفايا وأسرارًا ، لا يسوغُ للبشر أن يحاولوا كشف الغطاء عنها . الله هو العالم بالنِّيات والسرائر ، فَله وحدَه الحكمُ ، وإليه يرجعُ الأمر كله .

وخُيِّلَ إليه أنَّه يسمع شيئًا : أ حركةٌ هي أم صوت؟ أرْهَف أذنيه ، وأحَدَّ مِن بصره . إنَّ الوقت صباحٌ حتمًا . وفاجأته رِعْشَة ، لقد حدَث أنه سَمِعَ قبلَ ذلك أصواتًا وحركاتٍ في مختلِف الأوقات ، ولكنَّ جسمه لم يكن يختلجُ لها أيَّةَ اختلاجة ، ففيمَ هذه الرِّعْشَةُ الطارئة ؟

إنه يُصْغي في اهتمام .

لا ريبَ أن هناك حركةً وهمهمة . أ مِنَ الدِّهْليز صادرةٌ ، أم من تلك الكُوَّة الضيِّقة ، الَّتي عجزَت عن أن تأذَنَ للضوءِ أن يُرسل بَصيصَه ؟

إنها أصوات ... إنه وَقْع أقدام .

وأحسَّ بقُشَعْريرَة تسري في جسده ، و وجد نفسَه كأنَّما تحوَّلَ كلُّه آذانًا صاغية .

أ حُرَّاس إليه بالطعام قادمون ؟ أم ... أم ...

وتسمَّرت عيناه نحو الباب ، يرقُبه .

وتعاقَبتْ لَحَظات ، ثم فُتح البابُ إلى آخره ، وظَهر مأمور السِّجن ، والطبيب ، وشِرْذِمَة من رجال الشرطة ، وتقدَّموا إليه على مَهَل .

وخُيِّل إليه أن حديثًا يُوَجَّه إليه ، وفَطَن إلى أن صدرَه يعلو ويهبِط متلاحِقَ الحركة ، و وضع أمامه أحدُ الحُرَّاس فَطوره . إنه أجودُ فَطور وقعت عليه عيناه منذ حَلَّ في السجن . و وجد يده تمتدُّ في تباطُؤ وتُصيب منَ الطَّعام لُقَيْمة ، وأحسَّ بها تضطَرب في يده حتّى كادَت تَسقط ، ولكنه استطاع أن يَضبِط أناملَه ، وأن يُلقِيَ باللُّقَيْمة بين شدْقَيه – لقيمةٍ واحدة لم يتناول سواها ، أردفها بجُرْعَةِ ماء ، ثم قال بصوت خافض مُتقطِّع النَّبرات : « الحمدُ لله ! »

ومسَح فمَه بظهر يده ، وردَّدَ في صوت أجْهَرَ من ذي قبل : « الحمد لله على نعمتك ، يا ربِّ ! »

وإذا به يَنْهَض من تِلْقاء نفسه ، وألفى الجَمْعَ يتأهبون للخروج ، وقد عقدت ثُلَّةُ الحُرَّاس حوله نِطاقًا ، وساروا جميعًا .

كان مُمْتَقَع الوجه ، باردَ الأطراف ، خفَّاق القلب ، ولكنه على الرَّغم من ذلك كله يكسوه ظِلٌّ من السكينة والهدوء .

وشاعت على مُحيّاهُ بسمةٌ غامضة : أ بَسْمَةُ أسًى هي أم بسمة تهكُّم ؟

وكان لا ينفَكُّ يردِّد : « الحمد لله على نعمتك يارب ! »

وسار في الدِّهليز تغمُره لُجَّة من تفكير متقلِّب عميق . إنه مقبِل على رحلة طويلة مُبْهَمة ، بيدَ أنَّه على يقين من رحمة الله . إن الله واسعُ المغفِرة ، تَوّاب . مَن هو الشيخ عبد المُتَجَلِّي بالنسبةِ لعَظَمة الخالق ؟ إنه لأهوَن من جَناح بَعوضة . الناس تُجازي الناس سُوءًا بسوء وإحسانًا بإحسان ، أما الله – جلَّ شأنه – لن يُقابِل الذنبَ إلا بالعفو والرِّضوان .

وسيقَ إلى حجرة لا تختلِف عن سائر حُجَر السِّجن ، إلا بهذه المِنَصَّة الصغيرة ، الَّتي تدلَّت عليها منَ السقف أحْبولَةٌ مفتولة .

أ تكون المشْنَقَة ؟ ليست كما يتوهَّم الناسُ مرهوبةً مفزِّعة ، ليس فيها ما يبعَث على العَجَب ، إنَّها لأشْبهُ بأرْجوحَة الصِّبيانِ في القرية !

وتجمَّع إحساسُه حولَ نفسه ، وتعمَّق في دخيلتها، فلم يعد يشعرُ بما حولَه ولا بِمَن معه . لقد أصبحَ نائيًا عن المحيط الَّذي هو فيه بجُسْمانه ، وكانت شفتاه

تختلجانِ بالدَّعوات سريعةً مختلطة .

وخيِّل إلى الشيخ عبد المُتَجَلّي أنه يسمَع من بعيدٍ صوتًا يتلو أسبابَ الحكم عليه .

وأبصرَ خلف الضَّباب ، الَّذي كان يَغْشى عينيه ، شَبَحًا يدنو منه ، ويأخذُ بكتِفَيه ، فألفى نفسَه يدفَعه عنه .

و وجد قدميه تخطُوانِ نحو المِنَصَّة .

وفي هذه اللَّحظة طرق سمعَه صوتُ قائل :

ألا تشتهي شيئًا ؟ بماذا تُوصي ؟

وأحسَّ يدًا تُديرُ الأحبُولَة حول عُنُقِه ، فأجاب بصوت بيِّنٍ :

« إنّي بريءٌ . كلُّنا أبرياءُ . الله وحدَه هو الَّذي يملِك الحكم على عباده ! »

قبلة مَرهُونَة

هي ابنةُ عَمِّه .

كلاهُما في زَهرة العمرِ ، وبَسْمة الصِّبا ، ولكنَّها تكبُرُهُ بأعوامٍ قِلال . وقد جمعتْهما نشأةٌ واحدة ، فتلازما منذُ الطفولة الباكرة .

وكان أصفى وقتٍ يغتنمُه وقتَ لقائه إياها ، يرتقبه على شوق متجدِّدٍ ، ويُعِدُّ له العُدَّة ، كأنَّما هو يستقبِلُ العيد .

آنًا يساجلها الحديث ، وحينًا يجلسانِ معًا إلى المِذْياع ، يُنَقِّلانِ سمعيهما بين مَهابِّ الأنغام ، وطوراً يتناوبانِ كرسيَّ « البيان » (١) متبارِيَيْنِ في العزف والغناء .

وكثيراً ما جعل يُخالِسُها النظرات ، مجتليًا مَفاتِنَها في نشوة واستمتاع . فإن فطِنَتْ إلى ذلك منه سَنَحَ على ثغرها ابتسام ، وأسرعت تُجاذِبُه الحديث في شأن يشغَله .

إنَّها لتعلَم ما يتناجى في صدره من شَغَف بها وهُيام ، بيدَ أنها لم تُبادِلْهُ إحساسًا بإحساس ، دون أن تُدركَ لذلك مِن سبب ، فما يَزيد شعورها نحوَه على صَداقةٍ رفيق ، ومودَّةِ ذي قُرْبى .

وإذا خلتْ إلى نفسها نازعها إشفاق عليه ، وربَّما انقلَب هذا الإشفاق ضيقًا به — ضيقَ الأخت الكبرى أمضَّها أخوها الصغير بلجاجته وإثقاله .

وكلَّما خطرَ ببالها ذلك ، تَراءى حِيالَها طيفٌ آخر ، طيفُ الطبيب الَّذي تولّى شأنها في المستشفى ، فاستأصلَ لها الزّائدة الدّودِيَّة منذ أشهرٍ .

قامةٌ باسِقة ، وعَيْن فَوّارة ، وشباب يانع !

فأين منه ذلك الغلام الغَريرُ (٢) الَّذي أحاله الغرام شمعةً تذوب ؟ فهو بادي الضَّراعة ، سليبُ الإرادة ، ينحني عند أيَّةِ إشارة ، على حينِ أنَّ الطبيب يعلو بهامته ، ويستعِزُّ بمَهابته ، فتُحِسُّ الفتاة انطواءها في ظِلِّه، وفناءَها فيه .

لا عجبَ في أن تؤثِرَه بالمكنون من قُوَّة العاطفة وجوهَرِ الشُّعور .

لا يكونُ لها أن تستكثِرَ ذلك عليه ، فإنَّها لتَجِدُه يطارِحها رقيق الحديث ، ويوليها حُسْنَ الرِّعاية ، ويخصُّها بمزيد من اللُّطف والإيناس .

ظلَّ الطبيبُ يختلِف إلى دارِ الفتاة بين الفَيْنَة والفينة، يشرف عليها في فترة استكمال العلاج ، فيطِيبُ لها أن يطولَ معها مُكوثُه ، وتتحيَّل لِذلك جُهْدَ ما تستطيع .

ولا يفوتُها أنَّه مغتبِط بزَوْراته لها ، راضٍ عنِ الوقت الَّذي يقضيه في مجلِسها وإن طال ؛ إذْ يستمرئُ حديثَها في طُمأنينة وارتياح .

وقد تتلاقى عيناهما وتتلامَس يداهما ، ويتراخى

(١) مُعرَّب « بيانو » .

(٢) الشابُّ لا تجربةَ له .

بهما الوقت على تلك الحال ، ثم يستدركان أمرَهما ، تعروهما اختلاجةُ المأخوذِ .

وذاتَ يوم ، غَدا إليها ابنُ عمِّها على مألوف عادته ، فَغَشِيَتْ مجلسَهما غاشيةٌ منَ الغُموض والقَلق .

كِلاهما بين جنبيه خَبيئةٌ يَضيق بها الصَّدْر ، وكِلاهما يرصُد فرصَةً تتيح له أن يخفِّف عن نفسه .

أمْشاجٌ (١) من الحديث مبتورة ، و وَقَفات من الصَّمت مُتَجَهِّمَة .

ودَلَفَتْ يَداهما إلى صحيفة مصوَّرة ، فانطلقا معًا يعبثان بِتَصَفُّحِها عَبَثَ مغلوبٍ على أعصابه .

وعلى حينِ فجأة ، استقرَّت يداهُما على صورةٍ أخذَتْ بِلُبِّهِما ، فَجعلا يرْنُوانِ إليها في إمعان . ولبثا كذلك فترةً لا يَحيدان عنها ، ولا يَرْوِيان منها على طول النظر .

كانت الصورةُ تُمَثِّلُ قُبلة من القُبلات السينمائية الحافلة .

ورفعتِ الفتاةُ بصرَها الهُوَيْنى ، فخف بها الفكر إلى أُفُق ، رأت فيه نفسَها بين ذراعَيْ طبيبِها الشابِّ ، وقد التَحما في قبلة ريّانة ثائرة .

أمّا ابنُ عمِّها الفتى ، فقدِ اتَّجه بعينه إلى مُحَيّا الفتاة يتوسَّمها ، ثم سدَّد نظرته إلى ثغرها في تشَوُّف (٢) ، وبين حناياه تتَّقد أُمنيةٌ جامحة — هي أن تُتاح له يومًا نَهْلَة فيّاضة من ذلك النَّبع المعسول .

ونَدَّت من صدر الفتاة تَنَهُّدَةٌ جيّاشة ، فإذا الفتى يبتدرُها مُسائلاً :

« ما بكِ ؟ »

فأجابته الفتاة ، وهي تسرِّحُ البصرَ في الفضاء ساهمة : « هي أُمنِيةٌ تلوحُ في خاطري ، وإنّي في سبيل تحقيقها لَراضية أن أبذُلَ كل شيء . »

« أ يسوغ لي أن أسألَك : ما هي تلك الرغبة ؟ »

فلاطَفت كتِفَه ، حانيَةً عليه ، وقالت :

« ما زلتُ أعرف فيكَ هذا الفضول . »

« أ تَضيقينَ بسُؤالي ؟ »

فأرسلتْ ضِحْكة عابثة ، وأجابته :

« حسبُكَ عِلْمًا أنَّها أعزُّ أمنية في الوجود ! »

وما أسرَعَ أنِ اكتسى وجهُها برَوْنَق البِشْر ، وسَبَحَت على قَسماتها أطيافُ الأحلام .

ثمَّ وقفت كأنَّها تتأهَّب لاستقبالِ أمنيَّتِها الغالية ، تلك القبلةِ المشتهاة !

وألفى الفتى نفسَه يقترب منها ، وهو يهمهم :

« هَبي أنَّ أمنيَّتك قد دانتْ لكِ ، فهل لي أن أتمنّى عليك شيئًا طالما صبَتْ إليه نفسي ، وتعلَّق به هوايَ ؟ »

فواجهتْهُ لحظةً ، تُصَعِّد فيه البصَر وتصوِّبه ، ثم قالت : « وماذا تتمنّى عليَّ ؟ »

« مَطْلَبًا لا يُعْييكِ أن تستجيبي له ، وهوَ عندي لا يَعْدِلُه مطلبٌ أيا كان . »

« أيُّ مطلب هو ؟ »

« عِديني أولاً ، وأنا أجاهرُك به . »

فتضاحكت وهي تتراجع عنه بخُطوات خِفاف ، وما عتَّمَتْ أن قالت : « يا لك من طفل غَرير ! »

فأقبل عليها في اهتياج : « أ تَعِدينَني ؟ »

فَثَنَتْ عنه عِطْفَيْها (٣) في تدلُّل ، وما لبِثَ أن عادت تُوليه وجهَها باسمَةَ الثَّغر ، وهي تقول :

« حسنًا ، يا رفيقِيَ الصغيرَ ، لك منّي ما تشاء ، إن تحقَّقَتْ أمنِيَّتي . أفصِحْ عمّا تتمنّى ! »

ومدَّت إليه بصرَها مَليا ، تتأمَّله ، فإذا هوَ قد

(١) جَمْعُ مَشِج ومَشيج ، وهو كل شيئين مختلطين ، أو كل لونين اختلطا .

(٢) تطلُّع وشغَف .

(٣) ثنت عنه عطفيها : أعرضتْ .

تَضرَّجَ وجهُه دُفعة واحدة ، وتتابَعت أنفاسُه ، واختلَجت أوصالُه ، ونبس بهذه الكلمات متعثّرَةً على شفتيه : « أن تَهَبيني قُبلَةً من ثغركِ الحُلو . »

فوقفت تَحْدجه في صمت ، وقد تلألأت على فمِها ابتسامة وضّاحة ، ثم قالت : « قبلة ؟ »

فتدانى منها ، شاخصَ البصر إليها ، تفيض عيناه بالأحلام ، وغمغم : « أجل ، قبلة . قبلةٌ فوارة تشفي الغليل ! »

فصلصَلتْ ضِحكَتُها عالية الرّنين ، وقالت : « أ جادٌّ أنت فيما تقول ؟ »

فأجابها راعشَ الصوْت ، مسجورَ(١) النظرات :

« الجِدُّ كُلُّ الجِدِّ فيما أقول ! »

فاستدارت على عَقِبَيها ، وهي تقول له :

« حقا ، لقد بَرْهَنْتَ على أنك لم تَزَلْ طفلاً ! »

وأرسلت ضَحِكات عابثة ، ثم تقدَّمت إلى المرآة تَتَوسَّم مِثالَها ، مزهُوَّةً بما ترى من حسن وإشراق .

وما هي إلا أن انسرَحَتْ تفكِّر . إنَّه حقا طفلٌ غَرير !

ولكن لماذا تَعُدُّه طِفلاً ؟ لأنَّهُ استوهبها قبلة ؟

وهي ؟ أ ليس لها مثلُ هذه الأمنية عند طبيبها الشاب ؟

وشملت مُحيّاها اختلاجة ؛ قبلةٌ رَهْنَ قبلةٍ ! لن ينال فتاها ما تهفو إليه نفسُه إلا إن نالتْ هي من قَبْلِه ما تَهْوَى . لن تعطيَ قبلَ أن تأخُذ !

يا له من مسكين ! بل يا لها من مسكينة !

وترادفت الأيام .

وساعةَ أمَّ الفتى دارَ ابنةِ عمِّه ، كما هو شأنُه ، وصَعِدَ الدَّرَج ، وقلبُهُ مُنتَشٍ بما هو مُقْبِلٌ عليه من لِقاء .

وأنهى إليه الخادمُ أنَّ الطبيبَ الشابَّ مع الفتاة في حجرتها .

فمكَث في البَهْوِ ينتظر انصرافه ، وسَرى فيه اضطرابٌ لا يَدْري مَأتاه ؛ فنهَض يَذْرَعُ البَهْوَ بِخُطًى متشنِّجة .

وساقَتْه قدماه إلى باب الحجرة ، على غيرِ عَمْد . إنَّ بالباب فُرْجَةً قليلة ، وإنَّه لَمُستطيعٌ أن يَتَحَرَّفَ حتّى يرى مَن في الحجرة ، دون أن يراه أحد . وسَرعانَ ما أنكر على نفسه هذا الصنيع .

كيف يَستَبيحُ التطلُّع والتعرُّف بغَير وجه حقّ ؟

وأدبَرَ عن الباب يقتلعُ خُطاه ، ثم ألْفى قدمَيه تعودان به حثيثًا إلى الباب ، وإذا هو يقف مرتقبًا يسترِقُ السَّمْع . إن أصداءً منَ الهَمَسات الرِّقاق تتوارَد على أذنيه ، وإنَّها لَتثيرُ فيه الفُضول ؛ فازداد إصغاؤه ، ثم وجَد نفسَه يخالِسُ الحجرةَ النَّظر ، وقلبُه دائبُ الخُفوق .

وَيْلاه ! هما يتعانَقان ، هُما يَذُوبانِ في قُبلة حامية متَّقِدة ، لا يُسْمَع لَهُما إلا أنفاسٌ مصعَّدة . يا لله من هذه القبلة الَّتي لا يهدأ لها أُوار ! وكأنَّها في امتدادِها دهرٌ موصول !

وتراختْ أوصالُه ، والتمَس أقرَب مَقعد ، فتهاوى عليه لا يدري : أ طال به الوقتُ في جَلسته أم قصُر ؟ ولكنَّه يُحِسُّ كأنَّما التقَمَتْه بئرٌ مختنقة الجوِّ بعيدةُ القاع !

وأخيرًا شعَر الفتى بالطَّبيب تتثاءبُ عنه الحجرة ، والفتاةُ بذراعِه متعلِّقة .

وجازَ كِلاهما به ، لم يتنبّها لِوُجوده .

وتابعتِ الفَتاة سيرَها تُوَدِّعُ طبيبَها الشابَّ .

وفيما هي عائدةٌ إلى حجرتها وقَع بصرها على الفتى ، وقد هَمَّ أن يَهْرُب منَ الدّار ، ناجيًا بنفسه من هذا الموقف العصيب .

---

(١) متّقد .

فصاحَت به الفتاة مرحِّبةً بِمَقْدَمِهِ ، وَ وَجْنَتاها تضْطَرِمانِ من بهجة ومِراح ، وعيناها تَرِفّان رَفيفَ النشوة والاهتياج .

ومثلَتْ أمامَه مُنْبَرِيَةً تقول :

« أَبْشِرْ ، يا رفيقي ! لقد تحقَّقَت لي الأمنيَّة ، وحان أن تطالِبَ أنت بما تتمنّى ! »

فارتسمَت على فمِ الفتى ابتسامةٌ نكْراء ، يتجَمَّع فيها التقززُ والاشمئزاز .

وغمغمَ قائلاً : « هنيئًا لك ما بلغتِ منَ المُنى ! »

فأخذتْ بيدِه تلاطِفها ، وهي في غَفوتها لم تكد تصحو .

وقالت له : « إنّي عند وعدي إيّاك ! »

وتدفَّقتْ في حديثِها تقول : « ما أسعدَني اللَّحظةَ ! أُطلُبْ ما شئت ؛ فإنّي واهِبَتُكَ ما استطعتُ . إنّي ... »

فقاطَعها ، وقد سَلَّ يدَه من يدها ، قائلاً في صوت مُتحشْرِج : « تستطيعينَ أن تَهَبي كلَّ شيء ، ولكنَّني أنا لا أستطيع أن أقْبَلَ منكِ شيئًا . »

ونكَصَ عَنها خُطُواتٍ ، وهو يَقْذِفُها من عينيه. بنظرات ، يتجلّى فيها البُغْض والحَنَق .

وانطلَق يغادِرُ الدّار ، وقد صاح قائلاً :

« وَداعًا ! وَداعًا إلى الأبد ! »

في ظلمة الليل

أسطورة فرعونية

في أصيل يوم منَ الأيام ، كان الشيخ حابي في بُستانه الصغير أمام داره المتواضِعة ، يتعهَّد نُخَيْلاته ويتنزَّه ، فاسترعى انتباهَه خَفْقُ أقدامٍ ، فالتفتَ نحوَ مصدرِ الصَّوت ، فإذا بفتًى يسير صَوْبَه ، وهو يدفع – في جَهد – قدميه المُتعبتَيْن ، وقد عَلاه الغُبار ، فاختفت ملامِحُه ، بَيْدَ أنَّ الناظر إليه يستطيع أن يَلمَحَ في عينيه – على الفور – حَيرة الغريب .

وكان الفَتى يحمِل في يده صُرَّة ، فخف الشيخ لِلقائه ، وما إنِ اقترب منه ، حتّى سمِعه يقول في صوت الهامس : « الشيخ حابي ؟ »

« هأنذا ! ما مَطلبُك يا بُنيَّ ؟ »

و وجد حابي الفتى يتخاذَل أمامه ، فأسرَع إليه ، وأسنده إلى صَدره ، محيطًا إيّاهُ بذراعيه ، وقال له :

« أ مريضٌ أنت ؟ »

« بل جائع ! »

فسار به حابي إلى داره في رِفْق ، وأجلَسه بجوار الباب على مِصطبة عارية ، وتركَه بُرهة ، ثم عاد إليه بإبريق مملوءٍ باللَّبن ، فأخذ يَعُبُّ منه الغريبُ حتّى شَبِع. وبعد أن تنفَّس طويلاً تمتمَ بكلِمات الشُّكر لِمُضيفه ، ثم أطرق وقتًا ، وأخيرًا رفع رأسه وسَرَّح بصرَه في الشيخ ، والكلمات تتراءى حَيْرى على شفتيه .

وابتسمَ الشَّيخ ابتسامةً تنطوي على عَطف وطيبة ، وقال : « تكلَّمْ ، يا بنيَّ ، لا تَخْشَ بأسًا ! ما حاجتُك ؟ إن حابي لا يردُّ حاجةَ الغريب ! »

فأمسكَ الفتى بيدِ الشَّيخ ، وضغطَها في انفعال ، وقال : « لقد حَدَّثوني أنك تأتي بالمُعجِزات ، فسعيتُ إليك أطلُب معجزة ! »

فتأمَّل الشيخ وجه فتاهُ طويلاً ، يحاول أن يَستَكْنِهَ ما خلْف تلك الصفحة المُترِبَة التَّعِبَة من خَفيَّة نفسِه ، وقال : « معجزة ! لستُ كاهِنًا يا بنيَّ ! »

« أنت أعظمُ من كاهن ! »

« أفْصِحْ عن غرضك ! »

« إن قوةَ تعاويذِك وعقاقيرك ، يا أبَتِ ، مستَمَدَّةٌ من رُوح الآلهة . »

« أنا حكيم زاهد ، قد أنجَح في مداواة النُّفوس وتطبيب الأجسام . »

وحدَّق الفتى في الشيخ بعينٍ جاحِظة ، ثم هَبَط أمامه ، وقال وقد تَشبثَ بثوبه :

« وحقّ ‹‹ إيزيس ›› لِتنتزِعَنَّ نفسي من بين جوانحي ، ولتُلقِيَنَّ بها بعيداً عن جسدي ! »

« هَدِّئْ من رَوْعِك . »

« إني أمقُت هذه النفسَ الخاملة الميّتة ! لِتَخلُقني خلقًا جديدًا ، ولْتجعلنَّ منّي رجُلاً ذا بأسٍ واقتدار ! »

وجعل الشيخ يلاطِف رأسَ الفتى ، ثم أنهضَه في وداعة ، وأجلسَه بجواره . وبعد حينٍ قال له في هدوء ورزانة : « اِروِ لي قصَّتك ، يا بُنيَّ . إنّي مُصْغٍ إليك في انتباه ! »

ودعَم الفتى وجهَه براحتيه ، وراح يُرسل الطَّرف أمامَه في ذلك الفَضاء العظيم ، حيث يبسُط الغَسَقُ على الكون غِلالته السوداء .

وأنصت برهة إلى ما يحيط به من صَمت شامل ، ثم تكلَّم ، فإذا به يقول :

« أنا راموسي . ولكن ماذا يَهمُّك من اسمي ؟ إن راموسي نكِرَةٌ ، لا يُحِسُّ وجودَه أحد ! »

« تكلَّمْ . »

« إنّي أسكُن على مَسيرة شهر من هنا . »

« في بلدة ‹‹ رنسي ›› ؟ »

« نعم . »

« ذات المعابد الأربعة والمِسَلّات الخمس ! »

فواصل راموسي حديثه ، وقد رقَّ صوته وضعف: « وحيث تسكن الأميرة أشمس ! »

وطأطأ رأسه حينًا ، ثم رفع عينه بغتةً ، وسَدَّدها في وجه حابي ، وقال في صوت غير متساوِق النَّبرات : « أريد أن أكون عظيمًا ! أريد أن أكون مُثريًا ، تزخَر خزائني بالأموال . أريد ... »

فابتسم الشيخ في هدوء ، وقاطعه قائلاً :

« إنه ليس بالطَّلَب المستحيل . »

فاستنار وجهُ الشّابِّ بلمعة متلألئة ، وقال :

« إذًا ستأتي لي بمعجزة ! »

« إن ما تسميه أنتَ معجزة ، يا بني ، أسمّيه أنا أمرًا قد يستعصي على بعض الناس ، ولكنَّه في مقدور آخرين ! »

فَهَوى راموسي على يَدَي الشّيخ ، وانهال عليهما تقبيلاً وهو يقول :

« شكرًا ، شكرًا ، سأذكُر لك الجميلَ ما حَييتُ ، وسأعوِّضك عنه أضعافًا مضاعَفة . »

ثم رفع رأسَه ، وقال : « أمّا الآن ، فليس لي ما أقدِّمه لك سوى ... »

وتعثَّر لسانه بالكلمات ، فسكت ، وأشار إلى الصُّرَّة الَّتي بجواره ، وفتحها بيدٍ راعشة أمام حابي . فنظر فيها الشيخ ، فإذا بخَليط من قطَع المعادِن ، بينها شيء قليل منَ الفِضَّة والذهب .

وتابع راموسي كلامه وقد غَضَّ من بصره :

« هي كل ما تَبَقَّى لي ممّا أملك . »

« أبْقِها لك . »

« إنَّها قليلة . أعرف ذلك . »

« كلا ، فهي كثيرة إذا كانت منك ، وهذا يكفي، ولكنَّني لستُ في حاجة إلى عطاء الناس . »

« أبَتِ ! »

ونهض حَابي في هدوء ، وهو يقول :

« ألا ترى ، يا بنيَّ ، أن المساءَ قد أقبل يحمِل في أعطافه بردَ اللَّيل ؟ وأنا كما ترى شيخ ... ! »

« هيّا . »

وتركا المِصطبة ، ودخلا قاعة غير رحيبة ، بسَقف منخفِض ، تكاد تكون عارية إلا من حصيرٍ وغِطاء .

وأشعل حابي مِصباحه الزيتيَّ ، ثم جلس وأراح ظهره على الجدار ، وقد طَوى يديه إلى صدره .

وجلس راموسي قُبالَةَ الشيخ متربِّعًا ، لا يفصلُه عنه إلا المصباحُ .

وانقضت برهة لم يتكلّم فيها أحد منهما .

ثم سُمعَ حابي يُردِّدُ في صوته الرزين :

« إنّي مُصْغٍ إليك ! »

فلم يحوِّلِ الفتى عينيه عنِ المِصباح ، وقال :

« كيف أبدأ لك قصتي ؟ حقا إنه لَجنونٌ ما فكّرتُ فيه ! غيرَ أنّي لستُ نادمًا على شيء . لقد كنتُ أحيا ، يا أبتِ مُتبطِّلاً ، أخرج من داري المُهدَّمة إلى النّهر ، أتنزّه على شاطئٍ ، حيث بَساتينُ الأمراء ، أقضي اليومَ كلَّه متنقِّلاً بينها ، أستمتع بمَرأى الرّياحينِ ، وأستنشق عَرْفَها الذّكيَّ . فإذا تعبْتُ استرحْتُ بجوار الماء ، وأخرجتُ نايي أناجيه ويناجيني . »

« أموسيقيٌّ أنت ؟ »

« لَمْ أجرِّب أن أصفِرَ إلا لنفسي . »

وأخرج راموسي من ثنايا ثيابه نايًا من غاب ، ساذَج المظهر ، وأراه الشيخَ قائلاً :

« إنه زميلي الّذي لا يفارِقُني أبدًا – زميلي المُطّلعُ على سِرّي ، العالِمُ بما يَجيش في قلبي من أمانٍ وأطماع . »

« أمانٍ وأطماع قد تبدو لك بعيدة التحقيق . »

« إنّني أضعُها بين يديك ، فاصنع بها ما أنتَ صانع . »

« ألم تكن راضيًا عن حياتك الهادئة ؟ »

« كلَّ الرضا ! »

« إذًا هي الّتي غيَّرتْ حالك . »

« مَن هيَ ؟ »

« تلك الّتي ذكرْتَ اسمَها مُشرِّفًا بذكره مدينةَ رنسي . »

« نعمْ ، هي أشمس ، أميرة الأميرات ، وأقربُهُنَّ صِلةً بفرعون الأعلى . »

« أتْمِمْ حديثَك . »

« رأيتُها يومًا تتنزّه في بستانها ، فَسَحَرَني من أول نظرة جمالُها . رأيتُها ترتاد الخمائل في حاشيتها ، فجعلتُ أرقُبها خلفَ دَغَلٍ من الأشجارِ ، وأضاءت نفسي على الفور شمسٌ وهّاجة ، كَشَفَتْ لي دنيا عظيمةً كانت مختَفِيةً عنّي ، وإذا بي أقطَع على نفسي عهدًا بأنها لن تكون لِسوايَ . ولَمّا عدتُ إلى داري ، وراجعتُ هَجَسات ضميري ، هَزِئْت بنفسي وكُلّي سَخَطٌ وألم ، ولكن عهدي ما زال ثابتًا على الرغم من كل شيء ، لا يتقهقر ولا يتقدّم في جرأة وإقدام . لكن كيف أنفّذ ذلك العهد ؟ هذا ما كان يُحيِّرني ويَحزُّ في قلبي . منذ ذلك اليوم جعلتُ طريقي إلى بستانها ، لا أعرف سواه ، أقضي على مقربة منه يومي ، أراها ولا تراني ، فإذا ما صَعِدتْ في قصرها ، انتحيتُ نحو الشاطئ ، وتخيَّرتُ مكانًا ظليلاً ، وبَثَثْتُ شَكوايَ للنّاي ، فكنت أسمَعُه أحيانًا يهمس لي :

«« لماذا لا تحاولُ التقرُّب إليها ؟ لماذا لا تكشف لها عن كوامنِ صدرك ؟ »»

« ولماذا لم تُذعِن لما أوحى لك به صَفيُّكَ النايُ؟ »

« أتريدُ منّي أن أستمع لِذلك الساذَجِ الغَرير ؟ ألم أقل لك مَن هي ؟ إن فيها من دَمِ الآلهة ، يا أبتِ . كلنا نعلم أن عظامًا تقدّموا إليها بقلوبهم فردّتهم خائبين . لقد أمضيتُ ، يا أبتِ ، اللّياليَ الطّوال أفكّر في مَصيري معها . لا بدَّ أن تقعَ مُعجزة تُحَوِّلني من صُعلوكٍ بائس إلى أمير يفوق جميع الأمراء ، يرضاه فرعون وترعاه إيزيس . وكان أنِ اشتدَّ بِيَ الضّيق يومًا ، فجريت صَوْبَ النهر، وهممتُ أن أُلقِيَ بنفسي إلى

التّماسيح . في تلك الساعة الفاصلة سمعتُ هاتفًا يقول لي : «« اذهبْ إلى حابي الحكيم ، فعنده تتمُّ المعجزة .»»

فتمتم الشيخ حابي : « أ قال لك الهاتفُ ذلك ؟»

« قَسَمًا بإيزيس ربةِ الأرباب ! لقد سمعْتُ صوته واضحًا يرنُّ في أذني ، وكانت التماسيح قد خرجت برءوسها تنظر إليَّ متنمّرة ، فوجدتُني في لحظة أقفز متراجعًا عن النهر ، وانطلقتُ أعدو . أ كنتُ أعدو حقا ؟ لا أدري ! كنت أحسُّ أنّي محمول بقوة خارقة غير منظورة . وفي الغد بِعتُ ما أملك ، واستصفيتُ مالي ، وحملتُ زادي ، وسِرْتُ ووُجْهتي دارُك .»

فأمسك حابي بيدَيْ راموسي ، وضغطهما وهو يقول : « ستَتِمُّ المعجزة ، يا ولدي . فعوِّلْ عَلَيَّ .»

« إذًا ستجعلُني أميرَ الأمراء ، وإذًا ستجعَل منْ أشمس زوجة لي ؟»

« إن علمي لا يتطاوَل إلى مثل هذه الأمور .»

« كيف ؟»

« كلُّ ما أقدِر عليه ، أن أعملَ على تغيير نفسيتك .»

« أوْضِحْ ، يا أبتِ .»

« سيتغيَّر فيك كلُّ شيء : شمائلك الأصيلة ستنقلب إلى ضِدِّها ؛ الخمول سيغدو نشاطًا متأجِّجًا ، والقَناعة ستكون طمعًا صاخبًا ، والرحمة ستُفسِحُ مكانَها للقسوة والعنف . ستكون حياتك ، يا راموسي ، كالبركان الفوّار ، لا يخبو له لَهَبٌ ، ولا يسكُن له زئير !»

فطأطأ راموسي رأسه ، وقال : « أبَتِ !»

« ليس ثَمَّةَ طريقٌ يُنيلك ما تطلُب من ثروة وجاه ومجد إلا هذا الطريق !»

وصَمَتَ راموسي فترة ، ورأسُه مُنحنٍ على صدره. وبغتةً رفع وجهَه إلى حابي وقال :

« ولكن حُبّي ، حُبّي ... أ يَعتريه تغيُّر ؟»

« حبُّكَ باقٍ بقاءَ الرّوح الخالدة . ولكن ...»

« ماذا ؟»

« أ واثقٌ أنك ستكون سعيدًا بنفسك الجديدة بعد أن تَتِمَّ المعجزة ، وأنه لن يطولَ بكَ الحَنينُ إلى نفسك الأولى ؟»

« اِفعلْ بي ما تريد !»

ودارت عَجَلة الحياة : الأيام تِلْوَ الأيام ، والأشهر إثْرَ الأشهر .

وكانَ مَلِكُ الغرب قد دفعه الطَّمعُ إلى امتلاك مِصْرَ ، فسيَّر إليها الجيوش الكثيفةَ ، فغزَتِ المناطِقَ الشّمالية في غير عُسْر ، ثم اندفَعت في طريقِها تكتَسِح أمامَها جندَ الوطن . ولم يُجْدِ تعيينُ القائد الكبير « رودا » أميرًا على الجيش الّذي أرسلَه فرعون لإنقاذ البلاد ؛ إذ أُصيب رودا بهزيمة نكراء ، وقُتِلَ في المعركة . وكاد الجيشُ يتفكَّك ، ويندثر ، لولا أن قَيَّضَ الله له شابا من بين المحاربين زَعَمَ عليه ، فأخذ يجمَع شَمْلَه ويَبُثُّ فيه روحًا ، فلم ينقَض وقتٌ طويل حتّى انقلَبَتِ الهزيمةُ إلى هجوم ، ثم انتهى الهجومُ إلى مطاردة للعدوِّ ، فاكتساحٍ كامل له . وأصبح هذا الشاب قائدًا للجيش ، ولَقَّب نفسَه بالأمير الأسود ؛ إذ كان يرتدي السوادَ دائمًا . ولم يقتصر هذا الأمير على تطهير البلاد من جيش العدوِّ ، بل تابَع زَحْفَه في جُرْأة غريبة ، ففَتَح مملكة الغرب بأسرِها ، وأخضعَها لفرعون ، فصارت تابعة لمصر .

كانت رَنْسي المدينةُ ذات أربعة المعابد وخمس المسَلات حاضرةُ مصرَ الثانية ، تحتفِل احتفالاً شائقًا بقُدوم الجيش المنتصر ، وعلى رأسِه أميرُه الأسود ، فقد عاد محمَّلاً بأسلابٍ وغنائمَ لم يأتِ بها قائدٌ

منتصر من قبلُ . وكان موكِبُهُ حافلاً بالأسْرى العِظام من الأمراء والحُكام وسَراة الدَّولة المغلوبة . أمّا بقية الأسرى من الدَّهْماء فقد اكتفى بقَطع أيديهم وأطْلَقَ سَراحهم ، حتّى لا يُعطِّلوا سير المَوْكِبِ بكثرة عددهم. ولكنّه احتفظ بتلك الأيدي ، فحملَها معه ليقدِّمها إلى فرعون ، رمزًا للخُضوع والطّاعة .

وتمّت مراسمُ الاستقبال ، في عظَمةٍ وفخامة جديرتينِ بالقائد العظيم ، والفاتح الكبير . ولكن الأميرة أشمس أولى أميرات البيت الفِرْعَوْنيّ ، تخلّفت عن حضور الاحتفال ، وأرسلت تعتذِرُ لفرعون . وكان فرعون يعرِف شذوذَ طِباعها واعتزالَها العالَم ، فَقبِلَ عُذرها على مَضض . ولكنّ رسول الأمير الأسود جاءها يحمِل من الأمير نفسه رغبتَه في زيارتها قبل الغُروب ، لأمرٍ ذي بال ، فلم تجِد مَخلَصًا من استقباله، وأمرَت أن يُعِدّوا القصر لهذا القدوم .

وأخذ الأتباع يعمَلون بجِدٍّ واهتمام في تزيين القصر، فما كادتِ الشمسُ تُؤْذِنُ بالمَغيب ، حتى برز القصر خلال الظلام ، كأنه قطعة من لؤلؤ تتألق . وانتشر الطِّيب الذكيُّ في شتّى أرجائه ، فكأنه روضة فوّاحة منَ الأزاهر النَّضِرة .

وجاء الأمير في الموعِد ، في حَفْلٍ من قُوّاده ، ودخلَ القصر وهو يضرِب بقدميه الصُّلْبتين الأرضَ ضرباتٍ شديدة ، تَرَدَّد صداها في جوانبِ المكان ، وجعل يتلفَّت يَمْنَةً ويَسْرة بوجهِه الرّائع ، الّذي تَنُمُّ كلُّ لمحة من لمحاته ، على رجولة قويّة قاسية . وكانت لعينه الواسعة إشعاعات قويّة باهرة ، لا تَقوى عينٌ أخرى على تَحَدّيها .

وما إن دخل البهوَ الكبير ، ورأى الأميرة واقفة في صدره تَحُفُّ بها وصيفاتها ، حتّى توقّف بغتة ، واتسعَت حَدقتا عينيه ، وتفتّح وجهُه في لحظة بنور متألِّق تشيع فيه الأحلام ، وأمسَك بيدِ رفيقٍ له بجانبه وشَدَّ عليها ، وطالت وقفتُه على هذ الحال ، والناس من حوله صامتون .

وأخيرًا همس رفيقُه في أذنه :

« مولايَ ! إن الأميرةَ تنتظِرُك ! تقدَّمْ !»

وتقدَّم الأمير الأسود بخُطوات لم تردِّدْ صَداها جوانب المكان ، هذه المرة ، وركَع أمامها ركعة المتبتِّل أمام ربِّه ، فأنهضَتْه وهي تقول :

« نحن الّذينَ يجب أن نركَع أمام المُنقِذ العظيم !»

ورفع وجهه إليها ، وقال في صوت متخافت :

« عفوًا مولاتي ! أمام هذا الجمال الإلهيِّ ، الّذي هو قَبْسَةٌ من رَع ونفحةٌ من إيزيس ، يستشعِر القائد العظيم ضآلَة نفسه وتفاهة مَجده !»

« سيِّدي !»

« ليس ثمةَ عظيمٌ أمامَك ، يا مولاتي ! كلُّنا من أتباعِك المخلصين !»

وتهامسَ النّاسُ فيما بينَهم دَهشين حَيارى . لَمْ يُشاهَدِ الأميرُ على هذه الصورة حتّى في حَضْرةِ فرعونَ الأعلى .

وبدأتِ الجُموع تتفرّق ، والمكانُ يخلو للضّيف وربّةِ القَصر. وأخذَ القائدُ يَرْوي وقائعه ، ويعدِّدُ أسلابه ، ويذكُر ما ناله من مال وضِياع ، تتعادل معها أموالُ فرعونَ العظيم . وختم حديثه قائلاً :

« إن الأميرة لَتعلمُ أن فرعون بلا عَقِب (١) ، وَهو الآن شيخٌ مُثقَل بالمرض ، قد طالَبته الكَهنة بتبنّي أميرٍ يجعلُه وليا لِلعَهد ، أميرٍ أهْلٍ لهذا المَنصِب الخطير.»

« وهل وقع اختيارُ الملك على هذا المحظوظ ؟»

فابتسمَ الأميرُ ابتسامةً ذاتَ معنًى ، وقال :

« لقد أتم اختيارَه سرًّا ، وسيعلنُه غدًا في الهيكل الكبير .»

---

(١) بلا ولَد يَخلُفه .

وصمتَت أشمس وهي تتفحَّص الأمير طويلاً ، ثم انحنَت في خُشوع ، وهي تقول :

« يُسْعدني أن أكون أولَ من يقدِّمُ طاعته لصاحب التاجَين ، ووَريثِ مُلْكِ الفراعنة العظيم . »

فأمسك الأمير بيدِها ، وقال :

« هذا المُلْك العظيم ، وهذا النَّصر الباهر ، وهذه الأموال الَّتي لا يستطيع أن يحصيَها أحد ، كل ما كَسَبْتُهُ وما سأكْسِبُه ، أضعه تحت قدميك أنتِ ، يا أميرتي ، ويا مولاتي ! أُقدِّم لك كلَّ هذا مقابِلَ شيءٍ واحد منك . »

فأسبلتِ الأميرةُ جفنيها ، وتابعَ الأميرُ حديثَه في لهجة مشبوبة :

« كلمةٌ منك ، يا أشمس ، تجعل هذا الواديَ الفسيح بسُكّانه وكنوزه ، هذا المُلْكَ الضخم ، طوعَ يديك . قولي كلِمةَ الرِّضا ، ثم مُري فلن يَعصِيَ لَكِ أحدٌ أمرًا . »

ونهضَتِ الأميرة ، وهي تقول في صوت حَبيس:

« أ لا نذهبُ إلى المُسْتَشْرَف ، فنُلْقِيَ نظرة على البستان ؟ »

فأجابها الأمير ، وهو حائر : « كما تريدين ! »

وذَهبا إلى المُسْتَشْرَف ، وأطالتِ الأميرَةُ النَّظر إلى الحديقة ، وهي تُصَعِّد بصرَها في أشجارها وأزاهيرها ، ثم قالت : « أ يسمحُ لِيَ الأمير ، أن أقُصَّ عليه قصة صغيرة ؟ »

فأجابها ، وهو يزداد عَجَبًا : « إني مُصْغٍ إليكِ ، يا أميرة . »

« كان في الزَّمان الغابر فتاةٌ منَ الأثرياء ، من أسرة رفيعة النَّسَب ، تحيا ناعمةَ البال ، في قصرِها ذى البستان الكبير ، حياةَ تَرَفٍ ورَغَد ، ولم يكن لها مَطْمَعٌ تصبو إليه إلا العثورَ على أليفٍ تَنعَم معه بحبٍّ و وفاء ، شأنُها في ذلك شأنُ كل فتاة . وحَجَّ إلى قصرها أعلى الأمراء شأنًا ، وأعظمُهم جمالاً وثراء ، يطلبونَها للزَّواج ، فردَّتهم بلا أمل . »

« ولمَ ذلك ؟ »

« لأنها كانت مخدوعةً بنفسها ، مغرورة بجمالها ، فلم يَرُقْها واحدٌ من هؤلاء الأمراء . »

« ومَن كانت تنتظر أنْ يتقدَّم لها ، بعد هؤلاء ، وهم صفوة البلد ؟ »

وتريَّثتِ الأميرةُ في إجابتها ، وهي تُسَرِّح طَرْفها في الأفق ، حيث الظلام مقبِلٌ في وحشتِه وصمته وأسراره ، وقالت : « هي نفسُها لم تكن تدري ، ولكنَّها على الرغم من ذلك كانت تنتظِر وتؤَمِّل . »

« وهل طال انتظارها ؟ »

« كلا ! »

« إذًا عثَرَتْ عَلى ضالَّتها ! »

« نعم ، أيها الأمير . »

« أ كان قائدًا غازيًا ؟ »

« كلا ! »

« أ وَزير خطيرٌ هو ؟ »

« كلا ! »

« إذًا هو مَلِكٌ من نَسْل الآلهة ! »

« ولا هذا أيضًا . »

« مَن يكون ؟ »

وأرسلتِ الأميرة تَنَهُّدَةً خفيفة ، وقالت في صوت الهامس : « شابٌ رقيق الحال ، مُرْهَف الشعور ! »

« وما مِهنَتُه ؟ »

« ليست له مهنة . كان يقضي أيّامَه يجوبُ البساتينَ ، ويتنزَّه على ضفاف الأنهار ، يستمتع بمحاسِن الطبيعة . »

« إنَّها حياةٌ أقرَبُ إلى التَّبطُّل والصَّعلكة .»

فتمتمتِ الأميرة بلهجةِ الحالم ، وهي تستقبِل بعينيها كتائبَ الظَّلام المكدَّس بعضُها فوقَ بعض :

« قد يكون ذلك ، ولكنَّه الوحيدُ الَّذي استطاعَ أن يَصْهَر كبرياءها ، ويحطِّمَ تاجَ غرورها .»

فَنَدَّت عن الأمير صرخة : « هو ! أ مُمكِنٌ ذلك ؟»

« أجل ، لقد أُحبَّته الفتاةُ . أحبت فيه ذلك الشاعر المُرْهَفَ الحِسِّ ، يُنْشِدُها أعذبَ ألحانه وأرقَّها .»

« أ كان شاعراً يَنظِمُ لها القصائد ، ويُنشِدُها إيَّاها ؟»

« كان ينظِم قصائدَه بلا كلام ، ويُنْشِدُها إيَّاها من مِزْماره الرخيم .»

فأصابت الأميرَ هِزَّةٌ شديدة ، وقال في صوت جيَّاش : « وهل تلاقَيا ؟»

« كلا ، فهي لم ترَه ، بل أُغْرِمَتْ به على البعد ! ولا تدري أ رآها أم لا ؟»

« لا ريبَ في أنه رآها .»

« ليس ذلك مؤكَّدًا ، فأنظارُ هذا الشاعر الجَوَّال كانت أقصرَ من أن تخترِق خمائلَ البستان أو جدران القصر ، لتكشف عن الفتاة وتلتقي بأنظارها .»

« يا لَلْفتى البائس ! لو علِم أنَّها تُضمِرُ له هذا الحُبَّ لَطارَ إليها ، وارتَمى تحتَ قدميها يَلْثِمُهُما في عبادة !»

« مَنْ يَدْري أيها الأمير ؟ إنه فتًى غريبُ الأطوار . يعيش وَفْقَ هواه . قد يرفُض حبَّها لو تقدَّمتْ به إليه .»

« مُحال ! لو كان يعلَم كيفَ أحبتْه هذه الفتاة ، وكيف أنها ترضى أن تعيشَ معه ، تُقاسِمُه حياتَه الطَّليقة في دُنياه الرَّحْبَة الوَضَّاءة ، لَقَبِلَ منها هذا الحب !»

وتمتم الأميرُ بكلمات متقطِّعة ، وقد شدَّ بيدِه على حاجِز المُسْتَشْرَف ، حتّى كادَت أصابِعُه تَدمى . وتابعتِ الأميرة حديثَها :

« لقد بَرِمَتِ الفتاةُ بحياةِ الثَّروة والجاه الَّتي تحياها ، وتوضَّحتْ أمامَها بشاعتُها ، وأحسَّت ثِقَلَها المُرْهق يَحْبِس أنفاسَها ؛ فرغبَت أن تَفِرَّ من بيئتها ، تستبدِلُ الكوخَ الساذَجَ الهادئَ بالقصر المُنيف الصاخِب ، والرِّداءَ الخفيف المُزيَّن بالأزهار بالثوب الثمين اللامع بأوصال اللآلئِ . لقد بَرِمَتْ بكلِّ شيء يحوطُها ، واشتدَّت بها الرَّغبة أن تهرُبَ ، فَتَلْحَقَ بشاعرِها ، تقضي حياتَها في حِمى مِزْماره .»

« ولكنَّها لم تفعل !»

« ولقد كادت ، ولكنَّ الفتى اختفى فجأة .»

« أ هَرَبَ ؟»

« إن الناس يُرْجِفون [(١)] بموته ، فقد تكون التَّماسيح أكلَته ؛ ومن ثَمَّ أسدلَتِ الفتاةُ على حياتها سِترًا غَليظًا يحجبُها عنِ العالم أجمع !»

« قد تَسْلوه يومًا ، فترضى الزَّواج بأمير كبير .»

« إن القصة تحدِّثنا أنَّ الفتاة قضَت في عُزْلَتها عامين ، وهيَ لم تتغيَّر . إنَّها لا تطلُب الأميرَ ولن تطلبَه ، بل ستَحيا مترقِّبةً شاعرَها الفقير كما هو ، بردائه الساذَج وقلبه الكبير . لن تستبدل به أحدًا مهما يَعْظُمْ قدرُه ، ويتسعْ ماله .»

« وهنا تنتهي القِصَّة ؛ أ ليسَ كذلك ؟»

« تكاد تنتهي ، والبقيَّةُ في كلمتينِ .. أ تريدُ أن أتِمَّها لكَ ؟»

فقال الأمير ، وهو يَضْغَط كلماتِه في حسرة مكتومة : « إذا رغبتِ أتممتُها أنا لك !»

فتمايلَتِ الأميرة ، وعَرَضتْ على وجهها ابتسامة ، وقالت : « كيف ؟ أ وَ تعرفُها ؟»

فقال في شيء من السُّهوم : « إنَّ حِذْقَكِ في روايةِ القِصَّة قد جعلني أَحْزِرُ [(٢)] خاتمتَها .»

---

(١) يشيعون . (٢) أخمِّن .

وراح الأميرُ يُحِدُّ بصرَه في نجوم اللَّيل البعيدة ، كأنَّه يريد أن يستلهِم منها كلِمة نُصح أو هِداية . ولكنْ لم تَطُلْ وِقفَته على هذه الصورة ، فانحنى أمام الأميرة يقول : « لن أنسى ما حَيِيتُ حُسْنَ احتفائكِ بي ! »

وقبَّل يدَها قبلَةً طويلة عميقة ، ثم تَرك المكانَ لا يَلْوِي على شيء .

وأَقَلَّتْه على الفورِ عجَلَتُه الحربيَّة ، واستأذَن رِفاقه في أن يَمضِيَ وحدَه .

وانطلقتْ به العَربة هائمةً في أديم الصَّحْراءِ ، تشقُّ أمامها سِجْفَ الظَّلام شقًا !

في غفوة الأقدار

إذا اختارَ القدَرُ امْرأ فضرب عليه رِقابتَه ، وأحاطَه بأنظاره ، فإن ذلك المرءَ يحيا راسفًا (١) بين قيود وأغلال .

ليس القدَرُ إلا وليدَ هذه الحياة ، فيه الكثيرُ من خصائصِ المخلوقات الدُّنيويَّة جميعًا ، بل إنَّه ليمثِّلُ هذه الخصائصَ أقوى ما تكون عُنفوانًا ورَوْعة .

والمخلوقُ الدُّنيويُّ لا يفهَم من الرِّقابة والرعاية إلا أنَّهما فَرْضُ أنظمةٍ وتقاليدَ وأوضاعٍ ، يُنمِّقها وَفق هَواه، ويتَّخذُها ذَريعَةً إلى بَسْط سُلطانه على مَن يدَّعي حِمايتَه ورِعايته .

وإذنْ ، فالقدر هو المَثَل الأعلى لِتلك الظَّاهرة الحيويَّة ، ظاهرة الحماية والرعاية الَّتي تكمُن في طواياها نزعةُ الهيمنة والتأمُّر .

فإن قيل لك إنَّ القدر يرعاك ويرقبك بعين عنايته، فاعلَمْ – عَلِمْتَ الخير – أنك قد أصبحتَ في عِداد ذلك القَطيع الجَمِّ ، يسير متراصا مَحْنِيَّ الهامِ في طريق مرسوم ، لا يفكِّر في الحَيدة يَمْنةً أو يَسْرة ، ولا يَعِنُّ له أن يتطلَّع بأنظاره إلى الأفق النيِّر ، يستجلي مصدرَ ما يعُمُّ الكَوْنَ مِن ضياء ، ولا يدور في خَلَده أن يُقَدِّرَ ما قد يعترِض طريقه من عقَبات وعراقيل .

حَسْبُه أنَّه ساعٍ على أديمِ الأرض في غير حرِّيَّة ولا اختيار ، صاغرٌ يستملي إرادة القَدَر ، قانعٌ بذلك السَّقَطِ من العَطايا ، قلَّ أو كثر .

وما له لا يقنَع بذلك ، وسواءٌ لَديه القليلُ والكثير، ما دامت جَذْوةُ النُّفوس خامِدة ، وما دامتِ الأغلالُ تُثقل الأيدي والأَعْناق ؟

على أن لِلقدَر ساعاتٍ ، أو قُلْ لحظاتٍ ، تغفو عينُهُ ، فلا يملِك رِقابة ولا رِعاية . أو لَعَلَّ القدَر إنَّما يكِلُّ بصرُه بعضَ الكَلال فيلتَمِسُ وقتَ دَعة ، ومُهْلة جَمام (٢) ، فإذا هو يُسبِل جفنَيه أو يكاد .

في هذه الساعات ، أو اللَّحظات ، تَتِمُّ خوارقُ ، إن شئتَ سمَّيتَها معجزاتٍ ، وإن شئت فقل ثَوْرات ، فليست تَسميتُها بذات بال . وهي على أيةِ حال خروجٌ على العُرْف ، وانحرافٌ عنِ الطريق المرسوم ، فيه تنقلِب أوضاع ، وفيه تذهَب دَولة وتقوم أخرى .

فَمِنْ هذه الخوارقِ ما يَترُك أثرًا عميقًا لا يَعْفوه (٣) كَرُّ السنين ، ومنها ما يمر عَبْرًا ثم يمحوه ذَيل العَفاء (٤) .

ومهما يكن من أمرٍ ، فإن هذا الكونَ المُثْقَلَ بأعباءِ الأقدار وأحماله ، يغتنِمُ تلكَ الغَفَوات الخاطِفة ، يتخفَّفُ فيها ممَّا يُثقِله ، وينطلِق ليتنفَّسَ خارجَ القيود والحدود .

وإنِّي لَزعيم بأنَّ العبقريَّةَ لم تكن إلا وليدةَ هذه

(١) سائرًا .

(٢) راحة .

(٣) يمحوه ، يزيله .

(٤) الزوال والهلاك .

الغفوات الَّتي تغفوها الأقدار ، فَتنبثقُ العبقرية كالقَذيفَة العنيفة ، تَروع بانفجارها ، وتَبهَر بسُطوع ضَوئها ، وتصُكُّ السَّمْع بدويِّها . وإنَّها بذلك لَتشقُّ جَديداً منَ الطَّريق لم يكن لِلكون به عهدٌ من قبلُ .

وحين ينتبهُ القدرُ من غفوته يجد نفسَه – كما يقولون – إزاءَ أمْرٍ واقع فيُسكِتُ غضبَه ، ويكْظِمُ غيظه ، ويرفع سوطَه ثانية يُلهِب به ظهر القطيع ، فيسير في ذلك الطريق الجديد الَّذي شقَّتْه العبقريَّةُ على الرَّغم من إرادة القدر المُسيطِر .

ومن حُسنِ الحظ – أو من سوئه – أن العبقريّات لا تستطيعُ الظهور في كل غَفوة من غفوات القدَر ، فلو أنَّها ظَهَرتْ كلَّما غَفا ؛ لَما استراح الكونُ من عَناء الضَّرب في آفاق جديدة مديدة ، تتوالى في غير مَهَل . والكونُ ، على تطلُّعه إلى التخلُّص من أثقال القدر ورقابته ، يُؤْثِرُ الدَّعَة والرّاحة أحيانًا في ظِلِّ العبودية والانقياد .

فأمّا ما يقَع كثيراً في غفوات القدر ، فهو الأحداثُ الهيِّنة الَّتي لا تسلَم من شذوذ وانحراف ، ولكنَّ أثرَها لا يعدو نِطاقَها الضيق ، ومَجالها المحدود .

وربما كان شأنُ الخادمة « فكرية » مَثَلاً لهذه الأحداث الهيِّنة ، التي تَنْجُمُ حينَ يغفو القدر . فإن الحادث الَّذي مرَّ بها ، وإن عَدَّه الناسُ من التَّوافِهِ الَّتي لا خَطَر لها في مجرى الحياة ، تَعُدُّه « فكرية » نفسُها أخطَر حادث يَشغل الفكر والبال ، فهو عندها أمر جسيم ، وحَدَثٌ عظيم ، حتّى أصبح لِزامًا علينا أن نُذيعَه على المَلأ ، لِيُفْتوا في أمره بما يشاءون .

أول ما تجب الإشارة إليه ، أن « فكرية » نشأتْ في كَنَف القدر يرقُبُها ويحميها ، ويرسمُ لها الخُطَط ، تأمينًا لمستقبلِها على نحو ما يريد .

هي فتاة يتيمة لم ترَ لها أما ولا أبًا ، ولا تعرف لها أحدًا من ذوي القربى .

أ يَجْمُلُ بالقَدَر أن يترُك فتاةً في مثل حالها ، تتقاذَفُها أسباب التشريد ؟

إنه لأكْرَمُ مِن أن يَرضى لها هذا المصير !

وكان أنِ اختار لها مهنَةَ الخِدمة ، فقد أدرك القدرُ – بثاقب فِطنته – أنَّ هذه المهنة ملائمةٌ للفتاة ، مناسبةٌ لما أُوتِيَتْ من مواهب .

قضى القدر بهذا الحكم ، فأصبحتْ « فكرية » خادِمة مؤبَّدة في بيوت خَلْق الله . تنقَّلَتْ من أسرة إلى أسرة ، ولكنَّها ظلَّتْ كما هي ، تمارِس أرذل الأعمال وأكثرها إمعانًا في المشقَّة .

وقد استقرَّ بها المُقامُ اليومَ في أسرة يقول عائلها إنه رئيس إحدى المصالحِ ، وهو يحيا مع زوجه وأطفاله الثلاثة وأمه ، في الطبقة (١) الثالثة من دار حديثة البِناء في أحد الأحياء المتواضِعة .

وإذا استطعتَ أن تتَمثَّل هذه الطبقة ، بأثاثِها ومتاعِها وأهلها ، موضوعةً جميعُها في صينِيَّة ، فتَمثَّلْ أن هذه الصِّينيةَ محمولةٌ على رأس الخادمة « فكرية » ، تروح بها وتغدو في الحياة ، مهما تكاثرتْ فيها الصِّحاف ، وثَقُلَتْ بها الوَطْأة .

ولقد ظلَّت « فكرية » تحمِل هذه الصينية الضخمة، حتى قَرَّ في ذِهنها أنَّها ستحمِلُها أبدَ الدَّهر.

ما أشْبَهَ « فكرية » بذلك الثورِ الَّذي يحمِل الدنيا بما حَوَتْ من رَزايا (٢) وأحداثٍ وشجون ، وإن « فكرية » لَتَجِدُ في هذا بعضَ العزاء ، إذ تعلَم أن الأقدارَ قد جعلَتها هي وذلك الثورَ الصبورَ الكريم في منزلة سواءٍ .

لم تعدْ « فكرية » تستنكِر شيئًا ممّا تُسامُهُ من خَسْفٍ (٣) ، وما تتعرَّض له من أذًى ؛ ولذلك لم تعد تُدير في ذهنها أنَّ لها في الحياة مذهبًا غيرَ هذا المذهب،

---
(١) الطّابَق . (٢) رزايا: جمع رزيئة ، و رزيَّة ، وهي المصيبة .
(٣) سامَهُ مِن خَسْفٍ : أولاهُ الظُّلم وأراده عليه .

فقد دار بها دولاب العيش تلكَ الدَّورة الراتبة ، الَّتي لا بَدْءَ لها ولا ختام ، كالحَلْقَة المُفْرَغَة ليس لها طَرَف ، فانسدَل على عينيها غشاوة ، وران (١) على نفسها صَدَأ ، ولم يبقَ في مَجال تفكيرها منفَذ ، فانطبعَتْ على مُحيّاها سيماءُ البلاهة والتبلُّد والجمود .

تراها في غالب أمرِها فاغرةَ الفم تحدِّق فيما أمامها بعين تائهة النظر ، فإذا ما أدركَها بعضُ الانتباه ، وحاولَتْ أن تَشْحَذَ ذاكرتَها لاسترجاع ما كانَتْ تفكِّر فيه ، لم تبلُغ ممّا تريد مَنالاً . وأنّى لها أن تقتنِص شيئاً من غير شيء ؟

سلخَتْ « فكرية » من عمرها عَقْدَيْن منَ السِّنين ، لم تتبدَّلْ بها الحال إلا قليلاً ، فهي دائماً فتاة قميئة (٢) ، زادَها الامْتِهانُ ضُموراً وقَماءة ، وطَمَسَ ما عساه يكون فيها من مخايِلِ الوَسامة .

ولك أن تقولَ إن « فكريَّة » كانت تعمَل في ذلك البيت صباحَ مساءَ ، فقد كانت كَرَقّاص الساعة في جيئة وذَهوب ، تَفْرُغُ من أعمالِ البيت في غُيوب الشمس ، فتستقبلُها في آناءِ اللَّيل شواغلُ الأطفال .

وكان بالدّار مُسْتَشْرَفٌ أنيق طَلْق النسيم ، تتوخّاه الأسرَة لتتجمَّع فيه ، مشتركةً في حديث ومُسامرة . وإنَّ « فكرية » لَتَغْبِطُ الأُسرة على ما تَلْقى من نعيم في هذا المُسْتَشْرَف الرَّخِيِّ ، ولا مأرَبَ لها في الحياة فوقَ أن تَنْعَمَ بقِسط منَ الرّاحة والنَّوم في ذلك المكان المرموق ، تُلاطِفها النَّسَماتُ الرقاق ، وتُراسِلها النجومُ باللَّمَحات اللِّطاف ، ويَلُفُّها اللَّيل بغِلالَته الساجية .

ولكنَّ ذلك المُسْتَشْرَفَ العزيز ظلَّ وَقْفًا على السّادة ، لا تقرَبُه خادمة لها مكانُها المعلوم .

على أن هذه الحقيقة لم تكن لتمنعَها أن تحلُمَ بالتنعُّم في ذلك الفِردَوس ، بقَدر ما في صدرها من مجالٍ للمُنى والأحلام .

بقيتْ « فكريةُ » على حالها تلك ، تدور في هذا المدار ، حتّى كانت أمْسيَّة من إحدى الأماسِيِّ ، في عهد الحرب الماضية .

في لحظة من هذه الأمْسيَّةِ ، أحسَّ القَدَرُ إرهاقًا وعَناءً ، مما يمارِس من جهود الرِّقابة والعِناية بتلك الفتـاة ، فإذا بجفنَيه يتثاقَلانِ ، وإذا هو تأخذه سِنَةٌ من نوم .

إنها غفوة سانحة ، وإن عُدَّتْ في الحساب أيّامًا وأسابيع . أينَ تقعُ تلك المدة في حساب الأقدار ، وإن طالت في حساب الزمن ؟

انطلقَت صَفّارة الإنذار تَعْوي ، فشمِلَ الناسَ ذُعر ، واضطربت الدار بما فيها من طبقات ثلاث ، وتوالى الهَرْجُ والمَرْج ، وعلا الصِّياح والعويل ، وانحدر الأهلون يزحَمون السُّلَّم ، ويُهْرَعونَ إلى المخبأ .

وكانت « فكرية » من فَرْط التعب والإجهاد قد مَلَكَها نومٌ ثقيل ، فلم تنفتح عيناها إلا بعد أن خَلا المسكن ، فنهضَتْ تستوضِح الأمر ، وأخذت تسائلُ نفسَها : « ما سرُّ ذلك الاضطراب ؟ »

وفَطِنَتْ إلى أن ثَمَّةَ غارةً ، وأنَّ أهلَ الدّار قد أخلَوْها ، فاندفَعت في غير وَعي إلى الباب ، تطلُب حِمايةَ المخبأ مع الناس ، ولكنَّها لمحتِ المُسْتَشْرَفَ ينبسط فيه ضوء القَمر ، ويرفرِف النَّسيم . وفي ذلك الوقت ، كانتِ الجَلَبَة قد انقطَعت ، وعَمَّ المكانَ هدوء وسكونٌ .

إن « فكرية » لَتُرْجِعُ البَصَرَ فيما حولها ، فلا ترى في البيت سيِّدًا سِواها ، وأن المُسْتَشْرَف بوسائده الوثيرة لكأنَّما يدعوها إلى التنعُّم والاستمتاع .

وظلَّتِ الفتاة هُنَيْهَةً تتقاتل نزعاتُها : أ تغادِر الطبقةَ أم تَبْقى ؟

وما لبِث الهدوء الشامل أن سَرى إلى نفسها ، فاستشعرت بعضَ الطُّمأنينة والسَّكينة .

إنها لتتمثَّلُ موقفَها ، في المخبأ معَ الأطفال ، تحمِل

---

(١) غلَب وغطّى . (٢) ذليلة .

هذا وتحنو على ذلك ، وتُعاني أشتات المتاعب من هنا وهنالك .

وشعَرت بقلبِها يتفتّح ، وبقدمَيها تخطُوانِ إلى المُسْتَشْرَف ، وإذا هي تتهاوى على الوسائدِ ، وتتقلّب يَمْنةً ويَسْرة .

إن جسدَها لم يعرِف قبلَ اليوم إلا صلابةَ الأرض وخشونةَ الوِساد .

ما أطيبَ المستشرفَ من مَضْجَع ! وما أنعَمَ وسائدَه من فِراش !

وطفِقَتْ تستنشي نَسَمات العَشيِّ ، وتتمطّى في تلذُّذٍ واستمتاع .

وتواردَتِ اللّحظات ، وهي على هذه الحال ، تَشْعُرُ بأنها تَسْبَح في عالمٍ آخر ، مِلؤُهُ البهجة والإيناسُ.

وبغتةً قرعت سمعَها قعقعةٌ مُدَوِّيَة ، اهتزَّتْ لها جوانب الدّار ؛ فألفَتْ « فكرية » نفسَها تَهُبُّ واقفة ، وتُزمع أن تأخُذَ طريقها إلى الباب ، ولكنَّ القذائف ترادفَتْ كأنَّها حُمَمُ البركان ، فإذا بأوصالها ومفاصلِها يُدرِكها تَخلُّع واصطكاك ، وما هي إلا أن تهاوَتْ فاقدةَ الرشد .

وبعد وقتٍ لا تدري مَداه ، ذهب عن فكرية الإغماء ، فاشرأبَّتْ متطلِّعةً حولَها ، فوجدتْ نفسها في مكانها منَ المستشرف ، وقد توهَّجَتِ الشمس ، ومتَعَ النهار (١) .

كلُّ شيء كما كان ، أو يكاد .

ولكن ما بالُ هذا الترابُ المَهيل ، وتلك الحجارة المتناثِرة ؟

ثَمَّةَ شيءٌ قد حدث ، فأيُّ شيء هو ؟

مهما يكنْ من أمر فإنَّ فكرية لم يُصِبْها أذًى ، إلا ما ينتظِمُ جسدَها من فُتور ، وما يَرين على عينيها من خَدَر .

و وثَبَتْ في خاطرها على الفور أشباحُ سادتها من أهل البيت ، فعاجلَتْها رَجْفة .

عليها أن تُهْرَع إلى مكانهم ، تقوم بواجبها نحوَهم ، وإلا تعرَّضت للنَّكال ، وذاقَتْ على أيديهم عذابَ العقاب .

وانطلَقَتْ تريدُ الباب ، وكان مُقفلاً ، فَدفَعتْه بجُمْع يدِها ، وهمَّت أن تخطُوَ ، فَراعها أن ترى هُوَّة سحيقة لم تكد تُدْلي إليها أنظارَها حتّى أخذَ برأسِها دُوار ، فأمسكَت بالجِدار زائغةَ البَصر ، وأنفاسُها تتلاحق ، ثم ارتدَّتْ وقد حَوَّمت في خاطرها أفكارٌ وصُوَر .

وفَطِنَتْ بعد تفكير ورَوِيَّة إلى حقيقة ما جرى ؛ فدرَجَتْ في مُحاذرةٍ واحتِراس إلى سور المستشرف ، تُطِلُّ على الطريق ، فتفزَّعتْ ممَّا رأتْ حولَها من خَرِبات فِساح ، تتراكم فيها الأنقاض والطُّلول (٢) . وأخذت تُنعم النظرَ هنا وهنالك ، وكأنَّما قد أصابها مَسٌّ .

وَيْلَها ! لم تُبْقِ الغارة من أبنية الحيِّ إلا جداراً عاليًا، يحمِل المستشرفَ الّذي كان مَخْدَعَها أثناءَ اللّيل ، مَثَلُه كَمَثَلِ مَنارةٍ قائمةٍ وَحْدَها في مُلْتَطَم المَوْج .

وازدادَ تلفُّت الفَتاة في جزَع واضطِراب ، ونَدَّتْ من حَلْقها صَيْحات استغاثة مكروبة ، فاستجاب لها مِنَ الطريق بعضُ أصوات .

وبعدَ قليل رأتِ النَّاسَ يتجمهرون على مسافَة من أسفل الجِدار ، وهم يُشرِعونَ أبصارَهم في خَشيةٍ إلى تلك الأعجوبة – تلك الفتاةِ المُعلَّقة بين السماء والأرض !

وأخذَت حَلْقة الناسِ تتكاثَف ، وظَهر بعدَ لأيٍ

(١) بلغ غاية ارتفاعه ، وهو قبل الزوال .

(٢) الطُّلول والأطلال : جمع الطَّلل وهو ما بقيَ شاخصاً من آثار الدِّيار.

ذلك الشرطيٌّ العتيد ، يلقي الأوامرَ والنَّواهيَ ، في مشية مُخْتالة وصوْت جَهْوَريٍّ .

ومضت لحظاتٌ قلائلُ في انتظارِ الإنقاذ ، فبَدا أعوانُ المطافئ فارِعي القامات ، حِدادَ النَّظرات ، تلتمع على رءوسهم الخُوذات الصُّفْر ، ومن حولهم رجالُ الإسعاف في مشيتهم الوَديعة ، ونظراتهمُ الساكنة ، تزهو على رءوسهمُ القُبَّعات الحُمْر .

وسرْعانَ ما نَجَمَ وَسْط الجمع رجلٌ كأنما انشقَّ عنه أديمُ الأرض ، قد انتفخَت جيوبُه بالأوراق ، وامتدَّت يَدُه بآلةِ تصوير ، وهو يتواثب هنا وهنالِك، ويقول :

« افْسَحُوا للصَّحفيِّ طريقًا ! »

ولبِثَتِ الفتاةُ تواصِل استغاثتها ، وكلَّما تَجَمَّعَ الناسُ ازدادَت من حَماسةٍ واهتياج .

وانعقَد تحتَ المُستشرَف مؤتمر ، تَداولَ فيه الناسُ الحديثَ في شأن الإنقاذ : على أيِّ نحو يكون ؟

الجِدارُ متصدِّع يريد أن ينقَضّ ، ولا بدَّ من تدارُكِ الخَطر قبل وقوعه ، وفي كلِّ لحظة تمرُّ مقامرةٌ بحياة الفتاة .

وما هي إلا أن بُسِطَتْ مُلاءةٌ ، أخَذ بحواشيها رجالُ المطافئ والإسعاف ، وصاحوا بالفتاة أن تُلْقِيَ بنفسِها ، وإلا تعرَّضَتْ لِهُلْك وشيك .

و وَقفت الفتاة تقدِّمُ رِجْلاً وتؤخِّر أخرى ، وهي في معركة من النَّزَعات والمَخاوفِ ، وخُيِّلَ إليها أن المستشرَف يهتزُّ اهتزازَ التَّداعي ، فاشتعلَتْ فيها العزيمةُ فجأة ، وألقت بجسمها في الفضاء ، على حينَ وقفَ الصحفيُّ بمصوِّرَتِه ، يلتقِط الصورة الفريدَة لإنسان يُلْقي بنفسِه إلى الموتِ ، فِراراً من الموت !

وسَقَطت الفتاةُ على المُلاءة تشملُها غيبوبَة ، وما إن لامسَتْ قدمُها الأرض ، فاستعادَت وعيَها ؛ حتَّى جعلَت تقلِّب في الجمعِ نظراتٍ ذاهلة ، وما عتَّمَتْ أن استبدَّ بها ضحِك موصول .

وتحلَّقَ حولها الناس يسائلونها ، ورجال الإسعاف يتفقَّدونها ، وتطاولت إليها الأعناق تَتَملَّى هذه الأعجوبة ، فلا تخطو خطوة حتى يزدحمَ طريقُها بالخَلْق .

وشعَرت « فكرية » بأنها مُلْتَقى الأنظار ، وقِبْلَةُ الاهتمام ؛ ما تلفظُ من قول إلا التقطَتْه الناس بآذانٍ عَطْشى ، وما تومِئ و تشير إلا ثارت الدهشةَ والإعجاب. وزُهِيَتْ نفسُها بتلك الآلة المصوِّرة الَّتي تُحْصي عليها حركاتها أنَّى سارت .

وبرزتْ لها منَ الصفوف امرأةٌ حَيْزَبون (١) بادية الشيب ، ترتدي السَّواد ، في مظهر من وقار مصنوع ، وإنك لَتستطيع أن تقرأ في أسارير وجهها المعروق حياةَ المغامَرة والجرأة ، ولا يعوزُك مِصْداقُ ذلك فيما تسمَعه من صوتها العريض الَّذي يمتلك الآذان .

اقتربتِ المرأةُ منَ الفتاة تُبَسْمِل وتُحَمْدِل ، وتمضي في تعويذات وأدعية ، وتُضْفي على شباب فكرية و وسامتها حُلَّةً من الإطراء والإغراء ، فاهتزَّت الفتاة لهذا الحديث ؛ إذ كان أولَ ما يطرُقُ سمعَها في مراحل حياتها من تمدُّحٍ وثناء .

والتفتت طَلْقَةَ المُحَيَّا إلى المرأة ، فاستأنفت المرأة تُثني وتمدح ، ثم جاذبَتْها حَديثًا لم يَطُلْ ، ولكنَّها عرفتْ من شأن الفتاة ما فيه غَناء .

يتيمةٌ لا عائلَ لها ، فأمَّا الأسرة الَّتي كانت الفتاة خادِمةً عندها ، فلا ريب أن الغارة قضت عليها .

كانت تلك المرأة الحَيْزَبون فَطِنَةً نفَّاذة البَصر ، من نظرة واحدة ألقَتها على الفتاة استبانَتْ لها سَرائرُ نفسها ، فعرفت أنها غُنْمٌ جدير بالاهتمام .

وما أسرعَ أن عَرَضت المرأة بيتَها على الفتاة تنزِل فيه ضيفًا مكرَّمًا ، ريثما يستقرُّ بها الحال ، فلم تجدِ الفتاة مَحيصاً من القَبول .

---

(١) عجوز .

أصبحت المرأة لهذه الفتاة هاديًا ورائدًا ، بل لقد أصبحَتْ لسانَها الناطق . فإذا ما أقبلَ امرؤ يستوضح شأن الفتاة وما جرى لها من مغامرة ، تَصَدَّت له المرأة تجيب ، حتّى إنها لَتصف تلك السقطة الرائعة ، كأنما هي صاحبتُها .

ورافقتِ الفتاة تلك المرأة إلى بيتها ، فلقيَتْ منها غايةَ الحفاوة والإعزاز ، وقضت يومَها هانئة رافِهة العيش ، ترفُل في ثوب قشيب أنيق .

وفي الغد خرجَتِ الصحفُ إلى الناس تحمل أنباء الغارة الشعواء ، وما كان لها من أثر وبيل . ولكنَّ قصة الفتاة وأعجوبةَ الجدار المعلَّق كانت واسطةَ العِقْد في هذه الأنباء ، فَعَجِلَت المرأة بهذه الصُّحف إلى الفتاة ، تُريها صورها وتُلْقي على سمعِها ما كُتِبَ في شأنها ؛ فامتلأتِ الفتاة من عُجْب وازدهاء . وسرعان ما توردتْ وجنتاها ، والتمعتْ عيناها ، وبدتْ مبسوطة القامة ، ناهِدةَ الصدر ، فأكسبها ذلك بهاءً ورُواء زانَه ثوبُها القشيب الأنيق .

وتوافَدت على الدّار أفواجُ المتطلّعين يستزيدون من أنباء الفتاة ، ويرغَبون في إمتاع أنظارهم بهذه المعجزة الحيَّة ، بطلةِ الغارة ، تلك الّتي انفردت بالنّجاة على نحو طريف ، في حين أن العشراتِ من جيرانها قد أصبحوا حُطامًا تحت الرَّغام (١) .

وما كانت المرأة تَضَنُّ على الرُّوّاد بما يشفي غليل الفضول ، فكانت تَحْتفي بِمَقْدَمِهم ، وتجلِس هي وضيفتُها إليهم ، وتتولّى بنفسها رواية القصة ، وتُطرِّزها بالتزيُّد المُطَّرَد ، حتّى غدت حقيقةُ الواقعة فرعًا ، وغدا الخيالُ المَزيدُ أصلاً .

وبينما المرأة تروي القصَّة ، تَظَلُّ الفتاة مصغيةً يَقْظى ، حتى انتهى بها الأمر إلى اعتقادِ ما تصوغ المرأة من فضول ، فما كان عقلُها بِقادرٍ على أن يميّز بين ما جرى وما يُرْوى .

تواصَلَ اهتمامُ الناس بتلك الطُّرفَة الإنسانية ، فتواردوا زَرافات على الدّار في اليوم بعد اليوم .

وما لهم يزهَدون في تلك الطرفة الرائعة ، وهم ما يكادون يلمحون في الطريق حَدَثًا منَ الأحداث ، من نحو صِدام سيارة أو تَرام ، أو مشاجرة عابرة ، أو شأن غير مألوف ، إلا نَسُوا أنفسَهم ، وعَدَلوا عن طريقهم ، فتجمَّعوا يشبعون نَهَمَهم برؤية صريعٍ يُحتَضَر ، أو جريح يئِنُّ ، أو ممسوس يَهْذي .

وأيُّ تثريب عليهم في أن يفعلوا ذلك ، وهم في عَجَلَة الحياة الرّاتبة مسوقون ، يدركهم سأم التَّكْرار ، ومَلالةُ المألوف ، فتشتدُّ حاجتُهم إلى ما يُلهب العاطفة، ويثير اليقظةَ ، من منظَرٍ جديد ، ومشهد طريف ؟

وتتنقَّل في الدّار أكوابُ المُرطِّبات ، والفتاةُ بين الجَمْع كأنها عروسٌ يومَ الزِّفاف ، تختلِط بين جوانحها مشاعر الابتهاج والاهتياج .

عَروس ...

الحق أن كل شيء كان يُمهِّد لذلك الحادث السعيد .

كان حديثُ العُرْس يعتلج بين الصُّدور ، وتتناجى به النفوس ، وإن لم تَنْبِسْ به الشِّفاه .

أ خليقةٌ هذه الفتاة حقا بأن تكون عروسًا مُكرَّمة ، تتهافَت عليها القلوب ، وهي الّتي كانت إلى الأمسِ القريب في منزلة الهَوانِ ، لا يَعْبأ بها أحد ؟

لقد توارتْ خادمة الأمسِ فيمن توارى من صَرْعى الغارة ، وما تلك الّتي تتجلّى اليوم على الملأ إلا بطلة تَبهر العيون .

إن الرجل ليأخذُه اللألاء ، وإن كان زائفًا موقوتًا، وهو بحُكم عُنْجُهيّته وأنانيَّته يأبى أن تظهرَ عليه المرأة وتُنافسه في مجالات التبريز ، فلا يكاد يلمحُ امرأة توشِك أن تشرقَ في مَطْلَع من مَطالع المجد ، حتّى تراه قد

---

(١) التُّراب .

أسرَع إليها يَضرب عليها رُواقه ، ويمدُّ لها ظله ، أو هو يوهِم نفسَه بأنّه يهَبُها الحماية والصون .

ومنَ الرِّجال كثيرٌ طلبَ المجدَ فباء بالإخفاق ، فتراه يلتمِس العِوَضَ من كل باب ، فإن بَدَتْ له امرأةٌ ذاتُ صيت أو منصِب ، آثَرَ أن يكون لها زوجًا ، حتّى تُضْفِيَ عليه من صيتها أو منصِبها مجدًا طالما كان فِردوسَ أحلامه المنشود .

كذلك نجمتْ فكرةُ الزّواج – زواج « فكرية » ، الّتي أصبح يلمَع اسمُها في محافل الناس وأندية السمّار .

وكان السابقَ إلى الجهر بالفكرة رجلٌ جَسور من ذَوي المغامرات ، لم يبقَ من شهرته إلا شاربٌ مفتول ، وكَتِفٌ مَلأَى ، ومن وراء ذلك ثروةٌ طيبة . فأفضى بفكرته إلى المرأة الحَيْزَبون ، فأودعتْ قلبه أملاً كبيرًا ، و وعدته عونًا كريمًا ، فأغدق على الدّار هَداياه وعَطاياه ، وانصرفَ مشكوراً يَرتقِب اليومَ الموعود .

وما إن بارحَ الدّار حتّى تعاقَب عليها ألوان من الخُطّاب ؛ هذا جزّار من أثرياء الحرب ، يمتاز بأصابعَ ضِخام رُصِّعت بالخواتيم البراقة ، و بُلْغَة أصيلة تلتمع صُفرتها الفاقعة ، وقد هَفَتْ نفسه إلى أن يُضيف إلى متاعه تلك البطلةَ ، استكمالاً لما عنده من ضروب التُّحَف والطُّرَف .

وما إن فاتحَ المرأةَ الحَيْزبون حتّى أودعت قلبَه كبيراً من الأمل ، و وعدته كريمًا من العون ، فأفرغَ ما في جيبه في يدها ، وانصرف مشكوراً يرتقب اليومَ الموعود.

وطَفِقَ الخُطّابُ يَطرُقون الدّار بهداياهم وألطافهم ، ويَصْدُرون عنها ، مِلْءُ حقائبهم وُعودٌ وأمانيّ ، على حين تسترسِل الفتاة في تَدَلُّلها ومغالاتها ، وتطمئن المرأةُ الحيزبون بما يُفاضُ عليها من خير كثير ، ورزق كريم .

وكانت المَجلات قد آنستْ في شأن هذه الفتاة مادةً شائقة للحديث ، فتفنّنت في تفصيل الموضوع ومُجاذبة أطرافه ، وعُنِيَتْ بتزيين صفحاتِها بأنواع من صور الفتاة على اختلاف الأوضاع ، فازداد الخُطّاب إقبالاً ، وزَخَرَتْ بهمُ الدّار ليلَ نهارَ ؛ كأنّها قاعة للمُزايَدات يشتدُّ فيها التّنافس ، فارتفعَ سعرُ الفَتاة بهذه المُضارَبة ، حتّى جاوز المُنى والخيال . وبات الأمرُ معركةً بين متنافسينَ تأخذهم حَمِيَّةُ المغالبة ، وتأسِرُهم نشوةُ التملُّك ، ويحدوهم نداء الظّفَر ، فهم متقاتِلون متفانون ، لا إغلاءً بالسلعة المعروضة ، ولكن إحرازًا لقَصَبِ السَّبْق ، وإمتاعًا للنّفْس بلَذّة التّغلُّب .

وأوشكت الفتاة أن ينتهيَ بها الأمر إلى رجل منَ الأثرياء ، الّذين أقعدهم طولُ العمر ، وكان لا يكاد يدري شيئًا من شأن هذه الفتاة . وقُصارى أمره أن مَثَله كمثل امرئٍ في بعض طريقه ، صادفَتْه جموعٌ متدفّقة ، فَصبَأَ (١) إليها قليلاً يتبيّن ، فما هو إلا أن غمرَتْهُ الجموعُ ، وتشابكَت وراءه الصُّفوف ، فلم يجِد إلى الطريق مَخْرَجًا ، ولم يلبث أن سايرَ الجَمْعَ فيما هم مقبِلون عليه .

أوشكت الفتاة أن تكونَ لهذا الرجل زوجًا ، لولا أن وقع ما ليس في حسْبانِ أحد .

هنا اختلجَت أجفان الأقدار ، فكان ذلك إيذانًا بانقضاءِ الغفوة ، واستئناف الصَّحْوَة .

وما إن انطلقت من عين الأقدار أولُ شُعاعة ، حتّى نفَذَتْ تتفقّد رَبيبَتها الفتاةِ ، خَشيةَ أن يكون قد أصابها مكروه .

وفي ذلك الوقت ، توالت الغاراتُ عنيفةً أشدَّ العنف ، تحمل إلى النفوس ألوانَ الفزع ، فنفَر كثيرٌ من الناس عنِ العاصِمة يلتمِسون المأمَنَ البعيدَ ، وكان في طَليعة النافرين وَجيهُنا الثريُّ الّذي كاد ينتهي إليه أمر الفتاة .

---

(١) برز ، انتقل .

وشغل الأهلون ، كلٌّ بشأنه ، وانصرفَت الصُّحف إلى ذلك الجديد المتواتِر من أنباءِ الغارات وأفاعيلها في النّاس ، فأسبل النسيانُ سُجوفَه (١) على « فكرية » وبطولتها ، الّتي طوت صفحتَها مُحْدَثاتُ الأيام .

لكلِّ ساعة في الحياة بطولتُها ، ولكلِّ طالِعةٍ أفول ، ولكلِّ خافِقة سُكون !

في لحظاتٍ تغيَّر مصيرُ تلك التُّحفة الّتي علا قدرها وغلا مهرُها في سوق المزايدة ، فأصبحت اليومَ بضاعة مُزْجاة (٢) .

و وجدتِ الفتاة نفسَها تدفَعها إلى الشارع يَدُ المرأة الحيزبون ، فتداولتْها الطُّرقُ ، حتّى أسلَمها التِّيهُ (٣) إلى دار ذات ثلاثِ طبقات ، وهنالك في الطبقة العليا تلاقَتْ هي وسادتُها الّذين انقطَعت بهم صلتُها ، حتى حَسِبَتْهم في ذمة المَنون .

واسترجعتِ الفتاةُ مكانتَها في الأسرة ، تُنافسُ ذلك الثّور الجَليد الحَمولَ ، الّذي يَضَعُ على قرنَيْه متاعبَ الأرض .

ومضت في عملِها كسابق عهدها ، لا تشير إلى ما كان من أمرها يومَ الغارة ، ولا ما كان من بطولتها الّتي طبَّقت الأرجاء ذيوعًا وشهرة .

ونالها العَجَبُ مما ترى ...

أ كذلك تنقلِب بها الدنيا من حال إلى حال ، دون أن تستبقيَ في يدها شيئًا من نعيمٍ مَضى ؟

وشَملَها استسلامٌ ، فما كانت تَتَسَخَّط ولا تَتَشَكّى . وكلَّما خطَرت ببالها تلك المغامَرةُ الفريدة في حياتها الغابِرة ، راجَعتْ نفسَها تتساءل :

أ كان ذلك — حقا — واقعًا ، أم زيفَ أوهامٍ ، وباطلَ أحلام ؟

ولكن الفتاة لم تصِل إلى فصل الخطاب ، وصِدقِ الجواب ، ولن تصِل إليه يومًا منَ الأيام .

ولا غروَ أن تختلِط الحقيقةُ والخيال في رأس « فكرية » الساذَجة ، فليس في عَقلية الوجود الأكبر ، وفلسَفة الكَون العجيب ، ما يُميِّزُ بين الحقائق والأخيلة تمييزًا طابَعه الثّباتُ والاستقرار !

عَروس من قطن

في بواكير شبابي الغارب ، كنت أختلِفُ إلى الريف ؛ طَلَبًا للمُتعة بتلك الحياة الرَّخيَّةِ الهادئة .

وما كان أطيبَ الحياةَ الريفيةَ في تلك الأيام ! فقد ظلت تتمثل فيها الطُّمأنينة والسكينة ، ويَشيعُ في جَوِّها روح من الصفاء والسلام .

بل ما كان أطيبَ دنيا الأمس ، إذا قيسَتْ بما نُكابده في عهدنا العتيد من حَيرة وقلق ، وتوجُّس منَ الخطوب ؛ ومن حرب تذوب في حَرِّها الأنفس ، إلى حرب تَصْلى نارَها الأعصابُ .

وإنها لكثيرةٌ تلك المباهجُ الّتي أولِعْتُ بها في الرِّيف ، وكان أفتنَها عندي وأحبَّها إليَّ ، تلك الأمْسيّاتُ الوادِعة ، أقضيها في مُسْتَشْرَفِ دارنا العتيقة، وقد بُسِط عليه الحصير ، عن كَثَب منَ الحديقة.

وألِفتُ في هذه الأمْسيّات أن يجلِس إليَّ البستانيُّ الشيخ ، وأن أستمعَ إلى قصتّه الفريدة الّتي لم يكن يَلْهَج بغيرِها .

قصة تبلُغ من السَّذاجة حَدَّ الإفراط ، يحلو له دائمًا أن يردِّدها ، كما يحلو لي أن أصغِيَ إليها ، دون أن تدرِكَني مَلالةُ التَّكرار .

إنها هي هيَ مُقدِّمتُها ، جوهَرُها ، وخاتِمتُها . لا تزيدُ ولا تَنقُص ، ولا يعتري روايتَها تغييرٌ ولا تبديل .

طالما أرهفتُ سمعي له ، وتُجاهَ عيني خمائلُ من

(١) السُّجوف : جمع سَجف ، وهو السِّتر .
(٢) قليلة مردودة ، مرغوب عنها.
(٣) التحيُّر.

أشجار النارنج والليمون ، تنمو على فِطْرَتها ، لا تجد من ضروب التشذيب والتعهُّد إلا جَهدَ ما يستطيع ذلك الشيخ الفاني .

إنها خمائلُ متشابكةٌ ، يُعْييكَ أن تلتَمِس بينها مَسْلكًا ، حتّى ليُخيَّل إليك أن تتساءل :

« كيف يجد الماءُ مَساغَه بين هذه الألفاف ؟ »

ما أشبهَ حياةَ الحديقة الفِطْرِيَّة بتلك الحياة البُدائية الَّتي يحياها شيخها العتيد !

وليس عجيبًا أن يظَلَّ ذلك الشيخ راوية أمينًا لقصّته المعادة ، فهي جزء متمِّمٌ له ولحديقته . من هذه العناصرِ الثلاثة ، تتألَّف حياةُ هذا المكان ، ويتكامَلُ انسجامُه — ذلك الانسجامُ الموسيقيُّ الَّذي إن فَقَدَ جزءًا من إيقاعه، بطَلَ سحرُه ، وبدا نشوزه .

وما أنسَ لا أنسَ مجلسَ ذلك البستانيِّ متربعًا قُبالَتي ، وبين يديه عُلبة التَّبغ ، تعبَث أصابعه بين الفَين والفينة بما فيها ، فإذا به قد فرغ من إعداد لِفافة ينفُث دُخانَها في مَهَل ، وهو يرقُبُ سحائبه يهفو بها الهواء .

كان لا يفتأ يقول :

إن ما تسمعُه منّي ، يا سيدي ، ليس بقصّة ، كتلك الحكايات الَّتي يتشدَّق بها الناس .

إنها قطعَة منَ الحياة .

حياة فتاة ، أو حياة عروس ... سَمِّها كما شئتَ ، ولكنّها على اختلاف الأسماء فتاةٌ عاشَت عُمْرَها عذراء .

لم تكن من أهل هذه القرية ، وإنما هي من صُقْع بعيد (١) ، يقطع الذّاهب إليه طِوالَ الساعات على متن المَطيَّة الدَّعوب .

الناسُ أجمعون يقولون إن مَسقط رأسها «كَفر السمان » . فيه درجتْ ، وعلى ثراه قَضَتْ ؛ فهو وحدَه دنياها جميعًا في ذلك الكَون الرَّحيب .

وعلى الرَّغم من ضآلة وتَفاهة شأنه ، كان مَيدانًا فسيحًا يهبُها كل ما يُسعِدُها من أمانيَّ ورِغاب .

وما كان يغيب عنها من أرجاء هذا الكَفر شيء :

طريقاه الضيّقان ، تجوبُهما ، في غُدُوٍّ ورَواح .

دُورُه المُتطامِنة (٢) ، تَتَسنَّمُها كُوماتُ الهشيم .

المرأة العجوز مُحْتَبِيَة تتهالَك على قُفّتها المهلهلة ، فيها نِثارٌ من حَلْوى تبيعُها بالثَّمن الزَّهيد .

أمّا ما وراء ذلك المحيط ، فلم يكن للفتاة به عِلْم ، إلا ما تَلْقُطُه من أفواه الكِبار ، وهم يخوضون في الحديث .

كانت « رَيْحانة » وحيدةَ أبويها ، فهي الذُّخْر الَّذي بقي لِهذين الأبوين من ذُرية ذهَبت بها الأقدار. فلا غَرْوَ أن تُحاط منهما برِعاية وإعزاز ، وأن يكفُلا لها حياةَ دَعَة ورَخاء .

ما رأى « ريحانةَ » أحدٌ إلا ظَلَّ ذاكرًا لها .

كانت ضامرة ، خفيفة الوزن ، تكاد الرِّيحُ إنِ اشتدتْ أن تحمِلَها على جَناحيها ، كما تحمِل أوراقَ الغُصون .

وما أوفتْ على العاشرة حتّى حجبَها أبواها في الدار، فلم تعُد تَريمُ (٣) عتبتَها .

وفي الخامسةَ عَشْرَةَ من عمرها ، جرى في شأنها حديثُ الزَّواج .

هكذا بلغَت الفتاةُ تلكَ السِّنَّ الَّتي تستقبل فيها حياةَ الزوجيَّة والأمومة ، ولكنّها على الرَّغم من ذلك لبِثَتْ طفلة بكل ما للطفولة من خصائصَ : لهجتُها في الحديث ، إشراقَة وجهها بتلك البراءة والسَّذاجة ، خفَّة حركتها كأنها الظَّبي الغَريرُ .

لقد احتفظَتْ في هذه السِّنِّ بطفولَتها الحُلْوة ،

(١) صقع بعيد : ناحية بعيدة .

(٢) المتخفضة . (٣) تبرح .

حتّى إنها لم تفرّط في عَروسها القطنيّة ، الّتي خاطَتها أمُّها في يوم عيد ؛ فأصبحت هذه العروسُ أليفًا لها ، تتصافَيانِ وتتناجَيانِ ، وتقنَعانِ بُدنياهما ، معتكفتينِ عن زحمة الناس .

ومَن كان يرى « ريحانة » وعروس القطن ، لا يلبَث أن يلمَحَ بينهما من المَشابه ما يثير العَجَب . وكانت « ريحانة » نفسُها تفطَن لذلك ، فتفرَح به وتزدادُ شغفًا بصديقتها الوفية ، وإعزازًا لها ، تُهدهِدُها، وتتوسَّمُها ، ثم تنثني إلى قطعة من مرآة ، فتوازِن بين قَسِمات العَروسِ القطنية وقَسِماتها ، ثم تُغرِق في ضَحِك ذي نبرات رائقة ، يسري فيها المَرَح البريء .

يا عَجَبًا لهذه المَشابه !

ذَلك أنفُ العروس القُطنية الّذي يماثِل النَّبقة اليانعة ، ليس إلا صورةً من أنفِ « رَيْحانة » .

وهاتان العينانِ النَّجلاوانِ الكحيلتان ، هُما هما عيناها .

وهذان الحاجبان الغزيران ، أيُّ فرقٍ بينَهما وبين حاجِبَيِ الفَتاة ؟

وكانت ريحانة تُؤثِر عروسَها بأعزِّ مكانٍ في الدّار، حتّى إنّها حينَ أحضَروا لها صندوق الجهاز أحلَّت عروسَها فيه قبل كل شيء ، وأنزلتها منه أكرمَ منزل .

صندوقٌ يزدهي بألوانه ورسومه ، لم يكد يُزَفُّ إلى الدّار ذاتَ يوم ، محفوفًا بأغاريدِ الفرَح والتهلُّلِ ، حتّى أيقنَت أنّها خُطِبت ، وأنّها منذُ الآنَ عروس .

قالت لها أمُّها في صوت رَءوم :

« في هذا الصندوقِ ، يا ‹‹ ريحانة ›› ، نَضَعُ مَتاع العُرْس ، فاحفَظيه ، وكوني له صائنة .»

فتلقَّتِ الفتاةُ هذه الكلماتِ في خَفَر (١) يطوي هِزَّةَ البهجَة والاستبشار ، ولكنّها لم تكُن تدري : ماذا يدعوها إلى الخَفَر ؟ بل ماذا يبعَث فيها الابتهاج ؟

وتجاذَبَتْها بغتةً مشاعرُ أنِسَت بها ، وإن لم تدرك لها كُنْهًا .

قُصارى ما اطمأنَّتْ إليه من رأيٍ أنَّ كلَّ فتاة — على أهْبَة الزَّواج — خَليقةٌ أن تفرَح ، وأن يكون لفرْحَتِها قِناعٌ من حياء ، فشأنُها شأن لِداتِها (٢) سواء بسواء .

ورأت « ريحانة » صندوق الجهاز يستقبل في اليوم بعد اليوم جديدًا منَ الثّياب والمَتاع ، فلَم يكُن بُدٌّ من أن تنتَقل عروسُها القُطنية من جانبٍ إلى جانب ، ليكونَ لها على اختِلاف الأحوال مقامٌ كَريم .

وكانت « ريحانة » تقضي طَويلاً منَ الوقت أمامَ الصُّندوق تُسَوّي مَثابةَ العروس ، فتتَخيرُ لها من متاعِ العُرس وِسادًا ، وتبسُط عليها دِثارًا (٣) ، وتكسوها من قَشيب الثِّياب .

وكيف « لِريحانة » أن تَضَنَّ على عروسها القُطنية بتِلك الحفاوة ؟

أ ليس بينهما من الوشائج ما يجعلُهما شَخصاً واحداً، لا ميزَة ولا فرق ؟

أ وَ ليست ريحانة هي العروس ؟

وإذا خلا المنزِل من أبوَيها ، وضاقَت بوحدتها ، عَجِلَتْ إلى الصُّندوق ، توقِظُ عروسها فتُناجيها بذاتِ نَفْسِها ، وتُصغي إلى مشورتها وما تقضي به من أحاديث .

وكان أبوها كلَّما أضاف إلى الصندوق طارِئًا منَ المَتاع ، ألقى على العَروس القطنية نَظْرَةً ، ثم التفتَ إلى ابنَته يرنو إليها ، ويُربِّت كتِفَها في رِقَّةٍ وحَنان .

وشَرعتِ الأمُّ تتحيَّنُ بَعْضَ الفترات ، لِتتحدَّثَ إلى « ريحانة » ، في شئونٍ تَتعلَّق بالزَّواجِ : حياتِها في غَدِها

(١) حياء .

(٢) جمع لِدَة ، بمعنى من ولد معك في وقت واحد .

(٣) الغطاء .

القريب ، وعَيشها في بيتها المَرْجُوّ . ولا تفتأ تُغْدق نصائحَها إليها أن تَرْعى زوجها ، وأن تُعْنى بخِدمَته ، وأن تكون على الدَّوام حريصةً على كَسْب رِضاه .

فأمّا « ريحانة » فإنَّها كانَت تُنصِت لهذه النصائح أجملَ إنصات ولا تَنْبِس بحَرف .

وما تكاد الأمُّ تفْرُغُ من حديثها ، وتنطلِقُ لشأنها ، حتّى تُهْرَعَ « ريحانة » إلى عروسها القُطْنية ، تحاوِرُها وتبادِلُها الرَّأي فيما غَمَضَ عليها من تلك النصائح .

وقد يبدو « لِريحانة » أن تتلفَّت يَمنةً ويَسْرة ، حتّى إذا استيقنَتْ أنَّ المكانَ خالٍ ، لا رقيبَ ولا سميع ، أسرَّتْ إلى عروسها سُؤالَها ، في صوتٍ خافِض عن الزَّوج المنتظَر .

وسَرعان ما تنطلِقُ العروس القُطنية ، مُطْنِبةً في وصف ذلك الزوج ، مُشيدةً بخلاله وشَمائله ، متغنّيةً بوسامَته ورُجولته ، و « ريحانة » مُصْغية إلى عروسها ، مُطيلة في إصْغائها ، دائبٌ قلبُها في خفوق ، سكرى بنشوةِ الحديث .

وأقبلت أمُّها عَليها يَوْمًا ، و وَجْهُها يتَطَلَّق ، وهَمَستْ في أذُن ابنتها : « سَيحضُرُ اليومَ زائرًا أباكِ.»

وفطِنت « ريحانة » من فَورها إلى الزّائر الّذي تعنيه أمُّها .

ومَن يكون غيرَه ؟ إنَّه رجلُها الأوحدُ ، هوَ الّذي بعثَه الله لها هادِيًا ، تجد في كَنَفِه الأمنَ واليُمْن . هو الذي يجدُر بها أن تهَبه قلبَها جميعًا ، تحبُّه حُبا عميقًا ، حُبا جديدًا فريدًا ، لا كالحبِّ الّذي تُضمِره لأبويها .

وكانتِ الفتاةُ يَتناهى إلى سمعِها أن زوجَها لن يَرى لها وجْهًا قبل الزّفاف ، فأمّا في هذه الفترة — فترةِ الخِطبَة ، فلا مناصَ من أن يقومَ بينه وبينَها جِدار غليظ، وحجاب كثيف .

ولكنَّ « ريحانة » على الرَّغم من ذلك كله ، ألْفَت نفسَها مسوقةً في هذا اليوم المتميِّز من أيامِ حَياتها ، إلى أن ترتديَ جديدًا من الملبس ، وتتَّخذَ شيئًا منَ الزينة والعِطْر .

وعجبتْ من نفسها : فيمَ هذه العناية التي تبذُلها، على حينٍ أنه لن يكون بينَها وبين زوجها في هذا اليوم لِقاءٌ ؟

ولبثَتْ تتعجَّلُ الوقتَ وتضيق بالانتظار ، وتُبثُّ نظراتِها من الطّاق ، تتبين دورةَ الشمس من تَقَلُّصِ الظِّلال على الحوائط والجدران .

وأخيرًا عرفتْ أن الضَّيف المُنتظَرَ قَدِمَ الدّار في رُفقة من ذوي قُرباه ، فاستحثَّت خُطاها ، هارِبةً إلى السَّطْح ، وانزوَتْ في غرفة ضَيِّقة ، لا رفيقَ لها إلا عروسها القطنية .

وظلت « ريحانة » في الغُرفة ، مهتاجةَ الأوصال ، مبهورةَ الأنفاس . وفيما هي تُعاني اضطرابها ، كانت تختلس النظرَ إلى عروسها القطنية ، فتراها تبتَسم لها في دهاء ومكر ، كأنّما تشير إليها أنها تعلَم مَبْعَثَ خَفاوتها ، وسِرَّ اضطرابها ، فكانت « ريحانة » تَضيق بها ، وتُزيغُ نظرَها عنها .

ولبثَتْ كذلك فترة ، ثم أحسَّتْ طارِئًا منْ حركة وجَلبة ، فعلِمت أن زورة الضُّيوف قد انقضَتْ ، وأنَّهم عائدونَ أدراجَهم ؛ فشعرَتْ بقدمَيْها تَدْنُوانِ من شقٍّ في حائط الغُرفة ، يشرف على الطريق ، وصافَح سَمْعها صَريرُ الباب الكبير ، وإذا عينها تَرْصُدُ الزُّوّار في مُنْصَرَفهم منَ الدار .

وخُيِّلَ إليها أن بصرَها قد أوتِيَ من الحِدَّة أضعافَ ما كان له ، فأصبح يستطيع أن يميزَ الأشْباح في وُضوحٍ وجلاء .

وما أسرعَ أن تعرَّفَتْ فتاها !

لقد ميَّزته من بين الزُّوّارجميعًا ، منذ النظرة الأولى، ومُحالٌ أن يكون نظرُها قد خدعها ، فإن كلَّ سِمَةٍ من سِمات هذا الشاب تنطِق بأنَّه الزوج لا مَحالة .

قامة باسقة ، تتجلّى فيها الفُتوة والرُّجولة ، ومشيَة مزهوَّة يستبين فيها النَّشاطُ والمرَح ، وكِساء أنيق يتلألأُ بلونه الزّاهر .

وأمّا مُحيّاهُ ، بملامحه وقَسماته ، فلم يَبِنْ لها إلا لَمْحًا .

ومهما يكن من أمرٍ ، فإنّه فتًى ، بل إنّه دُرَّة الفِتيان، وزينة الشّباب !

وأرْعَتِ (١) الجمعَ نظرَها ، حتّى أخفتهْ مَعاطِفُ الطريق .

وانحنَتْ « ريحانة » على عروسها القطنية تضمُّها في شغَفٍ واهتياج ، حتّى أحسّتِ العروس أنها تختنِق .

ومنذ هذا اليومِ خفَق قلبُ « ريحانة » لِزَوج المستقبل ، فكان شبَح هذا الفتى المَشيقِ الطَّروبِ بكسائه الزّاهي يتراءى لها حينًا في اليقَظة ، وحينًا في جنَّة الأحلام .

وانكشَف لها أن حياتَها الماضية لم تكن إلا أيامًا فارِغَةً تافهة ، وأنَّها قد أخذَت تتملّى أيامًا عامِرةً بالبَهْجة والإيناس ، مشرِقَةً بالأضواءِ السَّواطع ، تَشيع فيها مُرقّصات الأنغام .

وتواتَرت زَوْرات الزَّوج ، فأذكَت حبَّ « ريحانة » وملأت قلبَها من وَجْد وحنين . ولم تزِدْ صلتُها بفتاها على تلك النَّظرات المُرْسَلات من شقِّ الحائط في غُرفة ، تُشيّعُ بها شبَح القامَة الفارعة .

وما زال صندوقُ الجهاز يتلقى الجديدَ ، حتّى أوشكَ أن يكتَمِل ، فتواصل حديثُ الأسرة في عَقد الزواج : متى يومُه ؟ وعلى أيّ نحو يكون ؟

ولكنْ لأمرٍ ما فوجئَتْ « ريحانة » بانقطاع الحديث في شأن الزَّواج ، واقترنَ ذلك بأنَّ الزوج لم يعُد يُهِلُّ على البيت كما كان يفعل .

(١) أرسلتْ .

وشاع جوٌّ منَ الغُموض لم يظهر للفتاة سرُّه ، فأظلَّت نفسَها حَيرةٌ واكتئاب ، وفَزِعَتْ إلى عروسها القُطنية ، تلتمِس منها العونَ فيما حَزَبَها (٢) من أمر ، بَيْدَ أن عروس القطن كانت لا تَزيد على أن ترنُوَ إليها بعينها الكحيلة ، وحاجِبها الغزير، في حَسرة واغتمام.

وكانت « ريحانة » كأنّما تلمح في عين عروسها أنداءً مِنْ دموع .

وكلما تفقدتِ الفتاة صُندوق الجَهاز ، وجدته دائمًا يرتَقِب شيئًا ينقصه – شيئًا واحدًا ، ذلك هو حُلَّة الزِّفاف ، ولكنَّ تلك الحُلة غابَت وطال مغيبُها .

وريعَتْ « ريحانة » مما تراه من تجهُّمِ أبيها ، وتحسُّرِ أمها .

واعتزمَت أن تقتَحِم السر المكتوم ، فطفِقت تراقِب حركات والديْها ، وتتجسَّس عليهما ، وتسترِقُ السَّمع إليهما ، وما كان يَعْزُب (٣) عنها أنَّها بِذلك تجانِبُ ما يَليق ، ولكن ... أ ليس الذي يغشى الدّار من جَهامة وخفاءٍ عذابًا لا يُطاق ؟

واستطاعت بعد لأيٍ أن تصِل إلى أشياءَ ظنّتْها مِفتاحَ السِّرِّ ، أوّلَ وَهْلة ، بيدَ أنَّ هذه الأشياءَ زادتها حَيرة إلى حيرة .

إنَّ أباها يُنْحي باللائمة على الزَّوج ، لأنه شدَّ ما اشتبك في خصومة ونزاعٍ ، واشتراكٍ في مشاجرة وعِراك ، حتّى صار اسمُه مُضْغَةَ الأفواه .

وَساءلَتِ الفَتاةُ نَفْسَها :

« ماذا يعيب الرجُلَ في أن يخاصِم ويغالب ، حتّى يُعقدَ له الظفر ؟ أ ليس ذلك برهانًا على فُتوته ورجُولَته ؟ إن ذلك لَجديرٌ أن يُعَدَّ في محامده . أ يرغب أبوها في رجل كالفتاة في خِدْرِها ، لا تملك إلا الطَّوْع والإذعان ؟

إن أباها لَيَنْعى على الزَّوج ارتيادَه محافِلَ الموالد،

(٢) اشتدَّ عليها . (٣) يَبعد ويَخفى .

وغشْيانَه سَوامِرَ الغِناء ، وقيادَه للمواكب والجُموع ، يقومُ زَعيمًا عليها ، ويتقدَّمها راقصًا يتلاعب بعصاه .

ومضتِ الفَتاة تسائِلُ نفسَها :

أ يُعاب الرَّجل بأنَّه مِمْراحٌ طَروب ، يُقبِل على مباهج الحياة ، ويستوفي حَظَّه من مُتَعِ الشَّباب ؟ أ يريد أبوها أن يكونَ الزَّوْجُ الفتى على غِراره هو ، وَقوراً في مجلسه ، قَعيدَ بيته ، يملأ الجو حولَه من تحفُّظ وتزمُّت وعُبوس ؟

لماذا لا يرقص ؟ لقد طالَما سَمِعَتْ أن كثيرًا من الأزواج استخفَّهُمُ المَرَحُ في الأعراس ، فرَقَصوا طربًا أمام هَودَج العروس في موكِب الزِّفاف .

إنَّها لتتمثَّلُ ذلك الفتي المَشيق بكُسْوَتِه الزَّاهِية ، يتقدَّم هَوْدَجها مُطَوِّحًا بعصاه ذاتَ اليَمين وذاتَ الشِّمال ، وقَد أخذَ منه الاعتزازُ بجَمال عروسه وفتنتها كلَّ مبلَغ . وإنَّها لَتتمثَّلُه كذلك وقد رأى الجَمْعَ يَمُدُّون أعينَهم إلى هودَجها ، فأشْرَع إليهم عَصاه يردُّ عن عَروسه خائنَةَ النظرات .

ما أكثرَ ما يتجنَّى أبوها على الفتى الحميد الخِصال!

ولبِث الصندوق ينتظر حُلَّة الزِّفاف ، ولكن الحلة صَدَّت عنه ، وطال صُدودها مديداً منَ الأيام .

وفي هَدأَة من ليل ، تفزعت « ريحانة » من نومها ، وصوتُ أبيها يُدَوِّي في الدار ، ويقول :

« طالما نصحتُ له ، مُحاسنًا مرة ، ومُغْلظًا له في القول مرة أخرى ، فلم تُجْدِ معه الحُسنى وغير الحُسنى ؛ وها هو ذا اليومَ يحصُد ما غرستْ يداه ! لقد ذهبَ إلى غير مَرْجع !»

فارتجفت « ريحانة » ممّا تسمَع ، وتكمَّشتْ في غطائها ، وبقيَتْ ساهِدةً ليلَها كلَّه ، يطوف حديثُ أبيها حولها كأنه خُفّاش مخيف .

وفي الغَداةِ رأت أمها تقصِد إلى صُندوق الجهاز، فتُحكم إغلاقه بالمِفتاح ، وتحمله إلى مكانٍ في الدار بعيد .

وتَلَتْ ذلك أيامٌ لم تسمع فيها « ريحانة » من والديها أيَّ نبأ يتعلق بالزوج ، فلا شيءَ إلا الصمتُ والجهامة والركود .

ولم يَبرحْ سَمْعَ الفتاة قولُ أبيها : لقد ذهب إلى غير مَرْجع !

ماذا يريد أبوها بما يقول ؟ ما معنى أنه لن يرجع ؟ إنَّ الموتى همُ الذين لا يرجعون . أ يكون قد مات ؟

لقد تلقَّط سمعُها نِثاراً من أحاديث في هذا الصَّدَد ، ولقد قيل فيما قيل : إنه سيقَ إلى غَيابةِ السِّجن في جناية ذاتِ خطر . حَمى اللهُ الفتى المِقْدام ! فيمَ يُسْجَن ؟ هَيهاتَ أن يكون قد أجرم أو جَنى ! إنه لَبطلٌ كريم ، تكاثر حُسّاده ، وتوافَر منافِسوه ، ولا بدَّ أنَّهم نصبوا له حبائلَ كيدٍ ، وائتمروا به ليوقعوه في مَحْظور ! يا لهم من أخِسّاءَ ! مهما يفعلوا فإنَّهم لن يُديروها عنه ، ولن يظفَروا بكُرهِها له !

وخلتْ مرةً إلى عروسها القطنية ، وأقسَمتْ بين يديها أغلظَ القسَمِ إنَّها لن تُخْفِرَ (١) عهده ، ولن تخونَ وُدَّه ، ما بقي فيها ذَماء (٢) من حياة .

لَتكونَنَّ له وفية نقية ، فهو فتاها الأوَّلُ والأخير .

وفُجِعَتْ « ريحانة » بعدَ قليلٍ في أبيها ، ولم تلبثْ أن لَحِقَتْ به أمها . وغدَتِ الفتاةُ وحيدةَ بيتها ، لا تجد إلا عروسَها القطنية من أنيس .

وانتقلَتْ إلى الدّار خالَةٌ لِلفتاة ، شارَكتْها في حياتها ، وإن لم تَنْفِ عن نفسِها حياةَ الوحشة وفراغَ الفؤاد .

وتعاقَب الخُطّاب على بيت « ريحانة » يطلبونَها ، ولكنَّها ردَّتهم جميعًا .

(١) تنقض العهد . (٢) بقية الروح .

فإذا سألتْها خالتُها : ما بالها تَعْتَلُّ على كلِّ خاطب ؟

أجابتْها الفتاة في سذاجة وسلامة نية ، وعيناها موصولتان بأديم الأرض : « لقد جَرَّبْتُ بختي في الزَّواج يا خالة ، والبخت الأول لا يُعَوَّض . »

فإن ألحَّت خالتُها عليها ، تحاول إقناعها بقولها :

« أ تَظلِّينَ عانسًا سائرَ عمرك ؟ »

أجابتها الفتاة في ثبات ويقين : « لستُ عانسًا ، يا خالة ، أنا مخطوبة . »

« مخطوبة ؟ لقد ذهب الَّذي تَعْنين ، وانقضى أمرُه . »

« إمّا أن يكون حَيا ، وإمّا أن يكون قد طوتْه المَنون . فإن كان حيا فهو عائدٌ إليَّ ، وإن كان ميتًا فأنا صائرة إليه . سنلتقي يومًا ، ونتزوَّج حتمًا ، في هذه الدنيا أو في العالم الآخر . »

وصبرتْ « ريحانة » على تلك الحال عامًا وبعضَ عام ، تنتظِر عَودة الحبيب ، وقد شفَّها الجَوى ، وبَرَّح بها الانتظار ، حتّى قصفتْ يدُ المَنون غُصْن شبابها الذّاوي .

وما يبلُغُ البستانيُّ الشيخُ هذا المبلَغَ من رواية قصته ، حتّى يَغْمِزَ عُلْبَةَ دُخانه ، وما هي إلا أن يُسَوِّيَ لِفافةً ، يشعلها في تمهُّل وهو يقول :

« هكذا كانت نهايةُ تلك العذراءِ ! »

وبهذه الجملة كان دائمًا يختِم قصتَّه .

واتفَق لي في آخر لقاءٍ له أن امتدَّ بنا الحديثُ ، فقلْتُ لشيخ البستان بعد فترة صمت :

« ما كان أشقى حياةَ هذه الفتاة ! لَقد خَطَّتْ بيدها طريقَ تعاستَها ، على حينِ أنه كان في مُكْنَتِها (١) أن تَنعَمَ بشبابها في ظل زوج جديد . »

(١) إمكانها .

فرفَع الرجل بصرَه إليَّ ، وقال :

« أ ترى أنها كانت – حقا – شقيةً تاعسة ؟ »

« وهل تكون حياةُ الوَحْدة والوَحشة والانتظار إلا تَعسًا وشقاءً ؟ »

فأرسل الرَّجُل بصرَه في الأفق ، وهو يقول :

« ربما كانت حياةُ الوَحدة والوحشة والانتظار حياةً حافِلَة بأطايبِ النُّعْمى . إن وفاءَ النَّفس وصفاءَ السريرة يُسبِغان على الرُّوحِ طُمأنينةً وسكينة ، هُما لُبابُ السعادة وجوهَرُها الخالص ! »

فنظرتُ إليه وقتًا دون أن أنْبِس ، وجعلت أستعيدُ كَلِماتِه الساذَجَة الغريبة ، وأدير الرأي فيها .

أ في الإمكان – حقا – أن نكون بأحزاننا وهُمومنا سعداءَ ، ما دام ثَمَّةَ شعورٌ بالوفاء والإخلاص يملأُ جوانبَ النَّفس ؟

وأزِفَ وقتُ مُغادرتي لُمسْتَشْرَفِ الدّار ، ولكنّي لم أجِد مَحيدًا عن مواصلة الجلوس ، ومتابعة الحديث .

و وجدتُني أقول لصديقي البستانيِّ الشيخ ، وكأني أتحدَّثْ إلى نفسي: « والزوج ؟ أ لم تُحِطْ علمًا بشأنه ؟ »

فلاحت على وجهه بَسمةٌ وادِعة ، وقال هادئَ الصَّوت : « دعنا من شأن هذا الزوج . عِلْمُه عند عَلام الغُيوب ! »

« أكبر الظَّن أنه كان شَريدًا عِرْبيدًا . »

فأخذ الرَّجُل يقلِّب عُلبة دُخانه ، ثم قال :

« كان كذلك فيما يشاع ويُرْوى ! »

« خيرًا فعلَتِ الأقدارُ ، إذ فرَّقت بين هذين الإنسانينِ قبل أن يتزوَّجا . »

« لماذا ؟ »

« لو تَمَّ زواجهما ، لَبَئِستْ تلك الفتاةُ الطَّيبة النقيَّة بين براثِنِ ذلكَ الشرِّير الأثيم . »

« ربما كان ، وربما كان للأمر وجهٌ غيرُ هذا

الوجهِ .»

ثم تابع تَقْليبَه لعُلبة دُخانه ، وهو يقول :

« لم يكن مُحالاً أن تُصبح هذه الفتاة أسعدَ الزوجات .»

« في صُحبة هذا الشرّير ؟»

« نعم ، يا سيدي ، في صحبة هذا الشرّير . إن عينها الطاهرة لم تكن تَرى فيه إلا المَثَلَ الأعلى للرُّجولة والبُطولة والإقدام . كانت عينُ هذه الفتاة منَ البراءة بحيثُ لا تُبصِر إلا الجانبَ الطَّيبَ من مَشاهد الحياة .»

« ولكن ، أ ليس من الحُمق أن تَظَلَّ هذه العينُ البريئة غافلةً عن الحقائق ، مخدوعةً بالظّواهر ، راضيةً بهذه الغَفلة والخداع ؟»

فابتسمَ الشّيخُ ابتسامةً يتجلّى فيها الإشفاق ، وقال :

« أ ليس من نِعَمِ الحياة أن نَظَلَّ شيئاً ما غافلين عن الحقائق ، مخدوعين بالظواهر ؟ وعلى أية حال ، مَن ذا الذي أوتِيَ القدرةَ على أن يحكُم حُكمًا حاسمًا يميِّز فيه بين الحقائق والأوهام ؟ دونَك مثلاً : كلُّ الظواهر والقرائن تؤيد أن هذا الرجل كان جُرثومةَ شرٍّ ، وأخا سوْء .»

« أ أنتَ في ذلك تشكُّ ؟»

« العِلْم عند عَلام الغيوب . نحن دائمًا نحكُم بحَسَب الظاهر . إن عيونَنا حَسْرى ؛ وإنَّها ، في الغالب ، أعيا من أن تستجليَ بواطِنَ الأمور ودخائلَ الأحداث . قد يكون هذا الرَّجلُ على سوئه وشرِّه مَطْويَّ الضُّلوع على قلبٍ أنْقى نَقاءً من قلب طفلٍ بريءٍ ؛ أ ليسَ ذلك بجائز ؟»

فهمهمتُ : « كلُّ شيء جائز !»

« فإذا كان للرَّجلِ هذا القلب ، فهل يَعْجز عن أن يُسعد زوجه ، ويكفلَ لها نَعْماء الحياة ؟ أ كان من المتعذِّر أن يتأثَّر هذا الرجل بِطيبة فتاته وكرَم طَبعها ، فإذا هو على يديها تائبٌ من ذنبه ، ناهجٌ طريقَ خيرٍ وهُدى ؟»

كان شيخُ البستان يخوض في هذا الحديث مسترسِلاً ، يتوقَّدُ حَميَّةً وحماسة .

وبَغتةً رأيتُه قد توقَّف ، كأنما يستدرك على نفسه ما فَرَطَ من قول .

ثم انحنى على عُلبته يعبَث بالتَّبغ في صمت ، وأنا أحدِّق في وجهِه أتفحَّصه ، وما هي إلا أن ألفيتُه قد نهض يَلُم شعثَه ، وحيَّاني في أدب جَمٍّ ، وأخذ سَمْتَه بين ألفافِ الحديقة ، فلم أردَّ عنه بصري ، حتّى أطبقت عليه أفنانُ الشَّجر ، تُعينُها أستارُ الظلام .

ومرَّت بِضْعةُ أشهر بعد هذا اللِّقاء ، قضيتُها مستشفياً في بعض المدائن ، خارجَ مصر .

وما إن عدتُ حتّى انتهى إلى سمعي أن البستانيَّ الشَّيخَ قد وافاه حَيْنُه منذ قليل ، فمَضَّني أسفٌ عليه ، وقصَدتُ الضَّيعةَ أمْضي بها فترة ، فكان أوَّلَ ما عُنيتُ به أن يَمَّمْتُ قبرَه .

وفي فواتح المساء ، خرجتُ إلى مُسْتَشرَفِ الدّار وحدي ، وبسطتُ الحَصير أجلِس عليه ، وأنا أرنو إلى تلك الحديقة المُوحشة .

وبقيتُ وقتًا في صمت ، أعرِض جلساتي إلى شيخ الحديقة ، فما لبِثْتُ أن آنستُ صوتًا لم يكن غريبًا عنّي ، صوتًا واضح النَّبرات ، على الرَّغم من بُعْد مأتاهُ ، فأرهفتُ السَّمع في تلك الخَلوة المظلمة ، وإذا الصوتُ يَرْوي لي قصة « ريحانة » كما هي بأحداثها ، وتفاصيلها ومراحِلها .

شدَّ ما كان حبيبًا إليَّ أن أصغِيَ ، وأن أنهَلَ الكلمات نهلاً !

ولَمّا فرغ الهاتفُ من قصتّه ، ألفيتُني أهمهِم ، وأنا أرنو إلى الأفق ، وقد تكاثفت ظُلُماته :

« والزَّوجُ ؟ أ لا عِلْمَ لكَ به ؟»

فسمعتُ الهاتف كأنما يجيب :

« أما بَرِحتَ طَلاعًا إلى تَعَرُّفِ شأنه ؟»

ورأيتُني أنهَض من فوري ، وكأن يدًا مستورةً تأخُذ بيدي ، تَهْديني الطريق ، فجعلت أجوس خلال الأشجار ، تُحْدِقُ بي أطباقُ الحُلْكَةِ والصَّمت والوَحشة ، حتّى أفضى بيَ المسيرُ إلى كوخ فقيدنا البستانيِّ .

ودفعتُ الباب في رِفْق ، وأضأتُ شمعةً أصبتُها هنالك ، فتبيَّنتُ متاعَ الرجل كما تركه ، لم تمسَسْه يدٌ بعدَه . و وقفتُ أردِّد النظر أمامي ، ثم ألفيتُني أقلِّب وأنقِّب ، حتّى عَلِقَتْ أناملي بشيءٍ فأخرجتُه أدْنيه من ذُبالة الشمعة ، فإذا هو عروس من قطن !

وجَمَدَتْ قدمايَ لحظة ، وأنا أحدِّق في ذلك الأثر العجيب :

أنف كالنبقة اليانعة .

عينان نَجلاوانِ كحيلتان .

حاجبانِ غزيران .

وأحسَسْتُ هَبَّةً من نسيم تقتَحم الكوخ ، كأنَّها أنفاسٌ تَتَصَعَّد . فما هي إلا أن انطفأتِ الشَّمعة ، وأخذتْني رَجْفة ، وخُيِّل إليَّ أني أرى طيفَ وجهٍ يَهيمُ في الكوخ .

والتقتْ عينايَ بوَميض عينيه ، فسَرعان ما وجدتُني أوسِّدُ العروسَ القُطنِيَّةَ مكانَها الَّذي أخرجتُها منه ، وأتسلل مبهورَ الأنفاس ، ضاربًا في الظَّلام !

هذه الحصاة

في حياتك أحداثٌ قد تَعُدُّها تافهة لا بالَ لها ، ولكنَّك لا تلبَث أن تَجِدَ لها من النتائج ما عساه يُغيِّرُ منهجَك في هذه الحياة .

ربما صدرتْ عنك نأمَةٌ (١) على غير قَصْد ، أو بدرتْ منك كلِمة هي عَفْوُ الخاطر ، أو انحرَفَتْ بك القَدَمُ خُطوة دون تَدبير ، فإذا أنتَ قد ألفيتَ نفسَك تَشُقُّ طريقًا غيرَ طريقِك المرسوم ، وإذا البَوْنُ شاسِعٌ جِدُّ شاسع بين ماضيك المَطْوِيِّ ، وحاضِرِكَ المرموق .

إن هي إلا حَصاةٌ صغيرة تعترِضُ السّائرَ في مسلكِه ، فلا يتمالَكُ أن يَعْثُرَ ، ولا ينهض بعد ذلك إلا وقدِ احتواه أُفُقٌ جديد .

ليس حديثي هذا إليك ضَرْبًا من لَغْو الحديث ، وإنما هو زُبْدَةُ ما خلَصَ لي من أحداث حياتي التي كُتِبَتْ عليَّ .

لم يكن محْوَرُ قصتّي إلا حصاةً عثَرَتْ قدمي بها ، فكان منها كلُّ ما كان !

وأنتَ ألِفْتَ من نُصْحِ النّاس أن يُحَذِّروك من جسام الجنادل والصُّخور .

أمّا أنا فما أردتُ بما أبثُّك إيّاه من حديثي ، أن أحذِّرَك من صخْرة أو جندل ، وإنَّما أردتُ تحذيرَك من هذه الحَصَيات الضِّئالِ ، حين تتناثَرُ في مواطئ الأقدام .

ولتكن على ثقَةٍ بأني لن أخفيَ عَنْكَ سرًّا ، ولن أموِّه عَلَيك شيئًا . فهذِهِ قصتّي أصارِحُك بها ، لا أبالغُ ولا أتزيَّد ، وقُصارى ما أبتغيه منها أن تنتَفعَ بتِلْك الَّتي مرَّتْ بي ، فأكونَ قد أسدَيْتُ إليك جميلاً .

إن المُتشرِّفَ بخطابِك في هذه السّاعَة رجلٌ مُعْدِم ، حَطَّمَته الأيّام ، وألَحَّتْ عليه الشَّيخوخة ، وبلغ أرذلَ العُمُر ، وهو لا يجدُ الآن مُتَنفَّسًا لعيشه في غير لَفائف الدُّخان الرَّخيص ، يبيعُها كَسبًا لِلقوتِ وطَلَبًا للكَفاف .

لقد أسلَمَني الزمن إلى هذه الحِقْبة من حياتي ، تُمضُّني فيها الخَصاصة (٢) ، وتُضْنيني الوَحْدة . وما كان عزيزًا عليَّ أن أصْبحَ رجُلاً من ذَوي المناصِب العاليَة ، وأربابِ الأسرِ الرفيعة ، وأولئك أقراني في

(١) الصوت الضعيف الخفي .

(٢) الحاجة .

النَّشْأة ، قد أمْسَوا زينةَ الحياة ، وزهرةَ المجتمع ، ظافرينَ منَ الدُّنيا بأطيبِ ما فيها من نعيم .

ولكن هي الحصاة ...

زلّت بها قدمي ، فَهَوتْ بي إلى الحَضيض !

بنفسِكَ أن تسألَني :

ما هي هذه الحصاةُ ؟

وكأنّي بِكَ تتعجلُني الجَواب .

لكي تعرِفَ حَصاتي هذه ، يجِبُ أن تضَعَ على عينَيك المِنظارَ المكبِّر ، فسينكَشِفُ لك أمرُها .

هي إنسانة – إنسانةٌ وافرة الحظ منَ الوَسامة والحُسْن ، لا وصفَ لها عندي إلا أنَّها عجينةٌ ، من لؤلؤ، سُقِيَتْ بذَوْبٍ منَ الماس . ولكنْ أيُّ قيمة لهذا الوصف؟ أ ليست هي في أولِ الأمر وآخره امرأةً من بنات حوّاء جُبِلَتْ في حقيقَتها من ماء وطين ، إذا أنتَ حَلَّلْتَها ، ورجعتَ بها إلى عناصرِها الأولى ، ألفيتَ قيمتَها لا تزيدُ على بِضْعة قروش ؟

لا تَضَعِ المِنظارَ المكبِّر جانبًا ، بل امْضِ في التكشُّف والتعرُّف جاهدًا .

سَترى هَذه الإنْسانةَ قَد اعتَلَتْ منَصَّةً في مَلْهًى كانَ قائمًا مُنذُ عشَراتِ الأعْوامِ ، وإنَّها لَتبْدو في زيِّ المَلاحينَ روّادِ البِحار : كُسْوَةٌ قصيرة تلتصِق بالجسَد ، وتَنِمُّ عن مَفاتنه ، وإنَّها لتتجلّى في بُهْرَةِ [1] المِنَصَّة لا تَزيد على أن تُنقِّلَ قدمَها في دائرة صغيرة ، منشدةً إحدى الأغاني بصَوْت ليسَ بالرَّخيم .

لم تكنْ ترقُصُ ، ولم تكن تُغنّي ، حسبُها ما كانت تُبْديه من إيماءٍ ، وما تلفِظُه من نَغَم ، فإذا بها تتحوَّلُ إلى اختلاجَةٍ راعِدَة ، إلى رعْشَة متمرِّدَة ، لا تلبَث أن تُثير في نفوس النظّارة روحَ العَرْبَدَة والهَوَس .

تنحَّ بمنظارك المكبِّر عن هذه الناحيَة ، وسَدِّدْه إلى ذلك الرُّكن الأيسَرِ مِنَ المسرَح ؛ فستلمح من بين النظّارة هُنالك فتًى تستطيعُ أن تُجْمِلَ وصْفَه في كَلِمَتين : شابٌّ تتوهَّج في إهابِه كلُّ معاني الشَّباب ، شابٌّ يختصر لك في جسدِه وفي روحه كلَّ خصائص تِلْك السنِّ الرّائعة ، سنِّ الثامِنَة عشْرَة !

ولن يفوتَك أن ترى ما تحتويه يمينُه من رِزْمَة كُتُب مدرسية .

إنَّه في جلسته المسحورة ، يتتبَّع تلك الإيماءات والخلَجات بعين طفل ريفيٍّ ، يتفرج في صندوق الدُّنيا أولَ مرَّة ! فإن ما يشهده الفتى في هذه اللَّحظة ليس في الواقع إلا صندوقَ دنياه الجديدة ، وما أحقَّ تلك الحصاةَ الآدمية ذاتَ الجسمِ الفالوذَجي [2] الرجراج ، بأن تسميَّها دنيا جديدة لذلك الفتى ، قدِ انزاحَ عنها السِّتارُ ، على غير انتظار .

إذا أقسم لك هذا الفتى بأنَّه لم يطأ هذا المسرحَ من قبلُ ، ولم يعرفْ له اسمًا حتّى ساعتِه تلك ، فَصَدِّقْه .

وإذا أنبأكَ بأنَّه قَبْل تعريجِه على هذا المسرح بلحظات ، كان خاليَ الذِّهن منْ أمرِه كلَّ خَلاء ، فصدِّقْه أيضًا .

ليس لِتكذيبه من مُسَوِّغ ، فقد كان الفتى أبيضَ الصَّفْحة ، صريحَ اللَّهجة ، آيَةً في الطَّوْع ، صبورَ النفس ، مثابِرًا على الدرس .

كان يحيا في كَنَف والدٍ أشبهَ ما يكونُ بقائد شديد المِراس ، قَوِيِّ الشَّكيمَة ، جَهْم القَسِمات ، منزلُه أقربُ إلى أن يكون ثُكْنَةً مُوحشَة من ثُكنات الجُند ، وما حياةُ هذا الفتى في ظل ذلك النظام إلا مواعيدُ – مواعيدُ دقيقة ليس إلى الإخلال بها من سبيل . وإنَّ وَطْأةَ هذه المواعيدِ لتجعل الفتى يتمثَّل نفسَه في جوف ساعة ضَخْمةٍ ، يقوم منها مقامَ الرقّاص ، عملُه فيها هو تلك الحركة الدَّءوب من جيئة وذَهوب ، وَفقًا لخفَقات السّاعَة الصّارِمَة ، لا وَناءَ [3] ولا انحراف .

---

(١) وَسَط .

(٢) الحلو الجميل الريان . (٣) ضَعْف وفُتور .

بَيْدَ أنه معَ هذا كلِّه لم يكن يَجِدُ في نفسِه مَساغًا للضَّجَر ، فهو مستسلِمٌ لهذه الحياة الراتبة المستَتِبَّة ، يَسودُها ذلك النِّظامُ المُحكَم الدَّقيق .

أ لَيْسَ النِّظامُ ، فيما تَعَلَّمَ الفتى ، عِمادَ الحياة ؟

ما كان للفتى من بُغْيَةٍ إلا أن يُنْجِز دِراستَه ، ليأخُذَ جَوازَهُ إلى مَنْصِبٍ كريم . فَذَلِك ما كانَ يحدثُه به أبوه ، لا يَمَلُّ فيه تكرارَ الحديث .

بينه وبين إتمام الدَّرس عامانِ اثنان ، يقضيهما بما هُو مألوفٌ من اجتهادِه واستِذكارِه ، ثم يظفَر آخرَ المَطافِ بِتِلْك الصَّحيفَة المُبرقَشَة الزَّاهِيَة ، مَهْوى الأفئدة، ومَطْمَح الأنظار .

ولهذا الفوزِ ما بعدَه !

أ ليس هو موعودًا من أبيه بأنَّه ما إن ينالُ إجازتَه الدراسيَّة ، حتى يُحقّقَ له تلك الأمنيَّة الغالية ؛ إذ يُهْدي إليه ابنة عمِّه الحسناءَ عَروسًا له ؟

إنها فتاة وسيمةُ الطَّلْعة ، يَزِينُها تحفُّظ وخَجَل . لا تقعُ عليها عينُ الفتى إلا مرةً في كل جُمُعة ، وفي هذِه الزَّورة الأسبوعية ، تظفَرُ الأسْرَة بمتعَتِها الَّتي لا مُتْعة لها سواها في سائرِ حياتِها . الأبُ يقيم في هذا اليوم مَأْدُبَةَ غَداء تقومُ على أربعة لا يزيدون : الأب وأخته وابنه والعروس ، وهؤلاءِ الأربعةُ يجمعُهُم طابَعٌ واحِد منَ التزمُّت والتوقُّر والاحتشام .

وعلى الرَّغم من ذلك ، فإن الفتى كان يرى في هذه المأدُبَةِ المتواضعة حفلةَ تَرْفيهٍ شائقةً ، تنْعَم بها في كل أسبوع تلك الثُّكنَةُ الموحشة بنظامِهَا العسكَرِيِّ .

وكان الفتى كلَّما تطلَّع إلى ابنة عمه في مكانِها منَ المائدَة قُبالَته ، أحسَّ كأنَّ الفتاة خلفَ أسوارٍ وقُضبانٍ لا يستطيعُ الدُّنوَّ منها ، أو كأنها مِنْطَقَة حرام في عُرْف قائد الأسْرة العتيد .

ما خَلا الفتى إلى عَروسِهِ قطُّ ، وما حاول أن يخالِسَها الكَلام يومًا من الأيام ، ولكنَّه معَ ذلك كان يَلْقى عَرُوسَ غدِه فيطارِحُها الحديث ، ويَنْعَمُ في ظِلِّها بأويقاتِ صَفاء ومِراح (١) ، يستبيحُ فيها ما لا يستطيع البَوْحَ به ، حتّى في مناجاتِهِ لِنَفْسه . كان ذلك يجري في أحلام ، وفي رؤى المنام ؛ فإذا ما صحا من نَشْوَتِه ، أو انْتبه مِن غَفْوَته ، استنكر صَنيعَه ، وثارَ عليه ضميرُه يؤنِّبه ، فلا يلبَث أن يعاهِدَ نفسَه على ألا يعودَ إلى تلك المُعابَثات الصِّبْيانيَّة البغيضة .

وما له يَتَعجَّلُ المتعةَ وزينَةَ الحياة ، وإن قصورَ الأمانيِّ لتتسامَقُ (٢) أمامَه في أُفُقٍ رحيبٍ ؛ فها هو ذا مُجِدٌّ في مَسلكِه المدرسيِّ ، مُوفَّقٌ دائمًا في الانْتِقالِ من مرحَلة إلى مرحلة ، وكلُّ شيءٍ يجري في عِنانه ، باعثًا على الطُّمَأنينة ، داعيًا إلى الثِّقة بمستقبَلٍ زاهِرٍ باهِرٍ .

ظلَّ الفَتى ماضيًا في طريقِه الورديِّ الممهود ، حتى هذه الأُمْسيَةِ الَّتي عَثَرتْ فيها قَدَمُه بتلك الحصاة .

وأنت إن رفعتَ المِنظارَ المُكبِّرَ عن عينيكَ ، وتخطَّيْت صُفوف المسرَح لِتدنُوَ منَ الفتى في مَجلسِه، وتَسأله متلطِّفًا به : « ماذا أتى بِكَ إلى هذه المَثابَة ؟»

أجابكَ في غير تكلُّف : « هيَ مصادَفةٌ مَحْضَة ، لا يَدَ لي فيها بتَدْبير !»

وإنَّ الفَتى ليقُصُّ علَيك كيف انساقَتْ به قدماهُ إلى مكان الحصاة .

بارَح الفتى دارَ قرينٍ له ، عشيَّةَ يوم ، حيث كان يستذكِرُ معه بعضَ دُروسه ، وذَلِكَ قُبَيْلَ الامتِحان . بارحَ الدار مختنِقًا يتلمَّس الهَواء ، فقد أضْنَته المكابَدةُ والمجاهَدة في المذاكرة والتَّدارُسِ ؛ إذ احتَوَتْه هو وقرينَه حجرةٌ متضايِقة ، ضَوْؤها شحيح ، فما كاد يُدْبِر عن البابِ حتّى ألفى يدَه تَعْجَلُ إلى رِباط رقَبته فَتَحُلُّ عُقْدَتَه ، وكان وهو يفعَلُ ذلك يُخَيَّلُ إليه أنَّه يستخلِصُ رقَبَته من طَوْقٍ حديديٍّ . ومضى يتلفَّت حَواليه ، منهومَ الأنفاس والنَّظرات ، يَعُبُّ الهَواء ، ويشتَفُّ (٣)

---

(١) اسم للمَرَح . (٢) تعلو وترتفع . (٣) يشرب .

الضّياء .

جدَّ الفتى في سَيْره يطلُبُ منزلَه ، سالكًا ذلك الطريقَ الّذي ألفَ سلوكَه من قبلُ ، ومرَّ في خُطاهُ بأحَدِ الشّوارع الّتي كان يمرُّ بها ، دون أن يأبَه لها. إنّه شارع كَسائر ما يتفرّع منَ الشّوارع في الطريق العامّ ، لا يمتازُ بشيءٍ إلا ما يسطعُ فيه على مَرْمى النَّظر من أضواء ألاقة تتلوّن ألوانًا .

وألفى الفَتى قدمَيْه تَمْشيان وئيدًا ، ونظراته تنسابُ نحوَ ذلك النورِ البهيج تِباعًا . وفي خَطْفة البَرْق عَنَّ لِخاطِره أن يخترِقَ هذا الشارعَ تأنُّسًا بأضوائه ، وما عليه في ذلك من بَأسٍ ، فإنّه بالغٌ دارَه ، دون أن تبعُد عليه الشُّقّة (١) ، ويطولَ السَّير .

وعَدَلَ إلى الشّارِع يجتازُه ، وإذا هو بعد خُطُواتٍ أمام تلك الأضواءِ المبرقَشة الّتي بَهَرَتْ عينَه ، وإذا هي أضواءُ مسرَحٍ ، أو بالأحرى ، دارٌ لم يدخلْها ، ولن يُتاحَ له دُخولُها . إنّها أحد تلك المواطن الّتي يضعُها أبوه في القائمة السوداء ، ولا يذكُرها إلا مقرونَةً بالتحقير والازدراء .

لا مَأخَذَ عليه في لمحة خاطفة ، يُلقيها على هذه الدار ، ثم يَمْضي لِطِيَّتِه (٢) لم يَعلَق بأذياله ضَير .

وسَرعانَ ما اشتبكَت أنظارُه بطائفة منَ الصُّوَر والرُّسوم تتناثَر على الجُدْران ، وأخذَه العَجَبُ من تلك المناظر الّتي يبدو فيها صِنف من الناس غريبُ الأزْياء والأوضاع ، فقام في ذهنه – أولَ وهلة – أنّه يشهَد صُورًا لِجَمع منَ المجانين .

واسترعى انتباهَه صورةٌ تتجلّى في صَدْرِ المدخَل ، صورة تُمَثِّلُ الحَجْمَ الطّبيعيَّ لِفتاة في لَبُوسٍ يحاكي زيَّ الملاحين رُوّادِ البحار ، فما إن رآها الفَتى حتّى شعر بأنَّ الدّم يَصبَغُ وجهَهُ بِصِبْغَة الخَجَل . إنّها شبهُ عارية ، لا يكسوها إلا شُفوفٌ تُوهِمُ النّاظرَ أنّها تُغطّي ما اصطَلَح الناسُ على تسميَته مناطقَ الحَياء ، أمّا سائرُ أوصال الجَسَد فقد تُرِكَتْ نُهبَةً للعيون .

واستحالَت حُمْرة الخَجَل في وجه الفتى ، فصارت جُمْرةَ غَضبَةٍ وَحَمِيَّة ، أو قُلْ إنَّ ذلك ما سَرى في وهمه ، فردّد في نفسه :

« يا لَلسَّوْءَة ! يا لَضَيْعَةِ الأخلاق ! »

وهَمَّ الفتى يجتذِبُ أنظارَه ليردَّها عن هذه المَعابِثِ الفاضِحة ، فلم يجِد له عَزْمًا .

لقد تلاقَت عيناه بعيني الفَتاة ، فكان وإيّاها كالسَّمكة ، عَلِقَ بها شِصٌّ عَتيٌّ ، وإن لم يكن يدري : أيُّهما الشِّصُّ الناشبَ ، وأيهما السمكةُ المَصيدَة ؟

وفيما كان الفتى يُعاني مجاهَدةَ النَّفس ، للتّفريق بين السَّمكة والشّص ، سمع صوتًا يقول له :

« بخمْسَة قروشٍ تَستطيعُ أن ترى هذه الفتاةَ واقفَة ، تغنّي وترقص ! بخمسةٍ فقط! هاكَ تَذْكِرَةً . مَقعَد حسَن ، منه ترى وتسمَع بوُضوح . لا تُضع الفُرْصةَ ! اللَّيلةَ خِتامُ المَوْسم ! »

في هذه اللَّحظة شعَرَ الفَتى بأن وَعيَه يتناقَص ، وأنَّ إدراكَه يَغيب .

ما أشبهَه بالمريضِ قد مُدِّدَ على سريرِ الجِراحات ، وقد بدأ يَنشَقُ المُخَدِّر .

ليس في مقدورِ الفتى أن يتابعَ لك حديثه في تفصيل وتحديد ، فهو الآن في غَيبوبة شاملة ، وكأنّه يشهد أضغاثَ أحلام .

أنغامٌ صاخِبة ، أنوارٌ كاشفة ، أصواتٌ مُلْتَجّة (٣) ، خَلْق يتزاحَم هنا وهنالك ، سحائب تتعقَّد فوقَه من دخانٍ وأنفاس ، وفي وسط ذلك كلِّه تتألَّق تلك الاختلاجةُ البشرية الراعِدة ، مثيرةً حولَها روحًا منَ العربَدَة والهَوَس .

---

(١) المسافة . (٢) لِسَبيلِه .

(٣) مُختَلِطة .

ولمّا فرغتِ الفتاةُ ممّا سمّوهُ غناءً ورقصًا ، مدّتْ يدَها إلى سلّة في جانبٍ منَ المسرَح ، مُلِئتْ بوردٍ قانئٍ كأنّه الجمر ، وهَبَطَتْ بالسلّة إلى قاعةِ النظّارة ، فجعلَت تقذف بتلك الجمرات يَمْنةً ويَسرة ، والفتى إليها متطلّعٌ ، يغشاه صَمْتٌ وذُهول ، على حينِ كانتِ الجموعُ متهافتة على هذه الجَمَرات ، تتلقّفها لتضعَها على الصّدور ، دانيةً منَ القُلوبِ ، كي تَزيدَها من ضِرام .

واستبْقَتِ الحسناءُ في يدِها وردَةً واحدَة ، جعلَت تدورُ بها في بُهْرَةِ القاعة ، وكأنّها منارة في بَحْرٍ موّاج ، يغشاه ليلٌ عاصِفُ الرّيح .

في هذا البحر المتلاطِم تراءى زَوْرَق ضئيل ، تكادُ تلتقِمهُ الأمواج ، وكان هذا الزّورق يحاوِل أن يتماسَك ، تفاديًا منَ الغرق ، وطلبًا لشاطئ الأمان ، وإذا النورُ يهبِط نَسْجًا منَ الأشعّةِ على الزّورق ، فيجتذِبه إلى قلب المنارة المتوقّدة ، ولا يلبث أن يُغيّبه فيه .

تدانَت الفتاة من ذلك الفتى تَرْشُق على صدره وردتَها الأخيرة ، وهي تُحيطُه بهالّة من بَسَماتِها اللّطاف .

وأومأتْ إليه أن ينهضَ ، فأطاع .

ثم أشارَت إليه أن يتبعَها ، فانقادَ .

صَعِدَتِ الفَتاةُ بِالفتى إلى مِنَصّةِ المسرَح ، تَختتِم رَقصتَها الشّادية ، على مألوفِ عادتِها في كلِّ ليْلة ؛ إذ تَعْمِدُ في نهايةٍ من فنِّها الأنيس إلى أن تصطفيَ أحدَ النّظّارة ، فتراقِصَه على إيقاعٍ قويٍّ من تهلُّل وتصايُح ومِراح .

وانسدَل السّتار ، لا كما ينسدِل عادةً في كلِّ ليلة على هذه المَشاهِدِ منَ الرّقص والغناء ، وإنّما انسدَل اللّيلة على عهد لهذا الفتى ، فقطع الصّلّةَ بينه وبين ماضيه ، وانحدَر به إلى عهْد منَ الحياة جديد .

كان أوّلَ ما استقبل به الفتى حياتَه الجديدة أنه رأى الفَتاة الحسناء تعاجِلُه بقَرْصة في خدّه ، وعلى شفتَيها تُصَلصِل الضّحكات ، ومِلءُ عينيها لَهَبٌ تتطايَرُ منه نَظَرات منهومة جيّاشة .

وتقدمَتْه ، وقد أرختْ له يدَها ، فتعلّق بها .

وإذا هي تَمضي به تيّاهةً تتخطّر .

ولمس الفتى بيمينه الوردَة الحَمراء على صدرِه ، فانتزَعَها ، وجعل يتوسّمها ، ولمعت في خاطرِه قصّة التفاحة الخالدة الّتي التهَمَها آدمُ في جنة الخُلْد ، وتراءت له الوردةُ الحمراء ، وكأنها تلك التفاحة في شكلها وصبغتها وما لها من أريج ؛ فابتسَم ، وقد عَرَتْهُ من النّشْوة هِزّة .

هذا أبوه الأوّلُ آدمُ لم يتمنّعْ على التّفاحة حين عَرَضَتْ له ، فكيفَ للفتى أن يكونَ هو المتمنّع الأبيّ؟ أو ليس هو بآدميٍّ ؟

وألفى الفتى خُطاه تُجاهَ حجرة أنيقة ، وما هي إلا أن غيّبه الباب فيها مع حوّائه الحسناء .

ماذا أنتَ طالبٌ إليّ أنْ أقصّه عليك بعد الّذي قصَصْتُ ؟

إن هي إلا فُضالاتٌ وقُشور .

إن هو إلا حشوٌ ليس له في مجرى حياة الفتى كبيرُ شأن .

على أنّي أوثر ألا أترُكَ فُضولك على ظَمأ ، فاعلمْ أن ما كان من أحداث عُمْر الفتى يمكن إجمالُه على هذا النحو :

أحسَّ الفتى بأنه كأنما أُلقِيَ به في أُتون (١) يتضرّم ، وَقُودُه أصنافٌ منْ خَلْق الله ، يتفاوَتون طَبقات ودرجات ، كانوا جميعًا يضطربون حينًا في هذا الأتونِ ، ثم تستحيلُ شخوصهم حَفْنَةً من رَماد ، وإذا

(١) الموقدُ الضّخم .

بجاروفٍ يقتحم في الفَيْنة بعد الفينة جَنَبات الأتون ، فيمتلئ بهذا الرماد الهامد ، ولا يلبث أن يَدْفَعَ به في مَرْمى القُمامات — في ذلك التل المنبوذ !

وشعر الفتى يومًا بأن الجاروف يحتويه — يحتويه قَبْضَةً من رماد لِيُلقِيَ بها في المَرْمى البعيد !

واستقرَّ بالفتى مصيرُه ، يتقلَّب على سَفْحِ هذا التل المنبوذ ، مستكينًا لِذلك المصير .

ويتصفَّح الفتى ، في الحين بعد الحين ، سوالفَ أحداثه ، ومواضيَ أيّامه ، منذ كان يُسَمّى إنسانًا سَوِيا له عقلٌ وروح ، إلى أنِ استحال حَفْنَةً مهملَة من الرماد الزَّرِيِّ ، فتتراءى له — على الفور — هذه الحصاة ؛ فتَسري في حُطامه رِعْشَةَ يتناثر بها رَماده ، ثم إذا هو يتجمَّعُ ويتكمَّش في مُسْتَقَرِّه الأخير .

ورَقة النصيب

في « قَهْوة الأفنديَّة » بِحَيِّ الحُسَيْن ركنٌ اصطلحَ عُمّار القَهوة على تسميته بركن « سيد أفندي » ؛ فقد كان وَقْفًا عليه ، ظلَّ يختلِف إليه قُرابةَ عَشْرِ سنينَ .

ولم يكن أحدٌ تحدِّثُه نفسُه بأن يزاحِمَ «سيد أفندي» في رُكنه ، فإنَّ الرَّجُل كان موضعَ احترام الناس ، لِما تَميَّزَ به من شمائلَ رِقاقٍ ، ولِما عرفوه عنه من انتسابه إلى بيت كريم العُنصر ، وإن عَبِثَتْ به تصاريفُ الزمن الغَدور .

ينتسب « سيد أفندي » إلى أسرة لها في شئون التِّجارة قدمٌ راسخة ، وقد كان لِمَتْجَرِها في « الحمزاوي » صيت بعيد ، أيامَ كان « الحمزاوي » مِحْوَرَ التِّجارة في العاصمة .

على أن المَتْجَرَ جعل يتضاءَل ويَخبو على مرِّ الأيّام ، حتّى انتهى إلى « سيد أفندي » وهوَ في درَجة من الهُزال تُنذر بالزَّوال ، فلم يستطعْ « سيد أفندي » أن ينتشلَه مِمّا هُوَ فيه ، ورأى خيرًا له أن يتخلَّص منه بالبَيع ، وأن يَقْنَع بما بقيَ له من عَقار يُدِرُّ عليه ما يكفُل له عيشةً قانعة ، وييسِّرُ عليه أن يحيا في هُدوء وسكينة ، يَنعَم بذلك الرُّكن الطَّيب في « قهوة الأفندية » .

كان « سيدُ أفندي » يُوافي رُكْنه في الأصيل ، فلا يَريمه (١) إلا بعد أذان العشاء ، يقضي وقتَه في تَراخٍ وتثاؤب ، حتّى يهبِطَ عليه بعضُ السُّمّار ، فيطارِحهم لَغْوَ الحديث .

وفي أصيل يوم ، قَدِمَ « سيد أفندي » على القهوة، يَخُبُّ في جِلبابه الصوفيِّ البلديِّ ، متأبطًا رِزْمَةً من صُحُف اليوم ، وهو يُميل طربوشَه على فَوْدِه (٢) ، وسلك طريقه إلى ركنه ، وهو يحيِّي من يراه من الأصحاب ، تعلو فمَه ابتسامتُه المألوفة ، وإن كانت في هذه الساعة يمازِجُها لونٌ من التكلُّف ، ويغشاها ظِلٌّ من الكآبة والاغتِمام .

وما لبِثَ « سيد أفندي » أن اتخَذَ مجلسَه في رُكْنه المألوف ، ثم نادى فأوْصى بالشاي والنارجيلة ، وبسَط الصُّحُفَ يُحاول أن يُسَرِّيَ عن نفسِه بقِراءة الحوادِث والأخبار .

وهكذا شرع يُمارسُ ما ألِفَ من عملِه ، يَقْلِبُ صفحةً من أيّامه المتكرِّرَة المتشابهة .

وبينما هو يرْشُفُ من قَدح الشاي إذْ جاز به بائعُ أوراقِ النَّصيب ، ذلك الغلامُ المعهود في تلك البُقْعة ، فما إنِ اقترب منه يَعْرِض بين يديه أوراقه ، حتّى زَجَرَه « سيد أفندي » مُحْنَقَ النفس ، وهو يقول له :

« هل عَهِدتَني أشتري هذا الورقَ ؟ لِمَ تُضايقني ؟»

فقال له الغلام : « عندى أوراقُ ‹‹ جمعية الرفق بالإنسان ›› وهي جديرةٌ بالشِّراء ! الكَسْبُ ألفُ جُنَيْه . أوراقٌ مضمونة كالذهب !»

فازْوَرَّ عنه الرجلُ ، مُقَطِّبَ الجبين ، وهو يقول :

---

(١) يُبارحه . (٢) جانب الجبهة .

« إختَرْ غيري ، فألقِ على سمعه هذا الهُراء ! أغْرُبْ عن وجهي !»

وأقبل على قدح الشاي يترشّفُه ، وانثنى الغلامُ إلى رُفْقَةٍ عن كَثَبٍ من ذلك الرُّكن ، وجعل يُغريهم بقوله: « الكَسْب أَلْفُ جنيه ! لم تبقَ إلا ورقاتٌ ثلاثٌ . السَّحْب غداً . الورقةُ ثمنُها خمسةُ قروشٍ فَقَط . جَرِّبوا حظَّكُم قبل أن تَطير الفرصة !»

وطَفِق الرِّفاق يحاورون الغُلام ويفاكِهونه ، وهم يتداولون وَرَق النَّصيب ، والغلامُ مسترسِل في حَديثه، يلوكُ جملةَ الألفِ جنيهِ ، ويؤدِّيها على أوضاعٍ شتى .

وهَمَّ « سيد أفندي » بأن يَمْضيَ في قراءةِ صحيفة المَساء ، ولكنَّه ما أسرعَ أن طواها .

إن مبلَغَ الألفِ جنيهِ الَّذي يَرِنُّ به صوت الغلام قد غزا مناطِقَ تفكيرِه .

وضاقَ « سيد أفندي » ذَرْعًا بما يدور في مجلِس الرِّفاق من محاورات في شأن ورقِ النَّصيب ، فرماهم بنظرة تجلَّى فيها الاستخفافُ والإصْغار .

بَيْدَ أنَّه ، على الرَّغم من ذلك ، لم يلبَثْ أن تراءَتْ له في أفق خيالِهِ عشْرُ ورقات مالية تزهو بلونِها العُنّابيِّ ، وقد برز في كل ورقة منها رَقْمُ مائةِ جنيه !

لا أحَدَ يُنكر أن مبلَغ الألفِ جنيه مبلَغٌ جدير بالاعتبار ، به يَستطيع مأزومٌ أن يَخلُصَ من ضائقته مأزومٌ مثل « سيد أفندي » الَّذي تحاصِرُه أقساطٌ جاء أجلُها ، وهو اليوم يحمِلُها هموماً ثِقالاً .

وعادت يدُه تَنْساب إلى الصحيفة ، يحاول أن يَتَعلَّل بمطالعة ما فيها من أخبار .

وأحسَّ بأن جيرانه قد اشْتَرَوْا من ورق النصيب ، فمدَّ إليهم بصَره يتثبَّت ، وهو مُحْنَقٌ يهمهِمُ بالإزْراء ، فأقبل عليه في هذه اللَّحظة « متولي أفندي » ، وهو شابٌ موظَّف لامع الفِطنة ، ذَلِق اللِّسان ، يُحْسِنُ التحدُّث في شئون المجتمع المصريِّ .

وكان « سيد أفندي » يأنَس به ، على ما بينهما من اختلافٍ في المشاربِ والأذواق ، فما إن استقرَّ به المُقامُ حتّى هتف « سيد أفندي » بأحَدِ النُّدُلِ (١) يطلُب لجليسِه الشايَ .

ثم مال على متولي أفندي يقول له ، وهو يُشير إلى جيرانه : « عجبًا لأولئك ! يُنفقون أموالهم في هذه السَّخائف !»

فالتفت « متولي أفندي » حيث أشار رفيقه ، وما عتَّمَ أن أومأ إلى الغلام الَّذي يَبيع أوراق النصيب ، فدعاه إليه .

وزَوى « سيد أفندي » ما بين عينيه ، وهو يقول :

« ماذا أنت فاعلٌ ؟»

فابتسم « متولي أفندي » مُجيبًا بقوله :

« أجرِّب حظِّي .»

« لم أعهَدْك من أولئك النَّفَر الذين ينصاعون لِتلك الأضاليل !»

« حقا لستُ من مُدمِني شراء أوراق النَّصيب ، ولكنِّي أمتحن حظِّي بين حينٍ وحين .»

« وهل ظَفِرْتَ بكَسْب ؟»

« كسب غير قليل .»

وجاء الغلام طَلْقَ الأسارير ، متحمِّسًا في الإغراء بالشراء ، فاشترى « متولي أفندي » ورقة ، وما لبِثَ أن أودَعها جيبه .

فقال له « سيد أفندي » : « لقد أضعتَ نقودَك .»

« كلا ، لم أضِعْها . إذا لم أكْسِبْ فإني أعُدُّ تلك النقود تبرعًا مني لتلك الجمعية الَّتي تعمَل الخير .»

« كان أجملَ أن تتبرَّع بما تريدُ التبرعَ به للجمعية ، دون أن تشتريَ ورقًا .»

---

(١) جَمْعُ نادل ؛ وهو من يقوم على خدمة القوم في الأكل والشراب .

« ولكنّي إذْ أشتري الوَرَق أداعِبُ حظّي ، لَعلّه يستجيب .»

« إنها مقامرة ! ولا تنسَ أن المقامرةَ حرام !»

وكان الساقي قد أقبَل بصينية الشاي ، متبرجَة بأكوابِها الملوَّنة ، يتضوَّعُ منها العِطْر .

فَطَفِقَ « متولي أفندي » يملأُ قدحَه ، وهو يقول مبتسِمًا : « أنتَ تُلْقي القَول على عواهِنه (١) ، وما يجوز لك أن تُقْحِمَ التحريم والتحليل في مثل هذه الشئون ، فالمُعوَّل على النيّات ، وما دامت نيّاتُنا صافية ، وأغراضُنا شريفة ، فلا داعيَ إلى التعسير ، والدّينُ يُسْرٌ .»

وانثنى إلى قدحه يرْشُفُ منه ، ثم استأنف يقول :

« إنّي أومِنُ بهذه المؤسَّسات الخيريَّة الّتي تُصْدِر أوراقَ النَّصيب ، فهي قائمة على فكرة اجتماعية طريفة ، فكرة التعاون .»

فأرسَل « سيد أفندي » قهقَهَةً ساخِرة ، وهو يقول: « أيُّ تعاون هذا ؟»

« إنّه تعاون لا رَيْبَ فيه ، فهذه الجمعيّاتُ الخيريَّة الّتي تُصدِر ورق النَّصيب وتَعْرِضه للبيع ، والجمهور الّذي يشتري هذا الورق ، إنما يشتركان في إسعاد بعضِهم بعضًا ، ويتعاونانِ على أن يتبادلا نفعًا وَجَدْوى . أنا إن ربحتُ مبلغَ الألف جنيه الذي أنا أحوجُ ما أكون إليه لِتَحسين حالي ، فكأنَّ هذا المبلغ اكتتبَ به لي أولئك الذين اشْتَروا الأوراقَ ، دون أن يلحَقَهم في ذلك رَهَقٌ ولا إعنات .»

« هيهاتَ لك ، يا «« متولي أفندي »» ، أن تُقْنِعني بهذه الفلسَفة العَرْجاء ! إنّي مقتَنع بأن فكرة ورق النصيب لا تَعدو أن تكون احتيالاً .»

« سَمِّها ما شئت . قل إنَّها احتيال ! ولكنّه احتيال شريف ، احتِيالٌ مفيد !»

(١) ألقى الكلام على عواهنه : قاله من غير فكر أو رويَّة .

فصاح « سيد أفندي » : « أ ثَمَّةَ نوعانِ من الاحتيال ؟ الاحتيال هو الاحتيال ... شرٌّ كلّه !»

فابتسم « متولي أفندي » ، ونظر إلى صديقه نظرَةَ إشفاق ، ثم قال : « أ لم يَسْبِقْ لك أنِ اشتريتَ يومًا ورقة نَصيب ؟»

« كلا . وهل أنا مخبولٌ حتّى أجازفَ بمالي فيما لا ينفع ؟»

فَرَبَّتَ « متولي أفندي » كتفَه قائلاً : « هذا عيبُك !»

« أ تُسمّي هذا عيبًا ؟»

« أنتَ رجل هَيّاب . عيبُكَ الكبيرُ هو أنّك تُجْفِلُ من المغامرة .»

« إني بحالي هذا لَجِدُّ سعيد .»

« أنت تغالطُ نفسَك. لستَ بحالكَ سعيدًا. لو كنتَ غامَرْت في حياتك شيئًا لكنتَ اليوم أسعدَ حالاً .»

« المغامرة نَذيرُ الخراب .»

« من لا يغامِرُ في الحياة ، يا صديقي ، لا يشق أفُقًا . اعترفْ لي : أ زاد دَخْلُك منذ قمتَ على مالك ؟»

فَأُرْتِجَ (٢) على « سيد أفندي » ، وزاغ بصره وراح يهمهِمُ في اختلاط . و واصَل « متولي أفندي قوله :

« سأجيب بلسانك : النفقات تزدادُ ، ورأسُ المال يتناقص . ولوكنتَ على نقيضِ ما أنت عليه ؛ لجعلتَ من مَتْجَرِك القديم مَتْجرًا يستردُّ مكانَته ويزهو في عهد جديد .»

فشملَ « سيد أفندي » صمتٌ وسُهوم ، وحاصَره انقباض ، وغمغم: « الحمد لله على كل شيء ! أنا راضٍ

(٢) حارَ واستُغلِقَ عليه الأمرُ .

بحالي !»

« القناعة ... تقصِد القناعة ... ما أقساها من فضيلة!»

فحملق « سيد أفندي » في وجه جليسهِ ، وهو لا يدري : أ مُعْجَبٌ هو بقوله ، أم ناقم عليه ؟

ولم يلبَثْ أن همهم : « دَعْنا من هذا الحديث !»

وأقبل على المجلس بعضُ الخُلان ، فخاض الرفاق في أحاديثَ شتّى ، لم يشترك فيها « سيد أفندي » إلا بقَدَر ، وكان يبدو كأنّه شارد الخاطر ، مشغولُ الفكر بطارئ من الأمر .

ولَمّا انقضت جَلسة العَشيّة نهض الرجل متثاقِلَ الخُطا ، يَؤُمُّ دارَه . واستقبلتْهُ ساحَةُ « الحُسَيْن » يسير الهُوَيْنى ، وقد ذهب به التفكير كلَّ مَذْهب .

أ تُراه حقا قد أضاع فُرَصًا ما كانت لتَضيعَ لو غامر وخاطر ؟

إنه لَيتمثّل حانوتَه الصغيرَ ، ذلك الّذي جرَّ عليه الزّمن ذيلَ العَفاء ، وقد غدا متجرًا كبيرًا ، تسطَع على جَبينه الأنوارُ الكهرَبائية السيّالة ، وبين قاعاته يموج الناسُ موجًا ، وأمام الخِزانة تتدفّق الأموال ، لا يَنْضُب لها مَعين . فأمّا هو فإنّه يحيا في رَخاء وتَرَف ، لا تقتيرَ ولا حِساب ، ولا مأزِقَ كالّذي يعانيه اليومَ ، ينغّص عليه عيشه ، ويُسلِمُه إلى غَمٍّ وقُنوط .

وتابع السير ، وإذا بعينيه تتصيّدان كومَةً على الطّوار (١) ، وإذا هي غلامُ أوراق النصيب ، يُهَوِّم برأسه ، فألفى « سيد أفندي » قدميه تتمهّلان ، ونظَره لا يبرَح الطّوار .

وشعر الغلام بأن شخصًا عن كَثَب منه ، فانفتَل قائمًا ، ينفُضُ عنه فُتورَ المنام ، وأقبل على « سيد أفندي » يعالجُ القولَ في حَذَر ، ويُدْني منه ورقة في يده :

« إنها آخر ورقة ، ليس معي سِواها . الحظُّ من نصيبك حتمًا . خمسَةُ قروشٍ تُعطيك ألفَ جنيه !»

وتَريَّثَ « سيد أفندي » يتأمّل الورقة في يدِ الغلام ، فرأى الغلامُ في ذلك ما يُشجّعه على التقدّم والمَزيد منَ القول والإغراء .

وألفى « سيد أفندي » يدَه تَدْلِف إلى جيبه ، وتَخْرُجُ بخمسة قروشٍ ، وسَرعان ما دسَّها في يد الغلام ، واجتذب منه الورقة ، وهو يُجمجم :

« لولا ما أنتَ فيه من فَقْر ومَسْكنَة لَمّا اشتريتُ الورقة منك . فَلْيكنْ هذا المبلغ مِنْحَة لوجه الله !»

وطوى الورقة ، ثم غَيّبها في جيبه ، واستأنَف سَيره ، حثيثةً خُطاهُ .

وما إن احتلّتْ هذه الورقةُ السِّحْرية جيبَ « سيد أفندي » حتى تبدلّت حالُه .

قلَقٌ طارئ .

ذهنٌ شَرود .

الأوراق العنّابيّة تتراقص أخيلَتُها قُبالَةَ عينيه .

نوباتٌ تتوارد من تبكيت الضّمير .

كيف سَوَّغَتْ له نفسُه أن يمدَّ يده إلى هذه المقامَرة النّكراء ؟

وآلى على نفسه لَيُمَزِّقَنَّ الورقةَ شرَّ ممزَّق ، ولكنّه لم يملِكْ أن يفعل .

وما إن بلغ داره واستقرَّ به المُقام ، حتّى قُرِّب إليه الطعام ، ولكنّه لم يجد من شَهيّته إقبالاً ، فلم يُصِبْ منه إلا قليلاً .

وأوى إلى فراشه ، يطلُب النّوم ، فكأنّما كانت في انتِظاره عجائب أطيافٍ ، وأضغاثُ أحلام .

كومات منَ الأوراق المالية مكدّسٌ بعضُها فوق بعض ، تُحْدِقُ بها ألسنة من لَهَب ، وهو يحاول أن يقتحِمَ سِياجَ النار ، ليُنْجِيَ الأوراق من الحريق المحتوم ،

---

(١) الطّوار : الرَّصيف .

فلا يستطيع !

وقضى الرجل ليلةً ليلاءَ ، جثَمتْ فيها على صدره هموم ثقالٌ .

وانتبه من نومه صُبْحًا ، فأسرع إلى الطريق .

وأمضى سُوَيْعاتِ الضُّحا يتنقَّلُ بين المتاجر ، يزور عارفيه ، كأنَّما يَهْرُبُ من يومه ، ويتعجَّلُ غدَه ، فهو يلتمِسُ إزجاءَ الوقتِ بكلِّ سبيل .

وكان لا يفتأ يسألُ في مُساتَرةٍ ولَباقة عن موعد إعلان النتيجة ، في شأن أوراق النصيب ، ويَتَعرَّف المكان الَّذي يُستَقى منه الخبر اليقين . وقد ألْفى خُطاهُ تنفرط إلى هذا المكان ، فوقف يرقُبه عن كثَب منه ، فإذا به أمامَ ظُلَّة وضيعة فيها مِنْضَدَة مُلِئَتْ أوراقًا ، وقد انكبَّ عليها رجل هزيل نحيل ، أكبر ما فيه أنفٌ يتدلّى عابثًا بهذه الأوراق .

وفي صَحْوَةِ غَدِه قَدِمَ على تلك الظُّلَّة ، ومَثَلَ أمام الأنف المتدلّي ، وهو مهتاجُ النفس ، لا يَمْلِكُ لأوصالهِ من قَرار .

وتثاقلَتِ الدقائقُ في سيرها ، و« سيد أفندي » ماثل ينتظر .

وأخيرًا تَسلَّم كَشْفَ الأرقام ، راجفَ الأصابع ، زائغَ النظراتِ .

وبعد مراجعة وتحقيق ، أيقنَ « سيد أفندي » أنه قد خَسِر قروشه الخمسة .

فترك الظُّلَّة ساهمًا يجفِّف عرقه ، ولكنه أحسَّ طارئًا منَ الراحة يسري بين جوانحه — راحة الخلاص من تلك الحَيرة وذلك القلق ، راحة الوُصول إلى رأي حاسم بين مُختلِف الظُّنون والأوهام .

وتراءت على مُحَيّاهُ ابتسامَة . ما كان أعجبَها مغامَرةً سخيفة ، نقلَتْه يومًا وبعضَ يوم من هدوء وطُمأنينة إلى جحيم من القلق والاضطراب !

إنها جحيم حقا ، ولكنَّه لا يستطيع أن يُنكِر ما لهذا الجحيم من طَرافة ، وما فيها من خروج على الرّاتب المألوف ، الَّذي يَتَمَثَّلُ فيه الجُمود والخمول .

وألفى نفسه يُطْلِقُ ضِحْكَةً عالِيَة ، وهو يدفَع بقدَمَيه في الطَّريق .

وفيما هو يسير لَمحتْ عيناه بعضَ مَن يطالبونه بالدُّيون ، فتنكَّبَ عن طريقهم ، وتجنَّب لِقاءهم ، وظَفِر بالفِرار .

لو كان الحظُّ قد واتاه لأخْرسَ هؤلاء المتبجِّحين، ولَرفع رأسه أمامهم عاليًا غيرَ صاغرٍ ولا هَيوب .

ولكن هذه الأوراق العَنّابيَّة المنشودة طارَت من أُفُق خيالِه ، وخلَّفَته رهينَ ضائِقَته ، لا يجِد منها بَراحًا.

مهما يكنْ من أمر ، فقد أبى الله له أن يكون تفريجُ ضائقتِه بوَسيلة بغيضَة ، ليست إلا ضَرْبًا من احْتِيالٍ مشروع !

وجاء الأصيل ، فعجَّلَ « سيد أفندي » إلى رُكنه في « قهوة الأفنديَّة » ، على مألوف عادتِه ، وفجأةً علَتْ ضجةٌ من حوله ، وما أسرع ما استبانَ له أن أحدَ رُوّاد القَهوة هو الذي ظَفَرَ بالغنيمة من ورق النصيب !

وشعَرَ « سيد أفندي » بضيق ، وألفى نفسه يُهمهم : « هذا كَسبٌ حرام ! لا يُبارِك الله فيه ! لقد حماني الله منه ! »

وما هي إلا أن وافى القهوة « متولي أفندي » ، فأقبلَ على جَليسه جيّاشَ الخاطِر ، قائلاً :

« هأنتَ ذا ترى كيف ربح جارُنا ورقة النصيب وظَفِرَ بالغُنْمِ العظيم ! لو كنتَ لَنُصحي سَميعًا لكان الرِّبحُ منك دانيَ المَنال ! »

فبادره « سيد أفندي » بقوله : « هل لكَ في أن نَلْعب بالنَّرْد ؟ هذا خير لنا من لَغْوِ القول ! »

وشرعا يلعَبان . ولم يَغِبْ عن فِطنة « متولي أفندي »

أن جليسَه يتابعُ اللَّعِبَ على مَضَضٍ وتكلُّف ، فصاح به :

« أقترح أن نلعَبَ على رِهان ، ولتكنِ الرِّهانُ قليلاً من النقود ؛ حتى لا يكونَ اللعب فاتراً كَسولاً. نحن نلعَب إيقاظًا للمشاعر ، وإثارة للنفس ، ولا يتم ذلك إلا حينَ يكونُ لِلَّعب غَرَضٌ ، وللغَلَبةِ غُنْم . »

فرفع « سيد أفندي » يده قائلاً : « هيهاتَ لي أن ألاعِبَك على نقود مهما تكنْ قلائل ! »

قال الرجل ذلك ، وقد طاف بمخيِّلَتِهِ ذلك الإحساسُ الَّذي استبدَّ به وقتًا عصيبًا ، منذ الساعة التي اشترى فيها ورقة النصيب ، إلى اللَّحظة التي عرَف فيها أنه لم يظفرْ بشيء .

لقدْ قضى هذا الوقتَ في ثورة نفسيَّة عارِمة ، شدَّ ما أتْعَبَته ، ولكنَّه على الرَّغم من ذلكِ يعترِف بأنَّها أهدت إليه نَشْوَةً ليس له بها عهد — نشوةَ اليقظة والاهتياج !

وانفضَّ مجلِسُ العَشيَّة ، فترك « سيد أفندي » القهوة ، ولَمَّا جازَ بذلك الجارِ المحظوظ ، الَّذي كان له الظفَر بالورقة الرابحة ، رَمقَهُ بنظرة شَزْراءَ .

وترادَفَتِ الأيّام على « سيد أفندي » أشبَهَ ما تكون بكِتاب يقلِّب من صفحاته المتكرِّرَة المعادَة ، لا جديدَ فيها إلا اشتدادُ الضائقة المالية به ، واجتماعُ الدّائنين عليه ، وتهديدُهم إيّاهُ باتخاذ إجراءاتِ الحَجْز والتَّنفيذ.

ويومًا لاح في القهوة غلامُ النَّصيب يحمِل رِزْمَةً جديدة منَ الورق لموعِدٍ جديد ، وهو يتغنَّى بالأرباحِ والغنائم ؛ إغراءً للرُّوّادِ بالشِّراء .

وجاز الغلام « بسيد أفندي » في ركنه المعهود ، فما كاد يُدانيه ويَبسُط أمامَه الأوراق ، حتّى وجد « سيد أفندي » نفسَه يمدُّ يده إلى العَصا ؛ متوعِّدًا بها ذلك الغلامَ الجريءَ المِلْحاح ! فقفز الغلام لائذًا بالهَرَب ، ولكن « سيد أفندي » جعل يتابِعُه بنظره ، وهو يتنقَّل في أرجاء القهوة ، يوزِّع الورقَ ، ويقبض النُّقود . وكان « سيد أفندي » في أثناء ذلك مكتَئِبَ النَّفس ، عَبوسَ الأسارير .

وانقضَتِ السَّهرة ، وابتغى « سيد أفندي » دارَه ، وهو يجرُّ قدميه ، ويغالِب في نفسِه طارِئًا منَ المشاعر .

وما إن شارَف الدّارَ حتّى ألفى نفسَه يعود أدراجَه ، وهو يحدِّث نفسَه بأن يقصِدَ مسجدَ « الحُسَيْن » ، يؤدّي صلاةَ العشاء .

ولبِثَ يجتابُ مِنْطَقَةَ المسجد ، كأنَّه يبحَث عن شيء .

وأخيرًا وقع بصرُه على الكُومَة بجوارِ حائطٍ ، فتلكَّأ في سَيره ، وجعَل يتنحنَح .

وتمخَّضَتِ الكومَة عنِ الغُلام ناهضًا يداعبه الأملُ في بَيْع ورقة مما يحمِل ، وتقدَّم حَذِرَ الخُطوات ، وقد بسَط الأوراق أمام « سيد أفندي » فاجتذَب منها ورقة، وقذَف بالنُّقوذ في وجه الغُلام ، ثم حثَّ خُطاهُ إلى البيت لا يَلْوي على شيء .

إنه لَيَعْجَبُ لِذلك الباعثِ الجديد الَّذي ملَكَ عليه أقطارَ نفسه .

إنه ليُحِسُّ هَيْجَةً منَ الطرب تملأ ما بين جوانحه .

إنه لَيُقْبِلُ على الطعامِ في شَهِيَّة ، ويلاعِبُ أطفالَه على المائدة في رَحابة صَدْر .

وانقضَت ليلتُه ، والأوراق العُنّابِيَّة العشْر ، تتراقَص في خاطره ، مختلِفَةَ الأشكال والأوضاع .

وتواردَت أيامٌ على الرَّجل ، وهو يترقَّب اليومَ ، يومَ إعلان الأرقام الرابحة من أوراق النصيب .

وضَحْوَةَ ألفى نفسَه عند الظُّلَّة المعهودة ، ماثلاً تُجاه الأنف المتدلّي ، وتناول كَشْف الأرقام ، وأقبلَ يستجلي حَظَّه المَطْوِيَّ .

و واجهه ، أوَّلَ ما واجهه ، رَقْمُ الورقة التي

يملكُها !.

إنه في رأسِ القائمة !

لا يكاد يُصدِّق !

ونظر إلى الورقة في إحدى يديه بجُمْعِ عينيه ، والتفت إلى الكشْف يقابِل الرَّقْم ، وهو يحِسُّ بأن قلبَه موشكٌ أن يَطْفِرَ من بين الضُّلوع .

ونَدَّت مِنْه صَرْخة ، وكادَ يتهاوى ، لولا أنَّه تَمالكَ ، واعتمد على إحْدى قوائم الظُّلَّة .

وصاحَ بالأنف المتدلّي ، وبمَنِ اجتمع حول الظُّلَّة منَ الناس ، قائلاً :

« أنا صاحب الرَّقْم الرَّابح ! أنا رابح الورقة الأولى !»

ونهض ذو الأنف المتدلّي من فوره يرحِّب بالمحظوظ السَّعيد ، وسَرعان ما قدَّم له مَقعداً ، وهو يُميطُ عنه الغُبار .

وتحرَّكت يداه يصفِّق ، وجأرَ منادياً غُلامَ القَهوة المجاورَة ، لِيُحْضِرَ لِلضَّيْف الكريم ما يروقُه .

وهدأتِ الثَّوْرة في نفس « سيد أفندي » ومَلكَ زِمامَ أمره ، فانكشف له أنه فَرَطَتْ منه هَناتٌ لا تليق به أمام ذلك الجمع ، الَّذي تكاثَر عليه حين انطلقَ صوتُه .

وأخذ صاحِبُ الأنف المتدلّي يشرح لِضَيْفه كيف السبيلُ إلى تَسليم الوَرَقة الرَّابحة ، وكيف الحصولُ على ما غَنِمَتْ من مال .

وما لبِث أن اتَّفق مع ضَيْفِهِ على أن يرافِقَه ، لينفَعه بخبرته وتجربته في تيسير الإجراءات . ولم ينسَ أن يذكِّر صاحِبَه ، في ملاطَفة وملاينة ، بما هو أهلٌ له من مِنْحَة طيبة سخية .

وانصرف « سيد أفندي » في مَعيَّةِ الرَّجل ، ورأسه كأنه أتون يتأجَّج .

انقطع « سيد أفندي » عن القهوة أياماً ، فعكَف على اتِّخاذ الخُطط ورسْم البرامج ، وهو لا يفتأ يَعُدُّ الأوراق الماليَّة في صباح ومساء .

وتسامعَ الناسُ بنبأ هذا الكَسْبِ الذي أصابه الرجل، فزاره صديقه الحميم « متولي أفندي » ، وهنَّأه عَلى جُرأته ، وجعل يُدلُّ عليه بأنه هو الذي شجَّعه على المغامَرة والاقتحام ، فأكَّد له « سيد أفندي » أن الأمر لا يعدو أن يكون تدبيراً منَ الأقدار ، ليسَ لأحدٍ فيه إصْبَع ، وأنه سوفَ يُنفِق هذا المال الجديد في وجوه البرِّ والخير .

وكان « سيد أفندي » بعد ذلك لا يكاد يجلِس في ركنه منَ القهوة ، حتّى يتهافَتَ عليه غِلْمان أوراق النَّصيب ، يَعْرِضون ما عِنْدَهم من مختلف الأصناف ، فلا يردُّهمُ الرَّجُل ، بل يأنَسُ بهم ، ويَبَشُّ [1] في وجوههم ، ويجاذبهم أشتاتَ الأحاديث ، ثم يشتري ممّا يعرِضونه مَثْنى وثُلاثَ ورُباعَ !

وطال تَرْداد « سيد أفندي » إلى الظُّلَّة المعهودة العامرة بالأنف المتدلّي ، يتعرَّف الأرقامَ الرَّابحة ، ويتفهَّم دَخائل الجهاتِ الَّتي تُصدِر أوراقَ النَّصيب ، حتّى أصبح بَصيراً بهذه الشئون ، وصارتِ الظُّلَّة مَثابةً حبيبةً إليه ، يستجيب لها ما وسِعَه أن يستجيب .

وعاش « سيد أفندي » هذه الحِقْبَةَ من حياته تَسري فيه نشوة الترقُّب ، وتعتلج بين جوانحِه حَمِيَّةُ الانتظارِ ، فلم يَعُدِ النَّهارُ يمرُّ به طويلَ الذيول ، ضافيَ الساعات ، يقضيه في تثاؤبٍ وتراخ .

وكان من تدبير القَدَر الخَفِيِّ أن يستلينَ الحظُّ « لسيد أفندي » وأن يألفَه ، فواتاه في الفَينة بعد الفينة بكَسْبٍ تفاوَتَ قِلَّةً وكثرة ، ثم سَخا له يوماً بِغُنْم ليس باليسير ، فأمِنَ الرجل بحظِّه ، وتوضَّح له بذلك منهاجٌ في الحياة جديد .

ما أعجبَ أسرارَ القَدَر !

---

(١) يتهلل .

أ تُراه قد رتَّبَ « لسيد أفندي » تلك المصادفات ، لِيَنْهجَ به مَسْلكًا معيَّنًا ينتهي به إلى غاية مرسومة ؟

وشوهدَ الرَّجل بعد ذلك لا يلعَب النَّرْدَ مع صديقه « متولي أفندي » ، إلا على رِهان موفورة .

يا لها من جَلَسات صاخبة حامية !

إن « سيد أفندي » ، في تلك الجلسات ، غيرُه بالأمْس .

لقد ودَّع السَّكينة والهُدوء ، وأصبحَ الآن يرقُب اللَّعب بعينٍ متنمِّرة ، و وجهٍ متقلِّص ، وأوصالٍ مستوفزَة .

ولم تَلبَثْ تلك الجَلسات أنِ اجتذبتْ إليها أنظارَ رُوَّاد القهوة ، وأصبحَت ذائعة الصيت ، مشهوداً لها بعُلُوِّ الشأن .

ولم يكن بُدٌّ من أن تَزدادَ الحِدَّةُ بين الصَّديقين فَرَسي الرِّهان حَوْلَ مِنْضدة اللعب ، وأن تنقَلِب إلى ضَراوة وشراسة ، أعقبَتْها عَداوة وشَحناء ، فإذا الصديقانِ يفترقانِ إلى غير مُلْتَقًى !

وتضرَّمَتْ مشاعرُ « سيد أفندي » ؛ فطلبتِ المَزيدَ من الوَقُود .

إن تلك المشاعرَ التي لبِثَتْ دَهْرًا طويلاً تحت أثقال السُّبات والخُمول ، تعاني الكَبْت والضَّغط ، لم تكدْ تُحِسُّ الفُرْجَةَ من هذا الضَّيق ، حتَّى انطلَقَت وقد استبدَّ بها السُّعار .

لا غَرْوَ – إذن – أن يأخُذَ « سيد أفندي » طريقَه إلى ساحات السِّباق ، يصول فيها ويجول .

وتفتَّقت فطنتُه ، وتوهَّجتْ بصيرته ، فما أسرعَ أن أصبحتْ له خبرةٌ لا تعدلُها خبرةٌ في شئون السِّباق ، وبرزت شخصيَّته بين قُصَّاد هذه المجامع ، فصار فيها عَلَمًا من الأعلام .

ولم يكترثْ « سيد أفندي » بما يَظْفَر به من كَسْب ، وما يُمْنى به من خسار . كانتِ النُّقود في حَرَكة دائبة من يده إلى جيبه ، ومن جيبه إلى يده ، لا يَقَرُّ لها قرار .

وعلى الرَّغم من أن الأوراقَ المالية كانت كثيرةَ الانسياب بين يديه ، فإنَّه كان يُحِسُّ أثقال الدُّيون تتعاقَب على كاهِله ، بيد أنَّه لم يكن يَجِدُ لِذلك في نفسه كبيرَ اهتمام .

إنه في شغلٍ شاغِل بهذه الحياة الصاخِبة ، الزَّاخرة بألوان المُضارَبات الَّتي تثير المشاعِرَ ، فهو يمارِسُ أنواعَها وضروبَها ما وجَدَ إلى ذلك السبيل .

ومِنْ ثَمَّ لم يكن بُدٌّ من أن تتقاذَفَه أنديَةُ القِمار ، وأن يقضيَ حولَ مناضِدِها لياليَهُ ، ولا يتركَها إلا وقد أحسَّ وطأة التَّعب تَنْهَكُ أعصابه ، وتفتِّتُ أوصاله .

شَدَّ ما دَفعتِ الأقدارُ « بِسيد أفندي » في ذلك التَّيار الجارف !

إنَّها لتقذِفُ به في تلك الموجة الدَّوَّامة ، فهو يدورُ فيها ولا يفتأ يدور ، ولا يعرِف لِدَوْراته مُنْتهًى ، ولا يرى أمامَ عينيه شاطئَ خلاص !

أ كان في مُستطاع « سيد أفندي » – وهو رَهينُ ذلك التيَّار العارِمِ الفوَّار – أن يستنقِذَ لِنَفْسه أثارَةً (١) من شمائله الغابِرة – شمائلِ الدَّعَة ودَماثة الطبع ؟

لقد أصبَح الرَّجل اليومَ شديدَ المِراس ، حديد المِزاج ، سريع الغَضب ، غليظَ القول ، حتَّى في مَعارِضِ الدُّعابة والمُزاح .

وليلةً ، وهو يقْظانُ يلعَب في نادٍ من أندية القمار ، شربَ حتَّى أثقَلَ ، وملكَته نَوْبَةُ اللَّعب ، فهاج وماج ، وجَعل يَشْغَب على الرِّفاق ، وكان من جَرَّاء ذلك أن قامَت معركة بينه وبين غَريم له ، وإذا بِـ « سيد أفندي » يقذِفُه بزجاجة شَجَّتْ رأسَه .

---

(١) بقية الشيء .

وبات « سيد أفندي » في المَحْبِس بقيَّةَ ليلَته ، وأتاه النَّبأ صُبْحًا بأن غريمَه قد أوْدَتْ به جِراحُه .

وبدأ الرجل طَوْرًا جديدًا من أطوار حياته .

عَشَرَةُ أعوامٍ قضاها حَليفَ السُّجون ، عشيرَ الجُناة الآثمين .

وَصَدَرَ عَنِ السِّجن ، بعد أن عَلِقَتْ بنفسِه أدرانُ الإجرام .

ولعلَّك أن تزورَ يومًا منْطَقَةَ « الحُسَيْن » ، وينتهِيَ بك المَطافُ إلى « قهوة الأفندية » . ولو فعلتَ لَما أخطأ بصرُك رجلاً باديَ الزِّرايةِ ، وَضيعَ الملبَس ، يُقَلِّبُ في الناس نظراتٍ كابِيَةً (١) شَعْثاءَ (٢) . ولكن لا يُعْييك أن تستجليَ تحت سِمات هذا الرَّجل أنقاضَ نِعْمة غابرة ، وبَصيص كَرامة غارِبَة !

إنه ليَسوقُ رِجْليه سَوْقًا ، يمسَح أنفَه بظَهْر يده ، وهو يجوس خِلال المناضِدِ ، يبسُط رِزْمةً من أوراق النَّصيب ، مُشيدًا بما تُفيئُه على النّاس من فضْلٍ عظيم ، وخيرٍ عميم !

فإذا ما كلَّتْ قدماهُ عن السَّعي ، وجَفَّ حلقُه من المناداة ، انتحى على الطُّوارِ ناحيةً ، عن كَثَبٍ من القهوة ، وتجمَّع بعضُه على بعض ، واعتمد بظَهره على الحائط ، وألقى نظراتِه تَسْرُبُ إلى ذلك الرُّكن العتيد الَّذي كان مثابَتَهُ المُختارةَ بالأمس .

ولا يلبَثُ فمُه أن ينفَرِجَ عن ابتسامَةٍ شاحبة ، تنقلُه إلى عالم الذِّكريات .

ثم إذا برأسِه يُهَوِّم ، وبجفنَيْه يتراخَيانِ !

(١) مُتغيِّرة ، مُغبرَّة . (٢) متفرِّقة .

محمود تيمور

نداء المجهول : تتخذ مسرحها جبل لبنان ، و تصور نداء المجهول في كل نفس بشرية ، حيث مسعاها في دنيا الواقع ، فاندفعت بكل طاقتها وراء المجهول ، لعله أن يعوضها عما ضاع من مأمول .

سلوى في مهب الريح : تستقي ثراءها من صميم البيئة ، و تتجاورها لتبرز فلسفة الصراع بين ماض محتشم و حاضر فياض بألوان من الحضارات ، و تحدد موقف المرء في برزخه بين الحياتين .

إحسان لله: مجموعة قصصية : تتنامى فيها الواقعية الفنية ، التي تصور نماذج بشرية ، تعمد إلى تحليلها ، والكشف عن صراعاتها ، و إبراز الواقع الاجتماعي من خلالها .

كل عام و أنتم بخير : مجموعة قصصية تتكئ على الأساطير ، و تتخذ منها وسائط تعبيرية ، ترمي إلى سبر أغوار النفس البشرية ، والكشف عن دخائلها .

الصفوة

مصطفى لطفي المنفلوطي :
النظرات — العبرات — الفضيلة

ثروت أباظة :
هارب من الأيام — شيء من الخوف — قصر على النيل — نقوش من ذهب ونحاس

جبران خليل جبران :
النبي — رمل و زبد — الأرواح المتمردة
الأجنحة المتكسرة

أحمد شوقي :
قمبيز — مصرع كليوباترا — عنترة
مجنون ليلى

مصطفى صادق الرافعي
رسائل الأحزان — السحاب الأحمر
أوراق الورد

يطلب من : شركة أبو الهول للنشر

٣ شارع شواربي بالقاهرة ت : ٣٩٣٥٦٠٨ ـ ٣٩٢٤٦١٦
١٢٧ طريق الحرية (فؤاد سابقاً) الشلالات ، الأسكندرية ت : ٤٩٢٤٨٣٩